الدرويش والموت

تأليف : ميشا سليموفيتش
ترجمة : د. حسين عبد اللطيف
أحمد سمايلوفيتش



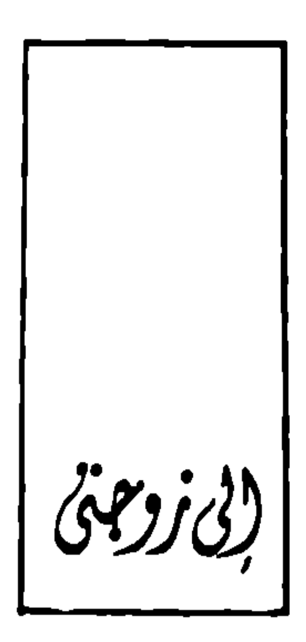
الدرويش والموت

تأليف : ميشا سليموفيتش
ترجمة : الدكتور حسين عبد اللطيف
وأحمد سمايلوفيتش

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

إهداء



القسم الأول

١

« بسم الله الرحمن الرحيم

ن • والقلم وما يسطرون •

والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى •

والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها •

لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة •

والعصر ان الانسان لفى خسر • »

أبدأ قصتي هذه دون نظر الى شيء ودون قصد الى كسب لنفسى أو للآخرين ، وانما لحاجة اعظم من الكسب وأسمى من العقل ؛ وهى أن تبقى لى هذه القصـــة التى كتبتها بيدى ، مصــورة ما دار بينى وبين نفسى من حوار مرير ، مع أمل بعيد في أن أجد بعض الحلول بعد أن يسوى الحساب ان كان هناك حساب •

عندما أترك أثر المداد على هــذه الصفحات التى تنتظر كأنها منبع للاثارة أو مظهر للتحدى ، لا أدرى ما الذى سيكون مسجلا عليها ، ولكن سيبقى فى أشكال الحروف شيء مما كان فى نفسى ولن يتبدد فى أمواج الضباب كأنه لم يكن شيئا أو كأنى لم أدر ماذا كان •

هكذا ساستطيع ان ارى نفسى على أى نحو أعيش • انه لعجيب اننى لا أعرف هذا • كما يبدو لى عجيبا أننى لم أكن دائما كما انا الآن ! هأنذا أدرك اننى أكتب كتابة رديئة متشابكة ، فيداى الآن ترتجفان من أجل المحاكمة التى سأبتدؤها والتى سأكون فيها كل شيء : القـــاضى والشاهد والمتهم • وسوف أمثل دور كل بأمانة على قدر استطاعتى أو استطاعة أى شخص آخر ، لأننى أبدأ بالشك فى أن الصدق والأمانة شيء

واحد . ان الصدق هو الايمان باننا نقول الحقيقة ، ومن توفر فيه هذا فهو مؤمن ؛ واما الأمانة فهي متعددة وبعضها قد لا يتفق مع بعضها الآخر .

اسمي أحمد نور الدين . أطلقوا على هذا الاسم وحملته مزهوا ، وانني الآن وبعد أن مضت سنوات طويلة تلتصق بنفسي كما يلتصق بي جلدي ؛ افكر فيه متعجبا احيانا وضاحكا أخرى ، لأن « نور الدين » ذلك الاسم الذي حملته معناه الفخر وانا الآن أخجل من هذا الاسم الذي يحمل هذا المعنى . كيف آكون نورا ؟ وبم أكون مضيئا ؟ بالعلم ؟ بالمواهب اللدنية ؟ بالقلب الطاهر ؟ بالطريق المستقيم ؟ بعدم الشك ؟ كل هذا يدعو الى التساؤل .

وأنا الآن احمد فقط ، لست شيخا ولا نور الدين . كل شيء قد سقط عني كما يسقط الثوب او الدرع وبقي ما كان قبل : جلد دون ساتر ورجل عار .

انني أبلغ من العمر أربعين عاما ، وهذه الفترة من السن عصيبة فالرجل فيها صغير السن بالنسبة لرغباته ، كبير السن بالنسبة لتحقيقها. وكل شخص في هذه الفترة ينشد التغلب على قلقه بأن يصبح قويا بفضل ممارسته للحياة وبأن يحصن نفسه بالنسبة لما تاتي به الحياة مما لا طاقة له به . وهانا ابدأ الآن بفعل ما كان يجب فعله منذ زمن بعيد ، منذ كنت في ريعان الشباب ، عندما كانت الطرق التي لا حصر لها تبدو جميعها جميلة رائعة ، والخرافات بأسرها تبدو مفيدة بالقدر الذي تبدو لنا به الحقائق . وا أسفي لعدم بلوغي عشر سنوات أكثر من سني حتى يحفظني الكبر مما يضطرم في نفسي من ثورات ، او لعدم كوني في سن أقل عشر سنوات حتى يكون كل شيء عندي على حد سواء . لأن سن الثلاثين هو سن الشباب ، هكذا أفكر الآن ، عندما اصبح من المتعذر أن أعود الى ذلك السن ، سن الشباب الذي لا يخشى شيئا ولا يبالي باندفاعاته وسورته .

كنت قد كتبت كلمة عجيبة : ثورة . وأوقفت قلمي على الصحيفة حيث بقيت منقوشة عليها فكرة لم تنضج بعد مرت بخاطري عفوا . وكانت هذه أول مرة اطلق فيها هذا الاسم على ما اعانيه من ضيق . ولم يكن قد دار بخلدي هذا الاسم قبل . ولم أكن قد دعوت ما أحسه من

ضيق بهذا الاسم . من أين جاءت هذه الكلمة الخطيرة ، وهل هي كلمة فحسب ، وساءلت نفسي أليس من الأفضل أن أكف عن هذه الكتابة حتى لا يصبح ما أعاني منه في وضع أصعب مما هو عليه الآن . اذا كانت هذه الكتابة تنتزع مني بطرق مبهمة ما لم أرد قوله ، وما ليس بأفكاري ، أو ما قد يكون لدى من فكرة غامضة اختفت في ظلام نفسي وسيطر عليها القلق والاضطراب ؛ وكان شعوري لا يطيعني في الكف عن الكتابة – اذا كان الأمر هكذا فالكتابة في هذه الحالة تعد اجراء قاسيا لانتزاع الحقيقة وعملا من أعمال الردة . ولعله كان من الأجدر ان ينكسر طرف القلم الذي حدد بمهارة فائقة وأن ينسكب المداد على البلاط أمام التكية لتذكرني بقعته السوداء بألا احاول أن أقرب السحر الذي يوقظ الأرواح الشريرة. ثورة ! هل هي كلمة فحسب أم هي فكرة ؟ ان كانت فكرة فهي فكرتي وقد تكون خرافتي . وويل لي اذا كانت خرافة ، والويل ثم الويل اذا كانت حقيقة . غير أنه ليس لي طريق آخر ، كما لا أستطيع ان أقول لأحد سوى نفسي وأوراقي . ولهذا تابعت الكتابة دون توقف من اليمين الى الشمال ، من حافة هوة الى حافة أخرى ، من هامش فكر الى هامش آخر في سطور طويلة تبقى بمثابة اثبات أو ادعاء .

من المدعي ، يا الهي ، لم تركت لي أشد الآلام البشرية لأشغل بها نفسي . من المدعي ؟ وضد من ؟ أهو ضدي أو ضد الآخرين ؟ ولكن لم يعد هناك مهرب ، وهذه الكتابة تعد ضرورية كالحياة أو الموت . وسيكون ما لابد منه . وعيبي – اذا كان هناك عيب – يتمثل في كوني كما أنا الآن .

ويبدو لي أن كل شيء يتغير تغيرا شاملا . وكل شيء يضطرب في نفسي ويهتز من جذوره ، والعالم يهتز معي لأنه خلو من أي نظام مادام الاضطراب يسيطر على نفسي . ومرة أخرى ان هذا الذي يحدث وذلك الذي حدث مرجعه سبب واحد : هو انني اريد وأرى لزاما أن احترم نفسي ، وبدون ذلك لا اقوى أن أعيش كانسان . ربما كان من المضحك انني كنت رجلا حين كنت في وضعي السابق ، واريد ان أكون رجلا كذلك في وضعي الحالي ، رجلا آخر ، ربما على النقيض منه . وعلى كل هذا الأمر لا يزعجني ، لأن الانسان متغير ، والشر كل الشر في عدم اطاعتنا الضمير اذا استيقظ .

انني شيخ لتكية الطريقة المولوية أكثر الطرق عددا وانقاها ، وتقع التكية التى أعيش فيها عند نهاية البلدة بين صخور سوداء مرتفعة تحجب رؤية السماء على اتســاعها ، وتبقى شريطا فوقها يشبه رحمة البخيل وذكرى الطفولة فى تصورها للسماء الضخمة الواسعة • لا أحبها ، تلك الذكرى تعذبنى شيئا فشيئا ، لقد كانت بمثابة الفرصة مرت دون أن أغتنمها وان لم ادر صورتها ، واننى فى غير وضوح أقارن الغابات الخضراء التى تعلو بيت والدى كما اقارن الحقول والحدائق حول البحيرة بمضيق الصخور الذى حبست فيه انا والتكية ، ويخيل الى أن هناك تشابها كبيرا بين المضايق فى نفسى والمضايق من حولى •

هذه التكية جميلة وواسعة وتقع على شاطىء جدول ينســاب بين صخر الجبال كما تحيط بها حديقة ذات ازهار وكروم تتســلق فوق الشرفة ، ولها ردهة طويلة يسودها هدوء يزيد من احساسنا به سماع رقرقة المياه التى تجرى بقربها •

وقد كانت فى المــاضى حريما للاجداد ، ثم اهداها الى الطــريقة المولوية رجل مــوسر يدعى « على جانيتش » لتكون مجمعــا للدراويش وملجأ للفقراء اذ أن قلوبهم منكسرة • وقد طهرناها بالدعوات والبخور مما كان بها من الآثام والشرور ، وارتدت بذلك ثوب الشرف الذى ترتديه الأماكن المقدسة على الرغم من اننا لم نستطع على وجه التمام أن نبعد عنها أشباح الشابات ، فقد كان يخيل الينا أحيانا أنهن يطفن هنا وهناك وأن رائحتهن تصل الى أنوفنا •

كل يعرف هذا ، ولذلك لا اخفى شيئا ، والا كانت هــذه الكتابة كذبا أعرفه وهذا يخــالف الكذب غير المعروف الذى يخدع الغير بدون وعى ، اذ لا يســأل أحد عنه • ان شرف التكية ومجدها يتمثــلان فى شخصى ، ولولاى لكانت بيتا يحوى خمس غرف كسائر البيوت • لقد اصبحت بى قلعة للدين ، وبدت كأنها حامية البلدة من الشرور المعلومة والمجهولة ومالكة الدفاع عنها ، اذ لا يوجد فى نهاية البلدة بناء غيرها • وفى الحق أن هذه النوافذ ذات المربعات وهذه الجدران الضــخمة حول الحديقة جعلتنا فى عزلة شديدة وضمنت لنا البقاء فيها ، غير أن الباب كان مفتوحا دائما كى يدخل كل شخص يشعر أنه فى حاجة الى الطمأنينة ويريد التطهر من الذنوب • وكنا نســتقبل الناس عند حضورهم بحلو الكلمات وان كانوا أقل عددا من المحن ، وأكثر قلة من الذنوب •

لست مختالا بسبب وظيفتي هذه ، فهي في الحقيقة وظيفة دينية شريفة للغاية . وقد رأيت اداء لواجبي وتحقيقا للسعادة أن أحمي نفسي وأحمي الآخرين من الذنوب ولن أستطيع أن أتخلى عن هذه الحماية . ان أفكار المعصية التي تدور في راسي تشبه الاعاصير ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقف في مواجهتها ؟ ولكني لا أعتقد أن هذه الافكار افكار معاص كبرى . وفيم يكون التدين اذا لم يكن هناك صعاب يجب ان نتغلب عليها ؟ ان الانسان ليس الها وان قوته تتمثل في أن يتغلب على ما تجنح به طبيعته . هكذا كان تفكيري . واذا لم يكن هناك ما يتغلب عليه ففيم يستخدم الانسان جهوده ؟ والآن أفكر في هذا بتفكير مخالف ، لكني لا اذكر ما سياتي مما تدعو الضرورة اليه ، وسيكون لكل شيء وقته المناسب . على ركبتي أوراقي التي تنتظر هادئة لتحمل أوزاري دون أن تجردني منها ، ودون أن تشعر بها وحدها ؛ فأمامي ليل طويل دون نوم وليال طوال اخر أصل فيها الى كل شيء ، وسوف اعمل كل ما يجب عمله . سأتهم نفسي وسأدافع عنها . لا داعي الى العجلة . انني أرى ان هناك اشياء استطيع أن أكتب الآن عنها وقد لا تسنح لها الفرصة فيما بعد . وعندما يحين الوقت وتدعو الرغبة لأن يقال اشياء أخرى فستذكر في ذلك الوقت . انني احس كيف تتراكم هذه الاشياء في تلافيف مخي ويجذب أحدها الآخر لأنها مترابطة ولا يعيش أحدها منفردا بنفسه . بيد ان هناك شيئا من النظام تجده في هذا التراكم . قد يقفز أحد هذه الأشياء من بينها ـ ولا أدرى كيف يحدث هذا ـ خارجا الى النور ليظهر نفسه ويثير القلق أو يبعث الهدوء . وقد تتزاحم في بعض الأحيان ويهاجم بعضها بعضا دون صبر او انتظار كأنها تخشى أن تبقى مختزنة ولا تنتشر على الناس . مهلا ، لكل شيء وقت الزمت به نفسي؛ فالمحاكمة تقتضي مواجهة واستماعا الى الشهادة ولن اغفلهما وسوف استطيع في النهاية أن اصدر حكما على نفسي ، فهذه المحاكمة خاصة بي ولا يدخل فيها أحد غيري . لقد أصبح العالم بالنسبة لي لغزا واصبحت أنا بدوري لغزا للعالم ، وقد وقف كل منا في مواجهة الآخر ناظرا اليه بعين العجب دون ادراك للفرق بيننا ودون ان يكون هناك أدنى تفاهم .

ومرة أخرى اعود الى نفسي والى التكية . لقد احببتها ولا زلت أحبها انها هادئة ونظيفة كما أنها تخصني ، وتنتشر منها في الصيف رائحة تشبه ما ينشره زهر « الكلوبر » وفي الشتاء رائحة تشبه ماتشمه وقت الثلج القارس والريح الباردة . أحبها لأنها أصبحت مشهورة بي ،

تعرف أسراری التی لم أبح بها لأحد والتی أخفيتها عن نفسی ٠ انها دافئة وهادئة ، يهدل الحمام علی سطحها فی الصباح البـاكر ، ويسـقط المطر علی سقفها الهرمی الأحمر فيحدث صوتا رتيبا ؛ وهاهو الآن يسقط المطر بعزم واصرار ، ويستمر فترة طويلة بالرغم من أن الوقت صيف ، ويسيل فی المجاری الخشبية المثبتة فی أسفل السقف الهرمی ثم يأخذ طريقـه فی الأرض حيث يضيع فی ليل مشئوم غطی بظـلامه الأرض ، وأخشی الا ينجلی أبدا ، وآمل أن تشرق الشمـس قريبا ، أحبها لأننی متنعم بهدوء حجرتين خاصتين بی يمكننی أن انفرد فيهما عندما أنشد الراحة بعيدا عن الناس ٠

ما أشبهنی بالجـدول ، أنه غزير ومندفع أحيـانا ، وفی أغلب الأحايين يجری هادئا ولا يكاد يسمع له صوت ٠ ولقد أصابنی الغم عندما جعلوا له سـدا بالقرب من التكية وسخروه علی أن يسـير لادارة عجلة المطحن ، وعلی العكس من ذلك سررت عندما اندفعت مياه الجدول فأطاحت بالسد وأخذت تجری هنا وهناك فی حرية مطلقة ، رغم علمی أنه بتسخير الجدول لادارة العجلة يمكن طحن الغلات الزراعية ٠

ها هو الحمام يظهر فی عشه أسفل السقف ويسمع هديله الخافت، فالمطر مازال يسقط منذ أيام والحمام لا يستطيع الخروج من عشـه ٠ وتلك اشارة الی ميلاد صبح جديد لم يظهر بعد ٠

تصلبت يدی التی تمسـك القلم واضطرب ضوء الشـمعة وأخذت تدافع عن نهايتها بما تنثره حولها من ذرات اللهب الصغيرة ، بينما أخذت عيناي ترنوان الی أحرف السطور الطويلة ٠٠ ترنوان الی رموز الافكار ، ولا أدری هل قتلتها أو بعثت فيها الحياة ٠

٢

« ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك على ظهرها من دابة »

بدأت الأمور تتعقد منذ شهرين وثلاثة أيام ـ ويبدو أننى سأحسب الزمن ابتداء من ليلة عيد « مارى جرجس » لأن هـذه الفترة هى فترتى الوحيدة التى اهتم بها ـ لقد زج بأخى منذ عشرة أيام فى سجن القلعة ٠

كنت أسير فى الشوارع عشية ليلة عيد « مارى جرجس » وقد بلغ بى الكدر والاضطراب مبلغا عظيما ، ولكننى كنت أبدو هادئا ، وهذا شىء يستطيع الانسان اكتساب فعله بالتعود ٠ سرت وكانت خطوتى لا تكشف عما بى من الاضطراب ، وجسمى وحده يقوم بهذا الاخفاء ، تاركا لى حرية الولوج فى سحب التفكير التى تتعذر رؤيتها لأكون كيفما أريد ٠ وكان من دواعى السرور لنفسى ان أذهب خارج القصبة فى وقت العشى ، ذلك الوقت الهادىء ، كى يحتوينى الليل وحدى ؛ ولكن عملى كان يقودنى الى جهة أخرى ، حيث يكون الناس ٠ لقد كنت نائبا عن الحافظ محمد وكان مدعوا من جانب « جانيتش » العجوز صاحب الخيرات والحسنات ٠ وقد عرفت ان « جانيتش » هذا يعانى من المرض منذ شهور ولعله أراد أن يدعونا قبل الموت ، كما عرفت أن القاضى « عينى افندى » الذى اصدر حكما بالسجن على أخى هو نسيبه ٠ ولذلك لبيت الدعوة بسرور آملا فى شىء ٠

سرت وهم يصحبوننى فى فناء البيت ثم فى البيت كعادتى ؛ لا أنظر الى ما لا يتعلق بى ، وهكذا كنت اتقرب من نفسى ٠

بقيت فى الممر الطويل انتظر أن يصل الخبر بقدومى الى من يجب ان يعلم وكنت أحس الهدوء التام كان أحدا لا يعيش فى هذا المبنى الكبير أو كان شخصا لا يتحرك فى ممراته وغرفه ٠ بقيت فى جو تخمد فيـه

الحياة وتسكن الحركة كأني قرب محتضر ما زالت أنفاسه تتردد في ناحية ما من هذا المكان ٠٠ في جو يتعذر معه سماع صوت الخطوات التي تلاشت في البساط ٠٠ في جو كذلك الذي تجرى فيه المحادثات الهادئة همسا ٠ وقد أمكن للأذن ان تسمع بصعوبة ما يحدثه خشب السقف والنوافذ من صوت ٠ وكنت أفكر ـ وأنا أنظر كيف يرخي الليل ببطء أستاره الرقيقة على المنزل وكيف يرتسم على زجاج النوافذ بتأثير ما تعكسه عليه البقايا الأخيرة من ضوء النهار ـ في الشيخ وفيما أقوله له في اللقاء الأخير ، بالرغم من أن هذه المرة ليست أول مرة أتحدث فيها الى المرضى ـ كما انها ليست الأولى التي أودع فيها محتضرا الى الطريق العظيم ٠

ولقد اكدت لي التجربة ـ ان كان لابد منها في هذا الموضع ـ ان كل شخص يحس الخوف أو الرهبة ازاء الأمر الذي ينتظره ، ازاء المجهول الذي قد يطرق باب قلبه المنقبض ٠

لقد قلت معزيا :

ان الموت يقين ، والايمان به أمر لابد منه ، كما أنه الشيء الوحيد الذي نعلم أنه سيصيبنا ، وكل الطرق تقود اليه ، لا استثناء في ذلك ولا مفر منه ، وكل ما نعمله هو الاستعداد له ، الاستعداد فور خروجنا من بطون أمهاتنا نستقبل الحياة ٠ ان قربنا منه دائما أكثر من بعدنا عنه ٠ فاذا كان الموت يقينا فلم نتعجب عندما يحل بنا ، واذا كانت هذه الحياة مدتها قصيرة تستمر ساعة أو يوما فلم نحاول أن نطيلها يوما آخر أو ساعة اخرى ٠ ان الحياة الدنيا متقلبة وخادعة ، واما الحياة الأخرى فهي خير وابقى ٠

وقلت :

لم يتملككم الخوف فتضطرب قلوبكم وتلتف الساق بالساق عندما يحضركم الموت ؟ ان الموت هو الانتقال من دار الى دار ، انه ليس فناء بل هو ميلاد جديد ٠ وكما تنشق قشرة البيضة عندما يحين موعد خروج الفرخ منها يكون الحال عند الانسان اذ تنفصل روحه عن جسمه عندما يحين أجله ٠ ان الموت شيء لا مفر منه ، فهو معبر ضروري للحياة الأخرى التي يصل فيها الانسان الى أوج قمته ٠

كما قلت :

ان الموت هو فناء المادة لا الروح ٠

وقلت :

الموت حالة انتقالية ، حيث تبدأ الروح أن تعيش بمفردها ، فهي قبل أن تنفصل عن الجسد كانت تلمس باليد وترى بالعين وتسمع بالأذن ، لكنها مع ذلك كانت تدرك بنفسها حقيقة الأشياء منفردة بذلك (١) ٠

وقلت :

في يوم موتي ، عندما يحمل نعشي ؛

لا يدورن بخلدك أنني ساشعر بالألم على فراق هذه الدنيا ٠

لا تبك ولا تقل : ياللخسارة ٠٠ ياللخسارة

فاللبن حين يفسد تكون الخسارة أشد وأفجع

عندما تراني أوضع في القبر فاعلم أن فنائي لن يكون

فالشمس والقمر لا يفنيان بزوالهما !

يخيل اليك أن الأمر موت ، والحقيقة أنه ميلاد

كما يخيل اليك أن القبر سجن ، والحقيقة أن الروح أصبحت حرة ٠

أية بذرة لا تنبت عندما توضع في الأرض ؟

فلم أذن تشك في بذرة الانسان ٠

وقلت :

كن شاكرا يامثوى داود ٠ وقل : جاء الحق ٠ جاءت الساعة ٠ وكل انسان يسير في طريقه حتى يوافيه أجله ٠ الله يخلقكم في بطون أمهاتكم ، خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ٠ لاتخافوا ولاتحزنوا

---

(١) مقتطفات بتصرف من آراء فلاسفة وشعراء المسلمين : الراغب الاصفهاني ، ابن سينا ، الامام الغزالي ؛ ومولانا جلال الدين الرومي ٠

وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون • يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون • ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى •

كررت هذا عدة مرات •

والآن هأنا فى حيرة ، اذ لا أدرى هل من الواجب ان اقول للشيخ الذى ينتظرنى ما قلته الآن وكررته ؟! والحق ان حيرتى فى هذا ليست من اجله هو وانما من أجلى أنا • فى المرة الأولى ـ وكم من المرات اكرر هذه العبارة فى هذه الأيام ـ لم يبد لى الموت بتلك البساطة التى كنت اومن بها واقنع الآخرين • فقد حدث اننى رايت حلما مفزعا ، رأيت اننى اقف فى الفضاء فوق جثة أخى • وكان نعشه الموضوع أمام قدمى مغطى بقطيفة خضراء يضرب لونها الى السواد • والناس يقفون حولى على البعد فى دائرة • وكنت لا أرى احدا ولا اعرف شخصا • كل ما أعلمه أنهم تحلقوا حولنا وتركونى فى سكون موحش فوق الجثة التى لا أستطيع ان أقول لها : لماذا يهتز قلبك ؟ اذ كان قلبى أنا يهتز بفعل الخوف الذى ينشره حولى هذا الهدوء الشديد والسكون الموحش • كم يؤلمنى ذلك السر الذى لا أدرى دلائله • ولقد قلت حماية لنفسى من رهبة هذا الموقف: « ان الدلائل موجودة ؛ ولكننى لم استطع أن أجد هذه الدلائل • وقلت مخاطبا أخى : قم ، قم • ولكن الظلام كان يخفيه والضباب يذهب به فى ظلمات تزداد قتامتها كانه الطريق يأخذ فى الاختفاء فى مياه مجهولة الحدود • وكيف أخاطب الآن محتضرا بقولى : سر فى سبل ربك مطيعا وقد ملأنى الخوف واحتوتنى الرهبة من تلك الطرق الخفية التى تقف معارفى المحدودة ازاءها عاجزة عن تصورها وكشف أمرها •

اننى أؤمن باليوم الآخر وبالبعث ، كما اخذت أومن كذلك برهبة الموت وبالفزع أمام ذلك الستار الأسود الذى يحجب عنا ماوراءه •

لم اقرر شيئا عندما أدخلونى فى احدى الغرف وقادتنى اليها فتاة ، سرت مطرق الرأس حتى لا أرى وجهها وحتى أعد شيئا اقوله • سوف اكذب عليك أيها الشيخ ، وسيغفر الله لى ذلك • انى ساقول ما تنتظره انت وليس ما افكر فيه وتنتابنى من أجله الحيرة •

انه ليس موجودا هنا ، فقد شعرت ـ ولم أكن قد رفعت بصرى بعد ـ بعدم وجود تلك الرائحة التى توحى بمرض شديد والتى تنتشر فى

الغرفة بعد الملازمة الطويلة من المريض للفراش ولا يمكن أن تخرج منها بواسطة النظافة أو بتجديد الهواء أو التبخير ٠

عندما نظرت أبحث عن مريض لازم الفراش مدة طويلة دون أن تنتشر منه رائحة الموت رأيت على الأريكة شابة حسناء تبدو فى مظهر يفوق مظهر الحياة الطيبة ٠

ربما كان عجيبا أن أقول هذا ، ولكن الأمر فى الحقيقة هكذا ، وقد أحسست بعدم ارتياح ، وربما كانت الأسباب كثيرة ٠ لقد استعددت للقاء الشيخ المحتضر متحملا ماتطغى على به سود الأفكار ، ولكنى وجدت نفسي أمام ابنته (ولم أكن قد رأيتها قط ولكنى عرفت أنهـا ابنته) ٠ لست أجيد التحدث الى النساء ، وبخاصة من فى مثل جمالها وسنها ٠ ويبدو لى أنها فى حوالى الثلاثين من العمر ٠

ان الشابات يحلمن بالحياة ويؤمن بالكلمات ، بينما المسنات يخفن الموت ويسمعن بشوق ولهفة ما يدور عن الجنة ، كما يدركن قيمة ما يفقدنه وكذلك ما يكتسبنه من الأشياء ، ولديهن الأدلة على ذلك ، وقد تكون تلك الأدلة غريبة ولكن قل أن تكون ساذجة ٠ أما عيونهن الخبيرة فتتمتع بحرية النظر حتى عند اطراقها ، وتبدو مريبة اذا ما استرقت النظر من بين الجفون ، ويزيد من الريبة ما نعرفه من أنهن يعرفن أكثر مما يظهرن وأنهن يقسننا بمقاييسهن الخاصة التى يصعب علينا ادراكها ٠ وهذه الرغبة فى التطلع الذى لا حدود له ٠ ـ تلك الرغبة التى تظهر رغم محاولة اخفائها ـ اصبحن يمارسنها آمنات تحت حماية حرمتهن ٠ وأما نحن فلا يحمينا شيء أمامهن ٠ انهن ينظرن الينا مؤمنات بقوتهن التى لا يقمن باستغلالها ، متحصنات بها كما يتحصن بالسيف فى غمده ولكن أيديهن دائما على المقبض ، وكان من الممكن فى نظرهن أن يكون الرجل عبدا أو مخلوقا حقيرا يفخر دون مبرر بقوته التى لا يرجى منها فائدة ٠ وتلك القوة النفسية الحمقاء تبلغ فى اقناعها حد التأثير وان كنا لم نعرها اهتماما ، ويبقى الخوف مستوليا على الانسان برغم عزيمته النفسية وايمانه ببعض الممكنات المجهولة كذا ببعض أنواع السحر وبعض أسرار القوة الشيطانية ٠

كان لهذه الشابة قوة خاصة مستمدة من العائلة التى تنتمى اليها ٠ وكان موقفها حازما ، كما كانت حركاتها تصدر بطريقة الآمر (هكذا

اشارت الى لأجلس) ولكن هذا كله يجرى بشيء من الخفة ، وعلى درجة من الرقة لا استطيع تقديرها ؛ نتجت من كثرة التعود ، ومن خفة لمعان العيون المكحولة التي تبدو من فتحتي حجاب الوجه ، ومن تلك الذراع التي بدت في وضع منحن فاشبهت رقبة الوز العراقى وذلك عندما أمسكت الأصابع بطرف النسيج الحريرى الشفاف الذى يتشح به راسها ، واخيرا من تلك الجاذبية المثيرة التي تنبعث منها انبعاث السحر • انهـــا بنت ابليس • رأيتها هكذا بوصفى ريفيا ، ولعنتها بوصفى درويشـــا ، وأنا أعجب فى كلا الوصفين •

اخذ الظلام يغطى الحجرة ، ولم يعد هناك شيء يضيء سوى حجابها الأبيض وذراعها البيضـاء • وجلسـنا احدنا فى مواجهـة الآخر ، وبيننا مسافة قليلة وانتظار حرج قطعته بقولها والظلام يكاد يسترها :

ـ انني طلبت الحافظ محمد !

ولم تكن راضـية أو هكذا خيل الى •

ـ رجانى أن أحضر نائبا عنه ؛ فهو مريض •

ـ الأمر سواء ، فأنت صديق البيت

ـ نعم •

اردت أن أجيب اجابة اطول ، فيها شيء من الاحتفاء ، كان اقول انني لا استحق كلمة انسـانية طيبة اذا لم اكن جديرا برعاية الواقف الذى أهدى الينا التكية ، وأما بيتكم هذا فهو منقوش فى قلوبنا الخ •• اردت ان اقول شيئا يشبه الشعر ولكن صدر مني شيء مبتور •

ودخلت الفتيات يحملن الشموع وما يقدم للتحية •

وانتظرت ••

وأخذت الشموع التي وضعت على منضـدة مستديرة فى جانبنا تلقى الضوء بيننا ،وبدت الشابة أقرب الى واخطر على • وما اســـتطعت أن اعرف ما يدور فى خلدها •

لقد ظننت انني دعيت من أجل والدها ، وكان لزاما ان أحضر حتى لوكنت اعلم أن هناك مفاجأة تنتظرنى او بعض الاحتمالات غير المتوقعـة أو بعض المصادفات السعيدة ، وذلك كي أحاول انقاذ أخي •

وكنت قد أردت في أثناء حديثي عن الموت والجنة أن أزج بكلمة أطلب بها العفو عن أخي ، لعل ذلك يكون من قبيل المساعدة لهذا الأخ أو من قبيل الثواب لذلك المريض وهو على أبواب هذا الطريق الكبير الذى لا نعرف عنه شيئا ، أو لعلى بذلك أشيد لنفسي صرحا من الخير والمكرمات .. أقول لعل شيئا من ذلك يكون ، لاننا نتذكر بين يدى الموت أن الملكين يجلسان على اكتافنا ويكتبان اعمالنا السيئة والصالحة . ونحن البشر نهتم جميعا بأن نصلح من أمور حسابنا ، ومن الصعب أن نجد عند الموت زادا أنفع من الصفح الجميل الذى تبقى ذكراه حية على الدوام ، ولعل محتضرنا يود الحصول على ذلك .

وفى الحق لقد كان حرص القاضي « عيني افندى » على ألا يفعل ما يغضب صهره أكثر من حرصه على أن يبقى بعض الرعاع في السجن . فلو اوصى اذن « على اغا » بأن يطلق سراح أحدهم دون أن يكون هناك تضحية أو كبير عناء لكان هذا السعي من جانبه درجة من درجات الوصول الى الجنة . ولا أعتقد أنه سيرفض ؛ اذ ليس باستطاعته أن يحصل على شيء بطريقة أيسر من هذه .

وأما فيما يتعلق بهذه الشابة فلم أكن اعرف عنها شيئا ، ولا عما سيكون بيننا من حديث ، كذلك لم يتضح لى الشيء الذى يمكننى من أجله أن أقوم لها ببعض الخدمات . ولقد عجزت عن اكتشاف أية علاقة بينى وبينها .

وقف كل منا في مواجهة الآخر كمحاربين اختلفت الأسلحة وراء ظهريهما ، أو كخصمين لم يكشفا عن مقصدهما . وسوف تبرز حقيقتنا عندما نتحرك من أجل الهجوم . وقد انتظرت لأرى ما تريد أن تستولى عليه .. ماتريد أن تغتصبه . ولم يزل الأمل يعيش فى نفسى ولكن لم يعد قويا كما كان من قبل . هذه المرأة صغيرة جدا ، وعلى جانب كبير من الجمال ، وهاتان الصفتان لا تتيحان لها فرصة التفكير في الملائكة التي تسجل اعمالنا . لقد اندفعت الى الدنيا وحدها ولا تفكير لها فيما عداها . لم تتردد طويلا ولم يطل بحثها عن كلمة ، فقد كانت كالمحارب الحقيقي الذى يذهب الى المعركة ثابت الخطى مستقيم النظر ، وذلك أمر توافر لها من عائلتها ومن كونها تخاطب درويشا . انها لا تخاف ولا تتردد أمامى ان كان من شأنها أن يراودها الخوف او يعتريها التردد في بعض الظروف .

في البداية كنت أتابع باهتمام صوتها الهادىء الرخيم ، وكنت أسمع حديثها كأنه الثوب يطرز او اللؤلؤ ينظم ، وكانت كلماتها وتراكيبها تختلف اختلافا تاما عن تلك التى تجرى على ألسنة العامة فى السوق ، لقد كانت من تلك الكلمات والتراكيب التى يستخدمها خاصة العائلات منذ زمن ، غير أنها كانت تكتسب جمالا ورونقا من جو الغرف القديمة واستمراره الطويل •

ــ ليس من السهل لى أن أقول هذا ، وما كنت اريد أن أقوله لأحد• ولكنك درويش • لقد رأيت وسمعت الكثير ، وساعدت الناس بقدر استطاعتك • وانت تعلم أن كل أسرة تحدث فيها أشياء لا يود أحد حدوثها •

انك تعرف أخى حسن ، أليس كذلك ؟

ــ بلى ، أعرفه •

ــ اريد أن أتحدث عنه •

وهكذا قالت فى البداية كل ما ينبغى أن يقال : امتدحت ، وأظهرت ثقتها ، واستندت الى وظيفتى ، وهيأتنى الى ما ستقوله ، ذلك الذى لن يكون جميلا ، مشيرة فى ذلك الى جميع الأسر كى لا أنسى أن الأمور السيئة تغشى جميع الدور وليست خاصة بدارها • ومهما يكن من شأن هذه الأمور السيئة فان انتشارها على نطاق واسع يقلل من العيب الذى يلحق الناس من أجلها ، ويمنحهم الجرأة على الافضاء بها دون تردد •

وبعد هذه المقدمة اللطيفة التى لم تزد الموضوع شيئا ذكرت الشكوى المعروفة من الفرد المنحرف الذى كانت الاسرة تعلق عليه الآمال الكبيرة ولكنه خانها ببعض التصرفات المشينة • ان هذا الفرد السائر فى طريق الضلال لا يقلقه انحرافه ولكن الأسرة هى التى تقلق من أجل الانحراف وتشقى به ؛ اذ يلحقها العار بذلك أمام الناس ، كما يسيطر عليها الخوف والرهبة أمام الله • وهذه النغمة الرثائية يرددها الناس أمامنا أحيانا بصدق آملين منا المعرفة التى نعد بتقديمها ولكننا قليلا مانقوم بتحقيقها ، وغالبا ما يرددونها لنكون شاهدين أمام الناس كيف أنهم فعلوا كل ما كان فى استطاعتهم فعله • وقد يصل بهم الأمر الى أنهم يرددونها ليحركوا بها عباد الله • وفى الحق لا يمكن أن يعزى انحرافهم الى وجود الشر الذى لايمكن استئصاله •

أصبحت هذه القصة محفوظة عندى ، فأفراد هذه العائلة يقصّونها علينا منذ زمن طويل ، ولذا أجد فى نفسى اهتماما بالغا عقب سماعى اياها • وقد كنت اتصنع باهتمام وأنا أتابع حديث الشابة تروى هذه القصة مخفيا هذا التصنع باظهار علائم تدل على الاهتمام • وكنت أتوقع دون سبب حدوث شيء غير عادى••شيء قبل أن يحدث••أفاجأ به • ولكن لن يكون هناك ما سأفاجأ به ؛ فهى ستقول ما يتطلب الأمر أن تقوله •• ستشكو من أخيها ، وستطلب الى أن أتحدث اليه محاولا أن أرده الى الصواب • وسوف أتلقى هذه الشكاة الحزينة التى تتظاهر بها بشيء من تطييب الخاطر وبوعدى اياها بأننى سأبذل كل ما استطيع من جهودى الضعيفة أملا فى المساعدة الالهية • وسيصبح كل شيء على ما كان عليه من قبل•ستهدأ نفسها ويستريح ضميرها لأنها فعلت ماكان يجب عليها فعله ، وسيقف الناس على ذلك•سأتحدث الى حسن محاولا أن أجنب نفسى سخريته ، وسيستمر حسن فى حياته التى يحب أن يعيشها ، سعيدا بغضب أسرته من أجل ذلك • ان ذلك لن يلحق الضرر بأحد ولن يجلب النفع لأحد ، وعلى الأقل بالنسبة لى ولأخى السجين ؛ اذ أنها تتحدث — دون ان تكون هناك حاجة ماسة لحديثها ، ودون انتظار لفائدة أو توقع لنجاح — بشعور فاتر أداء لواجبها الاجتماعى؛ فقد كان القصد منه أن ترمى به فى آذان الآخرين ، وعلى أن أقوم باعلانه • ولكن هذا لا يعدو أن يكون تصرفا حسنا ،وموقفا يناسب مكانة الأسرة ، واعتذارا لمن لم يقع فى الانحراف من أعضائها وسياجا يفصلها عن المنحرف ويحميها منه •

هذه الشابة لن تستفيد كثيرا لا من قريب ولا من بعيد حتى استطيع ان أطلب العفو عن أخى • وكان هؤلاء الخارجون على نظام الأسرة أشباه حسن يتزايد عددهم بين حين وآخر ، كما كان يبدو أنهم يزمون بالنظام وبسلطة آبائهم ، ولم يكن حسن الا أحد هؤلاء الكثيرين ؛ ومن ثم فليس الخروج على نظام الاسرة عيبا يخص أسرة بعينها بل أنه يعد ظاهرة كسائر الظواهر الكثيرة التى لا يمكن لارادة الانسان ان تتحكم فيها أو تسيطر عليها دون بذل الجهود الكبيرة •

لم تستحوذ على ولم تشدنى هذه القصة التى عرفت نهايتها منذ أن سمعت بدايتها ، وما تأثرت ولو قليلا بحزنها اذ لم يكن هذا الحزن صادقا ، غير أنها استطاعت أن تحافظ على درجته دون نزوع منها الى المبالغة • وقد كان فى اداء ذلك الواجب الذى لم يصدر عن القلب شيء من الاقناع دون مراعاة لأى اعتبار • وحيث لم يكن لدى سبب أو

استطاعة لكي استمع اليها باهتمام فقد اخذت انظر اليها واتاملها وكان ذلك يحدث مني باهتمام حتى خيل اليها أن مصـــدر هذا الاهتمام هو ما تلقى الى به من الكلمات • وهكذا بدا كل منا أمام الآخر على جانب من التهذيب •

كنت أنظر اليها منذ بداية لقائنا ؛ فقد فاجأتني بجمال وجهها البض الذي يرى لمعانه خلال حجابها الشفاف ، وبالضوء الصافي المنبعث من عينيها الواسعتين اللتين تكشفان عن حرارة اندفاعها وشدة ما تعانيه في نفسها • ولكن نظرى اليها ، في انتظار ما ستقوله ، كان سريعا يشوبه الاضطراب وعدم الاطمئنان ، وكان يكشف عن نفسى أكثر مما يكشف عن نفسها • وعندما نزعت عن نفسها اسلحة السحر التى تحيط جاذبيتها ، وحصنت نفسى بالتظاهر بحسن الاستماع اليها جذبتني لـــكي أراها بالعيون لا بالخوف والتردد •

ولم يكن هذا تطلعا عاديا بغية أن يكون ادراكنا لهــذه المخلوقات الفريدة التي لا عهد لنا بها أكثر شـــمولا وعمقا ، بل كان ذلك التطلع الذى نادرا مانشبعه أو على الأقل نحس به فى لقاءاتنا العابرة وذلك لبعض الأسباب المعقولة • لقد وجدت نفسى فجأة فى موقف يســمح لى بالنظر اليها فى خفاء دون ان اؤثر فى شىء من العــلاقات ظاهرا أمامهـــا بمظهر الدرويش الذى يقدر ارادتها وسيادتها • شــعرت بشىء من التفوق فى نفسى ، فقد استطعت أن اعلم الشىء الذى تفكر فيه كما استطعت دون حرج أن اراها • اما هى فما كان بامكانها ان ترانى او تعلم شيئا عنى • وهذا التفوق الذى يتمناه الانسان دائما ولكن قل أن يتحقق له • وفى الحق أن استتار الانسان أمنية ينشدها منذ القدم • انني وقد جمعتني الظروف بها لا أفعل شيئا يوصف بالقبح أو السوء ، بل أنظر اليها نظرة تتسم بالهدوء والتركيز مدركا انه لن يجول بخاطرى اية فكرة يمكن ان اتذكرها فى المستقبل بشىء من الخجل • لقد استرعى انتباهى فى البداية يداها ، فحين ارادت أن تمسك طرف حجابها الرقيق وتحركت اليدان لذلك وكانت حركتهما بشكل معين وفى مجال محدود ـ ابتعدت كل منهما عن الأخرى واستترتا تحت حجاب بحيث يصعب على الرائى التطلع اليهما • ولكنها عندما تركت حجابها عادت اليدان الى الالتقاء وشــعت فيهما على الفور الحياة واصبحت الصورة متكاملة • لم تكن هاتان اليدان تتحركان بشىء من السرعة أو الحيوية ولكنهما كانتا تحملان فى سكونهما الساجى أو فى حركاتهما البطيئة من القــوة ومن التأثيرات الخاصة ما يجذب على

الدوام اهتمامی ۰ وكان يبدو لی فی كل لحظة انها ستفعل شيئا هاماً ، شيئا له خطره ۰ وبهذا كانت تخلق من القلق المستمر المثير الذی يصحب الانتظار ۰ سـكنت يداها فی حجرها فی وضع متشابك وكانما يبدوان كان احداهما تفرق الأخرى فی شوق هادیء ، أو تمنعها من الابتعاد حتی لا تفعل شيئا لا يمكن فهمه ۰ وظلت اليدان دون حركة وقد شملتهما تلك الموجات المستمرة التی كنا نراها بصعوبة بالغـــة ، والتی كانت تشبه اهتزازات غير منتظمة تحدث نتيجة ضغط خفيف من فرط قوتها ۰ ثم أخذتا تنفصلان فی هدوء كأنهما اتفقتا علی ذلك لترتفعا لحظة فحسب ، تطلب بعدها احداهما الأخرى ليهبطا برفق كطائرين متحابين علی ركبتها المغطاة بالحرير الاطلس كی تتعانقا من جديد سعيدتين بهـــذاالتعانق الصامت ۰ استمر الوضع هكذا طويلا ، ثم تحركت اليد الملاصقة للركبة وأخذت تتحسس باصابعها التی كانت تنقبض ببطء وقوة ماكان تحتها من الحرير الأطلس وما استقر تحته من الجلد ، بينمـا ظلت الأخرى فی مكانها ملتصقة به ســاكنة تتسمع حفيف القماش الأملس فوق الركبة المرمرية المستديرة ۰ وقد تنفصل احداهما عن الاخرى لترتفع وتلمس بخفة ذلك القرط المثبت فی طرف الأذن التی تتواری لحمرة خجلها تحت شعرها الفاحم ، أو لتبقى قائمة فی الهواء كی تسمع بعض الكلمات ثم تعود دون اهتمام منها بالحديث الی مكانها الأول حيث تلتقی باليد الأخرى التی ظلت علی حالها دون حراك غاضبة لعدم تمتعها بشیء ولو قليل من الرعاية من جانب الاخت الشقيقة ۰

لقد كنت أتابع اليدين دهشا لتعبيرهما عن حياتهما المستقلة ، وقد بدتا لی كأنهما مخلوقتان‌صغيرتان تمتلكان مسار حياتهما الخاصة وغرائزهما وحبهما وغيرتهما وشوقهما وشهوتهما المنكشـــفة ۰ وكنت فی ذلك بين سرور يتملكنی لحظة وخوف ينتزعنی أخرى من أجل فكرة حمقاء توحی بانغلاق تلك الحياة الصغيرة وانعدام قيمتها شأنها فی ذلك شأن الحياة بالنسبة للجميع ، لكن هذه الفكرة جاءت ومرت دون أن يـكون لها أثر خطير ،لكنها كانت الطريقة السريعة علی أبواب حياة أخرى فی نفسی لم أكن اود أن أوقظها ۰

كنت انظر اليهما من أجل جمالهما ، وكان ظهورهما يبدأ من المعصم حيث أحاط السوار وحيث انتهى الطرف المطرز لكم قميصها الحريری ۰ لقد استدار المعصـــمان فی رقة وبلغـا من النحافة مبلغا يستطيع معه الانســان أن يتبين ماتحتهمــا ۰ وكان أجمل مافی هاتين اليدين تلك

الأصابع الطويلة المرنة التي يبدو لنعومتها بريق والتي بدت كأنها الوشائع ركبت في الكف ، وقد زادها حسنا ما ارتسم من الظلال عند ثناياها ٠ وكانت هذه الأصابع تكشف عن حيوية عجيبة عندما تنفرج ببطء أو تتجمع كذلك لتلتقي في باطن كفها الناعم الصافي ؛ اذ كانت حركة انفراجها وتجمعها أشبه شيء بحركة السنونو ٠

على انني اذا كنت قد وجهت اهتمامي بادىء الأمر الى هاتين المخلوقتين الصغيرتين اللتين تدب فيهما الحياة واللتين تشبهان الاخطبوط وتبدو ان لجمالهما كوردتين ـ فذلك لانني لم آكن قد تنبهت اليهما لا في البداية عندما كانت معظم رؤيتي موجهة اليها ولا بعد ذلك عندما كنت اكتشفها كما تكتشف الأرض المجهولة ٠ لقد كان كل شيء فيها على قدر من النظام والتناسق : نظرة العيون يحددها لون أسود قد خفت حدته ، وحركة اليد التي تكاد تختفي تحت النسيج الحريري الشفاف ، وانحناءة لينة للرأس يهتز على أثرها ماوضع على جبهتها من زبرجد حلى أطرافه بالذهب ، واهتزاز يصدر دون ارادة من القدم التي ادخلت في شبشب مزركش بالفضة ، أما الوجه فقد خلت منه التجاعيد وانساب فيه ضوء خفيف ينبع من داخله ، من ذلك الدم الذي كان يتحول الى انعكاسات حارة ٠ وأما الاسنان فكانت تبدو رطبة لامعة خلف شفتين تظاهرتا بالتراخي واتصفتا بالامتلاء ٠

لم تكن تملك سوى الجسد ٠ وكل شيء عداه كان يتلاشى في ظله ٠ ولكنها لم توقظ في نفسي الرغبة ، فلم اكن أسمح بذلك لنفسي ؛ اذ كنت أخنق هذه الرغبة عند تولدها بالخجل ٠٠ بالتفكير في سني ووظيفتي ٠٠ بالتنبه الى الخطورة التي قد اتورط فيها ٠٠ بالخوف من القلق الذي يمكن أن يكون أشد من المرض ٠٠ بالتعود على السيطرة على نفسي وكبح جماحها ٠ على أنني لم استطع أن أخفي عن نفسي انني كنت أنظر اليها نظرة الرضا ، نظرة التمتع العميق الصامت الى النهر الهادىء ٠٠ الى السماء قبيل الغروب ٠٠ الى القمر في منتصف الليل ٠ الى الشجرة المزدهرة ، كنت انظر اليها كما أنظر الى بحيرة طفولتي في الفجر ، ولكن هذا دون رغبة مني في امتلاكها ودون امكانية للتمتع بها غاية التمتع ، وفي الوقت نفسه دون استطاعة للبعد عنها ٠ على أنه كان يحلو للانسان أن ينظر الى يديها اللتين تتميزان بالحيوية كيف تتصيد احداهما الأخرى وكيف تنصرفان هكذا الى اللعب ، كما كان يحلو له أيضا أن يستمع اليها كيف تتحدث ، لا ، لا يلزم أن تقول شيئا ، بل يكفي أن تكون حاضرة ٠

وطاف بذهني أنه من الخطر أن انظر اليها هكذا بسرور ، ولكنني لم أعد أحس قدرة في السيطرة على نفسي أو التستر . لقد استيقظ في نفسي شيء ماكنت أرغب في استيقاظه ، ولم يكن هذا هو الشهوة ، بل شيء قد يكون أشد منها ، هو الذكرى . ذكرى امرأة وحيدة في حياتي ، لا أعرف كيف برزت من تراكم السنين . لم تكن جميلة كهذه ولم تكن تشبهها في شيء . لم استدعت احداهما الأخرى ؟ ان اهتمامي بالأخرى التي لا توجد يفوق اهتمامي بهذه ، فمنذ عشرين عاما أعيش بين نسيانها وذكراها ، تجيء ذكراها عندما لا أريدها أو أكون في حاجة اليها مرة مثل الشبح . ومنذ زمن طويل لم تخطر ببالي ، فلأي شيء خطرت الآن . أمن اجل هذه الشابة التي بدا وجهها وكأنما صاغته أحلامنا الآثمة ؟ أمن أجل اخي حتى انساه ؟ آمن أجل كل ماحدث حتى أقوم بلوم نفسي ؛ اذ انني تركت الفرص جميعها تذهب وتعذر على ارجاعها الآن ؟

غضضت الطرف ، فليس هناك رجل قط يستطيع أن يأمن على نفسه او يعتقد أن كل مافات قد مات . ولكن لم خطرت هذه الذكرى عند أقل ضرورة ؟ ان هذه الشابة لا تهم الآن ، أما تلك الفتاة البعيدة فذكراها يحتل مكان نزعة خفية بان كل ما حدث كان من الممكن حدوثه بصورة مخالفة ، حتى هذا الشيء يؤلمني . ابتعد أيها الطيف فليس من الممكن ان يكون الشيء على غير ماكان ، وسيوجد شيء آخر يسبب لي الألم . لايمكن أن يكون على نحو آخر حتى يكون افضل في حياة الانسان.

اعادت انتباهي هذه الشابة التي أثارت في هذه الذكرى حين قالت :

ـ اتسمع ؟

ـ نعم

هل اكتشفت أنني خلوت الى نفسي ؟

انني اسمع .

واخذت تتابع حديثها .

كنت استمع اليها حقا ، مكان ذلك بكل تاكيد . كنت اسمع وأصغي ، وقد فوجئت بأنها لا تقص على الاطلاق قصة عادية ، كما لاتعد في الوقت نفسه قصة غريبة . انها ليست مملة ، وكان الاصغاء اليها افضل بكثير من النظر اليها .

.. وفجاة أطل الأمل برأسه ٠

لقد انتهى حديثها وكنت على علم به ، اكملت قصة عن قدر عجيب لعب دوره باخيهـا الذى أتم دراسـته فى استانبول ووصـل الى منصب يناسب علمه كما يناسب مكانة الأسرة (وربما كانت ترفع من قدر أحد هذين الأمرين وتخفض من قدر الآخر لأن منصبه لم يكن رفيعا ، ولكنها استطاعت هـكذا ان تجعل الأمرين فى كفتين متوازيتين بتعـويض من أحدهما الى الآخر) وكان أفراد الأسرة ـ وبخاصة والده ـ يفخرون به ٠ وفجاة حدث شىء ليس باستطاعة أحد ان يجد له تفسيرا ، وليس بامكان شخص أن يعرف سببا حقيقيا له حتى « حسن » نفسه ٠ انها تقول : لقد تغير تغيرا كاملا ، واصبح لا يمت بصلة الى « حسن » الشاب ، ذلك الذى كان كريم النفس رائع الخلق ٠ وكان الجميع يتساءلون فى دهشة بالغة ، اين ذهب علمه الذى كان المدرسون يتحدثون عنه معترفين به ؟ كيف انقضت هذه الأعوام الطوال دون أن تؤثر فيه ؟ وأين أعدت هـذه الشرور ؟ لقد ترك وظيفته دون أن يستشير أحدا وجاء الى هذا المكان وتزوج بمن لا تناسبه ، ثم اخذ يعاشر الطبقة الوضـيعة من الناس ، ويتناول معهم الخمر ، وينفق أمواله دون حساب ، ويقوم فى البلدة مع اصدقائه ببعض الأعمال الغريبة عند الراقصات (وهنا انخفض صوتها لكنه ظل بحيث يسمع) وفى أماكن أخرى لا يحسن ذكرها ، ثم أصبح يستاجر لاحضار قطعان الماشية للتجار (وبدا فى صـوتها مايدل على الاشمئزاز الموحى بالشناعة) يجىء بها لبعضهم من « فلاشكا » وصربيا ، ويذهب بها الى آخرين فى « دلماتسيا » والنمسا ؛ فهو بهذا العمل خادم للآخرين ٠ لقد ظلت خسائره تتوالى واحواله تنحدر وأمواله تقل ، وكان ان باع نصف ماورثه عن امه ، واصبح الأب فى حال لا يدرى معها كيف يتصرف ازاء هذا الابن ، حتى لزم فراش المرض من أجله ٠ وكان يطلب اليه ويرجوه دون جدوى أن يعود الى حالته الأولى ، كما كان يحذره ولكن تحذيره لم يجد نفعا ، ولم يصبح فى اسـتطاعة احد أن يرده عن هـذا الطريق ٠ وانصرف عنه الوالد فهو لا يريد ان يسـمع شيئا عنه كمـا لا يسـمح أن يذكر اسـمه أمامه ، كأنه لم يكن على قيد الحياة ٠ لقـد استنفدت هذه الشـابة دموعها فى البكاء امام والدها ولـكن ذلك لم يساعد فى شىء ٠ وواصلت حديثها بهذا القول الذى أيقظ اهتمامى : وعزف الناى اغنية مثيرة ؛ لقد قرر الوالد ان يحرمه من الميراث بان يكتب

الوصية أمام أعيان الرجال وأفاضل القوم ويعلن اسقاط حقه ، وحتى لا يحدث هذا ٠٠ وحتى لا يكون الوضع أشد فقد رجاني الوالد أن نتحدث أنا وأنت الى حسن كي يقوم راضيا بالتنازل عن حقه في الميراث لئلا تحل لعنة أبيه به ولتكون الفضيحة أقل بالنسبة الى العائلة ٠ وأضافت أن « عيني افندى » لا يعلم شيئا عن ذلك ولا يريد أن يتدخل بين الأب والابن ، وأن جميع ما تفعله انما هو بتدبيرها كي تخفف من الكارثة ، وانني والحافظ محمد نستطيع في الحقيقة أن نمدها بكثير من المساعدة لأنها سمعت أن « حسن » يأتي الى تكيتنا ـ وكان ذلك من دواعي سرورها ـ ليتحدث في بعض الأحيان مع رجال صالحين عقلاء ٠

لقد شكرت لها ما فعلته من كشفها عن أمرها أمامي حقا ان هذه الشابة اظهرت انها لا تقدرني اذ هي لا تبالي ، ولكن هذا ليس بشيء فالقضية تتعلق بأشياء أخرى تعد أكثر اهمية ٠

بورك مرض الحافظ محمد المزعوم ؛ فقد أتاح لي فرصة لم أكن لأحلم بها : اذ لو لم يكن أبوها على فراش الموت لما كانت هناك دواع قوية كي يساعدني ٠ وقد بدا لي واضحا ان « عيني افندى » يعرف هذا كله ، وربما كان قد رتب الكلمات التي نطقت بها زوجته عن رضا وارتياح ؛ فقد كان في استطاعته ان يعرف أنه ليس من السهل أن ينتزع من ابنه حقه في الميراث دون أسباب حقيقية ؛ اذ لو تأكد أو تأكدا من امكان حدوث مثل هذا لما اهتما بأمر شرف العائلة ومكانتها ، ولما طلبا منا المساعدة ٠ فليكن ، هكذا قلت لنفسي وأنا أفكر ناظرا اليها باهتمام كان علي أن أظهره وفاء لذلك الاهتمام الذي أخذت به نفسها منذ البداية ، ومحاولا الا يرتسم على وجهي من السرور أكثر مما يستوجبه الأمر ٠ وكان تفكيري يدور حول وقوعنا معا في المصيبة من أجل أخوينا ٠ أنت تريدين لأخيك الضياع وأنا أريد انقاذ أخي ٠ كلانا يتمنى تحقيق ما يريد ويعده أعظم أمانيه ، والفرق بيننا أن أمنيتي شريفة وأمنيتك على العكس من ذلك ٠ فليكن ٠٠ انني لا أبالي ٠ انني لا أعرف شيئا عنكم ، ولكن يبدو لي انني أرى بوضوح كيف تستطيعين ان تسيطري على قاضيك المتخاذل الذي يحترم قوتك ومالك لأنه يفتقدهما معا ٠ ان طلبا حازما منك في ليلة من لياليه المخجلة كفيل بتغيير مصير أخي ٠ وهكذا نعطي قليلا ونربح من وراء ذلك الشيء الكثير ٠ أو شكت أن أقول لها بصراحة : عظيم ، ليس هناك ما يدعو الى اخفاء مابداخلنا ٠ سأساعدك في أمر « حسن » وتساعدينني في أمر أخي ٠ انك لا تهتمين بأخيك ، وأنا على

استعداد لأن افعل أكثر من ذلك في سبيل انقاذ أخي . ولكنني لم أقل لها بطبيعة الحال هذا ، ولو فعلت لغضبت من صراحتي تلك الصراحة التي يغضب لأجلها الآخرون . بل قلت موافقا على أن أجيبها الى ماطلبت، ان « حسن » يأتي الى التكية حقا ، وأنه صديق للحافظ محمد (وهذا حق) وأنه صديقي (وهذا ما ليس بحق) ، وسنتحدث معه ليقوم بما تطلبه منه ، لأنني متأثر بحزن الأخت على أخيها وباهتمامها بمكانة الأسرة ، ولأن الأسرة اذا خسرت شيئا فان الخسارة تلحق الجميع . ومن اجل ذلك تجب المساعدة حتى لا تحل الفضيحة بمن هم أحسن الناس بيننا وحتى نجنبهم ضحك الشماتة والسخرية الذي يصدر عندما تحل المصائب ببيوت كرام القوم ، كما يلزمني اداء الشكر لصاحب المكرمات الذي أوقف التكية (ذكرت والدها قصدا حيث لم ترد ذكره) . وأظن أن مقصدها كان حسنا وكذلك محاولتها ؛ اذ ليس هناك ما يؤكد لنا غير ذلك . غير أنه من الصعب أن يحرم الوارث الأول من حقه دون أسباب قوية .

ـ توجد الأسباب القوية .

ـ أتحدث عن المحكمة . حسن يتجر بالماشية ، هذا حق .. ولكن هذه المهنة ليست غير شريفة . ينفق ، نعم .. ولكنه ينفق مايكسبه . نصف ممتلكاته أعطاها لزوجته ، حقا .. ولكنه لم يبعه . فمن الصعب اذن أن نجد سببا ما ، فضلا عن أن يكون قويا .

احسست بأنني أكثر صمودا منها ، فقد تبدل ما كنت أحسه في نفسي ازاء هذه الشابة . لسنا كما كنا في البداية : هي المرأة ذات السيادة وصاحبة العيون الجميلة ، وأنا الدرويش الفقير الذي تلازمه طبيعته الريفية ؛ بل نحن الآن شخصان متساويان يتحدثان عن أعمالهما . وفي هذا المجال أحس أنني أقوى منها ، لقد كانت كلما أبديت موافقتي على ذلك الذي تتحدث عنه تنظر الى نظرات ملؤها الحنان والتقدير ، وهذا يعني أنها قد أدركت موافقتي تمام الادراك ؛ ولكن عندما كنت أقول مالايصادف قبولا عندها كان حاجباها ينقبضان ونظرها تشتد حدته اذ كان يبدو لها أن اعتراضي عليها نوع من الحماقة والتسلط .

قالت مهددة :

ـ سيحرمه الأب من حقه بكل تأكيد .

لم اهتم كثيرا بما اذا كان الأب سيحرمه من حقه أم لا .. كما لم يقلقني كثيرا غضبها . لقد أردت أن أزعزع اصرارها لأصل الى ذلك الذى يشغلني ، وهو موضوع أخى .

وقلت في هدوء :

ـ من الممكن أن يحرمه . ولكن الأب كبير السن وقد لزم فراشه منذ زمن ، وباستطاعة « حسن » أن يرفع الشكوى لابطال وصية الميراث بأن يطعن بمرض أبيه وفقدان قدرته وانه لم يكتب وصيته عندما كان فى كامل وعيه ، أو يشير الى أن أحدا قد دفع أباه الى ذلك .

ـ ومن ذا الذى كان يستطيع أن يدفعه ؟

ـ أتحدث عن الشكوى ، أيا كان الشخص . أخشى أن يصدر الحكم في صالح « حسن » وبخاصة أن المحاكمة لن تجرى هنا نظرا لوجود « عيني افندى » ولا نستطيع أن ننسى أن ل « حسن » صداقات كثيرة تستطيع أن تفيده .

نظرت الى في صمت وكانت قد خلعت حجابها الحريرى من قبل .. عندما وضعت الشموع .. وعندما بدأت تحكى قصتها القبيحة ، فبدت عيناها وسط ذلك الوجه الذى زاده القمر بهاء تلمعان فى قلق وإضطراب شأنها فى ذلك شأن اللهب المتصاعد من الشموع الموضوعة فى أرجاء الغرفة .

ان هذا الاضطراب لم تكن هى فى الحقيقة صاحبته ، ولكنني أقبله على أنها صاحبته . لقد بدر مني قليل من السخرية ؛ فإنا اعلم أنني أثير في نفسها القلق ؛ اذ أنها لم تكن تعتقد انني ، ساضع على عاتقها كل هذه الصعاب ، وان كانت تعلم يقينا أنني ساضع بعضها .

نظرت الى مشدودة الأجفان كأنها تحاول أن ترى على وجهي ما يدل على المزاح أو يشير الى عدم صدق يقيني وامكان ترددى ، ولكنها لم تر غير اليقين والحزن لجريان الأمور هكذا . لقد خيل الى أن غضبها يتزايد كأنه يندفع من غور عميق ويشتد تزايده لعدم استطاعتها أن تستند فى مقاومتها الى سبب يقوى على التبرير . وانتظرت عن قصد حتى امتلأت بالغضب ثم أوقفته حتى لا يحدث انفجار ، بأن وافقت على كل شيء أرادته ، ولكن ظلت هناك بعض المؤاخذات : لابد أن نقوم بنصحه كى تمر الأمور دون شكوى تقدم من جانبه . وقد ظننت أنها ستتمادى فى

كبريائها وستقاوم اية محاولة لجعل النزاع أمام المحكمة وتغيير رغبة ابيها ، وعندئذ تنتقل الى حديث آخر ابدؤه معها • ولكنها اظهرت تنازلها عن المقاومة فورا • لقد كانت في عجلة من أمرها •

قالت تسأل وقد راودها الشك :

ـ وهل سيوافق ؟

ـ يلزم البحث عن أسباب حسنة معقولة ، لا تغضبه ولا تجرحه ؛ اذ من الصعب حمله على غير رغبته •

ـ آمل أن تجد اسبابا حسنة ومعقولة •

هذه هي السخرية ، وقد يعزى ذلك الى تعجلها • لقد ظننت أن الأمور ستجرى هينة •

وهكذا ظننت انا ايضا •

قلت : سأحاول •

لا أدرى اتكون قد أحست في صوتي عدم الثقة ، والتردد ، والشك ؛ انني لا أدرى • كل ما أدريه أن ذلك الذى كنت أحسه من السرور قد ضعف وخبا •

ـ ألا تعتقد أنه سيوافق ؟

ـ لا أدرى •

لو انني تحملت لحظة واحدة فقط ، ولو كان حبي اخي اقوى قليلا من مراعاة الجانب الاخلاقي في نفسي لانتهى كل شيء على خير ، أو لكان قد انتهى على أسوأ حال • ولكن من يدرى ، لعلني انقذت بذلك أخي •

لم اتنازل بسهولة عن رغبتي ، كما كان يبدو ذلك • لقد وجدت في لحظة واحدة أسبابا لا حصر لها لكل من الوجهتين : أن أوافق ، وأن أرفض • وكثيرا ما كان السبب واحدا للوجهتين معا • كانت تنتظر ، وخلال تلك الفترة القصيرة من الانتظار والتي تقرب من فترة التقاط الانفاس ، دوت في نفسي العاصفة ؛ فقد كنت بصدد تقرير مصيرى ومصير اخي • سوف اترك لها حرية التصرف باخيها بعد ان يتورط فيما يقدمه له الاصدقاء من نصائح ، وسأتقاضى أجرى عن الجهد والخيانة ،

ولن تكون الخيانة كبيرة . سيعملون مايريدون بدوني ، وباستطاعتي أن اقدم المعونة كي يبدو الأمر جميلا . لماذا أخجل من نفسي ، ولماذا اتهمها ؟ انني انقذ أخي .

غير أنه كان لزاما على أن أصيح بأعلى صوت واصدقه كي اتغلب على ذلك الصوت الذي يناديني بداخلي . انني لا أدري ماذا فعل أخي ، ولا ادري الى أي حد هو مذنب ؛ ولكنني أعتقد انه لم يرتكب جرما كبيرا ، ذلك لأنه شريف ولا يبلغ من السن ما يمكنه من فعلة كبيرة . ولعلهم يفتحون له عن قريب أبواب السجن ليخرج منه . على أنهم اذا لم يفعلوا ذلك ، وحتى لو كنت متأكدا من انهم لن يفعلوه ، هل في استطاعتي أن أوافق على هذا التآمر الدنيء ضد الرجل الذي لم يقل لي في حياته كلمة نابية ! لا دخل للمال في هذه المسألة ، فانا لا أملكه ولا احترمه كثيرا في يد الآخرين ان المسألة تتمثل في شيء آخر خطير ، هو الظلم ، العمل القذر ، الغدر ، انتزاع الحقوق بالقوة . حقا انني لا اقدر أخاها كثيرا ، فهو ساذج ، متارجح ، عجيب في أمره ؛ ولكن كيف يكون موقفي أمام ضميري ، ولو كان هذا الأخ على درجة من السوء أكثر مما هو عليها الآن ، اذا أنا قمت بمعاونة هذه الشابة التي لا تبالي بأمور الآخرين في عملية القرصنة هذه .

ماذا قلت للآخرين اذن في حديثي اليهم طوال هذه السنين ؟ وماذا اقول لنفسي بعد هذا كله ؟ ان أخي الحي سوف يذكرني دائما بفعلي الدنيء الذي لن أستطيع فيما بعد أن أمحو أثره . انني في الحقيقة لا أملك شيئا غير اعتقادي انني شريف ، واذا فقدت ذلك تهدم كياني وصرت حطاما .

هكذا كنت افكر . وربما بدا للبعض عجيبا أن أتردد بين هذين الأمرين المختلفين ! لقد اصبح باستطاعتي ان ارتكب خيانة صغيرة لانقاذ أخي . ولكن اذا كان الرجل قد تعود أن يقيس تصرفاته بمقاييس ضميره الدقيقة وخشيته من الوقوع في الذنب أكثر من خشيته الموت فان ذلك لا يعد اذن عجيبا .

وعدا هذا ، كنت أعلم علم اليقين أنني لو ذهبت الى «حسن» وقلت له : تنازل عن حقك من أجل شأن أخي لتنازل فورا .

لكننى لم استطع . كما لم ارد ان أقول لها شيئا حتى اتحدث اليه.

قالت تتعجلنى ـ محاولة القضاء على ترددى ـ :

ـ لن استطيع أن انسى هذه الخدمة التى ستقوم بها ، فأنا حريصة على الا يثار اللغط حول عائلتنا .

يا الهى ، بم ستكافىء هذه الشابة خدمتى .

قم يا احمد نور الدين ، قم واخرج .

قلت ممهدا للقاء آخر :

ـ ساخبرك .

ـ متى !

ـ فور مجىء « حسن »

ـ سيرجع بعد يوم أو يومين .

ـ اذن بعد يوم أو يومين

نهضنا فى لحظة واحدة .

ولم تتحرك يدها الجميلة لتغطى بحجابها الشفاف وجهها .

كنا ندبر مؤامرة .

ولقد حدث أمر قبيح بيننا ، ولم أكن متأكدا اننى بقيت بالتمام طاهرا .



« رب انهم لا يؤمنون »

كان القلق الذى لازمنى حتى لحظة دخولى المنزل ينتظرنى صابرا عند خروجى منه ، كما لو كنت قد تركت شيئا ثم خرجت لآخذه ٠

غير انه الآن صار أكثر تعقيدا مما كان منذ قليل ؛ فقد اتسع مداه، واشتدت وطأته ، واصبح من المتعذر تحديده ٠ انني لم أرتكب شيئا من الشرور ، ولكن بقيت هناك ذكرى ما كان من هدوء رهيب ، وظلام تتعذر فيه الرؤية ، واضواء عجيبة تلوح وتختفي ، وانتظار ممل ، وضغط نفسى مريع ، وافكار يجملها الاستتار وتزينها البسمة ، واسرار خجلى ٠ وكان يخيل الى أننى لم اصب شيئا مما كنت اهدف اليه ، وانني يقينا قد أخطأت فى شىء ، ولكنني لا أدرى فيم ، وكيف ٠٠ نعم لا أدرى وانما أحس أننى لست هادئا ٠ لقد تحملت بصعوبة ذلك الاحساس بالقلق ، بالاضطراب الذى لم أستطع تحديد سببب له ٠ وربما كان ذلك لاننى لم أذكر اخى ولم احاول ان أزج بموضوعه خلال حديثنا ــ والحق أننى قصدت ذلك حتى لا افسد شيئا ــ أو لاننى حضرت مجلسا دار فيه حديث قبيح ، واستمعت الى نوايا خبيثة ، ولزمت الصمت فلم أتول الدفاع عن الرجل البرىء ٠ غير أنه كان لدى من الامور ما يعد أهم من هذا كله ، واذا فليس من الانصاف ان أشتد فى القاء اللوم على نفسى ٠ وكنت كلما قربت الى نفسى أمرا من هذه الامور وجدت مبررا للاعتذار ، ومع ذلك فقد بقى القلق يسيطر على نفسى ٠

كان القمر يرسل ضوءه الحريرى المترقرق ، وشواهد القبور تشع بالدفء ، ومن بين المنازل كانت تنبعث همهمات ليل تقطعت أوصاله ٠ وفى الأزقة وافنية الدور اخذت تدب حركات الفتية والفتيات ويسمع الضحك والاغانى البعيدة والهمس ٠ وبدت القصبة فى هذه الليلة (ليلة

عيد ماري جرجس) ترتجف وتموج وقد أخذتهـا حمى الحركة • وفجاة شعرت دون ما سبب أنني في عزلة عن هذا كله ، وتملكني الرعب ، وبدأ كل شيء يتخذ مقاييس عجيبة • ولم تعـد الحركات هي الحركات المالوفة ولا الناس هم الناس الذين نعهدهم ولا القصبة هي القصبة التي نعرفها• وما رأيت قط هذه الاشياء في مثل هذه الحال • وما كان يدور في خلدي أن في استطاعة الناس أن يتغيروا بهذه الدرجة في يـــوم واحد وساعة واحدة ولحظة واحدة • كان دماء الحوريات قد ثارت ولم يستطع احد من الناس ان يقوم بتهدئتها • لقد رأيتهم زوجا زوجا وسمعتهم زوجا زوجا• كانوا وراء جميع الأسوار ووراء سائر البوابات • لم يكن ضحكهم ونظرهم وحديثهم كما كان في الايام الاخرى ، وكانت أصـــواتهم قـــوية تشبه الصياح ، وصراخهم ينطلق كالرعد في هذه العاصفة التي تنـذر بالشر ، والجو كان مشبعا بالذنوب • والليل قد امتلأ بها ، وستحلق الساحرات فوق أسطح المنازل التي انسكب ضوء القمر على أجزاء منها فاشبه انسكاب اللبن • ولن يبقى أحد من الناس عاقلا ، فسينفجر الجميع من الشـهوة والغيظ وقد أصابهم الجنون والرغبة في هلاك أنفسهم جميعا في لحظة واحدة • وأما أنا فالى اين أتجه ؟ يجب التوجه الى الله وطلب الرحمة منه لجميع المذنبين أو عقوبتهم ليعودوا الى صوابهم • كان الغضب يسرى في أوصالي كما تسرى الحمى أو قشعريرة الاغماء • أليست هناك نتيجة لكل ما نفعله ؟ أأصبحت كلمة الله التي ننشرها وندعو اليها بكماء هامدة ، أم أصبحت أذنهم صماء لا تعيها ؟ أضعف الايمان الصحيح فيهم حتى أوشك على الانهيار أمام قطيع من الرغبـــات المسعورة كما ينهار السياج أصاب العطن أعواده ؟

ترامت من وراء الأسوار الخشبية أصوات ساخنة تصدر من الشابات اللاتي يستعددن للعيد بوضع البيض الأحمر مع زهر الـ « ميلو دوح » في القدر الممتلىء بالمـــاء ، كي يغسلن وجوههن به عند طلوع الفجر • انهن يعتقدن كسائر المتبربرات في القـوة السـحرية التي تكمن في الازهار والليل •

انطلق صوتي خلال السور الخشبي يقول : عدمتن الحياء ! عدمتن الحياء والخجل ! بأي دين يكون ايما نكن ؟ ولأي شيطان تسلمن أنفسكن؟

كان من غير المجدى أن نفعل أو نقول شـــيئا في تلك الليلة على الأخص • وفي منتصف الليل ســـتذهب هؤلاء الفتيـــات الى الطواحين وسيغتسلن عاريات فيما يتناثر من ذرات مياهها قرب العجـلات مشبها

البخار ، والشياطين الذين يقومون فى ذلك الوقت من أوكارهم سيضربونهن بأكفهم المغطاة بالشعر على أفخاذهن الرطبة التى تلمع تحت ضوء القمر ٠

أخذت اقول لهؤلاء العابرين من الشبان المراهقين : اذهبوا الى بيوتكم ، غدا عيد مارى جرجس ، عيد النصارى وليس عيدنا ، لا ترتكبوا الذنوب ٠

ولكن الأمر لديهم على حد سواء ، وكذا لدى السكان جميعا فى هذه القصبة ٠ وليس هناك من يستطيع أن ينتزع منهم تلك الليلة ٠

لقد أصبح لهم منذ القديم حق فى ارتكاب الذنوب ، يمارسونه فى ليلة عيد مارى جرجس ، ويحافظون عليه ، غير مبالين بدينهم ، بل فاعلين ما يحرمه ٠ يرتكبون الفواحش فى الساعات الاربع والعشرين الممتلئة بالروائح المغرية التى ينشرها زهر الـ «ميلوروح» كما ينشرها الحب ٠ ان هذا الزهر يشم من رائحته الشريرة رائحة المرأة ، وهذا الحب يشم من رائحته رائحة أفخاذ المرأة ٠

لقد انتصرت الذنوب فى هذا الالتحام بين النهار والليل ، وبدت كأنها انسابت من دلو كبير ، أو اندفعت من وعاء الرغبة المحكم ٠ ان الزمن البعيد الذى نراه غريبا عنا يزحف فى اثرنا أقوى منا متمثلا فى ثورة الجسد التى تستمر لحظات ثم تظل ذكراها الى أن تأتى من جديد ثورة أخرى ٠ وهكذا يسير الأمر دون توقف ٠ وكل شىء عدا هذه الثورات التى حققت انتصار الذنوب منذ الأزل كان يمر على الخاطر مرا سريعا ٠ وفى الحق ان الفاجعة لا تتمثل الفاجعة فى تلك الفواحش قدر تمثلها فى استمرار ما يرتكبه الآخرون من الشرور خلال العصور ، ذلك الاستمرار الذى تفوق قوته قوة الايمان الصحيح ٠ ماذا فعلنا ؟ ماذا أفدنا ؟ ماذا هدمنا ؟ وماذا بنينا ؟ أليس من العبث أن نحارب الغرائز الطبيعية التى هى أقوى من اى شىء يستطيع أن يقدمه العقل ؟ الا يكون أكثر جفافا واقل جاذبية ذلك الذى نقدمه بدلا من تلك السعادة المترعة التى لا تأبه بعقل او قانون ؟ بأى شىء نواجه تلك المفاتن التى تدعونا منذ الأزل ؟ الا يقوم أجدادنا القدامى الذين كانوا يعيشون فى البرية بالاستيلاء علينا والعودة بنا الى زمنهم ؟ اننى لا ارغب فى شىء آخر سوى أن يكون خوفى أشد مما تكون عليه الحقيقة ؛ ولذا اخشى ان يكون نظر روحى القلقة أصفى من نظر هؤلاء الاخوان الذين ترى لديهم الدنيا أقرب من الآخرة ٠ اننى لا أتهم أحدا ٠ ربى ، أنت تعلم كل شىء ٠ فكن رحيما بى وبهم وبجميع المذنبين ٠

تذكرت تلك الليلة ، ولا زلت أذكرها · ذكرتني بهـــا على الأقل حرارتها التي كانت تضايق أنفاسي ، وفراغها الذي كنت اشعر به وأحس فيه بشهوة الآخرين تسحقني · وقد شاءت ارادة الله ألا تكون هذه الليلة على غرار الليالي الاخر ، كي ينهار على فيها ـ كما لو كانت موعد لقاء أعد منذ زمن طويل ـ مايشطر حياتي ، وكي يباعد بيني وبين ما كنته خلال أربعين سنة مرت في هدوء ·

سرت في طريق العودة الى التكية ، خائر العزم محطم النفس ، ولعل الوحيد الذي أصابه الهم من سكان القصبة في تلك الليلة ·· كنت معذبا بما رأيته من تلك الفوضى التي سادت الأزقة وغيرت مظهرها ، وبهذا الضوء الخافت الذي يرسله القمر ، وبالخوف المنبعث دون سبب ما في نفسي ، وبعدم الاطمئنان الذي يملؤني بالنسبة للعالم · كنت كانما أمر بين بيوت محترقة ، وقد بدت التكية الهادئة النائمة كانها الملجأ المبتغى أو الحصن المنشود ، تردني جدرانها الضخمة الى الهـدوء الذي اراني في حاجة اليه والى السكون الذي لن يكون منفرا · سوف أتلو سورة يس ، وسوف أعيد بالدعاء الاطمئنان الى نفسي التي تتعذب بصورة أشد مما يرضى عنه الله ؛ اذ ان المؤمن الحق لا يسمح لليأس والتعاسة بالتسرب الى نفسه ، وأما أنا المذنب فقد بلغت من التعاسة مبلغا جعلني أنسى السبب الذي وجدته في الطريق ، وكنت أستعين على استعادته بقـــوة ذاكرتي ، وذلك كي يكون هناك ما أعزو اليه قلقي · لقد اردت أن يكون ذنب هذه التقاليد الوثنية التي قوى التصاقها بنا هو السبب الوحيد ، اذ كيـف يمكنني أن أترك الآخرين يعيشون في ظلام ·

لم يكن من الضروري أن أجـري وراء الســاهرات بالازقة في تلك الليـــلة ، اذ لم أكن أهتم بذنوب الآخرين · ولكني كنت أريد أن أنحي افكاري عن أخي وعن المحنة التي هبطت على · وقد نجحت فقط في أن أعود كسير النفس فاقد الاطمئنان ·

كثيرا ما كنت أتردد في بعض الليالي على شاطيء النهر تحت ضوء القمر ، تاركا لخواطر ذكرياتي الهادئة أو للرغبات غير الواضحة أن تستولى على شيئا فشيئا ، وكنت كلما أحسست في نفسي بالهدوء الصافي الذي لا ينذر بالعواصف عرفت أن قدمي ستتجهان بي الى هناك · ولكنني عندما كنت أتوقع ولو قليـلا حدوث شيء من العواصف كنت أحبس نفسي بين جدران غرفتي الاربعة ، وألزمها السير في الطريق الثـابت المعروف ·· طريق العبادة · ان بين هذه الجدران يكمن شيء حبيب الى نفسي كذلك الذي

يكمن فى تلك الاشياء العائلية المتوارثة التى أصبحت جزءا لا يتجزأ منا ، كما اصبحت لنا بمثابة تعزية معروفة ومقبولة تهدىء وتميت الفكرة الخطيرة التى فى نفوسنا أحيانا دون رغبتنا ، وأصبحنا كذلك نؤمن بها دون تفكير ونلقى بضعفنا تحت قوتها المستمرة عبر القرون ، ونقلل من همومنا الانسانية ومصائبنا التى اعتدنا أن نقيسها بمقاييس ازلية ثابتة وأن نضعها هكذا فى موضع غير متساو ونقوم بجمعها حسب مقاييس ضئيلة الشأن •

لم أستطع فى تلك الليلة أن أمكث فى الحديقة ؛ فقد كان لزاما على أن أنفرد بنفسى بغية النسيان • وفى الحق لقد كان كل شىء هنا مغريا ؛ فضوء القمر ينساب رطبا تفوح منه رائحة الكبريت ، والزهور تنشر بقوة ووفرة رائحتها المثيرة ، وقد كان من الواجب انتزاعها والقاؤها تحت الأقدام كى لا يبقى سوى بعض النباتات الضارة ، وأرض قد اجتث ما بها من زروع ، وقبور دون شواهد ؛ لئلا تذكر بشىء ، لكى يبقى الفكر الانسانى المجرد ، دون صور ، ودون رائحة •• دون علاقة بالاشياء التى توجد حولنا • وهذا النهر يجب أن يوقف حتى لا يرسل فى سخرية خريره ، وهذه الطيور التى توجد فوق فروع الأشجار أو تحت أسقف المنازل يجب أن تخنق لكى تشقشق بلا وعى • والطواحين التى تغتسل تحتها الفتيات العاريات يجب أن تهدم • والأزقة يجب أن تسد• والبوابات يجب أن تسمر • ولا بد من استخدام القوة فى تهدئة الحياة حتى لاينطلق الشر •

الهمنى الرشد ياربى •

لم أكن أفكر على الاطلاق بهذا الغضب الجامع فى الناس وفى الحياة• لقد احسست بالفزع • من أين أتتنى هذه الرغبة فى الا يكون هناك شىء؟

أردت أن أدخل غرفتى ، بل كنت مضطرا الى دخولها ، ولكننى لم أستطع • كان الليل الذى كنت أكرهه يجذبنى بقوته العجيبة التى كانت تفوق قوتى • وعندما استسلمت اليه أحسست بالهدوء ؛ فقد استولى على بطغيانه الذى خففت من حدته أنغامه الهادئة الحالمة التى انطلقت تسلى نفسها ، وبسرابه الذى كان يشكل حركات يصعب رؤيتها ويبدى أشباحا وأشكالا على جانب من الغرابة وينشر روائح تنفذ الى الدم وتصبح جزءا منى وتشم منها رائحة الحياة التى تترابط أصواتها الدقيقة وحركاتها لتشكل شيئا تفوق صلابته جميع ما كنت أريده •• شيئا لا ينفصل عنى بل كأننى واياه شىء واحد •• شيئا لم يكتشف بعد ولكنه سيظل امنية •

ولقد نسيت منذ قليل أن ضوء القمر كان رطبا ، وأنه ينشر رائحة كبريتية ، وكان ذلك بتاثير الخوف منه • والآن قد زال • ها هو ضوؤه الهادىء فوقي وفوق العالم ، فآثار ذلك الخوف اذن هو من شيء في نفسي •• من شيء كان يمكن حدوثه أو يتوقع حدوثه اذا استمررت على حالة الفراغ هذه بدون دفاع وبدون حماية ، ولكنه قد حدث • فاما أن أزيل ذلك الخوف باستعادتي قوة التحمل وبايقاظي الضمير وبتقويتي مالدي من ارادة ، واما أن تندفع من خلايا دمي السوداء رغبات غير معروفة، وسيكون الوقت قد فات اذ ذاك ، ولن أستطيع أن أتيقن أنها ماتت او احتبست ، وعندئذ لن أكون مرة كما كنت من قبل • ولكن يخيل الى أنني لا أملك القوة على ايقاف هذه الرغبات •• لاعيدها الى ظلام مقرها المحدد لها ، وأنني كذلك لا أرغب في ايقافها • لم يتضح لي بعد كنه هذه الرغبات ، وكل ما أعرفه أنها كانت قوية ، ويمكن الجزم بأنها ليست بريئة والا لما كان لها أن تعمد الى الاختفاء •

في تلك اللحظة ، لحظة الضعف والانتظار التي كنت أرجو استمرارها ، نجاني الله من تهدم خطير • واقول « الله » لان الصدفة لم تكن لتستطيع أن تكون هكذا موافقة ، وان تكون لها المبادرة بذلك الحسبان الدقيق ، حتى تأتي في تلك اللحظة القصيرة الخاطفة ، حيث أخذت القوى المجهولة تستعر في نفسي • نعم لقد كانت مجهولة لان نظري الباطن لم يسلط عليها الضوء بعد ، ولكنها كانت متجمعة وفي طريق الاستعداد للانطلاق • وبعد ، فحين كنت أتحدث مع «ملا يوسف» شعرت بابتهاج ، ولكنني شعرت في الوقت نفسه بالم لانني لم أستطع ادراك كنهها ؛ ولذا كنت مضطربا داخل نفسي ، وظاهرا بمظهر الهدوء الذي تعودت الاستتار خلفه أمام الآخرين •

لقد اقترب « ملا يوسف » في هدوء ، وسمعته عندما صرت الرمال تحت قدميه اللتين تسيران بحذر وعندما لفحتني حرارة أنفاسه • عرفت من هو على الفور دون أن أدير وجهي ناحيته ؛ اذ لا أحد هناك يطأ الارض هكذا في صمت • وقد أتيح له ذلك بفضل تدربه منذ زمن بعيد على السير بالخطوات الحذرة •

ـ هل شغلتك عن التفكير ؟

ـ لا •

كان صوته هادئا ، يخفي وراءه شيئا دون مهارة في تصنع الاخفاء ، اذ كانت نبراته تعلن عن ذلك ، وعيناه تكشفانه بلمعانهما واضطرابهما •

لن أساله شيئا • يجب ان يقول هو بنفسه • لقد ارتضى ألا تكون هناك أسرار شخصية عدا تلك التى لا يمكن لأحد ان يعرفها • فالنظام فى التكية شديد ، ولو لم يقل اين كان لظل يذكر طيلة حياته هذا الكتمان •

ـ كنت فى تكية « سنان الدين » حيث كان عبد الله أفندى يتحدث عن المعرفة •

ـ عبد الله أفندى هذا ناسك • وهو أحد أتباع الطريقة البيرامية •

ـ أعرف ذلك •

ـ ماذا قال ؟

ـ كان يتحدث عن المعرفة •

ـ أهذا كل ما تعرفه ؟ أما حفظت شيئا ؟

ـ حفظت الأبيات التى قام بشرحها •

ـ لمن هذه الأبيات ؟ •

ـ لا أعرف

ـ فلاسمعها •

ـ لا يعرف أهرمان سر وحدانية الله •

سل آصف فهو يعرف ذلك •

هل يستطيع العصفور ان يبتلع اللقمة التى تبتلعهـــا العنقاء هل تستطيع الجرة أن تستحوذ على مياه البحر الكبير ؟ » •

ـ هذه الأبيات لابن عربى • وتقـــول ان معرفة حكمة الله ممكنة للأصفياء فقط ، للقلة النادرة فحسب •

ـ وماذا يبقى اذن لنا ؟ •

ـ أن نعرف ذلك الذى نســتطيعه • فالعصفور اذا لم يستطع أن يبتلع اللقمة كالعنقاء فسياخذ منها ما يستطيع ابتلاعه • وانت بالجرة لا تستطيع أن تستحوذ على مياه البحر جميعها ولكن هذا القدر الذى تناله بها هو من ماء البحر •

اندفعت مسرعا أدحض في سهولة ويسر صـــوفية ابن عربى ، وقد تملكنى السرور وداخلتنى المتعة • ولعلنى كنت أرى للمرة الاولى أن السموات وأسرار الكون ، وكذا أسرار الموت والوجود أنسب مجـال يستطيع الانسان أن يلجأ اليه فارا من هموم الدنيا • ولو لم توجد تلك الأشياء لوجب ابتداعها لتكون لهؤلاء الأناسى بمثابة الملجأ •

ولكن هذا الرجل الشاب لم يكن على درجة تؤهله لسماع مثل هذا الحديث • فالانسان يتحدث غالبا من أجل نفسه • ولكن يجب أن يحس صدى كلماته • وقد كان هذا الشـاب يقف امامى • وقد اضاء القمر وجهه بحيث يستطيع الناظر اليه أن يرى جميـــع ما به من خطوط • وقف وقفة المطيع لا يستطيع الانصراف حتى أسمح له به ، ولكن فكره قد انصرف عنى ، والله يعلم أين ذهب ، والى أى مسافة وصل • اننى لا استطيع أن أظفر به • لقد ترك الجسد يعبر بوجوده الفارغ عن اطاعته الواجبة • كانت الابيات والتصوف والمعرفة بعيدة عن اهتمامه وعن امكانية فهمه ، حتى انه كان يسمع بعينيه مراقبـا تلك الحركات التى تأتى بها شفتاى • وكان هذا الوضع بالنسبة الى أكثر سـخفا من أن أصيح فى بئر خالية فيرتد الى على الأقل صدى صوتى • انه لم يبذل ولو محاولة من أجل الفهم كى يستجيب الى رأيى ولو لم يفهمه • ولم يطل كذلك سماعه لهذه الأبيات فى تكية « سنان الدين » •

كان عديم الخبرة ، فقد عرض نفسه لضوء القمر ولم يكن قد تعلم بعد كيف يتوارى فى الظلمة ، أو يستتر خلف المظاهر الخادعة ، فعيناه كانتا تحملقان كأنه يبالغ فى السماع ، ولكن لمعانهما المشاهد قبل هذه اللحظة يشهد ضده ، يقول انه لا يسمعنى ، يكشف أمره • ماذا تحمل هاتان العينان ؟ أية صـــورة أو أية ذكرى ، أية كلمة لا يزال الى الآن دويها ، أية صحوة حالمة ، أية خطيئة ؟ ان ضوء القمر الشاحب لم يستطع أن يخمد لون خديه اللذين أشرقا بما ارتسم عليهما من علامات الرجولة لفلاح شاب قد اكتمل نضجه ، وبما تدفق من دمه القوى فيهما • ماذا يطلب فى هذا الهدوء الذى يسود هذا المكان المقدس ، فى هذه القيود الشديدة لطريقة الدراويش • انه من أصحاب الدنيا ، من أصـحاب ليلة عيد مارى جرجس ، من عشاق الظلام الدافىء الذى يخالطه بعض الضوء والذى يبعث على الذنب • وأن رائحة « الميلو دوح » تنتشر منه ، جاء بها فى يديه •• فى انفاسه • لقد استولى عليه سحر الأزقة التى

انطلقت فيها الغرائز ، وامتلأ سمعه بهمسات القطا فلم يسمع شيئا بعد • ولعله مازال يحس فى كفه الخدرة بدفقات دم لجسد آخر قد امتلأ شبابا • وكنت ترى اللهب الذى يصعب تهدئته والذى يضيق به جسمه يخرج مندفعا من خلال فتحتى عينيه • لقد أصابه دنس هذه الليلة فأصبح مدنسا ، ملفوحا ، مستنيرا ، مطهرا • ولذا يجب ان يوضع هذه الليلة خلف سبعة أقفال كيلا يحترق فى ناره ونار الآخرين • سوف يخنقه هدوء هذه التكية وانفراده فيها • لماذا لا يعود الى الليل ، لماذا لا يبقى على الحالة التى تمثل حقيقته ، فمن الصعب أن ينتظر طويلا حتى يبزغ الفجر • ان رائحة « الميلودوح » تنتشر فى هذه الليلة ، وسوف يحدث شىء فيها •• شىء مفزع للغاية ، فالقمر سيظل طويلا ، وعلى ضوئه المتموج الذى تترامى فيه ظلال كثيرة مسعورة ستنبعث شرارات من قطرات الماء تحت الطواحين ، وسوف ينشر القمر ضوءه أسفل تلك الأشجار التى تسمى بالحورات الرومية ويظل يطلق نداءه طول الليل • يجب الذهاب تلبية لندائه الى هذه الليلة التى تبقى بعد زوال كل شىء فيها • يجب الذهاب دون صحبة أحد نعم يجب الذهاب والتسكع •• الذهاب دون عودة •• الذهاب من أجل الموت •• الذهاب من أجل الحياة •

ها قد طغى السيل • لم يستغرق هذا بالتأكيد غير لحظة تقدر بطرفة العين ، وقد أدركت ذلك بوقوف الشاب أمامى • وعلى وجهه ابتسامة صماء شاردة • انه لم يسمع شيئا •• لم يشعر بشىء من الجلبة فى داخلى •• لم يتعجب لما استولى على من الجنون فجأة ، من هذا الذى أصابنى كثورة بعد قلق وخوف من أجل أخى ، بعد شكوك كانت تهزنى من أعماقى • لقد اندفعت قوة الحياة التى كانت تنتظر انهدام الاسس التى كنا قد بنيناها ، واجتاحت فى هديرها المبادىء التى رعيناها وتعهدناها ، ولم تترك سوى الأنقاض والخراب • لم أستطع آنذاك ، وقد حلت لحظة الفزع هذه ، ان أحاكم نفسى ، أو ألجأ الى التوبة ، أو أتوجه بالدعاء الى الله • لقد كانت حرارة الموقف لاتزال فى درجة تعوق تصرفى ، وكنت كمن أصابه الرعد فهد كيانه وجعله مسلوب القوى •

قلت له فى هدوء : اذهب • قلت اذهب ، وربما لم أقل ، ولكنه فهم من حركة الشفتين او من حركة اليد ، فقد كان يرغب فى الذهاب • وذهب فى تراخ كى لا يظهر تلك اللهفة التى كانت دون شك تدفعه الى

الانطلاق كي يصبح في اقصر وقت منفردا بذلك الشيء الذى جاء به من عينيه . قلت اذهب فقد كان شاهدا على ما بدر من ضعفي ، بالرغم من انه لم يكن واعيا ولم يكن سميعا او بصيرا ، ولكنى اعلم انه كا نهنا ، ولم أكن ارغب أن أشعر بحياء امامه ، ولا أن أحس بكره تجاهه . أردت أن أخلو بنفسى .

لقد عرفت الاضطراب والقلق من قبل فى نفسى ، ولكن ذلك كان يأتي ويزول ، كأنه لحظة اغماء تمر بي ، كأنه صراع غير واضح ضـــد النظام فى نفسى . كان ذلك بمثابة زلات قصيرة لم تكن لتترك أثرا . أما في تلك الليلة فقد بدا لى أن ارتباكا شديدا أصابنى ، وأن جميـــع الاتصالات في نفسي قد انقطعت ، واننى لست كما كنت من قبل ، فقد ادركت أن احدى قدراتي بامكانها أن تحدث الدمار اذا استمر بقاؤها .

لقد شعرت أول ما شعرت بالخوف . انه مازال بعيدا ، ولكنـــه عميق ، محقق ، وكأنه كان من المعـــلوم أننى سأدفع حساب تلك اللحظة . سيعذبنى الله بقلق ضميرى ، ولن أنتظر طويلا حتى يتحقق ذلك . ربما فى هذه الليلة . وربما الآن .

ولكن شيئا لم يحدث . كنت أقف فى المكان نفسه ، وقد توارت قدماى فى رمل الحديقة ، مشتت الخاطر مهدود القوى ، أكاد لا أزال أحس بحرارة من أثر النار التى تلتهب فى داخلى . اغفر لى يا ربى . كنت أهمس بلا وعى ، بلا انفعال ، غير متذكر الدعاء الذى يمكن أن يساعدنى فى تلك اللحظة .

ابتعدت عن هذا المكان كما لو كنت أفر ، ووقفت بجانب السياج المطل على النهر .

خيل الى أنه لا توجد أية فكرة فى نفسى ، وأن حواسى قد تبلدت مما دهمنى . ولكن ياللعجب ، كنت واعيا كل شيء ، كنت اشد احساسا واشد تقبلا لكل شيء حولى مما كنت منذ قليل . كانت الأذن تتصــيد أصوات الليل الرنانة ، واضحة نقية ، كأنها كانت ترتد من الزجاج . وكنت اميز كلا منها عن الآخر ، وكلها كانت تلتقى فى هدير واحد ، تشكله أصوات المياه والطيور والرياح الهادئة واصوات بعيدة ضالة وعواء الليل الهادىء الذى تموجه ضربات الأجنحة المجهولة الخفية . ان شيئا من ذلك لا يضيرنى ولا يقلقنى . وددت لو تزايدت تلك الأصوات ، وكثرت الضوضاء ، واشتد الهدير ، وتعددت ضربات الاجنحة . وددت

لو تضاعف كل شيء خارج نطاق نفسى · لعلنى كنت أسمع هكذا بوضوح حتى لا يتسنى لى الاستماع الى نفسى ·

كانت هذه هى المرة الوحيدة فى حياتى التى تظهر فيها الاصوات والضوضاء ، وكذلك الاضواء والأشكال ، على حقيقتها ، كلحن ، كخرير ، كرائحة ، كشكل ، كرمز ، كاثبات للامور خارج حدود نفسى ، وذلك لأنى كنت أسمع وأرى فى بعد · دون تدخل ، ودون حزن أو سرور ، ودون تعرض لها بافساد أو اصلاح ، فقد كانت تعيش منعزلة ، دون مساهمة منى ، ودون تأثير عليها لتتشكل باحساساتى · هكذا كانت تعيش ، مستقلة ، صحيحة ، غير ممتزجة بفكرتى عنها ، تاركة تأثيرا خاملا كذلك الذى يتركه الشيء لا يتعلق بنا ولا يدرى صاحبه · كانت كشيء ما يحدث ويتم بالرغم من أى شيء آخر ، دون أن يرجى منه نفع ، ودون أن يكون هناك احتياج اليه · لقد باعدت بينى وبين هذه الأشياء فصرت منفصلا عنها ، عن جميع الأشياء من حولى · وبدا العالم فى صورة تقرب من الاشباح ، تدب فيه الحياة ولكنه خامل · واما انا فقد كنت مستقلا لا يستطيع أن ينفذ الى داخلى شيء ·

كانت السماء صحوا صافية ، لا توحى بالوعيد ولا تبعث على السلوى : كنت أنظر اليها فى الماء ، وقد انعكست صورتها ، وبدت هكذا متغيرة منكسرة ، فكانت بصيصا من الضوء قريبا منى ، ولم تكن ذلك الفضاء الرحب الذى يكتنفه الغموض · وكان يرى فى الماء الصافى انعكاسات لتلك الاحجار البيضاء تبدو كأنها بطون الاسماك التى تنام او تموت فى هذا القاع القريب الغور · كانت الاحجار مستترة جامدة تشبه فى ذلك افكارى ، غير أن هذه الافكار سوف تسبح ولن تبقى فى قاع نفسى · فلتكن كذلك · لتقم عندما تعود اليها الحياة ، عندما يكون فى استطاعتى ان أستحوذ عليها بالمعنى الذى لا يقتصر على التلميح · انها الآن هادئة ، وربما كان ذلك لأن حواسى قد انصرفت تمتع نفسها ، وتعيش منعمة فى جو من الهدوء لا أدرى كم تستمر مدته · ياللعجب ، ان الحواس تكون طاهرة وبريئة عندما لا أحملها طغيان الافكار أو الرغبات ، فهى فى هذه الحال تحررنى وتعود بى الى الطمأنينة ، الى زمن بعيد ربما لم يكن موجودا ، يبدو جميلا ونظيفا بقدر يجعلنى لا أومن بوجوده السابق ولو كانت الذكرى تحمله ما أجمل أن يتحقق ذلك الذى ليس فى الامكان ، أن نعود الى ذلك الحلم ، الى الطفولة البعيدة التى يتعذر ادراكها ، الى السعادة الواقية المنبعثة من مصدر أزلى تسوده

الحرارة ويغشيه الظلام • لم أشعر بالحزن ولا بجنون تلك اللهفة التى لم تكن رغبة اذ لا يمكن تحقيقها ولو كفـــكرة ، والتى كانت ترف فى داخلى كضوء خفت حدته ، ملتفتة ناحية الوراء الى جهة ما ، الى ماليس فى الامكان ، الى ماليس فى الوجود • وكان النهر يجرى الى الوراء ، وطيات الماء الصغيرة المكبلة بضوء القمر الفضى لم تكن تجرى ، ومرة أخرى كان النهر يعود الى منبعه ، والسـمك المتحجر ذو البطن الابيض أصبح طافيا على سطح الماء • ومرة ثالثة كان النهر يجرى الى منبعه •

وعندئذ أدركت ان فكرتى أخذت تستيقظ ، بادئة بتحويل ما أراه واسـمعه الى ألم ، الى ذكرى ، الى رغبات يتعذر تحقيقها • وبدأت خلايا مخى الغـاضبة تمتص وتتشرب • لقـد كانت قصيرة تلك اللحظات التى قضيتها فى الانفصال •

٤

« ام للانسان ما تمنى »

كانت هناك أصوات لأقدام تنبعث من الزقاق بجانب سور التكية المغطى بشـــجر اللبلاب ، لم أعرها أدنى اهتمـــام ، فقد كنت أتبينهـــا بصعوبة ، بواسطة شيء يمكن أن يبدو غير عادى ، ولكن التأثير ظل سطحيا للغاية ، غير متضح ، فالتشتت لم يكن يسمح لى أن أعقد صلة بين الظاهرة والسبب الممكن · وكذلك لم يكن لدى اهتمام بمعرفة ذلك الذى استطاع أن يمر بالتكية فى ذلك الوقت المتأخر من الليـــل ·· بالبيت الأخير لمكان الخروج من القصبة · لم يتحرك فى نفسى شيء ·· أية يقظة شعورية ·· أية هواجس · كانت تلك الخطوات تحمـــل من الدلالات قدر ما يحمله رفيف الفراشات فى الليل ، ولم يكن هناك شيء ينبهنى بأن تلك الخطوات تســـتطيع أن تكون نقطة فاصلة فى حياتى · ولو كنت أعرف ذلك لأغلقت الباب بمزلاج ضخم ، ولدخلت البيت · فلتحل مصائر الآخرين بدونى · ولكننى لم أكن أعرف ، وأخذت أواصل التأمل فى النهر ، محاولا أن أراه كما رأيته منذ لحظة ، وحده ، بدونى·ولكنى لم أوفق · وعما قريب سينتصف الليل ·· وشيئا فشيئا وجدتنى أتجـــه ، وقـــد استولت على الوساوس ، الى لقاء مع تلك اللحظة التى تستيقظ فيها أرواح الظلام بأنواعه ، متوقعا أن ينبعث من هدونى هذا شيء يمكن أن يكون خيرا أو شرا ·

عادت الخطوات ، هادئة ، أشد هدوءا مما كانت عليه منذ قليل · لم أدر كيف كانت ، ولكنى كنت متأكدا من أنها الخطوات الاولى نفسها · شيء فى داخلى كان يعرف ·· شيء غير عادى لم يكن يدور بخلدى أدركته الاذن ، ووعته ، احدى الخطوتين كانت حذرة ، والأخرى غير مسموعة ، وربما كانت مسموعة ، اذ أنه لا يمكن أن نتصور أن أحدا يسير على قدم

واحدة ، ولذا كنت أخلق بنفسى صورة لتلك الخطوة الأخرى غير الموجودة· لم يسمع ما يدل على الخفير ، أتكون الروح ذات القدم الواحدة قد بكرت في الحضور ·

توقفت الخطوات أمام الباب : الخطوة الحقيقية الهادئة ذات الحذر ، والخطوة غير المسموعة التى صورتها ·

التفت وانتظرت ، بدأت الخطوات تهمنى ، شدتنى بما تبعثه من فزع · كان ولا يزال بامكانى ان اتجه ناحية الباب واغلقه بمزلاجه الضخم ، ولكننى لم أفعل ذلك · كما كان باستطاعتى ان أستند على الباب الذى نخره السوس وان أسمع ، أيتنفس صاحب الخطوات ، أم أنه انطلق ، أم تحول الى ظلام · ولكنى انتظرت ، كنت أساعد الفرصة دون أن اشترك فيها ·

سمعت الخطوات في الزقاق ، كانت أكثر من ذى قبل ، كانت تجرى فى سرعة ونظام · هل سيلحق بهم صاحب القدم الواحدة ، أم أنه ليس موجودا بعد ؟ ·

فتح الباب ، ودخل شخص ·

وقف عند المدخل واستند بظهره على الباب العريض ، كما لو كان منهوك القوى ، أو يريد أن يمنع أحدا من الدخول · كانت تلك الحركة تصدر دون وعى ودون جدوى ، فجسده النحيل الصغير لا يستطيع ان يقوم بمنع أحد من الدخول ·

كان هناك شجرتان تلقيان بظلهما على الباب ، وكان ذلك الشخص يقف فيما شع بين الظلال من ضوء ، كأنه محكوم عليه ، منفصلا ، مكشوفا ، وكان يود دون شك أن يختفى فى احلك ظلام · ولكنه لم يجرؤ على التحرك · لقد مرت الخطوات فى حالة انطلاق ، وكان يسمع وقعها على أحجار الطريق ، ثم هدأت عند المنحنى فى المضيق ، حيث موقع حراسة الارناءوط · لقد سأل المطاردون دون شك عن هذا الذى يقف متصلبا على الباب · وأدركت أنا وهو أن المطاردين سوف يعودون ·

كان كل منا ينظر الى الآخر ، ثابتا في مكانه ، وقد لزم الصمت • وعبر المسافة التي تفصلنا من الحديقة ، وعلى اللوح الحجرى في مدخل الباب ، رأيت رجله الحافية ، وكان وجهه أشد بياضا من جدار التكية • ومن هذا الوجه الابيض ، وهاتين اليدين الضعيفتين المصلوبتين ، وهذا الصمت ، برزت صورة الفزع في هذا الانتظار •

لم اتحرك ولم أطلق من فمى كلمة ، حتى لا أخل باللعبة المثيرة لتلك المطاردة والفرار • وكان انتظارنا يزداد توترا كلما قل امكان بقائنا على هذا الوضع • أحسست أننى جذبت الى شيء غير عادى ، الى شيء صعب عنيف ، لم آكن أعرف من منهم العنيف ، أهذا الذى يفر أم هؤلاء المطاردون ؟ ولم يكن ذلك يثير اهتمامى فى هذا الوقت ، كانت المطاردة تنشر رائحة الدم والموت ، وكان كل شيء يتقرر أمام عينى لقد برق فى خاطرى أن الحياة بذاتها تشكل عقدة دموية ، وربما كان هذا بصورة أقوى مما كنت أظن •• أشد امتلاء •• أكثر قربا ، بادية الخشونة ، وهذا هو شانها على الدوام ، في جميع المطاردات الصغيرة والكبيرة التى لا تنقطع • لم آكن متحيزا الى أحد الجانبين ، ولكن موقفى كان مهما على وجه الخصوص • كان يثيرنى ما كنت أستطيعه وهو أن أكون قاضيا ، وأن أقضى بكلمة واحدة تسمع على الملأ فى كل شيء ، فمصير هذا الرجل كان فى يدى ، لقد كنت بالنسبة اليه قدرة ، وما شعرت قط بمثل هذه القدرة فى ذلك الذى يمكننى القيام به الآن • اننى لم أغدر به ، فنحنحة بريئة منى ، أو سعال عادىء يصدر عنى كان كفيلا بأن يعرضه للهلاك • ولم يكن امتناعى عن ذلك لأن عينيه اللتين لم اتبينهما جيدا من مكانى هذا تقسمان دون شك طالبتين منى الرحمة ، أو لأن فعل ذلك ربما كان فيه الظلم ، وانما لأنى أردت أن تستمر تلك اللعبة حتى آكون متفرجا وشاهدا ، مفزعا ومثارا •

رجع المطاردون ، لم يعودوا يجرون ، بل كانوا يسيرون ، مضطربين ، غاضبين فقد تعقد كل شيء ، والآن لم يعودوا مطاردين فحسب بل متهمين كذلك : فهروبه كان معناه اتهامهم • وهنا لم يعد فى الامكان أن يحل الأمر سلميا ، فالنتيجة على آية حال لا بد أن تكون شرا •

لزم الصمت كل من اشترك فى هذه اللعبة ، أنا والهارب والمطاردون كان الأرناءوط الذين يقومون بالحراسة عند المضيق يغنون اغنية ممطوطة

الأصوات أتوا بها من موطنهم الاصلى ، وكانت تلك المرثية الغريبة التى تشبه نشيج البدو تزيد صمتنا كآبة ووحشة •

اقتربت الخطوات ، هادئة مزعزعة ، وبدأت أتابعها بتوتر عميق ، وكنت كأنى آونة مطاردا ، وآونة هاربا ؛ اذ لم أكن فى الحقيقة هذا ولا ذاك • تمنيت بشغف عظيم أن يقبض عليه ، وتمنيت أيضا أن يقوم بالهرب وعجيب أن يمتزج فى داخلى الخوف على الهارب والرغبة فى الصياح لأنبه على مكان وجوده • لقد كان هذا كله يتحول الى متعة مشـــوبة بالقلق والضيق •

وقف المطاردون أمام البـاب ، وامسكت عن التنفس ، وبالعضلات المشحونة بالتوتر وبحال نفد معها الصبر كنت أحيا تلك اللحظة التى كانت تقرر مصيرى أيضا •

امسك الهارب دون شك عن التنفس أيضا • لم يكن يفصله عن المطاردين غير اللوح الخشبى الدقيق ، غير مسافة أقل من الشبر ، ولكنهما كانا على بعد ، كأن جبلا يفصلهما ، هم بالجهل وهو بالأمل • كان لايزال مصلوب اليدين ، ووجهه يلمع لمعان الفوسفور • ازداد توترى ، وبدأت تهتز أمام عينى مفارق يديه ورجليه ، واستحال وجهــه الى بقعة بيضاء أصبحت علامة دالة على فزعه •

هل سيفتح المطاردون البـاب ويدخلون ؟ أتنزلق قدمه على الحجر الأملس فتنبههم ؟ هل أسعل بدافع من التوتر فيكون ذلك نداء منى ؟ لو حدث شيء من ذلك لالتقى المطـاردون والهارب وجها لوجه ، ولقـاومهم لحظة واحدة فقط اذ كانوا أكثر عددا ، ولكان صراع بين يأسين ،ولتحققت النهاية للهارب ، فسينقضون عليه بغلظة وخشونة بسبب ما تملكهم من الخوف والغضب من جراء فقدانهم اياه ، وبسبب ما استولى عليهم من السرور بظفرهم به ، ولنظرت حل المعضلة فى اشـــمئزاز ، ولرجوتهم فقـــط أن يغـادروا حديقة التكية • ولكنى فى تلك اللحظة أحسست باحساس الهارب ، وكان ذلك بطريق الصدفة ، اذ كان فى الامكان ان يراودنى احساس المطاردين ، وربما لم يكن ذلك بطريق الصـدفة • لقد رايت الهاب وتمنيت أن يبتعد عن الباب هؤلاء الذين لم أكن قد رايتهم ، لكى لا أرى النهاية البغيضة • وخيل الى أن أمنيتى هذه تساعد الرجل الذى يدافع عن الحياة بهذا الضعف ، وتمنحه شــيئا من الأمل فى ان يصادفه الحظ السعيد •

وحقا ، كان ارادتى القوية أثرت ، فابعدت الخطوات عن الباب ، ولكنها توقفت فى غير نظام ، فالبعض منهم لم يكن على يقين بشأن ما اذا كان يلزم القيام بمحاولة أخرى ، وما زال باستطاعتهم الرجوع ، ولكنهم لم يرجعوا ، بل واصلوا السير منحدرين فى الزقاق، ومتجهين نحـــو القصبة ٠

ظل الهارب فى وضعه الذى كان عليه ، ومن المؤكد أن تصـــلب عضلاته قد قل ، وأن قوته كانت تتضاءل كلما ابتعدت الخطوات عنه ٠

كان من الخير ان انتهى الأمر هكذا ٠ فلو قبضوا عليه ، أو ضربوه امامى ، لاحتفظت ذاكرتى طويلا بصورة غليظة ، ولكان فى الامكان أن يظهر الندم على ما جال بخاطرى لحظة من استعدادى لتسليمه اليهم ، وعلى ما كنت احسه ــ متألما ــ من تنعم ٠ ولكنى تنعمت بهذه العملية لصـيد الأناسى ، وسوف تكون صورة الندم أضعف من ذى قبل فيما لو تحقق ظهوره ٠ اننى لم افكر فيمن يكون المخطىء ومن يكون صاحب الحق ، فما كان هذا يهمنى ؛ لأن الناس يتباحثون فيما بينهم من حساب ويكتشفون ما يجرى من الخطأ بسهولة ، والعدل هو الحق فى أن نفعل ما نظنه واجبا وعندئذ يستطيع العدل أن يكون كل شىء ، حتى البهتان أيضا ، ومادمت لا أعلم شيئا فليس هناك من واجب على ، ولذا لا اريد ان أتدخل ٠ولكنى بالرغم من ذلك تدخلت ، بالصمت ، وهذا هو التدخل الذى لا يناقضنى اذ أستطيع دائما ان ألتمس له سببا يسهل على نفسى قبوله ، اذا ماتوصلت الى معرفة الحقيقة ٠

اتجهت صوب التكية ، تاركا ذلك الهارب لنفسه ٠ انه الآن يستطيع أن يفعل ما يحب ، فالمطاردة قد جاوزته ٠ ليذهب فى طريقه ٠ كنت أنظر أمامى ، حيث الرمل يغطى الطريق ، وحيث الحشائش الخضراء تنمو على جانبيه ، لكى أنحيه عن فكرى ، لكى اقطع الخيوط الدقيقة لتلك الصلة التى كانت بيننا منذ لحظة فقط ، لكى يبقى على ما هو عليه فى حقيقة أمره مجهولا ، لا تتقابل معه عيونى ولا يتـــلاقى معه طريقى ٠ ولكنى رايت ــ دون أن انظر ــ ابيضاض قميصه واصفرار وجهه ، وربما كان ذلك فى نفسى ، بالصورة التى أذكرها ، رايت يديه قد أسدلتا الى جانبيه ،وقدميه قد تضامتا ، فلم يكن متوترا بعد ــ ولا مشدودا الى تلك العضـــلات المتقلصة المضطربة التى تعيش فقط لتلك اللحظة المستمرة التى تقـرر الحياة أو الموت ، وانما كان قد تحرر من فترة القلق ليكون مستعدا للتفكير فى ذلك الذى ينتظره ٠ وقد عرفت أن شيئا لم يتقرر بينه وبين هؤلاء

الذين يطاردونه، وأن الأمر قد امتد فقط ؛ لقد تأجل الى وقت غير معين، ربما لساعة قادمة فحسب ، اذ كان مقدرا عليه أن يهرب وكان عليهم أن يطاردوه • وعندئذ خيل الى أنه رفع يده في تردد ، وهو لا يكاد يفصلها عن جسده ، كأنه أراد أن يستوقفني ، ليقول لى شيئا ، ليدفعني الى أن اتدخل فى مصيره • لا أعلم :هل رأيت هذا ، وهل فعل هو هذا حقا ، ام أنني توقعت الحركة التى يمكنه أن يقوم بها ، والتى يجب أن يفعلها • لم اتوقف ، لم ارد ان يكون مصدر اهتمامي بعد • أدرت المفتاح فى القفل الصدىء ودخلت التكية •

وفى الغرفة كان لا يزال يرن فى اذنى ذلك الصرير الذى أحدثه الباب ، والذى كنت قد انفصلت به عن الخارج • كان ذلك بالنسبة للهارب ترك لحريته أن تنطلق ، وربما كان عاملا لازدياد خوفه ورهبته ، حيث انفرد أخيرا •

كنت اشعر بحاجة الى تناول كتاب ، ليكن القرآن او كتابا آخـر عن الأخلاق أو عن عظماء الرجال أو عن الأيام المباركة ، لتبعث الى الهدوء موسيقى جمله المعروفة التى اومن بهـا ، والتى لا أكاد أتناولها بشىء من التامل والتفكير ، بل احملها فى داخلى شأنها فى ذلك شان الدورةالدموية فنحن لا نعيها ، وهى بالنســبة الينا كل شىء ، اذ أنهـا تمكننا من أن نعيش ونتنفس ، كما تجعل أجسادنا منتصبة ، وتهيىء لكل عضو أن يقوم بأداء وظيفته • ومن أجل ذلك كنت اشعر دائما بهزة عجيبة لهذا الرتل من الكلمات الجميلة تتناول الاشياء التى لى بها علم او دراية • وانني فى هذا المجال المعروف الذى اسير فيه وأحيا داخله أشعر بالامان ، اذ أنه مجال بعيد عن الخداع وما يبعث على الحذر •

غير أنه لم يكن من الصواب ما فعلت من عدم تعييني للكتاب الذى أردت تناوله ، ومن طلبى الحماية بتلك الافكار المشهورة ، فمن اى شىء كنت أخاف ؟ ومن اى شىء أردت الهرب ؟

لقد عرفت أن الرجل ما زال هناك ، بالحديقة ؛ اذ لو فتح الباب لوصل صوته الى السمع • لم اضىء المصباح ؛ بل ظللت واقفا فى ظلام الغرفة ، ورجلاى فى ضوء القمر ، وكنت أنتظر • ماذا كنت انتظر •

كان الهارب ما زال هناك ، فكل شىء يشـــير الى ذلك • يكفى ان التكية انقذته ، يجب أن يذهب • لماذا لا يذهب •

كانت رائحة الخشب القديم تنتشر في الغرفة ، وكذا ما بلي من الجلد ، وما اختزن من هواء التنفس • كانت الاشباح تمر بهـا فقط في بعض الاحايين ، اشباح الشابات اللاتي متن قبل زمن • لقد تعودت عليها فقد عاشت أصحابها في هذا المكان قبلي • والآن ، وفي هذا السكون المقيم وفي هذا الملجأ القديم الذي حل به شخص جديد مجهول يحمل في وجهه بقعة بيضاء ويصلب نفسه لشدة قلقه على الباب ـ عرفت انه غير وضعه، فقد رأيت كيف أعاد الى جسده استرخاءه ، كما لو كانت مفاصله قد انحطمت فجأة ، وكان هذا أحدث الأمور وأهمها واشدها ألما • وقد كنت أتذكر تقلصه ، وشدة معاناتـــه ، وتوتره الذي كان يتزايد ويتربص للدفاع غير مستسلم لأحد ، كنت أتذكر لوالب عضلاته المشدودة مستعدة للاتيان بما يثير العجب • لقد أحببت تلك الصورة أكثر من حبي هـذه الصورة المتهدمة • وكان أملي في تلك الصورة أقوى ، وتحرري من الخوف عليه لديها أيسر ، فقد كانت توحي باعتمادها على قواها الذاتية ، أمـا الأخرى فقد بدت بائسة ، في حاجة الى من تعتمد عليه • كما تذكرت تلك الحركة المرئية أو غير المرئية التي كان يرغب في أن يلفت بها نظري اليه • كان يناديني ، كان يرجوني الا أمر به ويفزعه كما لو لم يكن هناك شيء يهمني • انه ان لم يكن قد فعل ذلك ، وكنت قد تخيلت أن تلك الحركة حركة ضرورية للحياة التي تدافع عن نفسها تطلب بها المساعدة، فقد أصبح اذن مجردا بالتمام من اية قوة ، وها هو الآن أصبح مجردا من اي أمل • واأسفا لعدم علمي شيئا عن هذا الرجل ، اذ لو كان لما اهتممت بأمره •

اقتربت من النافذة ، وفزعت لضوء القمر اذ سلط بشدة على وجهي كأنه كشفني • نظرت من الجانب فلم أجد الهارب عند الباب ، لقد ذهب نظرت بشيء من الحرية في جوانب الحديقة ، لكي اراها خالية • ولكن الهارب لم يذهب • كان واقفا في ظل شجرة وقد استند اليها • رأيته عندما كان يتحرك ، وكانت رجلاه في ضوء القمر ، فقد حجبه الظل الى ما فوق الركبة •

لم يكن ينظر الى البيت ، ولا الى النافذة ، اذ لم يكن ينتظر مني شيئا • كانت أذنه مسلطة على الزقاق ، وكان يسمع دون شـك خطوات القطة • وهدهدات الطيور ، وتنفسه الهادىء • لقد نظر الى أغصان الشجرة وأرسلت نظري الى حيث ينظر ، كانت الاغصان تتمايل في هدوء بفعل تلك الرياح الخفيفة التي سرت بعد منتصف الليل • فهل كان يرجو أن

تسكن تلك الأغصان ، أو كان يلعن حفيف أوراقها ؟ اذ ما كان باستطاعته أن يتبين الاصوات خارج جدران التكية ، تلك الاصوات التي يمكن أن تكون بمثابة حياته ٠

استدار حول الشجرة ، مستندا بظهره الى ساقها ، ومحركا حولها قدميه اللتين نضضهما ضوء القمر ، ثم ابتعد عنها ، بخطوة لم تكن تسمع كما لو لم يكن لجسمه أدنى ثقل ، واقترب من الباب الخارجي للتكيـــة واغلقه بالمزلاج حذرا ٠ ثم عاد مختفيا تحت ظلال الاشجار حتى وصل الى السياج ، فأطل على النهر ، ورمى ببصره تجاه منبعه حيث المضيق ، ثم حول بصره تجاه مصبه حيث القصبة ٠ وتراجع بعد ذلك واختفى داخل الشجيرات الكثيفة ٠ اسمع او رأى شـيئا ، أم أنه لا يجرؤ على الخروج أم انه لا يدرى الى اين يتجه ؟

وددت لو عرفت امخطىء هو ٠

هأنا قد مررت به مطرقا ببصرى الى الأرض ، واغلقت باب التكية وحبست نفسي داخل غرفتي ، ولم أكن قد انفصلت بعد عن ذلك الرجل الذى ألقى بنفسه فى هذا السكون ، فأرغمني ان أفكر في امره ٠ وأن أتابع ـ واقفا بجانب النافذة ـ خوفه الذى تيقظ من جديد ٠ لقد جعلني أنسى ذنوب الآخرين فى هذه الليلة التى يحتفل فيها بعيد مارى جرجس وانسى كذلك بداية ذنب لى ، ويدين ساحرتين عند بدء هبوط الظلام ، وما كان يعتريني من الهموم ٠ وربما كان ذلك النسيان بتأثير هـــذه الهموم نفسها ٠

كان من الواجب على أن أجعل ظهرى الى النافذة ، واضيىء شمعة ، ثم اذهب الى حجرة أخرى ، اذا لم أكن أرغب فى اقلاقه بنافذة مضيئة ، وافعل شيئا ما غير الذى فعلت ، اذ أن ما فعلته لا يعني غير الارتبـاط به ، غير القيام بمهنة دنيئة ، غير التردد فى داخلي ، كأنني لم أعد املك الثقة بعد بنفسي وبضميرى ٠

لقد كان هذا التخفى اشبه بتخفى الصبية ، ولعله كان اشد ، كان أشــبه بتخفى الجبان ٠ ولكن ليس هنـــاك شيء أخافه ، حتى نفسى ٠ لمـــاذا أتظــاهر بأنني لا أرى رجـــلا ، وامنحه الفرصة كي يذهب ، وهو لا يريد ، لماذا أخدع نفسي بأنني لست متأكدا من وجوده فيحديقة التكية ، وبأنه يخفى جرمه أو يهرب منه ؟ ان هناك شيئا يحدث ، وهو على الاقل ليس بريئا ٠ انني اعرف أن الأمور الصعبة والرهيبة تحدث

دائما ، ولكن هذا يحدث أمام عينى ، ولا أستطيع أن أدفع به الى مكان سحيق لا تراه الأعين كما أدفع بالأشياء الأخرى ، كما أننى لا أريد ان أكون متهما ولا مشتركا بدون ارادة ، بل أريد أن اقطع ـ دون قيد ـ برأى فى ذلك ٠

نزلت الى الحديقة ، وكان القمر يرسل ضوءه بعيدا فى نهاية السماء وبعد قليل سيختفى ، وزهرة « الدانينا » بدأت تتفتح ، والجو كان معطرا بها ، يجب أن تقطع فهى مفرطة فى حلاوتها ، مثيرة برائحتها ٠ لقــد أصبحت شديد الاحساس أحيانا بالروائح ، والأرض كلها تفوح منهــا رائحة لا أقوى على تحملها وأحس بها تكاد تخنقنى ٠ وذلك شىء يحدث لى فجأة ، عندما يصيبنى اضطراب أو يعترينى توتر ٠ كان يبدو لى ذلك وان لم آكن اعرف أية علاقة يمكن أن تكون بينها ٠

كان الهارب واقفا بين فروع الشجيرات المتشابكة ، ولو لم آكن قد عرفت مكانه لما استطعت أن أجده ٠ كان وجهه خاليا من التجاعيد ، ولقد غمره ما يشبه الظلال ٠ وكان يرانى أوضح مما أراه ، فقد كان الضوء يكشفنى ، وخيل الى أننى عار ولا أستطيع أن أستتر ٠ لقــد تحول الى شجيرات ، ونما فاصبح اغصانا ، وسوف يأخذ فى التمايل والاهتزاز بتأثير تلك الرياح الليلية التى تهبط من الجبل وتمر بالمضيق ٠

قلت له هامسا :

ـ يجب أن تذهب ٠

ـ الى أين ؟

كان صوته قويا عميقا كأننى لست أمام ذلك الرجل المتضائل الذى كنت قد رأيته ٠

ـ اذهب من هنا ٠ لا يهمنى أين ٠

ـ شكرا لك ، لأنك لم تكشفنى ٠

ـ لا أريد أن أتدخل فى شئون الآخرين ٠ ولذلك اود ان تذهب ،

ـ وعندما تطردنى تكون قد تدخلت ٠

ـ لعل ذلك من الأفضـل ٠

ـ لقد ساعدتنى مرة . فلم تفسد الآن ذلك ؟ ربما أعوزتك فى مستقبل الايام ذكرى جميلة .

ـ لا اعرف شيئا عنك .

ـ أنت تعرف عنى كل شىء . انهم يطاردوننى .

ـ لقد ارتكبت بالتاكيد جرما .

ـ لم ارتكب اى جرم .

ـ ماذا تظن الآن ؟ انك لن تستطيع أن تبقى هنا .

ـ انظر ، هل الحارس على الجسر ؟

ـ نعم .

ـ انهم ينتظروننى . وهم فى جميع الاماكن حولى . أتدفعنى الى الموت ؟

ـ ان الدراويش يستيقظون مبكرين . وسيرونك .

ـ خبئنى الى مساء الغد .

ـ قد يمر المسافرون ، القاصدون .

ـ وانا مسافر قاصد .

ـ لا أستطيع

ـ ادع الحراس اذن ، فهم هنا ، خلف السور .

ـ لا أريد أن أدعوهم . ولا اريد أن اخبئك . لماذا أساعدك ؟

ـ لا لشىء . فلتنصرف . فذلك شىء لا يهمك .

ـ كان باستطاعتى ان اهلكك .

ـ لم تكن لديك قوة ، حتى لهذا .

اوقعنى فى الحيرة أننى لم آكن مستعدا لمثل هذا الحوار . واشد ما كان يفاجئنى فى انتقالنا من كلمة الى اخرى ذلك الذى ما كنت أتوقعه وهو أن أجد الرجل على صورة مخالفة لما تصورت أن يكون عليه . لقد خدعتنى صورته على الباب مصلوب اليدين والرجلين . كنت أتخيله ، فى حزنه ، والبقعة البيضاء التى شعت من وجهه ، فى دفاعه الضعيف باحتمائه خلف ذلك الباب الخشبى الرقيق ، مسكينا ، مفزعا ، ضائعا ،

حتى لقد ظننت انني أعرف كيف يكون صوته ، فهو مهتز ؛ متردد ·ولكن ذلك الذى شاهدت كان جميعه على خلاف ما توقعت · كما كنت أعتقد أن كلمة واحدة منى سوف تخفف عنه وتشعره برد الراحة ، وأنه سوف ينظر الى نظرة الخادم الى سيده ، فقد كان فى موقف ليس له من طريق الى الخروج ، كما كان مصيره معلقا بارادتى التى يمكن أن تجلب له الشر أو الخير · غير أن صوته كان على درجة من الهدوء تكاد توحى انه غير غاضب ، ولذا خيل الى أن الصوت يكاد يحمل نبرات السرور والضحك والاثارة ، فما كان يجيب فى تجهم أو ذلة ، بل كانت اجابته تشعر باللامبالاة ، كما لو كان فوق كل مايدور ويجرى من أحداث ، كما لو كان يعلم شيئا ما يجعله آمنا · لقد أخلف ظنى الى درجة أوضحت أننى كنت مبالغا فى تقديرى لهدوئه · وقد استولت على الدهشة عندما طلب أن أقوم باخفائه كما لو كان ذلك شيئا عاديا للغاية ، أو خدمة تلبى بالترحيب ، لا أمرا يتعلق به مصيره · لم يكرر طلبه أو رغبته ·· لقد تخلى عن ذلك بسهولة ، ولم يغضب لرفضى طلبه · كما لم يكن ينظر الى ، وانما كان ينصت ، رافعا رأسه قليلا ، غير منتظر منى أن أقدم له مساعدة · انه يعرف الآن – وقد أصبح لا ينتظر بعد مساعدة من أحد – أن أحدا لايمكنه أن يمد يده اليه ، فليس له أقارب ولا أصدقاء ولا معارف · لقد حكم عليه أن يكون وحيدا فى محنته ها قد ترك وشأنه ، وكان المجال حوله وحول مطارديه خاليا ·

– لا شك انك تظنني رجلا سيئا ·

– لا أظن ·

– اننى لست كذلك ، ولكننى لا أستطيع أن أساعدك ·

– كل أدرى بشأنه ·

لم يكن ذلك من قبيل العتاب أو الاستسلام للمصيبة ، وانما كان قبولا للواقع ، لذلك الواقع المر الذى نعرفه منذ القديم من عدم ارادة الناس على اختلاف أنواعهم أن يقوموا بمساعدة شخص محكوم عليه ، وكان يضعئى فى عدادهم ، ولذا لم يصدمه ذلك أو يسلب شيئا من قوته فما كان يدور ببصره فيما حوله فاقد الوعى ، بل كان يدور به في يقظة تامة ، وتركيز شديد ، عازما أن يدافع بمفرده ·

سألته لماذا يطاردونه ، فلم يجب ·

ـ كيف هربت ؟

ـ لقد قفزت من فوق الصخرة ٠

ـ هل قتلت أحدا ؟

ـ لم اقتل ٠

ـ هل سرقت ، أو نهبت ، أو ارتكبت عارا ؟

ـ لم أفعل شيئا من ذلك ٠

لم يتعجل تبرئة نفسه ، ولم يحاول أن يقنعنى ٠ كان يجيب عن اسئلتى كانها فضول او كانها مملة ٠ لم يعد يقدرنى بعد ، لا بخير ولا بشر ، لا بمصدر لخطر ولا ببشير لأمل : اننى ما غدرت به ، ولا أريد أن اقوم بمساعدته ٠ يالالدهشة : ان انصرافه عنى ، كما لو كنت شجرة ، او شجيرة ، أو طفلا ، قد اصاب غرورى ٠ انه كان يجردنى بطريقة ما من شخصيتى ، كان يقلل من شأنى ٠ وكان قدرى بذلك يسلب منى لا فى نظره فحسب بل فى نظرى أنا أيضا ٠ انه لا يهمنى ، فأنا لا أعلم عنه شيئا ، ولن أراه بعد ابدا ، ولكننى كنت مهتما برأيه عنى ، لقـــد جرح احساسى ما تظاهر به من اغفال وجودى ، كم وددت لو استولى عليه الغضب ٠

اخذت أتركه ، وكان استقلاله يثير نفسى ويلفها فى حيرة ٠

كنت اقف هكذا ، كنت اقف وسط هذه الرائحة التى تنشرهـا زهرة (الدافينا) ، والتى كنت احس بها تخنقنى فى ليلة عيد مارى‌جرجس التى كانت تعيش لنفسها ٠ وفى تلك الحديقة التى اصبحت عالما بذاتها كنا نقف ، رجلا بجواره رجل ، ولم يبد علينا شىء من السرور لالتقائنا ، ولم يعد فى الامكان أن نفترق كما لو لم يكن أحدنا قد قابل الآخر ٠ كنت أفكر ـ قلقا ـ فيما افعل مع ذلك الرجل الذى استحال الى‌الغصان، حتى لا يصدر منى شىء يمكن أن يوصف بالسوء ، حتى لا أؤيد مايرتكبه الآخرون من الخطايا ، غير عالم باربابها ، حريصا على الا اخطىء فى حق الضمير ، وغير متوصل الى حل بشأنها ٠

كانت هذه الليلة عجيبة الشأن ، لا بما يحدث فيها فحسب ، وانما بكيفية قبولى له ٠ لقد كان العقل يحدثنى بالا أتدخل فى ذلك الذى لا يهمنى ، ولكننى تدخلت الى درجة لم ار عندها مخرجا ٠ كان ما تعودته

منذ زمن طويل من السيطرة على نفسي يقودني الى غرفتي ، غير أني رجعت مطاردا ببعض ضرورات جدت في نفسي · لقد علمتني طريقة الدراويش ونظام التكية أن أكون صلبا ، وقد كنت اقف أمام الهارب لا أدرى ماذا أفعل ، وكان ذلك يعنى أننى أفعل مالا ينبغى فعله · كانت الاسباب جميعها تدعو أن اترك الرجل لمصيره ، ولكننى كنت أسير معه فى طريقه الزلج الخطير الذى لم يكن باستطاعته أن يكون طريقى ايضا ·

وعندما كنت لا أزال أفكر فى ذلك ، باحثا عن الكلمة المناسبة لانسحب بموجبها ، قلت فجأة :

ـ لا استطيع أن أدخلك التكية ، اذ لو فعلت لكان فى ذلك خطر على وعليك ·

ولكنه لم يجب ، ولم ينظر الى ، فلم يكن فيما تحدثت به من جديد وكانت لا تزال هناك فرصة لانسحابى ، ولكننى كنت قد بدأت فى الانزلاق وكان من الصعب على أن اتوقف ·

قلت له هامسا :

ـ يوجد فى نهاية الحديقة مسكن صغير ، لا يذهب اليه أحد · نضع فيه الادوات التى لسنا فى حاجة اليها ·

وعندئذ نظر الهارب الى ، وعيناه تفيضان بالحيوية ، وتعلنان عدم الثقة ، ولكنهما لا تظهران شيئا من الخوف ·

ـ اختبىء فيه حتى يذهبوا · واذا حدث أن قبضوا عليك فلا تقل لهم اننى قمت بمساعدتك ·

ـ لن يقبضوا على ·

نطق ذلك بلهجة تأكيد جعلتنى اشعر بالاشمئزاز · احسست مرة أخرى بذلك الاضطراب فى داخلى من أجل ثقته بنفسه ، وندمت على أننى قدمت له المخبأ · كان يكفيه الاعتماد على نفسه ، فهو يردك عنه : كان كأنه ضربنى · لقد رد اليد التى امتدت اليه ، واثقا فى نفسه الى درجة الاشمئزاز · وكنت أخجل بعد ذلك من جلال قدرى (وماذا بقى له غير أن يثق فى نفسه ؟) فقد سيطر على نفسى احساس وضيع بالحاجة الى أن يقوم الناس بشكرنا ، وأن يظهروا بالتضاؤل أمامنا والارتباط بنا ، لأن ذلك يولد عاطفة الحنو عليهم ويغذيها ، كما يزيد من قيمة أعمالنا وقدر أفضالنا · وهكذا اصبحت العاطفة ضئيلة وليس لها من مبرر · لم أعد

اذ ذاك أحس بالخجل ، بل كنت أراني غاضبا ، فقد كان يخيل الى أننى تدخلت فى أمر تافه ، ومع هذا فقد وجدتنى أسير خلال الحديقة متجها نحو مسكن صغير بال تخفيه الشجيرات ، وذلك دون أن أحس سرورا أو أجد اعتذارا لنفسى ، ودون أن تكون هناك حاجة معينة فى داخلى ، ولكننى ما كنت أستطيع أن أفعل شيئا غير ذلك ٠

كان الباب مفتوحا ، وكانت الوطاويط والحمام تتخذ لها مسكنا بداخله ٠

لقد وقف ٠

ـ لماذا تفعل هذا ؟

ـ لا أدرى ٠

ـ لقد ندمت ٠

ـ انك فخور أكثر مما يجب ٠

ـ كان فى استطاعتك الا تقول هذا ، فالانسان لم يكن قط فخورا أكثر مما يجب ٠

ـ لا اريد أن أسألك من أنت وماذا فعلت ، فذلك أمر يخصك ٠ ابق هنا ، ذلك هو كل ما استطيع أن أمنحك اياه ٠ وليكن الامر كأننا لم نلتق ولم ير أحدنا الآخر ٠

ـ هذا هو الأفضل ٠ اذهب الى غرفتك ٠

ـ هل أحمل اليك طعاما ؟

ـ لا يلزم ، فقد شعرت بأسف لهذا الذى فعلت ٠

ـ لماذا تظن أننى شعرت بأسف ؟

ـ انك تتردد أكثر مما يجب ، وتفكر أكثر مما يلزم ٠ فأى شىء تفعله الآن ستحس بأسف نحوه ٠ اذهب الى التكية ، ولا تفكر بعد فى أمرى ، فلسوف تخبر عنى اذا ظللت تفكر ٠

أتكون هذه سخرية ، أو تهكم ، أو احتقار ؟ من أين أتته القوة ليكون له هذا الموقف ؟

ـ انك لا تثق كثيرا فى الناس ٠

ـ عن قريب سيبزغ الفجر ، ولن يكون من الخير أن يجدونا معا ٠

اراد أن يحملنى على الانصراف ، فقد نظر فاقد الصبر الى السماء تتغير بتباشير ضـــوء الفجر ٠ ولكننى أردت ان أوجه اليه عـديدا من الاسئلة لأننى لن أراه أبدا فيما بعد ، وليس هناك من يستطيع أن يجيبنى عداه ٠

يبقى هذا فقط : انك بمفردك ، ألا تخاف ؟ انهم سيقبضون عليك سيقتلونك ٠ وليس لديك بصيص من أمل ٠

ـ دعنى وشأنى ٠

كان صوته غليظا ، يكاد يخنقه الغضب ، وما كان هناك داع فى الحقيقـة لأن يحـدثه أحـد فى ذلك الذى يعرفه هو بذاته ، وربما كان يظن اننى حقا رجل سىء ، واننى أتنعم شامتا بما يعانيه من العذاب ٠ ولذا فقد كان رده ردا مناسبا :

ـ هناك شىء يعذبك ـ قال ذلك بفكره الثاقب الذى لم يكن متوقعا والذى كان يهزمنى ويتصيدنى فى أجمة مجاهل ـ سوف أجىء اليك مرة من أجل الحديث ، عندما لا يكون هناك خطر ٠ اذهب الآن ٠

لم يجبنى عن ذلك الذى كان يهمنى ، وبذلك أرجعنى الى داخلى ٠ أية اجابة اســـتطاع أن يعطينى ؟ أية عـلاقة استطعنا نحن الاثنين أن أن نكونها ؟ وأى شىء استطاع أن يعلمنى ؟

فتحت النافذة ، فقد كان جو الغرفة خانقا ٠ ولو لم يكن هناك لنزلت الى الحديقة ، لكى أبقى هناك دون نوم فى انتظار الفجر كمـــا سأبقى هنا فى انتظاره ٠ لقد قرب موعده ، فالطيور التى تستيقظ مبكرة تنبىء عن ذلك بازدياد تتابع أصواتها ، والسماء فى أعلى التل المظلم تفتح كواتها ، مظهرة حدقتها الرمادية ، والاشجار الآن مستغرقة فى أحلامها ، وقد اتشحت بغلالة من الظلام نسجت بها خيوط من الضوء ٠ وعمـا قريب ستبدأ الاسماك مع تباشير الفجر فى القفز الى سطح الماء ٠ لقـــد أحببت هذه الساعة المبكرة للاستيقاظ ، حيث تبدو الحياة كأنها تدب من جديد ٠

انتظرت في وسط الغرفة ، تنتابني مشاعر مضطربة لم استطع ان احدد لها سببا . وكنت أحس بالمرارة من أجل ذلك الذى فعلته ، ومن أجل ذلك الذى لم افعله ، شاعرا انني اخطأت الهدف في تلك الليلة المملوءة بعلامات التحذير ومشاعر الخوف دون مبرر أو سبب .

كنت اتسمع كل ما يصدر من حفيف ، سمعت رفرفة أجنحة الطير وجريان النهر على وتيرة واحدة . وكنت انتظر ان اسمعه هو ، او اسمعهم كيف يجيئون من أجله . هل سيهرب ، هل سيبقى ، هل سيقبضون عليه ؟ اخطأت في عدم غدري به ، أم انني أخطأت في عدم اخفائه في غرفتي ؟ لقد قال لي : أى شيء تفعله ستحس بأسف نحوه . كيف استطاع ان يعرف ذلك الذى لم يتضح لي انا نفسي اتضاحا كافيا ؟ انني ما اردت أن اقف ضده ولا أن اقف الى جانبه ، لقد اتخذت موقفا وسطا لم يكن بمثابة حل ، اذ انه لا يقرر شيئا ، بل كان من شانه أن جعل العذاب يمتد ، وسيكون لزاما على أن اقف عند أحد الجانبين .

كانت هناك أسباب لا حصر لها تقف مساندة لكل من الامرين : أن أهلكه ، وأن أنقذه ، انني درويش اقف مدافعا عن الدين وعن الطريقة فالقيام بمساعدته يعني خيانة اعتقادى ، خيانة ذلك الذى كرست من أجله سنوات عديدة من حياتي الطاهرة ، ثم لو حدث ان قاموا بعد بالقبض عليه لكان الموقف حرجا بالنسبة للتكية ، ولكان اشد تحرجا اذا عرف أنني قمت بمساعدته ، ولن يغفر لي أحد ذلك ، ومن المؤكد أن ذلك سوف يعرف تماما ، وقد يقوم هو باعلانه بدافع الحسد أو الخشية نعم لو تم ذلك للحقني الحرج وللحق أخي ايضا ، ولكنت قد افسدت موقفي وموقفه ، ولوجدت علاقة وارتباط ما في هذا التصرف ، ولشبه ذلك بثار من أجل أخي ، أو لبدا ذلك من قبيل المساعدة للآخرين ،حيث لم أستطع أن اقوم بمساعدة أخي . كانت هناك أسباب عديدة تدعو الى تسليمه الى السلطات ، وليسو أموره مع العدالة وفق ما يعلم .

انني رجل لا أعلم ماذا فعل وليس من اختصاصي ان احكم ، كما أن العدالة قد تخطىء ايضا ، فلماذا آخذه على عاتقي واحمل نفسي امكانية الندم . ومن ناحية اخرى كانت هناك كذلك اسباب تدعو الى مساعدته ولكنها كانت ضعيفة ، غير مقنعة اقناعا كافيا . واذ كنت اختلقها وامنحها شيئا من الفحوى فانما كان ذلك فقط من أجل أن تخدمني كستار أمام ذلك السبب الحقيقي ، السبب الوحيد المهم : ما حاولته من حل قضيتي الشخصية به . لقد وصل بالتمام في اللحظة التى أمكنه فيها

ان يصبح بمثابة المؤشر فى ميزان ترددى ، فلو حكمت عليه ، وسلمته الى السلطات لاجتزت ما يعترينى من التردد ، ولبقيت على الحال التى كنت عليها من قبل ، دون اعتبار لكل ما حدث فكأنه لم يكن ، ودون مراعاة لأخى السجين وحزنى من أجله ، ولضحيت بذلك الاخ المحروم وبنفسى الجريحة ، ولاندفعت الى الأمام فى الطريق المعروف طريق الطاعة ، وقد خنت صعابى . ولو انقذته لكان ذلك قرارى النهائى : لكنت فى الجانب الآخر ، لوقفت ضد أحد من الناس وضد نفسى حتى اللحظة التى هى عليها الآن ، خاذلا هدوئى . ولكنى ما استطعت هــذا ولا ذاك . كان الأمان المتزعزع يردنى عن أحد الامرين ، وكانت قوة تعودى والخوف من الطريق المجهول يبعداننى عن الآخر . لو كان ذلك منذ عشرة أيام ، حيث لم يكن أخى قد دخل السجن بعد ، لاستوى الامران عندى ، ولكنت أحس الهدوء باقدامى على أى منهــما ، ولكنى عرفت الآن ان الموقف يتطلب التحديد ، ومن أجل ذلك بقيت فى منتصف الطريق غير محدد الاتجاه كل شيء كان ممكنا ، ولكن شيئا لم يحدث بعد .

لقد كان فى الحديقة ، فى المسكن القديم ، بين الشجيرات ،وكنت أنظر دون انقطاع الى هذا الاتجاه . لم يكن هناك شيء يتحرك أو يسمع لقد كنت ضجرا لعدم ذهابه ، اذ لو ذهب لكان قد أنهى الأمر بنفسه . والآن لم يعد باستطاعته أن يهرب . سوف يبقى هناك يوما بأكمله ، ويوما بأكمله سوف يظل فكرى مشغولا بأمره ، وسأنتظر الليلة التى ستكون بمثابة المنقذ ، بالنسبة له أو بالنسبة لى .

عرفت كيف تستيقظ التكية . كان أول من يستيقظ مصطفى ، وذلك اذا لم يكن قد قضى ليلته فى منزله ، وكان يضرب بنعله الثقيــل على الأحجار التى غطيت بها ارض الطابق الارضى ، وكان يدفع الباب بشدة عند الدخول أو الخروج ، كما كان يخرج الى الحديقة حيث يتوضأ وكان يتنخم بشدة كى ينظف حلقه ، مدلكا بكلتا يديه صدره العريض ويصلى فى سرعة ، ثم يوقد النــار ويأخذ فى تنــاول وترك بعض الاوانى المنزلية ، وكان يقوم بهذا كله فى تلك الصورة من الفوضى التى تجعل النــائمين يستيقظون حتى من لم يتعود منهم على الاســتيقاظ فى وقت مبكر . لقد كان أصم ، وكانت الجلبة فى عالمه الخالى من الأصوات شيئا محببا اليه ، وعندما كنا نفلح فى أن نقول له ان ما يحدثه من الخبط والضرب والكسر والرنين شيء لا يحتمل كان يتعجب لاستطاعة هــذه الأمور أن تحدث ازعاجا لأحد .

ويكاد في نفس الوقت ان يسمع سعال خفيف يصدره الحـــافظ محمد ، واحيانا يظل هذا السعال يسمع طول الليل ، وفي زمني الربيع والخريف يكون شديدا وخانقا • لقد عرفنا أنه يبصق دما ولكنه كان يزيل آثاره بنفسه ، وكان يخرج على وجهه ابتسامة ، وعلى خديه احمرار في شكل دائرتين ، ويأخذ في الحديث عن الامور العادية مغفلا أمر نفسه وامر مرضه ، وكان يخيل الى احيانا ان ذلك غرور من نوع خاص ،يرتفع به فوقنا وفوق العالم • كان يقوم بغسل أجزاء جسمه بعناية فائقـــة ، منفقا وقتا طويلا في تدليك ما يشاهد من جلده • لقد كان سعاله في هذا الصباح قليلا وسهلا ، واحيانا يكون جو الربيع العليـــل سببا في تهدئته ، وأحيانا اخرى يكون هذا الجو عاملا من عوامل ارهاقه وتعذيبه وقد عرفت أن حافظنا اليوم سيكون بحالة طيبة ، مستريحا ، منصرفا عن كل ما حوله • وهكذا كان يثأر لنفسه من الحياة بعدم اظهار مرارته•

وبعده كان ينزل « ملا يوسف » • وكان وقع قبقابه يدل على أنه يسير ببطء وحذر ، وكانت مشيته على درجة كبيرة من الاتزان رغم وفرة صحته وشدة حيويته ، كما كان اكثرنا اهتماما بملبسه ومظهره ، اذ كان حرصه على اخفاء اموره أشد من حرصنا • لم أكن أثق في هـــذه السكينة التي كانت تشبه الرياء ، فطبيعتها لم تكن توافق طبيعة وجهه المشرب بالحمرة ولا طبيعة تلك السنوات الخمس والعشرين التي تمثـل عمره الغض • ولكن هذا لم يكن رأيا قاطعا ، بل كان شكا •• كان تأثيرا يتشكل حسب الوضع •

لم يكن أحدنا يعرف كثيرا عن الآخر بالرغم من أننا نعيش معا ، اذ لم نكن قط نتحدث عن أنفسنا ، وما كان الحديث الذي يدور بيننا يتناول كل شيء عنا ، وانما كان خاصا بذلك الذي كنا نشترك فيه ، فالأمور الشخصية دقيقة أكثر من اللازم ، كدرة ، عديمة الفائدة ، ويجب أن نتركها لأنفسنا اذا لم يكن باستطاعتنا اماتتها • ان حديثنا في معظم الاحايين كان يتجه الى الأشياء العامة ، وكنا نستخدم الجمل المعروفـة التي استخدمها الآخرون قبلنا لأنها آكيدة ، يطمئن اليها ، ولأنها تحفظ من المفاجآت وتحول دون عدم التفاهم • ان الذوق الشخصي هو الشعر، هو امكانية الميل والانحراف الى ناحية ما ، هو امكانية الاختيار •والخروج من دائرة الفكرة العامة هو الشك فيها ، ولذا لم يكن أحدنا يعرف الآخر الا بذلك الذي لم يكن مهما ، أو بذلك الذي كان مشتركا فيما بيننا •

وبعبارة أخرى لم يكن أحدنا يعرف الآخر ، وما كنا فى حاجة الى ذلك ، اذ التعرف كان يعنى معرفة ذلك الذى لا يلزم معرفته ٠

ولكن هذه التطلعات العامة لم تكن تتسم ولو قليلا بشىء من الهدوء لاننى كنت أحاول بواسطتها ان أجعل نفسى فى مكان آمن ، كى لاتنتزعنى العاصفة من عالمنا المشترك ، كنت أسير على حافة ، وددت لو تجردت من شخصى ٠ وكنت أحسد الجميع فى هذا الصباح ، لأن صباحهم كان عاديا شانه شأن كل صباح ٠

وكانت هناك طريقة مؤكدة وبسيطة أستطيع بها أن أقلل قلقى أو أكاد أصل بها الى ابعاده عنى : وذلك بأن أجعله هما يشترك فيه من بالتكية من الدراويش ٠ فالهارب يهم التكية الآن ، ولا ينبغى اذن أن أتحمل وحدى اصدار قرار فى هذا الصدد ٠ أيكون من حقى أن أخفى ذلك الذى أصبح أمره يتعلق بهم كذلك ؟ نعم باستطاعتى أن أبدى رأيى ، وباستطاعتى أن أدافع عن الهارب ، ولكن ليس باستطاعتى أن أخفيه ٠ فلو فعلت ذلك لكنت قد اتخذت القرار الذى أهرب منه ، ولذا يجب العمل على أن يكون القرار صادرا منا جميعا لا منى وحدى ، وبهذا يكون الأمر أيسر واشرف، وبكل ماعداه يكون الأمر أقل شرفا ومن قبيل الخداع ، ولكننت أدرك أيضا ــ لو فعلت ــ اننى آتى أمرا مخالفا٠وفى الحق لم يكن هناك من سبب يحملنى على ذلك ، كما لم يتأكد لدىأنه من الواجب أن أتصرف على هذا النحو ٠

ولكن مع من أتحدث ؟ لو دارالحديث بيننا جميعا لأصبح الهارب منذ البداية دون شك ضحية ، فلسوف يخشى أحدنا الآخر ، وسيتناول حديثنا أولئك الذين لم يحضروا اجتماعنا ، وعندئذ سيكون أشد قبولا ذلك الذى يعد أكثر صرامة ٠ واذن يكون التحدث مع واحد فقط أسهل وآمن ، اذ لا تجذبه الكثرة ٠ ويمكنه اذ ذاك حيث الآذان قليلة أن يرى كثيرا من الاعتبارات أمام ما يأتى به العقل من دلائل ٠ ولكن ، من الذى اختاره ؟ ان مصطفى الأصم مستبعد دون شك من حسابنا ، اننا متساوون أمام الله ، ولكنى لو تحدثت معه لكان ذلك بالنسبة للجميع أمرا مضحكا ، وليس ذلك من أجل كونه أصم فحسب ، وانما لشدة انشغاله أيضا بالتفكير فى أمر زوجته التى لم يعقد عليها ، والتى كان يهرب منهـــا كثيرا وينام من ليلة الى أخرى فى التكية ، وانشغاله كذلك بالتفكير فى أمور الأولاد الخمسة ، أولاده الذين أنجبهم والأولاد الذين جاءوا اليـه بمجىء الزوجة ، الأمر الذى يجعله يعجب فى قرارة نفسه لسؤالنـــا

اياه عن شيء لا يعرفه ، وكم كانت هناك أشياء عديدة أخرى لا يعرف عنها شيئا على الاطلاق ، حتى ليمكن تشبيهه فى ذلك بأولاده الكثيرين ٠

وأما الحافظ محمد فلو أفضيت اليه بذلك لسمعنى مشتت الفكر ، وعلى وجهه ابتسامة لا توحى بشيء ٠ لقد كان يعيش منكبا على الكتب التاريخية الصفراء ، وكأنه مرتبط بالزمن الذى انقضى ، يعايشه ويحيط نفسه به ٠ وكنت احسد هذا الرجل العجيب على هذا ، فما الزمن الحالى سوى زمن سوف يمر وينقضى ٠ وكان من النادر ان نجد شخصا قد انعزل عن الحياة بمزيد من السعادة كما انعزل هو ٠ لقد تنقل بين مدن الشرق سنين طويلة سعيا وراء المؤلفات التاريخية داخل المكتبات المشهورة ثم عاد الى مسقط رأسه وبصحبته مجموعة كبيرة من الكتب ٠ انه فقير ولكنه غنى ٠ فعقله قد امتلأ بكثير من المعارف التى لا تلزم أحدا سواه ٠ كان علمه يتدفق كالنهر ، ويطغى كالفيضان ،وكان يغرقك فيما يذكره من الأسماء والمعارك ، وكنت تحس الخوف يسيطر عليك من فوضى الأحداث التى كانت تعيش فى هذا الرجل ، والتى تبدو كأنها وجدت لساعتها ، وأنها لم تعد بعد أشباحا وظلالا ، بل رجالا أحياء لا يزالون يقومون بأعمالهم فى بعض الخلود الزمنى المثير ٠ لقد تتلمذ فى علم الفلك على أحد الضباط بالآستانة ثلاث سنوات كاملة ، ومن أجل هذين العلمين الفلك والتاريخ كان يقيس جميع الامور بمقاييس الفضاء والزمن علمت انه يكتب تاريخ عصرنا ولكنى كنت فى شك من ذلك ، اذ أن الاحداث والرجال كانت تتخذ مقاييسها ومعانيها بعد أن تصبح فى عالم الموتى ٠ كان باستطاعته ان يكتب فلسفة التاريخ فقط ٠٠ فلسفة يائسة لا تخضع لمقاييس الانسان ، غير مبال بتلك الحياة العادية المستمرة ٠ فلو اننى سألته عن هذا الهارب لكان من المؤكد أن يحس بالاشمئزاز مما أسببه له من الأذى فى هذا الصباح الجميل الذى استقبله فى غير اضطراب او هذيان ، ومما أجشمه اياه من التفكير فى مثل هذه الامور الصغيرة ٠٠ كمصير الرجل الموجود بحديقة التكية ، ولأجاب اجابة غير محددة ليظل الأمر بعد كما كان فى انتظار قرار منى ٠

قررت فى نفسى أن اتحدث مع ملا يوسف ٠

لقد أنهى وضوءه ، وأراد أن يذهب بعد أن حيانى دون أن ينطق بكلمة ، فاوقفته مخبرا اياه أننى أريد التحدث اليه ٠

نظر الى نظرة قصيرة ثم أطرق برأسه ، كان هناك شيء يخفيه ، ولكننى لم أكن أود أن أحرز شيئا من الشعور بالتفوق خلال لحظات انتظاره القلق ، فحكيت له كل شيء عن الهارب : كيف سمعته ، وكيف رأيته من غرفتى عندما دخل الى الحديقة واختبأ بين الشجيرات • ومن المؤكد انه يوجد الآن فى مكان ما هناك ، ومن المؤكد أنه يقوم بالهرب ، والا لما حاول الاختفاء • لقد قلت ماكان حقا وهو أننى كنت فى تردد كما لاأزال فيه الآن ، ماذا أفعل ، أأسلمه الى السلطات أم أترك الامور للصدفة • ربما كان مخطئا ، فالأبرياء لا يطاردهم فى الليل أحد ، ولكننى فكرت مرة أخرى هكذا : اننى لا أدرى شيئا عنه ، ولعله قد ارتكب جرما ، فليحفظنى الله منه ، والآن يجب أن نبحث ، هل يكون الشر فى تدخلنا أو فى عدمه ؟ هل يكون الشر أشد فى اخفاء الجريمة اذا كانت هناك جريمة أو فى عدم القيام بواجب الرأفة ؟

كان ينظر الى فى توتر ، مخفيا ما أثارته قصتى المحيرة فى نفسه من الاهتمام والتشوق ، ولكن وجهه المتورد الاملس الذى بدا رطبا من أثر الماء ونسمة الصباح كانت تدب فيه الحياة ويسرى فيه القلق •

سألنى بصوت خافت :

ـ أما زال فى الحديقة ؟

ـ حتى الفجر لم يخرج ، وفى النهار لا يجرؤ على الخروج •

ـ ماذا ترى أن نفعل ؟

ـ لا أدرى • اننى أخاف من الذنب • لو ثبت أنه مخطىء للحقنا اللوم من الناس ، ولكانت التكية فى موقف حرج • ولو ثبت عكس ذلك لوقع الذنب على عاتقنا • ان الله وحده هو الذى يعلم خطايا كل انسان أما الناس فلا يعلمونها •

ما زال الضوء الوردى الخافت لبزوغ الفجر تطغى عليه اشباح الليل • ان صحو اليوم الوليد يبدأ فى تلك اللحظة حيث تبدو الالوان جميعها أكثر حيوية ، وحيث يسمع ما تبقى من همهمات الليل بصورة أقوى • ولكننى اليوم لا أحس فرحة رغم أن الصباح غير ممل ، فلقد وصلت نهار الامس بنهار اليوم دون أن أخفف همومى بالنوم •

عندما عدت من المسجد دون أن تهدئني صلاة الصبح وجدت الحراس في حـديقة التكية مع ملا يوسـف · لقد فتشوا جميع الأركان وفتشوا البيت الصغير ايضا ، ولكنهم لم يعثروا على الهارب ·

قلت للحراس :

ـ ربما أكون قد خدعت

ـ انك لم تخدع · لقد هرب ليلة الأمس واختفى في مكان ما · وبعد أن ذهب الحراس سألت ملا يوسف :

ـ أأنت ناديتهم ؟

ـ لقد ظننت أنك ترغب فى هذا · اذ لو لم تكن راغبا لما تحدثت الى·

على أية حال الأمر سواء · هكذا كان أفضل · لقد نحيت المسئولية عن نفسي ، ولم يمس أحد بسـوء · وارى من الواجب ان استمتع بالهدوء واترك التفكير فى أمر الليلة الماضية ·

وعلى الرغم من ذلك كنت أفكر ، وكان تفكيرى أكثر من استطاعتى ، دون أن أجد مبررا لذلك · بحثت في الحديقة ، وكانت الآثار واضحة في الطريق المغطى بالرمل ، احدى رجليه كان بها نعل والأخرى كانت حافية· كان أثر كل قدم محاذيا للآخر ، وكان ذلك هو كل ما بقى منه ، كماكانت هناك بقايا من أعواد زهر ال (بيسرك) ، وصـورة تحفظها الذاكرة ليديه وقدميه المصلوبتين على الباب ، ورؤى لاشياء غريبة تتعلق باسفل اغصان تلك الاشجار القديمة ، ورائحة لم تكن توجد من قبل ، وخواء وفراغ يتعذر اثباتهما ، ورخاء ونضارة بعد شـدة واعصار · والآن حيث لم يكن فى متنـاول يدى ، وحيث لا خطر على منه ولا خطر عليه منى ، أخذت افكر تفكيرا عجيبا فى أمر هذا الرجل المجهول ، جاء كالسيل ثم اصبح رياحا صافية ، وطاف بنا كما يطوف الحلم · لقد ذاب وتلاشى ؛ فالواقع ينفى وجوده ، وخروج رجل حي من هذا المكان دون أن يلحظه أحد متعذر ، كما أن هاتين القدمين اللتين لم تستطيعا أن تزيلا بأثارهما الحقيقية ذلك المعنى الغريب الذى علق بذهنى ولم تكن لى قدرة على الاحاطة به ـ كانتا تثبتان وجوده · هذا الرجل قد هرب أمام الحراس ، هرب من نافذة بيته عندما دهموه ليقبضوا عليه ، وهرب من السـجن ناقبا جداره وقفز من الصخر وولج الباب المجهـول دون مراعاة لحرمة حدود الآخرين واختفى دون أن يحدث صـوتا لخطواته وغاب عن أعين الحراس الذين كانوا يضربون نطاقا حوله كما لو كان قد استحال الى روح · لم يثق بى ، ولن يثق بعد بأحد،

يهرب من خوف الآخرين هربه من غلظة الحراس ، لا يثق الا في نفسه ، ويؤسفني ذلك الذى فقده من الثقة في النـاس ، ســوف يكون تعيسا وشاعرا بالفراغ في نفسه · ولذا هو الآن حي ، وحر على الأقل ، ولكنني وددت ألا يعرف على الاطلاق كيف استطعت أن أكون متسببا في هلاكه · لا يهمني ذلك الرجل ، وليس أحدنا مدينا للآخر في شيء ، كما ليس في امكانه أن يلحق بي شرا أو خيرا · ولكم وددت أن يحمل في عزلته فكرة حسنة عني ، لكي يحتفظ ازاء فقدانه الثقة بالناس بذكرى عني تختلف عن ذكراه عن الآخرين ·

نظرت بعد الى ملا يوسف ورأيته كيف ينسخ القرآن خارج غرفته، أمام التكية تحت الظــلال الكثيفة لشجرة التفـــاح التي كثرت وامتدت فروعها ، فقد كان في حاجة الى ضوء تساوت درجته لا يبدو فيه لمعان ولا تؤثر فيه خيـالات · وكنت أنظر الى اليد الشابة الوردية الممتلئة ترسم الحروف في أشكالها المعقدة ، والى عديد من السطور اللانهائية التي سوف تجرى عليها أعين الناس دون أن تفكر في المدة التي استغرقها هذا العمل الشاق ، ولعلها لن تلمح جماله · وكنت قد انتابتني الدهشة عندما رأيت لأول مرة هذه المهارة التي يأتي بها الشاب والتي يندر أن يتأتى مثلها ، وهأنا بعد زمن غير قصير أنظر اليها كأنها معجزة · هذه الالتواءات المجودة، والاستعدادات الحـانية ، وموجات السطور المتزنة ، والبدايات الحمراء المذهبة للآيات ، والرسوم التي اتخذت شكل الازهار على جانبي السطور- كانت تشكل جمالا يأسر الرائي ويوقعه في حيرة ، وينم في الوقت نفسه عن قليل من الاثم لأنه لم يكن وسيلة بل كان غاية · كان ينبع من نفسه ارضاء لنفسه · كان لعبة براقة من الألوان والأشكال تصرف الاهتمام عن ذلك الذى كان على الجمال أن يسعى لخدمته ، كما ينم كذلك عن قليل من الخجل كما لو كانت هناك اثارة خفية تنبعث من هذه الصفحات المزدانة، ربما كان ذلك لأن الجمال نفسه اثارة واثم ، وربما كان لأنني أرى الأمور كما لا ينبغي ·

أخذت زهرة (الدافينا) تنشر رائحتهـــا ، تلك الزهرة التي كانت تخنقني في الليـــل برائحتها ، وترامت من الحي أصوات الأغاني ، تلك الأغاني التي كانت تفزعني بمجونها الفاحش ، واستولى على ذلك الغيظ الشديد الذى كان يملؤني في الليل ويثير الرعب في نفسي ، وخرجت من الأخدود ، وقفزت من الدائرة ؛ فلم يعد هناك شيء يقيدني ، ولم يعد كذلك شيء يحميني من نفسي ومن الآخرين ، أو يـــوم يكون لي بمثـــابة الواقي والمعين · لست الآن سيد أفكاري وتصرفاتي ، لقد أصبحت متسترا على

الأفاقين وقطاع الطرق • يجب مغادرة هذا المكان والاتجاه الى أية جهة •
يجب الابتعاد عن هذا الرجل الشاب الذى يثيرنى بنظرته المختبرة • يجب
التحدث اليه فى أى موضوع كى ابقى مستترا أمامه ؛ فهو يعرف الكثير
عنى فى صباحى هـــذا ، كما يكمن بداخله شىء غامض يجمع بين عنف
حقيقته وهدوء مظهره ، ولا اذكر أننى رايت قط عينين أشد حرارة وفى
الوقت نفسه أكثر ثقة من عينى هذا الشاب •

تحولت عنه ، عن الصورة القبيحة التى رايتها فى داخله ، عن الكره
الذى ليس له من سبب والذى التهب فى داخلى وأخذ يخنقنى كما يخنق
الدخان او العفن • كيف ذهب بهدوئه هذا الى الحراس واتى بهم ليقبضوا
على الهارب • انه لم يفكر لحظة واحدة فى مصير ذلك الهارب ، ولا فى
حياته ، ولا فى احتمال براءته • لقد قضيت الليل كله أتردد فى الأمر ؛
وأما هو فقد فصل فيه فى لحظة • والآن جلس فى هدوء واطمئنان ينسخ
حروفه الرائعة الآثمة ، مطرزا اياها كما يطرز العنكبوت نسيجه العجيب•
ما اشبهه بذلك العنكبوت ؛ فكلاهما يتصف بالمهارة والصرامة كما يعرف
عنه عدم المبالاة •

اقتربت من آثار قدمى الهارب ، تلك الآثار التى لم تكن متساوية ،
وطمستها •

وقال يوسف :

ـ احدى رجليه كانت حافية •

كان ينظر الى ويراقب تحركاتى والكارى • وعندئذ تملكتنى رغبة
مجنونة فى ان اساعده كى لا يضل وكى لا يلجأ الى الحدس والتخمين ••
فى أن اقول له كل شىء عن الهارب ، وكل ما يدور بظنى عنه وعنهم وعن
نفسى وعن اشـــياء أخرى كثيرة ، وحتى عن ما لا أفكر فيه من الأشياء ،
بشرط أن يكون قبيحا •

قلت دون ادراك وقد كدت افقد الوعى :

ـ ربما قبضوا عليه أخيرا •

كانت هذه اللحظة كافية لكى تجعلنى آخذ حذرى ولكى يتغير فيها
الحديث • لقد انتابنى الفزع من هـذا الرجل الشاب •• من أجل ذلك
الذى أردت ان اقوله •• من أجل ذلك الذى استطعت أن أصبح •• من
أجل ذلك الذى استطاع هو أن يفعل •

كانت كلمتي غير متوقعة ، وغير مطـــابقة لحرارة العزيمة الغاضبة التي كادت الآن أن تختفي ، وللون الصـــوت الذى كان يتحفز للهجوم والانتقاض ؛ ولذا نظر الى في دهشة وكأنه قد خاب أمله ٠

اتضح لى اذ ذاك أنني كنت أعلم حقا ما سيفعله هـذا الرجل منذ اللحظة الاولى ٠ انني عندما قررت أن أفضى الى احد أتباع التكية بكل شيء عنه ، وعندما اخترته بالذات واسقطت الآخرين سلفا من حسابي ، وعندما قلت ان من الافضل عدم تدخلنا ـ كنت واثقا أنه سوف ينادى الحراس ، حتى انني بعد صلاة الصــبح في المسجد كنت أطوف بالشوارع المحيطة بالتكية لكيلا ارى كيــف يقبض الحراس على الهارب ويذهبوا به ٠ لقد وضعت في اعتبارى تبلد ضميره ، وكنت أعرف عنه ذلك ؛ ولكنني ـ رغم هذا ـ شعرت باشمئزاز واحتقار نحوه عندما فعل ذلك ٠ لقد كان منفذا لتلك الرغبة التي استترت في نفسي والتي لم تكن بمثـــابة قرار مني ؛ فالقرار اذن كان قـراره ، وحتى لو كان القرار صادرا منى فالتنفيذ جاء على يده ٠

وربما كنت ظالما اياه ؛ اذ لو ظن حقا أنني أرغب في تسليم الهارب الى الحراس لكان خطؤه يتمثل في اطاعته ، وذلك لا يعد ذنبا ٠

وأما هذا الاستعداد للصرامة والغلظة فقد كنت لا أزال حتى الأمس اسميه عزيمة ، وهانا اليوم أؤاخذه ٠ انه لم يتغير ، بل أنا الذى تغيرت ، وقد تغير عندئذ كل شيء ٠

لقد اردت بكريم المعاملة أن أدفع عنه امكان وقوع الظلم الذى لايعلم عنه شيئا ولكنه في الحقيقة يؤرقني ، بالرغم من أنني لم أغير كثيرا من رأيي فيه ، ولكن الكره كان لا يزال يتسرب مني ، وربمــا كان ذلك لعدم استطاعتي أن أخفيه جيدا ٠

قلت ان ما ينسخه من القرآن سوف يكون عمـــلا فنيا حقا ٠ ولكنه نظر الى دهشا ، يكاد الخوف يتملكه ، كأنه سمع انذارا مني ٠ وربما كان ذلك لأن المجاملة الصادقة بيننا كانت نادرة ، فاذا تصادف حدوثها فانها توحي دون شك بشيء ٠

ـ يجب أن تذهب الى القسطنطينية لكي تزيد من اتقانك الخط ٠

وهنا ظهر على وجهه خوف حقيقي كان من الصعب اخفاؤه ، وسألني في هدوء :

ـ لماذا ؟

ـ أنت تملك يدا ذهبية ، ومن الخسـارة الا تتعلم كل ما يكون فى امكانك ٠

اطرق براسه ٠

لم يثق بى ٠ لقد ظن اننى ابحث عن طريقة لابعاده عن هذا المكان ٠ غير انى طمأنته بالقـدر الذى كان فى الامكان ان يخفف فى تلك اللحظة القصيرة من عدم ثقته ، ولكن احساسا غريبـا بالضيق ظل يسيطر على نفسى ٠ أكان عدم ثقته هذا موجودا بالأمس وموجودا فى السنة الماضية وموجودا على الدوام ولم أكتشفه الا الآن فقط ؟ وهل كان ذلك لأنه يخاف منى كما أخاف أنا منه ؟

اننى ما فكرت قط بهذه الطريقة من قبل ٠ ان كل شىء يتغير عندما يتزحزح الرجل من وكره ؛ ولكننى ما أردت ذلك ٠٠ ما اردت أن أتزحزح من الوكر ولا ان اغير زاوية بصرى ، لاننى لن أكون اذ ذاك كما أنا الآن ، وماذا سأكون اذن ، هذا مالا يستطيع أحد أن يعرفه ٠ ربما أكون انسانا جديدا يجهله الناس ، انسانا لا أستطيع ان أحدد تصرفاته أو أتنبأ بها ٠ ان السخط اشبه شىء بالوحش ؛ اذ هو ضعيف عند مولده ، رهيب عندما ينمو ويشتد ٠

نعم أردت أن أسلم الهارب الى الحراس ، وهانا أحس الهدوء من أجل ذلك ٠ ان هذا الشاب كان مصدر تحد كما كان دافعا وجاذبا الى المجهول ، كان أحد أبطال قصص الاطفال ، كان حلما يمثل الشجاعة ، كان عنادا جامحا ٠ واذا كنت قد تصورته هكذا فهو فى الحقيقة أخطر من هذا ٠ كان لزاما على أن أقتل افكارى التى لا تحمل المسئولية ، وأن أمهد بدمه مكانا يصبح مكانى ، أحتله بعقلى وضميرى ٠

بدت التكية تحت أشـعة الشمس الهادئة ، تزهو بلونها الأخضر الذى البسته اياها شجيرات اللبـلاب ذات الأوراق الريانة ، وتشع من جدرانها السـميكة ومن قبعة سطحها الحمراء القـاتمة هالات من الأمن المقيم ، وينبعث من تحت أطراف هذه القبعة هديل خافت استطاع ان ينفذ الى حواسى التى كانت لا تزال الى هـذه اللحظة مغلقة ، وكان ذلك يؤذن برجوع الطمأنينة ٠ أما الحديقة فكانت تمتلىء برائحة الشمس وبما تزفره الأعشاب الحارة ٠ ولا بد لكل انسـان من أن يكون له مكان يمنحه حبه ، لشـعوره بأنه مكانه ، ولاحسـاسه بأنه المأمن له ؛ فالعالم تكثر احابيله

وتزداد فخاخه لمن لا سند له • مهلا ، فقدمي تسير مستوية في غزير من الأعشاب ، ويدى تلمس كرة صدفية من أزهار ال (بيسرك) ، وسمعى يصل اليه تدفق أصوات المياه ، وهأنا استقر في هدوئى السابق، كمريض برىء من مرضه ، كعـــائد بعد طول ترحال ؛ فقد قضيت الليلة الطويلة بأكملها اتنقل بافكارى ، والآن طلع النهار وسطعت الشمس ، وقد عدت من تطوافي ، وها هو كل شىء يبـــدو جميـــلا مرة أخرى ، ومن جـديد أحسست به •

عندما وصلت الى المكان الذى افترقنا فيه قبيل الفجر ، رايت الهارب مرة أخرى : طالعتني ابتسامة غامضة ، وسخرية ترتسم على وجهه ، في تلك الوقدة التي كانت تشتد مع تقدم النهار •

نظر الى وسالني في هدوء •

ـ هل أنت راض ؟

ـ نعم أنا راض • ولا أريد أن اشغل بالى بك ، فقد أردت أن أقتلك•

ـ لا تستطيع ان تقتلنى • لا أحد يستطيع أن يقتلنى •

ـ انك تغالى في تقدير قواك •

ـ انني لا أغالى ، بل انت الذى تغالى •

ـ أعرف • لست أنت الذى تتكلم ، ولعلك لسـت موجودا بعد • اننى الفكر وأتكلم في مكانك •

ـ اذن أنا موجود • وكم في هذا من الخطر عليك •

حاولت أن ابتسم ارضاء لنفسى ، فلم يكن ذلك في قدرتي ؛ اذ كنت على وشك أن أكون منهزما • لقد مرت اللحظة التي كنت فيها مغتبطا من أجل انتصارى عليه ، ومن أجـل ذلك الذى كان في الامكان أن يكون ؛ فقد أحيا وجوده في خاطرى بصورة أشد خطورة •

٥

« ام على قلوب اقفالها »

فى الممر الطويل الذى يحيط بداخل الخان القديم والذى اتخذ شكل المربع كان النـــاس فى أحد جوانبه يســـدون الطريق • كانوا ينتظرون متوترين أمام باب لاحدى الغرف، وقد احتشدوا مشكلين دائرة غير منتظمة يقف فى وسطها الحارس • وكان هنـاك آخرون ينضمون على التوالى الى هذا الحشد ، والممر يمتلىء بهم كما تمتلىء القناة المسدودة • ومن بين هؤلاء المجتمعين كانت الاذن تسمع أصواتا لهمسات توحى بالغضب والدهشة • والحشد له لغته التى تختلف عن تلك التى يستخدمها كل فرد من أفراده• انها تشبه طنين النحل أو تشبه الأزيز ؛ ففيها تفقد الكلمات ويبقى رنين متحد ، تفقد ميول الافراد وتبقى ميول الجمع ، ويالها من ميول خطيرة •

لقد قتل أحد العابرين فى الليـــل ، ويعمل تاجرا ، والآن سوف يجيئون بالقاتل ، قبضوا عليه فى الصباح ، وكان جالسا يتناول الخمر فى هدوء ، كانه لم يقتل رجلا •

لم أجرؤ على السؤال لأعرف من هو القاتل ، ولو سألت لما أفادنى اسمه شيئا •• اننى اخاف أن أتعرف عليه بأى اسم اسمعه ، فقد كان ظنى متجها الى واحد فحسب • كدت دون تفكير أنسب هـــذا القتل الى هاربى • لقد فعل ذلك فى الليل ، كانوا يطاردونه فاختفى فى التكية ، وفى الصباح ذهب ليسكر ظانا أنه فى أمان • عجبت كيف تكون الدائرة التى تحيط حياة الانسان ضيقة ، وكيف تتقاطع الطرق التى نسير فيها ؛ ففى ليلة الأمس جاء به القدر الى ، والآن قادنى القدر لأشهد نهايته • ربما كان من الأفضـــل ان أحمـل تلك المعرفة والأدلة لعدالة الله السريعة فى نفسى كشعار وكباعث للطمانينة ولكننى لم اســـتطع ، انتظرت أن أرى وجهــــه الذى حيرنى ليلة الأمس ، وأن أرى ثقته المتداعية أو أرى عناده

الشرير لكي أرفضه ، سامعا حولى حديثا خافتا عن القتـل وكيف انتهى بالسكين فى العنق وفى القلب · أخذت أفكر كيف أصبحت مشتركا فى امر قبيح ، وكيف قضيت الليلة العصيبة معذب الضمير دون أن اشـعر سلفا بشيء يدل على أنه قاتل · كنت مدنسا بلقائه ، مهدر القدر بكلماته ، مذنبا من أجل هروبه ، ومن أجل أنه كان يستطيع الا يقوم بعمل جنونى والا يذهب ليتناول الخمر فى المشرب ·

ولكنى ، دون مبرر ، كنت أتصور كل شيء على وضع أشد واصعب مما كان عليه ، متهما نفسى ومتظاهرا بأننى أحس اشمئزازا · وفى الحقيقة كان الأمر بالنسبة لى أيسر ؛ فالحمل المضنى قد سقط عن كاهلى ، والضيق الذى جثم على صـدرى واستقر طويلا كان يأخذ فى الزوال · انه قاتل قاتل شرير ودنيء ، انتزع حياة آخر بحركة سريعة لحد سكين ، لا لأجل شيء ، وربما كان لأجل كلمة او لأجل ذهب · لقد تمنيت من كل قلبى أن يكون هو القاتل ، وعلى هذاالنحو استطعت أن أنحيه عنى ، ومن أجل ذلك كان يستولى على الاحساس ببرد الراحة ، والآن سوف انتزعه من نفسى ، وسوف أنسى ليلة الامس العصيبة الهوجاء التى أتت كالنيران على ما كان محفوظا فى نفسى كأنه شيء مقدس · ليس القاتل سـوى شخص تعيس حقا ، فالأمر سـواء بصقت عليه أو رثيت لحاله ، فهو لا يستطيع أن يحرك فى داخلى غير الحزن أو الاشمئزاز من أجل الناس ·

عرفت أنهم يجيئون بالقاتل ، وذلك على أثر سماع الاصـوات المضطربة الغاضبة التى كانت أشبه شيء بما تحدثه الرياح الخفيفة عند هبوبها (وفى الامكان أن ينطلق منها عاصفة أو ينبعث منها هدوء) تلك الأصوات التى يملؤها الكره ، وشدة الانفعال ، والتطلع القلق ، ورائحة الدم ، والدهشة المكتومة ، والتحفز للبطش والثـار · كان يعلن عن مجيئه تكاثر حركات المتجمعين ، وتململ أرجلهم المضـطربة ، واتجاه أنظارهم المتطلعة نحو القادمين ، وتقلصات وجوههم التى كانت تطغى عليهم فتسلب أصواتهم ولعلها تحبس أنفاسهم · وفى هدوء ساد المكان ترامى الى السمع وقع خطوات فى الممر المغطى بالاحجار ، ودون أن أرفع رأسى حاولت أن اتبين هل احدى خطواته غير مسموعة ، واذا به يتقدم بين اثنين من الحراس وكان نظرى موجها الى قدميه ، وكانتا داخل حذاء ، رفعت نظرى الى أعلى ، ولم تك ذاكرتى تختزن من ليلة الامس سـوى قميص أبيض ووجه صارم ، فرأيت رسغيه مقيدين فى وضع متقاطع وقد

ازرقت يداه وبرزت عروقها من أثر القيد ، وما كنت اعرف شيئا عنهما ، وتوقف بصرى عند عنقه النحيل ، كان من الواجب أن أذهب من قبل (مجيئه) ، وبدون عجلة أو رغبة رفعت بصرى الى وجهه ، فالرجل لم يكن هو هارب الامس .

عرفت ذلك قبل أن أراه .

كان هذا الرجل يقف في وسط دائرة ، وقد بدا شاحب الوجه ، هادىء النفس ، وكان يخيل الى أنه يبتسم بطرف احدى شفتيه الدقيقتين ربما كان ذلك لأن الامر بالنسبة لما سيحدث له سواء ، أو لأنه كان معجبا بنظر الناس اليه . ومهما يكن من أمر فقد شق الحراس طريقـــا بين جمهور الواقفين ودخلوا به الى الغرفة التى يرقد فيها التاجر القتيل .

اخذت أذهب في الممر ، فما كان هذا يهمنى فى شىء . لم اعجب لعدم كونه هو ، ففى الحق لم يكن هذا متوقعا . لقد وددت ان يكون هو ، وكنت أنتظر المعجزة ، وربماكنت ظالما اياه ، وربما لم أكن ، قفز هذا الى فكرى وأنا أربط بين الاسباب الخارجية ناسيا كل ما فكرت فيه فى الصباح والليلة الماضية . لم يكن هو المهم الآن بل أنا ، لقد كنت أريد أن احرز نفسى منه كما اردت في الصباح . وكانت تلك محاولة أخرى منى لاهلاكه ، كى اقتص لنفسى وأفسح الاثر الذى تركه . لقد شغلت نفسى به أكثر من اللازم ، فقد جذب اهتمامى الى درجة جعلتنى اتردد فى نفسى ولكم تمنيت أن يهرب من المطاردين ويحتفظ بحريته كما يحتفظ بها النهر خلت من أمامه العــوائق والســـدود . كان فرصة نادرة غريبة ، يجب الاحتفاظ بها . هكذا فكرت وندمت على الفور . لقد دخل حياتى فى لحظة ضعف وكان سببا وشاهدا لخيانة لم تستغرق سوى زمن قصير ، ولكنها حدثت بالفعل . ومن أجل ذلك كنت أود أن يكون هو القـاتل ، اذ عندئذ تكون الامور جميعها أكثر سهولة ويسرا . فالقتل أقل خطرا من الفتنة ، ولا يمكن أن يتخذ أسوة أو يكون بمثابة التحريض ، انه يستوجب الادانة ويثير الاشمئزاز كما يحدث فجأة عندما يغفل أمر الخـوف والضمير ، انه مقزز ؛ كاسترجاع الذكرى القبيحة لاستمرار الشهوات الدنيئة التيءيخجل الناس منها خجلهم من اجدادهم الساقطين واقاربهم المذنبين . وأما الفتنة فهى وباء ، فباستطاعتها أن يثير السخط الذى يوجد دائمـا ، وهى تشبه الشجاعة وربما كانت شجاعة حقا ، لأنها مقاومة وتمرد ؛ كما تبدو جميلة، يحملها الرجال المتعصبون الذين يموتون من أجل كلمات براقة ويضعون كل

شيء رهن الحظ ، اذ كل ما يتعلق بهم غير مضمون • ومن أجل ذلك يبدو للرجل جميلا وجذابا في بعض الاحايين كل ما هو خطير من الأمــور •

كان والدي يقف في وسط الغرفة • لقد فتح الباب وأخذ ينتظر • كنت على علم بما يجب أن يفعل ، أن اقترب منه وأعانقه ، دون أن تكون هناك لحظة انتظار أو تردد •ولو تم ذلك لانتهى كل ما بيننا على أفضل الطرق وايسرها ، ولحللت بهذا جميع المشاكل ، مشاكلي ومشاكله ، وعندئذ نستطيع أن نتعامل كما يتعـــــامل اب وابنه • ولكن كان من الصعب مد اليدين ومعانقة هذا الرجل الاشيب الذى لم يكن وقوفه هكذا في وسط الغرفة بطريق المصادفة ، والخوف يسيطر من أجل هذا اللقاء • كلانا كان مترددا ، وما كنا نعرف كيف يعامل بعضنا بعضــــا ، وماذا يقول أحدنا للآخر ، فسنوات طويلة كانت قد مرت على لقائنا الاخير ، وقد اردنا بطريقة ما ان نخفى أن الحياة قد فرقت بيننا • نظر أحدنا الى الآخر لحظة طويلة ، كانت تجاعيد الشيخوخة تظهر على وجهه ، وكانت عيناه تنظران الى دون حركة منهما • لم يكن شيء في الرجل كما كان من قبل ، وكان لزاما على أن أعيد صورته الى ما كانت عليه من قبل ،خطوط حادة مشدودة ، صوت جهوري ، بساطة رجل قوي منحت يداه حرية الحركة • وكان الأمر يفرض على لسبب أن أتخيله قبل هرمه ، لقد كنت احمل صورته هـــكذا أعواما طويلة في ذاكرتي • والله يعلم كيف كان يراني ، وماذا كان يريد ، وماذا وجد • لقد كنا كغريبين وما كنا نود ان يكون تصرفنا على هذا النحو • وكان ضيقنا يشتد من أجل تصـــورنا للوضع الذى كان يجب ان يكون عليه لقاؤنا ، ومن اجل ما كان بامكاننا فعله وما لم يكن بامكاننا أن نفعله •

انحنيت لأقبــل يده ، فجميع الابناء يفعلون هذا ، ولكنه لم يسمح وأمسك بساعدي ففعلت مثله كما لو كنا صديقين ، وكان هذا هو الافضل وبدا الوضع يتسم بالود وليس تكلفا • ولكنني عندما شعرت بيديه اللتين لا تزال بهما القوة على ساعدي ، وعندما رأيت عن قرب عينيه الرماديتين المغرورقتين ، وتعرفت على رائحته القوية المحببة الى منذ الطفولة ــ نسيت حيرتي وحيرته ، وبحركة طفولية أسندت رأسي على صدره العريض ، فاحسست على الفور بنعيم شيء كنت أراه قد فقد منذ زمن بعيد • ربما كانت هذه الحركة قد أثارت مشاعري ، أو لعل قرب الشيخ قد حرك ذكراي الخامدة فقد كان يحمل رائحة البحيرة وحقول الفلات ، وربما كان

السبب فى ذلك شدة ما بدا على من انفعال وأنا احس كيف تهتز ترقوته التى أسندت جبهتى عليها ، أو ربما كانت الفطرة قد غلبت على فأحيت بأعجوبة بقايا ذلك الذى كان فى الامكان‌ان يكون طبيعتى ، حتى فوجئت بغزارة دموعى الصادقة • استمر هذا لحظة فحسب ، وقد خجلت ولم تكن الدموع قد جفت بعد لهذا الموقف الصبيانى المضحك ، اذ لم يكن يناسب ما بلغته من السن ولا ما ارتديته من ثياب • ولكن ، يا للعجب ظللت اذكر على مدى طويل هذا الضعف المخجل الذى كان لى بمثـــابة تيسير لا حدود له : ففى لحظة قصيرة كنت منفصلا عن جميع الاشــياء ومرتدا الى الطفولة ، تحت رعاية أحد الاشخاص ، متحررا مما سلخت من السنين ومما مر بى من الأحداث ومن عذاب ما اتخذت من قرارات ، وقد سلم كل شىء الى أياد كانت اقوى من يدى • كنت ضعيفا للغاية ، وما كانت لى حاجة الى القوة ، فقد كنت أحتمى بالحب الذى يستطيع أن يفعل كل شىء • أردت أن اقص عليه كيف كنت أركض فى الأحياء ، مفزعا بما أراه من توتر الناس وجموحهم الى المعاصى ، وكنت اذ ذاك مسمم النفس بأفكار غريبة ، وهكذا حالى دائما عندما احس بضيق وأشعر بتعاسة ، اذ يبدو الجسم عندئذ كانه يبحث عن الخلاص من العذاب ،وكان ذلك كله من أجل أخى ، وقد جاء الوالد من اجله ، اعرف ذلك ، وقد رغبت ان اقول له كيف لجأ الهارب الى التكية ولكنى ما كنت اعرف كيف أتصرف ، لقد احتدم كل شىء فى داخلى ومن أجل ذلك اردت ان أعذب نفسى وأعذبه • وفى هذا الصباح ، والآن ، ومنذ قليل ــ وان كان الامر فى ذلك على السواء ــ لم يعد شىء بعد على ما كان عليه ، ولذا أطلب مأمنا على صدره ، فقد عدت صغيرا كما كنت يوما ما •

ولكن عندما انقضت لحظة الحنان ومرت مرور البرق رأيت امامى رجلا أشيب قد حيرته وفزعته دموعى ، كنت اعرف أنها بلهاء لا مبرر لها• وقد كان بامكانها أن تقتل فيه كل أمل ، حيث كان يفكر فى شىء واحد فقط ، أو تثبت له كيف أننى اخطأت فى اختيار طريق حياتى ، وذلك ما لم يكن حقا• وكان واضحا لى أنه لا يستطيع أن يفهم شيئـــا من جميع ذلك الذى رأيت أن أقوله له ، وان كنت لم أر فى الحقيقـــة فحسب ، بل كنت أرغب بشغف فى قوله ، كما يرغب الطفل ، كما يرغب الضعيف : ولو حاولت لمنعتنى على الفور عيناه الفزعتان ولحالت دون ذلك يقظة عقلى • كان أحدنا يتمنى من الآخر ما يتمناه الآخر منه ،

آملا هو في قوتي وآملا انا في قوته ، وكلانا ضعيف ، وهذا ما كان يبعث على الحزن الشديد في هذا اللقاء الذي لم يتحقق منه الهدف ٠

سألته لماذا لم يقصد التكية ، فعندنا ينزل مالا نعرفهم من المسافرين وهو يعرف كم يسوني حضوره ٠ والناس سوف يعجبون حين يطلب المبيت في مكان آخر ؛ فنحن لم نكن متخاصمين كما لم ينس أحدنا الآخر ٠ وليس من المناسب النزول في الخان ، فالخان منزل للجميع ، ويصلح لمن لا اقارب له في القصبة ، ولا أحد يعلم من يخرج ومن يجيء ، فمن جميع الصفات يوجد اليوم اناس ٠

كان يرد على جميع محاولات الاقناع التي كنت أوجل بها ما كان يجب أن يكون برد واحد فقط : انه وصل ليلة الامس متأخرا ولم يرد أن يحدث ازعاجا ٠

لوح بيده عندما سألته عما اذا كان يعلم عن حادثة قتل في الخان لقد كان يعلم ٠

لم يوافق على أن ينتقل الى التكية ، وبعد الظهر سيغادر القصبة ، وسيبيت عند أصدقائه في احدى القرى ٠

ــ ابق يوما أو يومين لتستريح ٠

لوح مرة أخرى بيده وأشاح برأسه ٠ لقد كان في فترة من عمره حسن الحديث ، يأتي به على مهل ، ويوفي كل موضوع حقه ، ناظما كلماته في جمل حسنة التكوين بديعة النظام ، وكان يسود هذا الحديث المتأني شيء من الهدوء والثقة ، حتى ليخيل للمرء أنه فوق مستوى الأشياء وأنه يتحكم فيها ، كان يؤمن بموسيقى الكلمات ومعانيها ٠ والآن كان ذلك التلويح بيده يعني الاستسلام أمام الحياة ، يعني التخلي عن الكلمات التي ليس باستطاعتها أن تحول دون الكوارث ولا أن تقوم بتفسيرها ٠ لقد اتخذ بهذا التلويح ستارا وأخفى حيرته أمام ذلك الابن اذ لم يستطع حتى أن يكلمه ، كما أخفى فزعه أمام المدينة التي استقبلته بالشرور والظلام ، وعدم تكيفه أمام المصائب التي افسدت شيخوخته كان عليه أن ينهي العمل الذي جاء من أجله ، ويهرب على الفور من هذه القصبة التي سلبت منه كل ما كان يملكه : الابناء ، والطمأنينة ، والايمان بالحياة ٠ كان يتلفت حوله ، ويلقي ببصره على أرض الحجرة ،

كما كان يكثر من الضغط على أصابعه الغليظة الخشنة ، ويحول دون رؤية عينيه • وكان ذلك يبعث الضيق والأسف فى نفسى •

قال :

ـ لقد افترقنا ، ولم تعد تجمع بيننا سوى الشدائد • •

ـ متى سمعت ؟

ـ منذ أيام • لقد مر بنا بعض حمالى البضائع •

ـ وعزمت فورا على المجىء ؟ وانتابك الخوف ؟

ـ جئت كى أرى •

كنا نتحدث عن أخ وابن سجين كأنه من الأموات ، دون أن نذكر اسمه ، وقد جمع بيننا وهو غائب • كنا نفكر حتى عندما تحدثنا عن أشياء أخرى •

أخذ الوالد الآن ينظر الى بخوف وأمل ، فكل ماسأقوله سيكون بالنسبة اليه حكما فاصلا • لم يذكر خوفه ولا انتظاره ، مانعا نفسه بمهارة من أن يقول شيئا معينا ، وخائفا من الشر الناجم عن سحر الكلمات • غير أنه أضاف السبب الاخير الذى جاء به هنا :

ـ انك هنا صاحب سمعة ، وتعرف وجهاء القومجميعهم •

ـ ليس فى الأمر خطر على الاطلاق • لقد قال شيئا لا ينبغى قوله •

ـ ماذا قال ، أمن أجل كلمة يزج بالناس فى السجن ؟

ـ سأذهب اليوم الى المسلم (١) ، لأعرف السبب وأطلب الرأفة •

ـ أيلزم ان اذهب انا أيضا ؟ ساقول لهم انهم مخطئون ، فلقد زجوا فى السجن برجل من أشرف الناس ، وليس فى امكانه أن يأتى بعمل قبيح • وقد أركع على ركبتى ليروا حزن الوالد • وسأدفع ان لزم الأمر • سأبيع كل شىء وسأدفع ، أريد أن يطلقوا سراحه فقط •

ـ سيطلقون سراحه ، ولا يلزم أن تذهب الى أية جهة •

---

(١) بمثابة المحافظ •

ـ اذن سانتظر هنا • لن أخرج من الخان حتى ترجع • وقل لهم انه وحده هو الذى بقى لى • لقد أملت انه ســـوف يعود الى البيت ، ولن يخمد موقدى •

انني على استعداد لأن ابيع كل شيء ، فلا شيء يلزمني •

ـ لا تقلق ، فسيكون كل شيء على مايرام ، بفضل الله ورحمته •

لقد اختلقت كل شيء ، عدا فضل الله ورحمته • لم يطاوعني قلبي أن اتركه بدون امل ، كما لم أستطع ان اقول له انني لا أعلم شيئا عن أخي • كان الوالد يسيطر عليه اعتقاد ساذج بأنني بوجودي وســـمعتي يمكنني أن احمي اخي ، ولم ارد أن أذكر له أن وجودي لم يســـاعد اخي وان سمعتي وقعت في مأزق ، اذ كيف يستطيع ان يفهم أن جزءا من ذنب أخي قد اصابني ؟

خرجت من الخان أحمل عبء الالتزام الذى أخذته على نفسي من أجل المراعاة ، دون أن أعرف كيف احققه ،متأثرا بكلمة غير حذرة خرجت من فم أبي في حالة الحزن • وما كان ليقولها على الاطلاق لو انه كان مسيطرا على نفسه ، وقد ادركت بها مقدار حزنه ، كما رايت انه اسقطني من حسابه ، فانا بالنسبة له غير موجود وكانني في عداد الموتى ، لم يبق له سوى هذا الآخر ، هكذا يجب أن أقول للناس انني ميت في اعتبـار أبي لم يبق له بعد سوى هذا الآخر ، عودوا به اليه • أنا لست موجودا • سلام على روح الدرويش المذنب احمد • لقد مات ، ويبدو فقط أنه حي • أبدا ماكان لي ان أعرف ذلك الراى عني لو لم يكن الحزن قد افقده صوابه، وهانا الآن اعرفه ، وارى نفسي على خلاف ما تعودت أن أراها ، اراهـــا بعيون الآخرين • اتكون الطريق التي اخترتها تافهة في نظر والدي الى الحد الذى جعله يدفنني حيا ؟ أيكون عدم اعترافه بوجودي لأن ماافعله لا يساوي في نظره شيئا ، ولأننا مفترقان افتراقا كبيرا ومختلفان اختلافا عظيما ، فنحن نسير في طريقين متضادين على وجه التمام ؟ لقد كان فقده اياى قد تم منذ زمن ، وتأبينه لي قد مر وانقضى ، حتى ان حزنا لا يبدو على وجهه من جراء فقداني • ربما كنت أبالغ في ذلك ، ربما اتى والدي ركضا من أجلي اذا الم بي حادثة ولم يفكر في شيء سوى أمري، اذ الأحق هو من تكون حالته أشد •

ماذا حدث فجأة ، واى حجر من الاساس تزحزح فأخذ كل شيء في التداعي والانهيار ؟ لقد كانت الحياة تبدو بناء صلبا محكما ، لا يرى

فيه شيء من التصدع ، وفجأة حدث زلزال دون أن يكون هناك مبرر أو تحريض ، فهدم البناء المشيد كما لو كان قد بنى من الرمال ٠

من أعلى الجبل ، ومن درب الفجر الذى يمتد آخذا فى الصعود الى نهاية القصبة ، كانت تصل الى الآذان ضجة مبعثها ضربات الطبل وأصوات تخرج من المزمار ، وكانت الأفراح بعيد مارى جرجس تنحدر انحدار السيول الهادرة الى القصبة ، وذلك دون توقف أو انقطاع ، ولم يكن من الممكن الهروب منها الى أى مكان ٠

يالهم من مجانين ، كنت أفكر دون تركيز بروح قد استولى عليها غضب الامس ٠ انهم لا يعلمون أن فى العالم أشياء أهم من ذلك ٠

ولكن غضبى لم يكن حارا كما كان ليلة الامس ٠ ولم يكن هذا فى الحقيقة غضبا بل كان سخطا ، فهذه الافراح الجنونية كانت تمثل حائلا وتشكل ظلما ، اذ كانت همومى تشتد صعوبة بها ، وقد تركزت جميع جهودى وامكانياتى فيها ، فقد أصبحت عالمى وحياتى ، ولم يعد يوجد هناك شيء خارجها ٠ كان جميع ما يمكننى فعله قد بلغ من الصعوبة قدرا بحيث لا يمكن التغلب عليه ، فقد كان أشبه شيء بالمخالفة أو بالخطوات الاولى فى الحياة ٠ لقد كان لزاما على من أجلى ، اذ أننى أخوه ومن أجله ، اذ أنه أخى ، وما دمت لا أبحث عن سبب آخر ولا أنشد سببا أفضل من هذا السبب العادى الذى يجمل وقعه والذى يفسر نفسه بنفسه ـ أن أقوم بفعل شيء لو لم يكن فى داخلى هذا القلق ٠٠ لو لم يكن هذا الاضطراب الذى يذكيه تنبؤات سوداء والذى كان يضطرنى الى التفكير بغضب أرزق فى أخى المسجون : لماذا دفعنى الى هذا ٠ كنت أحاول فى البداية أن أدافع عن نفسى ازاء هذه الفكرة التى تتسم بالانانية كنت أحدث نفسى قائلا ليس جميلا أن نظن فحسب أن مصيبته مصيبتك فدمه دمك ، ويجب أن تساعده بدون أن تفكر فى نفسك ٠

لو تم الامر هكذا لكان أجمل ، ولاستطعت أن أكون فخورا بفكرتى الكريمة ، ولكننى لم أنجح فى أن أبعد الهم عن نفسى ، وكنت أجيب فكرتى النقية غير القادرة بقولى : نعم انه أخى ، والأمر من أجل هذا عسير ، وها هو قد القى على شيئا من ظلاله ٠ فقد كان الناس ينظرون الى بريب ، أو بسخرية ، أو باشفاق ، وكان بعضهم يحولون وجوههم حتى لا تلتقى أنظارنا ٠ ولقد حاولت أن أقنع نفسى قائلا : ليس من

الممكن ان يكون هذا ، بل هو يخيل اليك ، فكل شخص يعلم أن تصرف اخيك أيا كان ليس تصرفك ٠

ولكن على الرغم من ذلك لم يكن نظر الناس الى كما كان من قبل وكان من الصعب تحمله ، فقد كان يذكرني دائما بذلك الذى أردت الا يعرفه الناس ، ويكاد يقول انك تحاول دون نجاح أن تبقى طاهرا وحرا ولكن أحدا من أقاربك سوف يسمم عليك حياتك ٠

انحرفت من السوق الى طريق يمتد بجانب نهر صغير ، سائرا فى اتجاه مجراه بين الحدائق وبين قناته القريبة القاع ، فهنا يمر الناس فحسب ولا يتوقفون ؛ وكان من الأفضل الذهاب فى اثر مياه النهر والاتجاه بعيدا خارج القصبة ، حيث الحقول تترامى فى أحضان التلال ٠ اننى أعرف انه ليس بجميل أن يرغب الانسان فى الفرار ، ولكن الفكرة تأخذ بنفسها فى التحرر عندما تشتد بها الصعوبة ٠ وفى الماء القريب الغور كانت تسبح أسماك صغيرة فضية يغلب على الظن أنها لا تأخذ فى النمو ، وهذا شىء حسن ، وكنت انظر اليها باصرار دون أن أتوقف عن السير ، متابعا اياها ان هذا الطريق ليس طريقى ، وكان من الواجب أن أتجه الى الجانب الآخر، ولكننى لن أعود كى أعبر اليه ؛ فالانسان يرى الوقت متسعا أمامه عندما يقدم على شىء لا يطيب له ٠ لقد كان من الأفضل أن أحيا متشردا ، فالمتشرد يستطيع على الدوام أن يبحث عن الناس الأفاضل والأماكن المحببة اليه ، وأن يحمل روحا صافية متفتحة لسماء صافية وطريق حر لا يقـــوده الى جهة معينة بل يقوده الى كل الجهات ٠ ومن الممكن أن يتحقق هذا لو لم يكن الانسان مرتبطا بمكان قد استقر فيه ٠

اذهب عنى ، أيهـا الضعف الكريه ، انك تخدعنى بصـور الاراحة الكاذبة التى لا تستطيع أن تصل الى مجرد رغبة ٠

وفى الطريق حيث كنت أسير سمعت ورائى وقعا خافتـــا ، وكأنه يخرج من باطن الأرض ؛ فقد كان هناك قطيع من الأبقار يمشى حذاء النهر وسط سحب من الغبار ٠

انتحيت جانبا عند أحد أبواب الحديقة لأفسح طريقا للقوة المثلة فى مائة رأس من ذوات القرن ، تسير دون ابصار ودون وعى ، وتجرى مغمضة الأعين تحت ضربات الرعاة ٠

وعلى حصان أمام القطيع كان يركب حسن ، وقد ارتدى معطفا احمر اللون ، وجلس منتصب القامة منفرج الأسارير ، وكان الوحيد الذى يرى هادئا مبتسما وسط هوة الفوضى ·· هذا الرغاء المثير ·· هذه الصيحات والعبارات البذيئة التى كان يتردد صداها فى وادى النهر ·

كان كعهدنا به دائما ·

لقد عرفنى هو بدوره ، وجرى مبتعدا عن القطيع ، وعن الرعاة ،وعن سحب الغبار الى حيث أقف ·

وقال مبتسما :

ـ اننى لا اود أن تطاك أنت أقدام حصانى · لو كان غيرك لما حزنت نزل عن حصانه بسهولة كما لو كان قد بدأ من لحظة فى السفر ، وعانقنى بشدة · لقد استولت على الدهشة وعدم الارتياح عندما أحسست بضغط يديه على كتفى · انه كان دائما يظهر سروره دون اخفاء ، وقد كان هذا هو ما يثير دهشتى على وجه الخصوص ·

أكان ذلك من أجلى ، أم انه فيض من المجاملات يصيب به كل من يراه ؟ ومهما يكن فهو ابتهاج مظهرى فى حياته يطفو كما يطفو الماء ، وليس له من قيمة لأنه يصيب الجميع ·

انه عائد من (فلاشكا) وقد قضى أشهرا عديدة فى السفر · هأنا أسأله رغم علمى كى أجد شيئا اقوله · وقد كنت ليلة الأمس على استعداد للتآمر عليه مع أخته ·

ابتدرنى قائلا :

ـ أراك قاتم الوجه ·

ـ اننى أحمل هموما ·

ـ أعلم هذا ·

كيف استطاع أن يعلم ؟ انه قضى ما يقرب من ثلاثة أشهر فى التنقل بين البلاد الأجنبية ، وقطع آلاف الاميال من أجل الأعمال التجارية · لقد سمع فوز وصوله كل شىء ، وقد كنت أظن أن جميع الناس فى القصبة لا يعرفون · ان الجميع يعلمون دائما ما يحدث من المصائب والشرور ، والخير وحده هو الذى يبقى مستورا ·

ـ لماذا سجن ؟

ـ لا أدرى ٠٠ ولا أعتقد أنه استطاع أن يرتكب أية جريمة ٠

ـ لو ارتكب جريمة لعرفت ٠

قلت دون أن أفهم قصده :

ـ لقد كان هادئا ٠

ـ ان رجالنا يعيشون هادئين ويصابون فجأة ٠ اننى أشعر بأسف من أجله ومن أجلك ٠ أين هو الآن ؟

ـ فى القلعة ٠

ـ لقد ألقيت التحية عليها من بعيد ، ونسيت ما فيها ٠ ساجىء فى المساء الى التكية اذا كان هذا لا يضايقك ٠

ـ لماذا يضايقنى !

ـ كيف حال الحافظ محمد ؟

ـ بخير ٠

ابتسم ثانية وقال :

ـ انه سيدفننا جميعا ٠

ـ سننتظرك هذا المساء ٠

لن يساعدني ولن يضايقنى معروفه الذى لا يحمل شيئا ولا نجنى من ورائه نفعا ؛ فكل شىء عنده فارغ وغير مفيد : طبعه الهادىء ومزاجه الصافى وعقله الذكى ، كل هذا فارغ وسطحى ٠ ولكنه كان الرجل الوحيد فى القصبة الذى قال لى كلمة العزاء لم تكن مفيدة ، ولكنها كانت صادقة وبالتالى فاننى أخجل أن أقول انها كانت تشبه صدقة الفقير ، اذ لم تبعث فى نفسى الدفء ولم تثر فيها مشاعر الحزن ٠

انطلق بحصانه أمام قرون الثيران التى كانت مطرقة كأنها تستعد للهجوم ، وقد لفه الغبار الذى أخذ يسبح كفقاقيع رمادية فوق الأبقاء مخفيا اياها ٠

لقد قابلته بفتور وابتعاد نفسى ، من أجل ما حدث فى الليلة الماضية ومن أجل ما أنتظر أن يكون ٠

انحرفت والأفكار تدور برأسى الى الجسر الخشبى لأنتقل الى الضفة الأخرى ، الى سكون الأزقة الهادئة التى تصبح الخطوة فيهـــا منفردة ،

وتختفى البيوت بين أغصان الأشجار خلف الأسوار المرتفعة ، كان كل شيء يختفى أمام الآخر ويركن الى العزلة والهدوء • لم يكن لى أى عمل هناك ، ولكنني وددت الذهاب مرجئا كل شيء قبل أن تكون هناك محـاولة منى لفعل شيء ما • وكدت اذهب الى هذه الأزقة الهامدة المختفية التي تقبع فى الضفة الاخرى ، حيث يكون السير أيسر ، ولكن حدث اذ ذاك أن سمعت من السوق ضربات الطبل المفزعة التي تخالف تلك التي تصدر عن الفجر، وانطلاق صوت البوق من برج الساعة في وقت غير مناسب ، وأصـواتا مختلطة غير واضحة تصيح وتنادى من جراء مصيبة مشتركة ، وكانت أشبه شيء بخلية النحل أصابها الهجوم • وكان النحل من الأناسي يطن ، وكان ينطلق ليهرب ، ويعود ليدافع ، مطلقا اللعنات ومناديا من أجل المساعدة• كان عمود من الدخان القاتم يرتفع فوق القصبة ، وكأنما كانت صيحات الناس قد تشابكت وامتزجت وتمثلت في هذا العمود صورة تراها الأعين• وكانت أسراب الحمام تطير من حوله ، أرغمها على التحليق صياح النـاس واشتداد الحرارة •

وبعد قليل كان عمود اللهب قد اشتد واخذ ينتشر فوق البيـوت أسود كثيفا • لقد تحرر اللهب ، وأخذ يندفع فى صولة الجبار ، ويقفز في شدة وغزارة من سطح الى سطح معلنا سروره ، ومظللا صيحات الناس ومخاوفهم •

انتابتني رجفة لهذه المصيبة • اننا على الدوام مهددون ، فدائمـا يحدث أمر قبيح • كنت اذ ذاك منفصلا بمصيبتى التى كانت أشد من هذه وأهم حتى انني اخذت أنظر بالرضا الى هذه النار ، آملا أن يبقى الناس أمامها عاجزين ، وأنه بهذا سوف يتقرر مصير كل شيء ومصيرى • كانت لحظة جنونية ، وبعدها لم يعد يهمنى شيء •

وهكذا ، فى الوقت الذى كانت توجد لدى أسباب كافية لأنحرف عن الطريق حتى لا اقوم بتنفيذ ذلك الذى كنت انوى عمله ، قررت الا أؤجل القيام بمهمة التنفيذ • لم أفكر طويلا ، وربما قوى الأمل فى نفسى أن الكلام عن الرحمة أيسر فى لحظة المصيبة التى تذكر الناس بالانكسار والضعف أمام ارادة الرب •

ان لى الحق فى أن أعرف عن أخى الشـقيق قدر ما يجب عليهم ان يدلوا به الى من المعلومات عنه ، ذلك القدر الذى يجب عليهم أن يدلوا به الى أى شخص له نفس الصفة ونفس الوضع • يجب أن أساعده اذا كان

فى الامكان مساعدته ، وقبيح أن أبقى بعيدا عن أمره ، وسيعاتبنى الجميع من أجل ذلك ٠٠ من لى غيره ؟ ومن له غيرى ؟

كنت اشجع نفسى وابرؤها ، وأثبت حقى وأستعد للتراجع ٠ لم أنس ما كنت افكر فيه قبل ذلك ، من أننى اخاف على نفسى وأحزن من اجله ، حتى اننى ما استطعت أن اعرف ما هو اهم ، ولا أن افصل بسهولة أحد الأمرين عن الآخر ٠

وأمام مبنى المسلم كان أحد الحراس واقفا ، وسيفه معلق بحزامه ، وبندقيته الصغيرة قد حشرها فى حزامه العريض أمام بطنه ٠ لم أكن قد حضرت الى هذا المكان من قبل ، ولم أفكر فى الحراس المسلحين الذين يقفون عقبة فى طريق القادمين ٠

ـ هل المسلم موجود ؟

ـ لماذا ؟

كان يراودنى خلسة رجاء فى ألا أجد المسلم ؛ فالنار فى المدينة ، وهناك أعمال أخرى مختلفة تشغله ، ومن العجيب أن يكون موجودا عندما أطلبه أنا ، ولعل تلك الفكرة المستترة قد حتمت على المجىء لاننى لن أجده ، وسأضطر الى الرجوع مؤجلا زيارته ليوم آخر ٠ ولكن عندما سألنى الحارس بغلظة ، ويده تقبض على زناد بندقيته عن ذلك الذى لا يهمه ، ثار فى نفسى الغضب ، وكأن همومى قد وجدت لها متنفسا وكانت تنتظر على مضض حتى تتهيأ لها الفرصة لتنطلق بأية طريقة ٠ اننى درويش ٠٠ شيخ للتكية ، ولا يستطيع أحد الحراس أن يستقبلنى بهذه الطريقة ، بيد على البندقية ، ولو من أجل الملابس التى أرتديها ٠ لقد لحقتنى الاساءة حقا ، وبعد قليل كنت أفكر كيف ننتقم لتخويفنا ما امكنتنا الفرصة ٠ ان سؤاله كان ينم عن غلظة ٠٠ كان يبرز سلطته ومهمته ٠٠ كان يشير الى انتفاء قدرى ٠ لقد اظهر أن الطريقة التى أتبعها لا تثير الاحترام ٠ ولكن ذلك كله لم يستطع أن يكون بمثابة سبب يدعو الى الانصراف ٠ لو قال ان المسلم ليس موجودا أو أنه لا يقابل أحدا لشكرته ولذهبت بارتياح٠

قلت فى هدوء محاولا تهدئة غضبى :

ـ اننى شيخ التكية المولوية ، ويجب أن التقى بالمسلم ٠

نظر الحارس الى فى سكون ، ولم تثر كلماتى فيه شيئا ولو قليلا ٠ لقد بدا متشككا ، ومغفلا ـ وفى ذلك اساءة ـ أمر ذلك الذى قلته ٠خشيت

من هدوء الذئب هذا ، وخيل الى أنه يستطيع دون رحمة ودون غضب ان ينزع بندقيته وأن يرديني قتيلا ، كما يستطيع كذلك ان يصرح لى بالدخول الى المسلم ٠ انه كان يطارد ليلة الأمس هاربى ، وانه قد ذهب بأخى الى القلعة ٠ لقد أخطأ بالنسبة اليهما ، وهما قد اخطآ بالنسبة الى ٠ واننى هنا الآن من أجلهما ٠

وفى غير عجلة ، وفى انتظار شىء آخر منى قد يكون سببا وقد يكون رجاء ، دعا حارسا آخر من الممر وقال له ان درويشا ما يريد لقاء المسلم٠ لم أثر من أجل عدم التعيين هذا ، فربما كان من الأفضل ذلك ٠ على أنه كان يحق لى أن أثور فالمسلم لا يرفضنى أنا بالذات وانما يرفض درويشا غير مسمى ٠

انتظرنا أن ينتقل الخبر خلال الممرات وأن تعود الاجابة ، ووقف الحارس مرة أخرى فى مكانه دون أن ينظر الى ، ويده على البندقية ، اذ لم يكن يهمه هل سيطلب مقابلتى أو يرفض ، وكان وجهه الأسمر النحيف يبدى خشونة تحمل طابع اللامبالاة ، يغذيه بها وقوفه فى هذا المكان ٠

ندمت وانا أنتظر لما كان منى من عناد لأتخطى هذه العقبة ، ظانا أنها ليست من الصعوبة فى شىء ، والواقع أنها عقبة المسلم نفسها ، فهى يده الممتدة ٠ والآن لم استطع بعد أن أرجع ، لأننى ربطت نفسى بهـــذا المكان ، وضــعت نفسى فى مأزق ، فاما أن يدخلونى واما أن يردونى ، ولا أعلم أيهما اكثر شرا ٠ كانت نيتى أن التقى بالمسلم ، فقد كنت أعرفه وان ازج عندما تسنح الفرصة فى الحديث بموضوع أخى ٠ والآن لا يمكن الانصراف ؛ لقد حركت سلسلة الحراس ، وطلبت أن اقابل المســلم ، فالحديث لا يمكن أن يكون عرضيا ، فقد اتخذ طلبى شكلا رسميا ٠ سوف يكون دليلا على الجبن لو تحدثت الى المسلم بصـــوت منخفض ٠٠ بذلة وانكسار ٠ كنت ارغب فى المحافظة على الوقار والحذر ، فالشدة لا تساعدنى ولا املكها ، والضعة تجرح مشاعرى ولكنى أحس بها تسرى فى جميـــع شراييني ٠

سيكون من الخير ان يرفض مقابلتى ، فقد كنت متوترا وعلى غير استعداد ، ودون جدوى حاولت أن افكر فيما ساقوله له ، ودون جدوى حاولت أن أتخيل تعبير الوجه الذى سأحمله معى الى مكتبه ٠ كل ما كان اننى رأيت التجاعيد المتقلصة لرجل مذعور لم يكن يعرف حتى ذلك الذى يحثه ويدفعه الى تلك الخطوة ، أهو حبه لأخيه ، أو خوفه على نفسه ، أو

مراعاته جانب الأب ؛ وكان يفزع كانه يفعل شيئا محرما ، كانه يعرض كل اموره لحكم القضاء · ماذا عرضت ؟ لا أعرف ، ولذا أقول : كل الأمور ·

لقد دعونى للدخول ·

كان المسلم واقفا بجانب النافذة ينظر الى الحريق · وعندما أدار بصره بدا لى أنه مشتت الذهن ، ولم أر صورتى فى نظرته، كانه لايذكرنى، لم يساعدنى هذا الوجه الجامد بشيء ·

وفى لحظة واحدة ، عندما كنت أنظر الى عينيه اللتين تلفظان الناس واللتين كانتا تنتظران أن تفصلا فى قضيتى ، كنت احس باننى متهم · لقد كنت اقف بينه وبين جرم مرتكب غير معروف ، اما هو فكان يبعدنى عنه ويقربنى الى المتهم ·

كان فى الامكان ان ابدا حديثى بطرق شتى لو لم أكن متوترا ·· ان ابدأه بهدوء قائلا :

ـ لم أجيء لأدافع وانما لأسأل ·

او أبدأه فى قليل من التوسع :

ـ مذنب هو حيث انه سجين ، هل لى ان اعرف ماذا فعل ؟

أو أتناوله بشيء من التجريح :

ـ لقد سجن ، لا بأس ؛ ولكن كان من الصواب ان تقوموا باخبارى·

كان يجب البدء بهدف ما ، بارادة ما معينة ، مظهرا صلابة أكثر فى هذا التدخل ، فاخترت شر طريقة ، ويبدو اننى لم اخترها بل فرضت هى نفسها ·

ـ اردت أن أسأل عن أخ ·

قلت ذلك فى ارتباك ، ودون اطمئنان ، مبتدئا بما لا ينبغى البدء به ، ومكتشفا فى الحال مكان ضعفى ، دون أن أنجح فى تهيئة الجو ليكون منه الاقبال المرجو وليكون للكلمات التأثير · أن ذلك الوجه الجامد قد فرض على ان اقول اى شيء ، كل شيء دفعة واحدة ، لكى يتذكرنى ، لكى يلحظنى ·

ـ عن أخ ؟ اى أخ ؟

في هذا السؤال الأصم ، وهذا الصوت الميت ، وهذه الدهشة ما بدا له أنني أتوقع وجوب معرفته شيئا ليست له (في نظرة) أهمية. احسست كيف صغرنا أنا وأخي الى درجة الذرة من الغبار ٠

ليغفر لي جميع الشرفاء الذين هم أشجع مني ، جميع الصالحين الذين لم يقعوا تحت الاختبار لكي ينسوا فخرهم ٠ ولكن يجب ان أقول ، انني لو أخفيت الحقيقة عن نفسي لما ساعدني ذلك في شيء : لم تجرحني خشونته التي اظهرها عمدا ، ولا المسافة الشاسعة التي وضعها بيني وبين نفسه؛ وانما أفزعني ذلك السؤال اذ أنه لم يكن متوقعا ٠ وقد أحسست انني غير مطمئن وأنني في خطر ؛ فالأخ لم يكن موجودا ليكون رابطة ممكنة بيننا ٠ كان يجب احياؤه ، والمجيء به أمامه لأول مرة ، وتحديد جريمته للمرة الأولى ٠ ولكن ماذا يمكنني ان أقول لكي لا أجلب ضررا لأخي ولكي لا الحق أذى بالمسلم ؟

قلت انني حزين لما حدث ، لقد أصابتني المصيبة كما يصيبني موت أقرب الناس الي ، اذ القدر لم يحفظني من شر رؤية أخي الشقيق في المكان الذي يذهب اليه المذنبون والاعداء ، ومن نظر الناس الي بدهشة كما لو كنت قد حملت جزءا من الذنب ، أنا الذي أخدم الله والدين سنوات طويلة بشرف وأمانة ٠ وبينما كنت اتحدث عرفت أن ذلك كان قبيحا ، كنت ارتكب خيانة ، ولكن الكلمات كانت تجري بسهولة وصدق ، فالشكوى من حظي كانت تنطلق من ذاتها ٠ الى الدرجة التي أصبح لومي لنفسي قويا مجلجلا ، حتى تملكني اشمئزاز من أجل ما حبب الي من البكاء على نفسي ، من أجل الجبن الذي لم أكن أعرف سببه الحقيقي ، من أجل الأنانية التي كانت تخمد كل تفكير آخر ٠ ها هو شيء يهتف من داخلي : لا ! هذا قبيح ، أجئت لتدافع عن نفسك ، من اي شيء ، أخوك في خطر، ستخجل فيما بعد ، ستعقد الأمور بالنسبة لأخيك ، اسكت واخرج ، قل واذهب ، قل وابق ، وجه بصرك الى بصره ، ان ما يخوفك منه هو وجهه الجامد ، سكن مشاعر الخوف فليس هناك من شيء تخافه ، لا تهن نفسك بالشكوى أمامه وأمام ضميرك ، قل ما يجب ان تقوله ٠

وقلت أيضا ٠ ان أخي كما سمعت قد فعل شيئا ربما كان من الواجب عدم فعله ٠ انني لا أدري صحة ذلك ، غير اني اعتقد أنه لم يفعل شيئا خطيرا ، ولذا أرجو من المسلم ان يحقق الأمر كي لا ينسب الى السجين ما لم يفعله ٠

كان قليلا ذلك الذى قلته ، ولم يكن على قدر كاف من الشجاعة والشرف ، ولكنه كان كل ما كنت أستطيع قوله ؛ فقد نال منى التعب مبلغا عظيما ٠

ان وجهه لم ينطق بشيء ، لم يظهر غضبا ولم يعلن تفهما ٠ وكان من الممكن أن تخرج من فمه كلمة الادانة أو كلمة الرأفة ٠ اخذت أسترجع ذكراى فيما بعد فعرفت أننى كنت أفكر اذ ذاك فى مدى خطورة الوضع الذى يكون فيه كل من يقوم بالرجاء : انه صغير دون شك ، ضئيل ، مكانه تحت القدم ، مذنب ، حقير ، مهدد بما تكون عليه رغبة الآخرين ، خاضع لسلطتهم ، تواق الى ارادة خيرة تأتى مصادفة ، لا شيء من ناحيته يحدث تأثيرا حتى تعبير الخوف أو الكره الذى يطفى عليه والذى بامكانه أن يودى به ٠ وتحت تأثير هاتين العينين اللتين زال بريقهما ، واللتين تبصراننى بصعوبة ، قطعت الأمل فى انتظار كلمة طيبة تخرج منه أو رأفة تصدر عنه ٠ وما كنت أرغب فى شيء سوى الذهاب ، ولينته كل شيء كما يريد الله ٠

ولخيرا تكلم المسلم ، وقد أصبح الأمر عندى سواء ، وكان كلامه أشبه شيء بصمته ، فلقد تعود سنوات على هذا الموقف الصلد الذى يحمل الاحتقار الشديد ، ولكن ذلك أيضا كان عندى على حد سواء ٠ وكل ما هنالك اننى كنت أحس اشمئزازا قليلا من موقفه هذا ٠

ــ تقول أخوك ؟ مسجون ؟

نظرت خلال النافذة ، وكانت النيران قد أخمدت ، غير أن الدخان كان ما يزال يحلق فوق السوق بطيء السير حالك اللون ٠ يا للأسف لعدم اتيانها على كل شيء ٠

ــ أتعرف لماذا سجن ؟

ــ جئت لأسأل ٠

ــ هأنت لا تعرف لماذا سجن ، وقد أتيت ترجو ، بغض النظر عما فعل ٠

ــ لم أحضر من أجل الرجاء ٠

ــ أتريد أن تثبت عليه تهمه ؟

ــ لا ٠

ـ اتستطيع أن تقدم شاهدا له أو عليه ؟ وأن ترشـد عن متهمين آخرين أو مشتركين (معه) ؟

ـ لا استطيع ٠

ـ ماذا تريد اذن ٠

كان يتحدث في تراخ ، وعلى فترات ، ملفتا رأسه الى ناحية كما لو كان قد اسيء اليه ، كما لو كان يشمئز مما يجب عليه من القيام بتوضيح هذه الأمور الشديدة الوضوح ، ومما يضيعه من الوقت مع رجل عديم الفهم ٠

لقد اسـتولى على الخجل ، من أجل الخوف ، من أجل الأنانية المتشحة بالجبن ، من أجل احتقاره ، من أجل ماله من الحق فى استخدام الخشونة ، من أجل ملله الذى لم يكن يخفيه ، من أجل هذا الذى كان يزدرينى ، من أجل هذا الذى كان يتحدث معى كما لو كنت حمارا ٠٠ تلميذا ٠٠ عدوا ٠ تعودت أن أكون مطيعا ، وألا اعارض ، وأن أحنى الراس اسـتجابة ، حتى لقد كان يبدو فى تصورى أن ما كان منى من سـؤالى عن اخى اشـبه بذنب قد ارتكبته ، ولكن جسارة هـذا الرجل الفظ قد قضت فى داخلى على هذا التعود الطويل ، وربما كانت وقاحته التى تبلغ وقاحة السوقة هى السبب الأقوى للقضاء على هذا التعود ٠ كنت أحس أن لونى قد ازرق من أثر الـكره ، وان كنت أعلم أن ذلك لا يفيدنى ، فالأمر لديه سـواء ٠ وأما لدى فلا ، انه يريد ذلك ، انه يحاول ، ويكاد يبدو أنه لا يحاول ، فهو يرسل أشعة الشعور بالاشمئزاز نحو النـاس ٠ ولا أدرى لم يكون مصـمما على خلق الأعداء ٠ ان ذلك لا يهمنى ، ولكن كيف يجرؤ على أن يتصرف معى هكذا ؟ لازالت الفكرة عن اهمية الطريقة التى اتبعها والصفة التى أنا عليها تخدعنى ٠

ان الناس يعيشون هادئين ويموتون فجأة ٠ هكذا قال حسن تاجر الماشية العجيب الذى لن يتورط ولن يصاب بشيء من أجل عدم تبصره وعدم اعماله الفكر فيما يحيط به من امور ٠ وأما أنا فقد كنت اعتقد اننى فى أمن مما يعترى النفس من تقلبات ٠

لقد قلت متعجبا من نفسى ومدركا انه لن يكون من الخير هذا الذى أقوله :

ـ ماذا أريـد ؟ ! ما كان ينبغى أن تقول هذا ٠ أيعد خطيئة أن

يسأل الرجل عن أخيه مهما كان قد فعل ! ان هذا هو واجبي بمقتضى القوانين الآلهية والقوانين الوضعية . فكل شخص يستطيع أن يبصق في وجهي اذا اغفلت حقي هذا . كما يستطيع أن يبصق في وجوهنا جميعا اذا كان قد صدر حظر لاعطاء هذا الحق . أأصبحنا حيوانات أم أقل درجة منها ؟

ورد المسلم بطريقته الهادئة غير ان اجفانه بدأت تضيق فوق عينيه المتثاقلتين .

ـ ان كلماتك ثقيلة . في أي جانب يكون الحق ؟ أنت تدافع عن اخيك وانا ادافع عن القانون . والقانون شديد وأنا خادم له .

ـ اذا كان القانون شديدا فهل يجب أن نكون ذئابا ؟

ـ هل الدفاع عن القانون يعد فعل الذئاب ، أو مهاجمته كما تفعل انت ؟

اردت أن اقول ان الرجل ينتمي الى فصيلة الذئاب بمحاولته أن يكون فظا بأية وسيلة . حقا يصاب الانسان من حيث لا يدري . كان من الخير الا ارد على اثارته بشيء ، فهو يحس بحاجة الى أن يوقع الناس في الخبل ويشعر برضى من أجل ذلك .

لم يمض قليل حتى كنت مكتئب النفس ، لقد زايلني الغضب سريعا وحل محله الندم من أجل سرعة تصرفي ، تلك التي لم تكن من طبيعتي . لقد رددت بحدة ، فقد كنت شديد التوتر ، عاجزا عن السيطرة على مشاعري المتهورة . وكل ما يفصل في هذه الحال يؤدي عادة الى الخسارة : انه مظهر للشجاعة الحمقاء ، عناد يدفع الى التهلكة دون هدف ، لا تدوم مدته ولكنه يخلف وراءه عدم الرضا ويحمل فيما بعد على التفكير الذي لا تتحقق منه فائدة أو يرجى من ورائه نفع .

لقد حدث ذلك الذي كنت شديد الخوف من أجل حدوثه ، قيل لي انني أدافع عن أخي معارضا القانون . اذا كان الأمر كذلك حقا ، واذا كان يخيل لأحد ذلك ، ـ اذ أنني أعرف أن الأمر ليس هكذا ـ واذا كان الناس يظنون أنني أوثر مصلحتي الشخصية على كل شيء خارج نطاقي فسوف تكون النتيجة عندئذ على أسوأ ما يمكن أن تكون ، وسوف تكون مخاوفي المتشائمة قد تحققت . وأشد ما في الأمر أنني حقيقة ما كنت أدافع عن أخي ، غير أنني في لحظة جنونية قد ثرت ضد صرامة شديدة ،

ولم آكن الى أى من الجانبين ، جانب أخى أو جانب المسلم ، لم آكن الى أى جانب على الاطلاق ٠

احسست بسرور لاقتراب وقت الظهر ، لعدم بقائى وحيدا ، سوف انفصل عن نهار هذا اليوم بالصلاة ، سوف أترك فكرة محيرة أمام باب المسجد ، ومن المؤكد انها ستكون بانتظارى ، ولكننى على الأقل سوف اقضى بعض الوقت بدونها ٠

عندما وقفت أمام عدد من المؤمنين وبدات الصلاة ، أحسست أشد مما كنت أحس من قبل ٠ بهدوء مكان معروف ينشر حمايته ، ورائحة كثيفة دافئة لشمع مذاب ، وبسكون يشفى النفوس لجدران بيضاء ، وبسقف اكتسب بمرور الأيام لون السواد ، وبحنان الأم متمثلا فى ضوء الشمس الذى كان يتكسر على ذرات الغبار الذهبية ٠ ان هذا المكان هو مملكتى ، أكلمة قديمة ، قناديل نحاسية ، محراب أصلى فيه أمام الناس الذين انحنوا ممسكين بركبهم ٠ انه سكونى وأمنى ، قضيت فيه سنوات طوال وأنا سيد نفسى ، أعرف خط البساط المزخرف الذى تقف عليه قدماى والذى تآكلت وبرته وخف لونه ، لقد تركت أثرى على هذا الذى يبقى فى الحياة أكثر منا ٠ اننى من يوم الى آخر أؤدى الوظيفة المقدسة فى هذا البيت الذى أصبح بيتى ، أصبح بيتنا وبيت الله ، مخفيا حتى عن نفسى أنه كان فى أغلب أوقاته بيتى ٠ ولكنى فى هذا اليوم ، وفى وقت الظهر ، حيث كنت متحررا من القلق ، وعائدا من عالم غريب لم آلفه من قبل الى هذا السكون العميق ، لم أقم بأداء وظيفتى ٠ كنت على يقين من أننى لا أخدم أحدا ، بل كل شىء كان يقوم بخدمتى ، كان يخفينى ويردنى ، كان يبدد حلما سيئا عن شىء غامض فى نفسى ٠ كانت تغمرنى متعة الصلاة التى أعرفها ، وكنت أشعر باتزانى الذى كان قد اختل من قبل يعود الى ، وذلك من أجل هذا الذى أملكه منذ سنوات طويلة ، من أجل تلك الروائح الطيبة ، من أجل تمتمة النـاس الغامضـة ، من أجل الارتطام الصامت للركب فى حالة السجود ، من أجل الأدعية التى تتلى دائما على نمط واحد ، من أجل الدائرة التى أغلقت كدفاع أو كحصن والتى تقف الى صفى وتقوينى ٠ رأيت دون أن أقطع صلاتى هذه التى كنت أؤديها بشكل مظهرى ـ أشعة الشمس التى كانت تخترق زجاج النافذة مشدودة من النافذة الى يدى ، كأنها كانت تلهو كى تستميلنى اليها ، وسـمعت ما تصـدره العصـافير من شقشقة مرحة أثناء لهوها وتنازعها ، وما تحدثه من غوغاء لا انقطاع لها تحمل سرورا يحاكى النضار

لونا ، حتى ليخيل الى اننى أرى التلال وقد كستها أشعة الشمس ٠ واحسست بشيء حار صاف يحلق حولى ، فاصلا اياى عن واقعى ، وموقظا فى ذكرى ذلك الذى حدث مرة ، لا ادرى متى ، ولا أدرى أين ، ولكنه كان، وما كنت فى حاجة الى احيائه ، فهو حى ، قوى ، ومحبب الى كما كان آنذاك ، بل محبب الى بصورة لم تكن قط ، دون أن تكون له معالم تحدده ، ولذا يرى محيطا بكل شيء ٠ لقد كان ، أعرف ذلك ، ربما فى أيام طفولتى ، التى لم يعد لها وجود فى ذكراتى ، وانما تنبعث فى حالات الحزن ، ربما من أجل الرغبة فى وجوده ، ويوجد ٠ انه شفاف ، خفيف ، كاهتزاز ، كمجرى هادىء ، كدم ينساب بطيئا ، كان سرورى كسرور الشمس لا من أجل شيء ٠ وكنت أعرف أن هذا يعد ذنبا ، هذا النسيان فى الصلاة ، هذه المتعة الجسمية والفكرية ، ولكنى لم استطع أن انتزع نفسى ٠ لم أكن ارغب فى أن أوقف هذا النسيان العجيب ٠

وها هو قد توقف من تلقاء نفسه ٠

خيـل الى أن هاربى فى ليلة الأمس يقف خلف ظهرى بين جموع المصلين ٠ ولم أجرؤ أن أستدير ، ولكن كنت متأكدا أنه موجود بالمسجد، وقد دخله بعدى ، أو كان قد دخله ولم أره ٠ ان صوته يسمع على خلاف أصوات الآخرين ، فهو أعمق وأكثر رجولة ، وصلاته ليست رجاء وانما مطلبا ، وعيناه حادتان ، وحركاته مرنة ، اسمه اسحاق ، أناديه هكذا ، لأنه هنا ولأننى لا أعرف اسمه الحقيقى ، وينبغى أن أعرفه ٠ جاء من أجلى ليقدم الشكر الى ، أو جاء من أجله هو لكى يختفى ٠ سـوف نبقى منفردين بعد الصلاة ، وسأنتهز الفرصة لأسأله عما فاتنى أن أسأله عنه ليلة الأمس ٠ اسحاق ، وهأنا اكرر مرة أخرى اسحاق ، ان هذا الاسم يحمله خالى الذى كنت أحبه كثيرا فى طفولتى ، اسحاق ، لا أدرى كيف أوجد صلة بينهما ٠ وكيف ولم أنادى طفولتى بهذا الاصرار ، ان هذا هو الهروب دونما شك ٠ الهروب من الواقع ، النجاة بالذكرى اللاواعية ، وبالرغبة الحمقاء فى الا يكون هناك وجود ، بهذه الرغبة التى لا تتحقق على الاطلاق ، والتى لو كانت فكرة حقيقية لأوقعتنى فى مأزق ، ولكنها كانت هكذا توشك أن تتحقق فى لحظات ، فى فترات الانحرافات ، فى حالات التشوش والغيبوبة ، حيث كان الجسم والقوى الداخلية المجهولة ينشدان هدوء هما المفقود ٠ لم أكن أعى فى تلك اللحظة أن عمر النسيان قصير ، ولكن عندما ظهرت الفكرة عن اسحاق عرفت أن صفوى بدأ يتعكر ثانية ، لأن اسحاق كان أيضا من ذلك العالم الذى لم أرد أن أفكر فيه ،

وربما من اجل ذلك رغبت ان اضعه في مجال احلام بعيدة ، فاصلا اياه عن ساعة وعن زمن لم نكن نستطيع أن نعيش فيهما معا ٠ لقد رغبت أن استدير ، فقد كانت صلاتي من أجله فارغة ، تقوم على الشـــكل دون المضمون ، وكانت أطول من أى صلاة صليتها ٠

عن أى شيء سأتحدث معه ؟ انه لن يقول شيئا عن نفسه ، ولقد تأكدت من هذا في ليلة الأمس ٠ سيكون الحديث اذن عن نفسي ٠ سوف نجلس هنا ، في هذا المسجد حيث المكان يكون خاليا ، سنكون في العالم وفي الوقت نفسه خارجين عنه ، وجالسين على انفراد ٠ سوف يبتسم ابتسامته الآمنة ذات المغزى ، تلك التي لا تعد ابتسامة ، بل رزانة طابعها الفطنة ، نظرة تحيط بكل شيء ولا يدهشها شيء ٠ ســوف يستمع الى باهتمام ، ناظرا الى خطوط الكليم الملونة أمامه ، أو الى اشعة الشمس التي تنفذ بعزم واصرار في أطياف من الضوء متلألئة ٠ وسوف يقول لي الحقيقة التي ستخفف كثيرا من همومي ٠

كنت بتخيلي هذا الحديث اعمل على احياء صورته دون أن أدهش كيف وعت ذاكرتي كثيرا منها ، وانتظرت ان نبقى معا على انفراد كما كنا ليلة الأمس لنستأنف حديثنا الخاص دون ان يخفي أحدنا نفســه عن الآخر ٠ ان هذا الرجل المتمرد والقلق الذى كان يفكر على العكس من كل ما كنت أستطيع تصوره قد ابدى لي بكبريائه الشديدة التناقض أنه الرجل الذى أستطيع ان أعتمد عليه ٠ كان كل ما يفعله يعد ضربا من الجنون ، وكل ما يقوله لا يمكن قبوله بحال ، غير انني كنت أستطيع أن أودع سري عنده ، لأنه تعيس ولكنه شريف ، لا يعرف ماذا يريد ولكن يعرف ماذا يفعل ٠ انه مستعد ان يقتل ولكنه ليس مستعدا أن يغرر أو يخدع ٠ وحينما كنت أسجل في قلبي صفات حسنة لمتمرد مجهول على التمام لم أكن قد لاحظت لم كانت تلك الرحلة التي قطعتها منــذ ليلة الأمس ٠ ففي الصباح أردت أن أسلمه الى الحراس ، وأما في الظهر فقد كنت في صفه ٠ على أنني لم أكن ضده في الصباح ، وربما كنت على استعداد لأن اخبر عنه الآن ، وهذان الأمران لا علاقة بينهما ، أو بينهما علاقة ، ولكن بشكل متناقض ، وبصورة مختلطة متشابكة ٠ وفي الحق أنني كنت متأكدا تمام التأكد من أنه اسحاق ، المتمرد ، ومن انه يستطيع أن يوضح بعض الأمور التي تجمعت واصبحت تشكل عقدة في داخلي ٠ انه وحده الذى يســـتطيع ٠ لا أدرى لماذا ، ربما لأنه تعذب ، أو لأنه اكتسب تجربة خلال العذاب ، أو لأن ثورته حررته من التفكير الذى

تعوده الناس والذى يقيدهم ، أو لأنه لا يؤمن بالخرافات ، أو لأنه حرر نفسه من المخاوف ، او لأنه بدأ يسير فى طريق لا مخرج منه ، او لأنه محكوم عليه ويؤجل موته بشجاعة · ان أمثال هذا الرجل يعرفون كثيرا ، أكثر منا نحن الذين تهزنا القواعد المحفوظة الى حد الخوف من الذنب ، ويؤثر فينا ارتباطنا بهـا وتعودنا عليها الى حد الذعر ازاء خطيئة يمكن حدوثها فى أى وقت · وبالرغم من أنه لا يمكننى السير مطلقا فى طريق التمرد ولو بافكارى فقد حبب الى ان أستمع الى ما يقصه عن حقيقة امره · أية حقيقة تكون ؟

لا ادرى ·

سوف اتحدث اليه هكذا :

اننى درويش منـذ عشرين سنة ، وكنت أذهب فى صـغرى الى المدرسة ، ولذا لا اعلم شيئا سوى ذلك الذى ارادوا أن يعلمونى اياه · كانوا يعلموننى ان اطيع ، أن اتحمل الصعوبات ، ان اعيش من أجل الدين · كان هناك كثيرون أحسن منى · أما بالنسبة للتمسك بالدين فلم يكن يفضلنى كثير · فدائما كنت اعرف ماذا يجب ان افعل ، كانت طريقة الدراويش تملى على طريقة سيرى وتصرفى ، وكنت اعلم ان أصول الدين شديدة وواسعة ، ولم يكن فى امورى أو تصرفاتى شىء يمكن أن يتنافى معها · كانت لى أسرة ، تعيش حياتها الخاصة ، ولا تربطنى بها سوى قرابة الدم وذكريات بعيدة ، وطفولة ظللت اعمل على دفنها طيلة حياتى ، موهما نفسى أنها قد زالت وانتهت · انها أسرتى ، اذ يجب أن تكون هكذا ، وكنت احبها ذلك الحب الذى لا اتصال فيه ولا نفع ، والذى كان من أجل ذلك فاترا · كان أفرادها موجودين ، وكانوا أهلى ، وكان ذلك كافيا لى ، وربما كان كافيا لهم أيضا · وهذه اللقاءات الثلاثة التى تمت خلال السنوات العشرين لم تفسد ولم تصلح شيئا · لم يضايقونى وكذا لم يسـاعدونى فى خدمتى للدين ، وان كنت اشـعر فى داخلى ان احساسى بالفخر لأننى وجدت أسرة أوسع يغلب احساسى بالحزن لبعدى عن أسرتى الخاصة · وها قد حـدث أن ألمت بأخى مصيبة ·أطلق هـذه الـكلمة لأنى لا أعرف كيف تكون التسمية الحقة ، ولا أستطيع ان اطلق على ما حدث أنه عدل أو ظلم ، وهنا يبدأ العذاب · اننى لا أحب الظلم ، وفى ظنى أنه علامة على الضعف وسوء التدبير ، كما يعد احدى الطرق التى تدفع الناس الى ارتكاب الشر · وذلك رغم التزامى الصمت عندما كان هـذا ينصـب على الآخرين ، كنت أرفض اصـدار حكم فى هذا ملقيا

المسئولية على الآخرين ، أو متعودا ألا افكر فى ذلك الذى ليس على تبعته ، ومعترفا بأنه يجب أن يفعل الشر احيانا من أجل خير أنفع واهم ٠ ولكن عندما اصاب أخي سوط السلطات احسست به يصيبنى ويسيل دمى ٠ اننى أفكر دون وضوح ان مقياسهم كان عنيفا ، فهذا الشـــاب أعرفه ، واعرف أنه ليس لديه استعداد لفعل الشر ٠ ولكن هأنذا لا أدافع عنه بصلابة كافية ، ولا أؤيد السلطات ، والذى يبدو لى أن الجميع قد ألقوا بهذا العبء الفادح على كاهلى بانصبة متساوية ، ودفعونى للتحرك ، وواجهونى بالحياة خارج مدارى ، لقد اجبرونى على أن احدد موقفى ٠ ماذا أكون الآن ؟ أخ فقد قوته أم درويش متردد ؟ أفقدت العاطفة الانسانية أم أضررت بصلابة الدين ، اذ أرانى هكذا فاقدا كل شيء ؟ كم وددت أن ابكي لأجل أخى ، أيا كان هو ، او ان أكون مدافعا بصلابة عن القانون ، ولو كان هذا يمس أخى ، ولو كان هذا يؤدى الى الحزن ٠ ولكن ليس باستطاعتي ان اقوم بأى من الأمرين ٠ ما هذا ، يا اسحاق ، يا معذب الثائر ، يا من وقفت فى جانب واحد ولا تعرف طريق التردد ، اأرانى فقدت الصورة الانسانية أم فقدت الدين ؟ أم هما معا ؟ ماذا بقى عندئذ منى ، قشرة ، قبر ، شاهد بدون علامة تميزه ؟ ان الخوف قد استقر فى داخلى يا اسحاق ، الخوف والحيرة ٠ ان خطوة واحـدة الى أحـد الجانبين لا يمكننى أن أخطوها بعد ، ولو فعلت لضللت ولكان مصيرى الهلاك ٠

لم استدر لكى أراه ، اذ كنت أعتقد أنه لم يعد هنا بعد ، كما لم أكن أعرف ماذا استطيع أن اقول له من هذا العذاب كله الذى لا يزال يفتقد اسما يطلق عليه ٠ وكانت فكرة خطرة أن أقول له بالذات ذلك الذى لا أستطيع قوله لأحد ٠ لم يخطر ببالى أحد من الدراويش ، أو أحد من الناس الذين التقى بهم ، وانما خطر ببالى رجل متمرد هارب ، انسان خارج على القانون ٠ أكان فى ظنى أنه لن يفاجىء بكلماتى حين يسمعها ؟ أكان فى اعتقادى أنه هو الوحيد الذى لن ينظر الى نظرة العتاب ؟ أعنى يارب كى أخرج من هذه الاختبارات على الحال التى كنت عليها من قبل ٠ على أننى أرى المخرج الحق الوحيد فى هذا أن لم يكن شيئا من ذلك قد حدث ٠

الصلاة والسلام على ابراهيم ،

الصلاة والسلام على موسى وهارون ،

الصلاة والسلام على الياس

الصلاة والسلام على اسحاق

الصلاة والسلام على أحمد نور الدين التعيس ٠

أخذ الناس يخرجون وقد انتابهم السعال وسرى بينهم الهمس ، اخذوا يتركونني وبقيت جالسا جلسة التشهد أمام العذاب ، وحيدا كما شاء حظى ، وحيدا ويا للأسف ، خائفا ان اترك هذا المكان الذى استطعت أن اعذب نفسى فيه بالتردد ٠

وكانت تصل الى الأذن من الخارج أصوات لأقدام تتقاطر من كل ناحية ، وكان البعض يصيح والبعض يهدد ، وما كنت أريد ان اسمع كلمة ، وما كنت اريد أن أعرف من يصيح ومن يهدد ، فكل ما يحدث فى العالم قبيح ٠ اقبل يارب دعاء ضعفى ، انتزع منى ما أملك من القوة والرغبة من أجل الخروج من هذا السكون ، اعدنى الى الهدوء ، الأول أو الأخير ، كنت اظن ان شيئا ما يوجد بينهما ، وفى سالف الأزمان كان هناك نهر يكتنفه الضباب عندما يقبل الليل ، وتنعكس أشعة على صفحته ، وهو الآن يوجد فى داخلى ، ظننت أننى نسيت وجوده ، ولكن يبدو لى انه لا شىء ينسى ، فكل شىء يعود الينا من صناديق مغلقة ، من ظلام النسيان الوهمى ٠ وكل ما قد ظنناه لطول العهد لا يخص أحدا أصبح الآن يخصنا ، اننا لا نحتاج اليه ولكنه يقف أمامنا ، يبرق بوجوده السابق ، يذكرنا ويوخزنا ، ويثار من أجل الخيانة ٠ لقد تأخرت أيتها الذكريات ، ثم ظهرت دون جدوى ، فتهدئتك لى فقدت قدرتها وتنبيهك اياى لذلك الذى كان يظن فى الامكان حدوثه اصبح عديم الفائدة ، لأن ذلك الذى لم يحدث ما كان باستطاعته أن يكون ، مع انه يبدو دائما جميلا ذلك الذى لم يتحقق ٠ أيتها الذكريات انك مخاتلة تولدين عدم الرضا ، مخاتلة لا أملك القدرة على تنحيتها وليست لى رغبة فى ابعادها ، اذ أنها تجردنى من السلاح ، وتدافع عنى بحزن هادىء ازاء العذاب ٠

كان الوالد ينتظرنى ، وقد أفقده الألم صوابه من أجل ابنه ، من أجل ذلك الوحيد الذى بقى له بعد ، لقد أسقطت أنا من حسابه ، وها هو الآخر ليس معه ٠ انه وحيد الآن ، وهو ينتظرنى بمفرده فى الخان ٠ لقد كنا فيما مضى نعتقد أننا شىء واحد ، والآن لا نفكر فى شىء من ذلك ٠ سوف تبتدئونى بالسؤال عيناه ، وسأجيب بابتسامة ، فسوف تكون لدى القوة الى هذه الدرجة رأفة به ، قيل لى سوف يفرج عن أخى فى

القريب ، ساودعه بالأمل ، لماذا يذهب مطحونا ، انه لن يستفيد اية فائدة من ذكر الحقيقة • ساودعه وساعود بعد وداعه حزينا •

كنت أستنشق ذلك الهواء العليل الذى يسرى فى الليالى الأولى المتلالئة لشهر مايو • اننى أحب الربيع ، ظننت ذلك ، ظننت أننى أحب الربيع ، ذلك الذى لا يبعث على الضيق ولا يوحى بالثقل ، بل يوقظنا بما يطلقه من صحو ورعونة لنبدأ من جديد • انه خداع وأمل يطالعنا فى كل عام ، براعم جديدة تنبت من أشجار قديمة • اننى أحب الربيع ، أصيح معلنا ذلك لنفسى فى اصرار ، وأجبرها على اعتقاد ذلك • لقد كنت أخفيه عن نفسى فيما مضى من السنين ، والآن أناديه ، أقدم اليه نفسى ليستولى عليها ، والمس زهرة من شجرة التفاح التى تقوم على جانب الطريق ، وغصنا من أغصانها الملساء الجديدة ، تتدفق العصارة فى قنواته العديدة ، وأحس بتدفقها فيها • ألا فلتنتقل هذه العصارة الى جسمى عن طريق أناملى ، ولتنبت براعم هذه الشجرة على أصابعى ، والأوراق الخضراء الشفافة على راحتى ، كى أكون رائحة طيبة لاحدى اشجار الفاكهة ، واكون طمانينتها الهادئة ، سوف أرفع يدى المزهرتين امام الأعين المعجبة ، سوف أمدها الى المطر ليسقيها بقطراته ، مواريا نفسى فى التراب ومتناولا غذائى من السماء ، ومتجددا بفصول الربيع ، وساكنا بفصول الخريف ، كم من الخير أن يبدأ كل شىء من البداية •

ولكن البداية لا وجود لها بعد ، وهى ليست مهمة ، ولا ندرى وقت وجودها ، فنحن نحدده فيما بعد ، عندما نكون فى دوامة الأحداث ، عندما يستمر تتابع الأمور ، اذ حينذاك نظن أنه كان من الممكن أن تحدث الأمور مخالفة بعض الشىء لما حدث ، ولكن لا ، ليس بممكن هذا ، ولذا نحن نقحم أنفسنا فى الربيع لكى لا نفكر فى بداية لا وجود لها ولا فى ذلك التتابع المستمر القبيح •

انني أجوس خلال الأزقة دون هدف ، واقضى هذا الوقت الذى يتعذر قضاؤه ، فها هو حسن ينتظرنى فى التكية • كان والدى ينتظرنى فى هذا النهار فى الخان ، وحسن ينتظرنى فى هذا المساء فى التكية ، الجميع يقفون فى الطرق وعند تقاطعها ، لا يسمحون لى بالخروج مما يحيط بى من الهموم • لقد قال لى والدى فى لحظة ذهابه :

ـ أخبرنى فور الافراج عنه ، فلن تهدأ نفسى حتى أسمع النبأ • وكم يكون من الأفضل أن يأتى الى البيت تو خروجه •

كان من الأفضل لو لم يكن خرج من البيت •

كما كان يذكرني لكيلا أنسى بقوله :

ـ اذهب غدا الى المسلم واشكره • اشكره باسمى كذلك •

شعرت بارتياح لذهابه ، فقد كان من الصعب النظر الى وجهه الذى كان بحاجة الى العزاء ، وقد كان باستطاعتى أن أقدمه اليه عن طريق الكذب فحسب • لقد حمل معه الكذب والعزاء ، وبقى لى الذكرى القبيحة• توقفنا عند نهاية الحقول ، وقبلت يده ، وقبل هو جبهتى ، وأحسست مرة أخرى بأبوته ، كنت اشيعه بنظرى ، وكان يسير مقوس الظهر ، ممسكا بزمام حصانه كما لو كان يستند اليه ، مرددا بصره الى دون انقطاع • لقد أحسست بالراحة عندما افترقنا ، ولكنى كنت حزينا ووحيدا ، وكان ذلك هو الافتراق الأخير ، ولم يعد هناك مجال بعد للتضليل والخداع • لقد دفن أحدنا الآخر فى تلك اللحظة التى تعرف فيها أحدنا على الآخر ، ولم تستطع الحرارة الشديدة المتزايدة التى كانت بيننا فى لقائنا الأخير أن تساعدنا فى شىء •

كنت اقف وسط الحقول الواسعة عندما ركب والدى حصانه واختفى وراء الصخور كما لو كانت قد ابتلعته •

أخذ الظل الممتد لهذا الجبل ، أو روحه الغامضة ، يزحف بعد الظهيرة على الحقول فيغطيها ، وقد مر بى وأحاطنى من جميع الجهات ، وأما الجانب الذى تغمره أشعة الشمس فقد كان يهرب أمامه متقهقرا نحو جبل آخر • مازال الليل بعيدا ، وهذه علاماته المبكرة ، وثمة شىء متشائم فى هذه البشائر القاتمة • لا أحد فى الحقول التى يقسمها الظل ، فكلا الجانبين خال ، اننى أقف وحدى فى هذا المتسع المتعارك الذى بدا يسوده شىء من الظلام ، صغيرا فى تلك المساحة التى أخذت تنغلق من حولى ، وقد استولى على ذلك الضيق الكدر الذى تحمله نفسى القديمة ، نفسى التابعة لغيرى والتى أحملها الآن • اننى وحيد فى الحقول ، وحيد فى العالم ، ضعيف أمام أسرار الأرض ورحب السماء • وكانت تصل الى الأذن آنذاك أغنية لأحد من الناس من مكان ما ، من جهة الجبل ، من جهة البيوت التى قامت على البعد تجاهى ، كانت تنفذ خلال المسافة التى غطتها الشمس من الحقول ، حتى تصل الى ظلى ، كأنها كانت تأتى الى للمساعدة ، وحقا لقد حررتنى من ذهولى ، ذلك الذى استولى على فترة قصيرة ولم يكن له من سبب أو داع •

لم اتهرب مما كان يبديه حسن من ذلك الاهتمام غير المرغوب فيه ٠ كان يجلس مع الحافظ محمد ، في شرفة ممتدة على النهر ، مرتديا عباءة من الجوخ ، مشذبا لحيته الناعمة ، ومتطيبا بأجود أنواع العطور ، وبدا موفور النشاط ، يعلو وجهه الابتسام ، لقد أزال ما علق بجسده خلال اشهر ثلاثة قضاها في السفر ، من رائحة الماشية والعرق والخانات ومن الغبار والوحل ، ونسي الشتائم ، كما نسي معابر الجبال والمعابر الخطرة للأنهار ٠ والآن كان يشبه الأغا الشاب الذي دللته الحيـــاة دون أن تطلب منه جهدا أو شجاعة ٠

فاجأتهما في أثناء الحديث ٠ كان تاجر الماشية والمدرس السابق يحث الحافظ محمد ليعرض ما لديه من معرفة ، كي يعارضه مازحا معه ، دون أن يلقي اهتماما لهذا الذي يسمعه ولا لهذا الذي يرد به ٠ كنت دائما أعجب كيف يستطيع ان يجد أسبابا معقولة في المناقشات غير الجدية ، ملبسا اياها أشكالا غريبة حمقاء ٠

عندما تبادلنا التحية سألني :

ـ هل عرفت شيئا عن أخيك ؟

ـ لا ، لم أعرف ٠ وسأذهب غدا مرة أخرى ٠ وأنت كيف حال سفرك ؟

هكذا كان أفضل ٠ فلتبق همومي في داخلي ٠

لقد نطق بعدة جمل عادية عن سفره مازحا كما هي عادته ، ومعلنا ان كل شيء يتعلق بارادة الله وبماتقتضيه ميول الماشية ، وأنه يضع ارادته وميله تحت تصرفهما ٠ ثم اقترح اذ ذاك على الحافظ محمد مواصلة عرضه الذي كان غاية في الامتاع وباعثا على الشك ، والذي كان يتناول نشأة الكائنات الحيــة وتطورها ، وتلك مسألة ستظل لها اهميتها طالما وجدت الكائنات الحية على وجه البسـيطة ، كما تعد موضوعا ملائما للجدل وبخاصة في الوقت الذي لايوجد فيه هذا النوع من النقاش ، والذي نموت فيه من الملل متفقين في شتى الأمور وجميع المسائل ٠

أخذ الحافظ محمد الذي مكث ثلاثة أشهر صامتا ، أو متحدثا عن الأمور العادية للغـاية يواصل عرضه عن نشـأة العالم ، ذلك العرض الغريب والمشكوك في صحته ، وغير المدعم بما ورد في القرآن ، والذي كان بمثابة صورة عجيبة مطورة أخذت من كتاب يعلمه الله من أحد الكتب

الكثيرة التى كان قد قرأها ، ثم أبرزت بخياله ، وصارت تتلألأ بأكملها من سعير الحمى التى لم يكن يشركها شيء عندما كان العالم فى رؤياه المريضة يمر بمراحل الخلق ثم يأخذ فى التحلل · كانت نظرية تبدو خروجا على الدين ، ولكننا كنا قد تعودنا على ذلك منه ، ونكاد لا نعده فى الدراويش الأصحاء · كان قد اكتسب لنفسه الحق الذى يعفيه من المسئولية ، ذلك الحق الذى يعد افضل وأندر شيء فى طريقتنا · وما كان ذلك الذى يقوله يعد ضارا ، اذ كان على وجه التقريب غير مفهوم ·

وكان يبدو لى أن ذلك شيء غير عادى على الاطلاق ، ولا يكاد يتصوره الانسان ، اذ كيف يتحدث عالم ساذج عن نشأة العالم الى رجل واسع الحيلة ، لا يحفل بعرف أو قانون ، يميل الى الفكاهة والهذر ، الى رجل طيب النفس غير أنه لا يتصف بالجد ، الى عالم سابق وراع للماشية ومرافق للقوافل الآن · لكأن الشيطان قد بذل جهدا ليجمع بين هذين الرجلين اللذين لا يشتركان فى شيء ، ويثير بينهما الحديث الذى لا يتوقعه أحد ·

ان هذا الشاب كان يفاجئنى دائما بأمر من تلك الأمور غير المتوقعة ، والتى لم يكن من السهل تفسيرها ولا تبريرها · وبالرغم من كونه عاقلا ومثقفا فقد كان كل ما يفعله يعد غريبا ، خارجا عن كل ما قد يكون فى الحسبان · لقد أنهى دراسته فى استانبول ، وجال فى الشرق ، وكان مدرسا فى احدى المدارس ، وموظفا لدى الباب العالى ، كما كان ضابطا · ثم ترك كل شيء وعاش فى دوبرفنيك لأمر ما ، ورجع مع أحد تجار دوبرفنيك وزوجته ، وقد دار الحديث بين الناس أنه كان معجبا بتلك اللاتينية ذات الوجه الأبيض والشعر الفاحم والعينين الرماديتين ، والتى تعيش الآن مع زوجها فى « لاتين لوك » (١) · كما تقدم بشكوى الى المحكمة ضد أحد أقاربه البعيدين كان قد اغتصب ضيعة له ، ثم تنازل عن شكواه عندما رأى أن قريبه التعيس يعول عددا من الأولاد · وتزوج بابنة قريبه هذا الذى زفت اليه دون طلب منه ليكون بمثابة رد للجميل ، وعندما رأى بأى شيء أسعدوه هرب غير مبال بشيء وتركهم جميعا فى بيته ، وبدأ يشتغل بالتجارة متنقلا بين الشرق والغرب على مرأى ومسمع لما نال أسرته من الفزع · كيف استطاع أن يجمع بين هذه المهن ، أيها كانت له منها ، من الصعب الاجابة · أراه يجيب ضاحكا ، لا واحدة ،

---

(١) حى كان يعيش فيه الكاثوليكيون من اهل سراييفو ·

ولكن يجب للانسان أن يعيش من مهنة ما ، فالامر سواء في آخر مداه ٠ كان كثير الحديث على عكس ما تتطلب الوظيفة لدى الباب العالى ، وكان كثير الشغب بالنسبة لوظيفة المدرس ، كما كان كثير الثقافة بالنسبة لتاجر الماشية ٠ وكان يدور على ألسنة الناس أنه مطرود من استانبول ، كما كانت تدور الحكايات العديدة عن شرفه وتدور حكايات تماثلها في العدد عن عدم شرفه ٠ وكانت هناك حكايات أخرى عن امكانياته الخارقة للعادة ، وتقابلها أخرى تشير الى ضعفه التام ، لقد وصفوه بعدم الرحمة عندما قدم شكواه من أجل ضيعته ، وبالجنون عندما تنازل عن الشكوى ، كما وصفه بعض الناس بالوقاحة لأنه يعيش مع امرأة من دوبروفنيك بجانب زوجها الغبى ، ورأى الآخرون أنه هو الغبى لأن المرأة وزوجها يستغلانه ٠ كانت القصبة تحلله بمنخلها الدقيق ، وكان مادة ملائمة لمئات التطلعات الفضولية ، وخاصة فى البداية ، وظل ذلك حتى أصبح أمرا مألوفا ، وأما هو فكان يصدر بيده حركة تدل على عدم المبالاة ، اذ كان الأمر عنده ســـواء ككل شىء فى حياته ٠ كان يصاحب الجميع ، ويحادث المدرسين ، ويتجر مع التجار ، ويسكر مع الصعاليك ، ويمزح مع الصبيان الذين يتدربون على المهن المختلفة ، وكان يضارع فى كل مهنة أو حرفة أصحابها الحقيقيين ، ولكنه لم يوفق فى شىء ٠

لم أرغبْ فى التحدث معه عن أخى ، فسوف يكون حزينا وغاضبا ، ولكن للحظة قصيرة ، كما كان حديثى مع أخته فى الليلة الماضية لا يزال يعذبنى ٠ وودت لو لم يكن قد جاء ٠

انه لحسن الحظ ليس لحوحا ، كما أن هـذا الحـديث الذى يدور بينهما كان يأسره ٠ وهكذا سيكون باستطاعتى أن أؤجل كل شىء ٠

ان الرطوبة والحرارة مصـــدران للحيـاة ٠ هكذا كان يقول الحافظ محمد ٠ ومن الرطوبة العطنة نبتت الكائنات الحية بادىء ذى بدء دون أن ترتسم أشكالها ، أو تتحدد أعضاؤها ، وذلك بعد أن ظلت تتأهب للتكوين فى هذا العطن سنوات عديدة ٠٠ نبتت حبيبات وعصى تنبض الحياة فيها ولم تكن لها القوة بعد ، وكانت تتحرك فى ظلالها غير المنظور دون هدف أو غرض ، سابحة فى الماء وطافية على البر ومتغلغلة فى الغرين ٠ ومرت على ذلك آلاف السنين ٠٠

وانطلق حسن يسأل :

ــ وأين الله ؟

كان هذا سؤالا يشوبه المزح ، ولكنه كان جديا • وقد تجاهله الحافظ محمد ، وواصل حديثه :

ـ •• ومرت آلاف السنين ، واخذت تلك الكائنات الضعيفة تتطور ، وكان بعضها يتعود أن يعيش على اليابس والبعض الآخر يتعود أن يعيش في الماء • كانت تولد صماء وعمياء ، دون أيد ودون أرجل ، دون أعضاء تبرز من جسمها ، وكان كل شيء يظهر بعد طول احتياج وعديد من المحاولات •

ـ وأين الله ؟

ـ لقد أراد الله هذا •

كان مضطرا أن يجيب بهذا ، وان لم تكن الاجابة مقنعة • لقد أراد الحافظ محمد أن يزيل احدى الصعوبات بنظرية عامة لا تنتهك أكثر مما أراد أن يرد على الاثارة والاستفزاز •

لقد عجبت لمسلك كل من الرجلين ، فالحافظ محمد كان حقا يتخلى عن اشراك الله في خلق العالم ، وحسن كان يحذره من ذلك بمزاحه فقط ، دون أن يرغب في تعقب الأمر الى النهاية ، ودون أن يستفيد بهذا التفوق الذي كان في استطاعته أن يحصل عليه بسهولة •

كنت اعرف أن هذه كانت نظريات فلاسفة اليونان جرى عليها شيء من التغيير ، ونقلها ابن سينا في مؤلفاته باللغة العربية • وبحسب هذه النظرية أصبح الانسان تدريجيا على تلك الصورة التي هو عليها الآن ، كان يساير الطبيعة رويدا رويدا ، مخضعا اياها لنفسه ، فهو الكائن الحي الوحيد الذي يملك العقل • ومن أجل ذلك لم تعد الطبيعة سرا له بعد ، ولا الفضاء الرحب حوله معادلة ذات مجهول ، لقد غزاه وتغلب عليه ، مجتازا في ذلك طريقا هائلا تحول فيه من دودة الى سيد الأرض •

ابتسم حسن وقال :

ـ انه سيد سيء •

بدأ الجدل حول هذا ، وكان الحديث بأكمله ينصب على أن الناس نظموا هذا العالم نظاما سيئا كما كان يؤكد حسن دون غضب منه لكونه هكذا • ولم يكن الحافظ محمد يوافقه على هذا ، وذهب من أجل البرهان الى بدء انبثاق العالم •

كان من الممكن أن تكون هناك مئات المآخذ على جميع ما كان يجرى على لسان الحافظ محمد ، من بداية تفسيره نشأة الكائنات الحية التى حدثت بنفسهما الى تأكيده النظرية التى تقول ان الانسان سيد الأرض ، اذ كل هذا يكاد لا يتعلق بارادة الله ، ولكنى عندما تدخلت فى المناقشة لم أوجه اليه لوما من أجل هـذه الأخطاء ، فقد كان يخيل الى أنه من السخرية أن أثير جدلا حول الأمور المعروفة للجميع . كما كان هناك شىء آخر أهم فى اعتبارى من هذا : أليس من السذاجة أن يرى الانسان أنه قد احتل مكانا طيبا بوضعه على الأرض ، وأن موطنه الحقيقى فيها ؟

ان الفضاء سجننا . قلت هذا وأنا أتسمع صدى افكار مجهولة . مولدا حرارة لم تكن متوقعة فى الحديث الذى جرى منذ قليل والذى كان هامدا ولم نكن بحاجة اليه . ان الفضـاء يملكنا . ونحن لا نملك منه الا القدر الذى تستطيع العين أن تحيط به . انه يتعبنا ويخوفنا ، وينادينا ويطاردنا . اننا نظن أنه يرانا ، وهو لا يهتم بأمرنا ، نقول اننا نتغلب عليه ، ولكننا ننتفع فقط بعدم مبـالاته . ان الأرض لا تجنح الينا ، والرعود والأمواج ليست لأمثالنا ، فنحن لا قدرة لنا عليها ، بل واقعون فى قبضتها وتحت سيطرتها . ان الانسان لا يملك موطنه الحقيقى ، وانما يغتصبه من القوى العمياء . وهذه الأرض عش لغيرنا ، من الممكن أن تكون موطن الغيلان التى تستطيع أن تتسابق مع الشدائد التى تقدمها الأرض فى سخاء ، ومن الممكن الا تكون لأحد ، وبالتالى لا تكون لنا .

اننا لا نتغلب على الأرض ، وانما نتغلب على مكان منها لأقدامنا ، ولا نتغلب على الجبل ، وانما على صورته فى أعيننا ، ولا نتغلب على البحر ، وانما نتغلب على صلابته المرنة ولمعان سطحه لا شىء لنا سوى الخداع ، ولذا نحن نتشبث به فى قوة .

اننا لسنا شيئا داخل شىء ، وانما لا شىء داخل شىء ، لا تماثل بيننا وبين ما يحيط بنا ، لسنا شيئا واحدا فى ذاته ، بل شيئين يتعذر بينهما الاتصال . يجب أن يتجه تطور الانسان الى فقدانه الوعى عن نفسه . ان الأرض غير صالحة للسكنى كما هو الحال فى القمر ، ولكننا نخدع أنفسنا بأنها موطننا الحقيقى ، اذ ليست لنا القدرة على الالتجاء الى مكان آخر . انهـا صالحة لغير العقلاء ، أو الذين لا يؤثر فيهم شىء . وربما سيكون مخرج الانسان فى عودته الى الوراء ، فى تحوله الى مجرد قوة .

وعندما نطقت بجميع هذه الأمور غير المعقولة ، خفت أن أكون قد

كشفت عن كل شيء أردت اخفاءه . لقد كنت متجاوبا مع نهار هذا اليوم، ومع ما كان يعتمل في نفسي ويثيرني . وقد وضعت الرجلين كما وضعت نفسي في موقف حرج .

كان الحافظ محمد ينظر الى في دهشة ، وفي فزع تقريبا . وأما حسن فكان ينظر الى في شرود مبتسما ، وقد أدركت اذ ذاك من خلال نظراتهما الثقل الحقيقي لكلماتي التي لم أفكر فيهـا من قبل . ولكن ضـميري لم يكن يعاتبني ، بل على العكس ، لقد كان الأمر بالنسبة لي أخف وأيسر .

لقد تغيرت معالم وجه حسن ، واتخذت صورة جدية لم تكن متوقعة . وانبرى يقول : لا ، ـ مشيحا برأسه في هدوء ، كما لو كان يعتذر عما بدر منه من ذلك الموقف الجدي ـ لا حاجة للانسان الى أن يناقض نفسه ، فكل ما يقدر في المرء هو ذلك الذي يمكن اثارته .

ربما ليس من السهل الحياة في هذا العالم ، ولكن الأمر سـيكون اشد وأصعب اذا ظننا أن مكاننا ليس هنا في هذا العالم . وأما رغبتنا في القوة والوصول الى فقدان الشعور فمعناه أننا نثار لأنفسنا من أجل خيبة الآمال . ومن ثم لا يكون هذا هو المخرج ، بل رفع الأيدي عن كل ما يستطيع الانسان أن يكونه . ان رفض جميع الاعتبارات يمثل الخوف البعيد العهد ، يمثل حقيقة الكائن الانساني الذي ينشد القوة ، لأنه يخـاف .

قال الحافظ محمد وقد بدا عليه الانفعال :

ـ اننا هنا ، في هذه الأرض . ونفي صلاحية هذا المكان لنا معناه نفي الحياة ، لأن ...

انتابه السعال ، ولكنه أخذ يلوح بيده معلنا عدم موافقته اياي ، دون أن ينجح في تهدئة مرضه المثير .

نصحه حسن قائلا :

ـ يجب أن تذهب الى الغرفة ، فالطقس بارد ورطب . أأساعدك ؟

قال وقد أشار بيده رافضا : لا يلزم . وذهب وهو يسعل ، فلم يكن يرغب أن يشهده أحد في مرضه .

بقينا وحدنا ، حسن وأنا .

يا للأسف لعدم استطاعتنا أن نفترق ، دون أن نبدى أسبابا للافتراق ، ودون أن يصدر منا حديث بعد ، ولكن كان من الأفضل النهوض والذهاب ، حيث كان من الصعب قطع الحديث أو مواصلته ، اذ لم يعد بيننا الحافظ محمد ذلك الذى كان بمثابة حلقة الاتصال ، كما كان سببا لحديثنا الشامل وحيث كان ينتظرنا ذلك الذى يهمه ويهمنى فحسب ٠

ولكن الموقف بالنسبة لحسن لم يكن حرجا ٠ فانه كان دائما يجد السبيل ليجعل كل شىء طبيعيا ٠ حول بصره من الحافظ محمد الى وابتسم ٠ وكانت الابتسامة طريقه الى الانسان ٠ انها تعبير عن التفهم وتيسير الأمور ٠

ـ لقد أخفت الحافظ محمد ، فقد كان يبدو عليه الحيرة والارتباك ٠

ـ اننى آسف لذلك ٠

ـ أتعرف ماذا كان يدور بخاطرى عندما تحدثت ؟ كنت أعجب كيف يستطيع بعض الناس أن يقولوا كل ما يريدون ، وتستطيع ان تقبل أو ترفض محتفظا بهدوئك ، بينما يوجد آخرون ينقلون فى كلمة واحدة ما يعتمل فى أنفسهم ، وعلى الفور يتلظى كل شىء ويخرج كل شخص عن هدوئه ، واذ ذاك نحس كان شيئا مهما يحدث أمامنا ، ولا يصبح الأمر عندئذ أمر حديث عادى ٠

ـ بل ماذا ؟

انه الاستعداد لأن يلقى بكل شىء فى شعلة النيران ٠ لقد أصابتك مصيبة أخيك باكثر مما ينبغى ٠

لو تحدث الى أحد بهذه الطريقة لما سمحت له ولرفضته بشدة ، ولكنه هزمنى باصابته حقيقة تمردى ، واكثر من ذلك بطيب مقصده الذى لم يتضح فى كلمات وانما اتضح فى نظرته ، فى صدقه العميق ، فى تفهمه ، فى قلقه ، فى جميع أساليبه التى بدا فيها متالقا كأنه يرانى الآن من ذلك الجانب الذى يخفيه الانسان غالبا ٠ ولكن اذا لم أكن قد رفضته فقد رغبت فى أن أتجه بالحديث الى موضوع آخر ، اذ لم أكن أود أن ينبش أحد فى داخلى ٠

ـ ماذا قصدت عندما تحدثت عن ذلك الخوف الذى يستولى علينا منذ أزمان بعيده ؟

ـ القاؤنا في هذه الليلة يعد أول لقاء ؟ لقد أردت أن نتحدث عن اخيك اذا لم يكن في هذا ما يضايقك ».

كنت أستطيع أن أقول له : لا شأن لك بهذا . اتركني في هدوء ، ولا تنفذ الى مساربي الخفية . انني اشمئز من النــاس الذين يقدمون النصائح . ولو قلت هذا لكان أصدق تعبير لما احسه ، ولكنني لم أكن استطيع أن أتحمل خشونتي او خشونة الآخرين ، فقد كنت احس بالخجل عندما تتملكني في قليل من الأحايين هذه الخشونة ، كما كنت اظل أعيها في ذاكرتي مدة طويلة عندما تصيبني من الآخرين . قلت له معتذرا ، ان والدي جاء من قريته ولم أعد بعد معتدل المزاج .

فابتسم وقال :

ـ انك ترفض التحدث الي للمرة الثانية .

ـ ماذا أستطيع ان أقول لك ؟

ـ ماذا أستطيع ان أقول لك ؟ لم يصل الى علمي شيء.

ـ ولا لماذا سجن ؟

ولا هــذا .

ـ اذن أنا أعرف أكثر منك .

لم يكن من السهل صرفه عن الموضوع .

لقد حكى لي حكاية غريبة ، كدت الا افهمها بخبرتي المحدودة ذات الجانب الواحد ، والتي لا تتجاوز ما لدى الطفل عن هذا العالم الذي أعيش فيه .

قال حسن : في ضواحي المدينـة كان يعيش مالك صغير من ملاك الأرض ، لقد كان حيا وأما الآن فقد مات . هل كان له دافع حقيقي لأنه أضير في شيء ، أو كان ساذجا ، أو شريفا . هل كان غليظا ، حاد الطبع ، متعصبا . هل كان هناك أحد يعتمد عليه ، أو كانت لديه البراهين . هل كان مجنونا ، او كان الأمر بالنسبة لما سيحدث له سواء . من الصعب معرفة ذلك ، وليس هذا هو المهم الآن ، وانما المهم أن هذا الرجل بدأ يتحدث عن بعض أصحاب السلطة حديثا مشينا ، متهما اياهم في وضوح وعلانية من أجل ذلك الذي يعرفه جميع الناس ولكنهم لايعلنونه . لقد

أوصوه بطريقة ما غير مباشرة ليعود الى نفسه ، ولكنه ظن أنهم يخافون منه فلم يكف عن ذلك الذى لا يرجى من ورائه نفع لأحد • وعندئذ ارسلوا الحراس اليه فجاءوا به مقيد اليدين الى القصبة ، وسجنوه فى القلعة ، وأعدوا محضرا اعترف فيه المسكين بذنوبه العديدة ، وأورد بنفسه كلمات ضد الدين والدولة والسلطان والوالى ، موضحا أنه كان يتحدث فى غيظ واحتدام • لقد وصل اعترافه الى حد أنه ذكر قيام صـلات بينه وبين المتمردين فى (كراينا) ، وأنه كان يرسل اليهم مساعدات ، وأن بيته كان نقطة الالتقاء لمخابراتهم وأصحاب الثقة من رجالهم • وقد أرسلوه مع محضره الى الوزير فى تراونيك ، ولكن الرجل قد مزق بالسيوف فى الطريق لأنه حاول الهرب • والآن ، يستطيع كل شخص أن يزعم فيما يتعلق بأمر محاولة هربه ما يشاء ، ربما حاول الهرب ، وربما لا • ان الأمر بالنسبة له سواء ، فلو لم يمزقه الحراس لمزقه الوزير • وما كنت اريد أن أتحدث اليك عنه • اذ ليس هو الوحيد ولن يكون الأخير لو لم يتعلق هذا بأمر أخيك • انه لم يكن يعرفه ، ولم يكن حتى قد رآه ، كما ان الرجل لم يكن يعلم اطلاقا بوجود أخيك ، وسواء تداخل أمر أخيـك او لم يتداخل فقد كان المصير بالنسبة لهذا الرجل واحدا • انهما لم يتعارفا ، ولم يلتقيا أبدا ، ولم تقم أية علاقة بينهما • لقد كانا شخصين مختلفين ، ولكن بالرغم من ذلك كانا متشابهين فى شىء : ففى داخل كل منهما كانت تسيطر نزعة انتحارية • ولسوء الحظ كان أخوك يشتغل لدى القاضى • أقول لسوء الحظ لأن القرب من أصحاب السلطة فيه خطورة وصعوبة ، وقد توصل بطريقة ما باعتباره كاتبه الموثوق به الى ملفات سرية • وكيف توصل اليها ؟ لا يعرف أحد الآن ، ومن المؤكد أنهم حالوا بينه وبين رؤيتها ، ولقد توصل اليها عن طريق الصدفة • وكان هذا أخطر شىء استطاع أن يبلغه •

– ما الذى توصل اليه ؟

– توصل الى ملفات التحقيق الخاصة بهذا المتهم التى دونت قبل أن يجرى التحقيق معه ، وقبل أن يستدعى الى القصبة ، وقبل أن يزج به فى السجن ، وفى ذلك كان قدره المحتوم وخطورته الشديدة • أتعى ذلك ، فقد كانوا يعرفون سلفا ما سيدلى به المتهم ، وما سيعترف به ، وما سيؤدى الى قتله • نعم ، لم يكن ذلك شيئا غير عادى ، لقد كانوا فى عجلة ، ولذا كان من الضرورى أن يتم كل شىء على وجه السرعة وبطريقة قاطعة ، ولو كان الكاتب الشاب قد ترك هذه الملفات المعدة من قبل فى المكان

الذى وجدها فيه لانتهى الأمر أيضا على الحال التى انتهى اليها ، وكذا لو كان قد أخفى أمر اطلاعه عليها · ولكنه لم يفعل · ماذا فعل ؟ لا أدرى . ربما أظهرها لأحد ، وربما ذكر له مضمونها ، ربما فاجأوه والملفات معه ، وعندئذ زجوا به في السجن · لقد كان يعرف أكثر مما يجب ·

كنت استمع بشىء من الارتياب · ما هذا ؟ أجنون ؟ أفزع كهذا الذى ينتابنا فى أحلامنا المزعجة ؟ أنا حية مظلمة من الحياة لا يمكن للبعض على الاطلاق أن يتسلل اليها ؟ يبدو من المستحيل أن يكون هناك رجل على هذه الدرجة من الجهل · هل كان الناس يسكتون أمامى ، هل همساتهم خافتة الى حد كبير ، هل كنت على استعداد من قبل كى لا أصدق ، اذ أن معرفتى لهذ الأمر قد تخرجنى من دائرة الهدوء التى أحتلها ، ويكدر تلك الصورة التى كونتها عن عالم متزن الى درجة ما أحيا فيه وأراه عالمى · واذا كنت لم اعتقد أنه عالم كامل فقد كان فى اعتقادى أنه مقبول على الأقل ، فكيف أستطيع اذن أن أقبل انه عالم يجرى فيه الظلم ؟ من الممكن ان يشك احد فى صدق كلماتى ويلقى الى بهذا السؤال : كيف يمكن لرجل على درجة من النضج والوعى عاش سنين طويلة بين الناس معتقدا انه قريب اليهم وانه يفطن الى ذلك الذى يخفونه عن الآخرين ، وليس بليدا ، ألا يرى ولا يعرف ذلك الذى يحدث حوله ، والذى لا يمكن وصفه بأنه غير هام ؟ هل هو النفاق ؟ او العمى ؟ لو لم يكن فى القسم شىء من الذنب لأقسمت قسما شديدا أننى لم أكن اعرف · كنت اعتقد أن العدل ضرورة ، وأما الظلم فشىء يحتمل وقوعه · ولكن هذا الأمر كله يبدو متشابكا ومعقدا ازاء فكرتى الســـاذجة عن الحياة ، تلك الفكرة التى كونتها فى فترة الانفصال والطاعة ، كان ينبغى أن يكون الانسان مزودا بخيال متشائم لكى يزج بنفسه فى تلك العلاقات المتشابكة المعقدة ، التى كنت أقبلها كحرب شديدة المراس ، تتصف بالقداسة ، تشب دفاعا عن شريعة الله ، دون أن يكون لها تحديد أو وضوح فى نفسى · أكان الناس يحاولون ، مشفقين ، ألا يقولوا ذلك الذى لا ترغب نفسى فى سماعه ؟ كان من الصعب اعتقاد ذلك · واذ ذاك ، عندما سمعت ، كنت على استعداد لئلا أصدق ، وعلى الأقل الا أصدق الحكاية بأكملها : فتصديقها كان يعنى الخوف الى درجة الموت أو كان يعنى فعل شىء ، وما كنت املك حتى الكلمة التى استطيع أن أجعلها علامة لتلك الضرورة المجهولة التى كان يفرضها على ضميرى · اننى اعترف ، ولا أشعر بالخجل فصدق التفكير يبرر موقفى ، أن شخصية حسن بنفسها قد اضعفت قيمة الأخبار التى سمعتها · لقد

كان حسن النية ولكن حديثه كان ينم عن سطحية ، وكان شريفا ولكنه يتصف بالسذاجة ، وكان خياله الطلق يستطيع أن يختلق حكاية الله أعلم بها ، مضيفا الى ذرة من الصدق حمـــلا مما ياتى به هواه وتدعو اليه رغبته • وكيف استطاع ان يعرف وقد وصل توا من السفر ؟

سالته ملقيا بما أستطيع أن اقتنصه به :

ـ من أين تعلم ذلك ؟

اجاب في هدوء ، وكأنه كان يتوقع السؤال :

ـ بطريق الصدفة •

ـ لعل ذلك من قبيل الحدس ، أو حكاية فارغة !؟

ـ ليس من قبيل الحدس ، ولا حكاية فارغة •

ـ هل هذا الذى حكى لك يشغل منصبا يمكنه من أن يعلم •

ـ انه يعلم ما قلته لك فقط •

ـ من هو ؟

ـ لا أستطيع أن أقول لك ، وليس هذا مهما ! فلن تستطيع أن تسمع منه غير ما سمعت • ماذا تريد أكثر من ذلك !

ـ لا شيء •

ـ لقد بلغ خوفه درجة جعلتنى أرثى لحاله •

ـ لماذا اذن تحدث اليك بهذا ؟

ـ لا أدرى • ربما كان ذلك لكى يتخفف مما يثقله ، لكى لا يخنقه هذا الذى يعرفه •

كنت فى حيرة شديدة من أجل ما سمعته ، ولم أوفق فى جمع شتات افكارى التى كانت تنطلق هنا وهناك انطلاق الطيور أصاب مكانها الحريق ، كما كان بعضها يختفى في جحور مظلمـــة كما تفعل ثعابين الصخور • وقد ظهرت امامى صورة مفزعة لشر قهار .

قلت له : هذا شيء فظيع ، فظيع الى درجة تجعلنى لا اصدق • ووددت لو لم تكن قد حكيت لى ما حكيت •

ـ وأنا أيضا • وهانا أحس بذلك الآن • فليكن الأمر كما لو لم اقل شيئا ، اذا لم تكن فى حاجة الى ما قلته •

ـ هذا غير ممكن · ان الأشياء لا وجود لها قبل أن تقال ·

ـ ان الأشياء لا يمكن أن تقال قبل ان توجد · والمسألة تتعلق فقط بما اذا كان ينبغي ان تقال · لو كنت اعلم انني سأثيرك الى هذه الدرجة لربما كنت قد آثرت السكوت ·· لماذا تفزع من الحقيقة ؟

ـ ما الذى استفيده منها ؟

ـ لا ادرى ، وربما لم تكن هذه هى الحقيقة ·

ـ فات الوقت لكى تتراجع · لا نستطيع ان نمحو ما قيل · أأعرفه ذلك الذى قال لك هذا ؟

نظر الى فى دهشة وقال :

ـ لقد أردت ان أساعدك · وظننت أنك ستشغل نفسك بالتفكير فى أمر انقاذ اخيك فى اقرب واسرع وقت ممكن · ولكنك كما يخيل الى قد وعيت فى ذاكرتك فقط ذلك المسكين الذى لا يستطيع دون شك ان ينـــام ليالى وليالى من شدة خوفه · وكأنك لا ترغب فى أن تعرف شيئا آخر ·

ربما كان هذا صحيحا · ربما كان على حق فى ذلك ، فقد كنت بهذا التفكير الجانبى أخفف مما اعانيه من شدة · غير انه ما كان ينبغى أن يكون الحديث بهذه الطريقة ، فقد كان يخيل الى اننى أعرف كيف ينبغى أن يكون الحـديث · وكان على أطراف شـفتى سـؤال سـاذج كسؤال الطفل : ماذا أفعل أيها الرجل الصالح الذى تخطيت ما يحذرك به حسن تبصرك وذهبت الى لقاء رجل آخر ، قل لى ماذا أفعل ؟ لقد أفزعنى ما كشفته لى واحسست كما لو جىء بى الى حافة هوة ولا أريد أن أنظر فيها وانما اريد ان اعود الى حيث كنت ، او الا أعود ، أريد ان أنقذ الايمان فى العالم · ولكن ذلك شىء يظل مستحيلا حتى يتم ابعاد ما بداخلى من خلاف شديد يورد موارد الحتوف · قل لى بأى شىء أبدأ ؟

لم آكن أعى اذ ذاك ، كيف لا أوافق على قطع العلاقات ، وكيف احافظ باصرار على هذه العلاقات التى نشأت منذ زمن طويل ، دون أن أدرى اننى بذلك القى الذنب على أخى ، لأن احدا يجب أن يكون مذنبا · يا لحظى ، فلو بدات الحديث لتوقفت عن الاختفاء امامه وامام

نفسي · انني لا أدرى ما الذى كان سيحدث ، ربما لم يكن في استطاعته أن يقول لى شيئا ، وربما لم يكن في امكانه أن يساعدنى بشيء ، ولكن ما من شــك انني لو فعلت لضعف على الأقل تقلص روحى ولما بقيت وحيدا · ولو كنت قد قبلت خبرته التى كانت أكثر اتساعا واشد مرارة ، ولو لم اغلق على نفسى باب عذابى ـ فلربما كنت قد ابتعدت عن الطريق التى اخذت حياتى تسير فيه فيما بعد · وان لم يكن هذا مؤكدا ايضا ، لأن نيتنا او غايتنا كانت مختلفة تماما ، اذ أنه كان يرغب أن ينقذ رجلا ، وانا كنت أريد أن أنقذ فكرة · وفي الواقع اننى أخذت افكر هكذا فيما بعد ، واما فى تلك اللحظة فقد كنت مرتبكا ، وكنت أحس بالمرارة ، وبالغضب عليه دون وعى لأنه كشف ما لم أكن اعرفه ، وكنت ادرك انه يجب على أن افعل كل ما كان فى وسعى كى تتكشف الحقيقـة ، يجب أن افعل الآن ذلك ، فلو لم أكن قد عـرفت لاستطعت ان انتظر ، ولكان يشفع لى عدم معرفتى · وأما الآن فلم يعد هناك اختيار ، فقد أصبحت تحت سلطان الحقيقة ·

لقد شغلنى الهم عن ذلك الذى يجب أن يحدث ، غدا ، أو بعد يومين ، أو خلال زمن لا يعد بعيدا · وعلى الرغم من ذلك كان يدور بفكرى كم يكون من الصعب ان نفترق · أيذهب دون أن ننطق بكلمة ، انقول شيئا عاديا للغاية ، انفترق بالبرودة والغضب ؟ اننى لا أجد تعبيرا صحيحا ولا اتبين علاقة حقيقية عندما يتعلق الموضوع بامورى الشخصية: الى الآن كنت اعرف دائما ما أقول وكيف أتصرف · لقد بقى بعض الكره من هذا الحديث ، وشيء من وطأة الشعور الداخلى ، وعدم الرضا حيث لم يقل كل شيء ، ولكننى كنت دون قصد أتمالك نفسى كى لا أظهر البرودة والاهانة ، اذ لم اعرف هل سأكون فى حاجة الى هذا الرجل فيما بعد · اقول : دون قصد ، لأنى لم أكن قد دبرت شيئا من التحايل والمكر ، ولم أكن اعرف فى أى طريق كان يمكنه ان يفيدنى ، لأنى لم أكن أحدد هذا الطريق ؟ ولكن حذرى الداخلى كان يفرض على الا أفقده · وربما سأكون فى حاجة الى ميله الى وانعطافه نحوى من أجل العمل الذى اتفقت بشـــأنه مع أخته · ولذا أنهيت الحديث نهاية يمكن معها أن يستأنف أو لا يستأنف ، وذلك حسب ارادة الله ·

لقد قلت له وبى رغبة شديدة فى أن يكون صوتى عاديا ولطيفا :

ـ ان الوقت متأخر · وأنت الآن دون شك مجهد ·

فاجأني باجابته وبتصرفه ، ذلك التصرف الذى لم يكن متوقعا ، والذى كان طبيعيا ، كما كان على درجة من البســـاطة جعلته يبدو غريبـــا ٠

لقد وضع أصابعه الطويلة الصلبة على راحـة يدى التى استلقت على مسند الأريكة ، لامسا اياى لمسة خفيفة مكنتنى فقط من أن اشعر ببرودة جلده المستحبة ونعومة اناملة ، وقال فى هدوء وبصوت خافت عميق قد يستخدم فى التعبير عن مشاعر العاطفة ٠

ـ يخيل الى أننى جرحتك ، وما كنت أريد ذلك ٠ كنت اظن انك تعرف أكثر من ذلك عن العالم وعن الناس ٠٠ أكثر من ذلك بقدر كبير ٠ كان يجب على ان اتحدث معك بطريقة مخالفة ٠

ـ كيف كنت تستطيع أن تتحدث معى بطريقة مخالفة ؟

ـ لا ادرى ٠ كما يتحدث مع الأطفال ٠

كان من الممكن الا تعنى هذه الكلمات شيئا ، غير أن نفسى قد تاثرت من الطريقة التى نطق بها ، من ذلك الصوت الذى يشبه صوت المزمار المصـــنوع من الطين المحروق يخـرج فى امتلاء وعمق ، دون أن يصحبه حفيف أو يسمع لرنته صدى ، ودون أن تقطعه هذه التنفسات غير الهادئة ، من تلك الابتسامة الحزينة من اجل شىء لم يحدث الآن ، والتى كانت توصف بالوداعة والفطنة والتحرر ٠ وعندئذ أخذت أفكر فى دهشة ولأول مرة ، كيف يحيا بداخله شىء ناضج ممتلىء يظهر فقط فى تلك اللحظات التى لا يحاول فيها اخفاء نفســـــه ٠ لقد حفظت فى ذاكرتى فى ذلك الوقت الذى غمرنا فيه ضوء القمر وملأنا بتأثيره ، وفى تلك اللحظات التى تتأزم فيها الأمور ـ ذلك الصوت المستدير الذى يدفعنا الى الايمان به والثقـة فيه ، وتلك الابتســامة التى تبعث فينـا الهدوء ، وتلك الفترة قبيل منتصف الليل عندما تفتح أبواب الأسرار ، وبقى فى الذاكرة كل شىء من أجل سبب قوى وان لم أكن قد استطعت أن أدركه على وجه التمام ٠ ولعله من أجل ذلك خيل الى أننى صادفت فجأة ـ وفجأة بالتمام ـ أحد الرجال يظهر جانبه الخفى الذى لم يره أحد قبل ٠ ولا اعرف أكان يولد عندئذ أم كان يكشف نفسه ، متجردا عن ثيابه الرقطاء ، كما لا أدرى ماذا اظهر ، ولكننى كنت مقتنعا أن اللحظة كانت لحظة اســتثنائية ٠ كنت أفكر حتى شمل تفكيرى أيضا

ما اذا كانت شدة انفعالى تستطيع أن تقلب معانى كل كلمة وكل حركة وكل واقعة ، ولكن برغم هذا ظل ما حفظته باقيا ٠

واذ ذاك نهض حسن وحل بنجاح عقد لحظة عصيبة فيما بيننا ٠ لقد عثر على كلمة مناسبة يسمع رنينها جميلا ويظل طويلا ، وكان فى استطاعته عندئذ أن يذهب ٠ ان شدة انفعالى التى كانت تنتابنى منذ قليل قد زايلتنى وحل محلها قصد سيىء كان ميلاده بعد الحماس أشد غرابة من ظهوره ٠

وعند قيامه أخرج من جيبه لفافة ووضعها على الأريكة وقال :

ـ هذا لك ٠

وذهب ٠

ودعته حتى الباب ، وعندما اختفى خلف احدى الزوايا أخذت أسير وراءه ، كنت اخطو خطوات هادئة ، بجانب الجدران والأسياج الخشبية ، مستعدا أن أتوقف اذا استدار ، وسيظن عندئذ أننى ظل من هذه الظلال ٠ بدأ يختفى فى ظلام الأزقة الصغيرة ، وكنت أتابعه على هدى من وقع أقدامه ، ولم تكن خطواتى تسمع ، اذ أنها لينة ومتلصصة ٠ لم أكن اخطو قط بهذه الطريقة من قبل ، وهانا مرة أخرى أكشف عباءته الزرقاء وهيئة قامته الطويلة عند تقاطع الطرق التى يضيئها ضوء القمر ، فأخذ فى متابعته فى دوران كما يبدو لى ، ثم أرى خائب الأمل كيف تتقاصر لفات الدوران المتخيل لتكون نهاية المطاف مكان معروف ٠ توقفت عند الجامع ، أما هو فقد قرع باب حديقة منزله بتلك الحلقة المثبتة فيه ، وفتح أحد الباب كما لو كان ينتظره وراءه ٠ انه لو دخل بيتا يخص آخر لاعتقدت أنه ذهب الى ذلك الذى لم يرد أن يكشف لى عنه ٠ وهكذا لم أستطع أن أعرف شيئا ٠

عدت الى التكية متعبا ، ولم يكن ما أصابنى هو تعب الجسد ٠

كانت هدية حسن تقبع على الأريكة : (كتاب الحكايات) لأبى الفرج ، وكان مجلدا بجلد مغربى ثمين حليت أركانه بأربعة طيور مذهبة٠ فوجئت أيضا بما ارتسم فى المنديل الحريرى الذى لف به الكتاب من طيور أربعة طرزت بلون ذهبى ٠ ان تلك الهدية لم تشتر بطريق المصادفة ٠

ذات مرة ذكرت في الحديث أبا الفرج وأنا أسترجع ذكرى أيام شبابي • ذكرت ونسيت • وأما هو فلم ينس •

لقد جلست على الأريكة ممسكا بالكتاب في حجرى ومتحسسا باصابعي جلده الأملس ، وكنت أنظر الى النهر أماته ضوء القمر ، واسمع كيف تدق ساعة البرج معلنة الوقت • وفي هدوء عجيب تمنيت أن أبكي• فمنذ العيد البعيد الذى يرجع الى عهد طفولتي والذى نسيته ذاكرتي كانت هذه أول مرة يحمل لى فيها أحد هدية ، وأول مرة يفكر في أحد • لقد وعى كلمتي وتذكرها في مكان من البلاد البعيدة •

لم يكن شعورى على الاطلاق عاديا •• كنت احس كما لو كان الصباح نديا ومشمسا ، كما لو عدت الى دارى بعد سفر طويل ، كما لو غمرني سرور يتصف بالقوة وان لم تعلم دوافعه وأسبابه ، كما لو كان الظلام قد انقشع •

اعلنت الساعة منتصف الليل ، وبدأ الخفراء يظهرون كما تظهر طيور الليل ؛ كان الوقت يواصل مضيه ، وأما أنا فقد كنت أجلس مذهولا من أجل كتاب أبى الفرج ، ومن أجل تلك الطيور الاربعة الذهبية • لقد رآها حسن في منديل من البز ، وكان هذا المنديل هو كل ما بقى لى من بيتنا ؛ وقد أتى به والدى منذ وقت طويل حين حمل الى كعكا من العسل يابسا ، ولفه في بشكير قروى من الكتان الخشن ، ورأى ان يحيطه بهذا المنديل الذى كان افضل منه من حيث الشكل والنوع ؛ وقد وعى ذلك في ذاكرته •

كان من الصعب اعتقاد أنني كنت متأثرا للغاية ، ولكن ذلك كان حقيقة • لقد كنت متأثرا من أجل ما ذكرني به واحد من الناس • لم يكن ذلك منه من أجل شيء أو من أجل فائدة ؟ وانما كان مما أملاه عليه قلبه الطاهر ، أو ربما مما أملاه عليه دعابته ومزاحه • وهكذا كان بمثل هذا التصرف الجميل الآسر يستحوذ على الناس ، حتى على الدرويش القاسي الذى أمضى في الخدمة سنوات ، والذى ظن أنه قد تغلب على ما بنفسه من نواحي الضعف الصغيرة • ولكنها كما يبدو لا تزول بسهولة ، كما انها ليست في الواقع صغيرة •

أخذ الليل يمضي ، بينما كنت أجلس وقد أضاءت جوانبي ورحت أضحك في نفسي من شدة انفعالي ، ذلك الذى لم أستطع أن افسره ، وفي الوقت نفسه لم أرغب في التخلص منه •

٦

« ضعف الطالب والمطلوب »

ذهبت فى الصباح الى الحقول ، وتسلقت الجبل المزهر ، ثم وقفت مستندا الى شجرة صغيرة من اشجار الفاكهة ، وكان وجهى بجانب عنقود من الزهور ، وبعض الاوراق والأكمام ، وآلاف من العجائب الحية المستعدة للتناسل ، وكنت احس بلذة ثملة من هذا التكاثف ومن فوران العصارة التى تجرى خلال الألياف التى لا حصر لها والتى تتعـذر رؤيتها ، ومرة اخرى كنت أرغب كما رغبت فى الليـــلة المـــاضية ان أدخل يدى خلال الأغصان كى يسرى فى دم النبات الذى لا لون له ، وان ازدهر دون ألم ثم أذبل • وهذا التـكرار لرغبة عجيبة كان يؤكد لى شدة ما أعانيه من العـذاب •

كان صدى صوت الفأس يسمع مدويا فى الغابة ، فى لحظات محددة، كانت فيها تنهال ضربات شديدة من يدين قويتين لشخص ما ، ثم يسود سكون قصير بعد الضرب ، وكنت أعرف على هـــذا البعد أن الفأس حادة ونصلها طويل ، وأنها تحز فى الخشب بصيباحها الساخط ، وتشق فى غضب طريقها حتى اللب • كما كان يصل الى الأذن أيضا صوت الوقواق يطلق مرثيته ذات المقاطع المزدوجة ، والتى كانت لا تبالى بشىء شأنها فى ذلك شأن عمال التراحيل أو شأن القـــدر • وعدا ذلك كان يتناهى الى سمعى صوت لشخص ما ، صوت نسائى ، صاف ، مدو ، غـير مفهوم ؛ انه صوت امرأة شابة لوحت وجهها شمس الربيع • انها تضحك ، ولا أراها ، ولكنى أتجه نحو صوتها الشاب كما أتجه نحو القبلة ، اننى أعرف عنها كل شىء • كانت تلك الأصوات الثلاثة وحدها هى التى تصدر وتسمع فى هدوء ذلك الصباح الربيعى ، فى رحب العالم المنتمى لغيرى • أغمضت عينى وكانت رائحة الزهر اللذيذة فى نفسى ، وكنت اسمع : ثلاثة أصوات

بسيطة للغاية • وعندئذ شعرت بلحظة نسيان غير عادية • لم يكن مبعثها الذكرى ، وانما الحضور فى زمن آخر مر منذ فترة طويلة • ولم يكن يوجد فيه اذ ذاك شيء من كياني الحالي ، بل كان يوجد فحسب شعور مني بالوجود يتصف بالخفة والسرور ، اتصال غير وثيق بكل شيء حولي • كنت أعرف أن الفأس للوالد وأن يديه القويتين تضربان في الغابة التي يقبع فى سفحها منزلنا • وتعرفت على صوت الوقواق ، وما رأيته قط ، ولكنه يظهر دائما من مكان واحد • كما عرفت الشابة أيضا ، عمرها ست عشرة سنة ، وأراها عبر زمن موغل فى القدم تتابعت بعده العصور الخوالى ، انني ما نسيت شيئا ، كان يحيط بشفتيها المبتسمتين نبت خفيف من شعر ذهبي ، وكان خصرها يقدر بتقابل اصبعي السبابة وأصبعي الابهام ، وكانت تنشر رائحة (الميلودوح) التي لم تختف فيها خلال السنوات الطويلة • من ذلك الذى تناديه الفتاة عبر الزمن ؟ لم أستطع ان أرد على ندائها ، كما لم أستطع أن أعود •

انتزعني مما استولى على من سحر ذلك الزمن البعيد لقاء طيب • لقد اتجه صبي في الطريق نحوى ، كان يقطف الزهور ويلقى بها خلفه من فوق رأسه ، وكان يضرب الطيور بكرات يابسة من الوحل المجفف ، ويصيح بكلمات غير مفهومة ، هي كلماته الخاصة ، كان مسرورا لا يحمل هما ولا يبالى بشيء شأنه شأن القطيط • وعندما رآني التزم الهدوء ، ولزم الجانب الآخر من الطريق ، وبدت عليه علامات الجد • انني لم أكن من عالمه •

منذ زمن بعيد ، وقبل سنوات عديدة لقيت فى طريق آخر ، وفى منطقة أخرى صبيا يشبه هذا تمام الشبه • لم يكن هناك من سبب لاسترجع ذكرى ذلك الصبي وأقارن بينهما • ولكن هأنا قد استرجعت الذكرى • ربما كان ذلك لأن هذا اليوم كان محددا لاسترجاعها ، أو ربما لأنني كنت حين قابلت ذلك الصبي فى مفترق طرق الحياة ، كما انا الآن ؛ وقد يكون ذلك لأن كلا الصبيين كان بارز الوجنتين ، متحمسا ، مكتفيا بنفسه في منطقة خالية ؛ وقد يكون أيضا لأن كلا منهما قد مر بي وبدت على وجهه علائم الجد ، كما لو كنت قد أطفأت مشعل سروره • كانت عينا هذا الصبي تشبهان زهر القنب ، وقد وجهت اليه السؤال نفسه الذى وجهته الى الصبي الاول ، وكان هذا السؤال قديما ، كما كان رنينه حزينا ، ولكنه لم يعرف ذلك •



ولحسن الحظ كانت طريقة الحديث بيننا تختلف عن طريقته في الحديث السابق . وقد سجلته لأشعر بالتخفف والراحة فحسب ، كما يتوقف المسافر نال منه التعب أمام نبع من المياه الباردة .

ـ من أبوك أيها الصغير ؟

توقف الصبى لحظة ونظر الى نظرة لا توحى بشىء ولو قليل من الود أو الارتياح .

ـ لا شأن لك بهذا .

ـ أتذهب الى الكتاب ؟

ـ لا اذهب بعد . لقد ضربنى المعلم أمس ضربا مبرحا .

ـ لفائدتك هذا الضرب المبرح .

ـ اذن فباستطاعتى أن أوزع هذه الفائدة على الناس باليمين وبالشمال . فهذا المعلم يوزعها على أردافنا . ومن أجل كل حرف نتعلمه تزرق أردافنا وتصبح فى لون الباذنجان .

ـ لا تتحدث بالفاظ قبيحة .

ـ أيكون الباذنجان لفظا قبيحا ؟

ـ انك عفريت كبير .

ـ لا تتحدث بالفاظ قبيحة ، يا أفندى .

ـ هل كنت تتحدث أمس بهذه الحرية .

ـ حتى الأمس كنت طبلا بالنسبة للمعلم . وأما اليوم فانا مثل هذا الطير . هانذا ، فليضربنى أحد الآن !

ـ ما قول أبيك فى هذا ؟

ـ انه يقول : انك دون شك لن تصبح عالما . ولكن تستطيع أن تحرث بالمحرات سواء علمت الألف أم لم تعلمها ؛ فالارض تنتظرك ، ولن نعطيها لأحد . واذا كان الأمر يستوجب توزيع الضرب فانا استطيع ان اقوم به .

ـ اتريد أن اتحدث الى أبيك لكى أذهب بك الى القصبة ؟ هناك ستتعلم فى المدرسة وتصبح عالما .

لقد قلت هذا للصبي السابق ، وهو الآن في التكية ، أصبح درويشا . ولكن هذا الصبي يخالفه . لقد زالت علامات السرور من وجهه وحلت محلها علامات الكره . نظر الى لحظة وقد اكفهر وجهه وبدت عليه حيرة يشوبها الغضب ، ثم انحنى فجأة نحو الأرض وأمسك بحجر كان في الطريق .

قال مهددا :

ـ هاهو والدى يحرث . تفضل اذا كانت لديك الجرأة . اذهب اليه وقل له .

ربما كان في استطاعته أن يقوم بالضرب حقـــا ، وربما كان على استعداد لينطلق باكيا نحو الجبل . لقد كان أنضج عقلا من ذلك الصبى الآخر .

قلت له مسالما :

ـ لن اذهب . وليس فى استطاعة أحد أن يجبرك . وربما يكون من الافضل أن تبقى هنا .

كان يقف مذهولا ، ولكنه لم يترك الحجر من يده .

اخذت أســـير ، وكنت أدير بصرى الى الوراء مرات عـــديدة . انه لم يتحرك من مكانه ، وقف حاجزا بين والده وبين اقتراحى ، وكان خائفا وفاقد الثقة . وعندما ابتعدت وتلاشت منه اسباب الخوف ألقى بالحجر بعيدا بين غلات الحقول ، وأخذ يجرى نحو والده .

وعدت وقد لحقتنى كآبة .

فتحت الشابة لى باب المدخل ، وبدت كأنها تحاول أن تحجب وجهها بحجابها الشفاف ، وأشارت الى لأتجه الى الحـــديقة قائلة : انهم هناك ، ثلاثة من الحمقى يحـــاولون أن يمسكوا بشرس ، واذن أستطيع أن أذهب هناك اذا أردت ، كما أستطيع أيضا أن أنتظر هنا وستخبر هى « حسن » وتنقل لى ما يقوله اذا قال شيئا ، اذ هو اليوم قليل الحديث .

قلت لها : سأذهب هناك . وعندئذ أغلقت البـــاب ، واتجهت الى البيت .

فى حديقة كبيرة خلف البيت ، وفى مكان معشوشب فسيح وسط أشجار البرقوق كان خادما حسن يحاولان الامســـاك بمهر يافع . وكان

حسن يقف بجانب السياج من الداخل وينظر في هدوء ، صامتا ، أو محثا اياهما بصيحاته القصيرة وشتائمه ·

لم ادخـــل في تلك الحلبة المشوشبة التى كانت تتطاير قطع من أرضها تحت حوافر الحصان الجامع ·

لقد كانا يقتربان منه بالتناوب ، احدهما تلو الآخر ، كان الخادم الأكبر قصيرا وقويا ، وأما الأصغر فقد كان طويلا ورشيقا · كان غريبا ألا يحاولا الامساك به معا ؛ اذ بذلك يكون التغلب عليه أيسر · وكان غريبا أيضا أن يصمت حسن تاركا اياهما كي يتعذبا ·

كان المهر أسود الشعر لامعه ، كما كانت أردافه مكتنزة ، وقوائمه قوية ، ومفاصله دقيقة · وكان يقف في وسط الحـــديقة غاضبا ، وقد اتسع منخراه المتوردان ، وحملقت بشدة عيناه ، وانتابته رعشات خفيفة، كانت تسرى في جلده القوى كموجات متتابعة صغيرة ·

وكان الخـــادم الأكبر الذى شد رأسه الى أكتافه العريضة ، والذى تقلصت عضـــلاته ، يقترب منه من احد جانبيه ، دون أن يحاول تهدئته بصوت أو حركة ، قابلا أن يكون واياه عدوين · وفجأة قفز الخادم محاولا أن يمسك بعنقه وعرفه دون أن يشـــك في قوته · وكان الحصان يقف متظاهرا بالهـــدوء ، وفجأة أخذ يدور بسرعة السهم ، ولكن الرجل كان يتوقع هذا ، فتراجع قليلا ثم ألقى بنفسه عليه منجانب آخر ممسكا بعرف الحصان الطويل · وقف الحصان وقد فوجىء ، واخذ اذ ذاك يجر الخادم محاولا أن يتخلص منه ، ولكن العناق كان شديدا ، ولم يعد في الامكان أن ينجو العنق الرشيق من يديه القويتين · وكان يبدو أنه سيتغلب عليه· كما كان من قبيل المعجزة أن يكون في امكان القوة الانسانية ترويض هذه المجموعة من العضلات القوية · لقد كانا يقفان في صلابة ، وقـد تشبثت اقدامهما بالارض كمـــا لو كانا قد بلغـــا مبلغا من التعب ، كما لو كانا لا يستطيعان الافتراق ، كما لو كانا لا يعرفان ماذا يجب عليهما ان يفعلا بعد · واذ ذاك تحرك الوحش ، وبحركة مفاجئة قذف بالرجل بعيدا عنه ·

وحـــدث مثل ذلك للخادم الأصغر ايضـــا · كان يقترب من الحصان في حذر ومخاتلة ، محاولا أن يخدعه بكفه المنبسط ، وكذا ايضـــا بوجهه اللطيف الذى كانت تشيع فيه ابتسامة لا معنى لها ، ولكنه عندما اقترب منه بحيث يستطيع اذا مد يده أن يمسكه دار الحصان بسرعة عدة دورات طرح في أثنائها الخادم على الارض ·

واذ ذاك نطق حسن بكلمة قبيحة ، وضحك الخادم الأصغر ، وصب الخادم الأكبر شتائمه على هـذه الجيفة الوحشية · وقال له حسن : انك أنت الجيفة ·

كنت أنظر الى حسن كيف يتابع فى هدوء هذه المعركة ، التى بدت كأنها مصارعة ، كأنها مبارزة ؛ ولم يكن يهمه أن يمسكا بالحصان ، وان كان الحـداد ينتظر على هـذا الجانب من السـياج كما أنتظر أنا ، بل كان يهمه أن يرى كيف يحاولان ولا يفلحان ، دون أن يساعدهما بنصح منه ، ودون أن يطلب ايقـاف هذه اللعبة الخطرة · ولكن الذى جعلنى أكثر دهشة أنه كان على درجة من الجدية لم تعهد فيه من قبل ، حتى انه كان يبدو منقبض النفس متذمرا من كل شىء ، وان كنت لا أعتقد ان ذلك من أجل عدم مهارة خادميه · كان غريبا ان يسمح لهذا الصراع أن يستمر فترة بالغة الطول ؛ كما كان يبدو أن ذلك يمثـل خشونة لا داعى لها ، ربما كانت فيما بينهم أمرا عاديا ولكنها كانت فيـما أرى دون هدف أو فائدة · وكان تصرفه هذا بغير صورته التى كونتها عنه · انه ليس وديعا وليس سمحا كما كنت أتخيله ، أو لعله كذلك عندما يكون مع أقرانه ، أما مع الخدم فهو كالآخرين · ولكنه عندما لاحظنى حيانى بتحية قصيرة ، ولم تتغير حالته التى كان عليها · كما لم يقصر من عذاب هذين الخادمين ، ومع ذلك لم يبديا تمردهما ·

ولحسن الحظ أصاب الحصان الخـادم الأكبر فى بطنه ، ورد هذا عليه بضربة قوية فى الأضـلاع ·

صاح حسن قائلا :

ـ انك مجنون مثله ! اخرجا !

واذ ذاك خرج الرجل يعرج ، مبتعدا عن حدود هذا الوحش ·

انتظر حسن كى يبتعدا ويقفا الى جانب السياج ، ثم اتجه على مهل ناحية الحصـان ، ودار حوله ، ثم أخذ يقترب منه من ناحية الرأس ، منحرفا قليلا عن قصد منه الى اليمين والى اليسار ، وكان ذلك دون عجلة ودون تحركات مذعورة ، ودون محـاولة لخداعه ، وظل يفعل ذلك حتى توقف الحصان ، وقد هدأه شىء ، ربما هدأته حركات حسن المتناسقة ، وربما كلماته الخافتة الغامضة التى كانت تسمع كخرير مستمر ، وربما هدأه نظره اليه باصرار ، أو لعله هـدأ لزوال خوفه وغضبه ، وانتظر ـ ولازال مظهره يدل على عدم الثقة ـ كى يقترب الرجل منه ، محدثا بمنخريه

الواسعين صوتا في أثناء الزفير، اقترب منه حسن ومازال يهدئه بهمساته، ثم مد يده الى جبهته وأخذ يلاطفه ، واستمر في ملاطفته دون عجلة ودون لهفة ، وكأنه لا يلاحظ أن الحصان يلوح برأسه ، منقلا راحة يده في هدوء بين خطمه وجبهته وعنقه ، وأخيرا أمسك بعرفه وجاء به ناحية السياج ٠

وقال لخادميه :

ـ ها هو ٠ وربما تستطيعان الآن أن تمسكا به ٠

ثم اقترب مني قائلا :

ـ هل انتظرت طويلا ؟ كم يسرني أنك حضرت ٠ هيا بنا الى البيت٠

ـ انك لست معتدل المزاج اليوم ٠

ـ كنت من قبل في حالات أشد ٠

ـ أتريد أن أنصرف اذا كان حضوري يضايقك ؟

ـ لا ، لماذا ؟ لو لم تحضر لطلبتك ٠

ـ هل أغضبك الخادمان ؟

ـ نعم ٠ تمنيت أن يقتل أحدهما ٠

لم أرد بشيء ٠

فضحك وقال :

ـ الاجابة الحقيقية للدراويش : السكوت ٠ نعم ، انني رجل على النقيض ، وأتحدث في أشياء تافهة ٠ لا تؤاخذني ٠

قلت له : « أن انصرف » ، وكنت ارغب في أن يمنعني من الذهاب، ولو سمح لي بالذهاب لما استطعت ، ولما جرؤت على الخروج الى الزقاق ٠ انني ما كنت أجول في الصباح هنا وهناك دون سبب أو دافع ، لقد كنت أريد رؤيته ، كنت في حاجة الى كلمته الهادئة ، واطمئنانه التام الذي كان يسكن العواصف حولي ، وهكذا يرغب الانسان أحيانا أن يجلس قرب نهر قوي هادىء ، وأن يستشعر الاطمئنان بقوته الهادئة ومجراه الآمن ٠ وهأنا قد وجدت رجلا آخر ، رجلا مجهولا ، وقد أسفت لهذا ، وشعرت أنني أصبت بضرر ، ولم أكن أعرف ماذا يستطيع أن يفعل رجلان مضطربان ٠

ولحسن الحظ أنه عرف كيف يسيطر على نفسه ، أو لعل طبيعته الصافية لم تستطع أن تتحمل الغضب وقتا طويلا ، فقد أخذ يتحول بمرور الوقت الى ذلك الرجل الذي أطلبه •

ادخلني غرفة كبيرة ذات نوافذ عديدة في حائطها المقابل للباب ، وبدا نصف السماء معرضا امامنا للرؤية وقد أسفر عن وجهه ، لقد فوجئت باتساع تلك الغرفة الصيفية ذات الأرائك واللوحات والأصونة المنقوشة والأكلمة العديدة ، انها ثروة باكملها مغطاة لطبقة من الغبار ، نفائس تركت دون اهتمام بها أو عناية بصيانتها وتنظيفها • انها مثله ، هكذا رايت • كنت أحب النظام ، النظام الصارم ، نظام الدراويش ، فكل شيء يجب ان يكون له مكان يخصه ، شانه شان جميع ما في العالم ، وعلى الانسان أن يخلق نظاما لنفسه كي لا يصيبه الذهول • ياللعجب ، لم يعد يزعجني هذا الاهمال ، فقد كان يمثل حرية لها معناها واهميتها ، وهي أن ينتفع الرجل بالاشياء دون ان يخدمها ودون ان يقدرها أكثر من اللازم ، وان كنت أنا نفسي لا أستطيع ذلك •

كان يضحك ، مبعدا أشياءه المبعثرة ، عباءته وحذاءه وسلاحه ؛ انه وقد تعود على عدم النظام في الخانات لا يدرك اهماله الا في اللحظة التي يرى فيها باعين الآخرين ، عندما ياتي اليه أحد • وانني على يقين من أنه على هذه الحال من الاهمال دائما ، فهذا جزء من طبيعته ، طبيعته غير المسئولة والمتروكة دون قيد او نظام • وقد قلت له مازحا ان هذا بالخصوص شيء جميل منه ، ومن المؤكد أنه كان على الدوام هكذا • لقد قبل مزاحي ضاحكا : ففي الحق كان دائما مهملا ، واذا كان يحترم في بعض الأحايين ذلك النظام الذي يضعه الآخرون ، فانه لا يشعر في قرارة نفسه بحاجته هو اليه ، انه لا يفكر بعد في هذا • لقد أجهد نفسه مرة في حياته ، ضاغطا عليها بالتزام النظام ، ولكن كان ذلك دون جدوى ، كما لو كان يحمل عداوة شديدة للأشياء ، او كما لو كانت الاشياء لا تحترمه وترفض سيطرته عليها ، لشخصية ليس لديها من صفات السلطة شيء • وفي الحق ان شيئا من الخوف ينتابه ازاء النظام ، فالنظام له نهايات تحدده ، انه قانون صلب ، انه تقليل عدد الاشكال الممكنة للحياة ، انه اعتقاد كاذب باننا نسيطر على الحياة ؛ فالحقيقة أنها تنسرب منا عن الدوام ، وكلما اشتددنا في جذبها كلما اشتدت في البعد عنا • كيف يتدخل تاجر الماشية هذا الخشن بسهولة في ذلك الحديث الذي لايتناسب ومهنته الحالية ، ان ذلك يعد أمرا غريبا للغاية ، ولكنني قبلت ذلك منه برضى ، وسألته :

ـ كيف يجب أن يعيش الانسان ؟ أيعيش دون نظام ، دون غاية ، دون مقاصد يدركها ونسعى نحن الى تحقيقها ؟

ـ لا أدرى ٠ اننا لو استطعنا أن نحدد الغاية والمقاصد ونضع القواعد لظروف الحياة جميعها كي نقيم النظام المتخيل لكان الخير فيذلك٠ من السهل أن تضع الاحكام العامة ، متخطيا بنظرك رءوس الناس ومتطلعا الى السماء والابد ٠ ولكن حاول أن تطبقها على الناس الاحياء الذين تعرفهم وربما تحبهم دون أن تخدشهم ٠ انك لو فعلت لكان من الصعب نجاحك ٠

ـ ألا يحدد القرآن كل العلاقات بين الناس ؟ اننا نستطيع أن نطبق مضامين أحكامه على كل حالة بمفردها ٠

ـ أتظن ذلك ؟ اذن حل لى هذا اللغز ٠ انه ليس نادرا وليس غريبا وليس بعيدا عنا ٠ سنلتقى به كلما نريد ان نفتح اعيننا ٠ لنقل يعيش الزوج والزوجة وينعمان بالمودة كما يبدو في الظاهر ٠ أو انتظر لنتحدث عن الناس الذين نعرفهم ، فالأمر اذ ذاك سيكون اسهل ٠ لنتصور انهذين الاثنين هما اللذان رأيتهما ، الزوجة التى فتحت لك الباب ، وذلك الخادم الاكبر «فضل» زوجها ٠ يعيشان عندى ، فى مسكن بفناء الدار ، وليس الأمر بالنسبة اليهما سيئا ، فهو يسافر معى ويربح أكثر مما يحتاجان اليه ، ويحمل اليها الهدايا من السفر ، ويحظى بسرورها ، فهى تعرف كيف تفرح كما يفرح الطفل ٠ انه مضحك ، وغير ماهر فى عمله ، وقوى كالثور ، ويكاد يحاكى الطفل فى تصرفاته ، ولكنه مهتم بها الى درجة غير مالوفة ٠ يحبها ويرى فقدان نفسه بفقدها ٠ يسرق منى القليل من أجلها، ولكنه يحبنى ايضا ، وهو مستعد أن يضحى بنفسه دفاعا عنى ٠ كم كنت سعيدا لتوافقهما ، فانا شخص لا استطيع البقاء قرب زوجين يتعاركان ٠ اننى أهتم بهما ، فقد ساعدتهما على أن يلتقى كل منهما بالآخر ، وربما احببتهما قليلا ٠ والآن أفكر هكذا : ماذا عساه يحدث اذا صادفت المرأة رجلا آخر واخذت تهدى اليه فى خفاء ذلك الذى يجب أن يكون لزوجها حسب القوانين الالهية والانسانية ؟ وما الذى ينبغى فعله اذا حدث ذلك؟

ـ هل حدث ؟

ـ لقد حدث ٠ ورايت أنت ايضا مرتكبه ٠ انه الخادم الاصغر٠ وهذا الزوج لا يعرف ٠ والقرآن يقول : الرجم للزانية ٠ ولكنك تقر أن هذا بات أمرا متخلفا ٠ وماذا على أن افعل ؟ أن أقول للزوج ؟ أن اهددها ؟ أن أبعد الشاب ؟ كل ذلك لن يساعد فى حل القضية ٠

ـ ولا تستطيع أن ترى الذنب وتظل هادئا ·

ـ وأصعب من ذلك أن تحول دون وقوعه · فكلاهما يحبانها وهي تخاف من زوجها وتحب شابا · وهو أيضـــا عندى · انه ماكر قليلا ؛ ولكنه عاقل ، وماهر في الاعمال الى درجة تجعلني أتوجس خيفة من امانته، ولكنني محتاج اليه · انه يسكن هنا معهما ، لقد أتى به الزوج بنفسه ، وهو أحد أقاربه البعيدين · الزوج انسان طيب النفس لا يشك في شيء ، يثق في الناس ، ويتمتع بسعادته ؛ والزوجة لا ترغب أن تغير من الوضع شيئا ، فهي تخشى ان تفسد كل شيء ؛ والشاب يسكت ، ولكنه لا يريد الذهاب · انني أستطيع أن اجعله يقيم في مسكن آخر ، ولو فعلت ذلك لذهبت هي اليه ـ هكذا قالت لى بنفسها ـ ولكان الأمر اذ ذاك أشد · كما استطيع ايضا أن ارسله الى مكان آخر ، لكنها ستذهب كذلك وراءه · فأى شيء يغير في هذا الوضع الحالي لن يأتي بخـــير · لو عرف الزوج ذلك لقتلها وقتله ، لأنه ـ هذا الأحمق ـ ربط حياته بها · ان هذين العاشقين يسرقان سعادتهما ، ويظنان ان لهما حقــا فيها ، ولا يجرؤان على جعلها اجمل من ذلك · ان الامر بالنسبة لهما ليس سهلا ، اما بالنسبة لها فيلزم ان تكون زوجة لرجل لا تحبه ، واما بالنسبة للشـــاب فلأنه يتركها كل ليلة للآخر · وعلى العكس من ذلك كان الأمر بالنسبة للزوج على درجة كبيرة من اليسر والسهولة ، لأنه لا يعرف شـيئا ، وفي حسابه لا يوجد شيء ، واما نحن فنظن أنه هو الذى أصيب بأفدح الضرر · لم يعد له حق فيها بعد ، وما يراه حقه انما يقوم على خوفهـا فحسب · واما أنا فانتظر واترك كل شيء ليستمر ، لا أجرؤ أن افعل شيئا ، ان كل شيء هش الى درجة بالغة ، ولو فعلت شيئا ما لقطعت الخيـــوط الدقيقة التي يمسك الثلاثة بها معـا ، ولتعجلت المصيبة التي تحلق فوقهم · ها نحن الآن · أوجد لى قانونا كيفما أردت ، حل لى ذلك ، ضع نظاما ! ولكن بشرط الا تهلكهم ، اذ بذلك لا تكون قد فعلت شيئا ·

ـ ان ذلك لا يمكن انتهاؤه الا بالمصيبة ، كما تقول أنت ·

ـ انني خائف · ولكنى لا أريد أن أتعجل المصيبة ·

ـ انك تتحدث عن المسببات لا عن الاســباب ، تتحدث عن ضعف القوانين عندما يحدث شيء ، ولا تتحدث عن ذنب الناس الذين لايتمسكون بها ·

ـ ان الحياة أوسع من أى قانون · فالأخـلاق منهج أو فكرة ، وأما الحياة فهى ذلك الذى يحدث فى الواقع · وكيف ندخلهـا فى المنهج أو الفكرة بدون أن نلحق الضرر بها ؟ ان الخسارة وقعت على الحياة من أجل تحريم الذنب أكثر مما وقعت عليها من أجل الذنب نفسه ·

ـ اذن أتريد أن نعيش فى الذنب ؟

ـ لا · وحتى هذه النواهى لا تساعد أيضا فى شىء · انهـا تخلق المنافقين ومشوهى العقول ·

ـ وماذا يجب أن نفعل ؟

ـ لا أدرى ·

لقد ضحك كما لو كان يسره أنه لا يعرف ·

دخلت المرأة وقد حملت أكواب الشراب ·

وخفت أن يبدأ حسن حديثه معها ، فهو صريح أكثر ممـا ينبغى ، ومتعجل بحيث لا يستطيع أن يخفى ما يراه ، ولكن لحسن الحظ لم يقل شيئا ، وكان ذلك عجيبا ، كان ينظر اليها بابتسامة تكاد تلمح ، ولم يكن فيها شىء من الحقد ، بل كانت توحى بشىء من الانعطاف مشوب بقليل من المعاتبة ، وكان نظره اليها يماثل نظر الانسـان الى مخلوق حبيب أو الى طفل نجيب ·

قلت له بعد خروجها :

ـ انك تنظر اليها كأنك فى جانبها

ـ نعم اننى فى جانبها · ان المرأة ممتعة دائما عندما تكون عاشقة ؛ اذ هى عندئذ أعقل واشد تصميما واحب الى الانسان منهـا فى اية لحظة أخرى · وأما الرجل العاشق فهو شارد الذهن ، أو غليظ فى تصرفاته ، أو عدم المبالاة ، أو رقيق تغلبه دمعته · ولكننى مع ذلك فى جانب الشاب والزوج ، فى جانب كليهما · ليذهب بهما الشيطان !

كنت أشفق عليه فى تلك اللحظة ، وفى الوقت نفسه كنت احقد عليه · ولم يكن هذا الاشفاق وهذا الحقد بدرجة كبيرة · كنت أشفق عليه لانه قد هدم فى نفسه واعيا منهج تفكيره الكامل القديم الذى استطاع به أن يخدم الدين ، وكنت أحقد عليه من أجل حريته غير الواضحة التى كنت أراها خلال ما يشبه الضباب · لم تكن على غرار حريتى ، بل كانت على النقيض منها ، وبرغم ذلك كانت تجعل تنفس الانسـان أكثر سـهولة

ويسرا . وكنت أظن انني هكذا من أجله كنت أسلم له في بعض الأمور . اذ لا أستطيع أن أخفي عن نفسي كم كانت تسعدني رؤيته ، وابتسامته الرقيقة السهلة التي تنمو وتتفتح بذاتها ، ووجهه الذي ألهبته الرياح والذي تلمع فيه عيناه الرماديتان . ان ابتهاجه الذي كان يشع كهالة من النور حوله كان يبعث في نفسي الرضا والسرور ، وربما كان كذلك استخفافه الذي لا يرى الآخرون ازاءه انهم ملزمون بشيء . كان يرتدي ثيابا غير عادية ، سروالا أزرق ، وحذاء أصفر من جلد الماعز ، وقميصا أبيض واسع الكمين ، وعلى راسه قبعة شركسية ، وكان نظيفا كحجارة المرو ، ذا كتفين عريضين ، وصدر قوي يظهر في أعلاه مثلث حالك السواد يعلن عن قوته خلال فتحة القميص . كان يشبه قائد الصعاليك عندما يستريح لدى أحد المتسترين ، أو وغدا مسرورا لا يخاف الناس ولا يخشى نفسه ، أو ايلا ، أو شجرة مزدهرة ، أو ريحا تهب كما تشاء . وعبثا كنت أحاول أن أراه على خلاف ذلك ، أن أعود به الى البداية . وعلى الرغم من ذلك أراني مبالغا اذا أنا وضعته على النقيض مني .

لقد مر وقت كان فيه كما أنا الآن ، أو ما يشبه ذلك . وقد حدث له مرة اذ ذاك شيء ، جعله يغير على اثره طريق حياته ويغير نفسه كذلك . وانني أتخيل الآن الشيخ أحمد نور الدين وقد تغير بدوره كما تغير هو ، يضرب في الارض ، ويغشى الحانات ، ويروض الخيول الوحشية ، ويسب، ويتحدث عن النساء ، وقد أضحكني هذا التخيل الذي لا أجدني أفلح في الوصول الى نهايته ، فالتغير يبدو مستحيلا ، اذ كان لزاما أن أولد مرة أخرى ، والا أعرف شيئا مما أعرفه الآن . لقد رغبت أن أسأله ، وربما كان ذلك من أجل ما كان يخالجني من شعور بالتغير في داخلي ، ليس على شاكلة ذلك التغير الذي أتخيله والذي كان يتصف به حسن ، انني أحس في نفسي بالتغير وأخاف منه ، ولا أدري كيف أفاتحه في هذا الأمر الذي يبدو أنه غريب للغاية ، انه لا يرى طريقة تفكيري ولا دوافع تطلعي .

لجأت الى طريقة ملتوية وسألته :

ـ هل أنت راض بعملك ؟

ـ نعم .

ثم ضحك ، ناظرا الى عيني في سرور ، وقال دون مداراة :

ـ أعترف أنك لم ترد أن تسأل عن هذا .

ـ أنت تفطن الى أفكار الآخرين كأنك ساحر .

أخذ ينتظر مبتسما ، وقد أبعد عني جميع الاعتبارات بصراحته ومظهره المتهلل الذي يدفع الى الجرأة • لقد انتهزت هذه الفرصة السانحة، والتي كانت فرصة لنفسي ، فهو يعطي الآخرين فرصا على الدوام ، ورحت أقول :

ـ لقد كنت في وقت ما تفكر كما أفكر ، أو شبيها بما أفكر ، بما نفكر نحن الدراويش • وليس من السهل أن يتغير الانسان ، اذ يلزم لذلك أن يرفض كل ما كان عليه ، وكل ما تعلمه ، وكل ما تعوده • وهانت قد تغيرت تغيرا كاملا ، وبدا هذا كما لو كنت قد أخذت تتعلم المشي من جديد ، وتنطق بالكلمات الأولى ، وتكتسب المبادىء الأساسية • فلابد اذن أن يكون هناك سبب هام للغاية •

نظر الى لحظة باهتمام غريب ، كأنني قد عدت به الى الماضي أو الى فترة من فترات العذاب المنسية ، ولكن أمارات الاهتمام المتوتر سرعان ما خفت حدتها • لقد قال في هدوء مؤكدا :

ـ نعم ، تغيرت • كنت أعتقد ما تعتقده انت ، وكما تعتقده أو ربما أشد • واذ ذاك قال لي « طالب أفندي » في ازمير : « عندما ترى رجلا شابا يريد أن يرقى الى السماء أمسكه من احدى رجليه وعد به الى الارض » • وهكذا عاد بي الى الارض ـ وعاتبني قائلا ـ لقد قدر لك أن تعيش هنا فعش اذن ! وعش في أجمل وضع تستطيع ، على الا يكون في ذلك مايجعلك تحس بالخجل • واقبل في سرور أن يسألك الله : لماذا لم تفعل هذا ؟ من أن يسألك : لم فعلت هذا ؟

ـ وماذا أنت الآن ؟

ـ متشرد في طرق واسعة التقي فيها بالناس الأخيار والأشرار ، وهم يحملون الهموم والشدائد كما نحمل نحن هنا ، ويشعرون بالسرور من أجل سعادة صغيرة كما هو شأن الناس في كل مكان •

ـ كيف يكون الحال اذا ما ذهب الناس جميعا في طريقك ؟

ـ ربما كانوا في وضع أسعد •

وبدا كأنه يغلق دائرة الحديث •

ـ والآن ، انت لا تهتم بشيء • هل هذا كل ما حصلت عليه ؟

ـ لم أحصل حتى على هذا •

هانا أجلس واتحدث معه ، وكان اهتمامى يقل واقبالى يفتر كلما تقدم الحديث ، كنت انتظر الكثير من اعترافه ولكننى لم أحصل على شىء ٠ انه فريد فى تصرفاته ٠ انه رجل على جانب من الغرابة ، او لعله رجل عاقل يخفى دوافع أموره وأسباب سلوكه ، او ربما كان رجلا تعسا يدافع عن نفسه بالعناد او التعنت ، ولذا لا بد أن يكون هذا الانسان اما على درجة كبيرة من الضعف أو مثلها من القوة ، ولكننى لست متصفا بواحدة منهما ٠ ان العالم يقيدنا بقيود صلبة ، فكيف يمكن كسرها والتخلص منها ؟ ولماذا ؟ وعلى أى وضع يمكن العيش دون ايمان ٠٠ دون ذلك الذى التصق بالانسان كما يلتصق به جلده ٠٠ دون ذلك الذى تمثل فى ذاتك؟ كيف يمكن أن تعيش بدون ذاتك ؟

واذ ذاك تذكرت أخى ، تذكرت الى أين اردت الذهاب ٠ كما تذكرت أننى لا اجرؤ أن أبقى وحيدا دون سند أو معين ٠

ـ لقد حضرت لاقدم شكرى على الهدية ٠

ـ وددت لو جئت دون ما سبب ، حتى لا يكون حديثنا فى موضوع معين ، ولا من أجل أمر من الأمور ٠

ـ منذ زمن طويل لم يثر شعورى كما أثير فى الليلة الماضية ٠ فالصالحون من الناس بمثابة الحظ السعيد فى هذه الدنيا ٠

لقد كانت هذه هى المجاملة التى لا تفرض شيئا على ذلك الذى يقول ولا ذلك الذى يسمع ٠ غير أنى تذكرت الليلة الماضية ، وكان يخيل الى ان ما قلته هو رأيى حقا ، وان ذلك الذى قلته كان قليلا ٠ كنت أحس برغبة فى أن اقول أكثر ، كى أرضى احدى حاجاتى التى كانت تنمو فى داخلى ، كى أملأ نفسى بالرقة والحنان ٠ ودون جدوى كان حسن يحاول خلال ضحكه أن يوقفنى ، وما كان هذا بممكن اذ ذاك ٠ انه كان لى بمثابة المرساة للسفينة ، وكنت فى حاجة اليه فى تلك اللحظة بالذات ، ولا بد أن يكون محبوبا الى عندئذ ، وافضل الناس بالنسبة الى فى ذلك الحين ٠ قلت اننى سأفعل غدا وربما اليوم كل ما فى وسعى من أجل أخى ٠ واعتقد أننى على صواب ، وسأطلب العدل فى كل جهة يمكننى الوصول اليها ٠ ربما لن يكون الأمر سهلا كما أظن ، وربما صادفتنى بعض اصعاب (وقد بدأت أشعر بها : ففى الصباح لم يرد المسلم ان يسمح لى بالدخول، وقد قالوا لى فى غضب انه ليس موجودا بالرغم من انه دخل المبنى أمامى)، وربما سأكون وحيدا ومهددا ، وهأنا من أجل ذلك حضرت اليوم الى حسن، اذ أننى أشعر أنه قريب الى ، وقد اردت ـ دون أن اطلب منه شيئا سوى كلمة انسانية ـ ان أكاشفه باننى جئت من اجل موضوع يخصنى ٠

كان ما قلته هو الحق ، حتى غير معهود نبع من داخلي وجرني الى هنا، وان كنت لم أصرح به لنفسي الا أمامه حين كنت أتحدث معه • كنت ـ وكأنني سأندفع الى طريق الهلاك •• الى معركة خطيرة ـ انظر الى الصديق الذي بقي لي ، والذي لاح من المصيبة كي لاتكون بالغة الذروة • وعلى الرغم من عدم استطاعته ان يساعدني بشيء ، وعدم احتياج الأمر الى مساعدته ، فقد كانت احدى مخاوفي المجهولة تدفعني الى الاحتفاظ به • ربما عندئذ فحسب ، وأمام ذلك الرجل المتزن الذي كان يستمع الي في هدوء منجذبا بما يحمل صوتي من جدية وبما لدي من ضـــيق خفي استطاع أن يلمحه خلال الضباب ، قد خطر ببالي في صـــورة كاملة ذلك الفراغ الذي كنت احسه في الصباح أمام مبنى المسلم عندما كان الحراس يلفقون الأكاذيب• لقد كنت مهانا ، ولكن لم تكن لدي قوة كي أحس بهذه المهانة • كما فزعت لمعرفتي أنهم جمعوا بيني وبين أخي في حكم لا رجعة فيه • كان لزاما علي أن أنقذ نفسي بانقاذه • ولكنني لم أستطع أن أخفي عن نفسي ما أحاطني من موجة باردة • كنت أعرف أن هذا الباب ليس هو الباب الوحيد الذي يجب أن أقرعه ، وليس هـــذا الرجل هو الرجل الوحيد الذي يجب أن يستمع الى مطلبي ، اذ يوجد هناك آخرون ، افضل واقوى من هذا الظالم الذي أسكرته السلطة ، ولكني بالرغم من ذلك أصبت بالذعر واستولى علي الضعف فجأة كما يستولي على الساري بالليل ضل الطريق • وكان هذا هو السبب الذي جعلني في لحظة الثقة وطلب المساندة أشده الى نفسي بأواصر الصـــداقة وروابط الحب ؛ وقد فوجئت بما كان من نفسي وبهذا الاحتياج الذي شعرت به حديثا والذي بدا غير معقول بدرجة ما كان له من القوة • لقد نجحت ، وتوصلت بأحسن ما يمكن من الطرق ، وكان يقودني مكر تولد من ضعفي الصادق ، ورغبة عارمة في ارضاء نوع من الظمأ شديد ، كان يوجد دون شك منذ زمن في حالة اخفاء واختناق • وكنت أختزن في ذاكرتي لوقت طويل فيما بعد تلك اللحظة وذلك التأثر الشديد الذي كان قد استولى علي •

لقد أثرت شعوره • فقد كانت عيناه الرماديتان تحدقان في كما لو كانتا تحاولان التعرف علي • وكانتا تنتزعانني من فراغ أمامهما لا تبدو فيه الشخوص ، وتكونان لي الملامح ، وتشكلان لي الصورة • كانت أمارات سروره المشوب بقليل من السخرية المألوفة قد تحـــولت الى علائم توحي بتوتر مضطرب ، ولكنه عندما بدأ يتحدث عاد ذلك الرجل الهادىء المتزن الذي يسيطر على مشاعره ويراقبها لكيلا تتضح أكثر ما يجب ، كما هو الحال عند أولئك الآخرين الذين لا يراعون ما يبدر منهم عند حماسهم •

ان حماسه جذوة تستمر حرارتها فترة أطول ، وليس لهبا يندلع من احتراق الكلمات الحارة • وهذه الفكرة عنه كانت بالنسبة لى جديدة • انني ما زلت حتى اليوم وحتى اللحظة السابقة أراه سطحيا وفارغا ، وان كنت دون شك قد رايته في جانب ما من نفسى على خلاف ذلك ، والا لما جئت عنده بالذات حينما كنت محتاجا الى كلمة انسانية • ان ذلك كان دفاعا عنه يصدر من عاطفة الحب الجديد التى ألمت بى ، ومن حماسى الذى علقته به ، مشفقا أن أبقى وحيدا فى هذا المعترك • وعلى كل فالأمر سواء، ليكن هو سطحيا ، وليكن ساذجا ، وليستغل عقله النادر الوجود كيفما يشاء ، ولكنه رجل صالح ويعرف الطريق لمصادقة الناس • أنا لاأعرفه ، وهو سيكشفه لى • ربما كان ذلك كله صلاة أمام خوف كبير ، ربما كان طلسما لمواجهة القوى الشريرة ، ربما كان سحرا قبيل الذهاب الى رحلة العذاب •

ولكننا لا نعرف على الاطلاق ماذا نثير فى رجل آخر بكلمة نقولها تحمل بالنسبة لنا معنى معينا وترضى رغباتنا فقط • لقد حركت فى نفسه كما يبدو رغبته التى كان يبالغ فى اخفائها كى يتدخل فى حياة الآخرين• وبدا كما لو كان ينتظر فى لهفة أن أغمره بفيض صداقتى كى يمد يده ويقدم المساعدة • لقد استيقظت رغبته ، ولم تعد الكلمات له اذ ذاك كافية •

قال فى استعداد :

ـ كم أنا سعيد بما لديك من ثقة بى • سوف أساعدك على قدر استطاعتى •

لقد استيقظ كل شىء فى نفسه دفعة واحدة ، واستعد فور استيقاظه لأمر ، لفعل ، لمخاطرة • وكان يجب ايقافه •

ـ لا أطلب المساعدة • واظنها ليست ضرورية •

ـ ان المساعدة لا غنى عنها على الاطلاق • وانت الآن أشد احتياجا اليها منك فى وقت آخر • يجب علينا أن ننقذه فى أقصر وقت ممكن ، وأن نبعده عن هذا المكان •

ثم نهض متوترا واندفع الى ، وكانت عيناه تتقدان غضبا • ماذا أيقظت فى نفسه ؟

لم أكن أنتظر هذا الاستعداد ولا هذه السرعة في التقرير ، سوف أظل أتعرف على الناس حتى نهاية حياتي ولن أعرفهم على حقيقتهم أبدا ، وسوف يذهلونني بدوافع تصرفاتهم غير الواضحة • لقد فاجأتني وأخافتني تلك السرعة ، ولذا أخذت أفكر لحظة خشية أن أكون منجرا الى ارتكاب عمل قبيح • ورفضت دون ان أبدى سببا حقيقيا ، ودون أن أعرفه على التمام•

ـ اذن سيبقى مذنبا •

ـ انه سيبقى على قيد الحياة ! المهم انقاذ الرجل •

ـ انني انقذ شيئا أسمى : العدالة

ـ ستهلكون جميعا ، أنت وهو والعدالة •

ـ اذا كان هذا مقدرا أن يكون ، فتلك اذن ارادة الله •

من الممكن أن تكون هذه الكلمات الهادئة التي صدرت مني حزينة ، مرة ، ضعيفة ؛ ولكنها دون شك كانت صادقة • لم يبق لي شيء آخر • ولا أدرى لماذا كانت كلماتي مثيرة الى هذه الدرجة كما لو كانت وحلا ألقيت به في وجهه • ربما كان ذلك لأنني أوقفت اندفاعه ، ومنعته أن يكون كريما • لقد اشتعلت النار في مكان ما داخل نفسه ، وكانت على خلاف تلك التي ظهرت منذ قليل ، كانت أشد مباشرة وأكثر قربا ، وكانت عيناه تلتهبان التهاب الجذوة المتلألئة ، وفي خديه كان يتصاعد احمرار شديد ، وقد أمسك يده اليمنى بيسراه كأنه يمنعها من أن تهوى على شيء • وقلما رأيت مثل تلك القوة المثيرة ومثل هذا الغضب • كنت أتوقع أن يحدث شيء ، انفجار ، أو سباب • ياللعجب ! انه لم يصح ، وكم وددت لو أنه صاح • كان يتحدث بصوت خافت وفي هدوء عجيب ، ضاغطا على أحباله الصوتية • وفجأة أصبح متوترا الى درجة تغيرت معها ملامح وجهه• ولأول مرة سمعته يتحدث بشيء من الغليان ، بطريقة تماثل طريقة تفكيره الغاضب ، دونما تخفيف أو تلطيف لكلماته الثقيلة ، وما يسوقه من التجريح •

كنت أسمعه في ذهول يقول :

ـ أيها الدرويش المسكين ! أيمكن أن يقلع الدراويش ولو للحظة عن التفكير بطريقتهم ؟ حدوث الاشياء بالقضاء والقدر ، القدر بارادة الله ، انقاذ العدالة والعالم ! كيف لا تختنق انفسكم من تلك الكلمات الكبيرة ! الا يمكن أن يحدث شيء بارادة الانسان أيضا ، ودون ان يكون كما تزعمون

من أجل انقاذ العالم ؟ أترك العالم فى هدوء اذا كنت تعرف الله ، فالعالم سيكون أسعد بدون حملكم أعباءه • افعل شيئا من أجل الرجل الذى تعرف اسمه ولقبه ، والذى تصادف كونه اخا لك ، لكيلا يهلك باسم العدالة التى تدافع عنها دون أن يكون مذنبا أو مدينا • لو كان موت أخيك ضمانا لفردوس الغد بالنسبة للآخرين فليمت ولا بأس بأن يموت ، فسوف يكفر بموته عن كثير من ذنوبهم • ولكن ذلك لن يكون ، فكل شيء سيبقى كما كان •

ـ اذن هذه ارادة الله •

ـ ألديك كلمة أخرى أكثر قربا لعالم الانسان ؟

ـ لا ، ولا أحتاج اليها •

اقترب من النافذة ، وأخذ ينظر الى مابدا له من السماء فوق القصبة وفوق الجبال التى كانت تحيطها ، كما لو كان يطلب اجابة أو طمأنينة فى ذلك الفضاء الصافى ، ثم أخذ يصيح بشخص فى فناء البيت ، سائلا اياه هل ركب النعل للحصان ، ومصدرا اليه أمره بأن ينطلق الى الموسيقيين ويسرع باحضارهم •

كان من الصعب أن أدرك حقيقته ، وكانت محاولاتى دون جدوى • كنت كلما رأيت جانبا منه فاجانى جانب آخر مجهول ، وما كنت أدرى أيهما الحقيقى الذى يمثله •

وعندما استدار كان هدوؤه قد عاد اليه للمرة الثانية ، ولكن ابتسامته لم تكن صافية كما كانت من قبل •

قال لى وهو يحاول أن يبدو فرحا :

ـ لا تؤاخذنى ، كنت خشنا وتصرفت بحمق • ان هذه الطريقة هى طريقة تجار الماشية • حسن أننى ما بدأت فى صب الشتائم •

ـ الأمر سواء • فذلك لم يعد مهما الآن •

ـ وربما لم يكن لى حق • ولعل طريقتك أنفع • فمن الأفضل أن يمسك الانسان بالمقاييس السماوية من أن يمسك بالمقاييس العادية ، الأرضية • ان الفشل لا يزعجك ، فأنت دائما تحسب بالزمن اللانهائى ، وتجد المبررات فى أسباب خارجة عن محيط نفسك • والخسارة الشخصية تصبح لديك أقل أهمية • والألم أيضا • والرجل كذلك • وحتى هذا اليوم

الذى نعيشه الآن · كل هذا يأخذ فى الاستمرار ، متضخما غير متميز ، وقد بدا عليه التراخى ولم يعد يحفل بشىء سوى نفسه ، مثله مثل البحر: لا يمكنه ان يحزن على الضـحايا الذين لا حصر لهم والذين يبتلعهم على الدوام ·

لزمت الصمت · فماذا كنت أستطيع أن اقول ؟ ان تلك الكلمات المثيرة كانت تكشف عن قلق وحيرة لا يمكن للانسان أن يجد لها نهاية · لماذا اختلف معه أو اتفق اذا كان هو نفسه لا يعرف على اى شىء قد استقر؟ انه يشك ليس الا · وانا لا أشـــك · اننى أعتقد حقا أن ارادة الله هى القانون الأعلى ، وأن الآخرة ميزان أعمالنا ، وأن الدين أهم من الانسان· نعم ان البحر موجود منذ القدم والى الأبد ، ولا يمكن أن تضطرب أمواجه من أجل ضحية صغيرة فى جوفه · لقـــد قال ذلك فى مرارة ، قاله وهو لا يؤمن به قاصـــدا معنى آخر · واما انا فبى رغبـة أن ارتقى الى تلك الفكرة ، ولو كان ذلك على حساب سعادتى ·

لم ارد ان أوضح له ـ حيث لم يكن فى استطاعته أن يفهم لأن تفكيره كان يخالف تفكيرى ـ أن تخليص اخى بالهرب المدبر او بالرشوة لاأستطيع أن اقبله لانى مازلت أومن بالعدالة ؛ ولو اقتنعت أن العدالة غير موجودة فى العالم لما بقى لى سوى أن أقتل نفسى ، أو أثور ضد العالم الذى لم يعد بعد عالمى · اننى لو أوضحت لقال حسن أيضا ان هذه هى طريقة التفكير عند الدراويش ، وهذا هو التقيد الأعمى بالقانون ، ولذا لن اقول له شيئا، ولكنى لا أدرى كيف يستطيع الانسان أن يعيش على خلاف ذلك ·

لعل فى الامكان ذلك ؟

كنت أتطلع الى غصن مزهر أسفل النافذة المفتوحة ، وكان يجب على أن أنصرف ·

قلت : الربيع ·

قلتها كما لو كان لا يعلم · ومن المؤكد أن علمه عنه ليس كعلمى أنا ، ولم يكن يخطر ببالى أن تثير كلمتى هذه الدهشة فى نفسه ، فقد كانت تبدو كأنها تقطع الحديث والفكر ليس الا ·

تذكرت كيف كانت تلك النباتات التى خرجت من باطن الارض تعلن بياضها الشاهق أو خضرتها الزاهية تتعاقب فى وفرة وبلا نهاية ، فى هذا الصباح الذى كان قد مر بى منذ ساعات طوال ، كانت هناك ظلال عديدة متلألئة تحت الاشجار ، وكانت الارض التى أحيـــاها قدوم الربيع تنشر

رائحتها ، واذ ذاك رأيت كم يكون جميلا ورائعا أن أنطلق الى العالم حاملا معي صندوق الزاد الذى يحمله الدراويش فى تنقلاتهم ، مقودا بالشمس الوحيدة التي لا مثيل لها ، وبنهر ما من الأنهار ، وبطريق ما من الطرق ، دون ان تكون هناك رغبة مني في شيء سوى أن أراني منطلقا لا يقيدني مكان ، ودون أن يكون هناك ارتباط مني بشيء ، لكي أرى مع كل صباح مكانا جديدا ، واستلقى فى كل ليلة على سرير آخر ، ولكي لا يكون هناك ما يشغلنى من واجبات ، أو ينتابنى من أحزان ، أو يثيرنى من ذكريات ، ولكي اترك لعاطفة الكره حريتها عندما أبتعد وعندما تصبح اذ ذاك عديمة الأهمية ، ولكي أبعد العالم عن نفسى وأنا أمر به · ولكن لا ، لم أكن أرى ذلك ، ولكنى نسبت الى نفسى تلك الرغبة التى أعلنها حسن منذ قليل ، لقد بدت لى جميلة ومنقذة الى حد جعلنى أستحوذ عليها واظن للحظة كاملة أنها رغبتى · وقد وصل الأمر الى أننى سجلتها فى نفسى بكلماته · كانت تتناسب وحالتى فى الصباح ، حيث كنت فى مفترق الطرق ، وقد اعتنقتها فيما بعد ، كأنها كانت موجودة ، والحق انها لم تكن كذلك ، وذلك شيء أعرفه على وجه اليقين ·

لقد حكيت لحسن أمر لقائي بالصبى بعد الاهانة التى لحقتنى من المسلم ·

وسألنى حسن ضاحكا :

ـ لماذا ناديته ؟

ـ كان يبدو ذكيا ·

ـ لقد كنت تعانى الشدة ، كنت تهرب من العذاب ، واردت أن تنسى كيف طردك الحراس أمام مبنى المسلم ، وعندئذ وفى لحظة المعاناة من صعوبة تمر بها استطعت أن تلاحظ الصبيان الأذكياء وأن تفكر فى المدافعين عن الدين لجيل المستقبل · أليس هكذا ؟

ـ واذا كنت أعانى الشدة فهل أتوقف عن أن أكون كما أنا فى حقيقة أمرى ·

اشاح برأسه ، وما علمت أكان يسخر منى أم يرثى لحالى ·

ـ قل انه ليس هكذا ، أرجوك ، قل ان اخاك أهم عندك من كل شيء ، قل انك ستلقى بكل شيء الى الشيطان كى تنقذه · انك تعرف أنه برىء !

ـ سوف أعمل كل ما في وسعي ٠

ـ ان هذا ليس كافيا ٠ هيا بنا لنعمل أكثر !

ـ هيا نترك هذا الموضوع ٠

ـ حسن ، كما تحب ٠ كم أود الا تاسف ٠

لقد كان مصرا ٠ ولا أدري لماذا أراد ان يزج بنفسه في عمل خطير وغير مأمون في انقاذ رجل يكاد لا يعرفه ، كما كان يبدو غريبا اذ كان على النقيض من كل ما أعرفه عنه ٠ ولـــكنه لم يكن كاذبا ، فلم يكن يقـدم الكلمات فحسب لأنه يعلم تصميمي على عدم القبول : وانما كان في الحقيقة على استعداد للقيام بعمل دون أن يتردد فيه لحظة ٠

ربما استطاع بعض الناس ان يظن انني كنت متأثرا باستعداده هذا للقيام بالمساعدة ، وانني استقبلت تضحيته غير العادية بدموع في حلقي ٠ ولكني لم أكن كذلك ، لم أكن كذلك على الاطلاق ٠ لقد اردت في البداية أن يكون اقتراحه كاذبا ، كلمة فارغة لا تلزم بعمل ٠ ولكنني عندما لم افلح في النزول باقتراحه الى تلك الصفة ، اذ كان صدقه ثابتا لا شك فيه ـ أحسست بالغضب والاهانة ٠ وكان يبدو لي ان اهتمامه الكبير فيه مجاوزة عن الحد ، فيه مجاوزة عن الحـد ويرى تدخلا زائدا ، اذ لم يكن الوضع طبيعيا ٠ كان بموقفه هذا يفوقني حمية ، ويبرز عدم كفـاية اهتمامي ، ويقدم تضحيته ليشير الى حبي الصغير ، كما كان يعاتبني ويعاقبني ٠ لقد عذبني هـذا الحـــديث ، ولم أكن أود سوى أن ينتهي ، اذ لم يكن في استطاعتنا أن نتفاهم ٠ لقد أوقعني في حيرة باستنتاجه المفاجيء لما أنا فيه حين فرغت من حكاية الصبي ، بكشـــفه عن ذلك الذي لم يكن يدور في خلدي والذي كان دون شك يعد حقا ، غير ان جميع ما صدر عنه من حديث كان ينبيء في مضمونه عن ثورة ٠ وضعت نفسي بعد وصولي الى استنتاجه في زنزانه ، واصبحت قلعة محصنة تنهال عليها السهام دون جدوى ٠ انه ليس صـــديقا لي ، أو هو صديق عجيب يقطع جـذوري ، ويقوض أساسي ٠ لا يمكن أن تقوم صداقة بين أناس يتناقض تفكيرهم ٠

تلك المعرفة المرة (وقد كنت في حاجة اليهـــا كالهواء والدواء) ساعدتني لكي ارفضه بطريقة اسهل ، وابدأ معه حديثا صعبا كنت أؤجله باستمرار وكنت أفكر فيه على الدوام ٠

كان باستطاعتي أن ارجوه ، وكان لي الحق في ذلك ، اذ أنه صديقي ، ولكن تفكيري كان يتجه الى طريق آخر ، وكان يحول بيني وبين أن أقوم

بهـــذا الرجاء ، كما كان باستطاعتي ان ازعم أن هذا الرجاء توصية من الآخرين ولا دخل لى فيها · ولكنني لو فعلت لكان من الصعب أن أوجه اليه بعد ذاك رجائى ، وسيصبح كل شيء في وضع سيء · والأفضل هكذا: انه ليس صديقا لى ، وهذا شيء لا شك فيه ، وسأذكر مطلب الآخرين الذى أتوقع منه فائدة · ولعلنى من أجل ذلك لم اظهر غضبى منذ قليل ، لاننى لو فعلت لحركته ليقف ضدى ولأضعفت من فرص نجاحى ·

قلت له ، وأنا أتاهب للانصراف ، كانني تذكرت على وجه الصدفة أننى كنت عند اخته ، انها دعتنى (فأردف يقول ، أعرف ، وهكذا أدركت أنه يجب على أن اقول أكثر من ذلك الذى لو اقتصرت عليه لكانت لى من ورائه فائدة) ورجتنى ان أقول له ان والده ســوف ينتزع منه حقه فى الميراث (وهنا قال : اعرف ذلك أيضا ، وضـــحك) ومن الأفضل نظرا لحديث الناس ان يتنازل بنفسه أمام القاضى ، لتكون الفضيحة عندئذ أقل·

ـ لمن تكون الفضيحة أقل ؟

ـ لا أدرى ·

ـ لن أتنازل · وليفعلوا ما يحلو لهم ·

ـ ربما يكون هذا هو الأفضل ·

حاولت دون جدوى ان اخفى أننى كنت آمل ان يساعدنى انا واخى هذا التوسط فى العمل القبيح · وعندما رفض خيل الى أنه خشن وعنيد ، واشهد أننى بذلت جهدا كبيرا كى أؤيده فى قراره · لقد كان الأمر عسيرا، كانت الكلمة تلذعنى فى حلقى كما يلذع السم ، ولكنى لم أستطع ان افعل خلاف ذلك ، اذ لو أنه لاحظ لعبتى لما غفرت ذلك لنفسى · لقد أخطأت منذ البـداية ، عقـدت كل شيء ، وكان يجب على ان اقول مباشرة كما يقـول الرجل للرجل ، وما كان هنـــاك عيب لو أنه رفضنى ، ولـكنى الآن قد أفســدت كل شيء · والفرصـــة التى انتظرها منـذ زمن أخذت تولى دون رجعة ، وهكذا كنت أقف فاقد القدرة على التصرف ·

وعندئذ ، عنـدما فقدت كل أمل ، وعنـدما برق بخاطرى أن هذه الزيارة لم تحقق فائدة ولم تصب هدفا ـ تذكر وقال :

ـ اذا تنازلت عن حقى فى الميراث أيكون نسيبى القاضى على استعداد لأن يقدم العون لأخيك ؟

ـ لا أدرى · لم افكر فى ذلك ·

ـ هيا بنا فلنحاول هذا ! ليساعدك هو وسأتنازل عن كل شيء . سوف أصيح من فوق المئذنة معلنا تنازلى اذا احتاج الأمر . فالأمر سواء بالنسبة لى . فسوف يتركوننى دون شيء بهذا أو بذاك .

ـ انك تستطيع أن ترفـع الأمر للقضاء ، اذ أنك الوارث الأول ، ولم ترتكب مايشين العائلة ، فوالدك مريض ومن السهل أن تبرهن على انه يفعل كل شيء تحت تأثير الضغط عليه من أحد الاشخاص .

ـ أعرف ذلك .

كنت أبذل كل ما لدى من جهد لأقول هــذا ، وللمرة الثانية كنت اضغط على نفسى لأكون شريفا . لقد اردت ان اكون مساويا له ، أردت ذلك حتى يكون لدى فيـما بعد ، حينما اتذكر رحابة صدره ومروءته ، جواب لنفسى : فعلت ماكنت مضـطرا أن افعله على حساب ضررى ، لم أخدعه ، فليقرر هو بنفسه كما يشاء . لقد قال :

ـ أعرف ذلك ، ولـكن فلنتصرف الآن هـكذا ، ان نسيبى يخشى القضية ، وليس ذلك لبلادته وانما لعدم نزاهته . ولحسن الحظ انه رجل طماع . وربما يكون على استعداد لمساعدتك ، لأنه يهتم بالمـال أكثر مما يهتم بفعلة كاتب صغير مجهول . فلنعتمد اذن على عيـوب الناس عندما لا نستطيع أن نتصرف على خلاف ذلك .

ـ انك تقدم أكثر من اللازم . وليس فى استطاعتى أن أقدم سوى الشكر .

فضحك ، وقلل على الفور من قدر ما يقدمه حيث قال :

ـ ليس ما اقدمه كثيرا . ومهما يكن الأمر فهو لهما . من ذا الذى يستطيع أن يتردد على المحاكم !

والآن ، كان باستطاعتى أن أحثه على التراجع كيفما أردت ، فمهما فعلت فلن يتراجع ، ولكنى لم ارد بعد ان العب دورا مع القدر .

قدمت له الشكر ، واخذت اتأهب للذهاب . لقد عاودنى الابتهاج والأمل ، فقـد تغلب على برحابة صدره التى لا حد لها . ولحسن الحظ تنازل عن كل شيء بنفسه ، ولم يطوق عنقى بجميله ، لم يحملنى واجب الشكر ، كما لم يعد عدوا لى بعد . (لقـد استطاع أن يكون كل شيء فى تلك الايام الاولى ، ولم يعد بعد شخصا يمكننى تحديد صفته ، كنت أحدد موقفى تجاهه بحسب الأحوال ، شأنى فى ذلك شأن الشـخص فى حالة

الحب الأول ، لم يهتد بعد الى قرار بشأنه ، ومن الممكن أن يتحول بسهولة الى كره) •

قال فجأة ، وهو يقهقه :

ـ يا للخسارة لكونك درويشا ، لو لم تكن لدعوتك لحفل السمر ، سيحضر عندى الأصدقاء •

وأردف فى صراحة ودعابة :

ـ لن اخفى عنك هذا ، فسوف تعرفه بالتأكيد غدا •

ـ ألا تحب الطريقة ؟

ـ نعم ، لا أحبها • واعرف أنك ستندد بى ، ولكن ، « لكم دينكم ولى دين» • ليس المهم أننا لا نفعل خيرا ، وانما المهم اننا لا نفعل شرا • وهذا ليس شرا •

كان يمزح حتى بالقرآن ، ولكن دون عداوة ، ودون اهانة • لم يكن يحب الطريقة ولا المقدسات ، وكان لا يحفل بأمرهما •

وفجأة انقطع صوته الذى يحمـــل طابع السرور ، وتجمعت شفتاه المنفرجتان فى شكل دائرة ، وظهر على وجهه الذى سفعته الرياح صفرة يصعب رؤيتها • نظرت خـلال النـــافذة الى حيث ينظر : « لقد دخلت الدبروفنيكية الرشيقة برفقة زوجها الى فناء المنزل •

ـ هل حضرا من أجل الحفل ؟

ـ ماذا ؟ لا ، لم يحضرا من أجله •

لم يستمر فقدانه السيطرة على نفسه واستيلاء الحيرة والاضطراب عليه سوى لحظة واحدة • لقد تسمرت عيناه بين اطار النـــافذة ، كما اضطربت يداه • لحظة واحدة وزال كل شىء ، كأنه لم يكن • لقد عادت اليه ابتسامته ، فقد استرد ثباته وصفاءه التام ، وتملكه سرور هادىء من أجل حضـــور الأصدقاء اليه • ولكن نشوته ظلت تلازمه ، بالرغم من أن مظهره كان يعلن عن هدوئه • لقد مكننى من معرفة ذلك أنه لم يعد يرانى بعد ، وأن وجـــودى لم يكن فى حسبانه • لم يكن تصرفه نحـوى منافيا للذوق • لم يتخطانى بنظره ، بل طلب الى أن أمر به مرة أخرى ، وذكرنى أن اذهب الى أخته ، وكان كل شىء يبدو عاديا ، ولكن فكره لم يكن معى : انه أســـفل ، فى فناء البيت ، فى جانب المرأة التى تأتى للقائه • ذهبنا للقائهما ، وتم اللقاء عند الباب ، نظرت فى خفاء وسرعة وأنا أحييهما الى

وجه المرأة ، ولم أرها فى هذا القرب رائعة الجمال ، كان خداها على درجة من النحول والشحوب ، وكان بعينيها آثار لحمى أصابتها أو حزن ألم بها ، غير أن معالم وجهها كانت ترسم صورة من الصعب أن تزول من الذاكرة • وذهبت وأنا أمر بما نشرته خلفها من عطر خفيف ، وابتعدت عنهم وأنا أحمل فكرة تنبىء عن استحالة وجود حل لما بينهما • لذا كان يتحدث باهتمام كبير عن تلك الشابة التى توجد فى فناء بيته وعن خادميه!

لو لم يحب لكانت الأمور جميعها أيسر وأبسط ، ولكن اصفرار وجهه السريع لا يخدع • اتعرف هى ؟ أيعرف زوجها ، ذلك الرجل اللاتينى طيب النفس الذى انحنى انحناءة شديدة أمامى وهو يبتسم ابتسامة لطيفة تنبىء عن أن صاحبها لا يعرف الشر ، والذى يؤدى كل شىء على مهل • انه على وجه التأكيد لا يعرف ، كما ان الغيرة لاتنهش قلبه • فهو اذا علم فلن يقتل • أما الزوجة فهى تعرف ، فالنساء يعرفن دائما ، ولو لم يكن لهن دلائل ، انها ستفكر أنه يحبها قبل أن تفكر فى عدم حبه اياها • ماذا يدور فى داخلهما ، ليس مقولا ، أو متلعثما فيه ، وبينهما الزوج يفصلهما بحضوره ، ويقربهما بعدم شكه ، مستعدا ان يقطع على الدوام صمتهما الخطير بكلامه المرح فى غير موضوع معين ؟ اى عنف يكون فى رغبة مذاقة أو متعطشة تسيطر على هذين الشابين من الناس ، وأية قوة سحرية تكون تلك التى تتغذى بالاحلام فحسب والتى يمكنها أن تتحول الى هذيان خطير • قد يكون حسن مسحورا وحده من أجل قامتها التى تتسم بالرشاقة والمرونة ، ومن أجل لمعان عينيها الصافيتين اللتين تحملان آثار المرض • أمن أجل هذا انفصل حسن ، الأجل أن يقع هكذا ـ ولاخلاص ـ فى أحابيل رغبة عارمة لا يستطيع ارضاءها ولا يمكن ان تزول ؟ انه يفكر فيها وهو منفصل عنها شهورا طويلة ، ويلتقى بها عندما يعود وقد جملتها رغباته التى اختزنها فى نفسه خلال سفره الطويل ، فيتشربها بعينيه المتعطشتين لكى يختزنها فى ذاكرته ويحملها معه فى أسفاره الجديدة • عند أية نقطة سوف تغلق تلك الدائرة التى تتغذى فيها الشهوة ولا تتخلص من بعض الغذاء • لقد نسينى الآن ، وان كان باستطاعته أن يذكرنى فى بعض الاحيان ؛ أبعدتنى هى عن نفسه منذ زمن ، كما أبعدت كل شىء عداها ؛ واننى اذا كنت أكرهها فى هذه اللحظة فذلك لأن ثوبها المخملى الذى يصل الى قدميها ، وشفتيها الفتيتين اللتين بدتا أكثر امتلاء ، وصوتها الناضج الرخيم ، كانت أهم منى ومن عذابى • لقد أبعدتنى الى درجة ينتفى معها وجودى ، هدمت لى سندا لم يكن فى حقيقته موجودا ، ولكن كم وددت لو لم يكشف الستر عن الخداع •

ومرة أخرى أصبحت وحيدا ·

لعل هذا هو الأفضل ، لا تنتظر مساعدة ولا تخشى خيانة · وحيدا· سوف افعل كل ما في وسعي دون أمل مني في سند لا وجود له ، واذ ذاك سيكون لي كل ما احققه من عمل ، شرا كان أم خيرا ·

مررت بجانب المسجد الذى يقوم على ناصية زقاق حسن ، ومررت بجانب المدرسة التى لم تكن ترى من وراء السور ، كما مررت بزقاق القباقيب ، ووصلت الى دكان الجلود · لقد تلاشت رائحة المراة اللاتينية، وأخذت الصورة التى كونتها عن حسن يخف لونها ، وكنت أواصل خطوى مارا بدكاكين الحرفيين والصناع الذين كانوا يباشرون أعمالهم فى هدوء ، وهنا بدأت حدود همومى الشخصية وحدود طريقى الى المجهول · ولكن لماذا الى المجهول ؟ لم أكن اشك فى نجاحى ، ولم أجرؤ على الشك ، والا لما كانت لى القوة كى أمضى ولو خطوة الى الامام · وكان يجب على أن أمضى ، فقد كانت المسألة مسألة حياتى ، او لعلها أهم · كنت أتطلع الى الهدوء فى تلك اللحظة ، وكنت أسير بجانب تلك الأرائك الخشبية التى تعرض عليها الدكاكين بضائعها او يجلس أصحابها عليها ، مطرق الرأس، منهوك القوى ، تمتلىء خياشيمى برائحة الجلد وقشور الشجر المسمى بالحور الرومى ، وكنت أنظر وقد نال منى التعب الى أحجار الطريق المستديرة أمامى والى أقدام المارة ، شاعرا أننى لا أملك ذرة من القوة ، وراغبا أن تحتوينى غرفة مغلقة ، وأن يستولى على نوم طويل كنوم الموتى، خلف باب موصد ونافذة محكمة ، أن أكون على الحال التى يكون عليها المختنق والمريض · ولكن هذا الضعف وذاك الخوف أمام الشدائد الطارئة، وتلك الرغبة في الاستلقاء والموت ، والتنازل وقبول القدر ، لا تستطيع الآن بحال أن تجعلنى اتوقف · ولا يمكن لأى تعب أو ضعف أن يحول بينى وبين القيام بواجبى · كان يدفعنى الى السير اصرارى القروى الذى تبقى لى ، وفكرتى الواضحة غير المتزعزعة عن ضرورة دفاعى عن نفسى · يجب على أن أمضى · سر الى الأمام ومت بعد ذلك ·

من أين جاء الخوف وتوقع الشدائد المنذرة ، وخبرتى ليس باستطاعتها أن تحذرنى ؟

رفعت عينى عندما سمعت وقع حوافر الخيل فى الطريق ، فرأيت حارسين مسلحين يركبان حصانين ويسيران متوازيين ، دون أن ينحرفا لأحد عن الطريق · كان المارون فى الزقاق الضيق يندفعون الى الجانبين، ويقفون ملتصقين ظهورهم بالحائط ، لكيلا يصيبهم الحصان بأردافه ، وكيلا

يصطدم بهم الركاب الحاد • كانا يسيران على مهل دون أن ينطقا بكلمة ، وكان الناس يفلحون في اخلاء الطريق لهما ، وينتظرون حتى يمرا بهم • لم يكونا يريدان أن يخدشا أحدا عن قصد ، ولكنهما مع ذلك لم يتنازلا لأحد عن الطريق ، كأنهما لا يكادان يريان أحدا •

ترددت ، هل ادخل في أحد المحلات حتى اسمح لهما بالمرور ، أو اقف مستندا الى الحائط ، كما فعل الآخرون • سأقف مثل الجميع • سأترك لهما أن يمتهنا كرامتي ، فطريق العبور ضيق ، ويكاد لا يتسع لغيرهما ، سيمسانني بركابهما ، وسيمزقان جبتي ، ولن أحول عندئذ بصري اليهما ، فليفعلا ما شاءا ، سوف أكون مثل هذا الجمع ، يسكت وينظر وينتظر ، ماذا ينتظر ، ماذا ينتظر هؤلاء الرجال أمام المحلات عندما كان الحارسان يتجهان نحوي ؟ أليروا كيف يمتهنان كرامتي ، أو ليسمعوا كيف أصيح فيهم ، فمكانتي وملابسي يعطيانني الحق في ذلك • كلا الأمرين كنت أوده اذ ذاك ، وقد خيل الى فجأة ان ما سأفعله لم يعد مهما وحاسما ، لقد أوقعوني في الحيرة بانتظارهم ونظرهم ، اهم في جانبي ، اهم ضدي ، أهم غير مبالين ؟ لم أكن اعرف حتى ذلك • ما كنت أجرؤ على الصياح ، فسيسخر الحارسان مني ، وسأبدو مضحكا أمام الناس ، ولن يرثوا لي من أجل تلك الهزيمة • لا ، فليمتهنا كرامتي ، سوف يرى الناس كلهم أنني تجنبتهما وسمحت لهما بالمرور ، وأني كنت مثلهم تماما ، ضعيفا ، حتى لقد وددت أن تكون الاهانة بالغة ، أن تكون أشد من تلك الاهانة التي تلحق الآخرين • لقد وقفت ملتصقا بالحائط ، وكدت احس بظهري عدم استواء لبناته ، مطرق البصر ، غير متوتر من أجل الاهانة التي تنتظرني ، بل اخترت عن قصد أضيق مكان ، وكنت أنتظر حدوث الاهانة بلهفة مريرة • ستنتشر ، وسيرثي الناس لي ، وهنا ابدأ أن أكون ضحية•

ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه : تقدم أحدهما بحصانه الى الأمام ، ومرا بي أحدهما وراء الآخر • وليس هذا فحسب بل القيا على التحية • لقد فوجئت في البداية ، فهذا التصرف صادفني على غير استعداد ، ولم يعد هناك حاجة لكل ما بذلت من جهد • لقد بدا كل شيء على صورة مضحكة : شجاعتي الضعيفة ، التصاقي الشديد بالحائط ، استعدادي لقبول الاهانة • أخذت أسير دون أن أرفع بصري ، بين الناس الذين كانوا يقفون في الزقاق ويودعونني صامتين ، مخدوعا فيما ظننت وشاعرا بالخجل • كنت على الحافة لأكون مثل الآخرين ، ولكن الحارسين فصلاني عنهم •

عندما اخترقت الأنظار الممتدة لهـذا الحشد المستغرق فى التفكير ، دون ان أجرؤ على النـــظر اليه ، وعندما انحرفت الى الزقاق الآخر الذى لم يكن فيه شهود على فريستى التى اخطاتها ، بدأ توترى يقل ، وأخذت اشعر بأننى تخففت من العبء ، وصرت أرفع بصرى الى الناس ، وأحييهم ردا على تحيتهم ، هادئا ، مطمئنا ، واخذ يتضح لى شيئا فشيئا انه كان من الخير أن أنهى الأمر على هذا النحو · لقد اعترفا بى ، وقدما لى احترامى، تنازلا عن الحاق الظلم بى ، وهذا بالذات هو ما كنت أطلبه ، حتى اننى كنت احدس وانا اســتند الى الحـــائط : اذا مرا بى أحدهما وراء الآخر فسوف ينتهى كل شىء على خير ، كل شىء أنوى فعله ، أو ربما لم أكن قد فعلت ذلك ، ربما تصورت ذلك فيما بعد ، عندما حدث ، اذ لو فعلت ذلك قبل لخفت ، وقد غلبنى التشاؤم ، ان أربط النجـاح الذى أنشده بوجود شرط ، بوجود معجزة · وعلى كل فالأمر سواء ، لقد حدثت المعجزة ، وربما لم يكن ما حدث معجزة ، وانما آية وبرهان · كيـف استطعت بالله ان أكون صغير النفس حتى افكر أننى منبوذ ومحروم من الحقوق ؟ لم يكون الأمر هكذا ؟ ومن الذى يستفيد ؟ لقد بقيت كما أنا فى حقيقة أمرى ، درويش الطريقة الفاضلة ، شـيخ التكية ، مدافع ذو خبرة وبصيرة عن الدين · كيف أكون منبـوذا ، ولمـاذا ؟ لا ارغب ، ولن اسمح ، لا أستطيع أن أكون اى شىء آخر ، كلهم يعرفون ذلك ، فلماذا يحولون بينى وبين ما أريد ؟ لقد تخيلت كل شىء ، ونسجته فى داخلى دون حاجة الى ذلك ، غير انى لا اعرف من أين جاء هذا الجبن · كم من المرات وقفت فى مواجهة الموت ولم يكن يعترينى الخوف ، والآن أصبح قلبنا حجرا صغيرا ، تجرد من الحياة وتملكته البرودة · ما هـــذا الذى حدث ؟ الى أى شىء تحولت شجاعتنا ؟ الى ارتياع خجل ازاء صوت البومة ، ازاء صوت أقوى ، ازاء ذنب لا وجود له · لا قيمة للحياة اذا عاشها الانســان هكذا · لقد حملت سيفا بين أسنانى وانا أسبح عبر النهر ، كما سرت زاحفا على بطنى بين شجيرات كثيفة ، وانا أتسمع فى لهفة تنفس العـدو ، وقفزت مرات على البنــدقية دون تردد ، والآن أخاف من حارس قـــذر · آواه ، ياللحزن الشديد ، أن شيئا قد حدث لنا ، شيئا مريعا قد حل بنا ، لقد تضاءلنا وما احسسنا بذلك · متى فقدنا انفسنا ومتى سمحنا بذلك ؟

ما زال النهر يبـدو ، ضعيفا ، كليلا ، تمتد اليه ألسنة الظلال ، ولكن يجب ان ينتظر فترة ، كى لا يقبـــل على الليل ومازلت مع العذاب والخجل · كنت اعرف الى أين اتجه ، وان لم أكن بعد قــد قررت ما اذا كنت ساقوم بزيارته · كنت أفكر فيه دون وعى ، آملا أن تكون زوجته قد

حكت له حديثنا ، سوف نتظاهر كلانا أننا لم نهتد الى شيء ، وسوف نحتفظ بسر لم يكن الا على سبيل الايهام سرا ، لن نتحدث عن حسن ، ولكن علامات الانشراح على وجهي ستكشف كل شيء ٠ ربما كان من الأفضل لو ذهبت اليها قبل ، لكي أحمل اليها الخبر عن موافقة حسن ، كأنه هدية ، واذ ذاك سيكون الحديث مع زوجها أخف وأيسر ٠

لا فائدة ، فالجبن قد استولى علينا ، ونحن نفكر به ٠ انه يتحدث بلساننا ، وحتى عندما نخجل منه ٠ فليذهب عليه اللعنة ٠

انتهزت لحظة المرارة هذه وقمت بزيارته فورا ، كي لا تكون مؤجلة على الاطلاق ٠

وكان عجيبا ان يستقبلني « عيني افندي » لحظة وصولي ، كأنه كان ينتظرني ، فلم تتقدمني الاصوات أو المخبرون ، وان كان يحس في الممرات بوجود غير ظاهر لبعض الناس ، وتطلعات خفية لبعض العيون ٠

استقبلني في ود ، وحياني بتحية لم تكن صاخبة الصوت ولم تكن ايضا تدل على عدم المبالاة ، دون أن يتظاهر بالسرور لمقدمي ، ودون أن تبدو عليه الدهشة من أجله ، فقد بدا متزنا في كل شيء ، كما ارتسمت على وجهه ابتسامة لا تفصح عن شيء معين ، ودون أن يحاول تخويفي أو تشجيعي ٠ ان هذا لشيء شريف ، هكذا كنت اري ، ولكنني كنت احس بعدم الارتياح ٠

اقترب منا قط جاء من أحد الأماكن ، ونظر الى بعينيه الصفراوين الشريرتين ، ثم اتجه اليه وأخذ يتشممه ٠ ودون أن يحول القاضي بصره علي ، ذلك البصر الذي كان ينساب بلطف لينتشر في المكان ، مد يده يلاطف الحيوان الصغير الوديع الذي كان ينعطف في تلذذ ومتعة تحت كفه ، حاكا رقبته وجانبيه بركبته ، ثم تسلل الى حجره وعطف بسرعة ظهره ثم استلقى ، وبدأ يخر ناظرا الى ومضيقا عينيه كأنه يضمر شرا ٠ والآن ينظر الى زوجان من الأعين ، كلاهما كان أصفر اللون يحذر في غير حرارة ٠

لم أكن اريد ان افكر في زوجته ، ولكنها كانت تبرز وحدها ٠ من الظلام ، من البعد ، بسببه ، بسبب هذا المتصلب الذي كان على حذر دائما والذي كانت يداه المختفيتان تختنقان دون شك في كميه الطويلين ،والذي بدا وجهه شفافا ، وشفتاه دقيقتين ، ومنكباه لم يمنحا بسطة ٠ انه شاحب

وهش ، ففي عروقه لا تجرى دماء بل مياه ، كيف تبدو الليالى بينهما فى ذلك البيت الكبير الأصم ؟

كان يجلس فى هدوء لا يتصور ، دون أن يشعر بحاجة الى شيء من التحرك (انه سكون أشبه بتصلب الموتى ، أو بقوة تحكم الفقير وسيطرته على نفسه) وعلى وجهه لا تزال تلك المعالم التى شاهدتها عندما دخلت ، وتلك الابتسامة التى لا توحى بشىء ، والتى بدت كالصليب على فم ذون شفتين . لقد كانت تتعبنى تلك الابتسامة أكثر مما كانت تتعبه .

غير أنه من فترة الى فترة ، ودون أن يكون هناك توقع ، كانت يده تتحرك بطريقة ما وفى شىء من المكر ، لتخرج من كمه كالحية (أما يداها فكانتا مثل طائرين) كما كانت عيناه تنظران الى ما يشبههما تماما ، الى عينى القط . وكانت هذه هى اللحظة الوحيدة التى توحيان فيها بالدعة واللطف .

لا أدرى كم من الوقت مر على هذه الحال ، انقضت فترة الغسق ثم هبط الظلام ، وأخذت العينان الفوسفوريتان فى حجره تلمعان ، وللعجب كانت عيناه كذلك أو كان يخيل الى هكذا ، كان لديه اربع اعين متلألئة ، وجىء له اذ ذاك بالشموع (كما كان الحال فى تلك الليلة التى زرت فيها زوجته ، ولكنى لم أكن بعد افكر فيها ، فما كنت استطيع) واشتد الأمر ، فقد كانت تقلقنى ابتسامته الميتة ، ويخوفنى مظهره الجامد ، وذلك الظلام وراء ظهره متمثلا فى ظله على الحائط ، كما كان يريبنى حفيف هادىء كان الجرذان تحبو حولنا . وربما كان أشد عذابا من جميع ذلك ما لوحظ من عدم ارتفاع صوته ولو مرة واحدة ، لم تتغير طريقة نطقه ، لم تثر نفسه ، لم يكن الغضب يعتريه ، أو الضحك ينتابه . وكانت الكلمات تتساقط منه فى تأن وفى هدوء ، صفراء ، من عصر الشموع ، جرت بها من قبل ألسنة الآخرين ، وكنت اجدنى على الدوام فى دهشـــــة ، اذ كيف كان باستطاعته أن يدخلها فى الجمل ويجد لها مكانا صحيحا . لقد بدت كأنها ستتبعثر من داخله ، وستنهال فى غير نظام متضخمة فى ناحية من تجويف فمه . كان يتحدث فى اصرار وصبر كما كان يتحدث فى اطمئنان وثقة، لم يخالجه الشك مرة فى حديثه ، ولم يتوقع أى احتمال آخر ، واذا حدث أن عارضته ـ ونادرا ما يحدث ذلك ـ كانت الدهشة تنتابه حقا ، كأن حاسة السمع قد خدعته ، كأنه قد التقى برجل مجنون ، ثم يستمر فى نظم حمله مما قد وعاه من الكتب ، مضيفا الى قدم عمرها برودة مواته .

اخذت أسائل نفسي في اضطراب لماذا يتحدث ؟ أيظن أنني لا أعرف هذه الجمل المعروفة أو انني نسيتها ؟ اينطق بها مكانه الرفيع ، واجبه العظيم؟ اينطق بها على سبيل التعود أو رغبة في الا يقول شـــيئا أو من أجل السخرية ، أو لكونه لا يعرف سوى كلمات محفوظة ؟ ربما كان يبغى أن يعذبني حتى يقودني الى الجنون • وهذا القط قد جاء هنا من أجل يقتلع عيني في النهاية •

ادركت عندئذ أنه قد نسي حقا جميع الكلمات التي تجري على السنة الناس ، وبدا لي ذلك امرا خطيرا : الا يعرف كلمة واحدة تصدر عن نفسه، الا يعرف فكرة واحدة تنبع من داخله ، أن يكون فاقد الاحساس لكل شيء انساني ، أن يتحدث بما لا يدعو الأمر اليه ، بما لا معنى له ، أن يتحدث امامي كانني لست موجودا ، أن يكون محـكوما عليه بالتحدث بما هو محفوظ • وأن يكون محكوما على بأن أستمع الى ذلك الذي اعرفه •

أهو مجنون ؟ أهو ميت ؟ أهو شبح ؟ أهو معذب شديد القسوة ؟ لم أصدق نفسي في البداية ، اذ بدا مستحيلا الا يدفعه الرجل الحي الماثل أمامه والسجين في القلعة الى قول كلمة واحدة حقيقية في امرهما ، مجالها هذه اللحظة • لقد حاولت أن أجذبه الى حديث انساني ليقول شيئا ما عن نفســه ، عني ، عن أخي ، ولكن لم تجد محاولتي ، فما كان يتحدث بشيء سوى القرآن • يا لله ، ومع ذلك فقد كان في هذا حديث عن نفسه وعني وعن أخي •

واذ ذاك اندفعت أغوص في بحار القرآن ، انه قرآني بقدر ما هو قرآنه ، اعرفه كما يعرفه ، وبدأت معركة الكلمات التي يرجع ظهورها الى اكثر من ألف سنة ، والتي حلت محل كلماتنا ، كلماتنا الحالية ، والتي سيقت من أجل أخي المسجون • كنا اشبه بصنبورين من صنابير القرى، تهدم ما حولهما ، فاخذ الماء المختزن يندفع من بعض الفجوات وينساب هنا وهناك •

عندما ذكرت له سبب حضوري ، أجاب بالآية القرآنية :

ـ « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم » •

صحت قائلا :

ـ ماذا فعل ؟ هل لأحد أن يقول لي ماذا فعل ؟

ـ « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبدلكم تسؤكم »

ـ سأبقى مدينا لك حتى أغيب في القبر • جئت كي يقال لي في صراحة • انني كما ترى في هم ويأس •

ـ « ••• بما كنتم تستكبرون في الأرض •• وبما كنتم تفسقون »

ـ عمن تتحدث ؟ لا أستطيع أن أعتقد أنك تتحدث عن أخي • ان الله يقول ذلك عن الكافرين • وأما أخيفهو مؤمن •

ـ « فويل للذين كفروا »

ـ لقد سمعت انه سجن بسبب بعض الكلمات •

ـ « ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم » « انما النجـــوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا » •

ـ إنني أعرف أخي جيدا • ليس باستطاعته أن يفعل شرا !

ـ « فلا تكونن ظهيرا للكافرين » •

ـ بالله انه أخي !

ـ « قل ان كان اباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم•• أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره »

ـ « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم »

هذا ما اوردته •

لقد رددت عليه بالسلاح نفسه ، بالقرآن ، اذ لم أستطع بعد أن أظل بكلماتي العادية ، فقد كان في الوضع الأول أقوى مني • كانت أدلتـــه الهية وكانت أدلتي انسانية • لم نكن متساوين • انه كان مرتفعا فوق الاشياء وهو يتحدث بالكلمات الآلهية ، وأنا كنت أحاول أن أضع همي الصغير في ميزان العدالة الانسانية العادية • لقد اضطرني أن اتجه بأمري الى المقاييس الخالدة ، لكي لا أبخس قيمة هذا الأمر • لم أحس آنذاك انني قد فقدت أخي حين اتجهت بأمره الى هذه المقاييس •

وعلى هذا الوضع ، أخذ هو يدافع عن المبادىء ، وأخذت أنا أدافع عن نفسي ، لقد كان هادئا وواثقا في نفسـه ، أما أنا فقد كنت مضطربا

وكدت أكون مشتعلا • وسار الحديث كما كان ، غير انه كان مختلفا تمام الاختلاف •

قال : « فما بكت عليهم السـمـاء والأرض » وطاف بذهني : ويل للانسان اذا كان ميزانه السماء والأرض ، ثم قال : « انا من المجرمين منتقمون » واضاف : « ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسـدون في الأرض » •

وقلت أنا : « ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض » و : « انا من المجرمين منتقمون » و : « فماذا بعد الحق الا الضـلال » و : « ليعفوا وليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم » ؟ وأيضـا : « ان الانسان لظلوم كفار » « بل الظالمون في ضلال مبين » •

وهنا استولى عليه الصمت لحظة ، ثم قال في هدوء وهو يضحك :

ـ ويل لك ، ويل لك ، ثم ويل لك !

فأجبته دون وعي :

ـ « حسبنا الله » •

ونظر اذ ذاك أحدنا الى الآخر ، أنا المهلهل بكل ما قيل ، ذاكرا أمر نسيان أخي ، وملقيـا العبء على نفسي ؛ وهو المطمئن يدلل ذيل القط البغيض الذي كان ينعطف وراء ظهره • كان يجب على أن انصرف • ياالحظي السعيد لو لم اكن قد حضرت ، لو لم أكن قد عرفت شـيئا ، انني لم أساعد في شيء ، وقد قلت ما لا يجب قوله • اذ القرآن يصبح خطيرا اذا حاولت أن تجعل علاقة بين كلمة الله عن المذنبين وبين من يقوم بتعيينهم • فآلاف المرات تندم لذلك الذي تقوله ، ونادرا ما تندم لذلك الذي سكت عنه ، كنت اعرف هذه الحكمة عندما لا تكون لي حاجة اليها • كان من الافضل لو ظللت استمع فقط ، وقلت ذلك الذي كان أفضل من كل شيء ، والذي سهوت عنه ، وانني على ثقة من أنه شيء هام • لقد كان ليلة الأمس وهذا هو ما كان يهمه ويهمني ، وأما زوجته فقد قالت انها تخفي عنـه الأمر • برق في ذهني : لقد خنت صديقا من أجل هذا الأمر •

وحكيت له بايجاز ، متغلبـا على الخجل الذي كان يعتري وجهي ، كيف نجحت في حث حسن ليتنازل عن حقه في الميراث • لم أقل شيئا أكثر ، وانما قلت هذا وحسب • ولم آت بعلاقة ما تربط بين هذا وبين نفسي وزيارتي هذه واخي • ولكنه سيجد بنفسه العلاقة ، يجب أن يفعل

ذلك ، ولن يستطيع أن يجيب بالقرآن • لقد كان فى ذلك التغيير المفاجىء للحديث حقد أسود ورغبة شامتة فى أن أدنسه بشراهته وطمعه •

وضللت مرة ثانية • لم يظهر عليه شيء يدل على أنه فهمنى ، لم يفجأ ، ولم أر فى وجهه غضبا أو فرحا ، ولكنه وجد فى الكتاب الكريم جوابا لهذه المناسبة :

ـ « ضعف الطالب والمطلوب » •

كان من الممكن أن يشير هذا الى كل شيء • قطع الحديث ، أو الغضب والسخرية • كما كان من الممكن الا يشير الى شيء •

عبثا حاولت ، لقد كان أقوى منى • انه يشبه الموتى ، ولكنه ليس ميتا : ان المبدأ يثور منطلقا من داخله •

تلألأت عينا القطة فى حجره وتحت كفه ، وما كنت أجرؤ لأنظر الى عينيه ، اذ انهما تنفذان الى فى برودة بلمعانهما الفسفورى •

أطرقت ببصرى وسكت ، وقد لحقنى الخوف بسبب شجاعتى التى لم تكن فى محلها ، وبسبب رفضه المتعالى •

لقد قال لى فى لطف :

ـ مر بى ثانية ، فنحن لا نلتقى كثيرا •



« ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون »

انصرفت في الليل ، وكنت احس أنني أسير على قدمين خشبيتين ، كما كنت احس ان قشعريرة باردة تجرى فى عروقى ، وان التعب والندم والغضب والفزع كل أولئك قد استولى على ، لقد تجمع فى داخلى الجنون والضعف وتحول الى رواسب يختنق فيها الضمير · لقد ودعنى فى أدب ولطف سائرا معى حتى الممر ، وكانت الشموع تهتز فى أيدى الخادمين (كيف كانا يعرفان أننى خارج ؟) ، سوف تسلب الشموع بصرى باهتزازها فى الممر الطويل الذى سيطر عليه الظلام ، دعانى أن أجيء ثانية حيثما اريد · ربما كان لايزال ينتظر ان اعود ، وربما كان ينبغى لى ان أعود ، لكى ابين اننى ما قصدت أن أسيء اليه بشيء ، اننى فى عذاب ، اننى فى حيرة واضطراب ، ولذا ينبغى أن ينسى كل ما قلته · وربما كان يجب أن أعود ، لكى اقتله ، لكى أطبق على عنقه واخنقه · ولن تذهب حتى فى هذه اللحظة تلك الابتسامة التى ترتسم على شفتيه الشاحبتين ، ولن يخفت كذلك ضوء الفسفور الذى يشع من عينيه الصفراوين ·

كنت اضغط باحدى راحتى على الأخرى ، لكى أزيل عرقهما ، فقد خيل الى أنهما تحملان رطوبة جلده ، وكنت اعرضهما مفتوحتين أمام نفسى لكى يتلاشى اللمس المتخيل ، فقد كنت أحاول التخلص منه ·

واصلت السير فترة طويلة على شاطىء النهر ، وكنت التقى بقليل من المارة ، فالناس يأوون الى بيوتهم مبكرين ، ولا يبقى فى الليل سوى الخفراء والسكارى والتعساء ·

كل شيء كان يدفعني الى التكية كي أغلق بابها الضخم وابقى وحدي.
كانت الرغبة في ذلك قوية ، وكانت أشبه ما يكون بتلك الغريزة التي تدفعنا الى الهرب عندما يحدق بنا الخطر ، ولكنني لم أسمح لنفسي بهذا الضعف ، كنت ارفضه ، ضاغطا بالظلم على نفسي ، اذ كنت أعرف أن هذا التراجع المرغوب فيه لن يكون اشد خطرا في وقت كما يكون الآن ، سوف يصغرني ، وينقص قيمتي ، ولن يكون لي بعد حق لاحترام نفسي ، لن أكون مستعدا لكي أفعل على الاطلاق شيئا ، سوف أتلقى مطرق الراس كل ماينهال علي من ضربات ، سوف أكون مسكينا ، وسوف أصبح لا شيء .
لن اجرؤ على التراجع . لقد تحديتهم ويجب أن اقف ثابت القدم .
ولو تراجعت الآن لأجهزت على نفسي .

كنت اخطو على الشاطيء الساكن ، وقد أمتعني صوت جريان الماء في النهر الصغير ، وكنت آمل ان تهدأ نفسي ، لأن الطبيعة وحياتها القوية تهدءان من ثورة الانسان وانفعاله ، وربما كان ذلك من أجل عدم مبالاتهما به . ولكن النهر لم يساعدني فيما كنت آمله ، فقد كان صوت مجراي يعلو صوت مجراه .

لم أكن أحرص على الالتقاء بالمتشرد اسحاق ، فلقد ازددت نضوجا منذ تلك اللحظة التي استولت علي فيها رغبة غير واضحة في أن أسمعه بالمسجد . لم يعد اليوم يهمني رأيه ونصيحته . ان له هدفا ، وهو يتقبل الشدائد كما يتقبل المطر ، كما يتقبل السحب المكفهرة . واما انا فلا أفكر في الشدائد الخاصة . لقد عرفت أن كل شيء يتعلق بي في انتظار الفصل الآن . كل شيء ـ وذلك أمر غير محدد بالتمام ولكنه حقيقي للغاية . ان هذا هو الضياع والوقوف في مفترق الطرق ، انه الخروج عن طريق الحياة ، وليس للانسان طريق آخر سواه ، انه الشعور بالفزع غير المسمى ، وذلك من أجل الفراغ والاتساع الأصم الذي يمكن أن ينبعث حولك .

ربما أتيح لشخص بعيد مجهول أن يقرأ هذه المذكرات الغريبة الخاصة بي ، ولذا اخشى الا يستطيع أن يفهم كل شيء فيها ، اذ يبدو دون شك أنه يوجد للدراويش طريقهم الخاص في التفكير عن أنفسهم وعن العالم الذي يرى فيه كل ما يخصنا متعلقا بالآخرين . لا يمكن أن يكون هناك أحد منزوع السلاح مسلوب اللب مهلك النفس كما نكون نحن معشر الدراويش ، عندما يفصلوننا عن المجتمع . ونحن أنفسنا نكاد لا نتبين ذلك الا بعد حدوثه .

لقد أوقفني الخفير عند الجسر الخشبي القائم عند منعطف النهر ٠ كان يقف في ظل شجرة ، مختبئا ، وهمس لى طالبا أن أختفي ، وقال : حتى يذهبوا ٠ فقد كان بعض الشبان يقومون بالقاء الأحجار على المصباح الذى تركه الخفير بجانب الطريق ٠

عندما انكسر زجاج المصباح وانطفأ النور الأصفر ذهب الشبان فى غير عجلة ٠ كان الخفير ينظر خلفهم فى هدوء ، ووضح لى أن ذلك أصبح عادة لدى الشبان لكى يتلفوا شيئا ما فى كل ليلة ٠ وأما الخفير فيختفى ليحمى رأسه ، وغدا سيدفع الأهالى قيمة ما أتلف ، اذ ليس من الحق أن يدفعها هو من جيبه ٠ ولم أسأله عن سبب عدم اخباره عنهم ، اذ كيف يخبر عنهم وهو لا يعرفهم ؟ هناك ليل ، وظلام ، وبعد ، ومن الممكن أن يكتسب الانسان اثما لنفسه ، وعندما قلت لو اننى فى مكانه لما رحمتهم، أجاب ولما رحمهم هو أيضا لو كان فى مكانى ٠ وأما هكذا ، فهو لا يرى ولا يسمع ، وماذا يبقى له بعد ذلك اذ انه كالبرعم : اذا نفخت فلن تجده أمامك ٠ الله يعلم لمن ينتسب هؤلاء الشبان ، فكلهم قد نالوا حظا من الطعام والشراب ، وبالغوا فى الملبس والأناقة ، لم يحسوا بوطأة البرد ، ولم يشعروا بثقل المسئولية ، يظلون فى تسكعهم حتى الفجر ٠ يذهبون ويجيئون من أجل النساء ، من أجل الكوارث ، لتغفر لى وظيفتى ، والخفير يواصل هربه منهم طول الليل ، يختفى لكى لا يتم لقاء بينه وبينهم ،وعندما لا يستطيع الهرب يقول لهم : اذهبوا قليلا الى منطقة أخرى ، ويردون قائلين : لن نذهب ، فيقول عندئذ : لا تذهبوا ٠ ويردون بقولهم : انك مجنون ! ويقول : اعرف ذلك وكل يوم يزداد جنونى ! فيرد الشبان : أتريد أن نلقى بك فى النهر ، فيجيبهم بقوله : لا ٠ وهكذا يجرى الحديث فيما بينهم ، والخفير يفكر كيف يبتعد عنهم ٠ ويرى أن عملا كهذا العمل يتيح للانسان أن يرى ويسمع أشياء كثيرة ٠ فالليل قد خلق من أجل هذا الذى يعمل فى الخفاء ، والخفير يتعرف سائرا حتى الفجر على ذلك الذى لا يرغب أن يعرفه وذلك الذى لا يهمه ٠ وربما كان يهم عديدا من الناس ، غير أنه لا يود أن يتحدث فى ذلك ، وخاصة عندما لا تكون هناك فائدة : لماذا يضيع الانسان شيئا من الوقت سدى ؟ وأما ذلك الذى يعرفه فهو ليس بحاجة اليه ، لا يستطيع أن يتناوله طعاما أو شرابا ، وفى امكان البعض أن يستخدمه فى شىء ، وان كان ذلك بالنسبة له على شىء من الغرابة : انه يعرف ولا يهمه ، والآخر يهمه ولا يعرف ٠ انه - أى الخفير - يهمه ذلك فى حالة واحدة ،عندما يستطيع أن يهب علمه هذا ، عندما

يستطيع أن يقدمه الى ذلك الذى فى الامكان أن يستفيد منه ، وكل ذلك من أجل المودة والصداقة ، وبالقدر الذى لا يجعله يعود الى أولاده فارغ الكفين • غير انه يقول هكذا فقط : الصداقة ، وعلى الرغم مما يزعم من توفر الصداقة لديه فليس ذلك بصحيح ، ففى الليل لا يراها ، وفى النهار ينام فلا يعرفها • ولكنه بذلك الذى يعرفه لم يحقق لنفسه السعادة فقد بدأ ينظر الى زوجته نظرات التشكك ، خشية أن يكون بنيتهـــا شر تدبره له • انه كان فيما يتعلق بأمر الزوجة يبالغ ويظلم نفسه ، فهى مستعدة أن تنزع من أجله عينا ، تنزع من أجله عينها اذا كان هو فى حاجة الى ذلك ، كما كان يقول على سبيل المثال •

كنت أسمع هذه الثرثرة الحمقاء الماكرة ، هذه المشاكسة الصريحـة لجاسوس بالنسبة للجميع ، مستعد أن يبيع أسرار الآخرين ، تلك التى لا تهمنى ، ولم أكن أتعجل الانصراف ، بل أردت أن أقف فترة طويلة ، مقصرا الوقت بالنسبة لى وبالنسبة له ، كان هو يود أن يحكى ، وكنت انا أود أن أستمع ايا كانت حكاياته ، أخذ يتحدث وأخذت أتابع فى اهتمام كيف كان يحاول اخفاء فكرته ثم يقوم بكشفها على التمام ، حريصا على الاستمرار فى مكره ودهائه •

لقد أصبح عندئذ عجيبا غريبا • انه كبير السن ، يبلغ من العمر خمسين عاما على الأقل ، وكبار السن ينتابهم الملل عادة أو يستولى عليهم الخوف من الانفراد • دعانى أن أصحبه فى جولة بالشوارع ، اذ أننى دون شك لم أرالقصبة قط فى أغوار الليل ، والانسان الحى ينبغى أن يرى كل شىء ، وبخاصة تلك الفترة الجميلة قبيل الفجر ، عندما يبدأ خروج ارغفة الخبز الطازجة من المخابز • ويمكننا أن نذهب الى زقاق حسن اذا كنت تريد ، انه يسمر وينتشى ، فقد جاء بالموسيقيين ، وسنقف نحن فى جانب ما ، وسنستمع ، وليس هذا بذنب ، وبامكانه ادخال البهجة فى نفوس الجميع ، حتى الدراويش • لقد انتابه الحزن عندما لم أوافقه • وردد : كما تحب •• كما تريد ، انها رغبتك ، وياللخسارة حيث لا تريد• لقد عجبت لتلك الدعوة ، فقد كانت تبدو مزاحا خشنا ، أو رغبـــة من رغبات الصبية • والآن سوف ينتظر شخصا آخر •

قال يودعنى :

ـ حسن ، فلتصحبك السلامة •

أكان يخاف من شىء ؟

تركته واقفا تحت سقف أحد الأبواب ، وقد أخفته الظـــــلال ٠ أخذت أفكر فى غرابة العالم ، وأنا أسير خلال الأزقة الحالية ٠ كل شيء يتغير عندما يرخى الظلام سدوله ٠ ليس هناك أوقات محددة للذنوب ، ولكن وقتها الطبيعى هو الليل (والآن ينام الاطفال الصـــــغار العقلاء ، والاطفال الكبار البلهاء ، وهؤلاء الذين تمكنوا من اتمـــام شرورهم خلال النهار) وعلى الدوام عندما يتحقق البعد عن الأنكار ٠

ها هو ما حققناه ، لقد طوحنا بالذنب الى منطقة الخفاء ، وجعلناه بذلك أقوى ٠

اننى أمر بمدينة هادئة ، لا يسمع فيها سوى صوت بعيد يخرج من المزمار ، وأحيانا تطوف بها أشباح الآدميين ، مضطربة كأرواح معينة ، ومارة بى فى بعض الأحايين ، كما تنطلق أصــــوات الكلاب من بعض الدروب ٠ كان ضوء القمر رصاصى اللون اذ ذاك ، ولو هاجمـك الموت وصحت مستغيثا لما انفتح من اجلك باب من الأبواب ٠ وكنت أتوقف بصعوبة فى هذه الساعة التى تمر بى ، فكل شيء فى نفسى يدفعنى نحو ذلك الذى كان أو سيكون ٠ ولكن كان من العسير أن أفلح فى تخطى حدود هذه الليلة ٠ غير أننى كنت احس بها على البعد ، كما لو كنت أنظر من الجبل العالى الى بقعة حزينة من الأرض ، فأنا خارج عنها ولكننى فى نطاقها ، منفصل عنها ولكننى محاط بها ٠ كل شيء فى عالمى هذا يبدو لى صغيرا ، العديد من المواليد الذين يولدون الآن ، العديد من الموتى، الكثير من علاقات الحب ، الكثير من أعمال الشر ٠ فى عالمى هذا ، اذ لايوجد العالم الآخر ٠ فحوله ظلال وأضواء قمرية جوفاء ، وحولنا قطرات الزمن تتساقط فى هدوء ٠ وفى نفسى كانت لا مبالاة عديمة القــدرة ، وسكون خمدت فيه الحياة ٠ لم يعد نور الرؤية فى داخلى ، كما هو الحال لدى غير المؤمنين ٠ أى ذنب يكون هذا الذنب المجهول الذى من أجله تعـــذبنى يا ربى ؟ اننى أدعوك فاقبل دعائى ٠

صلاة وسلاما على اسحاق الذى ليس موجودا فى هذه الليلة ٠

صلاة وسلاما على أحمد نور الدين وعلى أخيه هارون اللذين يطلب أحدهما الآخر فى هذه الليلة ٠

صلاة وسلاما على جميع المفقودين فى هذا الســـكون الكبير بين السماء والأرض ٠

كان لزاما على ان أبقى مع الخفير ، كي لا أكون مع نفسي ومع ضعفي، كي اقاوم أو أقبل ٠

كنت أشعر بالفراغ ، وأحس بوطاة الخمول ٠ ولكنني أحسست بالسرور يعاودني عندما اقتربت من التكية ٠ لم أعد أشعر بذلك الفراغ وأحس بتلك الوطأة من الخمول ، فقد كان خيرا أن يحس الانسان بالفرح أو الحزن من أجل أى من الأمور ٠ وعندما لاحظت تباشير الفرح وبوادر السرور (وكنت أمعن النظر داخل نفسي متتبعا كل ما يحدث فيها كما يمعن الفلاح النظر الى السماء ، الى السحب ، والرياح ، ليرى كيف يكون الطقس) أحسست أنني أصلب مما كنت ، من أجل علامات الصحو التي تظهر من خلال السحب ٠ ان هذه العلامات موجودة وان كنا لا نراها أو نحس بها ، أنها موجودة وان كنا نشك في وجودها ٠

وعندما بدات الخطو في زقاقي الضيق الذى احتواني احتواء ذوى القرابة ، برز شخص ما من ظلال سور التكية ، وظهر في ضوء القمر رأسه فحسب ، كما لو كان يسبح واطل بوجهه فوق صفحة الماء ، كما لو كان قد ترك جسمه في مكان آخر ٠ حياني ، محاولا ان يكون لطيفا من أجل خوفي الذى كان عليه أن يتوقعه ٠ وقال :

ـ لقد ظللت في الخارج طويلا ٠ انني انتظرك منذ فترة طويلة ٠

لزمت الصمت ، فلم اكن أعرف ماذا ينبغي أن اقول أو اسأل ٠ كان وجهه يبدو معروفا لى ، وان كنت لا أتذكر أنني رايته على الاطلاق ، معروفا لى بطريقة ما خاصة ، كما يحدث أن نكون قد لاحظنا بعض العلائم المميزة ، بعض تعابير الوجه ، بعض الصفات التي لمحناها في مكان ما ، في لحظة ما ، في شخص ما ، ثم نسيناها لانها لم تكن مهمة ٠

نظرت الى التكية ، وقد بدت في ضوء القمر هادئة هدوء الموتى ، وعندما أدرت وجهي تجاه الرجل كنت قد نسيت مظهره ، ادرت وجهي اليه مرة ثانية محاولا الآن أن أحفظ وجهه ، ولكن دون جدوى ٠ كان يضيع من ذاكرتي عندما لا أنظر اليه ، وياللعجب كانت شخصيته عديمة الوجود ٠

لقد لاحظ تكرار التفاتي اليه ، فاسرع يقول :

ـ أرسلني الأصدقاء ٠

ـ اى أصدقاء ؟

ـ أصدقاء • لقد ظننت أنك لن تعود هذه الليلة ، وفى التكية لم يستطيعوا أن يخبرونى بأمر عودتك • لقـــد ظللت فى مكان ما فترة طويلة •

ـ كنت أجول فى الشوارع •

ـ وحدك ؟

ـ نعم كنت وحدى حتى الآن • وكنت راضيا •

ضحك فى ادب ولطف وقال :

ـ افهم ، كيف لا !

كان وجهه مسطحا كراحتين يفصلهما الأنف ، وكان فمه منبسطا فى ابتسامة صافية ، وكانت عيناه تحدقان الى فى اهتمام ، كما لو كان سعيدا للغاية بالتقائنا ، وكان يسره كل ما يصدر منى من قول أو فعل • كان من الممكن أن يكون مظهره لطيفا أو طيبا لو لم يكن الليل ولو لم نكن وحدنا • اننى لا أخشى هذا الرجل ، ولا يوجد ثمة خوف فى داخلى ، حتى عن امكان ظلمه واعتدائه ، غير أن احساسا غريبا كان ينتابنى ، فقـــد أخذت اشعر بضيق ما حولى ، واصبحت قليل الصبر •

ـ حسنا يا صديقى ، قل ما تريد ، أو اتركنى لأذهبْ •

ـ كنت تجول فى الأزقة وتضيع الوقت ، والآن أصبحت على الفور هكذا متعجلا ! حاولت أن أمر ، ولكنه وقف أمامى ، وقال :

ـ انتظر • ها هو ما أردت •

كان يبدو مضطربا ، كما لو كان يبحث عن كلمات مناسبة ، او كان يشعر بعدم الارتيـــاح لأنه أوقفنى ، غير انه لم يكن مترددا فى أمر ايقافى •

ـ انك تصعب مهمتى • والآن لا اعرف كيف ابدأ •

ـ لقد انتظرت طويلا ، وكان فى استطاعتك أن تعد نفسك •

ضحك فى سرور وقال :

ـ لك الحق • لم يعد الأمر سهلا معك • وهأنا أبدأ • وربما يكون من الأفضل أن ندخل التكية •

ـ لا بأس ، تفضل ٠

ـ الأمر سواء ، يمكننا أيضا ان نظل هنا ٠ فالمطلب قصير ٠ ممن تظن هذا المطلب ؟

ـ لا أحد يبعث الى بمطالب ، فالأصـــــدقاء يقولون لى بأنفسهم ما يريدون ٠ وأما أنت فلعلك تسخر منى او ترغب فى اغضابى ٠

ـ اتظنني جئت من أجل ذلك ! حقا انكم معشر العلماء مضحكون ٠ وماذا اذا كنت أمزح ؟ اليس في استطاعتنا أن نتحدث كما يتحدث الرجال! لا بأس ، المهم أن الأصدقاء ينصحونك بالتبصر قليلا فيما تفعل ٠

ـ لابد انك أخطأت ، وانك لا تعرف دون شك مع من تتحدث ٠

ـ اننى لم اخطىء ، وأعرف مع من أتحدث ٠ لتكن على بصيرة ٠ انك تتقدم أكثر من اللازم ، وقد يكون فى ذلك خطورة ٠ بالنسبة اليك فيما اظن ٠ لماذا تضع الذنب على عاتقك وخاصة عندما لا يتعرض اليك احـد ٠ لم يحمل الرجل المصيبة وليست له مصيبة ! ألست معى فى هذا ؟

اذن ، فهذا هو التهديد ، وضع للاهانة عن قصد فى فم هذا الشرطى الساذج ، الذى كان يتخذنى الى جانب ذلك مسلاة لنفسه وهو يقدم الى نصيحته ٠ والآن اصبحت بالنسبة اليه شيئا يجذب اهتمامه ، كوحش نادر وقع الشباك أمامه ، وربما كان يحبنى قليلا : فلعلنى أحقق له بعض السرور ٠

قلت مهدئا غضبى ، حيث لم أرد اظهاره أمام هذا الرجل :

ـ حسنا ، قل لأصدقائك ٠٠٠

ـ وأصدقائك ٠

ـ قل لأولئك الأصدقاء اننى اشكرهم لنصيحتهم ، وان كان فى استطاعتهم أن يأتوا ويقولوا لى ذلك بأنفسهم ٠ واما بالنسبة لجميع ما افعله فسوف أكون مسئولا عنه أمام الله وأمام ضميرى ٠ أوعيت ذلك ؟

ـ كيف لا ! غير أننى اظن ان من الممكن أن تكون مسئولا امام احد آخر كذلك ٠ ان مسئوليتك أمام الله سهلة ، تحتمل الغفران ٠ ومسئوليتك أمام ضميرك أمر أكثر سهولة : فسنأتى بمئات المبررات ٠ ولكن عندما

تجد نفسك مكبلا بالأغلال هناك فى القلعة ، فسيكون الأمر ، والله ، أصعب واشد . وبخاصة عندما تعرف أنك واقع تحت سلطان الادانة .

ـ ليس من الممكن أن تلحقنى أية اهانة .

ـ ليس الأمر هكذا كما تدعى . من ذا الذى لا تلحقه الادانة . قل فى صراحة . واليك هذا ، أياتى اليك حسن تاجر الماشية فى التكية ؟ ياتى . أتتحدثان فى أمور مختلفة ؟ تتحدثان . فماذا اذن ...

ـ كيف لا تخجل من هذا !

ـ ليس هناك ما يجعلنى أخجل ، يا أفندى ، ثم اخبرنى الم يختف الهارب فى حديقة التكية ؟ بلى قد اختفى . ألم يهرب ؟ بلى لقد هرب . ومن الذى ساعده على الهرب ؟

ـ لقد ناديت الحراس .

ـ انك ناديتهم متأخرا . واما عن الادانات الأخرى فخير الا اتحدث عنها . وسيادتك تقول : ليس من الممكن أن تلحقنى ادانة ! ومع ذلك هل سألك أحد بشأن هذه الأمور ؟ لم يسألك . ولذا أقول لك أترك البلايا. وأما اذا لم ترد فهذا شأنك . اليس كذلك ؟ ما على الا ان أقول .

ـ هل هذا هو كل شىء ؟

ـ وماذا تريد أكثر من هذا بالنسبة للرجل العاقل يعد بالغ الكثرة . ولكن اذا احتاج الأمر فستجد هناك أشياء أخرى ، وكن مطمئنا. فكلهم هكذا يسألون فى البداية : هل هذا هو كل شىء ؟ وبعد ذلك لا يسألون . اننى أحب الرجال الشجعان ، ولكن أين هم ؟ فى كل بضع سنوات قد نلتقى بواحد أشجع من الآخرين . واحد بين هذا العدد الكبير لتبصق على العالم ! هكذا الامر يسير ، فلا تقل : لم أكن أعرف فهانت الآن تعرف .

كان ينظر الى بذلك الاهتمام الذى كان يبدو منه فى البداية . غير أنه الآن قد انتهى من عمله ، وأراد أن يرى ما حققه ، هل استطاع أن يضرم فى نفسى الخوف .

لقد اثارنى ، ولكننى لم اشعر بالخوف . فقد تغلب على الغضب من أجل تصرفه السىء وايذائه . حتى لقد ظهر لدى العناد ، لكى استمر ، متولدا من الفكرة التى طرأت على فى هذه اللحظة ، والتى أبرزت لى كيف

ارادوا أن يوقفوني عن السير ومواصلة ذلك الذي أفعله بالحق · ان ذلك يعني أنهم غير مطمئنين ، وانهم خائفون : اذ لو لم يكن الأمر هكذا ، ففيم يحذرونني ؟ لقد كان بامكانهم أن يفعلوا ما يريدون ، دون أن يهتموا بذلك الذي أفعله أو اقوله · ان ذلك قد قوى ما بداخلي من ثقة أحملها منذ زمن ، وهي أنني أمثل شيئا هنا ، في هذه المدينة ، في طريقة الدراويش ، وانني لم أمر بالعالم دون ان الفت الأنظار أو أثير الانتباه، وانني لست ضئيل الشأن قليل الأهمية · انهم ليسوا من البلاهة الى تلك الدرجة ، فهم يعرفون ان خسارتهم تكون في مهاجمتي ، اذ بذلك يكشفون امام الناس أنهم لا يحترمون احدا حتى أشرف الناس واخلصهم ، وذلك ما لا يريدونه وما لا يستطيعون تعليله ·

كنت أفكر ، متجها الى التكية وشاعرا بتلك الثقة الزائدة ، على هذا النحو ؛ رأيت ان الخير كل الخير في ارسالهم هذا الرجل : لقد اكتشفوا انهم خائفون ، وباهانتهم حثوا عزيمتي · غير انى كنت أعرف أن نفسى لن تسمح باعطائهم وقتا طويلا ليعملوا ضدى ، وانما يجب على أن اذهب الى ذلك الذى يمكنه أن يفصل في كل شيء · لو لم يكن الليل لذهبت اليه في هذه اللحظة · لقد سرتني هذه العزيمة ، وذلك حتى لا أنتظر وحتى لا أترك نفسى نهبا لحزن فارغ وأمل ضعيف ، بل أفعل كل ما في استطاعتي أن افعله ، اذ لا استطيع ان اسمح لنفسى أن أجول بالأزقة كما يجول النائم سلبت منه الارادة ، أو كما يجول الكسيح امتدت يداه لتناول الصدقات · فليس الانسان بذلك الذى يظنه ، وانما بذلك الذى يفعله ·

ولكن عندما أغلقت هذا الباب البلوطي الثقيل وأحكمت رتاجه ، وعندما وجدت نفسى في طمأنينة حديقة التكية ، وعلى العكس من كل التوقعات ، وعلى النقيض من منطق الأمور ، اذ كان كل شيء هنا يحميني - استولى على ضجر أليم ، انتابني دفعة واحدة دون أن تكون هناك لحظة انتقال ، كما لو كنت قد تركت ، في أثناء فتح الباب واغلاقه ووضع رتاجه وتأكدى من استقراره في موضعه على التمام ، فكرة كانت تذكى حماسى · انها لم تعد باقية بعد ، اندفعت الى الليل كما يندفع الطير البرى ، وظهر اذ ذاك على الفور اضطراب اشبه بالخوف ، لا ادرى مبعثه، ولم أجرؤ أن أفسد أسبابه · وربما كنت أخاف من تلك الاسباب بالذات ولذا كنت أتركها في الظلام ، دون تعرض لها بشيء من الايضاح ، ولكنى كنت أعى أمر وجودها · لقد لفحتنى الفكرة كما تلفحنى الحرارة ، ضربتني

وأظن انها تأتي فجأة كما تأتي الصدمة القاتلة ، كبريق أليم ، اذهلتني كما تذهل الرعود التي تصم الآذان : انهم أخذوا يحيطون بي ٠

لم أتذكر عندئذ ولا بعد وقت طويل أن فكرة الانسان موج غير آمن، ترتفع بالانسان أو تهدىء عواطف خوفه أو رغبته ٠

لقد عرفت شيئا وحيدا ، وعرفته للمرة الثانية ، اذ كنت قد نسيته عرفت أن الهاجس النفسى هو المخبر عن المصيبة ٠

ولكنه حتى هذه اللحظة كان واضحا لى انني لا استطيع بحال أن الجأ الى الاستسلام ٠ فغدا ؛ في الصباح الباكر ، سأقيم سدا محكما امام ذلك السيل المنهمر الذى أسمع هديره ٠

لن استسلم ٠

فلتجف يداى ، وليخرس لساني ، ولتقفر نفسى ، اذا لم افعل ذلك الذى يجب على الانسان فعله ٠

وليقدر الله ما يريد ٠

اديت في الصباح ما على من فروض ، وربما كان ذلك بحيوية اشد من تلك التي أؤدى بها الفروض عادة ، جاعلا حماسي يمتد الى تلك الحركات والكلمات المعروفة ، متذكرا قلقى في الليلة الماضية ، ومفكرا في أهمية ما ينتظرني من عمل ، كما لو كنت أمام معركة فاصلة ، ولم أكن اشك لحظة واحدة في ضرورة ذهابي ٠ رغم علمى أن الانسان قد يصاب في المعركة بجراح وقد يسقط قتيلا ، ولذا كانت صلاتي أحر مما كانت في اى وقت مضى ، غير أن الرجوع أصبح متعذرا ، ومن أجل ذلك لم يكن هناك حاجة لما صدر منى من يمين وقسم اقطع به التردد الذى اعتراني ليلة الأمس ٠ ها قد تذكرت ، ان كل شيء بدا الآن كما كان يبدو قبيل المعركة آنذاك ٠ لقد استحممت عندما وصلت ، وكان يخيل الى أن المياه ستعيد الى هدوئي ، واستحممت كذلك في الصباح ٠ وكان قميصي نظيفا ، ولكنني ارتديت آخر تم غسله حديثا وبدا شديد البياض ، تماما كما حدث من قبل ٠ غير انني ذهبت الى تلك المعركة مع الآخرين ، ذهبت في صف أصلب من الحجر ، بسيف عار في يد عارية ، بسرور حار في عيني ٠ والآن اذهب وحدى ، أيها الزمن النائي الحبيب ، في جبة سوداء تلتف حول قدمي ، وبيدين فارغتين اصابهما الوهن ، وبوجل ينتابني ويسيطر على نفسى ٠

ولكن يجب الذهاب .

مررت في طريقي بحسن . لم يكن لدى كثير من الوقت بسبب تلك اللهفة التي استولت على ، ولكنني مررت به . اذ لو لم اره لما استطعت أن اذهب ، ولبدا لي انني اغفلت شيئا على جانب كبير من الأهمية . على الرغم من أنني لم أكن أدرى لماذا كنت في حاجة الى ذلك : انه لم يستطع أن يساعدنى ، كما لم يستطع أن يقدم الى النصيحة . لعلني فعلت ذلك لأنه اقرب الناس الى ، وان لم أكن أراه قريبا من نفسى . لقد خيل الى أن مرورى به كان من أجل التفاؤل من أجل التخلص من السحر : فمن الممكن ان ياتي صفاؤه بالخير .

لم يكن في البيت . فقد ظللت اقرع الباب فترة طويلة بتلك الحلقة التي علقت فيه ، كنت اظن أنه مستغرق في النوم ، وعندما توقفت عن القرع فتحت لى الباب تلك المرأة الصغيرة ، مخفية وجهها للمرة الثـــانية ، ومصففة بيدها شعرها ، وكانت تبدو مضطربة الى درجة غريبة . لقد أوضحت لى ، متعجلة ومتعثرة في كلامها ، أن حسن ليس في البيت ، لقد خرج في الليلة الماضية ولم يعد بعد ، وزوجها يبحث عنه ، والآن همـا ينتظرانهما . هما الاثنان ينتظرانهما ، في منزل مغلق ، وحالة مضطربة ، وشعور بالرضى عن مصيبة الآخرين التي أتت بالسعادة اليهما .

لقد ذكرت للحافظ محمد المكان الذى ساقصده ؛ حتى أسمع رأيه . ولو قال اى شيء لما غيرت قرارى ، ولكنني رغبت أن يشجعنى ، لقد كان يرعى شعورى كما لو كنت أنا المريض وليس هو . قال ينبغى أن تذهب ، ومن المؤسف أنك لم تذهب من قبل ، ان من واجبنا أن نمد يد المساعدة حتى للغريب الذى يطرق بابنا فكيف بالأخ الشـــقيق . لا تخف فانت لا تفعل شيئا يعد شرا . هكذا قال ، وقد صدر ذلك عنه في صـــدق وانفعال . ولكنه لم يشجعنى تشجيعا كبيرا ، لأننى كنت انتظر هذا ، وكان هو يعرف أننى أنتظره . ان الرجل الصالح دائما يقول ذلك ، وهذا لا يعد رأيا ، بل عزاء فارغا .

لا يوجد حسن : هكذا على الدوام لا تعثر على من تبحث عنه .

شـممت وأنا أمر بطريقى أمام المخبز رائحـة الخبز الســاخن ، وتذكرت أننى لم أطعم شيئا منذ الأمس . كان الخفير يتحدث عن الخبز ليلة الأمس . يجب على أن أبحث عن هذا الخفير اليوم . كيف لم افطن الى أنه يريد أن يقول لى شيئا ؟ ليس عن هذا الرجل الذى كان ينتظرنى

بتحذيره ووعيده فحسب . كيف وقد كاد يستخدم القوة رغبة منه فى أن يبقينى معه لكى أساله . واما انا فقد كنت أصم كما كنت أعمى .

وعندئذ حملت نفسى على التفكير فى زوجة القاضى ، سوف أذهب للمرة الثانية الى هذا البيت الصامت ! وفى حسن ، ماذا فعل ليلة الأمس والى أين ذهب ! وفى والدى ، سوف أخبره فورا بعد أن يحل كل شىء ! وفى الليلة الماضية ، تلك التى اتصفت بالطول والأرق ، وفى عديد من الأمور الصغيرة ، لم يقم أحد بتشذيب شجيرات الزهور فى حديقـــة التكية ، ولسوف تحيطها الأشواك،ومن أولاد مصطفى حيث كثر جلوسهم امام التكية ، فزوجته تطردهم من البيت ، لكى لا يعوقوها عن العمل ، ومصطفى يتمتم ويخرج لهم الطعام ، سوف يضحك منا الناس ، فقـــد بدأوا ينادونهم بأولادالدراويش ، وليس لى قلب يطاوعنى أن أمنع حدوث ذلك ، وفى أشياء أخرى كثيرة تتعلق بأمور يعلمها الله ، وذلك لكى أحول بينى وبين التفكير فى الحديث الذى سيدور بينى وبين المفتى . وليس ذلك لأننى لا أعرف ماذا سأقول ، وانما من أجل ذلك الذى لن يكون بعده شىء . ان الآمال العديدة تظل تراودنا حتى اللحظة التى يصدر فيهـــا الحكم ، وبعدها ليس هناك من شىء سوى ما أتى به الحكم . فاذا كان الحكم خيرا فلا حاجة الى الآمال ، واذا كان على خلاف ذلك فلا قيمة للتفكير

ان بيت المفتى يقع على الجبل ، منفردا ، داخل حديقة يحيط بهـــا سور مرتفع . لم أكن قد دخلت هذا البيت من قبل ، ولن أدخله الآن فيما يبدو .

قال لى الحارس أمام الباب ان المفتى ليس موجودا ، لقد ذهب خارج القصبة .

- متى سيعود ؟
- لا أدرى .
- الى أين ذهب ؟
- لا أدرى .
- من يدرى ؟
- لا أدرى .

ها قد أصبح عبثا كل ما كان يتملكنى من الخوف . ان الامل يمتد ولكنه يأخذ فى الضعف ، وربما عن قريب لن أكون فى حاجة اليه .

لم أكن اعرف ماذا افعل · فلو ذهبت من هنـا لكان من الصعب الوصول اليه ، ولو تم ذلك لكان متأخرا · الى أين ذهب ؟ الى أى بيت من بيوته ؟ الى أية ضيعةمن ضياعه ؟ « أوجسكو » ؟ « أوجليشيتشا » ؟ « جور » ؟ « تيهوفيتشا » ؟ الى السهل ؟ الى البحيرة ؟ الى النهر ؟ فكثيرا ما كان يهرب من كل شيء ، من الحر ، من البرد ، من الضـباب ، من الرطوبة ، من الناس ·

اين هو الآن ؟ لا أحد غيرهم هنا يستطيع ان يقول لى ·

شكوت الى الحارس قائلا :

ـ لا ادرى ماذا أفعل · لقد أوصى المفتى بحضورى ، فلنا معا حديث هام · يجب على أن أجده ·

رفع الحاجب كتفيه ، يكرر بهذه الحركة تلك الكلمة الوحيدة التى كان يعرفها ولكننى ما كنت استطيع بحال ان انصرف ·

ـ لا بد أن يكون هناك فى البيت من يعلم ·

واذ ذاك فتح الباب وظهر رجل نحيف ، جندى سابق ، كما يبدو من خدوش وجهه وأجزاء ثيابه التى كان لا يزال يحتفظ بها على جسمه وقد عز عليه دون شك أن يلقى بها بأكملها ، واخذ ينظر الى فى حـدة وغضب · اننى الى اللحظة التى استطيع فيها ان أبرىء نفسى اعد مذنبا فى نظره ·

قلت له أيضا ذلك الذى قلته للحارس ·

وخيل الى بما بدا على وجهه من علائم الريبة أنه يشك فى صدق كلماتى · لقد جرحنى هذا الارتياب ، ولكننى احسست برغبة قوية فى أن يكون قد داخله الشك حقا · لقد ورطت نفسى بالكذب ، وكنت مجبورا على هذا التصرف ، ولكن اذا عرف المفتى ، ولا بد أنه سيعرف ،فسوف أكون مضطرا أن أطلب العفو لا أن أطلب العدالة ·

قلت متراجعا عن اصرارى :

ـ لا شيء ·

لاحظت عندئذ أن وجه الجندى الصارم تتغير ملامحه ، تنبسط أساريره تنبعث منها ابتسامة ، لماذا ؟

واذ ذاك عرفته انا كذلك • كنا نحارب معا فى وقت واحد ، غير انه كان فى المعركة قبلى وظل فيها بعدى •

لقد فرح كل منا بالآخر •

واخذ يقول فى سرور :

ــ لقد تغيرت ، من ذا الذى يعرفك فى ثياب الدراويش هذه ! ولكن هانا قد عرفتك !

ــ وأما أنت فكما كنت • كبرت قليلا ، ونحفت كذلك ، ولكنك لا تزال كما كنت •

ــ لست هكذا بالتمام كما تقول • لقد مر على ذلك عشرون سنة • ادخل •

وعندما أغلق الباب وراءنا بدا اكثر شكا من ذى قبل •

ــ اطلبك المفتى ؟

ــ يجب أن اتحدث معه • وهذا الحارس لم يشأ أن يذكر لى الى أين ذهب •

بدا للعين خلال الحديقة ابيضاض طريق نظيف ، سوى بحجارة جلبت من النهر الصغير ، وحدد بسياج من شجر البقس (١) وازهار « البيسرك » ذات الوريقات الخضراء الفضة • لقد بعثر احدهم بمهارة فائقة فى هذه الحديقة أشجار الفاكهة وأشجار البتولا وأشجار العرعر وشجيرات الزهور البرية، جاعلا فى بعض الجهات لكل شجرة مساحة خاصة ، وضاما بعضها فى جهات أخرى على شكل مجموعات ، مبدعا هكذا اللعبة التى تشبه الطبيعة ، والطبيعة التى تشبه اللعبة • ان هذا الجمال المزهر المورق فى ذلك الاتساع الضخم يحدث فينا من التأثير ما تحدثه المعجزة ، ربما كان ذلك من أجل ما يدور بفكرى من أن هذا كله قد خلق ، لكى تطأ قدمه الحشائش المتلألئة الخضراء ، ولكى تستريح

---

(١) شجر يشبه الآس •

نظرته عندما تلقى على القمم الناضرة لهذه الاشجار . حقا ان هذا الجمال يبدو اسرافا وترفا .

خفض الجندى صوته . وخفضت أنا كذلك . وأصبحنا نكاد نهمس فى هذه الغابة النظيفة المشذبة التى جردت من وحشيتها وأبقيت لهـــا نضارتها ، فى هذا المتسع الهادىء الذى حال دون مرور العواصف به ما ضرب حوله من سور .

اخذ الجندى ينظر عبر هذا الطريق تجاه بيت أبيض قد توارى بين الأشجار . وأرسلت بصرى الى حيث ينظر . كان يتعاقب على أعيننا الباهر والاخضر ، الحاد والهادىء ،من أثر انعكاس الشمس على النوافذ ، ومن أثر ما تحدثه الأغصان من اهتزاز خفيف .

كان هذا الجندى يدعى « قره زاعم » . وهو الآن ظل من شخصيته السابقة التى كانت تحمل هذا الاسم ، خرقة من ذلك الشاب الشجاع الذى كان ينطلق بالسيف العارى لمواجهة سيف آخر مثله ، حتى شق له السيف الأولانى طريقا بين اضلاعه من الصدر الى الظهر . كم من المرات طعن وجرح ، وقطع وكسر ، قبل أن يصيبه هذا الحادث الاخير ، لقــد فقد نصف أذنه اليسرى ، وثلاث أصابع من يده اليسرى ، وبقيت على وجهه آثار حمراء عديدة لجروح أصابته تم التئامها دون أن يغطيها جلد جديد ، كما كانت هناك جروح أخرى تخفيها ملابسه ، كان يشفى على الدوام من تلك الجروح ثم يعود من جديد الى المعارك . لقــد كان دمه قويا ، ومن أجل ذلك كانت الجروح العميقة فى بدنه الشاب تلتئم فى سرعة . ولكن عندما طعنه السيف الأولانى للعدو محدثا ثقبا تدخل فيه الشمس لأول مرة ، وعندما مر طرف السيف ثم نصــــله بطريق ليس طريقهما ، مخترقا رئته ، سقط « قره زاعم » ، وكاد يموت ، تركوه متقهقرين ، ولمس الجراح عند مروره به يده الباردة فحسب ، وأسرع خلف الجيش ، وفى نيته أن يقرأ له الفاتحة عندما يصل الى مكان أمين . واستيقظ « قره زاعم » فى الليل ، على أثر البرودة ، ووجد نفسه بين الموتى وكان ضعيفا هادئا مثلهم . لقد بقى على قيد الحياة ، ولكنه لم يكن بعــد صالحا للجيش . لقد فقد قوته وسرعته وسروره . وأصبح الآن حارس الحديقة أو حارس البيت أو المسكن الذى يقبل الصدقة .

نظر الى فى سرور وقال ، وأنا أحاول أن أنظر فى هدوء الى وجهه المخدوش :

ـ اننى راض بوجودى هنا · فالعمل ليس صعبا · والمفتى يثق بى · اننى ناظر الحراس ، أدربهم قليلا ، وأراقبهم ، وما الى ذلك ·

ـ كان باستطاعتك أنتكون شيئاآخر · أن تكون حاكما للقلعة ، أن تكون مساعدا لحاكم عسكرى · وكان بامكانهم أن يمنحوك ضيعة كما منحوا الآخرين ، لكى تعيش فيها ·

سأل فى اضطراب :

ـ لماذا ؟ لقد عرضوا على ذلك ولكننى لم أرد · اننى راض · وفى المكان الذى أنا فيه لا يمكن أن يكون أى شخص ·

لقد كنت احس بألم وجراح من أجل هذه النظرات يرسلها فى خوف الى البيت الابيض ذلك الغازى السابق « قره زاعم » · آكان يتعين على أن انظر بهذه الحالة لو أننىقصدت الى هذا المكان ؟ من أى شىء يخاف هذا الذى لم يخف من شىء ؟

قلت دون أن أرغب فى اثارته :

ـ أى شجاع كنت ! يا الهى العظيم ، أى شجاع !

وندمت على الفور · لماذا تحيى فىنفسه الزمن الماضى ؟ لماذا توقظه من السبات ؟ انه لم ينسه ، فهذا غير ممكن ، ولكنه ربما هدأ نفسه أو ارتضى الوضع أو بكى ما كان ورثاه ، فلا حاجة لاثارة جروحه التى كفت عن النزف وتوقفت عن ارسال شىء من القطرات ·

أواه ، اننى كنت أتحدث عن نفسى كذلك ·

لقد فات الاوان ، وليست هناك حاجة لما قيل·

نظر الى مشدوها ، فمن المؤكد أن أحدا لم يتكلم عن ماضيه منذ سنوات عديدة ،ربما كان يتحدث هو من تلقاء نفسه ، ليدفع الآخرين الى قول شىء عنه ، الى ذكر ماضيه الذى كان على صورة تخالف حاضره ، أيكون كل شىء قد انقضى حتى ذكرى هذا الرجل ؟ ألا توجد فى ذاكرة أحد من الناس ؟ وربما كان حديثه عن الماضى قد انقطع ، اذ لأى شىء يتحدث عنه ؟ أو أنه قد ازداد ، اذ كان يأسه قد اشتد بتباعد الماضى عنه ولم يعد يأمل أن أحدا سوفيتذكره · ان كلشىء فى نفسه حى ، وفى نفوس الآخرين قد زال وانقضى ·

وها هو أحد الدراويش قد ذكره ، ذكر ماضيه • يا لهذا القول وما يحمل ! ربما كان يحلم ان يقول احد ما قلت وبهذه الكلمات بالذات يا الهى العظيم ، اى شجاع ! لقد أصابت هذه الكلمات قلبه دون شك ، وسرت خلال دمه كما تسرى الرياح الحارة ، واصمت أذنه ، او لعله كان يرى أن تلك الكلمات من نسج أحلامه ، ولم ينطق بها أحد وانما سمعتها رغبته فحسب • ولكن لا ! لقد قال هذه الكلمات هذا الدرويش العجوز لقد تذكر وقال •

أخذ ينظر الى لحظة فى ذهول ، كما ينظر المصاب بالصرع • ولم أكن أعرف ما اذا كان سيقفز من السعادة ، ثم يرتمى على الحجر فيصبح مهشما ، أو أنه سيعانقنى لكى يبقى على قدميه الضعيفتين ، أو أنه سيضحك ، أو سيبكى ويموت ، اذ ان معرفتى بـ « قره زاعم » لم تكن كافية • تذكرت هذا الشجاع ، لم لا يكون الآن كذلك ؟ لم يكن يخذله سوى اهتزاز صوته ، وما تصدره رئته المخترقة من قرقرة هادئة ،وذلك بسبب ما اعتراه من التوتر :

ــ أتتذكر ؟ أتتذكر حقا ؟

ــ نعم أتذكر • واراك دائما عندما افكر فى هذا الزمن •

ــ كيف ترانى ؟

كان همسه هادئا ، وكان ينادينى من ظلام البعد •

ــ أراك فى شعاع من الضوء يا « قره زاعم » • أراك فى حقل واسع وحدك • تذهب فى هدوء وفى غير التفات ولا تنتظر أحدا • وقد غطى جسدك ثياب بيضاء ، وبدت يداك عاريتين الى المرفقين • فى يدك سيف ربما كانت أشعة الشمس تنعكس على نصله • وكنت تشبه الريح التى لا يمكن ايقافها ، كما تشبه أشعة الشمس التى تنفذ الى كل مكان • كان الآخرون يتوقفون وينظرون • لم يعد لهم الى جانبك وجود • وصمت وحدك •

ــ ما ذهبت هكذا •

ــ ان هذه ذكراى • ربما انمحى ذلك الذى كان ، ولم يبق سوى ما ذكرت •

ــ كم هو جميل • انه أجمل من الواقع ، ولعله لا • تقول انك ترانى فى شعاع من الضوء • ترانى فى حقل واسع •

كان يهمس كأنه ثمل ، ثم أخذ ينظر الى باحثا عن صورته فى كلماتى ، عن مجده الغابر على شفتى ٠

لقد خيل اليه اننى أترنم باغنية عن بطولته ، والحقيقة أننى كنت أرثى له ٠

اننى لا استطيع اكثر من هذا ٠

وهانا اقول له مودعا .

ــ كم سعدت برؤيتك ٠

ــ انتظر ٠

كان من الصعب عليه أن يتركنى ، فقد كان متعطشا الى لقـــاء الرجل الذى يعرف عن ماضيه ، وكنت انا ذلك الرجل ، كنت برهانا على ان الذكريات لا تموت ، وكنت تصديقـــا على أن كل ما فى نفسه ليس ظلا منها فحسب لقد كانت ذكراى تعويضا لنسيان طويل ، كانت جائزة لانتظار بدأ منذ وقت بعيد ٠

كانت كلماتنا واحدة ، ولكن حالتنا النفسية كانت مختلفة ٠ ان هذه الحالة مصدرها أصل واحد ، ومع هذا فقد كان ما ينشر فى نفسه البهجة والسعادة يثير فى نفسى الحزن والتعاسة ٠ ليكن هذا ، فحالتى وحالته يرجع زمنهما الى الف سنة ٠ وربما الى أكثر من ذلك ٠ فليس هناك ما يستحق التوقف طويلا لبحث هذا الأمر ٠

ــ ينبغى أن أذهب ٠

ــ انتظر ٠ ان المفتى هنا ، فى البيت ٠ ادخل اذا كان الامر مهما ٠ قل له اننى سمحت لك ٠ أو لا تقل ٠ قل انه دعاك ٠

ــ انه لم يدعنى ٠ لقد جئت من تلقاء نفسى ٠

ــ أعرف ٠ ولكن قل له هذا فقط : لقد طلبت ان أجىء ٠ وستحول أعماله العديدة دون التذكر ، واذا سأل عنى ، او كانت هناك مناسبة لذكرى فقل ما تعرف ٠ قل ذلك الذى كان منذ زمن ٠

لقد ظننت ان المفتى ليس موجودا وكنت حزينا من أجل ذلك ،ولكنى استسلمت للأمر ٠ وكاد ان يكون الامر لى أيسر بتأجيل المقابلة ٠ والآن قد تغير فجأة كل شىء ، ويجب أن تتم هذه المقابلة التى كنت أتمناها ٠

لقد كنت مضطربا وعلى غير استعداد٠لم أدهش لما كان من طلب «قرمزاعم» أن أذكره ، وانما كنت أشعر بالحزن لانه تنازل فجاة عن ان تكون توصيته مساندة لى • لقد عرض على وكان ما يزال فى أحلام صورته السابقة ، فى شعاع من الضوء ، فى معركة بطولية ، أن يكون سندا لى • غير انه سمح لنفسه بذلك التنازل فىاللحظة عينها ، فور تذكره أن ذلك ليس سوى ماضيه البعيد • لقد اشتعل واحترق فى اللحظة ذاتها • وعلى هذا الوجه المخدوش كانت ما تزال تهتز سعادته من أجل ذلك الذى كان ، ويبدو قلقه المخيف من أجل كل ما هو عليه الآن • هل كان هناك زمنان يتضاربان فى نفسه ، زمنان مختلفان فى كل شىء ولكنهما لا ينفصلان : اذ لا يستطيع الخروج من أحدها •

وبينما كان يهمس فى أذن أحد الرجال عند مدخل البيت ، كنت أفكر فى حيرة ، وبى ندم على ما فاتنى من مساندته الهزيلة ، كيف أصبحت أشبهه فى التخلخل وتزعزع الثقة • كنا فى حزن ننتظر أن يســاعد أحدنا الآخر ، دون أن نثق كثيرا فى أنفسنا • كنا نمزج ضعفين ليخرج منهما واحد ضعيف • لقد بقى لديه أمل ، ولكنه كان يعادل فى قيمته أملى المنهار •

وعنـدما خرج الرجل من البيت ، محـدثا اشارة أو هامسا بكلمة لقره زاعم ، نادانى هذا الاخير باشارة من يده تعنى ، لقد ســاعدتك فتفضل ! ودون أن يقول شيئا أشار بيده الى الطريق نحو المدخل ، ولكنه الآن كان يعنى هذا : ادخل ، ربما سيكون خيرا • أدركت هذا كله بنظرة عابرة وفى شىء من الغموض ، وعلى هذا النحو وبحالة الشحوب التى كنت عليها رأيت شجرة الليمون الشوهاء أمام البيت ، ونخلة أكثر تشوها شفيت من شتائنا الشديد بصعوبة بالغة ، وأخذت تغفى الآن فى شمس الربيع كما يغفى المريض ، لا أذكر بأية أماكن قد مررت ، ولا كم من الناس كانوا يراقبون بأعينهم ، وكنت على الدوام أفكر فى الكلمة الاولى التى سأقولها • الكلمة الأولى ! انها كالسلاح ، كالدرع • فكل شىء سيتعلق مصيره بها ، وليس ذلك لأنها ستوضح شيئا ، وانما لكونى سأفقد كل شجاعة اذا كانت غير مناسبة ، اذ فى امكانها أن تجعلنى مضحكا وتفرض نفسها حكما على • لقد اختبرت فى نفسى عددا لا حصر له من الكلمات ، وكان عجيبا حقا أن يفرض نفسه •

ان كلا من جميع ما دار فى خاطرى كان يفرض نفسه ليكون فكرة أولى • كان ذلك يمثل خللا فى المخ ، ارتجاجا فى الدماغ أفسد النظام

وترك التشوش واستحالة التفكير ٠ وبينما كنت اسير فى هذا الممر الذى ظل فى ذاكرتى مظلما لا يتضح فيه شىء ، كان يخطر ببالى كل شىء ، من الايمان المغلظة الى الشتائم والسباب ٠ اننى لا استطيع أن أدون كل ماكان يريد أن ينطلق من فمى قبيل هذا اللقاء الاول ، قبيل هذه الرؤية الاولى لقد كان هذا جنونا يصعب تفسيره ، وكان على درجة من الغموض كل ما كنت ارتئيه ، كل ما كان يخترعه مخى ، غاضبا وساخرا من كل ما هو معقول ٠ لكأن ابليس نفسه حل فى نفسى ، وأخذ يهمس الى بهذه الكلمات الحقيرة الشائنة ، ويحثنى على الاتيان بهذه التصرفات المضحكة والتى لا تليق بى ، حتى أصبحت مشدوها ٠ كيف تصيدنى فى هذه اللحظة بعينها التى احتاج فيها لتركيز فكرى أشد ! انه يأتى بالذات عندما لاتتوقع مجيئه وعندما يصادفك أمر بالغ الشدة عظيم الخطورة ٠ اذ كان التفكير كما فكرت أنا ، الرجل الجاد والهادىء ، أن اقترب من المغنى وأدعـــوه بالماعزة الانطاكية ، وذلك ما لا يكون الا من غمزات الشيطان الآثمة ٠ ابتعد عنى يا من تمردت على الله ! ـ هكذا كنت أهدده وأكثر من اثارته ٠

لقد حيرتنى كذلك النخلة وشجرة الليمون ، هاتان الشـــجرتان النازحتان من الجنوب ، واللتان استغرقا فى قبرين خشبيين أمام البيت٠ كنت أعرف أن المفتى من انطاكية ، وأنه لا يعرف لغتنا ، ولكن أين انطاكية هذه ، فى أى ارض تكون ،وبأية لغة يتكلم أهلها هناك ، لم تكن الاجابة عن هذا تخطر ببالى على الاطلاق ٠

ولحسن الحظ لم آكن فى حاجة الى الكلمة الاولى ، لم تكن هناك حاجة الى أن اقول أو افعل شيئا ٠

وفى الغرفة التى أدخلونى فيها كان المفتى يلعب بالشطرنج مع رجل لم أره من قبل على الاطلاق ٠ وكان الوضـــع يدل على أن اللعب قد انتهى أو توقف ، فى البداية لم آكن أعرف ماذا حدث ، ولم يكن يهمنى ذلك ، وكان الرجل المجهول الذى تنبىء ضخامته عن عدم تمتعه بالصحة ،وتنفرج أساريره عن ابتسامة وضيعة مرهقة ، يوافق المفتى فى كل مايقول ، ملفقا رأسه نحوى فى اصدار ، لكى يحول اهتمام المفتى الموجه اليه ٠ كان يتمنى لى النجاح دون شك فى جميع ما كنت أرغبه ، وقد فعل كل ما بوسعه لكى يوجه نظر المفتى الى ٠

ولكن المفتى لم يتنبه لفترة طويلة أن أحدا قد دخل الغرفة (فقد كان من الضرورى ان يسمح لى بالدخول عندما سألوه) ، وبالتالى لم يرد على تحيتى ٠

لقد قضى الشتاء بأكمله فى الغرف الدافئة ، خائفا من البرد الشديد الذى كان يزين الأفاريز العليا للمنازل بأهداب بلورية يكاد بعضها يبلغ المتر ، وكان ينظر دون شك الى هذه الاهداب فى خوف وفزع ، وقد انتابه الالم والشحوب كما انتاب شجرتيه اللتين نزحتا من الجنوب ، وعبرتا الشتاء على قيد الحياة فى صعوبة بالغة لتستقبلا ربيعا يعيد اليهما الدفء ويشد من أزرهما فى الحياة ٠ كان يستمتع بدفء الشمس معرضا ظهره للنافذة ، ومتدثرا بمعطف كسى باطنه بالفراء ، وقد امتقع وجهه وبدا عليه العبوس ٠

كان كلا الرجلين على جانب من البدانة ، غير أن شحمهما لم يكن يكسو جسدهما فى نظام وتناسق ، كما كانا على درجة من الشحوب والتجعد وفى حالة من التغضن والاختناق بتأثير جو الغرفة غير المتجدد ، كما لو كانا قد لزما هذه المنضدة السوداء المصنوعة من الابنوس وعكفا على الشطرنج الذى اتخذت قطعه من سن الفيل منذ الخريف الى الآن ٠

كان المفتى يلوم صاحبه بغضب فى البداية ، ثم أخذ يقل تدريجيا كلما تقدم اللوم ، وكانت ارادته تضعف تبعا لذلك ، وكان صاحبه يسلم بما يقول ٠ لقد بدا غريبا أن يقوم المفتى بالسؤال والتأكيد والاجابة ٠ وكنت أفلح بصعوبة بالغة فى التقاط بعض المعانى لهذا الذى يقوله ٠

ـ هناك شىء لم يكن صوابا ٠

ـ أرى ذلك ٠

ـ انك لا ترى شيئا ٠

ـ هناك شىء لم يكن صوابا ٠

ـ طيلة الفترة كان جانبى فى اللعب افضل ٠

ـ أعرف ٠

ـ ماذا ترى ؟

ـ فى موضع ما أخطأت فى نقل القطعة ٠

ـ كيف اذن اخسر ،

ـ هذا ما لا أراه واضحا لى بالتمام ·

ـ لقد اخطات دون شك فى موضع ما عند نقل القطعة ·

ـ من اين جاء هنا فرسك ؟

ـ ها هو موضع الخطا · اننى لم أستطع ان آتى الى هذا الموضع ·

ـ اذن احذر الملك ·

ـ صحيح · ها هو الشيخ قد حضر

ـ لماذا لا تلاحظ ؟ انى لا أستطيع أن أرى كل شيء ·

ـ ان ذلك لا يحدث لى فى العادة ·

ـ اذا كان الفرس هنا فأنا آكله · أليس كذلك ؟ انا آكله ·· آ آ آكله ·

ـ ومات الملك ·

ـ اى شيخ ؟

أشار الرجل الى سعيدا ، واستدار المفتى · كان وجهه أصفر مغبرا وقد لحقه الذبول ، وبدا انتفاخ شديد أسفل عينيه · سألنى دون أن ينهض :

ـ أتلعب الشطرنج ؟

ـ العبه فى ضعف ·

ـ ماذا تريد ؟

ـ انك طلبت أن أجيء · ورجوت أن اتحدث معك ·

ـ أطلبت ؟ نعم ، نعم · الى من طلبت ؟ كيف الجو فى الخارج ؟

ـ مشمس حار ·

ـ وفى الشتاء كانوا يقولون هكذا : ليس باردا ، هل فصول الشتاء شديدة هكذا على الدوام ؟

ـ يكاد يكون على الدوام •

ـ فظيعة هذه البلاد •

ـ الانسان يتعود •

ـ عملة هذه البلاد • اتلعب الشطرنج ؟

تدخل الرجل البدين وقال فى هدوء :

ـ انه لا يلعب • لقد قال ذلك •

ـ وماذا يريد اذن ؟

ـ له مطلب ما •

ـ من هو ؟

ذكرت من انا ، وبينت ان كارثة المت بى ، وأننى أطلب العدالة • واذا لم اظفر بها عنده فلن اظفر بها عند أحد •

واذ ذاك نظر المفتى الى الرجل الجالس امامه ، دون ان يخفى ملله ، واليأس يكاد يغلبه •

فى اى شىء اخطأت ؟

نهض المفتى وتلفت يمنة ويسرة ، كأنه كان يبحث عن طريق يمكنه من الهرب ، واخذ يقطع الغرفة جيئة وذهابا ، واطئا ارضها التى غطتها الشمس فى تمهل وتؤدة • ثم توقف واخذ يفكر ، ناظرا الى فى سرور ، وانبرى يقول :

ـ لقد تحدثت بشأن العدالة مع قاضى استامبول • كنت أحب أن أتحدث معه أحيانا ، لا بوصفه رجلا عاقلا ، اذ الرجال العقلاء باستطاعتهم ان يجلبوا الملل الشديد ، وانما بوصفه رجلا يعرف أن يقول شيئا لم نكن نتوقعه شيئا يفاجئك ويثيرك ـ هل تفهم هذا يا مالك ، انك دون شـك لا تفهمه ! ـ وأضاف : ما الذى يجعلك ترى أن هناك قيمة للاستماع ، والاجابة • وأخذ يواصل بقوله : ان معرفة الانسان ضئيلة • ولذا لايعيش الرجل العاقل بذلك الذى يعرفه • ولكن ، اردت ان اقول شيئا آخر •• عن أى شىء كنت اتحدث ؟

قال مالك :

ـ عن قاضى استانبول •

ـ لا ٠ عن العدالة ٠ قال ذلك القاضى ذات مرة : اننا نظن أننا نعرف ما هى العدالة ٠ وفى الحق ليس هناك شىء أشد غموضا منها ـ يمكن أن تكون قانونا ، ثأرا ، جهلا ، ظلما ٠ وهذا كله بحسب الموقف ـ ها قد أجبت ٠٠٠

اخذ يواصل سيره فى الغرفة ، صامتا ، منهوك القوى ، وخيـــل الى أن بداخله لولبا يحركه ، يدفعه بكلمة ، يحيى النشاط فى جسده ـ وعندما يتوقف اللولب يكف عن الحركة ، وتنتابه السآمة ٠

لم يعرض على الجلوس ، ولم يكن يهمه ما أردت أن أقول ، فلم يبق لى الا أن اتحدث او انصرف ٠فقد اوشكت انا كذلك بهذه الطريقة ان اصبح مالكا ، ان أكون الظل الثانى للمفتى ، لا حاجة اليه كما لا حاجة الى الظل الأول ٠ لقد قررت أن أتحدث ٠

ـ جئت من أجل مطلب

ـ انني متعب ٠

ـ ربما كان فيه جذب لاهتمامك ٠

ـ أتظن ذلك ؟

ـ سأحاول ٠ لقد تحدثت عن العدالة ٠ انها مثل الصحة ، تفكر فيها عندما تفقدها ، وحقا انها شىء غامض ، ولكنها ربما تكون رغبـــة زائدة ليخنق بها الظلم ، وهو شىء واضح معين ٠ ان حالات الظلم كلها متساوية ، ويخيل الى الانسان أن ذلك الظلم الذى لحقه هو الظلم الاكبر ٠ واذا حدث هذا التخيل حقا لما تخيله صحيح ، اذ لا يستطيع الانسان ان يفكر برءوس الآخرين ٠

اشتد لولب المفتى للمرة الثانية ٠ لقـد نظر الى مشدوها وتوقفت عيناه المنتفخ أسفلهما عند تحمـل الاعتراف ، لم يكن اعترافا على درجة كبيرة ، ولكنه كان كافيا ليبعث فى الشجاعة ٠ لقد أثرت اهتـمامه ٠ وهذا هو ما أردت: لقد علمنى هو ذلك بقصته المشوهة عنقاضى استانبول٠

وقد رأيت منذ لحظة أن لعب الانسان بالكلمات يتحدث بها عن الامور العامة الخاصة التى تتعلق بنا ولا تتعلق بالآخرين ٠

قال المفتى ، فى انتظار مواصلة الحديث ، وقد القى على مالك نظـرة ملؤها الاحترام :

ـ انه شيء ممتع ، ممتع حقا · ولكن هل يستطيع عدد من الناس أن يفكر بتفكير واحد ؟ واذا أمكن هذا فهل يفكر كل فرد من أفراد هذا العدد اذ ذاك بفكره أو بفكر الآخرين ؟

ـ ان تفكيرين حقيقيين لاثنين من الأناس لا يمكن بحال من الاحوال أن يكونا على صورة واحدة ، كما لا يمكن أن يكون ذلك بالنسبة لراحتي اليدين ·

ـ ما هو التفكير الانساني الحق ؟

ـ انه ذلك الذى لا نقوله عادة لأحد ·

ـ قول جميل ، ربما ليس صحيحا ، ولكنه قول جميل · وماذا بعد ؟

ـ لقد اردت أن أتحدث عن مصيبتي · قلت انها تبدو أكبر مصيبة لأنها مصيبتي · ولكن كنت أود لو انها تخص الآخرين ، اذ لو كانت كذلك لما تعجلت معرفتها ، كما أتعجل الآن قولها ·

اردت ان أنتقل من القضايا العامة الىذلك الذى يؤلمنى ، طالما يحركه اللولب ، طالما تحيا عيناه ، اذ كنت أخشى أن يفقد قوته عن قريب ،وعندئذ ستدور كلماتي حوله ولن يكون لها تأثير أو صدى ·

اخذ يتضح لى بمرور الوقت أن السأمة والملل يعذبانه · كان الملل ينسدل عليه كالستار ، يغشاه كالضباب ، يلتصق به كالصلصال، يحوطه كالهواء ، يتغلغل فى دمه ، فى تنفسه ، فى مخه ، ينتشر منه ومن كل شيء حوله ، من الأدوات ، من الفراغ ، من السماء ، وينهمر كالدخان السام · وكان ذلك يحتم على أن أنهار آنا الآخر ، أو أحارب ضد هذا الملل ·

لا أبالغ اذا قلت اننى لو كنت واثقا من اننى سأبدد ضباب المستنقعات فى نفسه ، لجمعت أطراف جبتي ورقصت الرقص الشرقي ، ولفعلت كل ما يصعب أن يخطر ببال الرجل العاقل · ولربما دفعه اهتمامه ، قبل أن يخمد ، الى تحريك يده الصفراء الضعيفة لتكتب ثلاث كلمات يكون فيها الحل : الافراج عن هارون · وذلك دون أن تدرى ماذا كتبت ، ودون أن تتذكره الى الأبد · نعم لفعلت كل شيء ، كل ما يوصف

بالجنـــون ، كل ما يرى انه قبيـــح . ولمـــا خجلت فيما بعـــد ، بل لعلني أتذكر في فخر كيف تغلبت على صورة ميتة من صور اللامبالاة ،من اجل رجل حي ، من أجل أخي . ولكنني لم اجرؤ ان اغير اللعبة ، فقـــد رأيت أن مراوغات الفكر قد أفلحت في ايقاظه للحظة ، لقد بدت بمثابة الحشيش ، وكان لزاما على أن اعطيه أكثر ، لكيلا ينتابه خمول أشد .

لقد كانت هذه المعركة تفوق في غرابتها ما كنت اسمعه في حياتي كانت معركة ضد الخمول في نفسه ، ضد شلل الارادة ، ضد تقزز من الحياة ، وقد زاد من شدتها وضراوتها أنه كان يتحتم أن تنشب باسلحة غير طبيعية ، بتفكير معكوس ، بمداخلة قبيحة بين مشاعر غير متفقة ، بانتهاك حرمة الكلمات . غير أني كنت أخشى ، وكم كانت خشيتي ، أن يموت اهتمامه في اللحظة التي أتوقف فيها عن اللعبة وأنتقل الى الغرض الأصلي الذي فعلت من اجله كل ما فعلت . لقد كان لزاما على أن أحلق فوق الهدف الحقيقي ، مقتربا منه ، ومخفيا اياه ، اذ كان باستطاعة حواسه أن تغلق من تلقاء نفسها فور احساسها به .

ولحسن الحظ لم يكن مرائيا ، ولم تكن مرآة وجهه تخفي شيئا : لقد كان الرجل يبدي كل شيء ، وكان كل شيء يرى فيه ، الاعجـــاب والاشمئزاز . ولذا كنت أقود فكرتي الطائشة حسب ما يظهر على وجهه من ظلال واضواء ، مغتبطا بتلك الدلائل الهادية ، اذ كان في الامكـان الا يكون لها وجود .

كان كل شيء فيه يقول : فاجئني ، أيقظني ، أدفئني ، وقد كنت أفعل ، كنت افاجئه ، اوقظه ، أدفئه ، خائضا معركة مريرة ، أشـــعر على الدوام أنني على حافة الخوف من عدم النجاح ، لكي أحتفظ بالحيـاة لرجل محتضر ، تجمعت فيه كل آمالي . لقد عكست التفكير ، وحفرت في زوايا النفس - محموما - لكي أجد بعر الشيطان في داخلي ، وخضت معركة مع الميت ، كي لا يكون هناك ميت آخر ، وارتحت للحظـة عندما جلس المفتي في شيء من الاهتمام ، وفي شيء من الحيوية في وجهـــه المتغضن ، وعندئذ بدات اجنحة آمالي تريش .

هذيت دون أن أدري ما اذا كان هذا كافيا :

- لي أخ ، ولو لم أتعجل اخبارك عنه لاستطعت ان اقول كان لي أخ ، و « لي وكان لي » تعادل « لي وليس لي » . ويمكن لكلمة تنطلق في لحظة من فم رجل يحمل ارادة سيئة أو ارادة حسنة أن تفصل في امره . انه

أخي ، لا لأنني أردت ذلك ، اذ لو اردته لصنعته انا ، ولما كان اذ ذاك أخي ، ولا أدري كذلك هل اراده والدي ، ولكن عندما اجتمع بوالدتي ، وعندما دخلت قطرة كدرة الى الرحم ، من أجل الارضاء لنفسيهما ؛ من أجل اللا شيء لنفسي ، نبتت علاقة والتزام نسميهما الابن والأخ • وسواء أكان سلوى مرغوبة أم مصيبة ألفناها فالله سبحانه يربطه بنا دون أن يكون لنا رأي في هذا ، ويحرمنا من جميع مسراته ، ويحملنا جميع شدائده ومصائبه ، والمصائب كما يعرف عقلك المفضال أكثر وقوعا من المسرات ، فعلى هذا نستطيع القول ان الأخ مصيبة يرسلها الله الينا ، ولذا نقبلها على أنها ارادة الله وقدره شاكرين له كل ما يأتي به • وهكذا ، ها نحن ، نقدم الشكر لله على المصيبة ، وكم وددت ان يكون هو اخاك ، لكي اشكر على السعادة باستماعي اليك ، كما تستمع الى الآن ، اذ يكون الامر بالنسبة الى سواء • ولكن ، حيث لا يمكن أن يكون هو أخاك ، لأنه اخي ، وحيث لا أستطيع أنا أن أكون أنت ، لأن الله قدر ان اكون درويشا ضعيفا وحسب ، فلنكن ذلك الذي نحن عليه في الحقيقة : أنا أرجو وانت تقرر : أو الأفضل : أنا اقص وانت تستمع • انني أعرف أن الأمر بالنسبة اليك اشق • أنت غير ملزم وانا ملزم •

لقد أيقظته ، أحييته ، انه ينظر ، يستمع ، يفهم ، يقبل ! لم تكن هناك ضرورة للرقص ، فقدكانت تكفي كلمات فارغة ، اتركها لتنطلق كالريح ، لتقفز كالقرود في كل اتجاه ، لتجري طائشة بين اشعةالشمس وبين ظلال الغرفة ، كالمجنونة ، ها هو قد هدأ في كرسيه ، يستمعوينتظر

وفي حيوية كافية انطلق يقول :

ـ وماذا بعد ؟

وكان طله الأول يمعن النظر الى ويتعجب ، ربما كان يتعلم • انني لا أنظر اليه جيدا ، لأنه لا يهمني • وانما أتطلع الى وجه المفتي •

هناك أمل يا اخا هارون !

ـ وهأنذا ، لدي أخ ، أو لدي نصفه : انني أذكر اسمه ، وهو مسجون في القلعة • ان نصف حياته هنا ، ونصفها الآخر هناك • واذا فقد هذا النصف كان في الامكان أن يفقد النصف الآخر •

ـ أي نصف ؟

ـ النصف الذي أمسك به متحدثا اليك ؟

ـ أية قلعة ؟

ـ القلعة التى تقع بأعلى المدينة ٠

ـ الامر سواء ٠ استمر ٠

ـ انهم فى القلعة يسجنون رجال السوء ، اللصوص ، الاشرار ، قطاع الطرق ، أعداء السلطان ٠ وذلك احيانا ٠ وفى اغلب الاحايين يزجون بالحمقى فى السجن ، حيث يظن هؤلاء انهم ليسوا مذنبين ، ويظل امر اتهامهم على الدوام غير معلوم لأحد ٠ انهم يعملون فى اصرار لتقويم اعوجاج النهر ، وهذا ليس من شأنهم ، ولا أحد يطلب منهم ذلك ٠ وكيف يفخرون بهذه الحماقة ، ومن السهل ان يقبض عليهم ، ولذا كان عددهم فى السجون اكبر ٠ وبحسب هذا يمكننا ان نستنتج أن الناس العقلاء فحسب هم الذين يتمتعون بالحرية ، وليس الامر كذلك : اذ يتمتع بالحرية أيضا هؤلاء الحمقى اذا كانوا يستطيعون التخفى ٠ ولا يتمتع بها العقلاء اذا ما كشفوا عن انفسهم ٠ ويتمتع بالحرية بعد ، أولئك الذين يملكون ان يكونوا كما يريدون ٠ ان اخى كان رجلا عاديا ليس له من الامر شىء ، وكان سعيدا ، لم يكن عاقلا حتى يكون لهم منه خوف ، ولا أحمق حتى لا يكون فى وسعهم أن يعرفوا ماذا يفعل ، كان من الجبن بحيث لا يمكنه أن يكون قاطع الطرق ، ومن السذاجة بحيث لا يمكنه ان يكون خبيثا ، ومن الكسل بحيث لا تتوافر له الامكانيات لكى يعادى أحدا ٠ وبكلمة واحدة ، قدرت له العناية الالهية ان يحبه الناس دون أن يقوموا باحترامه أن يعترفوا بقيمته دون ان يطلبوا منه اظهارها ٠

ـ لماذا سجن ؟

ـ لأنه لم يطع والده ٠

ـ عجيب ٠

ـ ان الوالد رجل بسيط ، يعمل على قدر استطاعته ، ويعطى ما يجب أن يعطى ، لا يهتم بشىء سوى المطر ، السحب ، الشمس ، آفة الأشجار جعلان البطاطس ، القمح ، الذرة ، هدوء العائلة ٠ وحيث انه رجل بسيط جدا ، ومكون من قطعة واحدة كما هو حال الملعقة الخشبية ، والقصعة المصنوعة من شجر الزيزفون ، ومقبض المحراث ، فانه لم يتنازل عن تلك العادة الابوية التى لم تعد تلزم بعد ، وهى ترديده ذلك الذى يردده الآباء دائما ولكن الابناء لا يسمعونه ٠ لقد نصحه بعدم الابتعاد عن البيت ،

فالأرض ستصبح خالية ، والمدن ستضيق بالناس ، ستصبح مكانا صغيرا لأفواه كثيرة ، وستكون الامكانيات فيها قليلة والرغبات كثيرة ، وسوف يتقاتل الناس من أجل كسرة من الخبز أكبر · ولكن أخى لم يطعه ، واذ ذاك قال الوالد : تذكر ، ان المصيبة لدينا ان أحدا لا يعتقد أنه فى مكانه الصحيح · وقد أصبح من الممكن أن يكون لكل انسان منافس ، فالناس يحتقرون أولئك الذين لا ينجحون ، ويكرهون أولئك الذين يعلونهم بالترقية ، فاذا رغبت فى الهدوء فتعود على الاحتقار ، واذا ارتضيت الدخول فى المعركة فتعود على الكراهية · ولكن اذا لم تكن واثقا من أن تصدع عدوك فلا تدخل المعركة · لا تشر ببنانك الى عدم شرف الآخرين اذا لم تكن لديك القوة الكافية لكى تبرهن على ذلك · حتى فى هذا لم يطعه · وللوالد الآن أسباب ليفرح ويقول : ها هو مصير الابناء غير المطيعين ·

لاحظت فى فزع وأنا أتحدث الى المفتى أن الضوء الخافت فى عينيه أخذ يخمد ، وبدأت تثاقل عيناه وينال منها التعب ، كما ضاع من صفحة وجهه ما كان لى بمثابة الدلائل المرشدة · سألنى وهو يفتح فمه بصعوبة بالغة :

ـ من ذا الذى لم يطع ؟

يا الهى يا عظيم ! كلما تقدمت فى الخطو ابتعدت · كلما قربت من ذلك الذى أهدف اليه انتابه الخوف والفزع · كلما أردت أن استفيد مما بنيته أسرع يهدم كل ما بنيت · ان عملى ليس له نهاية !

اندفعت أقول دون وعى · فما زالت فى نفسه جمرة لم تنطفىء ، ولو لم تكن لما استطاع أن يسألنى حتى هذا السؤال · ها قد أصبحت غير ممتع ، اتعبته بالتفلسف لم أكن أتلاعب وانما كنت اسخر · لقد أثار السخط حماسى ، وبدأ كل شىء يرن جادا · وأحسست بدوار شديد يستولى على رأسى : أرجوك أيتها الجمرة ، انتظرى قليلا ، لا تخمدى وظلى لحظة واحدة ·

أخذت البقايا الأخيرة لضوء الشمس فى الزوال ، وكنت ما أزال فى مكان أحس بوحشته وبرودته ، وأمامى ليل طويل محتضر · ولم تكن لى الجرأة لكى أصيح ·

لقد فقدت ثقتى بنفسى ، وزالت عنى تلك السهولة التى كنت اتلاعب بها بالكلمات ، وكنت احس بأن هذه الكلمات لن تنطلق بعد ، ولن تضرب بأجنحتها فى الفضاء ، وانما ستحبو على الأرض كما تحبو السلحفاة ·

كنت أدعو الله فى يأس ، ولكن دعائى لم يساعدنى ، كنت أدعوه قائلا : يا ربى ، ادعوك لتمدنى بحفنة من الكلمات الحمقاء ، لا تبخل على بها لأننى أحارب من أجل حياة واحدة ! لقد قتلنى ما عكسته لى صفحة وجهه من عدم اصابتى الهدف ، وذلك بما ضاع منها مما كان لى نعم المرشد والمعين ٠

. الى أين تتلاشى يا أخا هارون ؟

لم تكن هناك حاجة لكل ما قلته بعد ذلك ، فقد كان دون جدوى ، ولكن كنت مجبورا ان أكشف عن نيتى ٠

كان الملل يطغى على المفتى فى سرعة متزايدة كلما تقدم الوقت ٠ وكان ينزلق فى مستنقع ضعف ارادته الميتة ٠ وكنت أرى ان العالم سيبدأ فى الفناء من أجل هذا الرجل ٠

أما مالك فكان ينام ملقيا برأسه على صدره ٠

قال المفتى وقد كاد أن يتملله الفزع مثلى :

ـ اننى متعب ٠ متعب ، اذهب الآن ٠

ـ لم أقل جميع ما اريد ٠

ـ اذهب الآن ٠

هرليفرجوا عنه ٠

ـ عمن يفرجوا ؟

ـ عن أخى ٠

ـ جىء غدا ٠ أو قل لمالك ٠ اذهب وتعال غدا ٠

استيقظ مالك فى دهشة وسأل :

ـ ماذا حدث ؟

ـ يا إلهى ، ما هذا الملل ٠

ـ أتريد أن نلعب بالشطرنج ؟

ـ لم يحدث شىء ٠

لقد كان يجيب في تضارب ، متخطيا بعض الأسئلة ، محتفظا في عجب ببعض الكلمات يورد الاجابة عنها متأخرا ، فتبدو ولا معنى لها على الاطلاق ٠

خرج المفتي دون أن ينظر الينا ، وقد قتله الملل ، ربما كان قد نسي أننا هنا ٠ وربما اراد أن يهرب ٠

لم استطع الانتصار على الملل ٠ لقد تغلب هو علينا معا ، وكدت ارغب في الانصراف لو عرفت كيف يبدو الملل لما جرؤت أن اذوق طعمه ٠

نظر مالك الى نظرة تحمل الغل والكراهية ، ووثب يحمل جسمه الثقيل منطلقا وراء المفتي ٠ وقلت :

ـ طلب الي أن احضر غدا ٠

ـ انني لا أعرف شيئا ٠ اوه ٠ لقد أهلكتني ٠

وهكذا انتهى هذا اللقاء ٠ ربما كان ينبغي أن امسك باذنيه ، أو انقره في جبهته الصفراء بطرف سبابتي عندما اطلقها من قبضة الابهام ٠ وللمرة الثانية لم أكن أعرف اين تقع انطاكية ، ولا بأية لغة يتكلم اهلها٠ لقد خيل الى طول فترة هذا اللقاء انني واقف على راسي ، وأنني معلق بين الأرض والقناديل ، وانني أعاون بكتفي في حمل السقف ، وكنت اذ ذاك فاقد الوعي ، وفي حالة تشبه الجنون من أجل سآمته ورغبتي في التغلب عليها ٠ لقد كنت اتحدث بلغة غريبة حقا ، ولكن ذلك لم يجد نفعا ٠ ربما يكون الأمر غدا دون جدوى كذلك ، فسوف يضعف من قوتي عدم نجاحي اليوم ٠ يجب أن أجيء ، وسأجيء مرتعد الفرائص ، ولن أعرف اين تقع انطاكية ـ لعنة الله عليها ـ كما لن أعرف كذلك كيف يدعى ابن والدتي، سوف نتعب للمرة الثانية كما يتعب الزوجان المسنان في الليلة الثانية لزواجهما بعد أن مرت الأولى في أسف وحزن من جراء الفشل ، غير أن الأمور في المرة الثانية ستستغرق وقتا أقصر ، اذ لن يكون هناك امل كبير بالنسبة لي وله ٠

والآن ليس ثمة ما يدعوني لأن أتعجل ٠ فاليد الصفراء المتثاقلة لم تكتب في لحظة انتعاشها القصير : الافراج عن هارون ٠

اترى من أجل هذا وصل السجين هارون الى غياهب اشد ظلمة ؟

خرجت ، اخرجوني ، دلعوني ، وأمام البيت كان ينتظرني « قره زاعم » المنسي ٠ لقد نسيه الناس بعد عشرين سنة ، وانا نسيته بعد

ساعة واحدة • غير انه وحده لا يستطيع النسيان ، وهكذا العادة في بني الانسان •

قال ناظرا الى فى تطلع :

ـ لقد ظللت عنده طويلا •

ـ اتستغرق المعركة وقتا اقصر من هذا ؟

ـ عادة يخرج الزائرون بسرعة • وعادة يخرجون وهم فى حيرة •

ـ هل أنا فى حيرة ؟

ـ لست أرى ذلك •

لم تكن عينا « قره زاعم » صافيتين تمام الصفاء • فليكن كما يقول •

ـ لقد تحدثنا عن كل شيء •

ـ وعنى ؟

ـ طلب الى أن أحضر غدا •

ـ هكذا ! اذن غدا •

وللمرة الثانية كنا نسير فى الطريق المغطى بالأحجار البيضاء المستخرجة من النهر • وسنسير مرة أخرى فيه غدا •

ظننت انه لن تكون لدى قدرة للتحدث مع « قره زاعم » ولن يكون فى استطاعتى أن اسمع ما يقوله لى • ولكنى سمعت وكنت أجيبه ، وان كان كل شيء معكوسا ، وان كنت ما زلت اقف على راسى ، وقليلا قليلا أخذت أعود الى الحالة الطبيعية للوقوف ، واثقا ان كل شيء سيبدو لى بصورة أغرب عندما أعود الى نفسى • سوف يظهر لى كتهيؤات سكير ، كحلم سيء ، وساعتقد أننى وقعت تحت تأثير السحر ، وأن شيئا لم يحدث فى الواقع •

ان « زاعم » لا يعلم ماذا يحدث فى داخلى ، فهو يعتقد أننى نجحت ويقول :

ـ ان دعوته اياك للحضور غدا يدل على الخير ، فهو عادة لا يفعل ذلك مع أحد • ان هذا يعنى أنه معجب بك ، وانك قد نزلت فى نفسه •

لست بالغ الحكمة ولست عظيم الفصاحة يا « زاعم » ياذا الصديق الطيب • نعم ، انني أعجبته ، اعجبته جدا ، لقد ذهب وهو يكاد يختنق ، وسنواصل العذاب غدا •

أخذ « زاعم » ينظر الى في حيرة ، باحثا عن بعض الكلمات • ثم قال :

ـ هانذا اردت أن أرجوك •

أكان ينظر الى وجهي ليرى أيخمد من كلماته ؟ انني اشـــجعه دون ارادة ، وقد أخذت أتذكر :

ـ قل يا قره زاعم ، قل في حرية ، فهناك شيء يعذبك •

هكذا كان يجب أن يقول لي هذا المفتي منذ قليل •

ـ لا ، لا شيء يعذبني • ولكنهم هنا لا يعرفون من أنا ، انهم يظنون انني هكذا رجل مصاب بالربو ولم أكن شيئا فيما سلخت من حياتي • لا اقول هذا بالنسبة للمفتي ، وانما اقوله بالنسبة للآخرين •

ـ هل حدث لك شيء ؟

ـ لم يحدث • يقولون انني لم اعد صالحا للوظيفة •

ـ أيستغنون عنك ؟

ـ تصـــور ، يستغنون عني • ولذا أرى أن تقول للمفتي اذا كان باستطاعتك كي يبقيني • لست صالحا بعد للجندية • ولكني استطيع ان أحرس الباب ، واكون في هذا أفضل من الآخرين • انني اتقاضى مائة قرش في السنة •••

ـ ان المفتي يتقاضى اثني عشر ألفا •

ـ المفتي شيء آخر • وأنا اقول اذا كانوا يســـتكثرون المـــائة ، فليقللوا الراتب ، ليجعلوه ثمانين ، ليجعلوه سبعين ، أترى سبعين قرشا في السنة كثيرا ؟ ها هو ما اردت •

في الواقع ليست السبعون قرشا في السنة مبلغـــا كبيرا • ولن تصبح بها مدينا ـ يا زاعمي ـ الذي اخطأت خطأ كبيرا اذ لم تمت في الوقت المناسب • وأرجو الصفح لعدم استطاعتي أن أرثى لحالك ، فقد

كنت في صراع مع الشيطان الاسود وأصبحت مفكك الجسم كله ولم تعد عظمة من عظامي في مكانها ٠

قلت دون أدني تفكير :

ـ انك لم تعد صالحا للجيش ، ولكنك تستطيع أن تحمل البندقية، وكذا تستطيع ان تحمل السيف الأحدب ٠ كم تطلب اذا اردنا أن نقـوم بانقاذ رجل برىء ٠ لقد سجن لوجه الله ، لم يرتكب ذنبا ٠ أتوافق لقاء مائة قرش ؟

انتابته حيرة ٠ ثم قال :

ـ لا أدرى أتختبرنى ، أم تتكلم عن شيء يمكن تنفيذه ٠

ـ أجبنى ٠

ـ ليست الاجابة سهلة ٠ لو أننى كنت « قره زاعم » زمانى لما أخذت شيئا ٠ والآن ، اذا كان العمل شريفا ٠٠ مائة قرش ؟

ـ مائتين ٠

مائتى قرش ! يا الهى يا رحيم ٠ ثلاث سنوات استطيع ان اعيش بمائتى قرش ٠ وأكون مع ذلك قد انقذت رجلا بريئا ؟ أين هو ؟

ـ فى القلعة ٠

ـ يعنى ، مائتى قرش ٠ وانقاذ رجل برىء فى القلعة ٠ لا يمكننى٠

ـ لو كان ذلك قبل عشرين سنة لوافقت ؟ وحتى لو كان فى القلعة؟ بشرط أن يكون بريئا ، ومسجونا دون ذنب ؟

ـ نعم لوافقت ٠

ـ والآن لا توافق ؟

ـ والآن لا ٠

ـ اذن لا شيء ٠

ـ أيكون هذا أمرا جديا امنوعا من المزاح ؟

ـ نوع من المزاح ٠ لقد اردت ان ارى كم تغيرت ٠

ـ نعم تغيرت ٠ واذا استغنوا عنى أيمكن عندئذ انأجيء ؟

ـ اذا استغنوا عنك فسوف أجد لك عملا ٠

ـ أشكرك ٠ سوف أظل ذاكرا ذلك ٠ ومع هذا أرجو أن تتحـــدث بشأنى غدا مع المفتى ٠

لقد كان يرغب أن يبقى بأى ثمن فى هذا الطريق الأبيض ، من الباب الخارجى الى مدخل البيت ، فقد كانت أهمية المفتى تنعكس عليه ، على ذلك الذى ليست له أهمية ، وكان يخيل اليه دون شك أنه بتلك الوظيفة اقرب الى مكانته السابقة حين كان غازيا فى المعركة منه اليهـــا بوصفه خبازا او منسق حديقة ٠ وكانت شخصية الغازى أهم شىء له فى هذا العالم ٠

التقى بى قبيل المساء ، فى تلك اللحظة التى كانت من أشق اللحظات عندما كنت أتجه نحو باب الموت ، لقد انطلق من الضباب ، وسقط من السماء وأمامى فى الطريق ، حيث لم يكن هناك أدنى مبرر لالتقائنا ، لأن التقى أنا وهو ، أو يلتقى وجهانا ، أو تلتقى حالتنا النفسية ٠ لا أدرى كيف كان وجهى ، اما وجهه فقدكان يشع بالبهجة والسرور ٠ وكانت خشخشة صدره عند التنفس توحى بغبطة الانتصار ٠

قال وقد غلبته نشوة الفرح :

ـ سابقى ، لن يستغنوا عنى ٠ ومعنى ذلك أننى سابقى ٠ لقـــد سالونى عما دار بيننا من حديث ، وقد حكيت لهم ٠ ثم ذهبوا بى الى مالك وحكيت للمرة الثانية ٠ حكيت عن أشعة الضوء ، وعن ساحة القتال ، وكيف كنت تعرض على مائتى قرش ، وباقى الحديث ، اذا أصـــبحت بلا عمل ٠ وكان مالك يضحك ويقول عنك « رجل صالح » وقلت مؤكدا « نعم رجل صالح » ، وهكذا ٠ اذن ، لا حاجة بك الى أن تقول شيئا بشأنى غدا ٠

ـ كذلك ٠

لم يكن يعرف أننى ساعدته ٠

يجب أن يدفن الماضى مع كل يوم يفنى ، يجب أن يمحى لكيلا يثير فينا الألم ٠ فمن السهل تحمل الانسان يومه اذا هو لم يقسه بذلك الذى لم يعد له وجود بعد ٠ أما هكذا فتختلط أشباح الماضى بالحياة ، وعندئذ يتعذر أن تظفر بذكريات نقية ، كما يتعذر أن نجد حياة صافية تستقل بنفسها ٠ فهما فى صراع مستمر ، وتحد على الدوام ٠

٨

« رب انى لا املك الا نفسى وأخى »

بحثت عن حسن فيما بعد عدة مرات ، ولكننى لم أوفق فى الالتقاء به ، وبحث عنه خادمه كذلك ، ذلك الخادم الاكبر ، وعرف أنه فى السجن مع رفقائه • لقد خرجوا فى منتصف الليلة الماضية من البيت ، وضربوا بعض الشبان فى محل « فرانك » ، وكان من الصعب أن تجد ظهرا لأحد هؤلاء الشبان قد سلم من التحطيم ، وقد كانوا هم السبب فيما حدث لهم ، فقد بدءوا بالهجوم ، والآن يضع لهم أقاربهم قطعـــا مبللة على الأماكن المصابة ، وأما اولئك ففى السجن يستلقون • وعلى هذا النحو كانت تنتهى ليالى السرور والطرب ، يسجنونهم حتى عندما لا يقومون بارتكاب جرم أو مخالفة ، ويفرجون عنهم عندما يدفعون الكفالة ، ولا يعلم هؤلاء الذين سجنوا أمذنبون هم ، وغالبا ما يكونون كذلك • وسيفرجون عنهم فى هذه المرة أيضا ، غير أنهم سيطلبون كفالة كبيرة ، لأن الضربات كانت شديدة ، والشبان كانوا من الأسر الكبيرة ، ولكن حسن لا يريد أن يعطى ذلك القدر الذى يطلبون ، ويرفع عقيرته معلنا أنه حزين لأن ضرباته لم تكن أشد ، ويتوعد بذلك عندما يفرج عنه ، اذ ليس هناك من يماثل هؤلاء الأوغاد اللئام • ولكن خادمه سوف يقوم بدفع الكفالة ، وحسن لا يهتم بالنقود وانما يهتم بالعناد ، ولكن أى عناد يكون ذلك الذى يبقى من أجله فى السجن • حقا أنهم ليسوا فى زنزانة ولا فى أحد البدرومات وانما هكذا فى احدى الغرف ، ولكن على الرغم من ذلك ، هنا خارج السجن يوجد ضوء الشمس ، وأما داخله فيوجد الظلام • كما أن النزول به ولو ساعة يعد نوعا من العذاب ، وبخاصة اذا لم يكن الانسان مجبورا على ذلك ، فكيف اذا استمر البقاء فيه ساعات أو بعض أيام •

سوف يخبرونه فى البيت عند عودته اننى كنت اطلبه ، وينبغى أن يجىء الى فور انتهائه من استحمامه وارتدائه ثيابا اخرى ، لأنه يوسخ ثيابه ويقملها فى كل مرة ، ولذا كان عليه أن يخلع هذه الثياب فى فناء البيت لكى لا يحمل الى داخله بعض الحشرات القذرة ٠ وأما أنا فينبغى أن اكون فى التكية اذا كان الأمر مهمـــا ، لكى لا يبحث أحدنا عن الآخر كالثنين من الحمقى ، واذا لم يكن الأمر مهما فالأمر عندئذ سواء ، وسيكون هناك لقاء عندما تسنح الظروف ٠ ولعل من الأفضل أن ينام حسن بعض الوقت لأنه لم يغمض عينيه منذ صباح الأمس ، وان كان فى استطاعته الا ينام ثلاثة أيام بلياليها ، كما أن باستطاعته ايضا أن ينام ذلك القدر من الوقت ، وما عليك الا أن توقظه ليتناول شيئا من الطعام ، هكذا وهو بين النوم واليقظة ، ثم يعود الى النوم كالبهيمة ، عفوا يا الهى ٠ عبثا كل ما يقال ، فلم تلد امثله بعد !

لم أكن أبحث عنه دون سبب ، كما لم يكن بحثى عنه رغبة فى أن أتلقى منه عزاء أو التمس منه تشجيعا ٠ ولا أدرى كيف خطر ببالى ذلك التفكير ٠ والواقع أنه ليس تفكيرى ، وانما تفكير حسن ، غير اننى قبلته كتفكيرى انا ، واردت أن احثه لكى نقوم بالتنفيذ ٠ لقد اظهرته لـ « قره زاعم » وتراجعت عندما لم يوافق ، ولكن يخيل الى انه برق لى منذ قليل، حين اتيح لى ان أرى كيف كان يخمد وجه المفتى ، وان أدرك كم كان عبثا كل ما كنت أفعله وأقوله ٠يجب اغتصاب هارون ، يجب الدفع للحراس من أجل هربه ، يجب ارساله الى بلد آخر ، لكى لا يروه بعد على الاطلاق٠ وبهذا فحسب سيمكنه التحرر من بدرومات القلعة : ان صيحاتى المشينة لن تساعده ٠ مع حسن واسحاق يمكن تنفيذ كل شىء ٠ ومع اسحاق يمكن تنفيذ كل شىء ٠ ربما يعرف حسن مكان اختفائه ، وسوف يقبل دون شك ٠ فالذكريات لا تعذبه ٠ كما تعـــذب « قره زاعم » ولا تقف فى طريقه ٠

لقد شجعنى التفكير فى هذا المتشرد ، وما استولى على من قوة قاهرة تدفعنى الى التحرك ، الى القيام بشىء ٠ وكنت أحس باضطراب صادق وانفعال شديد : لقد أصبح كل شىء ممكنا ، أصبح فى متناول اليد ، ويبقى الا يستسلم الانسان ٠ ان الأمر صعب حتى عندما يعزم الانسان ، والى أن يتقرر عزمه تبدو العقبـــات أمامه صعبة التخطى والشـــدائد بأكملها مستعصية على الهزيمة ٠ ولكن عندما تنسلخ من نفسك المترددة وتتغلب على تخاذلك تنفتح امامك طرق عديدة غير متوقعة ، ولم يعد العالم بعـــد

ضيقا ولا مملوءا بالتهديد والوعيد · كنت ارسم خططا جريئة مكتشفا اكثر من وسيلة للقيام بعمل بطولى حقا · كما كنت اعد حيـــلا وخدعا لا يمكن للحذر الاكبر أن يقوم بكشفها واحباطها ، على انني كنت احس بانفعال أكثر واستعداد للحركة اشد كلما ازددت شعورا باليقين في اعماق قلبي والتواءات مخي التي يصعب الاهتداء اليها أن هذا كله يعد خيالا فارغا · لا ، لم أكن افكر بوعي في هذا ، ولم اكن أودع قلبي ارادتين مختلفتين جمعت في نفاق بينهما · ان تفكيري لم يكن منقسما ، انني كنت في صدق اجهد نفسي كي أجد الطريق الأفضـــــل لأحرر أخي · وكان صدقي يزداد وحيرتي تشتد كلما كان يسري في مكان ما في داخلي ـ كهمس غامض يصدر من ظلام ، كحقيقة لا يقال عنها شيء ولا يتناولها التفكير ولكنها حاضرة ـ اعتقاد بأن التدبير لا يمكن أن ينجح · وحتى اسحاق كنت اناديه ، اذ كان الوصول اليه أمرا مستحيلا · لقد استطعت أن أشتاق اليه بقدر ما كانت نفسي ترغب في الحصول عليه · ولم يكن هذا بكذب مني ، لأن رغبتي لم تعد ممكنة التحقيق · ان هذه الغريزة الخفية ، غريزة التمسك بالحياة ، تلك التي تحميني دون تدخل لارادتي الواعية ـ كانت تسمح لي في رحابة صدر أن اقوم بكرمي الجميل دون أن تحملني على الحد منه ، اذ كانت تعرف ان الخطر لم يعد له وجود ولا يمكن ان يكون محقق الوقوع · ولكن هذا الكرم كان يساعدني أن اثار من أجل الخجل الذى امتلأت به نفسي في أثناء مقابلتي للمفتي ·

اذا كان هذا يبدو غريبا لأحد ، أو مستحيلا ، ففي استطاعتي أن اقول ان الحقائق تبدو أحيانا غريبة جدا ، ونحن نقنع انفسنا انهـــا غير موجودة ، لأننا نخجل منها كما نخجل من أولادنا أصابهم البرص والجذام وان لم تكن آنذاك اقل حياة واقل حقيقة · اننا عادة نجمل تفكيرنا ونخفي ما يدب في نفوسنا من أفاع · ولكن أينعدم وجودها اذا نحن أخفيناها ؟ انني لا أجمل شيئا ولا أخفي شيئا ، بل أتحدث كانني امام الله · والى جانب ذلك اريد أن اقول ، انني لست رجلا سيئا ولا غريبا ، بل أنا رجل عادي ، وربما اقل من الصورة التي كنت ارغب أن أكون عليهـــا للرجل العادي ، رجل كغالبية الآخرين ·

قد يستطيع قارىء حسن النية أن يقول لي : انك تطيل أكثر من اللازم وتتفلسف كذلك · واذ ذلك ستكون اجابتي على الفور : أعرف ذلك انني أناقش في اتساع واحدة من هذه الأفكار الفقيرة ، مستدرا اياها كما تستدر الجرة فارغة وقد تعذر أن تجود ولو بقطرة واحدة · وانني افعل

ذلك عن قصد ، كي أؤجل الحديث عن ذلك الذى يهزنى الآن ، بعد عدة أشهر من حدوثه · غير أن الدوران لا يساعدنى اذ لا أستطيع أن أتهرب ولا أريد أن اتوقف ·

ينبغى أن اقول حتى هذا · لقد وجدت الخفير فى البيت ، وكان قد استيقظ منذ وقت مبكر ، حتى لقد ذهب الى السوق وعاد ، وقد استقبلنى عابس الوجه مكفهره ، كما لو كان قد صحا من نومه فى هذه اللحظة · وليس ثمة أثر لما كان ثرثرته فى الليلة الماضية ولما تملكه من رغبة فى أن يحول بينى وبين الذهاب ، كما لا يوجد شىء من علامات تعلقه بى وانعطافه نحوى ، بل لقد كانت الدلائل تشير الى أنه يريد التخلص منى فى أقصر وقت ممكن · لقد غضب حسين سألته عما أراد أن يقوله لى الليلة الماضية وأجابنى بقوله :

ـ كل ما كان لدى من قول ذكرته لك · لماذا اخفيه ؟

كيف تسنى لى أن أخدع نفسى الى هذه الدرجة ؟ لقد شغلت نفسى كثيرا بالتفكير فيما دار بيننا من حديث ، ولم افكر فى الكلمات بقـدر ما فكرت فى المضمون · اذ كان يعرف شيئا عنى دون شك ، وقد ذكرت له ذلك ، وكان يقسم هو بكل شىء بأننى فهمته خطأ · ان الليل هو الليل والنهار هو النهار ، والله يعلم ماذا كان يدور بفكره وهو يتحدث عن أشياء عديدة ، وماذا كنت أفكر مستمعا الى حديثه عن تلك الأشياء ، والآن أرانى قد حشوت فى رأسى حتى ذلك الذى لم يكن فى تصوره · ماذا يعرف هو ؟ وماذا يستطيع أن يعرف الرجل ـ وكان يطلق ذلك فى صوت متهدج ـ الذى يتسكع طول الليل ، متعبا كحصان أعرج لسقاء ، وينتظر فى لهفة بالغة أن يندفع الى بيته الصغير الفقير ولحافه الممزق · انه يعول أربعة سواه فى هذا الوقت السيىء · وهذا يكفيه وزيادة ، وليس له بعد ان يهتم بأمور الآخرين · توقف غضبه اذ ذاك ، ونطق على الفور فى هدوء ، وربما فى حنو وانعطاف ، ذاكرا انه يود أن يساعدنى أكثر من أن يساعد أحدا غيرى ، ومعلنا ان مصيبة ما دون شك تعذبنى وتضيق على الخناق ، والا لما جئت اليه لكى يقول لى ما لا يعرفه ، وهو لا يعرف ماذا اطلب · ويبدو اننى كذلك لا اعرفه ·

اسمعت فى كلماته فى الليلة الماضية ما لم يكن فيها ، أو ان شيئا قد حدث معه ؟

انصرفت دون أن أعلم شيئا ، وحقا كان على حق ، ودون ان أعرف حتى ذلك الذى كنت أطلب معرفته ٠

احسست اذ كان الوقت عصرا ، واذ كنت متعبا شديد التوتر ، معذبا بافكارى عن تحرير أخي حيث كانت الصعوبة تزداد بازدياد تلك الحشود من العقبات ، ومستبعدا فى تفكيرى امكان تحقيق هذا التحرير ـ اننى فقدت حتى هذا الأمل ، وان كان يرى كاذبا ، وأخذت استسلم ثانية لعذاب الغد عند المفتى ٠ لقد كنت ضعيفا ، هشا ، مستنفد القوة بتلك الجهود التى كنت أتخيلها طول اليوم ؛ وكان يخيل الى أننى لو كنت اباشرها فى الواقع ، أو كنت أنتظرها بعـــد ، لما نالنى هذا القدر من التعب ٠

دخل أولاد مصطفى حديقة التكية ، ولعبوا في البداية لعبةالحصى على الألواح الحجرية التى كانتعند مدخل التكية، ثم تناولوا حيث يجلسون غذاءهم ، وأخذوا بعد ذلك يجرون كمـا تجرى الجراء ٠ كانـوا يقفزون متخطين الزهور ويكسرون أعـــواد « البيسرك » ويغطون اغصـــانا من شجرة التفاح ، ويملئون الجو صراخا وضحكا وبكاء ، وكنت أرى كيف أننا سنكون مضطرين أن نترك لهم التكية وحديقتها وننتقل الى حيث ندرى ٠ لقد صرخت عدة مرات ، ثم ناديت مصطفى عند خروجه من البيت ، وافهمته أن الأولاد يحدثون ضجيجا غير محتمل ٠

ورد على دون أن يسمعنى :

ـ انهم ينتظرون العشاء ٠

قلت بصوت أعلى :

ـ انهم يحولون بيننا وبين الهدوء ٠ قل لهم ليخرجوا ٠

ـ اثنان لى ، وثلاثة لها من زوجها السابق ٠

أشرت بيدى قائلا : اطردهم ، اننى سوف أجن !

لقد فهم ، وذهب غاضبا وهو يتمتم :

ـ لقد أصبح الأولاد الآن يحولون بينهم وبين الهدوء !

وعندما هدأ الضجيج ، نظرت الى الخسارة ، آملا أن تكون أكبر ، ورغبت أن ينتابنى الغضب حتى استطيع التحرر من تلك الافكار التى لا زمتنى ولا تريد فراقى منذ أيام ، وجلست تحت كرمة تقوم على شاطىء

النهر الذى كانت مياهه ما تزال تتلألأ تحت اشعة الشمس وقد مالت الى الغروب ٠

أحسست بتوترى يقل ويتضاءل ٠ ولا أدرى أكان ذلك تلبية لما أحسه من رغبة شديدة فى استشعار الهدوء ، أو استجابة لما تنشـــده النفس من سكون يكون عـــلاجا لها بعد ضـجيج الأولاد ، أو بتأثير هذا الجريان المستمر للنهر على وتيرة واحدة يعلن عنه خرير لا يكاد يسمع٠ وأحسست كذلك بالجوع ، ولا أدرى متى تناولت طعامى أخيرا ٠ كان ينبغى أن آكل شيئا لتشتد قواى ، وليتحول اهتمامى الى ناحية أخرى، ولكن الوقت الآن غير مناسب ، وقد خطر ببالى هذا فى لحظة صـــفاء ، فمصطفى غاضب ، اذ طردت الأولاد ، ولعله ما كان ينبغى لى أن أفعل هذا غير اننى فى الحقيقة هدأت نفسى ، وكان يطيب لى الهدوء ، على الرغم من حزنى لهذا التصرف ٠ لم يكن الحزن يتملكنى بدرجة كبيرة ، وكان هذا من الخير ، كما كان من الخير أيضا أننى كنت حزينا ، وهأنذا أعود الى الأفكار العادية والحياة المألوفة ، حيث يحس الانسان بقدر من الخير ومثله من الشر ، يحس من كل بهذا القدر الذى لا يقلقه ولا يخل بتوازنه ، وحيث نشعر أن الملل قد أصابنا بدرجة كافية ، فالانســـان قد يصيبه السوء عندما يفقد احساسه بالملل ، ففى الحرب لا يوجد شعور بالملل وكذا عند المصيبة وكذا فى حالات العذاب ٠ وحيث تكون الصعوبة لا يكون الملل ٠

وهكذا وصلت الى حالة طيبة من التفكير السطحى الذى لا ينتـــابه التقلص ولا يعتريه التضارب ، وانما يجرى فى انزلاق ملامسا ســـطح الأمور ، ويهتدى الى حلول سهلة يسيرة لا تعد فى الواقع حلولا ٠ ان هذا لا يعتبر تفكيرا بل توهما لوجوده ، ترفيها عن النفس ، كسلا لذيذا للعقل ولم يكن هناك شىء أنفع من هذا فى تلك اللحظة ٠ لا ، لم أنس شيئا من ذلك الذى كان أشق عذاب لنفسى ٠ والذى كان يستقر فى بطنى كما لو كان حجرا ، ويجرفه دمى فى دورته كما لو كان يجرف السم ، والذى كان يكمن مترصدا فى التواءات مخى كالأخطبوط ٠ ولكنى أحس أنه قد هدأ الآن كما يهدأ المرض الشديد ، وجاءت لحظة اليسر ، ولذا يبدو كأنه ليس موجودا ٠ ان هـــذا الاختفاء القصير للشـــدة ، وهذا التحرر لبعض اللحظات من العذاب ، قد مكنانى بهذا القصر والتوقيت ــ وقد كان كل شىء فى داخلى يعرف ذلك ــ من أن ارى الأشياء حولى قريبة الى وجميلة فى ناظرى ٠ لقد احســـست أن حضورى الهادىء فى هذا التناسق الذى صنعته الطبيعة يوشك أن يكون سعادة ٠

عاد الحافظ محمد من مكان ما ، والقى على التحية ثم دخل غرفته ٠
انه رجل صالح ، هكذا رأيت بفكرى ، وكنت ما أزال محاطا بالسعادة من تلائمى السطحى مع الطبيعة وتفكيرى المبسط ، وكان يبدو لى أن الحياة قد أوقعت ظلما بهذا الرجل ، ولم يكن هذا سوى خرافة منى ، فالحياة حياة ، وكل منها تشبه الأخرى ، وكل شخص يسعى لارضاء نفسه ، وأما الشدائد فتأتى وحدها ٠ وهو يرضى نفسه بالكتب ، وغيره يرضيها بالحب ، أما مصيبته فتتمثل فى مرضه ، كما تتمثل عند الآخرين فى الفقر أو فى الطرد ٠ كلنا نعبر من شاطىء الى آخر ، سائرين فى طريق حياتنا على حبل دقيق ، ولكل منا نهاية معروفة ، نهاية يتفق فيها الجميع ٠

لقد خطرت ببالى ابيات حسين افندى الموستارى ، ونطقتها فى تؤدة ، وبارتياح اليها لم أكن احسه من قبل ٠ وكنت أسمعها كهمس هادىء ، دون تهديد ، ودون ظلال صوتية قاتمة :

وقف شاهين البهلوان
حاسر الراس حافي القدمين
على حبل لا يستطيع المرور عليه دون خوف سوى النسيم
ولم يكن شاهين ، الباز ، يخشى من الخطر
فذكر اسم الله وانطلق
فعبر ما بين الشاطئين
وتلاميذه ، الصقور الصغار ،
عبروا كذلك فوق الهاوية ٠٠
فوق المياه تتلألأ فيها أشعة الشمس
وكانوا يبدون كالدرر يجمعها خيط دقيق
كانت الهاوية عميقة تحتهم ، والسماء بعيدة فوقهم
وكانوا على حبل بهلواني متأرجح
كانوا على الطريق
طريق الحياة الزلج ٠٠ الصعب ، الخطير ٠

لقد كانت صورة الرجل المنفرد الذى كان يمضى رغم ذلك فى شجاعة عبر طريق حياته الخطير تتجاوب تجاوبا حسنا مع شعورى الحالى بقدر الانسان ومصيره ٠ ولو كنت فى حالة نفسية أخرى لكان فى الامكان أن يزلزلنى

التشاؤم والاجبار على المضى فى السير الشاق العنيف ، ولكنه بدا لى اذ ذاك كالمسالمة المعقولة مع المصير ، بل لقد بدا لى كأنه العنـاد . لا أدرى ماذا قصد حسين افندى الصالح على وجه اليقين بهذه الأبيات ، غير أنه بدا لى أنه يسخر قليلا من نفسه ومن الآخرين .

خرج الحافظ محمد من التكية ، ووقف بجانب السياج على شاطىء النهر . كان وجهه شاحبا يعلوه الاضطراب . ولم يلق ولو نظرة على . أهو مريض ؟

ـ كيف تشعر اليوم ؟

ـ انا ؟ لا أدرى . لست بخير .

اننى اشعر أنه لا يحبنى ، ولكنى لا أعاتبه . فهو أيضا يخطو على الحبل البهلوانى بين الشاطئين ، على النحو الذى يعرفه . وأحيانا يحاول أن يكون صالحا .

سألته مبتسما ، وكنت ما أزال فى حالة الانشراح ، وعلى استعداد لأفهم كل شىء ، وعلى استعداد كذلك لأن اقدم له شكرى :

ـ قل لى فى صراحة ، انك كنت تعرف ما تريد زوجة القاضى ، ولذا ارسلتنى ؟

ـ اية زوجة لقاض ؟

ـ هناك فى القضية قاض واحد ، وزوجة قاض واحدة . أخت حسن

استولى عليه الغضب ، وكاد ينتابه الاشمئزاز . ولم أكن تعودت أن أراه على هذه الصورة .

ـ لا تجمع بينهم فى الذكر . أرجوك !

ـ اذن كنت تعرف ما تريد . ولكنك لم ترد أن تتدخل . اليـس كذلك ؟

ـ اترك هذه القذارة ، بالله عليك . لقد قصدت أن أساعدك ، وهذا هو السبب فى عدم ذهابى . ولكن لا تذكرهم الآن .

ـ لماذا ؟

ـ الم تعرف شيئا ؟

ـ لا .

ـ اذن يجب على أن أقول لك .

وبصوته الكدر ، وبما يتجشمه من عذاب ليحمل وجهه على النظر في وجهي ، وبيديه المتوترتين اللتين كانتا تلجئان كثيرا الى الاختفاء في جيبيه العميقين ثم تنسحبان منهما ، وبكل ما ظهر منـــه ولم اكن قط لاحظته عليه من قبل فبدا من اجله رجلا آخر في عيني ، وبخوفي الذي كان قد استولى علي ـ عرفت أن ذلك الذي يريد أن يفضي الى به امر بالغ الصعوبة ٠

سألته ، متعجلا أن اغرق نفسي في مياه سوداء :

ـ عن اخي ؟

ـ نعم ، عن اخيك ٠

ـ احي هو ؟

ـ قتل قبل ثلاثة أيام ٠

ما كان باستطاعته ان يزيد شيئا ٠ وما كان باستطاعتي أن اوجه اليه سؤالا ٠

نظرت اليه : كان يبكي وقد اعوج فمه ، فبدا منظره غاية في القبح اعلم انني لا حظت ذلك ، واعلم كذلك أنني دهشت لبكائه ٠ انني مابكيت وما أحسست بشدة تعتريني ، فقـــد لمع ما قاله فجاة كما يلمع البرق الخاطف ، ثم استولى على الهدوء ٠

كانت المياه تخر في هدوء ٠

ووصل الى سمعي أصوات الطيور على الغصون ٠

ها قد انتهى كل شيء ، هكذا ظننت ٠

أحسست بالارتياح : لقد انتهى كل شيء ٠

قلت :

ـ هكذا اذن ، هكذا ٠ وانا فوق المياه التي تتلألأ على صفحتها اشعة الشمس الذهبية ٠

واندفع الحافظ محمد يقول في فزع ، ظانا ان لوثة أصابتني :

ـ اهدأ ٠٠ اهدأ ٠ سنرفع أكف الدعاء الى الله من أجله ٠

ـ نعم ٠ هذا هو الشيء الوحيد الذي تستطيعه ٠

لم أكن أحس حتى بالألم ٠ كما لو كان شيء في داخلي قد استؤصل ولم يعد موجودا الآن ، هذا كل ما في الأمر ٠ لقد بدا عدم وجوده في داخلي غريبا للغاية ، غير مقصور على التمام ، غير ممكن على الاطلاق ، غير أن الألم كان أشد عندما كان موجودا ٠

حضر مصطفى ايضا ، ولم يكن هناك شك في أن الحافظ محمد قد أوضح له مصيبتي ، كان يحمل الى شيئا في طبق ، وقد بدا شـــديد الاحساس رقيق العاطفة ، كما بدت خطاه أكثر اضطرابا مما كانت عليـه في العادة ٠

قدم الى الطعام ، وقال محاولا الا يرفع صوته :

ـ ينبغي أن تأكل ، فانك منذ الأمس لم تذق شيئا ٠

وضع الطعام أمامي كأنه دواء ، كأنه دليل لرقته وانعطافه ، وكنت آكل دون أن أعرف ما الذى آكله ، وكانا ينظران الى ، أحدهما كان يقف بجانبي ، والآخر أمامي ، كما لو كانا حارســين غــير ماهرين يقومان بحراستي من الحزن ٠

أحسست اذ كنت في الفترة بين تناول اللقمتين أن الجزء المقطـــوع بدأ يؤلمني ٠

توقفت عن الطعـــام ، مشـــدوها ، وفي صعوبة وبطء أخذت أنهض ٠

واذ ذاك سأل الحافظ محمد :

ـ الى أين ؟

ـ لا أدرى ٠ لا أدرى الى أين ٠

ـ لا تذهب الى مكان ما ٠ لا تذهب الآن ٠ ابق معى ٠

ـ لا أستطيع ان أبقى ٠

ـ اذهب الى غرفتك ٠ وابك اذا استطعت ٠

ـ لا أستطيع البكاء ٠

وبدأت أعرف شيئا فشيئا ماذا حدث ، وأخذ الألم يطغى على ، كماء هادىء جرى اليه السيل فأخذ في الازدياد ٠ وبينما كانت المياه لا تزال الى الكعبين كنت أفكر في اضطراب عن الخوف ازاء يأس الغد ٠

واذ ذاك ، وكما لو كنت أرى أخى المذنب يقف أمامي ، أحسست بسيل الغضب يندفع فجأة ٠ كان ينبغي أن يحدث لك ما حدث٠ وتطايرت الكلمات كشرر من الغضب الممتزج بالبكاء ٠ ماذا كنت تطلب ؟ ماذا كنت تريد ؟ لقد أوقعتنا جميعا في اليأس أيها الرجل الأحمق ! لماذا ؟

ومر هذا ، لقد استمر لحظة فحسب ، ولكنه بعث في الحركة ٠

من فوق الجبل ، ومن حي الفجر ، كانت تنطلق ضربات الطبل تصم الآذان ، وكان انطلاقها على فترات ، كما كان ينساب الى الأذن صوت المزمار ولكن ذلك على التوالي ودون انقطاع ، سمعت هذا منذ الصباح ، منـــذ ليلة الأمس ، منذ الأبد ، وكان الجنون المخيف لعيـــد ماري يرتمي على القصبة كأنه العناد ٠ كأنه الوعيد ٠ وكنت استمع وارتعد ، وكان يضرب في مكان ما طبل كبير كأنه للناس بمثابة النذير ، كان ينادي أولئك الذين لا وجود لهم ، اولئك الأخوة الموتى جميعا تحت الأرض وفوقها ٠ لقـــد بقي شخص على قيد الحياة ، وهو الآن ينادي ٠ ولكن ليس من مجيب ٠

لم تتولد الأفكار في نفسي بعد ، ولم يتملكني البكاء ، ولم يتقرر الاتجاه ٠ لا ينبغي أن اذهب الى اي مكان ، ولكنني أسير ، وفي مكان ما في نفسي بقيت آثار الميت هارون ٠

تحت الجسر الحجري الصغير كانت تنساب مياه نهري ، وهناك على الجانب الآخر للنهر كانت تقبع أرض ميتة ٠ انني لم اعبر هذا الجسر في حياتي ، وان كنت قد عبرته بنظري ، اذ عنده ينتهي السوق والقصـــبة والحياة ، ويبدأ الطريق القصير الى القلعة ٠

ان أخي مر هنا ولم يعد ٠

ومن الآن أخذت أقطع بافكاري هذه المسافة من الجسر الحجري الى الباب البلوطي الثقيل الذي كان يربط طرفي السور الأغبر للقلعـــة ٠ وكنت في وصولي المتخيل أسير كأنني في حلم ، كان الطريق دائما خاليا، ممهدا للعابر ، وان كان يبدو وعرا في خيالي ، وذلك لأستطيع اجتيازه بسهولة ٠ ان الباب الكبير هدف لكل شيء عندي ، والطريق من جميـــع الاتجاهات يقود اليه ، انه عتبة القدر ، انه قوس المنون ٠ لقد كنت أراه في أفكاري ، في حلمي ، في خوفي ، وكنت أشعر بندائه من غور الظلام، وأشعر بجوعه الذي لا يعرف الشبع ٠ كنت أستدير وأهرب ٠ وكان ينظر الى قفاي ، ويحثني على العودة ، وينتظرني ٠ كنت أراه كالفسق ، كالهاوية ، كالحل الأخير ٠ وقد يوجد خلفه سر ، وقد لا يوجد شيء ٠ هناك تبدأ وتنتهي الأسئلة ، تبدأ للأحياء وتنتهي للموتى ٠

كانت هذه أول مرة في الحقيقة أمر فيها بزقاق عذابي الذي استمر ليالي طويلة ، وما كنت على يقين من أنني سألتقي به ٠ وحقا كان الطريق خاليا كما كنت اتصوره وارغب أن يكون آنذاك ، وأما الآن فالأمر عندي سواء ، حتى لقد وددت الا يكون خاليا هكذا كالمقابر ٠ كان ينظر الى في

عبوس واكفهرار وحقد ، كما لو كان يريد أن يقول لى : على اية حال لقد جئت ! لقد كان الذهاب الى اللاشيء فى هذا الطريق يثير فى نفسى القلق والاضطراب ، ويقتل فيها ما بقى من شجاعة حزينة تتمثل فى كونى ارى، أرى الأمر سواء · لقد اردت الا يكون منى تطلع الى شيء حتى أستطيع أن اقلل ما يعتريني من الاضطراب والارتعاد ، ولكن هانا اتطلع الى كل شيء ، اتطلع الى عداوة الزقاق الخالى ، الى الباب المخيف أمام السر ، الى عينى حارس مختف وراء ظهرنا من ثقبه الصـــغير · لم ار هاتين العينين فى تخيلاتى آنذاك ، عندما كان ينبغى أن اجيء ، لم يكن يوجد سوى الباب، وسوى هذا الزقاق المؤدى اليه ، هذا الحبل الذى يوصل الى الشـاطئ الآخر ·

سأل الحارس :

ـ ماذا تريد ؟

ـ هل جاء الى القلعة شخص بمفرده ؟

ـ لقد جئت أنت · ألك احد فى القلعة ؟

ـ لى أخ · مسجون ·

ـ وماذا تريد ؟

ـ أأستطيع أن اراه ؟

ـ سوف تراه اذا سجنوك أنت كذلك ·

ـ أأستطيع ان احمل اليه بعض الأشياء ؟

ـ نعم · وسوف أسلمه أنا اياها ·

لقد كنت أحاول فى جنون أن اعود بالزمن الى الوراء وان احيى قتيلا، لم يقتل بعد ، فقد علمت أنه سجن وجئت على الفور لكى أسأل عنه ، ان هذا واجب انسانى أخوى ، لا يستوجب الخوف أو الخجل ، ولا يزال هناك أمل ، سوف يفرجون عنه عن قريب ، سوف أحمل اليه الأشياء ، وسوف يعرف أنه لم يترك وحيدا ، فأمام الباب يقوم دمه · لم تستطع القلاع أو الحراس أو الحذر والحيطة ان تحول دون مجيئه ، وقد جاء ، نعم جئت ، انه يصغرنى بخمسة عشر عاما ، ودائما كنت اهتم بأموره ، لقد جئت به الى القصبة ، أيها الناس ، فكيف استطيع أن اتركه فى اشـــد الحالات عسرا ، سوف تنقشع سحابات من الحزن عندما يعلم بأمر مجيئى وسؤالى عنه · ليس له احد غيرى ، فهل لى أن أخدعه ، لماذا ؟ باسم اى

شيء ؟ انظروا الى جميعا شذرا ؛ اغضبوا على ، أشيحوا برؤوسكم ، فكل هذا على السواء عندى ، اننى هنا ، لا أتنازل عن صلة ليس لدى أقرب منها ، اصلبونى اذا أردتم من أجل هذا الحب ، أيمكن ان أقف ضده ؟ لقد جئت يا أخى • لا ، لست وحيدا •

كان المجيء متأخرا ، وليس فى وسعى بعد كل ما حدث وما لم يحدث سوى ان أتلو الفاتحة على روحه ، آملا أن تصل اليه ، وربما سيكون فى حاجة اليها •

كانت تلاوتى يشـــوبها الحزن والمرارة ، وكانت تختلف عن تلك التلاوة التى كنت أتلوها على أرواح الموتى فى التـــوابيت • فقد كانت تتعلق بى وبه ليس غير •

اصفح عنى يا أخى ، أنا المذنب بهذا الحب المتاخر ، لقد ظننت وجود هذا الحب عندما كانت الحاجة تدعو اليه ، ولكن ها هو الآن يستيقظ عندما لا يكون بامكانه أن يساعد أحدا أو يقدم حتى بمساعدتى • ولا أدرى بعد أهو حب أم عودة الى الوراء بلا جدوى • لم يكن لك أحد غيرى سوى هاتين المقبرتين اللتين تقبعان فى البيت ، والآن لم يعد لك ولا لى أحـد • لقد فقدتنى قبل أن افقدك ، وربما لا ، ربما ظننت أننى اقف أمام هذا الباب الموثق بالحديد ، كما لو كنت تقف انت من أجلى ، وربما كنت تامل حتى اللحظة الأخيرة أننى سوف أساعدك ، وياحسن حظى لو كنت تثق بى الى هذه الدرجة ، ولو كان ذلك لما استولى عليك الخوف من الوحدة النهائية ، عندما ينفض عنا الجميع • واذا كنت تعرف هذا كله فليساعدنى الله •

سأل الرجل من وراء الباب :

ـ ما هذا الهمس ؟

ـ أتلو الدعاء للأموات •

ـ اتل الدعاء للأحياء ، فأمرهم اشق واعسر •

ـ لقد رأيت كثيرا ، فيجب ان اصدق قولك •

ـ لا يهمنى أن تصدق أو لا تصدق •

ـ كم رجلا دخل من هذا الباب ؟

ـ أكثر مما خرج • ومع ذلك فعددهم مكتمل •

ـ أين يكون عددهم مكتملا ؟

ـ عند المرتفع ، فى المقابر •

ـ قبيح أن تمزح هكذا يا صديقى ٠

ـ انهم يمزحون ٠ وانت كذلك تمزح ٠ والآن ابتعد ٠

ـ أيجب عليك أن تكون خشنا الى هذه الدرجة اذا كنت فى هذا المكان ؟

ـ أيجب عليك أن تكون أحمق الى هذه الدرجة اذا كنت فى هذا المكان

ادخل هنا ، تخط العتبة ، ستخطو مقدار راحة اليد فقط ، وعلى الفور ستتكلم على خلاف ما تتكلم الآن ٠

راحة اليد ، هذا القدر فقط ، وسيتغير على الفور كل شيء ٠

كان ينبغى احضار الناس جميعهم ليروا هذه المساحة التى تقدر بالراحة كى يمقتوها ٠ أو لا ينبغى ذلك ، بل ينبغى اخفاؤها عنهم ،وعدم احضارهم اليها ، حتى يجاء بهم عندها ، وذلك لكى لا يكتموا كل فكرة تراودهم ، أو يروا القبح فى كل كلمة يقولونها ٠

عدت مطرق العينين ، باحثا فى الطريق تغطيه الأحجار ويتعذر ظهور العشب فيه عن آثار قدمية ، عن المكان الذى وقف فيه للمرة الأخيرة خارج جدران القلعة ٠ لا توجد آثار منه بعد فى هذا العالم ٠ وكل ما بقى منه هو ذلك الذى فى داخلى ٠

كنت أحس بقفاى كيف كان يطعننى الباب بثقبى عينيه المجريتين ، سوف ينفذان الى فى شوق ولهفة لابتلاعى ٠

لقد كنت على حافة الموت ، على عتبة القدر ، وما كنت قد تعرفت على شيء ٠ تعرفت من ذا الذى يدخل فحسب ، ولكنه لا يستطيع أن يدلى بشيء ٠

ربما يخطر ببال الناس أن يجعلوا من هذا الباب بابا وحيدا للموت٠ فيسمحوا لنا بالدخول واحدا وراء آخر وحشدا اثر حشد ، لماذا يجب انتظار الصدفة ، لماذا يجب انتظار الأجل المحتوم ٠

لم يكن هذا التفكير الجنونى سوى دفاع عن الفزع الذى يصعب التعبير عنه والذى كان قد استولى على ، سوى محاولة لكى لا يشعر الانسان بعذابه وهو يرى عذاب الجميع ٠ ذهبت لأبحث عن الأثر الأخير للقتيل ، ولكنى وجدتنى فى جنازته ، بدونه ، بدون أحد ما ، وحدى ، ولم يكن فى ظنى أننى سأقوم بمثل ذلك ، كما لم أكن أعرف لماذا كنت

فى حاجة لأن أجيء الى هذا المكان كى أذكره وهو ميت • ربما كان ذلك لأن هذا المكان أشد الأمكنة حزنا فى العالم ، وذكرى الأموات فيه ترى اكثر لزاما • وربما كان لأن هذا المكان اشد الأمكنة فزعا فى العالم ، ويجب على الانسان أن يتغلب فيه على الفزع لكى يذكر المقتولين • أو كان ذلك لأنه أكثر اثارة للاشمئزاز • وذكرى لنفسه السابقة يمكنها أن تبعث نظرة فزعة الى ذاته • لم أكن ابحث عن هذا المكان ، ولكن تم وجودى فيه ، لم أكن فى حاجة اليه ، ولكن لم يكن فى استطاعتى غير ذلك •

عند مدخل السوق كان يقف رهط من الناس ، ينتظرون ، كما لو كنت عائدا من العالم الآخر • كانوا ينظرون الى فى سكون تام ، كانت أعينهم هادئة ، ولكنها لا تتجنب النظر الى ، كانت ترهقنى ، كانت تنثال على جبينى ، كما تنثال جماعات النحل على موطنها الجديد ، سوف أبدأ في التعثر • لا أدرى لماذا جاءوا ، ولا لماذا سدوا الطريق ، ولا ماذا ينتظرون، كما لا أدرى ماذا يجب على أن افعل •

وبينما كنت أخرج من زقاق القلعة ، وكأننى أخرج من الليل (ومرة ثانية سمعت صوت ضربات خافتة تصدر من طبل كبير ولم يكن مصدره بينهم) شاهدت بين هؤلاء المنتظرين تحميهم الشمس ويفصلهم الجسد عن هذا الطريق الذى يقود الى اللا شيء ـ المتشرد اسحاق ، احدى قدميـــه محتذية والأخرى حافية ، وكان وجهـــه جامدا كما كانت كذلك وجوه الآخرين ، انهم كتلة واحدة ، فلا شيء يفصل أحدهم عن الآخر ، اننى أراهم صورا مكررة لاسحاق ، لهم أعين عديدة وسؤال يراودهم وحيد • لقد خيل الى بسبب وجود اسحاق أننى أفطن لماذا يقفون هنا ، وماذا يرغبون أن يعرفوا ، أفطن ، وليس هذا على وجه التحديد ، بل أتنبأ من أجل وجوده ، ولا أجرؤ على أن أرفع بصرى عن الطريق ، ربما يفسحون لى الطريق ، وربما يمرون بجانبى وأمر بجانبهم ، وسوف أتظاهر اننى مشغول الفكر وأتغافل أنهم ينتظرون شيئا ، وســواء عندى أادركوا هذا أم لم يدركوه كما لست أبالى اذا ما اعتقد هو أننى أتحاشى نظرته ، ولكن على الرغم من ذلك كم وددت لو لم يكن معهم • انه لو لم يجيء بهم لما حضروا •

وعندما اقامت الأقدام سدا أمامى ، رفعت عينى ناظر نحو اسحاق، اذ يجب على ان أرى ماذا يريد ، لأننى لا أستطيع أن أتجنبه الآن • ها لم يعد موجودا • اننى اعرف أين كان يقف ، الثالث من الجهة اليسرى • والآن كان ينظر الى من ذلك المكان شاب نحيف ، دون أن تبدو عليـــه الدهشة لتوقفى أمامه •

كانت أعينهم تعلن الاصرار ، تنظر محدقة وتنتظر ٠ أين هو ؟ ليس موجودا على يمين الشاب ولا عن يساره ، ومررت ببصرى على وجوه هذا الصف دون أن أقوم بعده وكان بعلمى أنهم تسـعة ، كما قمت بعرض شفاههم المطبقة ، وحواجبهم المشدودة المتوترة ، ونسيت أنهم يريدون شيئا ، فقد كنت أبحث عن اسحاق ٠ لا أدرى لماذا أنا فى حاجة اليه ، ولا أدرى بما أحدثه ، ولكن الحزن تملكنى لعدم وجوده ٠ غير أننى رأيته، رأيته فى الواقع عن بعد ، فقد خطوت عشرين خطوة وأنا خافض العينين، وكانت الشمس تفيض عليهم ضوءها ، فبدوا كأنهم غمسوا فى طلاء ذهبى، وكانوا فى عالمهم هذا يتلألئون كالمشاعل ، وكانت النظرات ترتد كليلة عنهم ، ومهما يكن من شىء فلو تعرفت عليه لقدمت نفسى رهينة عنده ٠ وأما هؤلاء فلا يجب على أن أحدثهم بشىء ، ولو كنت أعرف ما ينبغى أن أتحدث به ٠

مررت ، وانشقوا ليفسحوا لى الطريق ، لقد مرت بعض اللحظات فى هدوء ، كنت أسير وحدى ، ثم أخذت الأقدام تحدث خشخشـة فى هذا الطريق المغطى بالأحجار ، لقد تحركوا خلفى ٠ أسرعت بخطاى لكى أبتعد عنهم ، ولكنهم أخذوا يتابعوننى مغذين السير ، ولم تعد المسـافة تحول بينهم وبين اللحاق بى ، وبدا كما لو كان عددهم قد تزايد ٠

أخذ الظلام يهبط ، وبدت الأزقة اذ كان الوقت ربيعا تضرب الى الزرقة وتثير بذلك فى النفس قدرا خافتا من الاضطراب ٠

لم أسمع صوت المؤذن ، ولا أدرى أحان الوقت للصلاة أم لم يحن بعد ، غير أن المسجد كان مفتوحا ، وكانت تضيئه شمعة وحيدة وضعت فى شمعدان كبير ٠

دخلت المسجد ، وجلست فى مكانى أمام المحراب ٠ سمعت دون أن أستدير حركة دخول الناس وجلوسهم خلفى دون أن تصدر منهم كلمة أو يدور بينهم همس ٠ لم يكونوا قط على هذا النحو من الهدوء ٠ وكانوا فى صلاتهم هادئين كذلك ، وعلى صورة مهيبة كما كان يخيل الى ٠ غير أن تلك التمتمات الخاشعة التى تصـدر منهم وهم وقوف خلفى يؤدون الصلاة كانت تثير مشاعرى ٠

وبينما كانت الصلاة ما تزال تؤدى كنت أشعر أن هذا الأداء كان على جانب من الغرابة ، اذ كان يختلف عن أى أداء الى الآن ، كان أشد حرارة وأكثر احساسا بالخطورة ، كان بمثابة الاستعداد لوقوع شىء ٠ وكنت أدرك أنها لا يمكن أن تنتهى على النحو الذى كانت تنتهى عليـه

الصلوات الأخرى · ان كلمة « آمين » تعنى البداية وليس النهاية : لقد كانت تسمع فى صوت خافت كثيف ، وكانت تشير الى الانتظار · انتظار أى شيء ؟ ماذا سيحدث ؟

لقد اتضح لى من صمتهم وسكونهم واصرارهم على عدم الذهاب بعد أن انتهت الصلاة ذلك الذى لم أكن أود أن أعرفه ، انهم كانوا يريدون أن يرونى بعد أن علمت بامر المصيبة ، كانوا يرغبون أن أكشف عما أكونه فى هذه اللحظة ·

اننى أنا نفسى لا أدرى ما أكون ، كما لا أدرى أية اجابة يمكننى أن أجيبهم بها ·

ان كل شيء يتوقف الآن على ·

كان بامكانى ان أنهض وانصرف ، أن أهرب من نفسى ومنهم ، ولو فعلت لكان هذا أيضا جوابا ·

كما كان باستطاعتى أن أرجوهم ليخرجوا ، كى أبقى وحيدا فى هدوء المسجد الخالى · ولو فعلت لكان هذا بالتالى أيضا جوابا ·

ولكن سيبقى اذ ذاك فى داخلى كل شيء · ولن يصل شيء الى أحد· لقد أحسست حتى عندما كنت أمام باب القلعة بخوف من الم الفقد وندمه ، ففى استطاعة النيران أن تلتهمنى ، وبامكان الأسى أن يخنقنى ، وفى مقدور الغضب والحزن اللذين لا يمكن تصورهما أن يخرسانى الى الأبد · كان لزاما على أن أقول ، من أجل هؤلاء الذين ينتظرون ، فأنا انسان ولو الآن ؛ ومن أجله هو ذلك الذى لم يدافع عنه أحد · وليكن هذا له دعاء حزينا من قبل أخيه ، دعاء للمرة الثانية فى هذا اليوم ، ولكنه سيكون الدعاء الأول الذى يسمعه الناس ·

هل كنت أخاف ؟ لا ، لم أكن ، لم أكن أخاف من شيء سوى ما يسيطر على من القلق · هل سأفلح فى انجاز ما يجب على فعله · كنت أشعر باستعدادى المطمئن لكل ما يمكن وقوعه ، بهذا الاستعداد الذى يصحب حتمية وقوع الفعل ، وارتضاءنا الشديد به ، ذلك الارتضاء الذى يكون اقوى من الثار وأقوى من العدالة · لم استطع أن أفعل شيئا ضدى بعد · ·

قمت ، واضأت الشموع منقلا الشعلة من واحدة الى أخرى ، لقد أردت أن يرونى جميعا ، وأردت أن أراهم جميعا ، ليحفظ أحدنا الآخر فى ذاكرته ·

استدرت في بطء ، لن يخرج أحد ، لن يخرج فرد منهم • فقد كانوا ينظرون الى ، جالسين جلسة التشهد ، ومنفعلين من جراء حركاتي البطيئة ومن السنة اللهب التي كانت تضيء على طول الحائط الذى يقع فيه المحراب مطلقة رائحة قوية من الشمع •

ـ يا ابناء آدم !

انني ما دعوتهم قط بهذا من قبل •

لم أكن أعرف ، حتى منذ قليل ، ماذا سأقول • فكل شيء كان يحدث تلقائيا • لقد كان الأسى وشدة الانفعال يجدان صوتهما والفاظهما •

ـ يا ابناء آدم ! لن القي وعظا ، فلن أستطيع ذلك حتى ولو اردت• ولكن اعتقد أنكم ستلومونني اذا لم احدثكم الآن ، في هذه الساعة التي لا اذكر اصعب منها في حياتي ، عن نفسي بالذات • لم يكن يهمني ذلك الذى سأقوله الى تلك الدرجة قط كما يهمني الآن ، ومع ذلك لا ارغب اذ أقوله في الحصول على شيء ســـوى أن أرى عزاء في اعينكم • لم اناديكم بقولي أيها الاخوة ، وان كنتم لي الآن ألصق بهذا الوصف منكم في اى وقت آخر ، بل اناديكم ـ ابناء آدم ـ معتمدا على ذلك الذى نشترك فيه جميعا • اننا آدميون ، ونفكر التفكير نفسه ، وخاصة عندما يكون الأمر صعبا • لقد انتظرتم ، أردتم أن نبقى معا ، لكي يكون لقاء بين أعينكم وعيني ، فالحزن ينتابنا من اجل موت رجل بريء ، والاضطراب يعرونا من أجل الجريمة • فهذه الجريمة تتعلق بكم كذلك اذ انكم تعرفون : من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكانما قتل الناس جميعـــا • وقد قتلونا جميعا عديدا من المرات ، أيها الأخوة القتلى ، والفزع يسيطر علينا عندما يصاب من يكون أقرب واحب الينا •

ربما كان من الواجب على أن أكرههم ، ولكنى لا أستطيع ذلك • انني لا أملك قلبين • أحدهما للكره والآخر للحب • وهذا الذى أملكه لا يعرف الآن سوى الحزن والأسى • ان صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين • ولكن حزني لي أنا •

ارعوا صلة الرحم ، فقد أوصى الله بذلك •

انني لم ارعها ، يا ابن امي • لم اكن املك قوة لكى ابعد المصيبة عنك وعن نفسي •

قال موسى : رب ! •• اجعل لي وزيرا من اهلي ، هارون اخي ، اشدد به ازرى ، واشركه في امرى •

ان أخي هارون لم يعد موجودا ، واستطيع أن اقول فقط : رب ، اشدد بهذا الأخ الميت أزري ٠

اشدد بهذا الأخ الميت الذى لم يدفن حسب شريعة الله ، ولم يره اقاربه ، ولم يقبلوه أمام سفره العظيم الذى لا يرجى منه رجوع ولا تتحقق فيه عودة ٠

اننى كقابيل ذلك الذى بعث الله اليه غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة اخيه ٠ والذى قال : يا ويلتا اعجزت ان أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ٠

أنا قابيل التعس ، أكثر تعاسة من غراب أسود ٠

لم أنقذه حيا ولم أره ميتا ٠ والآن لا أملك سوى نفسى وسواك يا ربى وسوى هذا الحزن يملكنى ٠ اللهم امنحنى القوة لكى لا أضعف من حزن تمليه الأخوة والانسانية ، ولكى لا أسمم نفسي بأن اغرس فيها الكره ٠ اننى أردد كلمات نوح : فافتح بيني وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين ٠

اننا نعيش على الأرض يوما واحدا فقط ، او أقل من يوم ٠ فامنحنى القوة كي أصفح ٠ اذ الذى يصفح هو الأفضل والأعظم ٠ ولكنى اعلم أننى لا أستطيع النسيان ٠

وأما أنتم يا اخوانى فأرجوكم الا تؤاخذونى من أجل هذه الكلمات٠ لا تلومونى اذا أثارت الألم والحزن فى نفوسكم ، واذا كشفت عن ضعفى أمامكم ٠ اننى لا أخجل من هذا الضعف أمامكم ، بل على العكس كنت اخجل لعدم وجوده ٠

والآن اذهبوا الى بيوتكم واتركونى ومصيبتى ٠ لقد أصبحت الآن اقل وطاة ، اذ جعلتكم تشاطروننى اياها ٠

واذ كنت جالسا وحدى ، وحدى فى هذا العالم كله ، فى ضوء الشموع القوى ، فى الظلمة الشديدة الحالكة ، دون أن اخفف شيئا مما أعانيه فى نفسى (فقد حمل الناس كلماتى فقط ، ولكن الحزن بأكمله بقى لى ، دون أن يمسه أحد ، وقدزادت قتامته ، حين غدر بى أملى فى تخفيف المصيبة) ـ ضربت بجبينى على الأرض ، وكنت اعرف أن فعل هذا دون جدوى ، ونطقت فى يأس بآيات من سورة البقرة :

« غفرانك ربنا »

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا »

« ربنا ولا تحمل علينا اصرا »

« ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به »

« واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ٠٠ وانصرنا »

ربما غفر ، وربما رحم ، ولكنه لم ينصرني ٠

بكيت في ضعف لم أكن أحس به على هذا النحو من قبل ، بكيت كالطفل العاجز ٠ فكل ما كنت أعرف وما كنت أنكر لم يكن له أى معنى ، ها هو الليل خارج الجدران أصبح حالكا ينذر بالشر ، والعالم أصبح مخيفا وأنا ازاءه صغير ضعيف ٠ من الأفضل أن أبقى هكذا جالسا جلسة التشهد وأن أفني دموعا تسيل ، كي لا أنهض بعد ٠ انني اعرف أنه لايمكن ان يستولى علينا الضعف والحزن اذا كنا مؤمنين حقا ، ولكن معرفتى ذلك كانت من قبيل العبث ٠ فهأنا ضعيف وحزين ، ولست افكر أأنا مؤمن حقا أم انسان ضائع فى هذا العالم الوحيد الأصم ٠

واذ ذاك ألم بي هدوء خالى الأثر ٠ وكنت ما أزال أشعر بدمدمة فى مكان ما بداخلى ، تأخذ كلما تقدم الوقت فى الابتعاد ، واسمع صراخا تجف حدته كلما تتالت اللحظات ٠ لقد أفرغت العاصفة غضبها وهدأت، هدأت من تلقاء نفسها ٠ وربما كان ذلك من أجل ما سكبت من دموع ٠

كنت متعبا ، كنت كمريض نهض توا من فراشه ٠

أطفأت الشموع منتزعا حياتها واحدة اثر أخرى ، دون أن يكون لدى مشاعر الاحتفاء التى كنت احسها وأنا اقوم باشعالها ٠ لقد أهلكنى الحزن ، وكنت اذ ذاك وحيدا ٠

سأبقى فى الظلام طويلا ، وهذا ما أخشاه ٠ سأبقى وحيدا ٠

ولكن عندما انتزعت روح الشمعة الأخيرة لم يتلاش ظلى ٠ كان يهتز متثاقلا على الحائط ، فى ظلام لم يكن تام السواد ٠

استدرت ٠

كان بجانب الباب يقف حسين ، ذلك الذى كان قد نسى ، وشمعة بيده كانت تضىء ٠

كان ينتظرنى فى صمت ٠

٩

« ... فاجمعوا امركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم
عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون »

كانت يدى ما تزال تهتز ممسكة بالقلم ، كما لو كان ذلك الذى اتناوله بالكتابة يحدث الآن ، كما لو لم يمر أكثر من شهر منذ وجود تلك اللحظة التى تغيرت عندها حياتى . لا أستطيع أن أذكر على وجه الدقة جميع ما عانيته من الأمور والأحداث ، ولا أن أقول على أية نار كنت احترق نارى ونار الآخرين ، ولا أن أصف كل ما دار بفكرى وسرى بمشاعرى عندما هبت على العاصفة ، فهناك أشياء عديدة قد استترت للبعد الزمنى خلف ضباب كثيف ، فاصبحت رؤيتها اذ ذاك متعذرة ، وصارت تشبه رؤى المحموم . كما لا أستطيع أن أحكى على الترتيب كل ما حدث معى وحولى ؛ وأما ذلك الذى كان يحدث فى نفسى فسأحكى عنه بقدر ما أستطيع وبقدر ما تعرف نفسى .

فى اليوم التالى لحديثى بالمسجد ، كان ردهم على ما صدر منى من قول .

لم يكن يختلج فى صدرى شىء ، ولم اكن أتوقع أن يقوموا بشىء ، وان كنت أظن أنهم سينسجون خيوطا قذرة من حولى .

بعد ظهر هذا اليوم عاد حسن الى التكية . وكان يبدو لى انه ينظر الى منذ ليلة الأمس على خلاف ما كان ينظر الى من قبل ، انه ينظر الى الآن باحترام ، وبارتياب معا ، كما لو كان يدهش ، كما لو لم يكن يتوقع ثورتى . والآن عندما حدثت ، كنت اجد اسبابا لها ، فيما بعد ، محتفظا فى نفسى بمشاعر الظلم والاهانة . انه أخى ، كنت أظن هكذا ، واذا كنت لم أستطع انقاذه فباستطاعتى ان ارثيه . لقـــد كنت أخشى أن يلومنى حسن لعدم قيامى بشىء آخر ، من قبل ، عندما كانت هنـــاك

فسحة من الوقت ، ولكنه لم يقل شيئا ، كما لو كان قد نسى · لقد كنت شاكرا له من أجل هذا النسيان · كنت أنظر اليه أكثر مما كنت أنظر الى نفسى ·· فقد كنت أعتد به لأنه يعرف كل شيء : فباستطاعته أن يصيبنى بجرح بالغ ·

لقد كانت نظرته الدهشة محببة الى لسبب آخر كذلك · وربما لم اشعر فيما مضى قط كما أشعر الآن كم كانت تتوقف حالتنا النفسية وقراراتنا على من حولنا من الناس · لو كان حسن والحافظ محمد قد ذهلا وانتقدا حديثى بكونه منافيا للعقل لأصابنى الذهول أنا الآخر · وأما هكذا فقد أحسست أن موافقتهما قد أنزلت عن عاتقى عبء الشك ، وعرفت أننى فعلت ما كان يجب أن يفعل ، فعلت ما كان حسنا · ربما فعلت شيئا غير معقول ، ولكن فعله واجب · كان حسن يدهش اذ أنه كان يظن أننى جبان ، ولكن هانا لم أعد ذلك ·

كم يكون جميلا هذا الشعور بالفخر ؛ اذ أنه يدافع عنا ضد الندم ·

ان ذلك الذى قلته فى المسجد كان حزنا ، فزعا ، امتناعا عن البكاء وربما امتناعا عن الصراخ · ولكن كل شيء كان لى · لقد كان حسابا حزينا ودفاعا حزينا ، ولكننى عندما قلت ذلك أصبح على الفور شيئا آخر · فمن اى شيء بدأ ، واى شيء كان ، فقد تحول الى عبء جماعى ، وحكم كذلك · واصبحت ملزما به ، لأنه لم يعد يخصنى وحدى ، من أجل كلماتى · قال هذا حسن كذلك (كان يحكى للحافظ محمد وأنا استمع من البيت) وذكر كيف أنه لم يسمع حزنا أصدق وادانة أشد · لقد كان يجلس مأخوذا كالآخرين ببساطة الكلمات العادية المروعة ، وبحزن الانسان الذى يشعرك بقوله انه يبكى · ثم أضاف انه كان يشعر بأننا اصبحنا جميعا مذنبين واصبحنا جميعا حزانى ·

الا ينبغى الآن ان أنسى كل ما حدث وكل ما قلت ؟ فالكلمة تلزم وهى الفعل ، تلزمنى أمام الآخرين وأمام نفسى أيضا ·

وعندما خرجت الى الحديقة اخذا يتحدثان عن شخص آخر · لقد كان يؤسفنى أننى لم ابق فى افكارهما فترة اطول ، ولكن الأمر سواء ، فان ذلك الذى قيل فى غيابى اكبر قيمة من ذلك الذى يقال فى حضورى·

قال الحافظ عندما اقتربت منهما :

ـ اننا نتحدث عن والد حسن ٠

وكانه كان يرغب بهذا الا أتناول موضوعا آخر ٠ وأما أنا فقد خطر ببالي في ارتياح أن لكل شخص عذابه الخاص به ، وحمدت الله ان كان الأمر هكذا ٠

أخذ حسن يتحدث كعـــادته ، يلقى القول فى صفاء وسخرية ، كاشفا بهذا عن بساطته وسطحيته في كل شيء ٠ في التفكير ، في الشعور في علاقته بنفسه وبالآخرين ٠ (لقد نسيت أنه بقى معى طيلة الليلة الماضية وهو حزين) ٠ لقد قال ان والدى رجل غريب اذا كان الأمــر يستلزم أن يقال هذا ، لأن كل انسان غريب في ذاته ، عدا هؤلاء الذين لا لون ولا صورة لهم ، هؤلاء الذين يوصفون بالغرابة أيضا ٠ لأنهــم لا يملكون شيئا يخص أنفسهم ، أى ، يخصهم بالذات ذلك الشيء الذى لا يخصهم ٠ وعدانا نحن بطبيعة الحال ، لأننا نتعود على أنفسنا بالقدر الذى يجعل كل شيء يخالفنا يبدو لنا غريبا ، فباستطاعتنا أن نقـــول انه غريب ذلك الذى ليس لنا ٠ وها هو الوالد يبدو غريبا لأنه يعتقـــد أننى غريب ، وأنا بدورى أراه غريبا وهلم جرا وهلم، ولا نهاية لهـــذه الغرابة ، وربما كان لزاما أن ندهش لذلك بالذات ٠ ان الفرق بينهما يتجلى فيما يعتقده الوالد من أن « حسن » أتعس نفسه بهذه الطريقـــة وفيما يعتقده « حسن » من أن الانسان يستطيع أن يتعس نفسه بطرق شتى ، واقل هذه الطرق تعاسة أن يفعل ذلك الذى يرضيه ولا يفضحه ، وهكذا يبدو أن الوالد أصبح تعسا لأن ابنه أصـــبح راضيا ، ولو كان الابن تعسا حقا لاعتقد الوالد أن فى ذلك سعادته وسعادة الأسرة ٠

سأله الحافظ محمد وهو يبتسم :

ـ هل رأيته منذ جئت ؟

ـ حاولت ٠ لقد أردت أن أعدد له الطرق التى يستطيع بها الناس أن يصبحوا اذلاء ٠ كما اردت أن أساله عن هـــذا الذى يعتقد أن حياتى تضايقه : انها محببة الى كحذاء قبيح الشكل أفسده طول السير به ، ويمكن للمياه أن تتسرب داخله ، كما يمكن أن يثير فينا الضحك ، ولكنه لايضايق القدم ، ولا ترغب أن تخلعه وسط الطريق ، اذ أنك لا تحس به فى قدميك لماذا أجعل الحياة تضايقنى ، لماذا أدع النفس تشعر بها ككابوس ؟

ـ أردت أن تقول له ذلك ؟ ولم ترغب أن تراه ٠

ـ كيف يكون باستطاعتي أن أقول له دون ان أراه ؟ لقد رغبت أولا أن أراه ، اذ ان ذلك يأتي في المكان الأول ، وأما بالنسبة له فقد كان المكان الأول لعدم الرغبة في أن يراني ، وهكذا رجعت برغبتي دون أن أحققها ٠

ـ أقال هذا لك ؟

ـ بعث بكلمته على فم الآخرين ٠ لقد كانت تحمل رائحة والدي ، وقد أحدثت انعطافا وحنوا حتى لقد وددت أن أقبل الفم الذي حملها ، والذي كان صغيرا وبريئا لدرجة جعلته لا يعرف ماذا حمل ٠

ـ ينبغي أن تذهب ثانية ٠

ـ من أجل الفتاة ؟

ضحك الحافظ محمد وقال :

ـ كما تشاء ٠ غير انه يجب أن تذهب ٠

ـ كم مـــرة ينبغي أن أذهب ؟ كم يجب على الابن أن يذهب دون فائدة ؟

ـ مرة أخرى كذلك ٠

نظر اليه حسن بشكل يثير الارتياب وسأله :

ـ هل كنت عند الوالد ؟

ـ كنت ٠

ـ هكذا ، كنت ٠ ولماذا ؟ أتريد أن تجمع رجلين عنيدين لينتج من هذا مسالة مظهرية ؟

ـ لينتج ما ينتج ٠ لقد قلت انك ستاتي اليوم ، للتحدث معه ٠ ومن السهل أن يستميل الانسان عطف والده ٠

ـ نعم ، وخاصة والدي ٠

تذكرت في كره حديثي مع المفتي ، لقد كان يشبه قليلا هذا الحديث غير اني كنت مضطرا الى ذلك ، واما هذا فما هو ؟

خطر ببالي في حقد انه ربما تصالح مع والده ٠ وبذرة من الحسد قلت لنفسي : سوف ينساني ٠

توضأت وذهبت الى المسجد ٠

كانت السماء ملبدة بالسحب عندما أقبل الليل ، وانني أذكر هذا جيدا ، فقد نظرت الى السماء كما ينظر الفلاح ، فعلت ذلك بتعودى القديم الذى لم يفارقنى بعد ، وان لم أكن فى حاجة اليه ٠ واستطعت كذلك أن اشم تغير الطقس لأيام عديدة مقبلة ٠ لقد خدعتنى السحب اذ ذاك ، وبكرت بما كنت اظن ، حيث كنت مشغول البال بنفسى للغاية ٠ كم كنت اود هذه السحب وأرغب فى الجو السيء ، وربما لم أستطع من أجل ذلك أن أتنبأ جيدا بحالة الطقس فى الايام المقبلة ٠ ودون سبب رجوت ألا يقوم الوالد بالسفر الى القصبة فى الجو المطير ٠

اخذ النهار يتلاشى ، وما زال الشفق يبدو فى الأفق ٠ وهانا اذكر اننى رأيت أربعة من الفرسان عند مدخل الزقاق ، فى هذا الاحمرار السماوى الذى كان يظهر وراءهم بمثابة الخلفية للوحة ٠ لقد كانوا على درجة من الجمال ، وبدوا كرسوم طرزت على حرير أحمر ، كصور خيطت على رقعة من السماء حمراء داكنة ٠ لقد خيل للعين أنهم أربعة من المحاربين يقفون وحدهم فى حقل واسع قبيل المعركة ، وكان من الصعب ادراك حركاتهم وهم يقومون بتهدئة خيولهم ٠ وعندما اتجهت نحوهم ، قفزت الخيول ، محثة بالضربات التى لم أرها ، واندفعت فى صف واحد تغلق الزقاق الضيق بحيث لا تدع مكانا للمرور ٠

اقبلوا على !

لم أكن جبانا فى وقت ما ، والآن لا ادرى ماذا انا ، غير أنى أعلم أن هذا الموقف لن تجدى فيه شجاعة منى أو جبن ٠ استدرت ، ان الباب بعيد ، كان على بعد عشر خطوات منى ، ولكن ادراكه كان متعذرا ٠ رفعت اليهم يدى ، وكان ذلك يعنى : قفوا ، انكم ستدهموننى ! ولكنهم كانوا يضربون بالسياط أرداف الخيول ، يتعجلونهم ، انهم يقتربون منى فى سرعة ، والارض من تحتهم تدمدم دمدمة عنيفة لم أسمعها من قبل فى حياتى ٠ وأما الغيلان ذات الرءوس الاربعة فكانت تندفع نحوى مثارة ومتعطشة للدماء ، وكان اندفاعها فى سرعة لم تكن تتصور ٠ حاولت الهرب أو برق ذلك فى ذهنى فحسب ، ولكن القوة خانت قدمى ، فقد كنت أحس تنفس الخيول خلف عنقى ، وكنت أشعر بقشعريرة فى فقار ظهرى من الضربات التى لم تنصب على بعد ، سأقع ، سيدوسوننى ،

استندت الى الجدار ملتصقا به ، ومقللا ما استطعت من قدر بروزى عنه، ولكنى ما زلت عرضة للاصابة اذ يمرون ، وفجأة رأيت فوق رأسي أربعة من خطوم الخيل مشقوقة ، ضخمة ، حمراء ، مملوءة بالدم والزبد ، وكذا أربعة قوائم تضرب فى الهواء ، ورأيت أربعة وجوه لحراس غلاظ أشداء، وأربعة أفواه لهم مفتوحة ، حمراء ، مصطبغة بالدم كخطوم الخيل ، وأربعة سياط متخذة من الثور ٠٠ أربعة ثعابين كانت تفح على ، وتتلوى حول وجهى وعنقى وصدرى ، لم آكن احس بالألم ، لم آكن أرى الدماء، كانت عيناى تنظر فى فزع الى الغيلان المصلوبة ذوات القوائم والرءوس العديدة ٠ لا ! ـ كان بداخلى شيء يصيح دون صوت ـ شيء أشد من الخوف ، واصعب من الموت ، لم أتذكر حتى الله ، ولم يحضرنى اسمه ، لم يكن يوجد أمامى سوى فزع دموى لا يمكن تصوره ٠

وانصرفوا بعد ذلك ، ولكنى ما زلت اراهم أمامى ، فقد بقيت صورتهم ثابتة فى تلك الرقعة الدموية من السماء ، واستقرت لدى تحت جفنى ٠ كنت اراهم فى وضوح كأننى انظر الى الشمس ٠

لم آكن استطيع ، بل لم آكن أجرؤ على الحركة ، فقد كنت فى خوف من ان انهار على احجار الطريق ، لم آكن أعرف كيف كنت واقفا ، اذا ما كنت أحس بوجود قدمى تحتى ٠

وفى تلك اللحظة اقترب منى ملا يوسف ، آتيا من جهة ما ، لا أعرفها ٠ وكان يبدو فزعا ٠

ـ هل أصابوك بجراح ؟

ـ لا ٠

ـ آه ، انهم أصابوك ٠

ـ الأمر سواء ٠

كان وجهه الممتلىء والذى تظهر عليه علائم الصحة يبدو شاحبا ، وكانت عيناه تكشفان عن الحزن والفزع ٠ هل اشتد حاله من أجلى ؟

يا لحسن الحظ اذ جاء هو بالذات ، سأكون أمامه شجاعا ٠لا ادرى لماذا ، ولكن يجب على أن أكون هكذا ٠ فأمام كل شخص سواه أستطيع أن أظهر خوفى ، وأما أمامه فليست لدى الجرأة ٠

قال فى هدوء ودون سبب :

ـ هيا بنا الى التكية

وتذكرت اذ ذاك أننى ما زلت أقف مستندا الى الجدار ٠

قلت :

ـ سأتأخر عن الذهاب الى المسجد ٠

ـ لا تستطيع بهذا الشكل أن تذهب الى المسجد ٠ اننى سأنوب عنك اذا أردت ٠

ـ هل تسيل الدماء ؟

ـ نعم ٠

اخذت أسير نحو التكية ٠

امسك بابطى لكى يساعدنى ٠

خلصت ذراعى من يده وقلت :

ـ لا يلزم ٠ اذهب الى المسجد فالناس ينتظروننى ٠

توقف ، كما لو كان قد خجل ، ونظر الى فى عبوس ، وقال :

ـ لا تخرج من التكية يوما أو يومين ٠

ـ انك رأيت كل شيء ؟

ـ نعم رأيت ٠

ـ لماذا هاجمونى ؟

ـ لا أدرى ٠

ـ سوف أكتب شكوى ٠

ـ اترك هذا يا شيخ أحمد ٠

ـ لا أستطيع أن اترك ٠ ساكون خجلا أمام نفسى ٠

ـ اترك ، انس ٠

انه لا ينظر الى عينى ، كان ينطق بهاتين الكلمتين فى رجاء ، كأنه كان يعرف شيئا ٠

ـ لماذا تقول لى ذلك ؟

لزم الصمت ، مخفيا نظره ، دون أن يعرف ماذا يقول ، اذ كان الخوف قد راوده ، أو دون رغبة منه فى القول ، اذا كان يعرف شيئا ، أو نادما على شيء تفوه به ، اذا كان قد تذكر أن الأمر لا يخصه ٠ يا الهى ، ماذا فعلنا به ٠

انني من أجله أخفيت الخوف والضعف ، ومن أجله اردت أن اذهب الى المسجد والدماء تسيل ، ومن أجله قلت انني سأكتب الشكوى . لقد رغبت أن أكون صامدا أمام هذا الرجل الشاب الذى كانت تربطني به علاقات غريبة . وللمرة الاولى رثى لحالي . وكنت أظن أنه يكرهني .

قلت له وأنا أنظر الى وجهه وقد عاد اليه لونه :

ـ اذهب . اذهب الآن .

لقد كان طبيعيا جدا أن يذهلني الخوف من أجل وقوع حدث لايمكن تصوره . ولكني بأعجوبة ، ودون صدام نفسي ، استطعت أن أمر بأزمة اللحظة الاولى ، ونجحت حاملا كل شيء في نفسي أن أنحي الخوف عني وألقي به جانبا في مكان ما ، في مكان سحيق ، ما حيا أثره في هذه اللحظة انه شيء مخيف ، هكذاكانت تردد في حنايا النفس ذكراى الساذجة ، ولكنها لم تفلح في احياء شيء ما . لقد كنت فخورا بأنني أخفيت الخوف وظل هذا الشعور الجميل بشجاعتي يراودني . لم يكن على وجه يطمئن اليه ، ولكنه على أية حال كان كافيا لأن يجعلني ارجيء كل شيء .

وبينما كان مصطفى والحافظ محمد ينزعان ثيابي عني ويقومان بغسلي ، وقد استولت عليهما الدهشة وانتابهما الذعر ، كنت أحاول أن أوقف ارتجاف يدي وقدمي ، ولكن محاولتي كانت عبثا ، غير أنني كنت أملك من القوة ما يحول بيني وبين الخوف والخجل . كانت النار المطمورة تحاول مرات عديدة أن تهب وتشتعل ، فقد انبعثت تلك الدمدمة المخيفة كما انبعث الفزع فجأة ، ولكني نجحت للمرة الثانية في أن أرد كل شيء الى ذلك الذى كان ولم يعد يؤلم . لقد انتهى الأمر ، كنت أقول هذا لنفسي ، فلم يحدث شيء من شأنه أن يشيرني الى حد كبير ، حمدا لله اذ لم يكن اشد ،حمدا له اذ انتهى عند هذا الحد . كنت أستمع في شوق الى الحديث الذى يدور بينهما لا ربط فيه ولا صلة ، والىتساؤلات مصطفى بين الفترة والأخرى : ماذا حدث ، اذ لم يكن باستطاعته أن يفهم شيئا ، والى تأوهات الحافظ محمد التى تنبيء عن الدهشة والفزع ،تختفي ليحل محلها تشجيعه الساذج ، أو زجره الغاضب لمصطفى ، أو تهديداته لشخص غير مسمى ، شخص مجهول كان يطلق عليه لفظ « هم » . كان سخطه البادى التلعثم يثير في نفسي شعور الاهانة الذى لم يرق الى درجة التأكد ، تلك الاهانة التى لحقت بي ، وعندما عاد ملا يوسف من المسجد

ووقف بجانب الباب صامتا ، أصبحت رغبتي في القيام بعمل ما أكثر قوة وأشد عزما • انتهزت هذه الفرصة على الفور ، خشية أن تدركني رغبة أخرى تتمثل في عدم قيامي بشيء • كتبت الشكوى الى قاضي الوالي ، وطلبت من يوسف أن يقوم بنسخها •

وعندما استلقيت على السرير لم يرد النوم أن يداعب جفوني • لقد كانت الشكوى تعذبني ، فهي ما زالت لدي ، وكنت مترددا أأرسلهـا أم امزقها • انني اذا ألقيت بها فسينتهي كل شيء عند هذا الحد • ولكن سوف يحيا عندئذ كل شيء كان قد دفن ، وباستطاعة النار المطمورة أن تضطرم • وسأستمع للمرة الثانية الى الدمدمة التي تورث القلب الضعف وتسلمه الى عدم الحركة • واذا أرسلت الشكوى فسأحتفظ بما اعتقده من أنني أستطيع الدفاع عن نفسي ، ومن أنني أستطيع كذلك أن أتهـم الآخرين • وأراني في حاجة الى هذا الاعتقاد •

خيل الى أنني لم أنم لحظة واحدة ، فقد أيقظتني خطوات لم تكن على شيء من الحذر كانت تمر في الغرفة ، كما أيقظني ضوء كان ينبعث من شمعة • نظرت فوجدت رجلا مسطح الوجه يقف عند رأسي ، وكان هـو الرجل الذي جاء الى بتهديد المسلم • وأما الآخر الذي يحمل الشمعة فما كنت أعرفه •

سألت في فزع ، وقد انتزعت من النـوم ، وتملكتني الدهشـة لخشونة تصرفهما •

ـ ماذا تطلبان ؟

لم يعجل بالاجابة ، وأخذ ينظر الي في سخرية ، متطلعا كما كان يتطلع في تلك الليلة ، وفي مكر الاصدقاء ، كما لو كنا نحن الاثنين نعرف مزاحا يقرب بيننا ويعطينا الفرصة كي نشعر بالبهجة والسرور ، دون أن نقول شيئا • وكان الآخر يسلط على الضوء في سريري كما لو كان يسلطه على عاشقه •

وقال الرجل في سرور :

ـ لم يطع قولي • وقد حذرته •

ثم تناول الشمعة ، وأخذ يفتش في الغرفة ، ويقلب في الكتب ، وقد ظننت أنه سيلقي بها في غير اكتراث ، ولكنه كان يعيدها بعنايـة الى مكانها •

سالت فى حيرة ، راغبا ان اعرف :

ـ ماذا تطلب ؟ من سمح لكما بالدخول ؟ كيف تجرؤان على دخول التكية !

لقد كان صوتى خافتا وعلى درجة كبيرة من الاضطراب •

نظر الى فى دهشة ، دون أن يجيب بشىء •

وجد الشكوى وقراها ، مشيحا برأسه •

وسال فى حيرة :

ـ ماذا تريد بهذا ؟

وأردف يقول :

ـ أمر يخصك •

ثم وضع الشكوى فى جيبه •

وعندما ثرت للمرة الثانية ، وقلت اننى ساشتكى الى المفتى ، نظر الى فى أسى ، ولوح بيده ، كما لو كان مملا له أن يدخل فى نقـــاش مع رجل ساذج •

وكرر :

ـ أمر يخصك •

ثم قال :

ـ هيا بنا ، ارتد ثيابك •

خيل الى أننى لم أسمعه جيدا • وقلت :

ـ اطلبت أن أرتدى ثيابى ؟

ـ نعم طلبت • وتســتطيع ان تجىء هكذا اذا أردت • وأسرع ، ولا تجلب أذى لى ولنفسك •

ـ حسن ، ساذهب • ولكن لابد أن يدفع أحد الثمن •

ـ هذا هو الأفضل • ودائما يدفع أحد الثمن •

ـ الى أين تذهبان بى ؟

ـ آه ، الى أين نذهب بك !

ـ ماذا أقول للدراويش ؟ ومتى ساعود ؟

ـ لا تقل لهم شيئا • وستعود على الفور • أو ربما لن تعود أبدا •

لم يكن هذا مزاحا خشنا ، بل كلمة صريحة عن احتمالات حقيقية •

دخل الحافظ محمد الى الغرفة فزعا ، وقد بدا أبيض الجورب والقميص والوجه ، كان اشبه بميت قام من قبره ، وكان لا يستطيع التكلم • وفى الامكان أن يعد هذا فالا سيئا • وانتظرت أن يقوم بدور ما رغم علمى أن هذا ليس من المعقول •

قلت له مشيرا الى الرجلين اللذين كانا بانتظارى ، واللذين قد قست قلوبهما بحيث لا يمكن التاثير عليهما :

ـ لقد جاءا من أجلى ، لكى يذهبا بى • سأعود عن قريب ، هكذا آمل •

ـ من هما ؟ من أنتما ؟

كان الرجل يتعجلنى بقوله :

ـ هيا ، هيا ! من نحن ! ما كنت أعرف أن فى العالم أنواعا من المجانين ! لناخذك انت كذلك وستعرف من نحن •

صاح الميت دون انتظار ، اذ كان فى حالة فزع واضطراب :

ـ خذانى ! اذهبا بنا جميعا ! فكلنا مذنبون مثله !

قال الشرطى معللا :

« مجنون ! (ثم أردف :)لا تتعد دورك ، يمكننا أن نجىء من أجلك أيضا •

ـ من يفخر بالظلم ••

لم يكمل ذلك الذى كان فى الامكان أن يجلب له الهلاك ، فقد منعه عن ذلك سعال مفاجىء ، ولم يكن فى امكان سعاله أن يفيده فى وقت أكثر مما أفاده الآن • لقد أخذ يتصدع كما لو كان الدم بأكمله يندفع وينصب فى حلقه ، وذلك لقلقه واضطرابه كما أظن ، دون أن أرثى له ، اذ أنه سيبقى هنا • كنت أنظر كيف يتمزق ويتقلص ، كنت أنظر دون أن أتحرك ، ولم يكن ينظر اليه غيرى ، وكنت فزعا أمام هذا الخروج غير المحبب فى الليل ، ولكن لم أرد أن أظهر ذلك •

اقتربت منه كي أساعده ۰ فمنعني الشرطى ۰

وقال في هدوء ، ربما يشبه أن يكون سبا أو احتقارا :

ـ مسكين ۰

ثم أشار الى بيده لكى أخرج ۰

وأمام التكية كان ينتظرنا رجل آخر ۰

ساروا بجانبي وخلفي ، وكنت اخطو محصورا بينهم ، ومضيقا على منهم ۰

كانت الظلمة تغشى القصبة ، فقد اختفى القمر وزال الصحو عن وجه السماء ۰وكانت ليلة عديمة الرؤية خالية من الحياة ، سوى ما كان يطلقه الكلاب من نباح في فناء البيوت ، ردا على نباح يصدر من بعيد ، من جبل قريب من السماء ، لقد مر وقت انتصاف الليل ، والأرواح الآن تطوف بالعالم ، وأولئك الذين لم يقبض عليهم يغطون في نومهم غارقين في أحلامهم السعيدة ، والظلام يلفهم كما يلف البيوت والقصبة والعالم ، فهذا الوقت وقت القصاص ، ساعة القيام بالأعمال الشريرة ، لم يعد هناك أصوات الناس ولا وجوههم ، لم يعد سوى هذه الظلال التى تحمى ظلى ۰ لا ، ليس هناك من شيء سوى حرارتى المشبوبة تحيا بمفردها في هذه البيداء الحالكة ۰

في بعض الأماكن كانت تظهر احيانا ذبالة شمعة أو مصباح ، وذلك من أجل مريض ، أو طفل استيقظ في وقت غير مناسب بتأثير من خوفى ، أو حفيف يسمع ويخشى منه وقوع شر ، وكان يفزعنى تفكيرى في ذلك العالم الهـــادى ، الذى كنت أبعده لكى لا أرانى أسير ضاربا في الظلام نحو مصير مجهول ، اننى أسير دون حاجة الى ذلك ، ودون قصد منى الى مكان ، ويخيل الى أننى اسير ، وأننى فقدت الاحساس بالواقع ، كما لو لم أكن في هذا العالم ، كما لو لم أكن في حالة اليقظة ، وكان ذلك من أجل الظلام ، من أجل الظلال دون الأشكال ، من أجل الشك في أن شخصى هو شخصى أنا ، وفي امكان كونه شخصى أنا ۰ انه شخص آخر ، أعرفه ، وانظر اليه ، وربما بدا عليه التعجب لهذا ، وربما تملكه الخوف من أجله ۰ أو لعلنى ضللت الطريق ، لا اعرف اين أنا ، لابد أننى في مكان ما ، امر به مرة واحدة في حياتى ، امر في الطرق التى حددها لى قدرى ۰ اننى لم امر بهذا المكان قط ولا أستطيع أن أخرج منه ، ها سوف يشعل أحد

النور الآن ، لكي يدعوني الى ملجأ أمين ، ولكن أحدا لم يشعل النور ، ولم يكن هناك من يهديني بصوت وددت أن أسمعه الى الطريق الصحيح، كان الليل ما يزال مستمرا ، وكانت نهاية الشخص الآخر كما كان الشك في شخصي يكونان معا حلما سيئا ، سوف أستيقظ وسوف أشعر ببرد الراحة ٠

لماذا لا يصيح الناس عندما يساقون الى الموت ، لماذا لا يعلنون عن أنفسهم ، لماذا لا يطلبون المساعدة ٠ لماذا لا يهربون ؟ ان لم يكن هناك من يسمع صيحاتهم أو اعلانهم عن أنفسهم ، اذ يغط الناس في نومهم ، وان لم يكن أيضا مكان للهرب ، اذ الأبواب جميعها مغلقة باحكام ٠ لا أقول هذا لأجلي ، فلست محكوما علي بالاعدام ، سوف يفرجون عني ، سيعودون بي عن قريب ، سأعود وحدي ، في طرق معروفة ، لا في هذه الطرق التابعة لغيري ، والتي تبدو مخيفة ، ولن أسمع أبدا كيف تنبح الكلاب ٠ كيف ترسل نباحها في يأس وقنوط من أجل الموت ، ومن أجل الأرض الخالية البلقع ، سوف أغلق الباب ، وأسد أذني بالشمع لكي لا أسمع ٠ هل سمع هذا النباح كل من ذهبوا به ؟ أكان لهم بمثابة الوداع الأخير ؟ لماذا لم يصيحوا ؟ لماذا لم يهربوا ؟ لو عرفت ماذا ينتظرني لأخذت أصيح ولا نطلقت من أجل الهرب ٠ وسوف تفتح كل النوافذ وكل الأبواب على مصراعيها ٠

آه ٠ لا ، لن يفتح أحد الأبواب ٠ ولذلك لا يهرب أحد ، فهم يعرفون ذلك ٠ أو أنهم يأملون أن يعودوا سالمين ٠ ان الأمل بلاغ الموت ، انه قاتل اشد خطرا من الكره ٠ فهو مختبيء يعرف كيف يجذب ، يهديء ، ينوم ، يهمس في الأذن بما يرغبه الانسان ، يقوده تحت السكين ٠ كان الوحيد الذي هرب هو اسحاق ، قادوه في تلك الليلة كما يقودونني الآن ، لا ، لقد كان عدد الحراس أكثر ، فهو اذن شيء آخر ، كما أنه مهم لهم ، أما أنا فلست مهما لأحد ، انه دون شك لم يسمع كيف تنبح الكلاب ، ولم يفكر أنه يحلم وانه سوف يستيقظ ، كان يعرف الى أي مكان يذهبون به ، ولم يكن له أمل أنه سيبقى على قيد الحياة ، لم يكن يخدع نفسه كما فعل الآخرون ٠ وانما قرر على الفور الهرب ، وكان هذا عنده بمثابة التفكير الأول والتفكير الوحيد ، ولذا كان يسير وديعا ، اذ كان يخاف ان يعلن التفكير عن نفسه بنفسه ، فقد كان قويا الى ذلك القدر ، وكان اسحاق ينظر دون انقطاع الى الظلام ، كان الليل مقمرا ، خائنا ، يظهر العداوة ٠ ولكن اسحاق كان ينظر الى الظلال ، الى أمكنة الاختباء ، باحثا

عن ظلال أشد كثافة ، وفجأة قرر الهرب عندما بدا له انهم غير منتبهين وان الفرصة لن تتـــكرر • وفى لحظة واحدة ، فى لحظة واحـدة قصيرة فقط ، كنت اياه ، بين يدى القفز ، بن يدى الهرب ، انهم خلفى وبجانبى ، اننا مرتبطون برباط أشد قيدا من رباط الصداقة ، اشد قيدا من رباط الاخوة ، والآن سينقطع هذا الرباط ، وستصبح بيننا قطيعة اضطرارية أليمة ، فهم ليسوا شيئا بدونى ، سوف تؤلمهم هذه القطيعة ، وسوف يتقرر كل شيء فى لحظات قصيرة من الوقت يتعذر ادراكها ، كما يتعذر معرفة مقدار ما استغرقته من زمن ، لن نعى سوى تلك اللحظة التى يستغرقها القفز ، وللمرة الثانية ، وللمرة الثانية أيضا ، بدا لى ان الظلام بأكمله اصبح شفافا أكثر من اللازم ، وان كل خطوة قصيرة للغاية ، وان جميع امكنة الاختباء اصبحت مكشوفة تماما • عبثا أن احاول ، فالى أين الهرب ؟

انتابنى الضعف ، وما كنت أحاول ، وكان ذلك من أجل التفكير وحده • اذ ما كنت قد عزمت ، وما كنت فى حاجة الى العزم • فهذا ليس لاسحاق : وانما لى ، ولعله اقل من الواقع او أكثر : انه استحالة تحدث بطريقة ما •

كانوا يقودوننى من ظلام الى آخر ، دون أن يكون هناك اتضاح لشكل او مكان ، اذ ما كنت أرى شيئا ، فقد كنت مشغولا بنفسى ، مشغولا بالتخيل الذى أفقدنى حتى ذلك الذى كان باستطاعتى أن أتعرف عليه • كنا نغير الظلام ، وكنت أعرف ذلك بما كان منا من سير وحركة ، وبما كان من انقضاء الوقت ومروره ، وان لم أكن على علم فى أثناء المرور بذلك •

لقد التقوا فى مكان ما بأحد الأشخاص • وتبادلوا الهمس من أجل أمر من الأمور وأحاط بى معهم شخص آخر ، فقد اصبحت قيمة لا يجرؤ على اضاعتها أحد ، ولم أكن أعرف بعد من معى ، وان كان الأمر سواء ، فكلهم متساوون ، كلهم ظلال ، كلهم يقومون بهذا العمل الليلى من أجلى • انهم يستطيعون أن يحل محلهم آخرون ، غير أن أحدا لا يستطيع أن يحل محلى •

وعندما ضربت بجبينى عتبة الباب العليا ، عرفت أننا قد وصلنا • اننى وصلت وأما هم فسيعودون • وستنوب عنهم الجدران •

صحت خلال الباب المغطى بالحديد عندما دخلت ، غير معتقد أن فى العالم مكان يبلغ من الظلام هذه الدرجة :

ـ جيئوا الى بنور !

لقد كان هذا هو التعود الأخير المتبقى من الخارج ، الكلمة الأخيرة المتبقية . لم يسمعها أحد ، أو لم يرد أن يسمعها ، أو لم يستطع أن يفهمها . لقد استطاعت أن تكون أشبه بالهذيان .

كانت الخطوات تبتعد فى مكان ربما كان ممرا . وربما كان هذا المبنى هو السجن . وربما كان الشخص أنا ، أو ربما لا ؟ نعم انه أنا ، ويا للأسف . انني لا أفقد تفكيرى فيما يشبه الحلم من الضباب ، ولا انفصل لكى أستطيع أن ألقى نظرة الى نفسى من البعد كما لو كنت أنظر الى شخص آخر ، انني واع ، يقظ ، وكل شىء واضح فى نفسى ، على الرغم منى ، ليس هناك من خداع وليس هناك من زيف .

لم ابتعد لفترة طويلة عن الباب ، ولم تفارق أنفى رائحة صدئه الحادة ، فهذا أول مكان وقفت فيه فى الظلام وكان مخصصا لأجلى ، وقد أصبح معروفا لدى منذ لحظة واحدة ، وبذا صار أقل خطورة . وعندئذ أخذت أسير بجانب الجدار ، لكى اختبر مساحته وأعرف نظامه ووضعه ، دون أن يساعدنى البصر فى شىء ، تاركا للأصابع أن تقوم بهذه المهمة ، وفى كل مكان كنت أحس برطوبة شديدة تنبث من هذه الجدران التى فقدت استواءها ، كما لو كانت هناك بئر فوقى تتسرب منها المياه الى الجدران فتورثها هذه الرطوبة الشديدة . كانت الرطوبة تحتى كذلك ، وكنت أحسها بقدمى اللتين كانتا تلتصقان فى شدة وقبح بشىء لزج . وصلت من جديد الى الباب والى الرائحة الشديدة التى يبعثها صدؤه ، والتى بدت لى أيسر تحملا من نتن الرطوبة ، دون أن أجد شيئا .

كان الخلاء محدودا ، وكانت البيداء مسورة بالأحجار ، فهنا لا أرى أشياء كثيرة ، ولا أدرى هل تكون لى حاجة حتى الى ذلك الذى كنت أعرفه من قبل . لا فائدة فى هذا المكان لعينى أو يدى أو قدمى أو الخبرة أو الفهم ، وقد كان باستطاعتى أن أعود الى حالة الأحياء البدائية كما أوردها الحافظ محمد .

كم أجهدت نفسى فى الحياة من أجل هذه المساحة من الرطوبة لا تزيد عن الخطوتين اذا هى قيست ، ومن أجل هذا الظلام التام !

صغير منزلى الجديد هذا ، ولكنى استطيع أن أستلقى فيه لو كان صالحا للاستلقاء · لقد وجدت ، اذ كنت أفتش ، حجرا مستندا الى الجدار ، وكنت اقف بجانبه دون قبول منى للجلوس عليه · وكانت ما تزال امامى الفرصة كى اقرر · كنت كاننى أنتظر ان يفتح أحد الباب لكى يطلق سراحى قائلا : تفضل ، اخرج ! وربما كان الناس جميعا ينزلون بصعوبة كهذة فى رطوبة ووحل ، آملين فى شىء ، منتظرين حلوله ، ثم يتركون الانتظار عندما يجدون أن آمالهم قد خابت · وهذا شىء لا يستمر طويلا · ولذا سرعان ما جلست ، جلست على الحجر . وهذا هو الانتقال ، محاولا ألا أستند الى الحائط ، ولكنى استندت بعد قليل ، شاعرا كيف تسرى الرطوبة ببطء الى داخلى ، ومتخيلا أنه من المستطاع أن يحدث تحليل بطىء يفصل الماء عن البقايا الفانية ، وما كان لى من عمل غير هذا ·

لا أدرى أكانت الأماكن المجروحة قد ظلت تؤلمنى الى الآن ولكنى لم اكن اعى ذلك ، أم أنهـــا كفت عن الألم أمام ذلك الذى يرى أهم ويعد أخطر · اننى احس بها الآن ، وقد يكون ذلك لأن الوقت قـد حان لكى تؤلمنى ، أو لأن الجسم قد ثار ضد النسيان وذكرنى بوجوده · قبلت هذه المساعدة المفاجئة دون وعى ، واخذت اضغط باصابعى الجروح ، موزعا آلامها ، منسقا بينها ، لكى لا تكون فى مكان واحد · وكنت أسد بنفسى فتحات الجروح لكى لا يسيل الدم · كنت أشـــعر به لزجا فى اليد · لقد كانوا يغسلونها الليلة الماضية فى التكية بماء البابونج وبالقطن الطبى النظيف · وأما أنا فاحشر داخل النسيج الممزق كل ما تجمع على أصابعى من قذارة الجدران ، والأمر بالنسبة لى سواء ، اننى لا أفكر فيما سيكون ، بل أفكر فيما يكون الآن ، فالألم شديد ، لقد تلظى فى الظلام ، وأحس أننى موجود به ، جسمى يعود بى الى حياة الحقيقة والواقع · لقد كنت أحتاج الى هذا الألم ، انه جزء منى أنا ذلك الحى ، أعيه ، وانه يشبه ذلك الألم على وجه الأرض · انه دفاع عنى من الظلام ، ومن البحث الضائع طلبا لاجابة ما ، انه يقف عائقا بينى وبين ذكراى أخى ، ذلك الذى يمكن أن يظهر فى حجر من تلك الأحجار المظلمة التى يقوم بها قبرى ، بسعاله الذى لا أملك جوابا عنه ·

أغرقت فى النوم ، واضعا راحتى على الجرح ، كما لو كنت أحرص على عدم زواله ، جالسا على الحجر ، مستندا على الحائط ، ومرة أخرى

وجدته تحت راحتي كما لو كان في العش · كان يعيش ويؤلم · وقد اردت أن أسأله : كيف نمت ؟ وهكذا لم أكن وحيدا ·

لقد سررت عندما رأيت بالقرب من السقف طاقة صغيرة ، كشفها لي ضوء الصباح · وعلى الرغم من أن ضوء النهار ظل رغبة شديدة وهاجسا قويا فى نفسى فان ظلامى لم يكن بعد شديدا كما كان · ظهر النهار فى ذلك العالم ، وظهر من جراء ذلك ضوء فى نفسى ، وان كان الليل لم يزل مستمرا · كنت أحدق فى تلك النقطة الرمادية فوقى ، مشجعا ، كما لو كنت أنظر الى بزوغ النهار فى أبهج حلاه الوردية ، يعلن عن نفسه فى تلال واسعة كتلك التى كنت اراها فى طفولتى · البزوغ · الضوء · النهار · هـذه كلها ـ وان كانت ايماء فحسب ـ موجودة ولم تتلاش بعد · وعندما حولت نظرى عن مصدر هـذا الضوء المسكين ، انتابتنى غشاوة ، وأصبح الظلام فى سردابى للمرة الثانية غير شفاف ·

وفور أن عادت عيناى الى ما الفته من حالة الظلام رأيت أن هذا الظلام ظلام أبدى وان كانت ترى هناك ضرورة للعين مع ذلك · لقد كنت ادير بصرى حولى ، ولـكنى لم أقـف على شىء سـوى ذلك الذى رأته اصابعى ·

فتحت الطاقة المربعة فى الباب ، ووصل الى الأذن صريرها ، ولكن لم يدخل النور ولا الهواء · كان أحد يطل ببصره من ذلك الظلام الآخر · اقتربت من الطـاقة ، وأخذنا ننظر أحدنا الى الآخر فى مسافة صغيرة جدا · كان وجهه مغطى بالشعر ، خاليا من التجاعيد ، ولم أر شيئا من أجزاء وجهه ، لا العينين ولا الفم ·

سألت وبى خوف من عدم استطاعته الاجابة :

ـ ماذا تريد ؟ من أنت ؟

ـ « كمال »

ـ الى أين جاءوا بى ؟ ما هذا المكان ؟

ـ اننا نوزع الطعام مرة واحدة فقط · فى الصباح ·

كان صوته أجش معتما ·

ـ هل سأل أحد عنى ؟

ـ أتريد أن تأكل ؟

كان كل شيء يبدو لى قذرا ، زلجا ، نتنا ، وكنت أشمئز حتى من التفكير فى الطعام .

ـ لا أريد ان آكل .

ـ هكذا يقول الجميع . فى اليوم الأول . ثم يطلبون . لا تنادنى فيما بعد .

ـ هل طلبنى احد ؟

ـ لا ، لم يطلبك أحد .

ـ سيطلبنى أصدقائى . فلتحضر لتخبرنى .

ـ من أنت ؟ وما اسمك ؟

ـ درويش ، شيخ التكية . واسمى أحمد نور الدين .

أغلق باب الطاقة ، ثم فتحه ثانية .

ـ أتعرف دعاء ؟ أو حجابا ؟ للشفاء من مرض النقرس ؟

ـ لا أعرف .

ـ يا خسارة . انه يهلكنى .

ـ رطوبة هنا ، وسوف نمرض جميعنا .

ـ الأمر سهل بالنسبة لكم . انهم اما أن يفرجوا عنكم واما أن يقتلوكم . واما أنا فاعيش هنا على الدوام . هكذا .

ـ الديك لوح ما من الخشب ، او قطعة من بساط قديم . فاننى لا استطيع ان أستلقى .

ـ سوف تتعود . ليس لدى شيء .

الدرويش احمد نور الدين ، انه نور الدين ، وشيخ التكية . كنت قد نسيته ، فقد قضيت الليل بأكمله وليست لى وظيفة ولم يكن لى اسم . تذكرته ، أحببته أمام هذا الرجل . أحمد نور الدين ، الواعظ والعالم . قمة التكية وعمادها ، مجد القصبة ، سيد العالم . والآن يطلب لوحا من الخشب وقطعة من بساط قديم من الخفاش « كمال » لكى لا يستلقى فى الوحل ، وينتظر أن يقوموا بشنقه وينزلوا به ميتا الى هذا الوحل الذى لا يريد أن يستلقى فيه وهو حى .

من الأفضل أن يظل بغير اسم ، وتظل معه جروحه وآلامه ، ويظل النسيان معهما ملازما اياه في كل صباح · ولكن هذا الصباح الميت الذى لم يتجل بزوغه قد أيقظ أحمد نور الدين ، واخمد فيه الأمل ، وأبعد عن الوجود ما انتاب جسده من جروح وآلام · لقد أصبحت هذه الجروح مرة ثانية عديمة الأهمية أمام تهديد اشد واخطر كان يتصاعد من داخلي لكى يهدمنى ·

كنت أحفظ نفسي من الذهول ، وأما كل شيء عداه فباستطاعته أن يكون · فلو اعترانى لما استطاع أحد أن ينقذنى ، ولحرقنى ، ولأهلك كل شيء فى نفسى ، ولترك بها فراغا يعد أشد من الموت · ولكنى كنت اشعر كيف يدب الذهول فى نفسى ، وكيف يتحرك ، وكيف استطاع المفكر أن يصبح عاجزا عن الاستناد الى شيء ما ، واخذت أدير البصر حولى فى فزع ، أبحث عن شيء يمكننى الاستناد اليه · لقد كان موجودا حتى الأمس ، حتى لحظة سابقة ، اين هو الآن ، اننى أبحث عنه دون جدوى ، لا أثر له فى أى مكان ، انهرت في الوحل ، رغم ماكان منى من محاولة ، فعبثا حاولت ياشيخ نور الدين ·

ولكن الموج الذى ارتفع ،توقف ، لم يأخذ فى الازدياد · كنت أنتظر فى دهشة وكان هناك السكون ·

نهضت ببطء ، قابضا بيدى على الجدران ، مستندا براحتى على بروزها الزلج ، فقد رغبت ان أكون واقفا · وما زال الأمل يراودنى ، سوف يطلبوننى ، سوف يجيئون ، فالنهار لم يعد أن بدأ ، ولن تقتلنى لحظة الضعف ، ومن الخير أننى أخجل منها ·

واخذت أنتظر ، وانتظر ، وفى أثناء مرور الساعات الطويلة كنت احافظ على حرارة الأمل ، وكنت أغرى النفس بالألم وحرارة الجروح ، وكنت أتسمع الخطوات وانتظر ان يفتح الباب وأن يصل الى صوت يعلمنى حضـــور الأصدقاء · واخـذ الليل يســـدل أستاره ، وعرفت ذلك بما كان من عدم احتياج الى عينى · كنت انام فى طين كريه الرائحة ، وقد بلغ منى التعب مبلغا ،وكنت استيقظ دون رغبة منى فى الجلوس على هذا الحجر ، وكنت آكل فى الصباح طعام « كمال » ، ومرة ثانية كنت أنتظر ، وكانت الأيام تمر ، وبزوغات النهار الحالكة تتالى ، ولم أكن اعرف بعد هل كنت انتظر ·

واذ ذاك ، وكنت منهوك القوى ، غارقا فيما يشبه الأحلام من تعب الانتظار ، ممتصا من الرطوبة التى كانت تتشربها عظامى ، مصابا بالحمى

التى كانت تدفئنى وتذهب بى للحظة من قبرى ـ أخذت أتحدث مع أخى هارون ٠٠

والآن اننا متساويان يا أخى هارون ، هكذا كنت اقول له وهو صامت لا يتحرك ٠ لقد كنت أرى عينيه فقط ، بعيدتين ، حادتين ، تائهتين فى الظلام ، وكنت أتابعهما محاولا أن اجعلهما دائما تجاهى ، وأحيانا كنت أسير وراءهما ٠ اننا الآن متساويان ، وكلانا تعيس ، واذا كنت مذنبا فى يوم فلست الآن كذلك ، اننى أعرف كيف كنت وحيدا ، وكيف كنت تنتظر أن يجىء احد لزيارتك ، كنت تقف بجانب البـاب ، وتسمع الأصوات ، والخطوات ، والكلمات ، ظانا انها تهمك ، وكان يتكرر ذلك على الدوام ٠ لقد بقينا منفردين ، أنا وأنت ، لم يجىء أحد لزيارتى ، لم يسال عنى أحد ، لم يتذكرنى أحد ، لقد بقى طريقى خاليا ، دون اثر ودون ذكرى ، كم وددت لو لم ار ذلك ٠ انك كنت تنتظرنى ، وأنا كنت أنتظر « حسن » ، ولم يحدث أن حقق أحدنا رغبته ، وليس هناك من تتحقق له جميع الرغبـات ، وكل يبقى وحيدا فى النهـاية ٠ اننا متساوون ، تعساء ، اننا أناس ، يا أخى هارون ٠

اقسم بالزمن ، الذى هو بداية ونهاية لكل شىء ، ان كل فرد منا على الدوام فى خسار ٠

سألت « كمال » كعادتى ، ولم يكن الأمل يراودنى بعد :

ـ هل حضر أحد ؟

ـ لا ، لم يحضر أحد ٠

اردت أن أظل متعلقا بالأمل ، اذ لا يمكن العيش بدون انتظار ، ولكن لم اكن أملك القدرة لذلك ٠ تركت مكانى كحارس بجوار الباب واخذت اجلس كيفما اتفق فى اى مكان ، هادئا ، منهزما ، وكان الهدوء يتوغل فى داخلى كلما تقدم الوقت ٠ وبدأت أفقد الشعور بوجودى ، واخذ الحد بين الحلم واليقظة فى التلاشى ، وحقا كان يحدث ماكنت أراه فى الحلم ، كنت أجول بحرية فى طرق شبابى وطفولتى ، ولم أكن أجول قط أحلامى فى أزقة هـذه القصبة ، كمـا لو كان بامكان هـذه الأقة أن تقودنى من الأحلام الى السجن ، وكنت أعيش مع الرجال الذين كنت التقى بهم منذ زمن بعيد ، وكان كل شىء يبدو جميلا ، اذ لم تكن تتملكنى شدة الانفعال لأننى لم أكن قد عرفتها بعد ٠ وحتى « كمال » كان حلما ، وكذا كان الظلام من حولى ، وكذا كانت هذه الجدران المبللة ٠ وعندما

كنت أعود الى عالم اليقظة لم أكن أستطيع التحمل كثيرا • فحتى لهذا التحمل يجب أن يكون لدى الانسان قدرة •

أصبح لي واضحا كيف يموت الانسان ، ورأيت أن ذلك ليس من الصعوبة بمكان • كما أنه ليس سهلا كذلك • ليس الموت شيئا سوى أن الانسان يشعر في كل لحظة بأن حياته تنقص وبأن وجوده يقل وبأن تفكيره يضعف ، كما يحس ويدرك أن دورته الدموية الغزيرة تأخذ في الجفاف ، ويبقى خيط دقيق من وعيه المتزعزع يأخذ في الافتقار حتى يصبح عديم الأهمية • واذ ذاك لا يحدث شيء ولا يكون شيء ، بل يكون لا شيء ، ومهما يكن فالأمر سواء •

وعندما قال « كمال » ذات مرة شيئا خلال الطاقة ، وكنت اذ ذاك في ذلك الذبول الذى لا أحس فيه بمرور الزمن ، اذ كان ينقطع دون أن يعود ليأخذ في الاستمرار - لم أستطع أن أفهم على الفور مايقول ، ولكنى عرفت أنه شيء مهم • تيقظت وفهمت : لقد جاء أصدقائى بالهدايا •

- من هم الأصدقاء ؟

- لا أعرف • لقد حضر اثنان • خذ •

عرفت ولم أكن في حاجة الى السؤال ، كما كنت أعرف أنهما سيجيئان • كنت أعرف ذلك منذ زمن ؛ لقد كان الانتظار طويلا ، ولكننى كنت أعرف •

كنت أخمش بأصابعي الباب لكى أنهض • وفي الحق لم يكن جلوسى هنا • الى جانب الباب عن طريق الصدفة •

- اثنان ؟

- نعم اثنان • وسلما هذا للحارس •

- ماذا قالا ؟

.. لا أعلم •

- قل للحارس ليسأل من هما ؟

لقد أردت أن أسمع اسمين معروفين : حسن وهارون • لا • حسن واسحاق •

أخذت ماحملاه الى من الطعام ، والتمر ، والكرز الذى كان بثورا خضراء عندما جئت الى هذا المكان ، وكان قبل زهورا وردية اللون ، وكنت

ارغب اذ ذاك أن يسرى في عروقي عصارة اشجاره ، وأن ازهر دون ألم في كل ربيع كما تزدهر تلك الاشجار ، وحقا رغبت في ذلك مرة ، منذ زمن بعيد ، عندما كانت حياتي لاتزال جميلة · ربما كانت تبدو لى آنذاك عسيرة ، ولكنى عندما افكر فيها من هذا المكان ، أحس بشوق اليها ورغبة في أن تعود ·

كنت أخشى ان تقع اللفافة من يدى ، فقد كانت يداى خاويتين ، مسرورتين ، وعلى درجة من الجنون والضعف ، وكانتا تضغطان بشدة على هذا البرهان الذى يشهد بحياتي والذى ضممته الى صدرى · لقد عرفت أنهما سيجيئان ، عرفت ذلك ! اخذت احنى راسي على هذه اللفافة واتنسم رائحة طازجة لصيف مبكر ، وبى شوق ورغبة شديدة للاستزادة من التنسم ، فسوف تتسرب الرطوبة عن قريب الى هذه الرائحة الشفافة الحمراء يبعثها الكرز ، كما أخذت ألمس جلده الحديث الغض بأصابعى الموحلة ، فبسرعة وبعد ساعة سيتغضن وتتقدم به السن · وعلى كل فالأمر سواء · انه علامة وخبر من ذلك العالم · لست وحيدا ، ومازال الأمل موجودا · وعندما كنت أفكر أن النهاية قريبة لم تكن تسيل دموعى ، والآن كانت تنهمر دون انقطاع من نبع أحيى فى عينى ، تاركة دون شك آثارها على ماغطى وجهى من وحل · لتنهمر فقد بعثت من بين الموتى · لقد كانت تكفى ، ولو علامة صغيرة للغاية تشير الى أننى لست منسيا ، لكى يعود الى مافقدت من قوة · ان جسدى واهن ، ولكنى لست ابالى بذلك ، فقد ادفأتنى الحرارة فى مكان ما فى داخلى ، حتى لم أعد أفكر فى الموت ، ولم يعد الأمر لى بعد على السواء · لقد وصلت اللفافة فى اللحظة الأخيرة ، لكى تمسك وتوقف انزلاقى على الصخور التى تنحدر فى شدة وتدفع الى الهاوية ، لكى تؤجل موتى · وحقا كان قد بدأ · (اننى ايقنت ، وليس فى هذه المرة فحسب ، أن النفس فى أغلب الأحيان تستطيع أن تحافظ على الجسد ولكن الجسد لا يستطيع على الاطلاق أن يحافظ على النفس : انها تتعثر وتضيع وحدها) ·

وللمرة الثانية كنت أنتظر ·

كنت اقول فى نفسى : لقد تذكرا يا أخا هارون ·

وكنت أفكر فى حسن ، كما كنت أفكر فى اسحاق ·

سوف يقومان بالثورة ، ويعملان على تحريرى ·

سوف يشقان طريقهما فى الممرات السرية ويخطفاننى ·

سوف يتحولان الى هواء ، الى طيور ، الى أرواح ، وسيصبحان كائنات غير مرئية ، سوف يجيئان •

سوف تحـــدث معجزة أو امر لم يكن فى الحســـبان ، ولكنهما سيجيئان •

سوف يهدم الزلزال هذه الجدران القديمة ، ولكنهما سوف ينتظران لكى يخرجوا بى من بين الانقاض •

سوف يكون حسن واسحاق أول من يفتحان هذا الباب ، مهما يكن أمر من جاءوا ، ومهما يكن أمر ما حدث •

لم تكن تراودنى اية فكرة عادية ، وانما كانت الافكار جميعها تأتى على غير نسق ، وتجرى فى تيار غير مألوف • كنت أتسمع دوى تحريرى كما أتسمع بشائر الفرح والسرور ، وانتظر دمدمة تأتى بمثابة الثار من تلك التى كنت أخنقها فى خوف فور ظهورها فى داخل النفس كهاجس • ولم يكن هذا الانتظار يؤدى ، ولو لمرة ، الى نهاية من تلك النهايات المألوفة • ربما من أجل قبرى الذى سجنت فيه ، وربما من أجل قرب الموت الذى لفحنى ، ربما من أجل الممرات العميقة والأبواب الصلبة التى لا تفتح بالكلمة أو الرجاء ، وربما من أجل الهلع الذى حدث لى والذى يستطيع أن يحل محله هلع آخر أشد منه • كنت أنتظر يوما ما للحساب، وكنت واثقا أنه سيأتى • لقد أعلن عنه هذان الاثنان الزائران •

وفى اليوم التالى وصلتنى أيضا بعض الهدايا • وكان الزمن للمرة الثانية يتواصل ، وكان من قـــدم للزيارة اثنين كذلك ، دون معرفة لاسميهما ، ولكن كنت أعرف من هما ، كما كنت أنتظر الزلزال •

سألت « كمال » وأنا فى دهشة لعدم فهمه ، أو لعله كان يفهم :

ـ متى يحدث الزلزال أو الحريق أو الثورة ؟

وسألنى بدوره :

ـ انك درويش • أتعرف هذا القول « اذا وقعت الواقعة » ؟ ألسنا نفكر فى شىء واحد ؟

ـ نعم أعرف •

ـ اقترب منى • تكلم •

ـ لا أريد •

ـ ياللخسارة · لست رجلا حسنا ·

ـ ماذا تريد بما سقت من قول ؟

ـ انني أرغب في سماعه ·

ـ من أين تعرفه ؟

ـ من سجين كان هنا قبلك ، وكان رجلا حسنا ·

ـ ان هذا القول الذى سقته من القرآن ، في سورة الواقعة ·

ـ ربما كان ذلك ·

ـ « اذا وقعت الواقعة » ···

ـ اخفض صوتك · تعالى الى ·

ـ « اذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، اذا رجت الارض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا ، وكنم أزواجا ثلاثة » ·

في ظلام لم تشتد قتامته ، كنت أرى في غير وضوح وجهه الذى لم يكن له معالم تحدده داخل اطار مربع ، شديد القرب من عينى ، وقد استند بذقنه على الحافة الحديدية الحادة لهذه الطاقة المربعة · كان يستمع في دهشة الى ذلك الذى كنت أسوقه ، وفي اهتمام لم أستطع انأفسره ·

ـليس هذا ·

ـ أتكون سورة « العنكبوت » ؟

ـ لا أعلم · الأمر سواء · اية أنواع ثلاثة هي ؟

ـ « فأصحاب الميمنة ما أصـــحاب الميمنة ، وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ، والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، الا قيلا سلاما سلاما » ·

« وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة » ·

ـ هنيئا لهم ٠

كان همسه مشوبا بالاعجاب ومملوءا بالحقد ٠

ـ « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ٠٠٠ لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ٠٠ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين » ٠

ـ ولماذا ؟ هل هم مذنبون ؟

ـ ذاك شيء يعلمه الله ، ياكمال ٠

ـ أما يزال لديك مثل هذا ؟

ـ « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم الم نكن معكم ؟ »

ـ آه ، يا آلهي يارحيم ٠ ومرة أخرى دون نور ٠ ١

لزم الصمت بعد ذلك فترة طويلة كان عقله الذى أثارته الآيات يتعذب في أثنائها ٠ وكان تنفسه يبدو عنيفا ٠

ـ وأنا ؟ اين سأكون ؟

ـ لا أدرى ٠

ـ أأكون من أصحاب اليمين ؟

ـ ربما تكون ٠

ـ « بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار » هذا ماقاله الذى كان قبلك ٠ كما كان يقول عن الشمس ٠ وأين سأكون أنا ؟ ان ذلك من أجل قيامهم باعمال الخير ٠ الدى أنا من هذه الأعمال شيء ؟ خمسة عشر عاما على هذا النحو قضيتها هنا ٠ وهناك الشمس ، والأنهار، الفواكه ٠، من أجل الأعمال الخيرة ٠

ـ ماذا حدث لذلك الرجل ؟

ـ مات ٠ كان رجلا صالحا وهادئا ٠ وكان يقول لى : وأنت ستكون

هناك وجميع الصالحين من الناس • وقلت له : ان هذا لشيء جميل • من أجل الشمس ، ومن أجل المياه الصافية ، ومن أجل مرض النقرس •

ـ كيف كانت حالة موته ؟

ـ كانت صعبة • فروحه لم تكن تريد أن تخرج من جسده • كان يجاهد كي يتخلص من قبضات القائمين بأمر موته • كنت حاضرا كذلك • وهكذا قمت بالمساعدة •

ـ فى أي شيء قمت بالمساعدة ؟

ـ لقد خنق •

ـ وأنت قمت بالمساعدة كي يخنقوه ؟

ـ لقد جاهد من أجل التخلص •

ـ الم يكن يحزنك هذا •

ـ كان يحزننى ، من أجل هذه الشمس التى كان يتحدث عنها •

ـ كيف كان يسمى ؟ الم يكن اسمه هارون ؟

ـ لا أعلم •

ـ اذهب ، ياكمال •

ـ ربما ساكون أنا كذلك ، فى الجانب الظاهرى من السور •

ـ بدون شك ياكمال •

سألنى اذا كنت أرغب فى الانتقال الى زنزانة أخرى ، ليست مظلمة كهذه وليست تبلغ درجتها من حيث الرطوبة •

ـ الأمر سواه ، ياكمال •

ـ أتكرر لى فيما بعد « اذا وقعت » ؟ لا أطلب سوى الآيات الأولى فقط • فهنا ظلام وشيء يقزز النفس ، وقد قضيت خمسة عشر عاما فى هذا المكان • ليس من العدل ان يكون هكذا أيضا هناك •

ـ اذهب ، ياكمال •

كانت تتدافع حولى جمله المبتورة ، المتقلصة ، الشوهاء ، وكان يبدو أنها تعانى صعوبة فى تجمعها وتماسكها ، واما اجزاؤها المفقودة التى اعتراها الذهول فقد بقيت فى اعجوبة مترابطة ، معبرة عن رغبة ما من رغبات الانسان •

أخذت أفقد وعيي للمرة الثانية ·

وعندما فتح كمال باب زنزانتي ذات مرة بعد هذا اليوم ، وربما بعد فترة طويلة ، أو ربما لم يكن قد فتحها ـ لفحني شعوران متناقضان تمام التناقض ، خوف من أن يقوم بخنقي ، وأمل في أن يقوم بالافراج عني · لقد اندفعا الى في لحظة واحدة ، كما لو كانا كائنين طائشين قد فقدا الصبر وأخذا يتدافعان ليحرز أحدهما السبق · أو لعل المسافة بينهما كانت قصـيرة الى درجة جعلتني لا أسـتطيع أن افرق زمنيا بينهما الا بصـعوبة بالغة · لقـد رفضـت الفـكرة الأولى على الفور اذ أنه كان وحده ، وعلى التو ظهر السرور في نفسي : تمثل لى الافراج ! اذ كان في الامكان أن يحدث كل من الأمرين ، ولم تكن هناك ضرورة لأن يوجد سبب للافراج · فما داموا يقتلون دون ذنب فربما يفرجون دون سبب أو مبرر ·

ولكن لم يكن أي من الأمرين ، وانما كان على أن أنتقل الى زنزانة أخرى ·

قبلت دون سرور ·

دخلت في قبر يخص غيري ، والآن أصبح يخصني كذلك ، ووقفت بجانب الباب لكى أرى المكان وآلفه ·

ـ هس !

لقد بدا لى أمرا غريبا ذلك الانذار يصدر من شخص ما في ظلام خافت ، ولكن حدث في تلك اللحظة أن تحركت حمامة كانت في فتحة صغيرة بالجدار وانطلقت مرفرفة الى الخارج · وقد وقع بصري عليها عندما اندفعت ضاربة بجناحيها ·

قال لى ذلك الذى كان يطلب الى السكوت لكى لا أفزع الحمامة :

ـ الآن بامكانك أن تصرخ كيفما تشاء ·

ـ لم أكن أعرف · اتعود الحمامة ثانية ؟

ـ انها ليست مجنونة · لقد ضلت طريقها صدفة ·

ـ انني آسف · أتحب الحمام ؟

ـ لا أحبه · ولكنك ستقع هنا في الحب ، وستحب كل شيء حتى الخفافيش ·

ـ لم يكن لـــدى فى زنزانتى حتى الخفافيش • ربما من أجل الرطوبة •

ـ انها لا توجد ههنا أيضا • فهى لا تتحمل النأس • لقد امسكت بواحد عنـــدما دخل صدفة عن طريق الخطأ ، واردت أن أربطه بشريط مزخرف من صدارى ، ولكنى تقززت منه • اجلس ، اختر لك مكانا ، فالأمر سواء •

ـ أعرف ذلك •

ـ كم قضيت فى سجنك ؟

ـ قضيت وقتا طويلا •

ـ ألا يكونوا قد نسوك ؟

ـ كيف ينسون ؟

ـ هكذا ، ينسون • لقد حكى لى سجين كان هنا ، قبضوا عليه فى مكان ما من (كراينا) ، وذهبوا به أياما واسابيع من مكان الى مكان ، من سجن الى سجن ، حتى جاءوا به هنا • وهنا نسوه • اخذت الشهور تمر ، وهو جالس يتململ فى هذا المكان ، لم يدعه أحد ، ولم يسأل عنه أحد ، لقد نحوه عن تفكيرهم ، وانتهى الأمر بذلك • كل مانرجوه الا يحدث لك ماحدث معه •

ـ لقد جاء الى الأصدقاء • فقد عرفوا اين انا •

ـ هذا هو مايجعـــل الأمر أشد • لقد عرف الأقارب مكان ذلك الرجل وجاءوا اليه ، بالرغم من انه أوصاهم الا يبحثوا عنه • اذ بهذا كان يمكن على الأقل أن يظل على قيد الحياة ، وأما اذا تذكروه ففى الامكان أن يكون الشر فى ذلك • وحقا لقد ذهبوا به ذات ليلة • وربما أرسلوه الى المنفى •

كان صوته يوحى بالسخرية ، كما لو كان قد أراد عن قصد أن يخوفنى ، ولكن الحكاية فى ذاتها ليست مستحيلة ••

سألته وقد انتابتنى الدهشة من طريقته وقصده :

ـ لماذا تتحدث هكذا ؟ لقد ظننت أن الحزن ينتاب الجميع هنا الى درجة الموت ، وأنهم متفقون على الأقل فى رغبتهم ألا يجـــرح أحدهم الآخر •

ضحك الرجل · ضحك بكل مافي وسعه · وقد بدا لي ذلك غير متوقع الى درجة جعلتني أظنه مجنونا ، وان كان يضحك بطريقة عادية للغاية وفي شيء من السرور كما لو كان داخل بيته · وربما كان هذا هو السبب في ضحكه وسروره على هذا النحو ·

ـ لماذا أتحدث هكذا ؟ ان الحكمة بتمامها هنا تتمثل في أن تكون صابرا · وان تكون مستعدا لجميع الاحتمالات · هذا هو مايتطلبه هذا المكان · واذا أحسن مما تنتظر ـ والحمد لله ـ فعندئذ ستكون من السعداء الفائزين ·

ـ كيف تستطيع أن تنظر هكذا بمنظار أسود ؟

ـ اذا لم تنظر بمنظار أسود ، ففي الامكان أن يحدث ماتراه أشد سوادا · وما من شيء من جانبك يؤثر ، لا يفيدك أن تكون شجاعا او جبانا ، أو أن تسب أو تبكي ، لا فائدة من ذلك على الاطلاق · فعليك اذن أن تجلس وتنتظر المصير ، فهو أسود بمجيئك هنا · انني أفكر هكذا : اذا لم تكن مذنبا فذاك خطؤهم ؛ واذا كنت مذنبا فذاك خطؤك · واذا كنت دون ذنب فتلك مصيبة لحقتك ، كما لو كنت سائرا ووقعت في بئر عميقة · واذا كنت قد ارتكبت ذنبا فقد أصابك لا اكثر ولا أقل ·

ـ يبدو أن الأمر في نظرك بسيط للغاية ·

ـ انه ليس هكذا بسيطا كما تتصور · ينبغي التعود أولا واذ ذاك يكون بسيطا · انظر ، أنا أعتقد أنني غير مذنب ، كما تعتقد أنت دون شك انك كذلك · وهذا في الواقع ليس صحيحا ، اذ لا يمكن أن يعقل أنك لم تقم في حياتك ، ولو مرة واحدة ، بما يستوجب التكفير بتحمل العقوبة · ولكن الأمر سواء ، فحينذاك لم تصبك العقوبة ، والآن حيث لم تكن مذنبا في شيء اصابتك · وكان طبيعيا أن يخيل اليك أنه يجب عليهم أن يفرجوا عنك · غير أنك لا تتساءل عن كيفية الافراج عنك ؟ فلتحاول أن تفكر كما هم يفكرون · اذا لم اكن مذنبا فهم لاشك اخطأوا ، لقد سجنوا رجلا بريئا · واذا هم يفرجون عني فسيكون في ذلك اعتراف بخطئهم ، وذلك مالم يعد سهلا ولا مفيدا · ليس هناك احد من العقلاء يستطيع أن يطلب منهم أن يقوموا بالعمل ضد أنفسهم · ولو حدث أن تقدم شخص بهذا لكان مطلبه غير واقعي ولبدا مضحكا · اذن يجب أن أكون مذنبا · وكيف يفرجون عني وأنا مذنب ؟ أتفهم ذلك ؟ لا ينبغي

ان نكون جائرين اكثر من اللازم ٠ .فكل منا ينظر من زاويته ، ويعتقد ان الأمر يكون في مكانه اذا سار حسب نظرته ، ولكن عندما يقومون هم بذلك يصيبنا عندئذ الضيق ونشعر بالضجر ٠ لابد أنك ستعترف ان هذا لا يتفق والمنطق ٠

ـ واذا كانوا قد نسوك فمن هو المذنب اذن ؟

نقصني هذا الاحتمال : لقد نسوك ، والظلام يسدل ستره عليك، مكان ما في العالم ، وأنك هناك حيث رغبت أن تذهب ، وانك تشعر بالسرور والبهجة ، وربما حسدوك على هذا ؛ وأما أنت فهنا تنتظر ، بلا جدوى ، ليس هناك من ذنب ولكنه مستمر على الدوام ، وليس هناك من عقوبة ولكنها نافذة على الدوام ، وبصورة أشد مما لو كانت قد أعلنت ٠

ـ من هو المذنب ؟ النسيان ٠ انه من طبيعة البشر ، وكثيرا مايحدث ٠ ولو تدبرت الأمر جيدا لما وجدت أن أحدا أساء اليك ٠ ان هذا هو قدرك ٠ ولعلك أوقعت الذنب على نفسك ، وذلك لأنك لست مذنبا ، اذ لو كنت مذنبا لما نسوك ، ان هذا يمكن أن يعد اعترافا بأنك برىء ٠

لقد ادركت الآن أنه يمزح ! أى انسان يكون هذا الذى يمزح بهذه الطريقة ! انه سوف يعذبنى ٠ كم كان من الأفضل لو بقيت هناك وحدى ٠

قلت له بنبرة تنم عن العتاب :

ـ ان مزاحك قبيح يا صديقى ٠

ـ اذا كان قبيحا فلا يعد اذن مزاحا ٠ اذ المزاح لا يمكن وصفه بالقبح على الاطلاق ٠

وعندئذ عرفته ٠ لقد احتبست أنفاسى ، صرخت ، أو هكذا خيل الى أننى صرخت ، فقد كان لزاما أن افعل ذلك ، اذ كنت مضطرا ، ففى هذا المكان لم آكن اجرؤ ان افكر فى الالتقاء به ٠

هذا هو اسحاق !

اسحاق تفكيرى الغالب ، وذكراى الأسرع حضورا ، والرغبة المضطربة لى أنا الذى لا يدرك ولا يمكن تحققه ، والضوء البعيد لظلامى،

والأمل الانساني الذى يلوح لى ، مفتاح السر المطلوب ، والامكان الذى يفوق المعهود كما يهجس ذلك فى نفسى ، الاعتراف بالمستحيل ، الحلم الذى لا يمكن تحققه ولا يمكن رفضه ، اسحاق ، مثير الاعجاب بالجرأة المجنونة التى قد نسيناها ، لأننا لم نعد فى حاجة اليها ·

لقد قبضوا على بطل الحكايات الصحيحة الوحيدة من حكايات الاطفال ، البطل الذى يخلقه خيال صاف ويحفظه ضعف ناضج · لقد هدموا بذلك أحلام الناس · أنهم أقوى من الخرافات والحكايات ·

وقد كان هو أيضـــا يؤمن بتلك الخرافات ، وكان يقول انهم لن يقبضوا عليه أبدا ·

صحت كما لو كنت أنادى مفقودا :

ـ اسحاق !

وسألنى الرجل فى دهشة :

ـ من تنادى ؟

ـ اياك أنادى · اسحاق أنادى ·

ـ اننى لست اسحاق ·

ـ الأمر سواء · لقد سميتك أنا هكذا : كيف سمحت أن يقبضوا عليك ؟

ـ ان الانسان مخلوق لكى يقبض عليه فى لحظة ما ·

ـ انك لم تكن تفكر هكذا من قبل ·

ـ ولم أكن كذلك مسجونا من قبل · ان ذلك الذى كان يوجد من قبل وهذا الذى يوجد الآن شخصان مختلفان ·

ـ أتسلم اليهم نفسك يا اسحاق ؟

ـ أنا لم أسلم نفسى · لقد سلمت اليهم · وكان ذلك خارج ارادتى · اننى لم ارغب ولكنه حدث · لقد ساعدتهم بوجودى · اذ لو لم أكن موجودا لما استطاعوا أن يفعلوا لى شيئا ·

ـ أيكون هذا هو السبب الوحيد لوجودك ؟

ـ السبب والمسبب · انه الفرصة على الدوام لك ولهم ، ومن النادر أن تبقى دون استغلال · ودون اعتبار سواء أكنت هنا أم هناك · غير أني لا أدرى الى متى يستمر الذنب ، أيستمر حتى بعد وصولنا الى العالم الآخر ؟

ـ اذا لم تكن قد قمت بعمل شيء فانت غير مذنب · سيتولى الله مالحقك من ظلم ·

ـ انك تجيب في عجلة · يجب التروى والتدبر · هل السلطة مفوضة من قبل الله ؟ اذا لم تكن فمن أين لها الحق في أن تحكمنا ؟ واذا كانت فكيف تستطيع أن تخطيء ؟ واذا لم تكن فسنهدمها ؛ واذا كانت فلها علينا السمع والطاعة · واذا لم تكن من الله فماذا يجبرنا على تحمل الظلم الكثير ؟ واذا كانت من الله فهل هذا الظلم الكثير أو العقوبة من أجل غايات أسمى · واذا لم تكن فقد نفذ اذ ذاك على وعليك وعلينا جميعا حكم القهر ، وعندئذ نكون للمرة الثانية مذنبين ؛ لأننا نتحمله في سكون· والآن تفضل لتجيب · ولكن لا تقل على طريقة الدراويش أن السلطة من الله ، غير أنه في بعض الأحيان يقوم بتنفيذها الرجال الأشرار · ولا تقل ان الله سبحانه سوف يذيق الظالمين من عذاب الجحيم ؛ اذ أننا لن نعرف شيئا أكثر مما نعرفه الآن · ان القرآن يقول هذا كذلك : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » · وهذا أمر من الله ، اذ الله سبحانه يهتم بالغاية أكثر مما يهتم بك وبى · هل هم ظالمون اذ ذاك ؟ أم أننا نحن الظالمون ، وسيصيبنا اذ ذاك نار الجحيم ؟ وهل ذلك الذى يفعلونه قهر أو دفاع ؟ ان ادارة أمور الناس هى السلطة ، والسلطة هى القوة ، والقوة هى الظلم من أجل العدل ، وأما الفوضى فهى شيء أشد : عدم النظام ، ظلم وقهر عام ، خوف شامل · والآن يمكنك أن تجيب ·

لزمت الصمت ·

ـ لاتستطيع أن تجيب ؟ انني في دهشة ؟ اذ أنكم معشر الدراويش لاتستطيعوا أن تفسروا شيئا ، ولكنكم تستطيعون أن تجدوا لكل شيء اجابة ·

ـ انك على استعداد منذ البداية لكى لا تكون متفقا معى فى شيء مما قلته · ومن الصعب أن يتفاهم رجلان يختلف تفكيرهما ·

ـ من السهل أن يتفاهم رجلان يعملان فكرهما ·

أخذ يضحك للمرة الثـــانية • ولم يكن هذا الضحك من قبيل السخرية ، فقد كان يمسه بالقدر الذي يمسني ، غير أنه كان مساعدا لي اذ جعلني أتخذه سببا لكي أقطع حديثي الذي لم أكن أشعر بثقة ازاءه • لقد شعرت للمرة الأولى بالحيرة تجاه الأسئلة التي كانت تبدو واضحة أمامي • ان البراهين التي اتخذها حسب هواه كانت توصف بالسذاجة ويشوبها قليل من المزاح ، وعلى الرغم من ذلك لقد بدت لي صعوبة الاجابة عنها • ولم يكن ذلك من أجل عدم وجود هذه الاجابة ، وانما كان من أجل عدم كفاية براهينه • لقد ترك الارض الخصبة لي ، لأقوم بالقاء بذوري فيها • انه منذ البداية قسم كل ماكان باستطاعتي أن أقوله ، حدد الدائرة التي كان باستطاعتي أن أتحرك فيها ، جاء بي فوق حافة الفراغ الذي أحاطني به ، وحقر من قيمة آرائي الممكنة بما أبدى من سخرية • لقد تغلب علي بما كان منه اذ فرض علي طريقة تفكيره وألزمني بمراعاة الاحترام لكل مايمكن استخدامه من طرق التفكير •

قال لي وهو يتصنع الاعتراف •

ـ انك شريف وعادل • لا تريد أن تجيب بكلمات فارغة ، وليست لديك كلمات صحيحة ، على الرغم من أنني كنت أضع الاجابات في فمك •

ولكي يكون باستطاعتك أن تفندها كنت تسخر •

ـ لقد أردت أن نتحدث دون قصد لشيء من الاعتبارات • ولكن المصيبة تكمن في انك لا تجرؤ على التفكير • انك تخاف ولا تعرف الى أية جهة تستطيع فكرتك أن تقودك • لقد تكرر كل شيء في نفسك واصبحت تغمض عينيك واخذت تمسك بطريقك القديم • انهم جاءوا بك الى هذا المكان من أجل شيء لا أعرفه ولا يهمني ، وهأنت لا تقبل تفسيراتي بشأن الذنب الانساني • أراك تظن أن هذا مزاح • ربما يكون مزاحا ، غير انه في الامكان أن يستخلص منه فكرة فلسفية محببة لا تقل شأنا عن سائر الأفكار الفلسفية الأخرى . وعلى الأقل يكون لها تطبيق جميل ، اذ يكون في امكانها أن تصالح بيننا وبين كل ما يصادفنا او يحل بنا • لقد غلبتك شدة الغضب اذ تعتقد انك لست مذنبا • يا للخســارة • اذا لم يفرجوا عنك فسوف تموت عن قريب بسبب ما يعتريك من العذاب ، وسيصبح اذ ذاك كل شيء على ما يرام • ولكن ماذا سيحدث لو أنهم أفرجوا عنك

لو حدث لكان ذلك من أعجب المصـائب التى أعرفها · ان ذلك الذى فى الأرض تملكه انت بمقدار ما يملكونه هم ، ولكنهم عزلوك عنه · أتريد أن تذهب وتصبح من قطـاع الطرق ؟ أتريد أن تكرههم ؟ أتريد أن تنسى ؟ اننى أسألك لأننى لا أعرف أى هذه الأمور أشق · كل شىء منها ممكن ، ولكنى لا أرى حلا · اذا اتجهت لتصبح من قطاع الطرق فسوف ترتكب ظلما ، فلماذا اذا تغضب عليهم ؟ واذا أخذت تكرههم فسوف تسممك ارادتك السيئة اذا لم تفعل شيئا ضدهم ، وضد نفسك ، لأنك أصبحت اذ ذاك مثلهم ، وسيقبضون عليك للمرة الثانية ، وسيكون ذلك بمثابة الانتحار · واذا آثرت أن تنسى استطعت أن تجد عوضا ما باعتقادك أنك كريم ، ولكنهم سوف يظنون انك جبان ، وأنك منافق ، ولن يثقوا بك · وعلى أى من الأحوال ستكون منفصلا ، وهذا هو الذى لا تستطيع أن تقبله · لو لم يحدث شىء مما حدث لكان هذا هو الحل الوحيد الممكن·

صحت فى دهشة :

ــ ان هذه هى فكرتى !

ــ فالأمر اذن اشد ، لأن هذاهو الشىء الوحيد الذى لا يمكن بحال ان يكون ·

اسحاق ! انه اسحاق آخر ، يختلف عن سابقه ، ولكنه هو من حيث الحقيقة · كل شىء تغير ولكنه على ما هو عليه من حيث الجوهر · اسحاق الذى لا يجيب بل يسـال ، والذى يسـال لكى يضع الأحاجى والألغاز من أجل السخرية · ولا يمكن الوصول اليه · لو لم يبد الأمر مضحكا لقال لى للمرة الثانية كمـا قال آنذاك اذهب ، اذ ليس بوسعى ان اذهب الآن ، واما هو فيستطيع ، سوف يخرج اذا أراد ، ستحدث المعجزة ولم يعد بعد فى هذا المكان ، وسيبحثون عنه دون جدوى ، اذ ليس فى امكان الجدران أن تحول بينه وبين الذهاب ، كما ليس بامكان الحراس أن يكونوا عقبة فى سبيل ذلك ، انه لو عزم على الذهاب لما كان باستطاعة أحد أن يعوقه عن تنفيذه ، فالاحاطة به بغية امساكه أمر غير ممكن كما هو الحال بالنسبة لتفكيره · سوف يذهب دون اجابة ، وان كان يعرفها فهو لا يريد أن ينطق بها · انه يتركنى دائما مشتت الفكر ، ويزعزع فى نفسى كل ماأعرفه · وكان من العبث أن يتضح لى فيما بعد ما كان ينبغى أن أجيبه به ، وذلك لأننى لم أجبه ، وما كان باستطاعتى ذلك ، اذ كانت ثقتى به فى تلك اللحظات أكثر من ثقتى بنفسى ، كما كان من العبث أيضـا أننى لم أكن أثق بنفسى الا بعد أن تتحقق ثقتى به ،

فقد كنت أخاف أن يفند آرائى كلها عند سماعه اياها ، ولذا كنت الزم الصمت ، فقد كان باستطاعتى أن أتمسك برايى فقط عندما أفلح فى الدفاع أمامه عنه • وهذا مالا أجرؤ عليه ، انه يفكر على خلاف تفكيرى ، فتفكيره يسير فى طرق غير متوقعه ، دون الزام لنفسه وللآخرين ، كما يتصف بالجرأة والحدة • وهو الى جانب تفكيره هذا لا يحترم ما يكون له منى احترام • انه ينظر الى كل شىء فى حرية ، وأما أنا فأتوقف أمام كثير من الأشياء • انه يهدم ولا يبنى ، ويقول ما لا يكون وليس ما يكون • فالأفكار ليست هناك صعوبة فى الاقناع به ، اذ ليس له حدود ، ولا غايات ، لا يرمى الى شىء ولا يدافع عن شىء • ان الدفاع عن شىء أصعب من الهجوم عليه ، لأن الذى يتم يأخذ على الدوام فى التناقص ويستمر فى التباعد عن التفكير •

قلت محاولا أن أدافع عن نفسى :

ـ ان الحياة تجنح دائما نحو المنحدر • ولابد من الجهد المتواصل لكى يسمح لها بذلك •

ـ ان التفكير هو الذى يدفعها الى الانحـدار ، لانه يبدأ أن يعارض نفسه • واذ ذاك ينشأ التفكير الجديد ، المعارض ، ويكون على درجة من الجودة حتى يبدأ تحققه • واذن ليس جيدا ذلك الذى يكون ، وانما ذلك الذى يرغب • وكان على الناس عندما يجدون فكرة جيدة أن يحتفظوا بها داخل الزجاج حتى لا تتلوث •

ـ اذن لا توجد أية امكانيات كى نقيم نظاما لهذا العالم ؟ وكل هذا ليس سوى ضلال ومحاولة منذ الأزل الى الأبد ؟

لم يجب • لقد ذكر فكرة عجيبة ، كانت تبدو لى هكذا فى البداية ، وأصبحت فيما بعد أمرا لا يهمنى •

ـ وهذا هو العالم أيضا • نحن فى سرداب ، واقامة نظام فيه يعنى العمل على جعله أشد صعوبة وأكثر مرارة •

واذ ذاك بدأ فقدان الوعى • وخيل الى أننى كنت أعى كيف أخذ هذا الفقدان ينتابنى ، ولكنى لم أستطع الافلات من سيطرته ، لقد كان فى هذا اللاشىء بعض اللذة الغالبة ، تتمثل فى ذلك الطفو دون جهد ودون غاية ، كما تطفو الورقة فى المنطقة الخطرة من مجرى النهر • لقد كان فكرة لا تعرف التقلص • ولعبة عجيبة جميلة ليس لها من هدف . وتحليقا لا يصاحبه الخوف ولا يراوده القلق • فقد كان حقدا لا يعتريك

النوم من أجله ، وواجبا مستحبا لا يمكن التهرب منه ، شانه شان التنفس ودوران الدم •

سالته دون اهتمام ودون قلق :

ـ لمن يكون أشد صعوبة واكثر مرارة ؟

ـ لنا نحن ، ولهم ايضا • سوف يسجن بعضنا بعضا • وسوف نتعود على ذلك • وسوف نتحول الى فئران عمياء ، الى خفافيش ، الى عقارب •.

ـ لن نريد حتى الخروج • سوف نالف الهدوء والظلام •

ـ لن نخرج • وسوف نبقى هنا الى الأبد ، اذ لا يمكننا إن نظل دون انتقال الى الأبدية •

ـ لن ينسى بعضنا بعضا •

ـ سوف نسجن الأعداء هناك ، ســـوف نطردهم ونلقى بهم على الأرض ، ثم ننساهم •

ـ عندما ينزعون من الجحيم سيلقى بهم فى معترك الحياة •

ـ سوف يكون التعساء هناك • وسوف يصيحون : « أعطونا قليلا من الظلام • لقد كنا معكم ! »

ـ وسنرد عليهم بقولنا : « ابحثوا عن ظلام لأنفسكم ! اصنعوه بانفسكم ! »

ـ كيف سيكونون تعساء ! سوف يصيحون قائلين : « حررونا ! اسمحوا لنا بالنزول اليـــكم • » ونحن سنجيبهم قائلين : « لقد ظلمتم انفسكم • وما كنتم بنا مؤمنين » •

ـ لقد ظلمتم أنفسكم •فلابد أن تبقوا هناك

ـ اننى سوف أخرج الى الأرض أحيانا •

ـ انك على الدوام غير مطيع •

ـ انك ستكون درويشا دائب الحركة • ستراقبنا كى لا نفتح اعيننا ، وكى لا نبتعد عن ولايتنا المظلمة •

ـ سنحافظ على عالمنا •

ـ انني لا اريد أن أكون فأرا اعمى أجرى هنا وهناك ٠

ـ لقد بدأت تنمو لنا مخالب صغيرة ، ويكسو جلدنا الشعر ، ويظهر لنا خطم ٠

ـ لا أريد أن أكون فارا اعمى ٠ اذهب ٠

كنت أجلس القرفصاء ٠ وقد اسندت جبهتي على جدار مبلل بادى الخشونة ، ولم أكن على درجة من القوة لكى ارفع رأسى عنه ٠

وكان شخص ما يقوم بجانبى ٠

لقد ساعدنى على النهوض قائلا :

ـ لقد أفرج عنك ٠ وهناك الأصدقاء ينتظرونك ٠

اخذت استرجع ذكراى ، بتفكيرى الشاحب البعيد ، وكان ينبغى على أن أفرح ، ولكنى لم اقم حتى بالمحاولة ، اذ لم أكن أشعر بحاجة ما الى ذلك ٠

سألت « كمال » :

ـ اين اسحاق ؟ لقد كان هنا ٠

ـ لا تشغل بالك ٠ لا تهتم بالآخرين ٠

ـ كان هنا الآن ٠ منذ لحظة ٠

وفي الممر كان ينتظر رجل مجهول ٠ لقد جاء بى الى هنا ثلاثة ٠ والآن لست مهما بالنسبة لهم ٠

قال لى ذلك الرجل :

ـ هيا ٠

اخذنا نسير خلال الظلام صامتين ، وكنت أتخبط بين الجدران ، وكان الرجل يمسك بى كى يجنبنى التخبط ، كنا نسير وكنت أفر ، كنت أظل بعيدا عنه فترة طويلة ، ثم أعود اليه ، وكنت أفكر من ينتظرونى ؟ وكان الأمر بالنسبة لى على السواء ٠ واذ ذاك خرجنا من ظلام حالك الى ظلام أقل منه ، وأدركت عندئذ أننا فى الليل ، فى الليل الفانى ، ما أجمل الأشياء التى تغنى ، ليل الصيف ومطره ، وقد أردت أن ابسط يدى لكى يزيل المطر ما علق بهما من وحل السرداب ، ولكى يخمد ما بى من حرارة ، ولكن كانت اليداذ متدليتين فى حالة من الضعف ، ولم أكن أشعر بحاجة اليهما ٠

القسم الثاني

١٠

« وقد خاب من دساها »

منذ زمن بعيد كان هناك طفل يتحدث عن الخوف الذى ألم به ·
وقد كان حديثه هذا أشبه بكلمات هذه الأغنية القصيرة :

في أسفل السقف المغطى سطحنا
عرق يصيبك دائما فى الرأس
وكذاك ريح تلطم الباب الصغير
للطاقة الصغرى ترى فى السقف
وهناك يسكن آمنا فى الشق
فأر يطل برأسه
ويرى بجانب عينه

كان عمره ست سنوات ، وكان ينظر بعينيه الزرقاوين الضاحكتين الى الجنود ، والى ، أنا الدرويش الصغير المجند ، فقد كنا رفيقين وصديقين، ولا أدرى أكان يحب فى حياته أحدا من الناس كما كان يحبنى ، وذلك لأننى كنت استقبله فى سرور محاولا الا اظهر أمامه أننى أكبر منه سنا ·

كان الوقت صيفا ، وكان المطر والحرارة يتعاقبان ، وكنا نتخذ من الخيام سكنانا وقد ضربت فى أرض سهلة ينتشر بها البعوض ويكثر فيها نقيق الضفادع ، وتبعد مسيرة ساعة على الأقدام من نهر « سافا » ، وتستقر بجانب الخان السابق ، الذى كان يسكن فيه الطفل الصغير مع أمه وجدته التى ضعف ابصارها حتى لتعد نصف مبصرة ·

حللنا فى هذا المكان منذ الربيع ـ وها نحن فى الشــــهر الثالث لاقامتنا فيه ـ نهاجم بين الحين والآخر هؤلاء الأعداء الذين تحصنوا على شاطىء النهر • وقد فقدنا فى البداية كثيرا من رجالنا ، ولذا هدأنا ، مدركين أننا لا نستطيع بهـذه القوات أن نلحق بهم ضررا ، وأما قواتنا الأخرى فقد كانت تحارب فى ميادين يعلمها الله فى أنحاء الامبراطورية الواســعة ، وهاقد توقفنا هنا وأصــبحنا نحن والأعداء كل يمثل عقبة للآخــر •

أخذ الوقت يبدو مرهقا مملا • فقد كانت الليالى خانقة ، وكانت الأرض السهلة تتنفس فى هدوء تحت ضوء القمر كما يتنفس البحر ، كما كان هناك عدد لا يحصى من الضفادع التى تقبع فى مكانها وتفصلنا بنقيقها المرتفع المتواصل عن العالم الآخر ، وتغرقنا بأزيزها الذى كان يخمد عند بزوغ الفجر وانتشار سحب الضباب ، مشكلا بخارا أبيض اللون أو رماديه ، ينســاب كما كان ينســـاب فى بداية نشأة العالم ، سابحا فوق رءوسنا • وكان أصعب شيء دقة هذا التجدد ، ثباته على الدوام واستمراره •

كان الضباب ورديا ، وكانت الفترة من بدء ظهــوره حتى تلاشيه تعد أجمل فترات اليوم ، لم يكن جوها مشـــبعا بالرطوبة ، ولم تكن تنتشر فيه أسراب البعوض ، ولم يعـد العــذاب الذى يتراءى بين النوم واليقظة موجودا • لقد كنا نغط فى نوم عميق كما لو كنا غارقين فى الجب •

وعندما يهطل المطر ، واذ ذاك يبدو الوقت أكثر ارهاقا ومللا ، كانت دائرة الأفق تضيق ، وكنا نجلس القرفصاء فى تزاحم وصمت ، معذبين بقسوة البرد ، كمـا لو كان الشـــتاء قد أخذ يبدأ من جديد ، وأحيانا كنا نتحدث فى شيء ما ، أو نترنم ببعض الأغنيات ، وقد احتدمت نفوسنا وأصبحنا خطرين مثل الذئاب • كانت الخيام تتشرب مياه المطر وتصيبنا بقطرات رمادية اللون • وكان الماء ينبع كذلك من تحت أسرتنا ، كما كانت الأرض كلها تتحول الى وحل يجعل من الصـــعب السير أو التنقل ، وكنا نقع على الدوام فى شرك مصيبة تحل بنا •

وكان الجنود يحتسون الخمر ويلعبون الميسر ، تحت غطاء بسطوه فوق رءوسهم ، كما كانوا يتشاجرون ويضرب بعضهم بعضا • كانت هذه

الحياة اشبه بحياة الكلاب ، وكنت أقضيها متظـاهرا بالهدوء ، دون أن اشير بشيء الى أن هذا النوع من الحياة صـــعب بالنسبة لى ، ودون أن اتحرك حتى عندما كان المطر يبللنى ، أو حتى عندما تتحول الخيام الى دار للمجانين ، الى قفص للوحوش البرية ، كنت أجبر نفسى على تحمل كل قبيح وكل صعب دون أن انطق ولو بكلمة ، كنت صـغير السـن ، وكنت أفكر أن هذا يعد جزءا من التضحية ، وعلى الرغم من ذلك كنت اعرف أن الأمر قبيح وصعب • كنت أنا الفلاح وطالب علوم الدين انتفض عندما يصل الى سمعى سب أو قول قبيح ، حتى عندما أدركت أن الجنود يطلقون هذا السباب ويستخدمون تلك الأقوال دون أن يلاحظوا انها تحمل شيئا غير مقبول • وعندما كانوا يريدون أن يســـبوا أو يقولوا كلمة قبيحة ، مستعدين لذلك وواجدين المتعة فيه ، كان الأمر يصـــبح فى الحقيقة شــيئا لا يطاق • لقد كانوا يقومون بذلك فى غضب هادىء ، وفى لذة عنيفة ، متوقفين ومتسمعين فى اثارة صدى هــذا الجماع غير الطبيعى للكلمات • وكانت تأتى على لحظات أبكى فيها من هذا العذاب •

لقد سمعت عن الحياة وعن الناس اشياء عديدة لم أكن قد سمعتها من قبل وكنت اقبل بعض الأشياء بسرور لمعرفتها ، وبعضا منها بارتباك وفزع ، وهكذا كنت أحصل على الخبرة ، متخليا عن السذاجة ، ولكن دون أن انقطع عن الحزن •

كنت أجلس مع الجنود حتى عندما يصبح جوهم يبعث على الاشمئزاز ، وكنت أسمح لنفسى أن أنفصل بعد أن اقوم بتهدئة نفسى ، بعد أن أكسر حدة مشاعرى ، أو ابتعـد بأفكارى ، قابلا كل شيء كضرورة نطلق عليها الحياة ، وليست جميلة دائما• قلما كان منى من محاولة لردهم الى الصواب• لقد سخروا منى فى ضحك عنيف عدة مرات (اذ كنت ، سوى وظيفتى كدرويش ، مثلهم ، ولم تكن لى رتبة تدافع عنى) ولذا تنازلت من أجلى ومن أجلهم عن التدخل فيما يفعلون ، وقاصرا عملى على الصلوات التى كانت مدرجة فى قائمة أعمال الجنود ، شأنها شأن السير أو الحراسة • واذ ذاك كانت تخطر ببالى فكرة عجيبة يائسة مؤداها أن الانسان الذى يكون أكثر ثقافة واوسع اطلاعا يصبح فى موقف صعب اذا لم يـكن يحميه المنصب وتلك الرهبة التى يخلعها عليه • انه اذ ذاك يصـــبح منفردا : فمقاييسه تخالف مقاييس الآخرين ، ولا تعود بالنفع على أحد ، ومن ثم تجعله منفصلا •

ولذا كنت أبقى وحيدا غالبا ، أقرأ فى كتاب ، او اسبح بالمكارى ، دون أن أفلح في ملاحظة أحد من هؤلاء النـاس أرغب في الاقتراب منه ومصادقته • وربما كان ممتعا • لقد كانوا ـ منفردين ـ على صورة من عدم الاهمية لا يمكن تصورها • انني لم اكرههم عندما كنت أفكر فيهم كمجموعة ، بل لقد كنت احب قليلا هذا المخلوق ذا المائة رأس ، المخلوق الغليظ والقوى ، ولكنى لم استطع ان اتحملهم فرادى • كان حبى ، او شيء أقل من ذلك ، يتعلق بهم ككل ولا يتعلق بأحد من أفـراده ، وكان يكفينى ذلك •

وذات مرة ، بينما كنت أجلس فى الحقل ، على جذع شجرة منشن ، وقد دفنت قدماى فيما تخلف من عمليات النشر والقطع ، وكنت اذ ذاك وحدى ، وقـــد اصم أذنى صوت الجـدجد حيث كانت الشمس تشتد حرارتها (وعلى الدوام كان هنـاك شيء يثرثر ، يصفر ، ويغنى فى هـذه الأرض السهلة) ، كما نالنى اشمئزاز من ذلك الذى سمعته مما حكاه الجنود عن امرأة شابة فى الخان ـ رأيت طفلا قـد توقف فى العشب ، وكان يغوص فيه حتى العنق ، ثم أعلن لى عن نفسه فى ثقة • وقد تم التعارف بيننا •

كم وددت لو لم يجدنى ! فقد خيل الى اننى فى خوف من أن يقرأ فى عينى ذلك الذى سمعته عن أمه •

لم يكن من المستبعد ذلك الذى حكاه الجنود • لقـد كانت امرأة وحيدة فى جوارنا ، وكانت القرى الأولى تبدو للعين على البعد عند حافة هذه الأرض السهلة ، وقد كان الجنود يذهبون هناك وخاصة فى الليل من أجل النساء ، وكنت أعرف ذلك ، وليس هناك أحد قد انعدم ضميره كما هو الحال لدى الجندى الذى يعرف أنه من الممكن أن يموت فى أية لحظة ، ولا يريد أن يفكر فى الموت ، لا يريد أن يفكر فى شيء ولايبالى بما يخلف وراءه من خراب • وأما النساء فهن أشد حلما وأكثر وداعة من اجل اشفاقهن القديم على الجنود والذى أصبح على مر الزمان أمرا ملازما لهؤلاء الجنود ، ومن أجل احساسهن بمفـارقة الخجل لهن ، اذ يحمله الجنود معهم فى أســـفارهم البعيدة • ان المكان الذى يمر به الجيش لا ينبت العشب وانما ينبت الاولاد • لقد كان صعبا بالنسبة لى أن أقبل ذلك من أم الصبى الذى ظهر فى العشب وحدث التعارف بينى وبينه •

كان باستطاعتى أن أقبل ذلك من كل امرأة ، ولكنى لم أستطع قبوله من امرأة معينة . لقد كنت أعمم العالم بهذه الدرجة حتى كان أن فقدته .

انها صغيرة الجسم ، ضعيفة فيما يبدو ، شابة لم تزل بعد ، ولم تكن تثير الاهتمام فى سرعة ، ولكن نظرها المركز ، وحركاتها الهادئة ، وتصرفاتها الثابتة كانت تلزم الرجل الا يمر بها فى هدوء ودون مبالاة . واذ ذاك كان باستطاعته أن يكتشف عينيها اللتين لم تتشتت أشعة ابصارهما ، وفمها الجميل الذى يبدى قليلا من الابتسام وشيئا من السخرية والعناد ، وحركاتها المتناسقة التى لا يمكن أن يقوم بها سوى جسم صحيح مرن . لقد كانت تواجه الشدائد فى حياتها بشجاعة . وعندما أصبحت أرملة أصرت على أن تحتفظ بطريقة ما بالخان وبالضيعة التى تحيطه ، والتى كانت الحرب تتلفها شيئا فشيئا ، حتى بدت تشبه أرض المقابر والصحارى . لم تغادر هذا المكان ، بل كانت تحافظ على الشىء الوحيد الذى كانت تملكه ، محاولة أن تحول مصيبتها الى ما يعود عليها بالنفع . كانت تبيع الطعام والشراب لمن يأتى من الجنود ، وكانت تسمح لهم أن يقامروا فى الخان ، كما كانت تستنزف منهم تلك النقود الهزيلة التى تصرف لهم ، معطية اياهم ذلك الذى لم يكونوا يملكونه . وقد حاولت جهد طاقتها أن تبعد ابنها عن البيت وعن الجنود ، ولكنها لم تكن تفلح على الدوام فى ابعاده . لقد تحدثت معها فى هذا . وردت فى هدوء قائل « اننى من أجله اشتغل . سوف تكون حياته صعبة اذا بدأ من لاشىء » .

وهأنا الآن عرفت أنها تعيش مع الجنود . ربما كانت مجبرة ، وربما لم تكن تستطيع أن تدافع عن نفسها ، وربما قبلت مرة ثم اخذوا بعد ذلك يهددون ، فكان أن تعودت ، لا أدرى ، لم أرد أن أسأل احدا ولكن كان يعذبنى ذلك الذى سمعته . وكان هذا من أجل الصبى . أيعرف هو أم سيعرف ؟ ومن أجل أنا كذلك . كنت الى تلك اللحظة التى سمعت فيها ذلك اقدر شجاعتها ، ثم اخذت أفكر بعد كما يفكر كل رجل شاب ، وان كنت أخجل من تفكيرى هذا . ولكنها الآن أصبحت كالماء الذى يجرى فى حرية ، كالطعام الذى يقدم للمرء ، أصبحت فى متناول اليد . لم يكن يدافع عنها شىء بعد ، سوى خجلى ، وكنت أعرف ان الخجل ليس عقبة كبيرة للغاية ، ولذا كنت أربط نفسى أكثر بالصبى ، لكى ادافع عن نفسى وعن نفسه كذلك .

لقد كنت أسمع له أن يقودني في طرقه الصبيانية كما يشاء ، لنتحدث بلغته ، ولنفكر بطريقته ، سعيدا عندما كنت أحقق على وجه التمام ذلك ؛ اذ كنت أشعر أنني أصبحت هكذا غنيا • كنا نصنع مزامير من عشبة سيفية الأوراق ، ونتمتع بصوتها الحاد ذي الأزيز ، ذلك الذي كان يصدر حين يقطع حدها الاخضر ما ينطلق من هواء الفم • وكنا نقطع في مهارة وعناية ما جمعناه من أعواد شجر البيلسان ، ثم نقوم باخراج نخاعها الرطب ليكون لها جوف تملؤه أصوات عديدة خفية ، كما كنا نصنع من الورود الزرقاء والصفراء نقطفها من المستنقع اكليلا ليحمله الى أمه ، وقد حثثته فيما بعد كي يزين بالاكاليل أغصان الحور ، حتى لا يطوف بذهنه أمر قبيح •

سألني :

ـ هل ستنبت الزهور في اغصان الحور ؟

قلت معتقدا بعض الشيء أنا الآخر في ذلك الاحياء الزهري لشجرة رمادية :

ـ ربما ستنبت •

وسألني ذات مرة :

ـ أين الشمس ؟

ـ وراء السحاب •

ـ هل تكون دائما هناك ؟ حتى عندما تكون السماء ملبدة بالغيوم ؟

ـ نعم دائما •

ـ أفي استطاعتنا أن نراها اذا صعدنا الى قمة شجرة الحور ؟

ـ لا نستطيع •

ـ ولو صعدنا المئذنة ؟

ـ لا نستطيع ، ففوق المئذنة يكون السحاب •

ـ ولو أحدثنا ثقبا في السحاب ؟

وحقا لم لا يحدث الناس ثقبا في السحاب ، من أجل الصبيان الذين يحبون الشمس ؟

وعندما كان يهطل المطر كنت أجلس معه في احدى غرف البيت

الواسع ، ثم أخذ يقودني الى السطح ، وهناك صدمني أحد العروق في راسي ، كان يحكي لي حكاياته الجميلة عن قارب كبير كهذا البيت يسبح في النهر ، يسبح في هذه الأرض السهلة ، كما كان يحكي لي عن حمامته المحبوبة التي ترفرف بجناحيهـا فوق سريره عندما يأوي الى النوم في الليالي الخانقة ، وعن جدته العجوز التي لا تبصر ولكنها تعرف جميع الحكايات في العالم ٠

ـ وعن الطائر الذهبي ؟

ـ وعن الطائر الذهبي ٠

ـ وما هذا الطائر الذهبي ؟

كان معلمي الصغير يبدي دهشته قائلا :

ـ ألا تعرف ؟ انه طائر من الذهب ٠ ومن الصعب الحصول عليه ٠
كنت أذهب فيما بعد الى بيته نادرا ، اذ لم تكن افكاري طاهرة ، كما كنت أتحدث لغته في صعوبة ٠ وعندما كنت اذهب كنت أبدو على خلاف طبيعتي كنا نجلس في المطبخ ، وكانت أمه تدخل وتخرج ، وتبتسم لنا كما تبتسم لطفلين صغيرين ٠ كنت اخفي عيني ٠ لم آكن اريد أن آكل ، أو أشرب ، كنت أرفض عندما كانت تقدم الى طعاما أو شرابا ، فقد اردت أن اكون على خلاف الآخرين اذ كنت مثلهم ٠

وقال الصبي ذات مرة مقترحا :

ـ ابق عندنا ٠ لماذا تخرج والمطر يسقط ؟

وضحكت المرأة عندما رأت كيف احمر وجهي ٠

وذات ليلة ، وفي وقت الفجر بالتمام ، هاجمنا العدو ، وطردنا من خيامنا ٠ وقمنا ـ وقد بوغتنا ـ بمقاومة ضعيفة ، ثم جمعنا في شيء من الصعوبة أسلحتنا وأشياءنا الضرورية ، وانطلقنا في أرض سهلة وليس على أجسادنا سوى ملابسنا البيضاء ، وكنا نحمل في أيدينا مهمات الجند المتواضعة ، وقد توقفنا عندما بزغ النهار ولم يكن أحد يرى وراءنا ٠

احتل العدو مكاننا كما احتل الخان ٠ وحفر جنوده بعض الخنـادق وأخذوا ينتظروننا في غير خوف ٠

رددناهم الى مكانهم على شاطيء النهر بعد سبعة أيام ، ومرة ثانية احتللنا مكاننا حول الخان ٠

واذ ذاك خرج جنديان منا من الخان ،فقد حدث الهجوم المفاجيء وهما بداخله ، أو لعلهما لجئا اليه ، وهناك مكثا مختفيين هذه الأيام السبعة العسيرة ، حيث كانت جنود العدو تدخل وتخرج وتتنقل حول الخان • وكانت المرأة تقوم باطعام هذين الجنديين • لقد كنا شاكرين لها حتى عندما حكيا لنا انها كانت تعيش مع جنود العدو • وساد الصمت •

ورجوت الضباط ان يامروا بنقل الصبى وجدته العمياء بالعربة الى احدى القرى القريبة •

وسأل الصبى :

ـ وأمى ؟

ـ ستلحق بكما فيما بعد •

وما أن ابتعدت العربة وبدت صغيرة الحجم فى الأرض السهلة حتى قاموا بقتل الأم رميا بالرصاص •

لقد عرف الصبى دون شك ماذا حدث لأمه ، كما أصبحت دون شك أغنية عن السقف أشد مرارة •

تذكرت الصبى وخوفه ، وأنا أجلس فى غرفتى وأعود بأفكارى الى الوراء ، الى أيام صباى •

كان لبيتى سقف يغطى سطحه ايضا • وكنت أجلس منحنيا على سرج قديم كان يوجد على السطح وحيدا فى هذا العالم من المخلفات التى فقدت شكلها السابق واتخذت شكلا آخر ، وكان هذا الشكل يتغير حسب أوقات النهار وحسب انفعالاتى النفسية ، حسب شدة ضوء الشمس وضعفه ، وحسب حالتى الفرح والحزن فى نفسى • كنت أنطلق راكبا على السرج من أجل تحقيق الرغبة فى أن يكون شيء ، فى أن يحدث شيء من احلام الصبية الضبابية التي كانت تتغير فى سرعة وعناد ، والتى كانت غير حقيقية شأنها شأن هذه الاشياء فى الظلمة التى تغشى السطح •

كان هذا السطح المغطى بالسقف الهرمى يخلقنى ، كما كان يخلقنى عديد من الأماكن ، والمناسبات ، واللقاءات ، وبعض الرجال ، وكنت أشب وأترعرع فى آلاف من التغييرات ، وكان يخيل الى دائما أن كل شيء من الماضى كان يتلاشى مع تغير جديد ، وكان يضيع كشيء عديم الاهمية فى ضباب ما مر بى من الزمن • واذ ذاك كنت أجد على الدوام ودون توقع آثار كل ما كان ، كحفريات كشفت من جديد ، كطبقات تمثل ذاتى ،

وعلى الرغم من أنها قديمة وقبيحة فقد كانت ترى جميلة وحبيبة الى نفسى. كان الزمن يحمل هذا الجزء منى - ذلك الذى قد كشف ولم يصبح ضائعا بعد ولم يعد مجرد ذكرى - ويعيده من فوق السها والثريا واصلا اياى به • وهكذا كان له وجود ثنائى ، وجود باعتبـــاره جزءا من شخصيتى الحالية وآخر باعتباره ذكرى ، وجود يمثل واقعى الحاضر وآخر يمثـــل بداية واقع جديد •

على هذا السطح حيث كنت أنشد العزلة ، مكتشفا نفسى ، وأطلب الملجأ من الفضاء العارى لموطنى ، وان كنت أحبه أكثر من أمى ، كنت أفكر كثيرا عن طائر ذهبى ورد فى حكايات جدتى • لم أكن أعرف ماذا يكون هذا الطائر الذهبى ، ولكن عندما كنت أسمع سقوط قطرات المطر على السقف الخشبى ، واصطكاك باب الطاقة بفعل الرياح ، وارى عديدا من الأعين تطل من أركان السقف - كنت أتخيل حصولى على طائرى الذهبى ، كما يحصل عليه البطـل فى حكايات جدتى التى لا يزال وقعها فى الآذان ، عالما أنه هكذا بطريق ما غريب ليس فى الامكان ايضاحه تتحقق السعادة •

لقد نسيته فيما بعد ، فالحياة قد قشعت أحلام الشباب ، تلك الأحلام التى يمكن أن تنبعث من تخيلات حارة لا يعتريها العوائق ، ومن رغبات حرة لا تعرف الحدود • انه ولد فى فترة السذاجة • ولكنه ظهر من جديد، كابتسامة ساخرة ، وذلك عندما أصبحت حالتى على قدر من الصعوبة لم أحسه من قبل •

حدث أن كان صبى يعيش فى بيت والده على شاطىء النهر ، وكان يحلم أحلاما ذهبية ، اذ لم يكن يعلم شيئا عن الحياة •

وكان هناك فى الخان المقام على السهل صبى آخر يكثر من التفكير فى الطائر الذهبى • لقد قتلوا أمه لأنها ارتكبت المعصية ، وأما هو فقد شردوه فى العالم •

لقد كنا أربعة من الاخوة ، وكان كل منا يبحث عن طائر السـعادة الذهبى • وقد لقى أحدهم مصرعه فى الحرب ، وأصاب ثانيهم الســـل الرئوى فقضى عليه ، وأما الثالث فقد قتل فى القلعة ، وأصبحت أنا الأخير لا أبحث عن طائرى بعد •

أين تكون الطيور الذهبية التى ترف فى أحلام الناس ، وفوق أى بحر من البحار العديدة أو أى جبل من الجبال الوعرة نستطيع أن نحصل عليها ؟ أتظهر لنا هذه الرغبة العميقة من الرغبات التى تمليها سذاجة

الأطفال اشبه بعلامة دالة على الحزن قد ارتسمت في المناديل وتزينت بها الجلود الفاخرة لتلك الكتب التي لم نعد نستخدمها بعد ؟

حاولت أن أقرأ حكايات ابي الفرج ، والزمت نفسي ذلك ، دون ان يكون لدى كبير رغبة ودون ان أجد في نفسي ضرورة • فقد اردت ان اسمع أفكار الآخرين لا افكاري فحسب •

فتحت الكتاب كيفما اتفق ، فوجدت حكاية عن الاسكندر المقدوني• وتروى الحكاية ان أحدا قدم للامبراطور هدية مكونة من أوان زجاجية رائعة وقد اعجب الامبراطور بالهدية ولكنه على الرغم من ذلك حطمها بأكملها ، فسألوه : لم قمت بتحطيمها ؟ ألم تكن رائعة ؟ أجاب : بلى ، ولذا حطمتها انها بلغت من الروعة ما يجعلني أشعر بالحزن والأسف اذا ما حدث ان فقدتها • وبمرور الأيام سوف تتكسر قطعة اثر اخرى ، وسينتابني حزن أشد مما ينتابني الآن •.

كانت الحكاية توصف بالسذاجة ، ولكنها على الرغم من ذلك أفزعتني • ان مضمونها يبعث المرارة ، يجب على الانسان أن يقصي عنه كل ما في الامكان أن يقع تحت سيطرة حبه ، لأن الفقدان وخيبة الأمل لا يمكن تجنبهما • يجب علينا أن نتنازل عن حبنا لكي لا نفقده • يجب علينا أن نهلك حبنا ، لكي لا يهلكه الآخرون • يجب علينا أن نعرض عن جميع الارتباطات تجنبا لحزن آت •

انها فكرة قاسية يائسة • اننا لا نستطيع أن نهلك كل ما نحب ، وسيبقى الامكان على الدوام لكي يهلك الآخرون لنا ذلك •

لماذا يعتقد الناس أن الكتب تتصف بالعقل والحكمة اذا كانت مرة المذاق ؟

لا تستطيع حكمة احد ان تساعدني: ولذا افضل ان اعود الى البداية وسيكون ذلك دون جهد مني ودون اجبار من نفسي • انني لا ابحث عن الشيء ولكن الشيء يبحث بنفسه عن نفسه ثم يتحقق له الوجود •

ان المطر ما زال مستمرا منذ أيام ، وقطراته ما زالت تنقر في شراسة وحقد سقف التكية الهرمي الذى غطي بالقرميد ، والأفق تغشاه الظلمة ويكتنفه الغموض ، وفوقي على السطح تسير أقدام غير مرئية ، ويوجد عرق أعلاه يصدم الرأس ، كما توجد ريح تصفق باب الطاقة في

السقف الهرمي ، وفأر يعض برأسه من أحد الأركان · وعدا ذلك توجد طفولة واحدة تتطلع بعينيها الحزينتين عبر الظلام ·

نجحت للحظة أن افكر كما يفكر ذلك الصبي الوحيد البعيد ، وأن تكون لي مشاعره وخوفه · كل شيء كان سرا جميلا ، ولم يكن له سوى مستقبله أو سوى استمرار لا يعرف الحدود ، وكانت له الى جانب ذلك حالات قوية ، سرور عميق أو حزن عميق · لم تكن هذه احداثا بل حالات نفسية ، كانت تاتي أحيانا وحدها ، كما يهب النسيم ، كما تمتد ألسنة الظلام ، كما يظهر لألآء غامض ، كما تستولى النشوة · أو تلوح أجزاء من صـــور ممزقة ، او اشخاصا تلمع في الظلام لمعان البروق ، أو ضحكات لشخص ما في صباح مشمس ، أو انعكاسا لضوء القمر في نهر هادىء ، أو شجرة متعرجة تقوم عند منعطف الطريق ، ولم يكن يخطر ببالي وجود تلك الذرات لحياتي الســـابقة في داخلي ، كما لم آكن أعرف لماذا بقيت مستقرة هذا الزمن كله · هل من الممكن أنها كانت تعنى شيئا عظيما في المـاضي ، ولذا تسربت الى أعمـاق ذاكرتي ، وتوارت كما تتوارى أدوات اللعب القديمة · انني نسيت ذاتي السابقة ، وقد طواها الزمن البعيد، وها قد اخذت تطفو الآن بقاياها المهشمة ومخلفاتها البالية ·

كل هــذا الذى ذكرت يمثلني أنا الآن ، أنا المقطع ، أنا المكون من القطع الصغيرة ، من الانعكاسات ، من البروق ، من المصادفات ، من الأسباب لا يمكن تعرفها ، من المباني التي كانت توجد ثم توارت ، والآن لا اعرف بعد ماذا آكون من هذه الأخلاط والأمشاج ·

أصبحت اشبه بمن يسير ليلا وهو نائم ·

كنت أجلس طويلا في الليل دون حركة ، وقد وضعت في جانبي الغرفة شمعتين مضيئتين كي ابعد بهما الظلام · وكنت انظر ـ متسترا كالليل حولي ، وهادئا كالعالم فيه ـ الى زجاج النافذة الأسود الذى كان يفصلني عن الظلمة ، والى الجدران الرمادية التي كانت تفصلني عن كل شيء ، دون ان أجرؤ على ابعاد نظري عنهـــا ، كما لو كانت ستنشق لو اغفلتها لحظة واحدة · وكنت أستمع ، دون أن أحاول النهوض ، ودون أن أنتقل من الركن الذى جلست فيه كي تظل الغرفة باكملها أمامي ـ كيف يهطل المطر بشدة وكيف يكركر الماء داخل ميزاب خشبي مسدود ، وكيف يخشخش الحمام بأظفاره ويعلن عن نفسه بهديله الناعس ·وكانت هذه الأصوات جميعها تسرى في هدوء وبنغمة واحدة ، وقد أصبحت جزءا

من الليل الذى توقف عن السير ، وجزءا من العالم الذى خمدت فيـــه الحياة ·

لم أكن أبحث بعد عن الأسباب ، او الأمر الكلى ، أو التيارات التى تسرى فى غير انقطاع ·

وفى نهاية محاولتى تحديد هذه الأشياء ، ووضع نطاق حولهـــا ، واقامة تخوم لمعانيها ، كان يقف الليل الطويل الاسود ، والميـــــاه التى تتزايد على الدوام ·

والى جانب ذلك كان صبى الأرض السهلة يمثل أمامى كذكرى تبعث العذاب والقلق ·

لقد وجدته فيما بعد ، وجئت به الى المدرسة والى التكية · وقد تم التعارف بيننا عند اللقاء فى صعوبة بالغة ، وذلك لما كان قد حدث من تغير فى نفسى وفى نفسه كذلك ·

ماتت جدته العجوز وبقى وحيدا فى هذا العالم · أصبح راعى غنم فى القرية التى تركوه فيها ، وكان يتيما اذ لقيت أمه مصرعها فى الحرب تاركة له استحقاقاتها المشكوك فيها على سبيل الذكرى ، وتاركة له عبئا مبرحا تحمله نفسه ·

كان أشبه بزهرة من زهور المستنقع نقلت الى الجبال ، أو جرادة قطع الصبيان جناحيها ، أو صبى من سكان السهول سلبه الناس الطمأنينة وأثقلوه بالهموم · وكانت سماته الخاصة به لاتزال موجودة ، وجهه ، جسمه ، صوته ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن هو الشخص الذى كان ·

لن أنسى كيف كان يجلس على الحجر تجاهى ، خامد النفس ، لاينطق بشىء ، شارد الذهن ، دون ما أثر لذلك السرور الذى يشبه سرور الطير والذى كان يتألق فى الماضى على وجهه ، ودون ما أثر حتى لحزن ، ودون ما شىء ، كان يجلس مطحونا · وكنت اقول له سوف تكون معى وسأهتم بأمورك وستتعلم فى المدرسة ، ولكن نفسى كانت تريدنى أن أصيح : اضحك ، اجر وراء الفراشة ، تكلم عن الحمامة التى ترف فوق فراشك · ولكنه لم يكن يريد ان يتحدث بعد فى شىء ·

والآن ، وبينما كان المطر يسقط ، وبينما كنت فى هذا الفراغ الذى ظهر أمامى أتشبث ـ كما يتشبث الغريق ـ بالطفولة ، بالكتب ، بالاشباح

كان يدخل في هدوء الى غرفتي ، وكنت أحيانا افاجئه عند بابها ، وذلك عندما يخيل الى أن الهدوء اصبح على غير ما كان .

وكان حين يدخل يقف ملصقا ظهره بالحائط ، دون أن ينطق بكلمة .

واذ ذاك يدور هذا الحوار :

ـ اجلس ، يا ملا يوسف

ـ لا بأس .

ـ ماذا ترغب ؟ .

ـ أيلزمك شيء أقوم بنسخه ؟ .

ـ لا .

وكان يبقى لحظات بعد ذلك لم نكن نعرف في أثنائها كيف نتحدث ، اذ يكون الموقف حرجا بالنسبة لي وله ، وكان يتصرف دون كلمة تخرج من فمه .

انني لو سئلت ماذا يقف حائلا بيني وبينه ، وأي نوع من العلاقات تصل بيننا ، وأي عذاب يفصل أحدنا عن الآخر ـ لما عرفت ان اجيب . في وقت ما كنت احبه وكان يحبني كذلك ، والآن ينظر احدنا الى الآخر نظرة الموتى . كانت تربط بيننا الارض السهلة ، قبل حدوث المصيبة ، كما كان يربط بيننا ذلك السرور الذى كان يتلألأ فوق ذلك الزمن كما يتلألأ ضوء الشمس . وعلى الرغم من ذلك كان احدنا يذكر الآخر على الدوام أن السرور لا يمكن أن يستمر وقتا طويلا .

لم يكن يتحدث قط عن طفولته ولا عن أرضه السهلة ولا عن الخان ، ولكن كان يخيل الى أنني ارى فى عينيه كلما التقت بعيني ذكراه ماثلة من أجل موت أمه ، كما لو كنت قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بهذه الذكرى التى كانت تمثل اصعب ذكرى له . ربما نسى كيف كان الحادث ، ومن أجل ذلك يرانى الآخر مذنبا ، لأننى كنت جنديا كما كان الآخرون . وقد حاولت مرة أن أوضح له ولكنه قاطعنى خائفا بقوله : أعرف ذلك .

لم يكن يسمح لأحد أن يخترق دائرة ذكراه الممنوعة ، أو يقوم باخلال نظامه المظلم الذى خلقه فى نفسه . وهكذا أخذنا كلما تقدم الوقت فى التباعد ، وكلانا يخفى قسوته ، لقد كان قاسيا من أجل شكه وثورته وما حل به من المصيبة ، وكنت أنا كذلك من أجل نكرانه الجميل .

لقد تصالح حســـن مع والده ، وكان يتحدث في ذلك بشيء من المزاح ، وبخاصة عندما اعلن أنه جمع بين ولى الأمر والحماة وطفل مدلل في شخصية واحدة ، ولكن سروره كان يتلألأ على وجهه ٠ انه قد اتفق مع والده أن يوقفا جزءا من ممتلكاتهما من أجـــل الثواب والذكرى على الفقراء والمشردين ، وكان يواصل السعى هنا وهناك أياما عديدة من أجل انهاء الأعمال الخاصة بما اتفقا عليه ، والحصـــــول على التصديقات من المحكمة ، ومن اجل طلبه الرجل المناسب والشريف والذكى والماهر الذى يمكنه أن يتولى امور الوقف ، اذا كان فى الامكان الحصول على هذا الرجل ـ كما يقول حسن ضاحكا ـ ٠ لم أكن متاكدا أكان سروره أشد بتصالحه مع والده أم بخروج هذا القـــــدر الكبير من المال من حوزة يد نسيبه « عينى افندى » ٠ ان حسن كان يقول فى سرور : ـ اذا لم ينشق قلبه فلا شك أنه قد من حجر ٠

لقد اشترى حسن المصحف الذى نسخه ملا يوسف لكى يقـــوم باهدائه الى والده ، ولم يكن يوسف يريد أن يقبل ثمنا له ، ولكن السبب الذى أبداه حسن كان مقنعا :

ـ ان عملا يستغرق سنتين لا يمكن أن يهدى بهذه السهولة ٠

ـ وأية حاجة لى فى هذه النقود ؟ ٠

ـ قدمها لمن هو فى حاجة اليها ٠

كان يبدى عجبه ناظرا الى المصـــحف : انه فنان يا شيخ أحمد ، واما أنت فتسكت عن هذا وتخفى امره وتخشى أن يأخـــذه منك ٠ انه يذكرنى بالمبرد المشهور ٠ ربما يكون فنه أجمل من فنه ٠ انه أشد اثارة وأعمق صدقا ، اسمعت عن المبرد يا ملا يوسف ؟ ٠

ـ لم اسمع ٠

ـ لقد أصبح غنيا ومشهورا من أجل الموهبة التى تشبه موهبتك ٠ واما أنت فلا يعرف عنك أحد فى قصبتنا هذه ، حتى اولئك الذين ياتون الى التكية ٠ ان رجالنا يذهبون بالموهبة الى اســـــتامبول أو الى مصر ، والآخرون يوافوننا بالأخبـــار عنهم ٠ اننا لا نعرف أو لا نهتم او لا نثق بانفسنا ٠

قلت دون أن الاحظ عتابه :

ـ ان المجد هنا صغير مهما تكن الاسباب • لقد اردت أن نرسله الى استانبول ولكنه لم يقبل •

بدت الحيرة على الشاب كما بدت فى المرة الاولى عندما حدثته فى ذلك • غير ان خوفه كان اقل مما كان آنذاك •

وقال فى هدوء :

ـ اننى أقوم بهذا العمل ارضاء لنفسى ، ولم أكن أفكر فى يوم ايحمل قيمة أم لا •

وضحك حسن قائلا :

ـ اذا كان صدقا ما تقول فارى لزاما على أن أقف احتراما لك واعترافا بمقدرتك وفنك •

واذا انصرف الشاب وقد تملكته الحيرة من أجل المدح أخذ حسن يشيعه بنظراته •

ـ مازال هناك اناس يا صديقى ينتابهم الخجل ويشتد لديهم الاحساس • ألا يروقك هذا ؟ •

ـ سيظل يوجد على الدوام أمثاله •

ـ الحمد لله • أننا كثيرون جدا نحن الذين لا نعرف بعد هذا • ان اناسا كهؤلاء يجب الاحتفاظ بهم من أجل البذرة • (ثم أردف قائلا :) يبدو أنك لا تهتم به كثيرا •

ـ انه كثير الصمت ومنطو على نفسه •

ـ نعم • انه خجول ، وكثير الصمت ، ومنطو على نفسه • فليساعده الله •

ـ لماذا ؟

ـ ان وظيفتكم الدرويشية غريبة ، انكم تبيعون هذه الكلمات التى يشتريها الناس من أجل الخوف او التعود • اما هو فلا يرغب ذلك . أو لعله لا يعرف أن يبيع الكلمات ، كما لا يعرف أن يبيع صمته وكذا موهبته • فهو لا يحفل بالنجاح • باى شىء يحفل اذن ؟

عبثا تحاول أن توقف حسن اذا أثار اهتمامه أحد • وكثيرا ما تكون هذه الاثارة دون سبب ، أو من أجل سبب يهمه هو فحسب •

ـ لماذا تستطلع أمره الى هذا الحد ؟

ـ اننى لا استطلع امره • وانما نحن نتحدث •

ـ انك تملك قدرة عجيبة تمكنك من الاحساس بالرجل التعيس •

ـ أهو تعيس ؟ •

حكيت له جميع ما كنت اعرفه ، او ما يكاد يكون الجميع ، حكيت عن الارض السهلة ، والصبى ، وأمه ، وبينما كنت احكى بدا لى واضحا أن الشـــاب أصبح ضـــحية كما اصبحت • ولم آكن أعرف أى عذابينا أكبر ، لقد لحقه العذاب فى بداية حياته ولحقنى فى نهايتهـــا • لم أقل ذلك ، ولكننى كنت اشعر انا كذلك كيف اصبحت آسفا لهذه المصـــيبة اكثر من اللازم ، فقد انتزعت من نفسى شخصا آخر واخذت اتحدث عنه الى جانب ذلك •

كان حسن يستمع منحرفا ببصره عنى ، دون ان يقاطعنى ، وقد بدا عليه الانفعال والتأثر ، ولكنه كان يقظا الى درجـــة كافية لكى يدرك المضمون • وقد قال :

ـ يبدو انك فهمته الآن فقط • كان ينبغى ان تقدم اليه المساعدة •

ـ انه لا يرغب أن يساعده أحد ،ولا يسمح لأحد أن يقترب منه ، كما أنه لا يثق بأحد •

ـ لو اقترب منه احد لآمن بما يكنه له من الحب • انه كان طفلا •

ـ كنت احبه ، فانا الذى جئت به الى التكية •

ـ اننى لا ألومك • كلنا على ذاك النمط • اننا نخفى الحب ، وبهـــذا نعمل على اخماده • ان الخسارة لحقتك ولحقته •

اننى أعرف ماذا كان يقصد بهذا : فى الامكان أن يحل يوســـف الآن محل أخى • ولكن أحدا لا يمكن أن يحل محله •

اننى لم أساعد يوسف ! ومن ساعدنى ! •

كنت أتحدث عن نفسى ، ولكنه لم يكن يسمع سوى اسم الشاب • اننى بحكايتى عنه جعلت فى البعد نفسى • أكان ذلك من أجل حداثة سن

يوسف أم من أجل ما أحسه من الفخر والقوة ؟ ان الأقوياء لا يأسف عليهم أحد ٠

ـ والآن ؟ كيف الحال بينكما ؟ أتسكتان عن كل شيء ؟ ٠

ـ ان التعساء سريعو التأثر للغاية ٠ ومن الممكن أن يجرح أحدنا الآخر ٠

ليس من المفيد التحدث فى ذلك الذى يصعب ايضاحه ، من انني احب ذكرى تلك الارض السهلة وأكره انفصالية يوسف الباردة وسكوته المظلم الذى يقتل الأمل ٠ لقد بسطت وأوضحت هذه العلاقة المتشابكة ، مكتشفا صدقا جزئيا فيما يحدث على التدريج من تجنب أحدنا الآخر ، ولكن على الرغم من ذلك تبدو العلاقة فيما بيننا قوية ، اذ الانسان يستطيع الابتعاد بسهولة عن ذلك الذى ساعده ، فهو يحفظ فى اغتباط ذكراه الجميلة عن نفسه ٠ اننا ـ أنا ويوسف ـ كشخصين تقوم بينهما اقوى درجات القرابة ، وحتى لو حدث سوء التفاهم بيننا لكان شديد الشبه بذلك الذى يحدث بين الأقرباء ، وهو على الدوام قريب من الحب ٠

ضحك حسن وقال :

ـ ويوجد كذلك كره الأقرباء ٠

انه بهذا لم يفاجئنى ٠ فقد مكث فترة يتحدث جادا ٠

اجبت أيضا فى مزاح :

ـ لم نصل الى ذلك بعد ٠

منذ ذلك الحين كانا يتقابلان كثيرا ٠ كان حسن يأتي الى التكية أو كان يدعوه الى البيت ٠ لقد كانا يتعجلان معا انهاء أعمال حسن ، كما كانا يقومان بكتابة العقود واجراء عمليات ما حسابية ، ثم يخرجان قبيل الغروب فى نزهة على شاطىء النهر ٠ وكانت علائم التغير تظهر على ملا يوسف : فقد عرفت أن عاطفة حسن غير المباشرة تحوطه وتغشاه اشبه بالضباب الندى ٠ ولكنه كان مايزال يحمل معالمه السابقة ، التى كان ينفرد بها عن الآخرين ، غير انه لم يكن بعد يائسا ولا صلبا فى تعامله ٠ كما لو كان يحيا من جديد ذلك الصبى البعيد ، ولكن فى بطء كما يبدو ، اذ مازال الظل يغطيه ٠

كان يرى متوترا اذا لم يحضر حسن ، وكان ينظر اليه متلالىء الوجه

عندما يبصره مقبلا ، كما كان يفرح لصفائه ولكلمة صداقة ينطق بها ، ولم يعد ينصرف كما كان يفعل من قبل عندما نبدأ ـ أنا وحسن ـ فى الحديث ، بل كان يظل بجانبنا ، وقد أوشك أن ينسى مراعاة الاصول المتبعة ، بما له من ذلك الحق الذى خولته اياه صداقته الجديدة • وكان حسن سعيدا بهذا الولاء الصامت ، وبهذا التهلل الذى كان يستقبله به الشاب •

ومرة تغير كل شيء • تغير في سرعة عجيبة ، وعلى حين غفلة • فقد انقطع حسن عن الحضور الى التكية ، كما أنه لم يقم بدعوة يوسف الى بيته بعد ، لقد انقطع اللقاء ما بين الرجلين •

سألته مشدوها :

ـ ماذا حدث مع حسن ؟ •

أجاب فى حدة :

ـ لا أدرى •

ـ كم من الوقت مضى على تغيبه ؟ •

ـ خمسة أيام •

كان يبدو مطحونا • وللمرة الثانية أصبحت نظراته مضطربة ، وكانت الظلال الكثيفة تكسو وجهه ، ذلك الذى كان قد بدأ يصفو بما كان يزايله من سحب العبوس •

ـ لماذا لم تذهب اليه ؟ •

اطرق براسه وأجاب فى صعوبة :

ـ ذهبت ولم يسمحوا لى بالدخول •

لقد وجدت أنا نفسى صعوبة فى ان أرى حسن •

هذه المرأة الصغيرة التى كانت تنظر الى الجميع بنظرات مشتتة والتى كانت تبتسم فى هدوء من أجل ذكرى أو انتظار ، واضعة بشعرها احدى الزهرات ، ومرتدية أجمل الملابس ، ومتطيبة بأزكى العطور (وزوجها يظن دون شك أنها فعلت هذا من أجله وكان يحس من أجل ذلك بالسعادة) ـ قد سمحت لى بالدخول فى خوف ، راجية منى أن اقول اننى وجدت الباب مفتوحا ودخلت ، وسيكون اعتذارها بأنها نسيت أن تحكم اغلاق الباب أيسر من ذكرها أنها سمحت لى بالدخول • ثم قالت

دون ان يكون منها ما يشير الى عتاب : ثلاثة أيام وثلاث ليال لا يخرجون • لقد بدا كل شيء في نظرها سارا •

وجدته في الحجرة الواسعة المعدة للجلوس يلعب مع زملائه بالكعاب •

كانت الغرفة في غير نظام ، وكان يملؤها دخان لفائف التبغ ، يسري متماوجا كالضباب في تلك العتمة التي سادت المكان ، بسبب هذه الستائر السميكة المسدلة على النوافذ ، وكانت الشموع ماتزال تلتهب وان كنا اذ ذاك في وقت الضحى ، ووجوه القوم يبدو عليها الشحوب والضنى • واما حولهم فكانت تنتشر الأطباق والكئوس • كما تستقر أكوام عديدة من النقود •

كان وجه حسن يبدو جامدا صلبا ، كما كان ينم عما يعانيه صاحبه من التشتت ، ويكاد يوحي بالشر •

نظر الى في دهشة ، ولم يكن في نظرته شيء من الانعطاف • كم ندمت لأنني حضرت •

ـ لقد أردت ان اتحدث معك •

ـ انني الآن مشغول •

كان يمسك كعبا قد صنع من سن الفيل ، فالقى به على الكليم ، مغرقا في اللعب • وسمعته يقول :

اجلس ، اذا أردت •

ـ ليس لدى وقت •

ـ فيم أردت ان تتحدث ؟ •

ـ ليس الامر هكذا مهما • وسوف نتحدث في مرة اخرى •

خرجت مهانا ، وفي الوقت نفسه متعجبا • من هذا الرجل ؟ ثرثار فارغ ؟ شمس ابريل ؟ ضعيف تنتصر عليه العيوب ؟ •

تملكني الغضب ، وانتابني الضيق مما كان يشغل فكري من انه لا يوجد رجال طيبون على الدوام • انه ينثر الكلمات الجميلة على الدوام وينساها على الفور •

وعندما وصلت الى نهاية الممر الطويل خرج حسن من الغرفة •

رأيته للمرة الاولى مهملا ثيابه ومظهره • وبدا كما لو لم يكن هو • لقد زال من عينيه صفاؤهما ووضوحهما ، وبدتا كدرتين غائرتين ، فقد اتعبهما كثرة الشراب وطول السهر • وكان يرى فى الضوء على صورة قبيحة من الارتجاف •

كان أحدنا ينظر الى الآخر دون ان تبدو عليه بسمة •

ونطق قائلا في عبوس :

ـ لا تؤاخذنى • لقد جئت فى وقت غير لائق •

ـ أرى ذلك •

ـ ليس هناك من باس فى ان تعرف كل شيء عنى •

ـ لقد غبت أياما عديدة • وقد أردت أن أعرف السبب فى ذلك •

ـ كانت لدى اعمال • غير هذه •

ـ وقد حضرت من أجل يوسف كذلك • هل حدث بينكما شيء ؟ لقد كان يريد مقابلتك ولكنك لم تسمح له بالدخول •

ـ لست على الدوام مستعدا للحديث •

ـ لقد تعود عليك • كما انه احبك •

ـ اما انه أحب فهذا شيء كثير للغاية • واما انه تعود فهذا لا يعنى شيئا • وليست على تبعة شيء منهما •

ـ لقد مددت يدك اليه ، وأخرجته من العزلة ، ثم تركته • لماذا ؟ •

ـ لا أستطيع ان اربط نفسى بأحد مدى الحياة • وهذه هى مصيبتى أنا الآخر • اننى أحاول ولا أفلح • ما وجه الغرابة فى هذا ؟ •

ـ لقد أردت أن أعرف سبب ذلك •

ـ ان السبب فى نفسى •

ـ لا شيء اذن ، أرجو المعذرة •

ـ لقد ذكرت أنك كنت تحبه • هل أنت واثق من ذلك ؟

ـ لا أدرى •

ـ اذن لم تكن تحبه • لماذا جئت به الى هنا اذا كنت لا تريد ان تمد اليه يد الود والصداقة ؟

ـ لقد فعلت ذلك ٠

ـ انك قمت بواجبك فحسب ، منتظرا أن يقدم اليك شكره ٠ ولكنه كان يأخذ في التباعد بمرور الوقت ، ويقبع داخل نطاق الكره ٠

ـ الكره ؟ نحو من ؟

ـ نحو الجميع ٠ وربما نحوك كذلك ٠

سألته وقد أفزعني هذا الامكان ، وان كان قد دار بخلدى من قبل :

ـ ما الذى يدعوه الى كرهى ؟

ـ كان يجب عليك أن تخلق منه صديقا ، أو تقوم بطرده ٠ أما هكذا فقــد تورطتما تورط حيتين بلعت احداهمــا ذيل الاخرى وأصــبحتا لا تستطيعان الانفصال ٠

ـ كم تمنيت ان تقوم أنت بتحقيق ذلك الذى لم أحققه ٠

ـ وانا بدورى تمنيت أن يقوم به أحد غيرى ٠ وهكذا الحــال مع الجميع ٠ ومن أجل ذلك نحن لا نفعل شيئا ٠ أيكفى هذا الآن ؟ انهم هناك ينتظروننى ٠

كانت تنتشر منه رائحة الشراب والدخان ، وكان يبدو عنيدا ولاذعا، ضيق الصدر مستعدا للتشاجر ٠

ـ اذكر لك يوسف كل هذا ؟

استدار وذهب دون أن ينطق بكلمة ٠

وكان من الخير أن رأيته على تلك الحال ٠

ان حسنا رجل متناقض مع نفسه ٠ انه لا يعرف ما يريد ، أو لعله يعرفه ولكنه لا يستطيع تحقيقه ، وهو رجل حسن النية ، غير أنه لايحتمل السير حتى النهاية ، انه يحاول ولكنه لا يفلح ، وربما تكون مصيبته حقا في بداياته اليائسة على الدوام ، في بنائه للجسور التى لا يعبر فوقها ٠ هذه هي لعنة الرغبات التى لا تخمد ، والتى لا تتحقق كذلك ٠ انه يبحث على الدوام فى حماس ، ثم تراه يتراجع سريعا ، فارغا وعقيما ، كما لو كانت الفكرة تجره والانسان يرفضه ٠ هذا هو الضرر الذى يثير العجب والعذاب الذى يبرح بالانسان ، وليس ذلك من أجــل تراجعه ، بل من أجل عودة لمحاولة البدء من جديد ٠ واذن يكون كل ما يلحقه يرجع اليه سببه لا الى الآخرين ٠

ومع ذلك كنت أبحث عن سبب خارج عنه .

انه مذنب لطرده يوسف . وعلى الرغم من ذلك سألت نفسي هذا السؤال البعيد عن المنطق قائلا : لمـــاذا ؟ دون أن أرى أنني هكذا ألقي المسئولية على شخص آخر .

لقد بحثت عن السبب لهذا الخمود السريع لحماس حسن . ماذا فعل يوسف ؟ أردت أن يجيبني حسن ، ولكنه اتهم نفسه فقط . سجلت هذا الاتهام الموجه الى نفسه لحسابه ، ولكني عدت أسأل نفسي : ماذا فعل يوسف ؟

سألت نفسي ، كما سألت حسن ، من أجل نفسي ، فقد كان السر يعذبني كالظلام ، وكنت أربطه مســـحورا ، كما كنت اربط كل شيء ، بمصيبتي التي أحاطت بي واصبحت طعامي وهوائي ، عصارتي وجوهر حياتي . كان يجب على أن أكشف السر ؛ فكل شيء كان متوقفا على ذلك، وكنت أجهد نفسي في سعير من الحمى لأختبر للمرة الثانية كل رجل ، وكل حدث ، وكل كلمة تتعلق بي وبأخي الميت . أيمكن ان يبقى سرا على التمام ذلك الذي يحدث بين الناس ؟

ان هــذه القطيعة بين حسن وملا يوسف أجبرتني على أن أعود الى الوراء .

كل شيء كان يرد على ذاكرتي مرات عـــديدة ، وكل شيء كان لدى معروفا ، ولكني للمرة الثانية كنت أعمل على اثارة ذلك الذي هدأ وسكن، حتى أخذت تتولد في هذه اللعبة العسيرة علاقات مفاجئة وتوقع غير بين للحل . وكان يخيل الى في لحظات التبصر أنه لا يوجد أى هدف من القيام باجراء هذا التشابك المضني ، وأنه لا يمكن أن يفيدني بشيء هذا السير وراء المضمون الخفي لحركة عديمة الأهمية للغاية ، او لكلمة ما بدرت من شخص ، ولكني لم أستطع أن اتراجع ، بل أطلقت نفسي تسير مع القدر. وعندما ألم بكل شيء سوف أرى عندئذ ماذا كشفت . كان هذا اشبه شيء بالمقامرة . كلاهما محاولة يائسة ولكنها تستهوى الانســـان وتجذبه . لم أكن أنتظر فوزا محققا ، ولكن السعي لاكتشاف المجهـــول له سحره وروعته . ان هذه الذرات الذهبية التي كنت أصادفها أثناء اختياري كانت تحثني - مجبرة اياى - على أن أواصل السعي حتى أصل الى الجذور .

وربما كان هذا دفاعا عن الخوف الذي كان في امكانه ان يهاجمني. انه لم يكن بعيدا ، كان يتلألأ حولي ويحاصرني كدائرة من النار ، وكنت

أحمى نفسى بخداعى اياها بأننى أقوم بشىء ، بأننى أدافع عنها بشىء ، وبأننى لست فى نهاية الضعف . ولم يكن من السهل أن أحيى فى نفسى هؤلاء الناس الذين كنت التقى بهم من قبل ، وأن أجبرهم على أن يقولوا مرة ثانية كلماتهم المعروفة . ولكنى فى هذه التحركات المذهلة التى قمت بها ، فى هذا الأزيز ، فى هذا الهمس ، فى هذه الفوضى ، فى هذا الاتصال الجنونى أحيانا ـ نجحت فى أن أربط نفسى بفكرة واحدة كما يربط البحار نفسه فى مؤخرة سفينته لكى لا تدفع به الأمواج عندما تهب العاصفة .

وعندما أحل العقد ، عندما أقوم وحدى بالاختيار ، سوف أدرك هل القى بى مصادفة فى أحضان مياه كدرة أو انهناك أسبابا وهناك مذنبين.

فى هذا العالم المنعزل ، المحدد بصوت هطول الأمطار وهديل الحمام، وبكدرة النهار كثر غيمه ، وظلمة الليل قد اشتد سواده ، كان الشهود ينزلون بغرفتى ، غير متعودين عليها فى البداية ، مذعورين مثلى ، ولكنى كنت انجح شيئا فشيئا فى حضهم على النظام ، فاصلا أحدهم عن الآخر كما يحدث فى عملية الاستجواب . وكنت أقسمهم قسمين : قسما يضم المهمين وقسما يضم غيرهم . وكان غير المهمين هم المذنبون فى نظرى ، اذ أن امرهم قد اتضح . وأما المهمون فكانوا أولئك الذين لم يفضوا بكل شىء .

وعندما راجعت كل ما كان فى الامكان مراجعته ، فى أثناء تلك المحادثات التى كنت جانبا فيها وكانت أشباح الشهود وكلماتهم تمثل جانبا آخر ـ رأيت من الواجب على أن أضع تحت منظار الفحص والاختبار هذه الشكوك والظنون . لم استطع أن أفعل ذلك مع الاشباح والكلمات، تلك التى تظل كما هى على الدوام . بل ذهبت الى لقاء حل لهذا السر ، ذهبت للبحث والتحرى بين الناس الأحياء .

انتظرت كى يمر بعض الوقت ، ويسدل النسيان على كل شىء . ولحسن الحظ أن الناس ينسون بسهولة ذلك الذى لا يخصهم . حاولت أن أقنع كل انسان بأننى قد نسيت كذلك أو أننى قد تعزيت ، أن اظهر أننى خفت وعكفت على الصلاة . فليتحدث كل بما يشاء وليقل البعض ما يريد .

دعوت ملا يوسف . وكنت أجبره فى استجوابات ليلية منفردة على ان يذكر جميع أقواله وأفعاله . وكنت أحس بانفعال وتوتر اذ كان الحديث

بيننا مهما . اعترفت بانني اخطات أمام الله وأمام الناس ، متصرفا بصورة غير معقولة فيما أصابني من مصيبة ، ومتبعا طريقة لا تليق بحال مع وظيفتي التي أقوم بها . لقد غطى الحزن والحب على بصري ، وكان هذا هو اعتذاري الوحيد . لقد نسيت أن الله سبحانه قد أراد هذا ، وأنه عاقب اخي ، أو عاقبني ، أو عاقبنا معا ، من أجل ذنوب لا نعرفها . عاقبنا بيد الآخرين ، ولكن بارادته .

كان يستمع بامعان ، ودون ذلك الحذر الذي كان يتسلح به عادة . هل كان ذلك من أجل حديثي المطمئن وصوتي الهادىء ، أو كان ذلك لتوجعه من ذكراه مصيبته هو ، وكان ينظر الى في حرية ودون تحاش . وعلى الرغم من ذلك كان شديد الانفعال تكاد تعصف به ثورة الغضب .

وسالني في حدة :

ـ اية ذنوب ؟

ـ سوف نعرفها في يوم الحساب .

ـ انه يوم بعيد . وماذا نفعل حتى يحل ذلك اليوم ؟

ـ ننتظر .

ـ وهل تعد مذنبة تلك اليد الاخرى التي يعاقبنا الله بها ؟

فوجئت ، اذ لم يكن يتحدث من قبل بهذه الحدة . ولم يكن يسال بهذا الغضب . لقد قطع اعترافي بآثامي وأخذ يتحدث عن نفسه . انه يفكر في الجنود الذين قتلوا أمه ، من أجل ذنوبها العجيبة ، وقتلوه هو دون ما ذنب أو جريرة . انه اندفع من تلقاء نفسه يتحدث فيما كنت أرغب أن يكون فيه حديثه .

قلت في هدوء :

ـ لا ادرى يا بني . انني أعلم علم اليقين أن كل شخص سوف يكون مسئولا أمام الله عن كل ما يفعل . وأعلم كذلك أن الناس جميعا ليسوا مذنبين ، وانما المذنبون هم الذين ارتكبوا الذنب حقا .

ـ انني لا أسال من أجل هؤلاء الذين ارتكبوا ذنبا ، وانما من أجل اولئك الذين حملوا الذنب .

ـ انك تسال من أجل نفسك . لقد حملت الذنب . ولذا لا أعلم الاجابة . انني اذا قلت انهم ليسوا مذنبين فسأغضبك وسيكون قولي مجانبا للعدل . واذا قلت انهم مذنبون فسأساندك في الكره .

ـ أي كره ؟ من الذى أكرهه ؟

ـ لا أدرى • ربما تكرهني أنا ايضا •

كان يجلس الى جوار النافذة ، وينظر الى أصابعه المتشابكة ، وكان وراءه نهار رمادى ، وسماء ملبدة بالغيوم تشبهه • وعندما سمع كلمات حسن ، تلك التى تضمنتها جملتي الاخـيرة ، اســتدار فجأة ونظر الى مذعورا ، مفاجئا ، حادا ، وتبين اذ ذاك صدق كرهه • ثم حرف نظره عني وقال وهو يكاد يهمس :

ـ انني لا أكرهك •

قلت متعجلا تهدئته ، خائفا أن يهم بالانصراف ، كما كان يفعل من قبل :

ـ الحمد لله • الحمد لله • انني أرغب في اســترجاع ثقتك اذا كانت قد تلاشـــت • واذا لم تكن فذاك خــير • انني اقدر الصداقات الجديدة • انها حب نحتاج اليه على الدوام ، ولكن الصداقات القديمة شيء أكثر من الحب ، اذ أنها جزء منا • فانت وأنا قد التحمنا مثل شجرتين ، وستفسد كلتاهما اذا تم الانفصـال ، فجذورنا قد تضافرت ، واغصاننا قد تعانقت • والى جانب ذلك كان باستطاعتنا أن نصل الى كثير من كوننا ننمو في قطعة واحدة من أرض الذكرى ، عائشا كل منا حياته الخاصة ، كان باستطاعتنا أن نكون شيئا واحدا • انني أشـعر بالأسف الآن ازاء كل شيء جعلناه يفلت منا • لماذا كنا نسكت ؟ ونحن نعلم أن كلا منا يفكر فيما حدث ، فهذا شيء لا يمكن نســيانه • انني أؤاخذ نفسى أكثر مما أؤاخذك ، فانا أكبر سنا وأكثر تجربة • ان ما يدافع عني فقط هو ذلك الذى أعرفه من أن حبى نحوك كان دائما على مستوى واحد • لقد كان انعزالك يردني عنـك ، فقـد كنت تحتفظ في غيرة بمصيبتك لنفسك ، كما تحتفظ انثى القردة بولدها الميت ضامة اياه الى صدرها • يجب على الانســان أن يدفن المـوتى ـ رحمة بنفســه • غير أنني كنت الوحيــد الذى أستطيع أن اساعدك في ذلك • لماذا لم تسألني قط عن أمك ؟ انني الوحيد الذى اعرف كل شيء عنها • لا تتقلص ولا تغلق عليك نفسك ، فانني لن أقول شيئا يمكن أن يوجعك ، لقد كنت احبها كما احبك •

ـ كنت تحبها ؟

كان صوته كدرا ، أجش ، خطيرا •

ـ لا تخف • لقد كنت احبها كاخت لى •

ـ لماذا كانت ؟ لقد كانت بغيا ٠

افزعتني تلك الملامح التى ارتسمت على وجهه ، والتى لم أكن قد رأيته بها من قبل ٠ كانت توحي بالجدة وتعلن عن القسوة والاستعداد لارتكاب أية حماقة ، نعم افزعتني على الرغم من علمى أنه خشن غليظ وانه يتعذب من اجل الحزن الذى أيقظه وأثاره هذا الحديث الاول عن امه ٠ وفاجأتني كذلك تلك الوحشية التى كان ينقب بها عن جروحه ٠ أيتعذب هو بهذا القدر ؟

قلت مهدئا اياه :

ـ انك فظ بسبب ما تعانى من الشدة ٠ فأمك كانت امرأة طيبة ، كانت ضحية ولم تكن مذنبة ٠

ـ لماذا قتلوها اذن ؟

ـ قتلوها لأنهم حمقى ٠

لزم الصمت ، ملقيا ببصره الى أرض الغرفة ، وقد استطعت أن أتخيل كم كان الأمر صعبا بالنسبة له ، وان كنت لم أستطع ـ وقد قف شعرى ـ سوى أن احجس بفظاعة عذابه ٠ واذ ذاك سألنى ناظرا الى فى عداوة وفى أمل أخير بعدم مقدرتى على الدفاع عن نفسى :

ـ وماذا فعلت أنت ؟

ـ كنت أطلب العفو عنها ، ولكن كان هذا دون جدوى ٠ وذهبت بك الى قرية أخرى حتى لا ترى ٠ وأخذت أبكى بعد ذلك منفردا بنفسى ، مشمئزا من الناس ، ورائيا لهم ، لأنهم كانوا يحولون دون أن تلتقى عينا أحدهم بالآخر يوما كاملا من أجل الخجل ٠

ـ يوم واحد ليس كثيرا ٠ من ٠٠٠ كيف قتلوها ؟

ـ لا ادرى ٠ لم أكن اجرؤ على النظر ٠ ولم أرد أن أسأل ٠

ـ بم كانوا يتحدثون عنها فيما بعد ؟

ـ لم يكونوا يتحدثون عنها بشىء ٠ فالناس ينسون بسهولة ذلك الذى لا يفخرون به ٠

ـ وأنت ؟

ـ لقد غادرت هذا المكان بعد أيام ٠ فقد كنت خجلا من أجلهم ، كما كنت حزينا من أجلك وأجلها لمدة طويلة ، وبخاصة من اجلك ، فقد كنا صديقين ، ولم يكن لى صديق أعز منك ٠

اغمض عينيه ، واخذ يتمايل كما لو كان دوار ألم به • ثم قال في هدوء دون أن يوجه بصره الى :

ـ أأستطيع ان انصرف ؟

ـ هل أنت مريض ؟

ـ لست مريضا •

وضعت يدى على جبهته ، وبجهد قمت بهذه الحركة العادية ، وكدت أن أتراجع ، شاعرا بالتهـــاب يدى قبل أن تمس جبهته ، وعندما لمست جلده الساخن تحمل بصعوبة أن يبقى على هذا الوضع وألا يبعد رأسه عن يدى ، وكان على صورة غريبة من التقلص ، كما لو كان ينتظر السكين •

قلت :

ـ اذهب • لقد أصابك وأصابنى العذاب من هذا الحديث • يجب علينا أن نتعود •

امرت مصطفى أن يشترى له عسلا ، وكنت اطلب اليه أن يخرج للنزهة وأحثه أن يقوم مرة ثانية بنسخ القرآن كما كنت أعرض عليه أن نكلف أحدا ليشترى مدادا أحمر اللون وآخر ذهبيه ، ولكنه كان يرفض، مصبحا بمرور الأيام أكثر غرابة واشد انطواء على نفسه مما كان قبل ، كما لو كان اهتمامى به قد أصبح بالنسبة اليه عذابا حقا •

ـ سوف تفسده بالتدليل •

هكذا قال الحافظ محمد متظاهرا بابداء عتابه ، ولكن لم يكن من العسير على المرء أن يكتشف رضاه عن ذلك • فقـــد كانت تأسره طيبة الآخرين وان لم يرد على الاطلاق أن يربط نفسه باحد • لقد كانت هذه الاعمال بالنسبة له اشـــبه شيء بطلوع الشمس ، كلاهما شيء يتمتع برؤيته •

وقلت مدافعا عن نفسى :

ـ لقد ضعف • ولا شك أن شيئا يعتريه •

ـ حقا انه ضعف • ألا يكون قد وقع في حب ؟

ـ وقع في حب ؟؟

ـ لم تدهش ؟ انه شاب • وكان من الأفضل أن يتزوج ويقيم خارج التكية •

ـ بمن يتزوج ؟ بتلك التى وقع فى حبها ؟

ـ لا ، لن يكون ! أيندر وجود الفتيات فى القصبة ؟

ـ أراك تعرف شيئا · لماذا تتركنى للتخمين ؟

ـ لا ، لا أعرف كثيرا ·

ـ قل لى ذلك الذى تعرفه ·

ـ ربما لا يكون من الشرف ان أقول · ولعلى انا الوحيد الذى يظن هذا ·

لم أكن الح عليه من أجل القول ، فقد كنت اعرف انه فى ضلال ، كما كنت اعرف أنه سوف يذكر كل شيء · لقد بدا ما اظهره من التردد مثيرا للضحك ؛ فقد اخذ يواصل الحديث لكى يكشف كل شيء · والله يعلم ماذا راى وماذا تخيل بسذاجته · ولم أكن أتوقع ان أظفر من حديثه بكثير من الأخبار ·

ولكن عندما انهى حديثه بدا لى الأمر غريبا · فقد قال انه ذهب الى والد حسن ، وفى طريقه راى ملا يوسف أمام بيت القاضى · كان يقف فى تردد ، وكان ينظر الى نوافذ البيت ، ثم اتجـه مندفعا الى البـاب وتوقف ، وفى احتراس وبعد أن أدار بصره يمنة ويسرة أخذ يبتعد عن البيت · لا شك انه كان يريد شيئا وكان ينتظر شيئا أو كان يبحث عن احد · وعندما التقيا (الحافظ محمد وملا يوسف) لم يسأله الحـافظ محمد شيئا ، ولكن الشاب ذكر له أن مروره هنا جاء مصادفة فى أثناء تنزهه · وها قد أثار ما قاله فى نفس الحافظ محمد الشـك كما أورثه الهم ، لأن مروره هنا لا يمكن أن يكون بطريق الصدفة ولا فى أثناء التنزه· وكم كان يود لو لم يكن ذلك الذى ظنه · ولذا كان يكتم الأمر حتى الآن·

سألته مذعورا ، وقد جاء بى صدفة أمام الحل الذى يكشف السر:

ـ ماذا كنت تظن ؟

ـ انني أخجل حتى من ذكره · ولكنه كان يتصرف تصرفا غريبا · والى جانب ذلك كذب على لكى يبرىء نفسه ، ومعنى هـذا أنه كان يحس بالذنب · لقد ظننت أنه وقع فى الحب ·

ـ وقع فى حب من ؟ أخت حسن ؟

ـ وهأنت قد ظننت أيضا · واذا لم يكن هذا حقا فليؤاخذنى الله من اجل ظنى الآثم ·

قلت في عبوس :

ـ ربما كان ذلك • فكل شيء يحدث مع الناس •

ـ يجب التحدث معه • غير أن المرء سوف يجهد نفسه سدى •

ـ اتظن ذلك ؟

نظر الى في دهشة ، دون أن يفهم السؤال ، ودون أن يفهم أنه ينبىء عن الحقد • وقال انه يرثي لحال هذا الشاب ، فسوف ينال منه هذا الحب كما ينال الصدأ من الحديد ، دون أن يحقق ولو ذرة من النجاح ، وستكون الفضيحة بالنسبة له وبالنسبة لنا كذلك ، يشهدها الناس ، وتشهدها هي ، تلك المرأة الشريفة المتزوجة • وأما هو ـ أى الحافظ محمد ـ فسوف يدعو الله كي يهدى الشاب ، كما سيدعوه أيضا لكي يغفر له هو اذا كان قد رأى خطأ وظنه السوء •

لقد كان مكتئبا عندما فرغ من حديثه ، كما سيطر عليه النوم • ولكنه لو كان قد سكت عنه وظل كاتما اياه لعذبه ذلك السكون وأرقه هذا الكتمان •

حبذا لو كان حقا ذلك الذى كان يتحدث به هذا الرجل الذى يخاف من الذنب حتى في الأماكن التى لا وجود للذنب فيها ومن يدرى ، أليس من الممكن وجوده فيها ؟ لماذا يكون مستحيلا ؟

لقد اثارتني هذه الفكرة السيئة عن أمر حبه ، وبسطتها أمامي ، وأخذت اقلبها لأنظر اليها من جميع نواحيها ، مكتشفا امكانياتها العظيمة التي تكمن فيها • كنت أحفظ في ذاكرتي لهذه الشابة يديها الجميلتين اللتين كانت احداهما تلاطف الاخرى دون وعي وتضغط عليها في شهوة ، وكنت أحفظ لها كذلك قوتها المختزنة التي تشع من عينيها الباردتين قد اشبهتا مياها بعيدة الغور ، كما كنت أحفظ جرأتها الهادئة التى كانت تثار بها لشيء ما • وأخيرا كنت أحفظ هذا كذلك ، أن كل شيء كان قد حدث ، أن هارون قد قتل ، أنه كان مقتولا عندما طلبت الى أن أخون أخاها حسن • ودون شك أنها لم تكن على علم بأمر أخي ، ولعلها لم تكن قد سمعت حتى باسمه ، ولكنني كنت أنسى ذلك ، وبقيت في ذاكرتي صارمة عنيفة ، كما كان زوجها القاضي كذلك ، لقد كانا في نظرى عقربين متعطشين الى الدماء ، ولم يستطع قلبي أن يتمنى لهما أى خير • ولذا كان الكره يهتف صائحا في داخلي : حبذا ، حبذا ! لقد رأيت هذه الشابة في لحظة قد استولى على الضعف فيها أسيرة لسلطان الشباب يطفر من جسم

يوسف ، كما رايت قاضيها العجوز وقد أخزاه هذا الذنب الذى يرتكب والذى يراه الناس أمرا طبيعيا منذ القدم لمثل هذه الحالات من الزواج ٠

ولكنى سرعان ما أبعدت هذه الفكرة عني ، فقد كنت أعرف أنها فكرة قبيحة ، وأنها اهانتنى بما كان يستولى على من الرغبة للثار الوضيع، وانها كشفت لى أمرا هاما : كشفت لى أن ما ظهر لى من الرغبة ليس سوى مظهر يمثل ضعفى وخوفى أمامهما ، والخوف والضعف يولدان الشهوات الوضيعة ٠ لقد أفسحت فى مخيلتى مجالا لمعركة يقودها الآخر فى مكانى، وكنت استمتع للحظة ، قابعا فى أحد الأركان ، بهزيمتهما ٠ وأية هزيمة تكون هذه ، وأية تسوية تكون ازاء ذلك الذى فقدته ؟

لقد خجلت وفزعت ٠ وانطلقت أقول لا ، ثم عزمت عزما أكيدا على الا أوافق على افساح المجال لغيرى ٠ فاى شىء عزمت عليه يجب على القيام به ٠ وسواء فى ذلك أكان العفو أم الوصول الى تسوية ٠ هذا هو ما أراه شريفا ٠

ومرة ثانية دعوت ملا يوسف ٠ وكان ذلك بعد حديثى مع الحافظ محمد ٠ استقبلته مقلبا هدية حسن « حكايات ابى الفرج » ذات الجلد الفاخر ، وناظرا الى الطيور الاربعة الذهبية التى ارتسمت فى أركان الكتاب ٠

ـ ارأيت هذا ؟ انه هدية حسن ٠

ـ ما أجملها !

اخذ يلمس باصابعه الجلد الفاخر وأجنحة الطيور الذهبية المنتشرة، ثم اخذ ينظر الى الحروف العجيبة التى تعلن اوائل الأسماء ، كذا الى الحروف الرائعة التى كتب بها الكتاب ، ثم اعتراه التغير فجاة ، كان هذا الجمال الذى يثيره يبعث الهدوء فى نفسه ويخمد ذلك الاضطراب الذى كان يلازمه حين دخل الغرفة ٠

كنت اعرف أن باستطاعتى أن أحرز تفوقا عظيما عليه لو أننى تركته ينتظر ويعانى من الخوف متصورا حديثنا المقبل وينقب محموما فى خزانة ذنوبه ، فلكل انسان ذنوب ؛ ولكنى تنازلت عن هذا التفوق الذى كان فى الامكان أن يقدمه الى خوفه ٠ فقد كنت أفضل أن أحرز ثقته على أن أحرز هذا القدر من التفوق ٠

قلت له اننى أعيد الحديث الذى كان بيننا قصدا ، لأن اضطرابه كان ما زال مستمرا ، وهذا هو أشد الحالات وأعنفها ، وذلك شىء قد

مررت به وخبرته ، وبخاصة عندما يصيبنا التردد ، وعندما نحس اننا نقف في العــذاب مكتوفي الأيدى غير مستطيعين في بعض الاحايين أن نحــدده ، وعندما تزعزعنا كل هبة من هبات الرياح مقتلعة ايانا من الجذور • انني أرغب أن أساعده ، قدر استطاعتي ، وقدر ما يريد هو أن يقبل المساعدة • وافعل ذلك من اجله ومن أجلي كذلك ، فربما كنت في نظره مذنبا ، وقد فاتتني الفرصة لأجعله أكثر ارتبــاطا بي ولأرد له بهذا شعور الثقة والأمان • لقد فقدت أخي ، فليأخذ هو مكانه • انني لا أطلب ان يذكر لي كل ما يحدث معه ، فلكل انسان حقه في أن يحتفظ بفكرته ، أيا كانت ؛ كما انه ليس من الســهل دائمـا على الانسان أن يكشف عن نفسه ، فاننا غالبا ما ندور كما تدور طواحين الهـواء ، ولا نستطيع أن نحدد موقفنا ، مذهولين بما انتابنا من عدم الأمن والطمأنينة• اننا نتأرجح بين اليأس والرغبة في الطمأنينة ، ولا ندرى ماهولنا • ان الوقوف عند نقطة واحدة والاتجاه الى جانب واحد هو مايجب على الانسان فعله وهو ما يصعب عليه في الوقت نفسه تحقيقه • فمهما يكن قرارنا في غير ذلك الذى يثير ضميرنا ، فسوف يكون افضل لنا من ضياعنا الذى يسديه الينا التردد • ولكن لا ينبغي التعجل باتخاذ القرار ، بل ينبغي العمل من أجل مساعدته ورعايته ومســاندته حتى يحين وقت ميلاده • ويمكن للأصدقاء أن يقللوا من العذاب في عملية وصولنا الى القرار ، ولكن ليس بامكانهم أن يقــوموا بتنحيته عنا • وعلى الرغم من ذلك فوجودهم ضرورى كما هو الشأن في وجود القابلة في أثناء عملية الولادة • وهذا ما أعرفه من خلال تجاربي الشــخصية • فعندما كنت في حالة أشد ، وعندما ظننت أن المخرج الوحيد هو أن أخمد بيدى أنفاسي ، بعث الله الى « حسن » ليشجعني وينهض بي • ان اهتمامه وطيبته ، وربما جرؤت أن اقول : وحبه ، قد أعادت لي الثقة في نفسي وفي الحياة • ولعله كان من الممكن أن تبدو علائم اهتــمامه للبعض على قدر ضئيل من القيمة ، ولكنها كانت حقا ـ بالنسبة لي ـ على جانب كبير منها لا يمكن تقديره • لقد توقف ما لحقني من دوار جنوني ، وهدأ ما تملكني من فزع، وأحسست وسط ذلك الثلج الذى يحيطني بريح تنبعث من طيبة الانسان ـ فليعف هو عني ، فليعف ملا يوسف ، بسبب ما أحسه الآن من شدة الانفعال من أجل هــذه الذكرى الحبيبة ، ولكني أؤكد ان أحدا لم يمد الى يد الود والمساندة في حياتي أعظم من تلك اليد التي مدها الى حسن • لقد كنت وحيدا ، مهجورا من جميع الناس ، متروكا في هدوء مصيبتي الفارغ ، لكي ينفذ في حكم الظلم الى النهاية ، وكنت على وشك أن أشك في جميع

ما كنت أومن به ، اذ كان كل شيء ينهدم على ويطمرني • ولكن كان يكفي أن أعلم أنه يوجد في هذا العـــالم رجل صالح ـ فليكن هو ذلك الرجل الصالح الوحيد ـ لكي يجعلني في سلام مع الآخرين • ربما يكون غريبا أنني أقدر تصرفاته أو معاملاته التي ينبغي أن تكون عادية فيما بيننا هذا التقدير الكبير وامنحه من أجلها هذا الشكر العظيم ، ولكني رأيت أن تصرفاته لا تعد عادية على الاطلاق ، وانها بالذات ميزت هذا الرجل عن الآخرين • هذا الى جانب انني كنت مذنبا نحوه • ولذا أصبحت مساعدته تبلغ الذروة في نفسي •

رفع ملا يوسف راسه •

نعم كنت مذنبا • لقد ارتكبت في حقه أمرا قبيحا ، قبيحا للغاية • بغض النظر عن كنهه وعن الدافع له ، على انني استطيع لو بحثت أن أجد السبب الذي دعاني اليه ، وربما أجد المبرر كذلك • ولكن هذا ليس مهما• انني كنت في حاجة الى صداقته كحاجتي الى الماء والهواء ، ولكني كنت مستعدا أن افقده لانني لم أستطع ان اخفي كذبي أمامه •• لقد رغبت أن يعفو عني ، ولكنه فعل أكثر من ذلك : منحني حبه الأكبر بعد ذلك •

سأل ملا وسف في جهد :

ـ هل الحقت به شرا ؟

ـ لقد خنته •

ـ ولو حدث أن احتقرك ؟ أن اهملك ؟ أن اذاع أمر خيانتك ؟

ـ لظللت آكن له الاحترام • فقد لقنني للمرة الثـــانية أن الكرامة الحقيقية لا مساومة فيها • لقد قدم لي المساعدة مضاعفة ، وبهذه المضاعفة رفع من قدره • وقد قلت لحسن ان أمثاله يعدون خيرا حقيقيا ، انهم هدية يبعث الله بها الينا ، وحقا انني أظن هكذا• انه يدرك بحاسة لديه مجهولة من من الناس في حاجة الى المساعدة ويقدمها اليه كما يقدم الدواء • انه ساحر لأنه انسان • وهو حين يقدم المساعدة لأحد لا يتخلى عنه بحال ، فهو اشد أمانة وأكثر اخلاصا من الأخ • وأجمل من ذلك أن حبه لايجشمك شيئا في سبيل اكتسابه • ولو كان الأمر يتطلب ذلك لما ظفرت به ، أو لفقدته منذ زمن بعيد • انه يرعاه بنفسه ، انه يهبه دون أن ينشد سببا آخر سوى هذه الحاجة التي يشعر بها وحده ، ولا يطلب له عوضا سوى رضائه وســـعادة الآخرين • لقـد تعلمت من درسه الذي لقنني اياه أن الانسان يربح عندما يعطي ، ثم انني لم أعد بعد هشا ، فقد صقلني حبه،

وامدني بقوة كي أكون أنا الآخر ســندا لغيري • ان حبه علمني الحب ، وسامنحه ملا يوسف اذا كان في الامكان أن يساعده •

كنت ابتسم في هدوء وحرارة ، ممســكا ـ ربمــا في جهد ـ بكل ما أردت أن اقوله وما بدا لي مهما ، ومحيرا بعض الشيء بسبب ما كان يشغل تفكيري من أن «حسن» ليس على استعداد لأن يطيل في تبيين أمر صداقته الى هذه الدرجة • ولكن ، لكل طريقته الخاصة ، ومهمتي كانت اشق وأعسر •

لقد كان ملا يوسف اشد تواضعا واقل تحدثا مما كان وقت حديثنا السابق • ولكنه لم يكن أقل اضطرابا • كان يجلس امامي جلسة المتشهد وقد تقلص جسده ، وانتابته الحمى ، وأخذ يحاول محــاولات عدة كي يضعف من تقلصات أصابعه التي كان يقبض بها على لحم فخذه مواريا فيه اياها لشدة معــاناته وفرط توتره ؛ كما كان يغمض ويفتح في ضعف عينيه الحارتين ، رافعا اياهما نحوي في عذاب • لم يستطع أن يخفي كم كانت كلماتي الهادئة تجتاحه اجتياح العاصفة • وفي اللحظة التي خيل الي فيها انه سيبدأ نشيجه أردت أن أطلق سراحه ، لكي لا أعذبه وأعذب نفسي • ولكني أجبرت نفسي على أن انهي ما بدأته • لقد كان القدر ينفذ فينا ارادته •

قلت له ان صداقة حسن وهديته التي ابتدأ بها كل ما بيننا قامتا بدفعي الى التفكير المنجي واتخاذ القرارات المنقذة • ان الشيء الوحيد الذي بقي لي من بيتي ومن أمي هو ذلك المنديل الذي طرزت اركانه بالطيــور الأربعة الذهبية ، والذي احتفظ به في صندوقي الخــاص • لقــد نسخ صورتها حسن على أركان جلد الكتاب ، واستمالني بذلك كمــا يستمال الطفل ، كما يستمال المجنون • وعندئذ أدركت ذلك الذي كان من الأهمية بمكان • وكنت أساله كذلك أحيانا أما زال يذكر الطــائر الذهبي الذي يرمز الى السعادة • ولقد أدركت الآن انه يرمز الى الصداقة ، الى الحب تجاه الآخرين • فكل شيء عداه يمكن أن يخدع الانسان ، وأما هذا فلا ، لانه يتعلق بأنفسنا •

لا استطيع أن أقول له : كن صديقا لي • ولكنني أستطيع ان اقول: ساكون لك صديقا • ليس لي احد أقرب منه ، أقرب من يوسف • فليكن لي بمنزلة الابن ، ذلك الذي لم أظفر به ، فليــكن لي بمنزلة الأخ ، ذلك الذي فقدته • وانا كذلك ساكون له كل ما يرغب ان يكون له من قريب، وكل مالا يملك من ذوي الرحم • اننا الآن متساويان ، فقد ظلمنا الأشرار

من الناس ٠ لماذا لا يكون أحدنا للآخر سندا وتعزية ؟ ربما سيكون الأمر بالنسبة لى أيسر ، لانى أحمل فى قلبى على الدوام ذلك الصبى الذى درج بتلك الارض السهلة ، حتى عندما كانت مصيبتى أهم شيء لي من سائر الأشياء ٠ وآمل الا يكون الأمر بالنسبة له صعبا كذلك : سوف أكون صابرا ، وسأنتظر لكى تحيا من جديد تلك الصداقة التى كان يشعر بها ـ كما أعلم جيدا ـ نحوى ٠

هل مالت نفسه للخضوع لى ؟ هل برحت به كلماتى التى وجهتها اليه ؟ هل أوقف صراخه على أطراف شفتيه الجافتين ؟

عبثا نحاول ، فلا نجاة لنا يا صديقى يا من حال القدر بينك وبين صداقتى ٠

ولذا أستطيع ان اقول له الآن (واصلت حديثى دون اشفاق) حتى ذلك الذى لو لم آكن اهتم به لما أردت قوله ، أو لقلته له بطريقة أخرى ، بهدف آخر ، بقصد الحفاظ على منزلة طريقتنا ٠ واما هكذا فليكن حديثنا هذا حديثا وديا يتعلق بى وبه فقط ٠ لن يكون سهلا بالنسبة لى أن أقول له ، ولا بالنسبة له أن يسمع ، ولكن الأمر سيزداد سوءا اذا لزمنا الصمت ٠

نعم ، قالها وهو يتنفس بصعوبة بالغة ، وقد اعتراه الخوف ، وتملكه الاضطراب ، واستبدت به رغبة التطلع فى الكشف عما قصدته بكلماتى ، وصعقه ذلك الذى سمعته أذناه من حديثى ، دون أن يعلم ما اذا كان الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، لأن توتره كان يدل على أنه ينتظر على الدوام شيئا ما ، شيئا مهما ، شيئا أهم من سائر الاشياء : السبب الرئيسى لهذا الحديث ٠ لقد أعطيته اياه ، دون أن أكشف شيئا ، فقد تركته يكشف هو عن نفسه ٠

قلت :

اننى لا أتحرى أين يذهب وماذا يعمل ، لقد عرفت ذلك بطريق الصدفة ، واننى آسف لما كان من أمر معرفتى لو كان حقا ذلك الذى كنت أخشاه ٠ (كان يخيل الى أن عينيه سوف تندفعان من مكانهما ، كان ينظر الى كما لو كان ينظر الى الأفعى ، وقد بدا مسحورا ، كان يتعجل كلماتى ، على الرغم من أنه كان يخشاها) ٠ ماذا كان يطلب امام بيت القاضى ؟ لماذا يعتريه الشحوب ؟ لماذا تتملكه الرجفة ؟ ربما يكون من الافضل أن اقطع الحديث اذا كان يثيره الى هذه الدرجة ، ولكن هذا كله بالذات كان

يجبرني على أن أواصل الحديث ؛ اذ يبدو أن الأمر ليس بريئا • انني أعرف عنه الشيء الكثير ، أعرف أو أتكهن بذلك الذي يحدث معه ، واذا كان كل شيء يبدو قبيحا فان توتره شـــاهد بأن ضميره حي متيقظ وانه يقوم بوخزه من حين الى حين •

كانت راس الشاب تاخذ في الانحناء كلما تقـــدم الوقت ، وكان ظهره يتقوس تحت عبء الخوف الذي أثقله وأناخ به حتى لتوشك فقار عموده أن تتكسر •

لقد حاول في ضـــعف ان يكرر كيف كان مروره أمام بيت القاضي بطريق الصدفة ، ولكنني لوحت له بيدي رافضا حتى الحديث في ذلك •

كان ينتظر ممســـكا عن التنفس ، وكنت انتظر أنا كذلك متنفسا بصعوبة بالغة • لم أكن أعرف حتى اللحظة الاخيرة هل ساقول له ذلك الذي يعد أمرا وحيدا من حيث الأهمية ، والذي لو اعترف به لشويته من أجله على النار • كان شيء يصـــيح في داخلي مذهولا ، ملطخا بالدماء ، ولكنني كنت أمسك بشـــكواي في شفتي اللتين كانتـــا في تناوب تعض احداهما الأخرى ، مجاهدا كي لا تسمحا بانطلاق الشكوى • ولو حدث ان تغلب عليه الخوف التام واجبره على أن ينفي كل شيء فسابقى في حيرة وتردد •

واذ كان الأمر كذلك فقد شـــددت عليه ، وأجهدته حتى النهاية ، جننته : كدت أنتظر ان يكشر عن أســـنانه ، أن يزمجر ، أن يفترسني ، كي يستطيع أن يرى ما أخفي في قلبي •

ان هذا كان يؤكد شكي ، ولكن لم تكن هناك ادلة بعد •

والآن يجب أن افك الحصار فجاة ، وأن أجعل كل شيء على صورة مضحكة • فاذا ظهر على وجهه علائم الارتياح أدركت اذ ذاك أنني اخطو في الطريق الصحيح • انه مذنب •

ذكرت على مسمعه ، بعد أن تغلبت على الفوضى في داخلي وعلى زوبعة دمي الصماء ، ماخمنه الحافظ محمد من أنه ربما وقع في حب اخت حسن• ولو ثبت ما خمنه الحـــافظ لاسفت ولحزنت ، اذ أن قلبه الظمآن للحب سوف يصبح مظلما وسوف يصيبه الجفـــاف من أجل تلك الرغبة الآثمة والتي لا أمل فيها • ان هذا سوف يقتله وسوف ينحيه عن الناس ، وربما عنى كذلك • وأرجو ألا يعاتبني ، فأنا انصحه كما لو كنت انصح أخي ،

ذلك الذى لا تستطيع نصائحي أن تساعده في شيء بعد · وأما من حيث بكائي فآمل أن يفهمه ، ربما الآن ، أو فيما بعد ، عندما يخلف وراءه الجزء الأكبر من حياته ، عندما يكون مضطرا أن يفكر في الخسائر فحسب وأن يحارب لكي يحتفظ بحب الأصدقاء الذين لم يتخلوا عنه بعد ·

لقد كنت أبكي حقا ، كنت أذرف دموع الحزن والغضب · وقد تملكني الانفعال بقدر ما تملك هذا الشاب الذى انتابته الحيرة · لم يبق لنا سوى أن ننهي هذا الحديث المروع بالعناق · ولكن ما كان في وسعي أن أقوم بالتظاهر الى هذه الدرجة · ولو هم هو بذلك لخفت أن أقوم بخنقه ، اذ كنت قد عرفت كل شيء ·

نعم عرفت كل شيء ، وكان ذلك عندما خرجت من أدغال التكهنات التى بدت لى كآلاف سكين قد شرعت واستعدت للطعان ، وكانت احداها تحمل الموت السريع ، وكان هو ينتظرها ، وعندما بعدت به عن أدغال التكهنات وحللت عقدا عديدة لا حصر لها كنت قد ربطته بها ربطا يفضي الى الهلاك ، وعندما حررته من الخوف الوحشي بتحذيرى اياه في لطف ـ صحت السماء فوقه فجأة ، ولم يعد فيها ما يوحي بشيء من الصواعق أو الرعود ، والتهب وجهه المضنى بما كان من أمر فجاءته العارمة ، بما تملكه من السرور الجامح من أجل هبتي اياه حياته ·

مجنون ـ ظننت ذلك ناظرا اليه في كره ـ يظن أنه قد أفلت من الفخ ·

وعندئذ حدث ذلك الذى لم أكن أتوقعه ، ذلك الذى ماكنت استطيع أن اتنبأ بحدوثه · لقد أضاء جوانب نفسه سرور التحرر للحظة فحسب وبقي لديه زمنا قصيرا للغاية ، وعلى الفور فقد هذا السرور قوته التى كان عليها في البداية كما فقد انتعاشه · حتى لكأن فكرة أخرى قد لدغته في اللحظة نفسها ، وفقد وجهه كل علائم الحيوية ، وأثقله الحزن الممض ·

لم هذا ؟ هل خجل من تهلله ؟ هل طرحه أرضا هذا السرور المفاجيء؟ هل رثى لحالى من أجل سذاجتي التى تشبه سذاجة الأطفال ؟ أم أنه تذكر فجأة كم يكون خطيرا هذا الانكار ؟

انحنى في بطء بجبهته حتى لامست أرض الغرفة ـ وكان عجيبا هذا البطء ـ كما لو كان يؤدى التحية لعظيم ، كما لو كان يسجد ، وبصعوبة بالغة استند على يديه ، وخيل الى أنهما لا تستطيعان حمله ، ونهض واقفا كأنه في حلم · وخرج كأنه في حلم ، مذهولا أشد ما يكون الذهول ·

لقد كنت قاسيا عليه وعلى نفسي • ولكنني لم أكن أملك طريقة أخرى• لقد أردت أن أعرف • ان حسنا كان يعيش مع أناس على نقيض هؤلاء الذين أعيش معهم ، وفي وسط آخر ، وكل شيء كان يكشف له بيسر وسهولة• وأما انا فلم يكن احد يريد أن يكشف لي شيئا ، لذا كان لزاما على أن أقلب نفسي ونفس يوسف ، فأجعل باطنهما ظاهرا ، لكي أكشف الحقيقة• لقد كان طويلا هذا الطريق ، فقليلا قليلا وجزءا جزءا كنت أحصل على ما اريد • كان يلزمني وقت طويل لا توصل الى معرفة ما يهمس به رجلان عاديان احدهما للآخر في زاوية زقاق في أثناء لقائهما العابر • لقد هزمتني الفكرة التي كشفت عن نفسها عندئذ : كم كنت منفصلا عن الناس ، كم كنت أحيا بينهم وحيدا • ولكنني ارجأت التفكير فيها الآن ، وسوف أفكر فيها فيما بعد ، عندما ينتهي كل ما أنا بصدده الآن •

انقطعت الأمطار واصبح الجو على الفور مشمسا حارا ، دون أن يكون هناك تدرج في هذا الانتقال • خرجت من التكية الى الزقاق واخذت أغدو واروح محاذيا شاطىء النهر ، وكنت أنظر في أثناء ذلك كيف يتصاعد البخار من الارض المغطاة بكثيف من العشب ، وأحيانا كنت أتوقف ببصري عند ذلك الصحو التام يرى في طول السماء وعرضها ، وكان يبدو لي أنها هكذا هناك فوق الارض السهلة وفوق بيتي وموطني ، انني لا أحس برغبة في أن اترك هذا المكان واعود الى التكية ، فقد تلاشى الخوف مني ، وانقطع ما كنت أسمعه من زمجرة المياه الهادرة التي كانت تهددني في ظلام الليل ، كما زال ضعفي كذلك • هانذا : ـ كنت أقول ذلك لأحد في شماتة ، عالما أن كوني ما أزال على قيد الحياة يعد تهديدا• كنت اشعر بحاجة الى التحرك ، لأفعل شيئا محددا يعود بالنفع ويأتي بالفائدة •

كان لي هدف •

اختلطت بالناس ، متمسكا بالهدوء وحريصا على الاتزان ومزودا بالصبر ، وكنت أقبل شاكرا كل ما كان في امكانهم أن يقدموه الى • كنت أقبل شماتتهم وسخريتهم وما يدلون به الى من المعلومات ويحيطونني به من الأخبار •

لم أكن أسير على غير هدى • واذا تصادف أن انحرفت عن الطريق الصحيح ، أن ضللت وأخذت أسير في مجاهل الارض ، فقد كنت أعود دائما الى الطريق الذي كنت أبحث عنه • كان مرشدي اليه اصراري ، وكلمة تصدر من شخص ما ، وما يساورني من التكهنات وتمتع الآخرين

بمصيبتي ، وتعجبهم من أجل تغيري • وكنت كلما تقـدم الوقت أخطو بخطوات أشد ثقة في تحرياتي عن السر ، وأكثر غنى وأشد فقرا من أجل هذا التلألؤ ، من أجل تصدق الآخرين بكلماتهم ، كلمات الكره وكلمات الاشفاق •

كنت أتحدث مع الخفـير ، مـع « قره زاعم » ، مع الحراس ، مع المتذمرين ، مـع المشـــكوك فيهم ، مع هؤلاء الأناس الذين كانوا فرادى يعلمون قليلا ، ولكنهم باجمعهم يعلمون كل شيء ، وكنت اظهر لهم وجه الحليم الذى لا يطلب ثأرا ولا ينشد عدالة ، وانما يريد أن يصل علاقات مقطوعة بينه وبين الناس ، وينعم بالهدوء في محبته نحو الله ، تلك التي تبقى لنا حتى عندما نفقد كل شيء • كان كثير من الناس لا يشعرون بثقة نحوى ، كما كان كثير منهم على جانب كبير من القسوة والصرامة ، ولكنني كنت اظل متزنا حتى عندما كانوا ينهالون على بالشتائم ، وكنت أحاول مطرق الراس أن اجد ولو ذرة من الحقيقة في انتقال أصواتهم من درجة الى اخرى ، في سبهم ، في تهللهم ، في رثائهم المظهرى وربما الحقيقى ، وحتى في كرمهم الذى كان أكثر مفاجأة لى من حقدهم • وكنت أختزن كل شيء في ذاكرتي •

وعندما اجتزت هذا الطريق الوعر ، وقد عرفت فيه حتى ما لم أكن في حاجة اليه ، ماتت سذاجتي ، ماتت من خجلي •

هكذا تخرجت في المدرسة الاخـيرة ، ووصلت الى نهـــاية مراحل التلقى • كان ينبغى أن يحـــدث ذلك الذى كنت اتوقعه • ولكن لم يكن يوجد هناك شيء ليحدث ، كما انني لم أكن أنتظر شيئا بعد • لقد كنت مهزوما • وكان هذا هو كل ما ظفرت به • وأما بين الناس فقد بقيت قصة جميلة عن درويش مضحك كان يتحدث في هـدوء معهم عن حياتهم وعن حياته ، داعيا اياهم الى الحب والصفح ، مثلما صفح هو ، كما كان يعزى نفسه وانفسهم بمشيئة الله وقدره ، وبالايمان به ، وبالحيـاة الآخرة ، تلك التي هي أعظم وافضل •

وعندما عدت من زيارة عبد الله أفندى ، شـــيخ تكية سنان الدين (فحتى اليه قد ذهبت : وتبين اذ ذاك أن كلا منا كان يشـك في الآخر ، وأنه بذلك قد خدع نفسه ، ويعلم الله كم أصابني هو بشر ، من أجل هذا الشك الفارغ ، وكم أنا أصبته كذلك) ـ رأيت ملا يوسف في الحديقة ، بجانب النهر • لقد ارتجف عندما فتحت الباب ودخلت ؛ وكان ينظر الى في اضطراب ، وقد اتقدت عيناه وأوحتا بالمرض •

لقد كان يعرف الى أين اذهب وماذا أطلب ٠

لم يحى أحدنا الآخر ٠ ذهبت الى غرفتى التى بدت مظلمة باردة ، وكنت اتخيل أنها ستكون قاعة كبيرة مضيئة للمحاكمة عندما تحين هذه الساعة ، ولكنها لم تكن حتى على ذلك الحال الذى كانت عليه دائما ٠ كانت ترفضنى بفقرها وجدبها ٠ فقد كنا تناسينا انفسنا ، عندما كنت أجرى هنا وهناك سعيا للوصـــول الى السر ، وقد فقدت فى هذه الآونة انعطافها نحوى ، ولم أجد عوضا لهذا الانعطاف فى مكان آخر ٠

وقفت بجانب النافذة وكنت أنظر فى تشتت الى النهار الذى تلألئه اشعة الشمس ٠ وكان هذا كل ما كان فى استطاعتى أن أفعل ، وان كنت أعرف أنه شىء بلا معنى ٠

وعندما فتح الباب عرفت من الداخل ٠ لم اقل شيئا ولم يقل هو كذلك ٠ وخيل الى اننى اسمع تنفسه الشاق العميق بجانب الباب ٠

ظل هذا الصمت الرهيب فترة طويلة ، وظل هو واقفا خلفى كما لو كان فكرتى السوداء ٠ كنت أعرف انه سيأتى ، هكذا ، دون ان ادعوه٠ لقد انتظرت هذه اللحظة فترة طويلة ٠ والآن كنت أرغب ان ينصرف ٠ ولكنه لم يقم بذلك ٠

نطق هو اولا ، وكان هادىء الصوت واضح النبرة ٠

ـ اننى اعلم أين ذهبت ، وعم كنت تبحث ٠

ـ وماذا تريد اذن ؟

ـ لم يكن بحثـــك دون جدوى ٠ أصـــدر حكمك ، أو اصفح اذا استطعت ٠

ـ اذهب ياملا يوسف ٠

ـ أتكرهنى ؟

ـ اذهب ٠

ـ لو أعلم أنك تكرهنى لكان ذلك أيسر على نفسى ٠

ـ إعرف ٠ ولو تحقق ذلك لكان لك الحق أيضا فى ان تكره ٠

ـ لا تعاقبنى بالصمت ٠ ابصـــق على او اصـــفح ٠ فالامر لم يعد بالنسبة الى سهلا ٠

ـ لا أستطيع ان أقوم باحد من الأمرين ٠

ـ لماذا تحدثت الى عن الصداقة ؟ لقد كنت تعرف كل شيء حينذاك.

ـ لقد ظننت أن ذلك حدث بطريق الصدفة ، أو بدافع من الخوف.

ـ لا تتخل عني هكذا .

لم يكن يرجو ضارعا ، بل كان يطلب . وكان ذلك يمثل شجاعة اليأس ، ولزم الصمت اذ ذاك ، وقد فترت شجاعته ببرودتي ، ومن ثم اتجه نحو الباب . ولكنه توقف واستدار . وكان يبدو عليه الانتعاش ، حتى ليكاد يكون مسرورا .

ـ لقد وددت أن تعرف كم عذبتني بحديثك الى عن الصداقة . كنت اعرف أن ذلك لا يمكن ان يكون حقيقة ، ولكني أردت أن يكون . لقد رغبت أن تحدث معجزة . ولكن لم يتم ذلك . ان الامر أيسر وأسهل الآن .

ـ اذهب يا ملا يوسف .

ـ أاستطيع ان اقبل يدك ؟

ـ أرجوك ، اذهب . لقد أردت أن أبقى وحيدا .

ـ حسنا ، ساذهب .

اقتربت من النافذة ، واخذت أنظر الى غروب الشمس محدقا ، دون أن أعي ماذا أرى ، ولم أحس به حينما خرج ولا عندما أغلق الباب. وللمرة الثانية كان هادئا وكان يحس بذلة وانكسار ، ولكنه كان يشعر برضى لانتهاء الأمر على هذا الوضع . لقد أطلقت الفار من المصيدة ، دون أن اشعر في نفسي بشيء من السرور ، ودون ان أحس نحوه بشيء من الازدراء .

كان نظرى ينتقل بين تلك القمم العالية للجبال ، وكذا بين النوافذ العديدة للمنازل وقد كستها جميعا حمرة الشفق .

وهكذا كان ، وماذا اذن ؟ لا شيء . الغروب ، ثم الليل ، ثم الفجر، ثم النهار ، ثم الغروب ، ثم الليل ، لا شيء .

كنت أعرف ان فكرتي ليست على درجة كبيرة من التعقل ، ولكن الامر كان لدى على حد سواء ، حتى لقد كنت انظر الى نفسي بشيء من السخرية ، كما لو كنت أنظر الى شخص آخر : كان من الأفضل الا تنقطع تحرياتي ، اذ لو استمرت لظل لي هدف ولبقيت لي غاية .

دخل الغرفة اذ ذاك الحافظ محمد ، دخلها مندفعا وعليه علائم الاضطراب والفزع ، حتى ليكاد يبدو أنه فقد موازينه . وظننت عندئذ انه ليس هناك سوى أن يستولى عليه سعاله ، كما كان يستولى عليه دائما عندما يصيبه الاضطراب ، حتى أجدني مضطرا ان أحل وحدى لغز هذا الوجه الذى انتابه الذعر . ولكن لحسن الحظ تأجل سعاله الى مابعد . وبطريقة ما تمتم معلنا أن ملا يوسف شنق نفسه فى غرفته ، وأن مصطفى فك الحبل عن عنقه وأنزله .

اتجهنا الى أسفل .

كان مستلقيا على السرير ، وكان وجهه يجمع بين الزرقة والحمرة ، وعيناه مغمضتين ، وكان يتنفس فى اضطراب وصعوبة .

وكان مصطفى مقعيا الى جواره يسقيه الماء ، فاتحا فى صعوبة فمه بملعقة فى يمناه وبالأصابع الضخمة ليده اليسرى . وقد أشار الينا برأسه كى نخرج . أطعناه ، وخرجنا الى الحديقة .

كان الحافظ يتأوه قائلا :

ـ ياله من شاب تعيس .

ـ لقد بقى على قيد الحياة .

ـ الحمد لله ، الحمد لله . ولكن لماذا فعل ذلك ؟ أمن أجل الحب ؟

ـ ليس من أجل الحب .

ـ لقد خرج توا من غرفتك . فيم كنتما تتحدثان ؟

ـ انه خان أخى هارون. كان زميلا له ، وخانه . لقد اعترف بنفسه.

ـ لماذا قام هو بالذات بخيانته ؟

ـ لقد كان جاسوسا للقاضى .

ـ آه ، يا الهى يا عظيم !

ان هذا الشيخ البار الذى كان يغذى شرفه بعدم خبرته ، لو كنت قد لطمته على وجهه لكان هذا أيسر تحملا له مما فعلته من تزويد خبرته بهذه القذارة .

جلس الشيخ على مقعد الحديقة ، وأمسك فى ضعف بمسنده ، وأخذ يبكى فى هدوء .

ربما يكون هذا هو الأفضل ، وربما يوصف بأنه أكثر تعقلا من كل ما يمكن فعله .

١١

« حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم ••• »

اتسع نطاق اضطرابى حيث أخذ فى الامتداد الى الوراء : تذكرت كيف كنت محاطا منذ زمن بعيد ، كيف كانت عيون الآخرين تترصد منذ سنوات طوال كل خطوة من خطواتى ، مترقبة أن تكون احداها خاطئة • ولكنى لم أكن اعرف شيئا • وانما كنت أسير هنا وهناك كما يسير النائم معتقدا أن كل شيء يخصنى يتعلق بى وحدى وبضميرى ، ان هذا الابن الروحى كان ساهرا على ، بامر الآخرين ، تاركا لى من امر الحرية ذلك الاعتقاد الفارغ فحسب باننى املكها • اننى اعيش اسيرا منذ سنين ، والله يعلم اية عيون هذه وكم كان عددها • كنت اشعر باننى محتقر ومضيق على فيما مضى ، فاقدا حتى ذلك المكان الحر الذى كنت اتصوره مكانى قبل أن تحل بى المصيبة • لقد اغتصبوه ولم يكن هناك من قيمة لان اعود اليه بالذكرى • لقد بدات الكارثة قبل ان أعيها بوقت طويل • من الذى لم يكن يترصدنى بعينه ، من الذى لم يتسمع لما أقوله ، كم من الحراس المتطوعين أو المستأجرين كانوا يراقبون طريقى ، ويحفظون تصرفاتى ، ويجعلون منى شاهدا ضد نفسى • لقد كان عددهم يتزايد حتى وصل الى درجة مخيفة • وكنت أسير فى الحياة دون خوف وظنة ، كما يسير المجنون على حافة الهاوية ، والآن أصبح كل شيء يبدو لى هاوية ، حتى الطريق السوى الممهد •

تحولت القصبة الى اذن كبيرة ، وعين تترصد أنفاس كل فرد وخطواته • لقد فقدت طبيعتى وثقتى • وبدا لى هذا واضحا عندما كنت ألتقى بالناس • فاذا حدث أن ابتسمت بدا هذا مداهنة منى أو تملقا وزلفى ؛ واذا تصادف أن تحدثت فيما لا يهم من الأمور بدا هذا محاولة

مني للتخفي ؛ واذا بدر مني حديث عن الله وعدالته بدا هـذا بلادة مني وحمقا ·

لم أكن أدري حتى ما ينبغي أن أفعله مع صديقي ملا يوسف · أقول في مرارة : صديقي ، ولكنني أظن لو كنا صديقين حقا لكان الأمر أشد سوءا · وأما هكذا فانني فيما يتعلق به لا أخسر شـيئا · انني أعلم أن باستطاعتي أن أخفف من اصابتي لو قلت للبعض رائيا لحالي : انظر ماذا فعل صديقي · ولكن لم أرد ذلك · اذ لو فعلت لاتهمت هكذا رجلا واحدا فقط ، ولانتهى كل شيء على حسـاب بينه وبيني ؛ اذ لو أحسست أنني مصاب بخيانة صديق لحصرت اهتمامي فيه ولنسيت الآخرين · وأما هكذا، زاجا به في زمرة الآخرين ، فكنت أوسع بحالي الذنب والخسارة · وكنت أفعل ذلك في غير وعي ، وبرغبة غير واضـحة لكي تكون المقاييس أكثر ضخامة ، مثل المي ، ومثـل ما يكون لي بمثابة العوض ، أقول : الألم ، ولكني لا أحس به · وأقول : العوض ولكني لا أسـعى الى تحقيقه · لقد أصبحت أدين الناس بدين فادح ، ولكني لا أطلب شيئا منهم ·

كان ملا يوسف يلتقي بي والخـوف يتراءى في عينيه القاتمتين ، وكنت حين أراه ابتسم ابتسامة مجهدة وقد اسـود داخلي باكمله · كان يخيل الى في بعض الاحيان فقط أنني أسـتطيع أن أخنقه وهو نائم أو حين يجلس مستغرقا في تفكير عميق · واحيانا كنت أرغب في أن أنحيه عني ، بأن أرسله الى تكية أخرى أو الى مدينة غير هذه · ولكنني لم أكن أفعل شيئا ·

لقد تأثر حسن والحافظ محمد لمـا كان مني من رحابة الصدر ومن الصـفح عنه ، ومن العجيب أنه كان يطيب لي ذلك الاعتراف بهذا الذي لم يكن حقا ، اذ لم أكن قد نسيت ولم أكن قد صفحت ·

كان هذا هو ما ارجع الى حسن وأعاد لي الرضا الذي يصعب تفسيره من أجل استمرار الصداقة بيننا ، أعاد لي الاشراقة في داخلي دون سبب ويكاد يكون دون معنى ، ولكني كنت اقبلها كمـا لو كانت هدية قدمت الي ، وكنت أتمنى أن تستمر دون انقطاع ·

قال دون أن يشير الى ما كان مني من احسـاسه بل الى ما كان من فائدة ، وكان اعترافه يرن في خشونة :

ـ لقد تصرفت بالعقل عندما تركته وشأنه · انك ان طردته فسوف يأتي آخر مكانه · انه أقل خطرا حيث عرفت من هو ·

ـ لم يعد بعد من يكون خطرا بالنسبة الى · سأتركه وشأنه ،وليعش كما يعرف · اننى لا استطيع حتى أن أكرهه · لعلنى ارثى لحاله ·

ـ وانا كذلك ، أنه من غير المفهوم أن تقتصر حياة الانسان على مصيبة تحل به وأخرى يلقيها على الناس ، أن يفكر فى مصيبته ويعد مصيبة للآخرين · انه بالتأكيد يعرف كيف يبدو الجحيم ·

ـ لماذا لم تقل لى حينما عرفت ؟

ـ لم يكن فى الامكان أن أساعد فى منع شىء · فكل شىء كان قد تم · لقد تركتك للبحث والتعود عليه · والله يعلم ماذا كان بوسعك أن تفعل لو عرفت فجأة ·

ـ لقد ظننت أننى سأفعل شيئا عندما أعثر على المذنب · ولكن لا استطيع أن أفعل شيئا ·

ـ انك تفعل كثيرا ·

ـ أنا لا افعل شيئا · بل أترك الوقت كى يمر ، فقد فقدت السند، اننى لا أجد السرور بعد فى ذلك الذى أقوم به ·

ـ لا تسمح لنفسك أن تفكر هكذا · قم بفعل شىء ما وقاوم ·

ـ كيف ؟

ـ ارحل ، توجه الى أى مكان · الى بيتك فى قرية «يوهوفاتس» غير مكانك والناس والسماء · ان الوقت وقت حصاد · شمر أكمامك وقف بين الحاصدين · استحم فى عرقك واجهد نفسك ·

ـ ان الجو كئيب الآن فى بيتى ·

ـ اذن استعد لترحل معى · فأنا استعد الآن للسفر ، الى نهر سافا · سوف نبيت فى الخانات بين البراغيث أو تحت أشجار الزان ، فسوف نمر بنصف البوسنة وسوف نجتاز الحدود بيننا وبين النمسا اذا أردت ·

ضحكت وقلت :

ـ انك تظن أن السفر يشيع السرور والرضا لدى الجميع كما هو الشأن عندك · وربما كان بمثابة الدواء ·

لمس قولى مكانا حساسا منه ، وبدأ الوتر يؤز ، وقال وهو يشتعل حرارة : كان يجب أن يؤمر كل شخص بالسفر من حين الى حين • وربما أكثر من ذلك •• اى بحيث لا يتوقف على الاطلاق فى مكان ما مدة أطول مما تقتضيه الضرورة • ان الانسان ليس شجرة ، وارتباطه بمكان ما هو مصيبته ، انه يعزل من الشـــجاعة ويقلل ثقته بنفسه • فالانسان حين يربط نفسه بمـــكان واحد يخضع لجميع ما يمليه عليه من شروط ، وان اشتدت قسوتها ، ويخوف نفسه بذلك المجهول الذى ينتظره • والتغيير يبدو فى نظره انسحابا من المكان وتركا له •• ضياعا لمال أقرضه للآخرين بغية تثميره ، وسوف يحتل شخص آخر مكانه الذى احتله من قبل ، واما هو فسيظل مضطرا على الدوام لأن يبدأ من جديد • ان التسمر فى مكان واحد هو بداية الشيخوخة ، لأن الانسان سوف يظل شابا الى الوقت الذى يعتريه الخوف فيه من أن يبدأ من جديد • وفى البقاء يتحمل الانسان أو يهاجم • وفى الذهاب يرعى حريته مستعدا لتغيير المكان وما فرض عليه من شروط • الى اين يذهب ! وكيف ؟ لا تضحك ، فانا اعرف انه لا جهة لنا • ولكننا نستطيع الانطلاق احيانا ، بان نصنع حرية متخيلة ، ونتصور كاننا نذهب وكاننا نغير المكان • ثم نعود ثانية هادئين وفى تمام الاطمئنان مخدوعين •

لم أكن اعرف على الاطلاق متى ســتنحرف كلماته الى السخرية • أكان يخشى من تأكيد معين ، أم انه لم يكن يعتقـد فى قرارته بشىء من التأكيدات ؟

ـ أمن أجل ذلك أنت دائم الترحال ؟ لكى تحتفظ بالحرية المتخيلة ؟ أيعنى ذلك أنه لا توجد حرية ؟

ـ توجد ولا توجد • اننى أتحرك فى دائرة ، أذهب واعود • حر ومقيد •

ـ اذن أينبغى ان اذهب أنا أم أبقى ؟ اذ الأمر سواء فيما يبدو • اننى اذا كنت مقيـــدا فلست حرا • واذا كنت أنشد العودة فعلام اذن الرحيل ؟

ـ فى هذا يكمن كل شىء : العودة • من نقطة واحـــدة فى الأرض يتولد الاشتياق الى نقطة أخرى ، فتأخذ فى الذهاب لكى تصل اليها • فبدون هذه النقطة التى ارتبطت بها ليس باستطاعتك ان تحبها هى ولا أن تحب العالم الآخر ؛ اذ بدونها ليس باستطاعتك ان تنطلق لانك لست

فى مكان من الأمكنة • كما انك لا تعد فى مكان اذا كنت تملك هذه النقطة وحسب ، لانك اذ ذاك لا تفكر عنها ولا تشتاق اليها ولا تحبها • وهذا مالا يعد جميلا • يجب أن تفكر وتشتاق وتحب • اذن استعد للرحيل • اترك التكية للحافظ محمد ، حرر نفسك منهم ودعهم يتحررون منك ، وكن مستعدا أن تجد نفسك على باب الامبراطورية الاخرى ممتطيا صهوة جواد هادىء وقد تسلخت أردافك •

ـ ليس الأمر على التمام مما يحتفى به •

ـ نعم ستكون جروح أيها الدرويش •

ـ والمكان ربما يكون غير مريح •

ـ انه كسائر الأمكنة الاخرى • لا يمكنك أن تركب الحصان ، راسك الى أسفل وقدماك الى أعلى ، فربما بدا ذلك للبعض عجيبا • سوف يرمز هذا الى الثورة • هل اتفقنا اذن ؟

ـ نعم ، لا أنوى الذهاب الى أى من الامكنة •

ـ واعجبا ! انك اشبه فى نظرى بفتاة متعالية لا يمكنك أن تعرف بحال الى أية نقطة وصلت معها • فيايتها الفتاة المتعالية صاحبة اللحية ، يبدو أنك تصرين أن تبقى على الدوام مترددة • ولكنك اذا غيرت رأيك واذا تغلب عليك الملل وانت تتصارعين مع الفكرة الوحيدة كما تتصارعين مع الشيطان الاسود فابحثى عنى ، وأنت تعرفين فى أى مكان تجديننى •

لم أكن اريد ان اهجر القصبة واذهب الى مكان آخر • لقد تمنيت مرة من قبل أن أذهب ، وأن أضرب فى الارض سائرا فى طرق مجهولة • ولكن كان ذلك منى أحلاما فارغة ، رغبة مهيضة للتحرر ، تفكيرا فى ذلك الذى لا يمكن أن يكون • والآن لم يعد يظهر هذا التفكير • فقد ربطتنى بهذا المكان مصيبتى التى حلت بى • انها سمرتنى به كما يسمر السهم النافذ فريسته بالجدار • لقد بقى لى القليل من الافكار ، ومن الحركات ، ومن الطرق • كنت أجلس فى الحديقة تحت اشعة الشمس او فى الغرفة أقرأ فى كتاب ، كما كنت أتنزه بجانب النهر عالما أننى أفعل ذلك بالتعود دون ارادة منى ودون استمتاع • غير أننى كنت فى كثير من الاحيان افاجىء نفسى بما كان منها من شعور بالمتعة لجلوسى تحت أشعة الشمس ، او لقراءتى فى كتاب ، أو لمشاهدتى انعكاسات الأشعة على صفحة الماء • لقد أخذ كل شىء يبدو فى ناظرى على حالته الطبيعية ، وربما بدا جميلا مطمئنا.

كان يخيل الى انني بدأت أنسى ، وان الهدوء قد سيطر على نفسي ، ولكنني فجاة وبدون أن يكون هناك سبب واضح وبغير ما فكرة يمكن أن تولد هذا السبب ، أحسست بطعنة نارية تخترق جسمي ، وتحمل ألما شديدا خفيا اشبه بآلام التقلص • ما يكون هذا ؟ ـ كنت أسائل نفسي، كشخص مفاجيء ، مخافة أن اعترف بهذه الثورة غير المرغوبة ، مواريا اياها بأمور صغيرة كانت في متناول يدى أو تحت سيطرة أفكارى •

وعلى الرغم من ذلك كنت أتوقع شيئا ما •

كنت في حالة نفسية مبهمة ، ومتقلبة ، كنت كالرجل الذى لا يشعر بصحة أو مرض ، والذى تصيبه علامات المرض المؤقتة بأشد واقوى من تلك التى تلازمه دون انقطاع •

انتزعتنى الكراهية من هذه الحال التى كنت عليها • وكان أن أحيتنى وقوت من عزمى ، مضطرمة ذات يوم فى لحظة كما تضطرم النيران • وقد عبرت بالاضطرام لأنها كانت حتى هذه اللحظة جمرات مطمورة ، ثم هبت مجنونة من الشدة محرقة قلبى بلفحها ولظاها • كانت فى داخلى منذ زمن بعيد دون شك ، وكنت أحملها مثل الجمرة ، مثل الأفعى ، مثل الورم الذى اشتد فانفجر لتوه ، ولم أكن اعرف كيف ظلت مختفية حتى الآن ، ولا لماذا بقيت ساكنة وصامتة ، ولا لماذا ظهرت فى لحظة لم تكن أشد مناسبة من غيرها من اللحظات السابقة • لقد كانت تنضج فى صمت مثلما ينضج كل شعور ، ثم ولدت قوية شديدة وقد غذاها طول الانتظار •

وللعجب الشديد أنه كان يطيب لى ان افكر كيف ظهرت فجاة وقد كنت اشعر بها في نفسى منذ زمن مضى ، كما كنت اتظاهر باننى لااعرفها• لقد كنت أخشى من أن تندفع قوية ، والآن لقد قويت نفسى بها ، حاملا اياها ومتقيا بها كالدرع ومدافعا بها كالسلاح ومخوفا بها كالحريق ، وبى نشوة من اجلها كنشوة الحب • لقد كنت أظن أننى أعرف ما هى ، ولكن اتضح أن كل ما كنت أعرف من الكراهية حتى الآن لا يعدو ظلا شاحبا منها • ان هذا الذى استولى على يعيش فى داخلى كقوة مظلمة مخيفة •

سوف أحكى على مهل ، وفى غير عجلة ، كيف حدث هذا • لقد حدث حقا وكانه الزلزال •

١٢

« ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات »

ذهبت مع حسين الى الصائغ الحاج سنان الدين يوسف، وكان حسن يجذبني معه في كل مكان يقصده ، واذ ذاك أدركت اننـــا صديقان وأنه يطيب لى أن أكون بجانبه • لم يكن هذا بعد طلبا للحماية ، وانما رغبة فى التقارب الانسانى ، دون تطلع الى شيء آخر من كسب أو منفعة •

وفى سوق الجواهر لقينا على خوجه ، فى ثيـــابه الممزقة ، ونعله القديم ، وطاقيته القبيحة • لم أكن أود أن ألتقى به ، فهـــو عادة بذىء القول لا يحسن اللقاء ، ويتستر خلف مظاهر الجنون لـكى يستطيع أن يقول ما يريد • ويأتى بذلك فى خشونة بالغة •

وجه سؤاله الى حسن دون أن ينظر الى قائلا :

ـ أتوافق على أن ناخذ فىهذا الحديث الذى لن يكون لك منه فائدة؟

ـ أوافق • عن أى شيء يكون حديثنا ؟

ـ عن لا شيء •

ـ يعنى عن الناس •

ـ انك تعلم كل شيء • ولذا لا تهتم بشيء • فى الصباح طلبت يد أختك •

ـ ممن طلبت يدها ؟

ـ من والدها ، من القاضى •

ـ ان القاضى ليس والدها •

ـ اذن هو خالتها

ـ حسنا · ماذا قلت للخالة ؟

ـ قلت : أعطينيها زوجة لى ، فحرام ان تذهب نضارتها ويضيع جمالها سدى · انها ستبقى عانسا بوجودها هكذا الى جانبك · وساقبل الميراث أيضا ياتينى معها ، وعلى كل حال فهو ليس مالك ، وسوف احمل عنك على الأقل مدة تقدر بالف سنة مما تستحقه أنت فى نار جهنم ، وسيكون الأمر بالنسبة اليك اخف · وقد قال اتركنى وامض فى طريقك· واجبت اننى أسير فى طريقى ولكن لماذا لا تسمح لها ان تسير هى أيضا فى طريقها ؟ اتكرهها الى هذه الدرجة ؟ لقد ظننت انها على الاقل هى الوحيدة التى لا تكرهها · وأنت الى أين تسير ؟

ـ الى الحاج سنان الدين يوسف الصائغ ·

ـ اذهب · ولن أذهب معك · فأنا لا أعرف حقيقة الرجل ·

ـ لا تعرف حقيقة الحاج سنان الدين ؟

ـ لا أعرف · انه يشغل نفسه بالمساجين فقط ، يحمل اليهم الطعام فى يوم الجمعة ، وسيصبح فقيرا من أجلهم ، فهو ينفق عليهم كل مايملكه·

ـ اهذا عمل سىء ؟

ماذا يمكنه ان يفعل لو لم يكن هناك سجناء ؟ لا شك سيكون تعيسا · لقد اصبح مولعا بالسجناء كما يولع الآخرون بالصيد او الخمر · وهل ينبغى ان يرتبط ولع الانسان بمصيبة الآخرين ؟ ربما ينبغى ، أنا لم أفكر فى ذلك ·

ـ أيعد أمرا سيئا أن يتعود الانسان على القيام بعمل صالح ؟

ـ اينبغى أن يصبح العمل الصالح تعودا ؟ أنه يعرض كما يعرض الحب ، وعندما يعرض يجب علينا اخفاؤه لكى يبقى خاصا بنا · كما تفعل أنت ·

ـ ماذا افعل أنا ؟

ـ انك تحمل صدقة الى الحاج سنان الدين من أجل السجناء ، ولكنك تفعل ذلك فى خفاء · لقد حدث هذا منك وأنت تخجل أن تظهر حبك · ولذا تذهب بمفردك ·

ـ لست الآن بمفردى · الا تعرف الشيخ نور الدين ؟

ـ كيف لا اعرف الشيخ نور الدين ! أين هو ؟

ـ هنا معي ٠

ـ معك ؟ انا لا أراه ٠ لماذا لا ينطق بكلمة لكي اسمعه على الاقل ؟

ـ انك لا تريد أن تراني ، ولا أدري لماذا ٠ أغاضب أنت علي ؟

وعبثا كان يبحث عني بجانب حسن وهو يقول :

ـ هانت ترى أنه ليس موجودا ٠ لا صوت له ولا صورة ٠ لا وجود للشيخ نور الدين ٠

وذهب دون تحية ٠

كان حسن يبتسم في حيرة ، وكان ذلك دون شك من أجلي ٠

ـ لاذع ٠

ـ لاذع وخبيث ٠

ـ انه رجل عجيب ٠

ـ لماذا لم يرد أن يراني ؟

ـ لقد كان يتحدث حديثا عاقلا ٠ وكان في حاجة الى مظهر من مظاهر الجنون كي يبرر تصرفاته ٠

لا ، ليس هذا جنونا ٠ لقد اراد شيئا وكان يهدف الى شيء ٠ انه قال لا وجود للشيخ نور الدين ٠ ربما كان ذلك لانني لم أعد ذلك الذي كنته من قبل ؟ أو ربما لانني لم ارد الضربة ؟ أو لأنني لم افعـــل شيئا توجب الرجولة فعله ٠ وها تبين أنه لا وجود لي ٠

ـ ما رأيك فيه ؟

وجهت هذا السؤال لحسن ، دون رغبة مني أن أكشف عن مدى ألمي لعدم ارادته ان يراني ، ودون ان افكر أنني في الحقيقة أكشف نفسي بذلك الذي لا أستطيع نسيانه ٠ ولحسن الحظ أن حسن أراد مجاملتي وقام بذلك في ارتباك ٠ وقد عرفت من كلماته الـكثيرة التي كان يلقيها ومن حديثه الذي اتسم بطابع الجد ٠

ـ لا ادري ٠ انه عادل وصادق ٠ غير أنه يغلو مجاوزا بذلك الحدود، وقد أصبح ذلك متعة له ـ كما يقول ـ وعيبا كذلك ٠ انه لا يدافع عن

العدالة ، وانما يهاجم بها ، فقد أصبحت سلاحا له وليست غاية • ولعله لا يدرى أنه أصبح لسان الآخرين الذين يلوذون بالصمت ، يحمل كلمتهم غير المنطوقة ، ويجتاحه شعور بالرضا لجراته على مالا يجرؤ عليه الآخرون، انهم يعرفونه حيث أصبح حاجتهم الشوهاء للحديث ، ولو كانت لديهم الجراة لارضاء أنفسهم بقول ما يريدون لما كانت لهم حاجة فى وجوده • انه طبيعى لا يتحاشى القول لانه يملك سندا يعتمد عليه ، وغير ملزم ويتسم بالمبالغة لأنه وحيد • ومن أجل هذا يرى خشنا ، ومن اجله يتجاوز الحدود • لقد أقنع نفسه بأنه صار ضمير المدينة ، وكان فقره ثمنا لهذا الرضا • ربما يكون أحيانا كالريح الرخاء ينشر البهجة بين الناس ، ولكنى اعتقد أنه لايقدم خدمات جليلة لصالح الصدق أو العدالة • انهما يبدوان فى نظره من الامور الشاذة الغريبة • ويكادان يشبهان الثار وشدة الارضاء ، ولا يشبهان فى شىء هدفا كريما يجب على الناس أن يسعوا لتحقيقه • لقد أصبح عدوا لنفسه ، اذ تحول الى النقيض لكل ما كان يتمنى فى يوم أن يصل اليه فى صدق واخلاص • وربما يصدر منه ما يكون انذارا ولكنه ليس بحال هدى • لأننا لو فعلنا جميعا وفكرنا مثلما يفعل هو ويفكر ، ولو تحدثنا بصراحة وخشونة عن كل عيب لدى الآخرين ، ولو تصدينا لاولئك الذين لا ينالون اعجابنا ، ولو طلبنا من الناس أن يعيشوا على النهج الذى نعتقده ، لأصبح العالم كله دارا للجنون أعظم مما هى عليه الآن • ان القسوة باسم الكرامة شىء مخيف ، ولو قمنا بها على هذا النحو لقيدت أرجلنا وأيدينا ولقتلتنا بالنفاق • وأفضل منها تلك التى تعتمد على القوة ، اذ باستطاعتنا على الأقل أن نكرهها • وهكذا نعزل أنفسنا ونحتفظ فى داخلنا بالأمل •

لم أكن أفكر هل كان صحيحا ذلك الذى كان يتحدث به ، كما لم أكن أفكر هل كان يتحدث فى صدق • لقد كنت أعرف أنه يقف الى جانبى وأنه يحمينى من هجوم ظالم : لقد أحس بما يثير فى القلق ويعذبنى • لم يكن فى استطاعته أن يهدئنى هكذا بهذه الدرجة ، لا بالسخرية ولا بالشدة ولا بالرفض التام ، مثل ما هدأنى بهذه الافعال التى استخدمها فى حديثه والتى نسقها فى روعة ومهارة ليحسن وقعها فى أذنى • لقد بلغت هذه الأفعال فى نفسى منزلة الاقناع ، لانها لم تكن شيئا صغيرا وبقى لى حق أن أكمل الافكار وأدافع عن نفسى • انه رجل مهرج ! ــ هكذا كنت أعتقد فى غضب ــ انه كلب ضال فى الطرق ! لقد وقف فوق العالم كله وأخذ يبصق على الجميع دون تفرقة ، على المذنبين

وغيرهم ، على المخطئين والضحايا • ماذا يعرف هو عني لكي يكون في استطاعته أن يصدر حكما علي !

ولكن غضبي لم يستمر طويلا ، كما أنه لم يكن شديدا • لقد نسيت منذ وقت قريب علي خوجه ، ولم يبق في نفسي سوى حرارة طيبة لكلمات حسن • لم اعد افكر فيما قاله ، أعرف أنه كان جميلا وانني كنت راضيا• لقد مد الى يده للمرة الثانية ودافع عني • وهذا هو أهم بكثير من حقد لئيم لم يعهد لدى الآخرين صدر من ذلك الشاذ الذي يدعى علي خوجه •

وبينما كان حسن يتحدث الى سنان الدين يوسف عن هذا اللقاء وهذا الحديث كنت أفكر كم كان يبدو رجلا صالحا على جانب من المراعاة والتهذيب • وكم كنت سعيد الحظ بحصولي عليه • لقد كانا يضحكان ، كان سنان الدين يضحك في هدوء بعينيه الصافيتين وجوانب شفتيه الدقيقتين ، وكان حسن يضحك في قهقهة عالية ، مبديا أسنانه التي اصطفت وكأنها لؤلؤ قد نظم ، كما كانا يتحدثان دون أن يجهدا نفسيهما كي يظهرا بمظهر العاقلين أو الجادين ، فقد بدآ متهورين كطفلين متآلفين، كصديقين يتمتع احدهما بالآخر •

كان حسن يبالغ محرفا كلمات علي خوجه • وقد ذكر كيف أن علي خوجه لم يرد أن يحضر لأنه يخاف من الحاج سنان الدين • فقد بلغ اهتمام هذا الحاج بالسجناء حد الهواية والمتعة كما هو الشأن في الصيد والقمار والحب بالنسبة للبعض من الآخرين • فلو حدث أن أصبح العالم خلوا من السجناء لكان في ذلك الحزن الشديد للحاج سنان الدين ، اذ فيم اذ ذاك يرضي عاطفة احسانه وكرمه ؟ انه لا يستطيع أن يبقى بدونهم• ولو زال السجناء لظل تعيسا وضائعا ، ولذهب الى السلطات يرجوها قائلا : لا تهلكوني • ضعوا في السجن أحدا ! ماذا سأفعل بدون السجناء؟ انه اذا لم يكن هناك من يستحق ليسجن فسيقترح هو أن يزج بأصدقائه في السجن لكي يستطيع أن يشغل نفسه بهم • واذ ذاك ستكون هذه افضل طريقة لاظهار حبه نحوهم •

ـ من المرجح أنك ستقدم على دخوله ارضاء لي •

بهذا نطق العجوز ضاحكا ومستقبلا مزاح حسن ، غير مبال بذلك الذي قاله الرجل في الأصل عنه • وعلى الفور حول مجرى الحديث الى حسن قائلا :

ـ وماذا قال عنك ؟ ألم يقل انك عاجز عن أن تقوم بالخير وبالشر كذلك ؟ ألم يكن هكذا يراك كما يخيل الى ؟

ـ فى الحق انه يرانى رجلا سـيئا لا يجلب لنفسه نفعا ، ورجلا صالحا مادمت لا أحمل مسئولية ما • اننى فى نظره أشبه بملك مخطىء، وعذراء فاجرة ، ومحتال شريف •

ـ انك رجل فاجر وكريم ، هادىء ومندفع ، حصيف وعنيد • انك تستطيع ان تكون كل شىء وأن تكون لا شىء •

ـ اراك لا تقدرنى كثيرا •

فأجاب وقد تنضر وجهه :

ـ لا ، لا أقدرك •

كانت نظرته تقول : لا أقدرك بل أحبك •

كان الجو هادئا ولطيفا فى هـذا الدكان النظيف ، وكانت الطراوة تنبعث من ارضيته الخشبية التى غسلت منذ قليل ولم تجف بعد ، وكانت تنفذ خلال الفتحة الحجرية للبـاب المفتـوح حرارة خفيفة يولدها نهار الصيف ، كما كانت تصل الى الأذن دقات صـغيرة متتـابعة تصدرها « شواكيش » الصاغة ، اشبه بما يصدر من الاطفـال فى لعبهم أو بما يحسه النائمون فى أحلامهم • وأمام عينى كان يظهر ظلام خفيف من سقف الدكان الحجرى ، كان يبدو مخضرا اذ كان ظلا لشجرة كثيفة قامت على الزقاق ، كما كان يبدو أثرا لانعكاس مياه عميقة الغور • كنت أجد فى نفسى شعورا بالبهجة والرضا والاطمئنان • وبينما كان حسن يحكى عن على خوجه كنت أعرف أنه لن يذكر شـيئا عنى ، وما كان هنـاك خوف يراودنى من خيانته أو عدم حذره • كان الهدوء يساقط على كما تتساقط الذرات الملقحة للنبات ، أو كما تتساقط قطرات الندى الصيفى من أجل هذين الرجلين • لقد كانا شجرتين من ذرات الظلال ، كما كانا نبعين قد صفت فيهما المياه • أيكون هذا خداعا أم أن ذكرياتى تتحول الى رائحة • ولكن يخيل الى أننى كنت اشعر بطراوة ورائحة خفيفة كانت تهب منهما • لا أدرى نوعها ، أكانت تلك التى تصدر عن أشجار الصنوبر ، عن عشب الغابات ، عن نسيم الربيع ، عن صباح يوم العيد ، عن شىء طاهر عزيز •

لم يحدث منذ زمن طويل ان شعرت بمثل هذه الطمأنينة التى منحنى اياها هذان الرجلان •

ان صفاءهما الذى يشبه صـــفاء القمر ، وصداقتهما التى تقوم دون صياح وتهليل ودون كلمات موشاة تنطلق معبرة عنهـا ، ورضاءهما من اجـــل ذلك الذى يعرفه كل عن الآخر ـ قــد أجبرنى على أن أشاركهما الابتسام ، دون ان يكون لذلك مبرر من العقل ، مذكيا فى نفسى شعورا بالاحسان ربما كان غافيا او مرغوبا ، وذلك كما يحدث عندما تقع انظارنا على الأطفال • لقد اصبحت شفافا ، خفيفا ، دون ما أثر من معاناة شريرة كانت تعذبنى منذ وقت طويل •

ـ هيا أزوجك لكى تهدأ •

قالها العجوز فى عطف وعتاب • ومن المؤكد ان قوله هــذا لم يكن لأولى المرات • ثم أردف يقول : هيا أيها الرجل الشرير !

ـ لم العجلة أيها الحاج • اننى لم أكمل الخمسين من عمرى بعد • وما زالت تنتظرنى طرق عديدة أشد اليها الرحال •

ـ الا يكفى ما قمت به الى الآن أيهـــا المتشرد ! ان أبنـاءنا يقيمون بجانبنا طالما نكون اقوياء ، ويتركوننا عندما نحس بحاجتنا اليهم •

ـ اترك الابناء ليسيروا فى طريقهم •

ـ سأتركهم أيها المتشرد • أليس فى امكانى على الأقل أن احزن ؟

وعنـــدئذ كففت عن الابتســـام • كنت أعرف أن ابنه يعيش فى استانبول • وربما من أجله أخذ يشغل نفسه بالسجناء ، لكى ينسى حزنه لعدم رؤيته اياه منذ سنين • وربما أيضا من أجل هذا تعلق بحسن ، اذ أنه يذكره بهذا الابن •

التفت حسن نحوى ، وأخذ يعاتب العجوز فى مرح قائلا :

ـ ها هو يحزن لأن ابنـــه تخرج فى المدارس ولم يبق هنا ليقوم بصياغة ما يحمله له الآخرون من ذهب ؛ ولأنه يعيش فى استانبول ولا يعيش هنا فى هذه القصبة المتعفنة ؛ ولأنه يرسل اليه رسائله يضمنها عبـــارات الاحترام له ، ولا يطلب منه النقـــود ليصرفها فى لعب القمار ومعاشرة البغايا • قل له يا شيخ نور الدين كى لا يلقى بالتبعة على نفسه •

لقد ذهب انشراحى فجأة • فان ذلك الذى رد به سنان الدين عليه أو الذى كان فى الامكان ان يرد به ، وهو أن الســـعادة فى الغربة أمر مشكوك فيه ، وأن الحب أهم من كل شىء ، وكذا حرارة الحياة بين أولئك

الذين على استعداد لأن يقدموا لك حتى دماءهم ـ كان في استطاعته أن يذكرني بأبي وأخي · نعم كان باستطاعته ولكن ذلك لم يكن · ان هذا الالتفات الذي حدث من حسن نحوي ، والذي كان لأول مرة في الحديث كله ودون ما حاجة اليه ، وذلك من أجل مراعاته لي كي لا يتركني على هامش الحديث ـ قد اشعرني بأن الموقف لا يتطلب وجودي وأنه يكفي وجود أحدهما مع الآخر ·

لقد كنت واثقا منذ قليل أن حسن لن يذكر الظلم الذي ألحقه بي على خوجه · فقد كنت أعرف أنه سيحميني · وقد أدركت الآن أنه لم يكن في حديثهما مكان لي · لقد أيقظني من ضلالي وردني الى صوابي ما أبداه من ذلك الاهتمام المتأخر الذي أفسد كل ما كان يراودني من احساس ·

من الصعب أن أجرد نفسي من ذلك الرضا الذي كان يملؤني ، وأن أنحي تلك الذكرى الجميلة التي أردت الاحتفاظ بها ، ولكنني ما كنت استطيع أن أقوم باخماد شكي · لقد كرر حسن كلمات على خوجه عن نفسه وعن الحاج سنان الدين ، وربما كررها بسخرية أشد مما كانت عليه في الواقع · وأما كلماته عني فقد سكت عنها · أكان ذلك من أجل مراعاته اياي فحسب ؟

لماذا لم يذكرها ؟ من أي شيء كان يود أن يحفظني · اذا كان يرى حقا أنها من قبيل الجنون ؟ انه لم يكن يراها كذلك · وها من أجل ذلك قد سكت عنها · انني أعرف تماما لماذا لم يرد على خوجه أن يراني ·· انني بالنسبة له وبالنسبة للقصبة لست موجودا على الاطلاق · لا صوت ولا صورة ، هكذا قال · لا وجود له ، لا وجود للشيخ نور الدين ، فقد مات شرفه الانساني · ان ذلك الذي بقي لا يعد سوى هيكل من ذلك الرجل السابق · واذا لم يكن يراها حقيقة أفما كان في استطاعته أن يوردها على طريق المزاح كما أورد تلك التي تتعلق به وبسنان الدين ؟ لعله كان يود ألا يمس حدة شعوري · واذا كان الأمر هكذا فأراني قد ربحت ، وان كان لي في ذلك شيء من الألم ·

وبينما كنت أحاول أن أتحرر من قيود كانت تضغط على قلبي ، سامعا ذلك الذي كانا يتحدثان عنه ، رأيت كيف مر الرجل في الزقاق ، ذلك الذي من أجله تطيرت أفكاري كلها فجأة · فقد نسيت سخرية على خوجه وصمت حسن عن كل شيء ، ذلك الصمت الذي لا يمكن تفسيره · لقد مر بالدكان اسحاق المتشرد ! لاحظت كل ما هو خاص به ، مشيته ، انتصاب قامته ، خطواته الهادئة ، جرأته !

ملاوقلت شيئا كي أبرر به خروجي المفاجيء ، ثم انطلقت في عجلة الى الزقاق ٠

ولكن لم يكن هناك اسحاق ٠ أسرعت الى زقاق آخر باحثا عنه - من اين جاء الى القصبة ؟ في وسط النهار ، دون أن يغير ملابسه وشكله. دون أن يكون منه اسراع في السير ٠ كيـــف يجرؤ على ذلك ، عن اى شيء يبحث ؟

ان وجهــه يمثل أمام عيني ، ذلك الوجه الذى رؤى من خــلال ظلام الدكان ، متلألئا وواضحا ، مثلما كان في تلك الليلة في حديقة التكية ، انه هو ، وكلما مر الوقت تأكد لى أنه هو ، كنت أتعرف على خطوط وجهه في هذه المرة ؛ انه هو ، اسحاق ٠

ودون أن افكر لماذا أنا في حاجة اليه ، ولماذا يهمني أن اراه ـ كنت أسير وراءه ، ويا للأسف اذ النــاس لا يتركون رائحة وراءهم كما يترك الظربان ، ويا للأسف أيضا لأن أعيننا لا تســتطيع أن تخترق الجدران عندما تصبح رغبتنا حمقاء مجنونة ، وقد رأيت أن أناديه باسمه ، ولكنه ليس له اسم ، لماذا ظهرت يا اسحاق ، لا ادرى أحسن ظهــورك أم لا ، ولكنه ضرورى ، فقد قال : انني سأحضر ذات مرة ، وها هو قد حضر ، وكانت هذه المرة هي الآن ، وكل شيء قــد انبعث في نفسي مرة ثانية ٠ الألم ، العذاب ٠ وعاد مثلما كان ، وكنت أظن أنه مات وتسرب اليه العفن، كما ظننت أنه غرق في قاع نفسي ، وأصبح بعيدا عن امكان تناولى ، وهاهو ليس كذلك ٠ اســحاق ، اين أنت ؟ أأنت فكرة ، أأنت بذرة ، أم أنت زهرة قلقي ؟ لقد رأيته تلك الليلة ، في الحديقة ، ورأيته منذ لحظات في الزقاق ٠ انه ليس شبحا ، ولكنني لا أصل اليه ٠

عدت الى الدكان منهزما ٠

ونظر الى حسن دون أن يلقي سؤالا ٠

وقلت :

ـ لقد خيل الى أن أحد اصدقائي مر في الزقاق ٠

ولحسن الحظ لم يريا شيئا من ارتباكي ، وما من شك في أنهما قد انهيا كل ما يتعلق بهما من امورهما الخاصة ، في الفترة التى كنت أبحث فيها عن اسحاق ، ثم شرعا في حديث يختلف عن حديثهما السابق كان الصوت فيه مغايرا والكلمات من نوع آخر ٠ ان الامر سواء بالنسبة لى ،

فقد اصبحت أشمئز من صداقتهما . لقد بدت أشبه بمزاح او بكذب جميل . ولا شك أن هذا الذى يراودنى الآن مما هو خاص بى يعد أكثر جدية واعظم اهمية .

ومرة أخرى فصلت نفسى عن العالم ، وفى لحظة سد أمامى الطريق الذى كان يقودني الى الناس ، واخذت افكر فى على خوجه ، فى اسحاق ، فى نفسى ، وقد انتابتنى الحيرة وغشاني الظلام ..

لم يكن يهمنى حديثهما ، وعلى الرغم من ذلك كنت اسمعه دون فهم لمعناه .

ـ لا ـ قالها حسن يرفض شيئا ـ لا وقت لدى ولا رغبة لى .

ـ لقد ظننت انك رجل شجاع .

ـ متى قلت اننى رجل شجاع ؟ عبثا تحاول بحثك لى ودفعك اياى . لا أريد أن أتدخل فى ذلك . ومن الأفضل الا تتدخل انت كذلك .

ـ انك مندفع ، عنيد ، لست بشىء .

بهذا انهى العجوز حديثه فى هدوء .

ولكن هذا اظهر انه لم يعد هناك حب .

هكذا أفضل ، ذلك ما رأته نفسى المريضة ، مبررا دون وعى ما كان منى من انفصال . هكذا أفضل ، دون كلمات حلوة ، دون ابتسامة فارغة ، دون خداع . فكل صداقة تظل جميلة ما دمنا لا نبغى من ورائها شيئا ، ومن الخطر أن نقوم بوضع الأصدقاء موضع الاختبار . ان الانسان يثق فى نفسه فحسب .

وبينما كنت هكذا اطمع بتدنيس الآخرين قلقى ، دون ان يكون ذلك عن رضى منى أو استجابة لحقد ـ أرخى الظلام سدوله على الدكان ، وأصبحت الظلال الزرقاء سوداء الاهاب .

استدرت ، فاذا المسلم يقف على عتبة الباب .

وسمعت الحاج سنان يدعوه دون أن يقف قائلا :

ـ ادخل .

وأما حسن فقد نهض فى هدوء وبطء واشار الى مكان ليجلس .

انتحيت جانبا دون أن يكون هناك ضرورة لذلك ، كاشفا بذلك عن ارتباكي وتحيري · لقد رأيته عن قرب للمرة الأولى بعد موت هارون · لم أكن أدرى كيف سيتم هذا اللقاء ، كما لم أكن اعرف كيف يكون الآن وأنا اختلس النظر اليه في اضطراب مرددا بصرى بين حسن والحاج سنان الدين ، ويدعى كذلك ، وقد تملكتنى الحيرة وانتابنى الذعر لا أمامه بل أمام نفسى ، اذ لم أكن اعرف ماذا سيحدث ، هل ستدفعنى نحوه اصابتى فى لحظة من أشد اللحظات كهذه وبطريقة من اعنف الطرق ، أو ان الخوف سوف يجبرنى على أن ابتسم له فى خضوع على الرغم من كل ما كنت أشعر به ، الأمر الذى لو فعلته لأحسست من أجله باهانتى لنفسى على مدى الحياة · بدات افقد ثباتى ، واحس باضطراب غدتى الدرقية وبالدم يندفع فى شدة الى قلبى · وتناولت علبة التبغ التى قدمها الى حسن (كيف أحس بقلقى ؟) ، وبصعوبة أخذت افتح غطاءها ، واتناول بيد مضطربة جزءا مما بها من دخان أصفر اخذت تتساقط فتات منه فى حجرى · واسترد حسن العلبة وملأ منها غليونا قدمه الى ، واخذت ادخن ، جاذبا انفاسا عميقة من دخان شديد ، وللمرة الأولى فى حياتى كنت امسك احدى يدى بالأخرى ، واخذت أنتظر ان ينظر الى المسلم ، أن يقول لى شيئا ، وقد احسست اننى اتصبب عرقا ·

قال للحاج سنان الدين انه لن يجلس وذكر انه عرج على الدكان مصادفة ، فقد كان يمر بهذه الناحية وخطر بباله أن يسأله شيئا ·

(لقد هدأ تدفق الدم وصار تنفسى أيسر من ذى قبل ، وكنت أنظر اليه مطرقا ببصرى ورأيته اشد اكفهرارا وأكثر قبحا مما كان حينذاك ، وان كنت لا أدرى ما اذا كان قد خطر ببالى مرة أنه مكفهر وقبيح) ·

لم يكن ما وجهه اليه من سؤال يدخل فى اختصاصه · غير انهم قالوا له ان الحاج سنان الدين لا يريد أن يدفع ضريبة سفر الامداد أو ما يسمى بالمعونة الحربية ، تلك التى صدر بها القرار السلطانى ، الأمر الذى جعل الآخرون يترددون فى دفعها ، فاذا كان الرجال الشرفاء مثله ، مثل الحاج سنان الدين ، لا يقومون بأداء واجبهم فماذا يمكن أن ينتظر من الآخرين ، أصحاب البطون والمتشدقين بالكلمات ، هؤلاء الذين لا يهمهم أمر الوطن ولا الدين ، والذين لا يبالون بهلاك كل شىء بشرط أن تبقى نقودهم فى خزائنهم دون أن يمسها أحد · انه يأمل ان يكون ما حدث من جانب سنان الدين قد حدث عن غير قصد ، بأن يكون قد

نسيه أو أهمله ، وأنه سوف يقوم بأداء هذا الواجب فى أسرع وقت ممكن، على الفور ، لكى لا تثار ضجة لا مبرر لها ولن تعود بالنفع على أحد ٠

ـ لم يحدث هذا عن غير قصد ٠

بهذا أجاب الحاج سنان الدين فى ثبات ، دون خوف ودون عناد ، بعد أن انتظر فى صبر أن يفرغ المسلم كل ما عنده ، ثم واصل يقول :

ـ لم يكن عن غيرقصد، ولم آكن قد نسيت او اهملت ، بل كان ذلك لأننى لا اريد أن أدفع ما ليس بحق ٠ ان الثورة فى وادى «السافا» ليست حربا ٠ لماذا اذن تدفع المساعدة الحربية ؟ وأما القرار السلطانى الذى تذكره فلا يتعلق بهذا الشأن ، ويجب انتظار رد الباب العالى على الطلب الذى تقدم به أعيان القوم ، وكلهم يعتقدون هكذا ، كل يعتقد ذلك فى قرارة نفسه وليس أحد تابعا لأحد فى هـذا ، فاذا جاء القرار السلطانى ردا على الطلب بالدفع فسندفع على الفور ملتزمين بما جاء به ٠

ـ ان الحاج سنان الدين أنما يريد أن يقول ان أكثر الأمور ضمانا هى التى نقوم بها تلبية لرغبة السلطان واطاعة لأوامره ، واننا اذا دفعنا الآن نكون قد فعلنا ذلك بارادتنا نحن كمـا نكون قد خالفنا القانون ، والارادة الشخصية ومخالفة القانون يخلقان الفوضى ويشيعان الفساد ٠

بهذا تدخل حسن وأمارات الجد تلوح على وجهه ، وقد خطا من الجانب وساعداه متقابلان على صدره ووقف فاصلا بينهما وبدا عليه استعداد ودى لأن يوضـح للمسلم فى شىء من التفصيل كل ما لم يكن قد فهمه ٠

ولكن المسلم لم يكن يحب المزاح ، كما أن هذا الايضاح الذى بدا ساذجا فى مظهره لم يسبب له شيئا من الازعاج ٠ ودون أن يظهر نفاد صبره من أجل هذا التدخل ، ودون أن يظهر غضبه من أجل سـخرية ظاهرة ، ودون ان يظهر حتى احتقاره الذى لا ينبغى من أجل منصبه ان يبحث له عن سـبب ـ نظر الى حسـن بعينيه الثابتتين الثقيلتين اللتين لا يستطيع أحد حتى زوجته أن يقول انهما مستأنستان ، ثم التفت نحو الحاج سنان الدين قائلا :

ـ كما تريد ٠ لا يهمنى ، غير أننى اظن انه فى بعض الأحيان يكون الدفع أرخص ٠

ـ لا يهمنى كونه رخيصا ، بل يهمنى أعدل هو ٠

ـ ان العدل فى بعض الأحيان يكلف غاليا ٠

ـ والظلم كذلك ٠

نظر احدهما الى الآخر نظرة طويلة ، لم أكن أرى نظرة المسلم ، ولكنى كنت اعرف كيف تبدو ، وأما العجوز فقد كان يبتسم فى أدب ولطف ٠

استدار المسلم وخرج من الدكان ٠

لقد كنت اتمنى أن اخرج فى أسرع وقت ممكن الى الزقاق ٠ فان الهواء الذى كان يزفره سوف يختفي ، كما أن الكلمات التى سوف يطلقانها سخرية به سوف تذهلنى ٠ ولكن هؤلاء الرجال كانوا يفاجئوننى على الدوام ٠

ـ و ٠٠ ؟ هل غيرت رأيك ؟

هكذا سأل العجوز دون أن ينظر وراء المسلم ٠

ـ لا ٠

ـ ان كلمة حسن لا تراجع مثلما تراجع كلمة الامبراطور ٠ اننى لا اظفر اليوم بنجاح فى شىء ما ٠

ضحك العجوز كما لو كان رفض حسن قد أثار سروره ، وبدأ يأخذ فى توديعه :

ـ متى ستأتى مرة أخرى ؟ اننى سوف أبدا أن اكره أعمالى وأعمال الآخرين كذلك ، اذ أنها تفصلنى عن الأصدقاء ٠

لم ينطقا بكلمة واحدة عن المسلم بعد أن خرج ! كما لو لم يكن قد حضر الى الدكان ، كما لو كان فقير قد مر يطلب احسانا ، فقد نسياه فور تخطيه عتبة الدكان ٠

تملكنى العجب ٠ أى تكبر يكون هذا ، اسوقى أم ارستوقراطى ذلك الذى يرفض على التمام من يرى أهلا للاحتقار ؟ كم من السنوات وكم من الفصول يجب أن تمر كى تخمد رغبة الانسان فى السخرية ، فى البصق ، فى السب ؟ لم أرانهما كانا يفعلان ذلك عن قصد أو انهما كانا يغالبان انفسهما ٠ ومهما يكن من شىء فقد نحياه عنهما فى يسر وبساطة ٠

كادت فعلتهما توخز نفسي . كيف يتسنى اغفال هذا الرجل هكذا بسهولة ؟ لابد أن ينال قدرا أكبر من الاهتمام ، وان يعمل لمثله حساب - ليس من الممكن نسيانه ، ليس من الممكن محوه .

سألت حسن ونحن نمر بالزقاق .

- كيف حدث انكما لم تنطقا بكلمة عن المسلم اثر خروجه ؟

- ماذا يوجد كي نقوله عنه ؟

- انه كان يهدد ويشتم .

- انه يستطيع أن يظلم ، اما الشتم فليس باستطاعته . يجب ان تتقيه كما تتقي النار ، كما تتقي خطورة ممكنة . هذا كل ما في الأمر .

- انك تتحدث هكذا لأنه لم يوقع بك ظلما .

- ربما . وأما انت فقد كان يعتريك التوتر . هل داخلك الخوف ؟ لقد كان بعض التبغ يتساقط من بين أصابعك .

- لم يكن بي خوف .

نظر الى ولعل صوتي قد فاجأه :

- لم يكن بي خوف . وانما مر بذاكرتي كل شيء .

مر بذاكرتي كل شيء ، والله اعلم كم تكون هذه المرة ، ولكن كان ذلك بشكل مخالف لما كان من قبل . لقد انتابني التوتر عندما دخل ، وحينما كان يتحدث مع الحاج سنان الدين لم استطع أن اعين ولا ان أوقف أيا من افكاري ، فقد كانت تتسابق غدوا ورواحا في حلبة مخي ، وقد انتابها الذعر وتملكتها الحيرة وأخذت في التشابك ، وبدت حارة من ذكرياتي ، من جرحي ، من غضبي ، من الملى ، الى أن مسني بنظرته الباردة المصوبة نحوي ، تلك النظرة التي أثقلها الحقد والاحتقار ، والتي كانت تختلف عن التي ينظر بها اليهما . واذ ذاك في تلك اللحظة القصيرة ، عندما تقابلت نظرة كل منا بالأخرى أشبه بتقابل طرفي سكين حاد ، كان في امكان الخوف أن يتغلب علي ، وحقا كان قد ظهر ، وفجأة وجدته يغمرني كما يغمر الفيضان ما يصادفه من الأرض .

كنت أمر من قبل بلحظات عسيرة كتلك ، وكنت أشهد صراعا يدور في نفسي مع آراء متناقضة ، باذلا جهدي من أجل المسالمة بين

طغيان الشهوة وتبصر العقل ، ولكنى لا أدرى أحدث أن تحولت مرة فى حياتى بهذه الدرجة مثلما تحولت فى تلك اللحظة الى حلبة تتصارع فيها الارادات المتناقضة ·· وأن هاجمنى من قبل عدد من أسراب الرغبات الباغتة تحاول اختراق خطوطى الدفاعية كهذا العدد الذى يهاجمنى الآن ، وكان يحول بينه وبين انطلاقه جبنى وخوفى · لقد كان يصيح فى داخل الغضب المسعور ، قائلا لقد قتلت أخى وجرحتنى بل قمت باهلاكى · وفى الوقت نفسه كنت أعرف أنه ليس من صالحى ان يرانى المسلم مع هذين الرجلين ، اللذين يحتقرانه ويقاومانه · وهكذا ، دون قصد ، ودون ارادة ، فى موقف بدا متناقضا ، كنت ضده وكنت أود الا يعرف هو ذلك ·

ويبدو أن هذا الخوف بالذات كان سببا للفصل فى الأمر · لقد انتزعه من نفسى هذا الخجل الذى اصابنى ، ما أصعبه وما امره ، ذلك الخجل الذى تنبعث منه الشجاعة · لقد هدأت ثارتى كما هدأ الأزيز الأحمق ينبعث من داخلى ، ولم تعد أفكارى تتسابق عبر نفسى مثلما تتسابق الطيور فوق منطقة شب فيها الحريق ، وادركت اذ ذاك فكرة واحدة فقط ، لقد سادنى جو من الطمأنينة كانت تغنى فيه الملائكة ، ملائكة الشر ، مغتبطة مهللة ·

وكانت هذه ساعة سارة لتحولى ·

أخذت أنظر بعد ذلك ـ وقد كدت أشعر أننى مضاء بنار جديدة من داخلى ، فقد كنت أنظر الى قفاه القوى ، والى كتفيه المقوستين قليلا ، والى صورته المضغوطة · وكان الأمر بالنسبة لى سواء ، هل سيدير بصره نحوى ، كما كان الأمر بالنسبة لى سواء ، هل سينظر الى بابتسامة أو بشىء من الاحتقار يمليه عليه حقده ، ان الأمر سواء ، انه لى ، احتاج اليه ، فقد ربطت نفسى به بكرهى اياه ·

اننى أكرهك ، بهذا كنت أهمس فى حماس محولا نظرى عنه ، اننى اكرهه ، هكذا كنت أعتقد وأنا انظر اليه · اكره ، أكره ، كانت تكفينى هذه الكلمة الوحيدة ، لم استطع ان اصل بتكرارها الى العدد الذى أرغبه، لقد كانت بالنسبة لى لذة شابة وحديثه ، غزيرة وأليمة ، مثل شهوة الحب · هو ، هكذا كنت اقول فى نفسى ، دون أن أعطيه الفرصة كى يبتعد عنى ، ودون ان أسمح لنفسى أن افقده · هو ، هكذا كنت افكر فيه كما يفكر المحب فى حبيبته · وكنت أحيانا أسمح له بأن يبتعد عنى

قليلا ، كما يحدث مع الوحش البرى عند المطاردة . لكى أستطيع أن اقتفى أثره ، واحيانا كنت أجعله قريبا منى ، لكى يكون نصب عينى على الدوام . كل شىء فى داخلى كان يسوده عدم النظام وتنتابه الحيرة ويرى مبعثرا هنا وهناك . وجميع ما كان يسعى الى الخروج ويبحث عن الحل قد هدأ وسكن واخذ يستجمع قوته تلك التى كانت تتزايد فى استمرار .

لقد وجد قلبى سنده .

اننى أكرهه . بهذا كنت اهمس فى حماس وأنا أسير فى الزقاق . اكرهه ، هكذا كنت اظن وأنا أصلى صلاة العشا ... أكرهه . كنت أكون قد نطقتها بصوت عال وانا ادخل التكية .

وعندما استيقظت فى الصباح كانت الكراهية تنتظر رافعة الرأس كتلك الأفعى التى تتلوى فى ثنايا مخى .

لن يتحقق انفصال بينى وبين الكراهية فيما بعد . فانا لها ، وهى لى . وبها صار للحياة معنى .

كان يطيب لى بعض الشىء فى البداية ما كان يعترينى من حماس حالم ، كما يطيب للانســان تلك اللحظات الاولى من الحمى ، فقد كان يكفينى ذلك الحب الأسود العنيف ، وقد بدا لى اشبه شىء بالسعادة .

لقد أصبحت أكثر ثراء ، واقدر تحديدا ، واعظم كرما ، وافضل خلقا ، وربما أقوى عقلا كذلك . ان العالم الذى خرج عن ركيزته قد عاد واستقر فيها ، فقد أخذت أعمل ثانية من اجل أن تقوم العلاقات بينى وبين كل شىء ، كما اخذت أتحرر مما ألم بى من الفزع المظلم من أجل حياة لا معنى لها ، وكان النظام المرغوب يبزغ متلألئا أمامى .

تراجعى أيتها الذكرى المريضة لأيام طفولتى ، ابتعد عنى أيها الضعف الزلج ، تراجع أيها الخوف المتردد . لم أعد بعد شاة منسلخة أجبرتها المطاردة على الدخول فى غابة الأشواق . فليس من شأن تفكيرى الآن أن يتحسس فى الظلام مسلوب البصر . لقد أصبح قلبى كاحدى هذه القدور المتوهجة التى يطبخ فيها من الأشربة ما يذهب بالعقول .

كنت انظر الى اعين كل شىء فى هــدوء وجراة ، دون أن اخشى شيئا . وكنت اغشى كل مكان يغلب على الظن أن ارى المسلم فيه ، أو ألمح على الأقل كورعمامته ، كما كنت انتظر فى الزقاق طلعة القاضى كى أخطو وراءه ناظرا الى ظهره المتضائل المحدودب ثم آخذ فى الابتعاد منفصلا

عنه وأنا منهــك بتأثير موجدتي عليه • ولو كانت للكراهية رائحة لأمكن أن يشم من ورائي رائحة الدم • ولو كان لهــا لون لتركت قدماي من خلفها آثارا سوداء • ولو كان في الامكان أن تشتعل لاندلعت ألسنة اللهب من جميع فتحاتي •

انني أعرف كيف ولدت ، وعندما اشتدت وقويت لم تكن هناك حاجة لتبريرها • لقد أصبحت بنفسها سببا وغاية • ولكنني كنت أرغب الا تنسى بداياتها ، لكي لا تفقد قوتها وحرارتها • كما كنت أرغب الا تغفل أولئك الذين يدينون لها بكل شيء وألا تصبح بحيث تعم الجميع • فلتبق اذن قاصرة على أولئك المذكورين فقط •

ذهبت ثانية الى عبد الله أفندي ، الى شيخ التكية المولوية ، ورجوته كي يساعدني في العثور على قبر أخي • قلت له انني قصدته لأنني لا أجرؤ على أن أطلب ذلك من أولئك الذين في ايديهم ان يرحموا والا يرحموا ، اذ لو رفضوا مطلبي لأصبحت جميع الأبواب مغلقة امامي ، ومن أجل ذلك وجدتني مضطرا أن أقدم من ينوب عني في هذه المهمة ، وسأظل محتفظا بالأمل طالما وجدت من هو أهل لأن ينوب • وبينت أنني قصدته أولا ، ولي أمل في احسانه واحتماء بعلو منزلته ، اذ ان منزلتي لم تعد عالية ، والله وحده يعلم انني لم أكن متسببا في فقدها • ولو حدث أن ساعد لكان له علي دين عظيم ، فقد رغبت ان أقوم بدفن أخي وفق شريعة الله كي تنعم بالهدوء في عالمها الأخير •

لم يرفضني ، ولكن بداله انني أصبحت من أجل مصيبتي أقل منزلة وأضعف علما • وتحدث قائلا :

ــ ان روح أخيك قد هدأت • ولم تعد الآن من عالم الأناس ، بل انتقلت الى عالم آخر ، عالم لا يعرف الحزن ولا القلق ولا الكراهية •

ــ ولكن روحي ما زالت روح انسان

ــ أتفعل ذلك اذن من أجل نفسك ؟

ــ من أجله ومن أجل نفسي •

ــ أفي نفسك حزن أم كراهية ؟ اياك والكراهية ، لكيلا ترتكب ذنبا نحو نفســـك ونحو الآخرين • اياك والحزن ، لكيلا ترتكب ذنبا نحو الله •

ـ بى من الحزن ما تقتضيه الطبيعة الانسانية • وأحاول أن اتجنب الذنب يا شيخ عبد الله • فكل ما يتعلق بى أصبح فى يد الله • وفى يدك أيضا •

كان لزاما على ان أستمع وعظه فى هدوء ، وان اتودد اليه وأستميل عطفه ورضاه لتعلق امرى به • فالناس عندما يظنون أنهم أكبر واعظم منا يجدون فى أنفسهم استعدادا لأن يكونوا كرماء •

لم أكن قويا بقدر يسمح لى أن أكون نافذ الصبر ، ولم أكن أيضا ضعيفا بقدر يجعلنى ان أكون غاضبا • لقد كنت استخدم الآخرين تاركا لهم أن يحسوا بعظمهم ويشعروا بقوتهم • وكان لى هذا سندا وهدى ، اذ ما الذى يدعو الى الاهتمام بهذه التوافه من الأمور ؟

لقد ساعدنى وحصلت على التصريح لدخول القلعة كى أبحث عن قبر أخى • وصحبنى حسن • وجاء معنا الخدام يحملون التابوت الفارغ ويصحبون معهم المجارف •

والى مقابر القلعة قادنا رجل لعله الحـــارس ، الخادم ، اللحاد ، فقد كان من الصعب أن يحدد الانسان عمل ذلك الرجل الأبكم ، الذى لم يتعود الحديث ، ولم يتعود أن ينظر الى أعين الناس ، والذى كان يتطلع فى خوف ، والذى كان يبدو أنه يقوم بهذه الخدمة فى غضب ، كما لو كان هناك صراع مستمر فى نفسه بين رغبة فى أن يساعدنا ورغبة فى أن يقوم بطردنا •

ـ هناك •

قالها مشيرا برأســـه الى تل مقفر يشرف على القلعة ، تل يتميز بخراجات تمثلها الأقبية الحديثة وجروح تمثلها المقـــابر المشقوقة ، وقد ترعرع هذا التل بين شجيرات العليق وبعض النباتات الطفيلية •

ـ هل تعرف أين قبره ؟

نظر الينا خلسة دون أن ينطق بكلمة • وكان يمكن أن يعنى هذا :

ـ كيف لا أعرف وقد قمت بدفنه !

كما يعنى أيضا :

ـ كيف اعرفه ؟ انظر كم قبرا هناك دون علامة أو اسم •

كان يسير بين مقابر مبعثرة لا أثر فيها لنظام ، وقد حفرت فى عجلة ودون وبغير احترام ، كما تحفر الأماكن لحفظ بعض الثمار · وكان يتوقف عند بعضها ، وينظر لحظة فيما انخفض منها ، ثم يشيح برأسه قائلا :

ـ نيقولا · صعلوك ·

أو يقول :

ـ بكير · حفيد محمد

وعند بعضها كان يلوذ بالصمت ·

ـ أين هارون ؟

ـ هنا ·

اندفعت أتنقل وحدى بين الحفر المطمورة ، لكى أجد أخى الميت · ربما يهدينى اليه ما يولده فى من اثارة وما أشعر به اذ ذاك من حزن ، وما أجده من علامة ما أحسها فى نفسى ، ربما ينبهنى لمكانه خرير دمى ، أو سقوط دمعتى ، أو اهتزاز جسدى ، أو سريان صوت مجهول ، فلعلنا لسنا على الدوام خاضعين لسلطان حواسنا العاجزة · أليس فى الامكان أن ينطلق بطريقة ما سر خروجى واياه من بطن واحدة ؟

ـ هارون !

هكذا كنت أنادى فى همس ، وأنا انتظر أن يأتى الجواب من داخلى · ولكن الجواب لم يكن يوجد ، كذا لم تكن هناك أية علامة أو شىء أحسه من اثارة ، وحتى الحزن ما كنت أشعر بوجوده · لقد كنت أشبه بقطعة الطين وكان أن بقى السر أصم صامتا · كان يتملكنى فقط شعور بالفراغ يتصف بالمرارة واحساس بهدوء لم يكن هدوئى ، كما كانت تطوف بى بعض المعانى البعيـدة التى كانت أهم من جميع ما يعرفه الأحياء ·

ونسيت الكراهية اذ كنت وحدى بين المقابر ·

ولكنها عادت الى بعودتى الى الناس ·

وجدتهم يقفون عند حفرة تشبه سـائر الحفر · وسمعت حسن يقول :

ـ أيكون هذا ؟ وهل من المؤكد ؟

ـ ان الأمر لدى سواء ، بامكانكم ان تحملوا اي واحد منهم · ولكن ان اردتم فها هو ذا

ـ كيف عرفت ؟

ـ عرفت ، لأنه دفن في قبر قديم

وحقا وجد الخدم عظام شخصين ، فجمعوا عظام احدهما ووضعوه في التابوت ثم غطوه بغطاء من الجوخ واندفعوا منحدرين على حافة التل ·

من نحمل ؟ ـ اخذت أفكر فزعا · إنحمل قاتلا ، سفاكا ، ضحية ؟ لمن هذه العظام التي أثرناها ؟ ان عدد القتلى كثير وليس هارون وحده هو الذي دفن في قبر الغير ·

أخذنا نسير وراء الخدم الذين يحملون على أكتافهم ، صندوقا به عظام لأحد الأشخاص وفوقه غطاء من الجوخ الأخضر ·

وكان حسن يهز ساعدى في رفق كما لو كان يوقظني ·

ـ اهدأ ·

ـ لماذا ؟

ـ ان نظراتك عجيبة ·

ـ أهي حزينة

ـ كم اود ان تكون حزينة ·

ـ منذ لحظات ، حينما كنت في المقابر ، كنت أنتظر دون جدوى أن ينبهني شيء عند مروري بقبر هارون ·

ـ انك تكلف نفسك بأكثر من اللازم · وارى كافيا ان تكون حزينا لقد بقيت فكرته لدى غامضة ، ولم تكن لى الجرأة على السؤال · كنت أخاف أن يفطن الى ذلك الذى يحدث في داخلى · فما كان له أن يعيدنى الى الحزن دون سبب ·

وفي السوق ، وفي الأزقة كان الناس ينضمون الى جمعنا ، وكنت أشعر بكثرة الأرجل تزداد خلفنا ، اذ ان وقعها كان يأخذ تباعا في التلاحم بعد ان كان يسمع متفرقا ، كما أن الحشد اخذت تزداد كثافته · لم أكن

أتوقع هذا العدد ، فان هذا الذى فعلته كان من اجل نفسى لا من أجلهم ، ولكن هاهو مايخصنى اخذ يفلت منى ليصبح خاصا بهم كذلك • لم احاول أن أستدير كى أراهم ، ولكنى وقد ثارت مشاعرى كنت أحس كيف يحملنى هذا الحشد الذى بدا كأنه الموج ، والذى أخذ يعلو بى ويجعلنى أكثر اهمية واشد قوة ، اذ كان هو اياى فى شكل مكبر • كان الجميع يحزنون يتهمون ، يكرهون ، فى صمت بهذا الحضور •

ان هذه الجنازة بالصورة التى هى عليها تبرير لكراهيتى •

وسمعت حسن ينطق بشىء فى همس

ـ ماذا تقول ؟

ـ لا تخطب • لا تتحدث بشىء عند القبر •

فحركت الراس قائلا لن أتحـــدث • لقد كان ماحدث بالمسجد له ظروفه • كان الناس يسيرون ورائى عند حضورى الى القصبة عائدا من باب الموت ولم نكن نعلم ـ انا وهم ـ ما الذى ينبغى حدوثه • والآن نحن نعلم • انهم لا ينتظرون منى كلمة ولا اتهاما ، فقد أدركوا كل شىء واستقر فى نفوسهم • ومن الخير أننى قمت بهذا العمل ، ولن يكون دفننا لهذا الذى كان انسانا فيما مضى من أجل اثبات براءته ، بل من أجل شىء أعظم : سوف نزرع هذه العظام لتكون ذكرى للظلم • ولينبت ماينبت ومايريده الله •

وهكذا أصبحت كراهيتى أكثر سخاء واشد عمقا •

وأمام المسجد وضع الخدم التابوت المغطى بالجوخ الأخضر على الحجر المخصص لذلك • وذهبت فتوضأت ثم وقفت أمام التابوت واخذت أتلو الدعاء • وبعد أن فرغت سالت ، لا على النحو الذى أسأل به دائما بمقتضى وظيفتى ، وانما اندفعت أستحثهم فى تهلل :

ـ تكلموا أيها الناس ، كيف كان هذا الميت ؟

ـ كان صالحا !

بهذا انطلقت عشرات الأصوات تجيب فى ثقة •

ـ هل تغفرون له كل ماقد بدر منه ؟

ـ نعم نغفر •

ـ اتشهدون له أمام الله ٠

ـ نشهد له ٠

لم تكن هناك شهادة من قبل لرجل ميت أمام رحلته الأبدية اشد صدقا وأكثر حماسا من هذه الشـــهادة ٠ وقد كان بامكانى ان اكرر السؤال عشر مرات ولو فعلت لتعالت أصواتهم بالاجابة أكثر من ذى قبل ، ولكن من الممكن أن ناخذ فى الهتاف مهددين فى غضب حتى ليبدو فى أفواهنا الزبد ٠

وعندئذ حمل الناس هذا الميت القديم على أكتافهم واخذوا يتبادلون حمله فيما بينهم مظهرين له عـــلائم التشريف ودلائل الاكبار بغية فى الثواب ورغبة فى العناد ٠

قمت بدفنه بجانب جدار التكية ، المواجه لفتحة الزقاق ، كى يكون درعا بينى وبين الناس ودليلا يحذرنى منهم ٠

لم أنس أن المسلمين قديما كانوا يدفنون موتاهم فى مقابر جماعية ، وانهم متساوون حتى بعد الموت ٠ ثم بدات التفرقة عندما انقسموا فى حياتهم الى طبقات ٠ وانا الآن فرقت أخى كى لا يختلط بالآخرين ٠ لقد مات لأنه قاوم ؛ فليقاوم وهو ميت كذلك ٠

عندما بقيت وحيدا ، حيث تفرق الناس بعد أن ألقوا بقطع من الطين فى اللحد ، ركعت بجانب الربوة المنتفخة ، التى تمثل الدار الأبدية لشخص ما ، وذكرى أخى هارون ٠

ـ هارون ! (بهـذا كنت أهمس فى الدار الأرضية ، فى الربوة الحارسة) هارون ، أخى ، الآن أصبحنا أكثر من أخوين ، انك ولدتنى الآن لأكون ذكرى ؛ وأنا ولدتك اذ عزلتك لتكون شاهدا ٠ سوف تلتقى بى صباحا ومساء ، فى كل يوم ، وسوف أفكر فيك أكثر مما كنت افكر وأنت حى ٠ ولينسك الجميع فذكرى الناس قصيرة ، اما أنا فلن انساك ، لن انساك ولا انساهم ، اقسم بتلك الحياة وبهذه الحياة يا أخى هارون ٠

كان ينتظرنى فى الزقاق على خوجه ، اذ كان يحترم حديثى مع ظلال الميت ٠ وكم كان بودى أن اتحاشى الالتقاء به ، وخاصة الآن ، حيث كنت فى ثورة نفسية بعد اتمام الدفن ، ولكنى لم أستطع ٠ ولحسن الحظ كان جادا ولطيفا وان بدا عجيبا كما هو دائما ٠ لقد قدم لى تعزيته ، ورجا الصبر لى وللناس جميعا من أجل ماحل بنا ، والصبر عام للجميع وليس

وقفا على أحد ، وان كان من الممكن أن يكون هذا الفقدان ربحا ، لأن الأموات يمكنهم أن يكونوا أعظم نفعا من الأحياء ، وهم يكونون دائما على الصورة التى نحن فى حاجة اليها ، لا يتقدمون فى السن ، لا يتشاجرون، ليس لهم راى ، ويوافقون فى صمت على ان يكونوا جنودا ، ولن يخونوا حتى يناديهم الآخرون كى ينضموا تحت علم آخر ٠

سألته :

ـ ألا ترانى ؟ ألا تعرفنى ؟

ـ أراك وأعرفك ٠ من لا يعرف الشيخ نور الدين !

انه لا يحتقرنى ، لم أعد بعد فى نظره شيئا لا يرى ٠

ماذا يأمل أن ينال منى حين يعترف اننى موجود ؟

وحدث أن اتفق حسن والصائغ سنان الدين على بناء ضريح من الأحجار الصلبة فوق القبر وسور حديدى حوله ٠

وبينما كنت عائدا من صلاة العشاء فى يوم الجمعة الأول للدفن رأيت فى الظلام شمعا يلتهب فوق قبر هارون ٠ وكان هناك أحد يقف بجانب القبر ٠

اقتربت من القبر وتبينت أن الواقف ملا يوسف ، وكان يتلو بعض الأدعية ٠

ـ أانت الذى أشعلت الشموع ؟

ـ لا ٠ لقد كانت مشتعلة عندما جئت ٠

لقد وضعتها يد شخص ما وقامت باشعالها ترحما على الفقيد وتمجيدا لذكراه ٠

ومنذ ذلك الحين كانت تضاء الشموع على شاهدى قبره فى ليالى الأعياد المباركة ٠

كنت دائما اتوقف فى الظلام وأنظر الى ذلك اللهب الصغير المضطرب مثارا حزينا فى الأيام الأولى لدفنه ، ولكن سرعان ما أصبحت بعد ذلك فخورا ٠ هذا هو أخى السابق ٠ وهذا اللهب الذى يضىء هو روحه ٠

فظله هو الذى يجذب هؤلاء المجهولين الذين يأتون ليشعلوا النيران الصغيرة تمجيدا لذكراه ٠

لقد أصبح بعد موته مناط الحب لساكنى القصبة ٠ وفى حياته كاد ان يكون غير معروف لأحد ٠

واما بالنسبة لى فقد أصبح ذكراى الدموية المريرة ٠ وفى حياته كان لى أخا وحسب ٠

١٣

« .. ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » .

ان موالاتى لأخى قد أعادت الى صداقة حسن . ربما كان وراء كلماته وتصرفاته قصد ما خفى . رغبة لكى يوقف اندفاعى فى ذلك الطريق الذى كان يتوقعه والذى كان يخشاه ، أو لعلنى كنت أخدع نفسى فربما كانت شدة اثارتى تريني ذلك الذى لا وجود له . ولكن سواء أكان هذا أم ذاك فما كان بالامكان أن أشك فى صداقته .

كذا لم يكن فى الامكان أن يشك فى صداقتى . لقد أحببته ، وادركت ذلك بشدة طلبى اياه وتعودى لأن أكون معه ، وبعدم معاتبتى اياه مهما قال ومهما فعل ، ويكون مايخصه أصبح شيئا هاما بالنسبة لى . ربما يكون الحب هو الأمر الوحيد فى دنيانا الذى لا يحتاج الى تفسير أو بحث عن أسبابه . ولكن مع هذا أرانى أسعى الى ذلك ، ولو من أجل أن أذكر ثانية ذلك الرجل الذى أدخل فى حياتى السرور بهذه الدرجة .

لقد ارتبطت به (تعبير جيد : ارتبطت ، كأننى فى العاصفة ، فى الباخرة ، فى قمة صخرة شاهقة) لأنه ولد ليكون رفيقا للناس ، ولأنه اختارنى بالذات من بينهم ، وكان يجدد السرور فى نفسى على الدوام استطاعته أن يكون هو بالذات صديقا ترتفع صداقته الى هذه الدرجة ، وهو الذى يبدو للجميع أجوف ساخرا .

كنت دائما أظن أن الصديق هو ذلك الرجل الذى يحتاج الى المساندة ، هو ذلك النصف الذى ينشد مايكتمل به ، يرى فاقد الثقه فى نفسه ، ميالا الى المراهنة ، مملا بالضرورة ـ وان يكن محبوبا ـ ثرثارا

يفرغ ماعنده كما هو الشأن لدى المرأة · واما هو فجزء مكتمل ، دائم المرح ودائم التجدد ، عاقل ، جرىء ، مضطرب ، واثق فى كل مايباشره ·

لم يكن فى وسعى أن أضيف اليه شيئا أو أسلبه شيئا ، فقد كان بدونى ومعى ما هو فى حقيقته ، ولم يكن بحاجة الى فى شىء · وعلى الرغم من ذلك فاننى لم أشعر باننى أقل منه · سألته مرة كيف حدث أن منحنى بالذات صداقته · فكان جوابه : الصداقة لا تختار · انها تحدث ـ دون علم بالسبب ـ كما يحدث الحب · ثم اننى لم أمنحك شيئا بل لقد منحت نفسى · اننى أحترم الرجال الذين يستطيعون وقد حلت بهم المصيبة أن يبقوا كرماء ·

شكرت له هذا الاعتراف وتملكنى اعتقاد بصدقه ·

وكانت صداقته بالنسبة لى بالغة القيمة والأهمية ، وبخاصة من أجل تلك الكراهية التى أخذت تزداد فى نفسى · اننى لا أدرى اتستطيع كراهيتى أن تعيش وحدها وان كان من المؤكد أنها تستطيع · غير ان الأمر هكذا أفضل · لقد صار لى الآن جانب أبيض يقابله جانب أسود · هذا ما أكون ، منقسم ولكنى مكتمل · لم يكن الحب والكراهية يمتزجان ، ولم يكن أحدهما يعرقل الآخر ، أو يجد القدرة فى القضاء عليه · فقد كنت فى حاجة ماسة الى كليهما ·

كنت أدخل فى حياة حسن بحق الصداقة ، وبارادته الطيبة ، ولكن اذا كنت آمل ، أو أخشى ، أن كل مايخصه سوف يصبح لى واضحا ومعروفا فقد خدعت نفسى · وليس ذلك من أجل محاولته أن يخفى ولو صغيرا من الأمور وانما لأنه بئر عميق تغطيه الظلال ولا يمكن رؤية قاعه فى يسر وسهولة · وذلك أمر لا يرجع لكونه هكذا ، بل لكون الجميع على هذه الصورة ، يتعذر علينا رؤيتهم فور تعرفنا بهم ·

لقد نقل والده ليعيش معه فى بيته ، وأولاه كل اهتمامه ، وكان هذا الاهتمام يوحى بشىء من الغرابة ويجلب نوعا من السرور وينحى ماقد يكون من الهموم ، وكانما كان حسن لا يراعى كثيرا مرض العجوز ، وكان يعامله كانه فى صحة تامة ، كان يحكى له عن كل شىء ، عن السوق ، عن الناس ، عن الأعمال ، عن الزواج ، عن زفاف الفتيات ، حتى عن الفتيات اللاتى يتزايد جمالهن سنة بعد سنة وربما كان يرى ذلك لتزايد سنه هو ، واذا كان الأمر هكذا فمن الخسارة اذن أن الوالد لا يراهن ، اذ لو رآهن لبدين له كحور الجنان · وكان العجوز يبدى

علائم الاكفهرار ، ولكن كان يلمح في وجهه دلائل الرضا : لقد مل من تركهم اياه الى هذا الحين بين أحضان المرض واعدادهم من أجل انتقاله الى الآخرة • وهاهو يقول في مرارة ، وربما كان يشير الى البيت المظلم الكبير الذى كان يرقد فيه :

ـ ان الناس يتحدثون أمام الأطفال وأمام الشـــيوخ بالحماقات فحسب • وأما ابني هذا ، الجامح ، فانه يعاملنى معاملة انسان لانسان لحسن الحظ ، لأنه لا يحترمنى •

كان حسن يضحك وينطق بالرد على غراره ، كما لو كان أمامه زميل ورجل في صحة تامة •

ـ منذ متى لا أحترمك ؟

ـ منذ زمن بعيد •

ـ منذ تركت استانبول ورجعت الى هنا ؟ منذ أصبحت متشردا ، أتجر بالماشية ؟ انك ظالم ، ياوالدى • اننى رجل صغير ، ذو عقل عادى ، قليل الكفاءات ، ولن يدرس الاطفال في مدارسهم شيئا عنى •

ـ انك أكثر كفاءة من الآخرين الذين يشغلون المناصب العليا •

ـ ان هذا ليس بالصعب ياوالدى ، فهناك كثير من الحمقى يحتلون المناصب • وأما أنا فماذا أستفيد بالمنصب وماذا يستفيد المنصب بى ؟ اننى هكذا راض • هيا نترك هذا الحديث فاننا لم ننجح فى أن نصل الى شيء فيه • ومن الأفضل أن اسالك في أمر كى تقدم لى النصيحة • ان عملا يربطنى برجل سمح ، متكبر ، بليد ، عديم الشرف ، ساذج ، ينظر الى من عليائه ، وأراه يحتقرنى ، حتى ليكاد يحملنى على أن أقبل نعله ، ولم يكتف باننى اتغاضى عن بلادته وعدم شرفه ، بل يغضب لأننى لا أعلن أنه عاقل وشريف ، وأسوأ من ذلك أنه يعتقد فى قرارة نفسه أنه يتصف بهاتين الصفتين • اننى أرجوك أن تبين لى ماذا أفعل ؟

ـ لم تسألنى عن هذا ؟ ألق به الى الشيطان ، هذا هو مايجب عليك أن تفعل !

ـ لقد ألقيت به الى الشيطان ياوالدى ، آنذاك ، فى استانبول (وضحك حسن) وجئت هنا لكى أصبح تاجر الماشية •

كان احدهما يحب الآخر حبا غريبا ، متهافتا ، ولكنه حب يقوم على الحنان حقا ، كما لو كانا يريدان أن يعوضا الزمن الذى كان يفصل فيه العناد بينهما ٠

كان العجوز يرغب ان يتزوج حسن (وكان حسن يسخر بقوله لا أستطيع أن اتزوج قبلك) وأن يترك عمله كتاجر للماشية ويكف عن اسفاره الطويلة ، كى لا يتركه وحده ، حتى انه كان يستخدم الحيلة أحيانا ، فيزعم انه فى شدة المرض وان لحظة الموت يمكن ان تفاجئه فى اية ساعة ، وسيكون الأمر بالنسبة له أيسر اذا وجد بجانبه وقتئذ من هو من لحمه ودمه ، اذ سوف تخرج روحه دون أن يجد صعوبة ٠ (وكان حسن يجيبه بقوله : من ذا الذى يعرف من السابق) ٠ ولكنه وافق ان يحرم نفسه من تلك الحرية الواسعة التى من شأنها ان تنكمش بوجود الحب ، وذلك دون حماس كبير ، وبخاصة من أجل الأسفار ؛ فالوقت وقت الخريف ، وقت قيامه بالسفر ، فقد تعود على ذلك كما تعود طير اللقلاق ٠ فالسنونو قد رحل ، وعن قريب سيصبح الوز البرى فى اعالى السماء ، شاقا طريقه ، وأما هو فسوف ينظر الى السماء خلف أسرابه ويتخيل ماالأسفاره من لذات عجيبة ، فقد فصله عن ذلك حب آخر جديد٠

وهناك فى البيت حدثت تغييرات هامة ٠ فهذا الخادم الضخم الذى يدعى « فضل » زوج هذه الحوراء الفاتنة المسماه « زينب » والتى كانت تعيش مع الخادم الشاب ـ اصبح بمثابة الراعية المخلصة للعجوز ٠ وقد اتضح أن يديه الضخمتين بامكانهما أن تقوما بحركات بالغة الحنان وبرعاية شديدة الرقة ٠ ومنذ ذلك الحين كان حسن يترك نقوده فى غرفة والده لأنه كان يعرف خادمه وكان يخاف أن ينضب شرف ذلك الخادم ٠

كما قضى حسن على هذه العلاقة الغرامية باجراء حاسم ٠ وكان أن تحطمت الصلابة الظاهرية لهذا الغرام بأيسر مما يستطيع خيال ساحر أن يتصوره ٠ لقد سلم خونة الحب الذين يوجـدون على الدوام قلعتهم الحصينة دون مقاومة ٠

بعد أن تحسنت صحة العجوز بحيث لم يعد الموت قريبا منه عدل عما كان قد قرره من أن يشمل الوقف جميع أمواله ٠ ولكن على الرغم من ذلك كانت حصة الوقف كبيرة، وكان الأمر يتطلب ان يعين الى جانب متولى الوقف شخص يقوم بمساعدته ٠ (وكان قد وافق أحد كتاب القلم بالمحكمة ويتصف بالذكاء والشرف أن يقبل ذلك الجزء المقترح الذى يقدمه

ناظر الوقف عملا بالمثل القائل عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة:
وعندئذ اتضح لى من أخبر حسن بمصيبة هارون) • استدعى حسن الخادم الأصغر الى غرفته وعرض عليه تولى منصب شريف ذا راتب كبير على شريطة الا يأتى الى هذا البيت الا قاصدا اياه لأمر يتطلبه ، وعلى شريطة الا يلتقى بزينب ولو فى مكان ما الا عن طريق الصدفة ، واذا حدث هذا فليمر بها دون أدنى كلام • فان تمت موافقته ووفى بهذا الالتزام فليغتنم فرصة سنحت له ، ولكنه ان وافق وخدع فليذهب على الفور الى أى مكان يشاء •

كان حسن على استعداد لأن يقبل مقاومة الشاب وحزنه ، كان يفكر هل فى امكانه أن يتراجع وأن يترك كل شىء ليستمر كما هو ، اذ كان قد ندم لوضع الشاب أمام هذا الاختبار القاسى • ولكن الشاب وافق على الفور : لقد كان ذكيا وذا كفاءة • وشعر حسن بالغثيان •

وبعدئذ استدعى المرأة لكى يخبرها بالأمر ، ولكن الشاب كان قد بادر باخبارها عن كل شىء بنفسه ، بأنهما باللأسف لا يستطيعان أن يتقابلا بعد ، فانه ذاهب ينشد حظه ، وأما هى فمعها حظها ، ويرجو الا تذكره بشر ، وأما هو فسوف لا يذكر حياته فى هذا البيت الا بخير ، وهاهى ارادة الله قد شاءت ذلك •

لابد من مراقبتنا اياه ، هكذا كان يرى حسن فى غضاضة •

وكانت زينب تقف الى جوار الباب صامتة ، وقد اطل الشحوب من خلال تلك السمرة التى تكسو وجهها ، وارتجفت شفتها السفلى كما هو الشأن لدى الطفل ، وانسدلت يداها فى ضعف على فخذيها الممتلئتين واستتر معظمهما فى ثنايا سروالها •

وهكذا ظلت حتى عندما خرج الشاب من الغرفة • وكذا عندما اقترب منها حسن وأحاط عنقها بعقد من اللؤلؤ كان قد ورثه عن أمه •
ـ « لكى تراعى والدى أكثر » ـ هكذا قال لها ، رافضا أن يعلن أنه يدفع بهذا ثمن حزنها ،وتاركا اياها بزينة طاهرة أمام زوجها •

مر اسبوعان وهى تغدو وتروح فى مسكنها وفى فنائه ، والعقد يزين عنقها ، تتأوه وتنتظر ، تنظر آونة الى السماء وأخرى الى الباب •
ثم توقفت عن التأوه ، وعادت اليها ابتسامتها ثانية • لقد نسيت حزنها أو لعلها عمدت الى اخفائه •

ولكن حزن زوجها قد استمر مدة أطول · ـ ياله من فارغ بدونه ، وأما هو الجاحد فقد نسينا ـ هكذا كان يردد في عتاب بعد فترة طويلة من انتقال الشاب ·

لم يكن حسن راضيا عن نفسه وعنهما ايضا ، وهو الذى فعل كل مافعل ليتم الأمر على هذا النحو ، وكانما كان يود ان يكون على خلاف ذلك ·

هاهو يقول مبتسما :

ـ وهانذا تدخلت لكي أحل العقدة ، فماذا أصبت ؟ لقد حركت أنانية الشاب ، وأسلمت الشابة الى التعاسة ، وجعلتها لا تبالى بشيء ، والقيت على عاتق الزوج زوجة غضوب ، واقنعت نفسي مرة اخرى اننى اسيء التصرف عندما افعل شيئا عن قصد · فليذهب كل شيء ، لا شيء يمكن أن يكون على هذه الصورة المقلوبة سوى العمل الصالح يجيء عن قصد ، وليس هناك من يستطيع أن يبلغ درجة من الحمق كتلك التى يبلغها من يريد أن يفعل شيئا وفق مزاجه فحسب ·

ـ وما الذى لا يرى في صورة مقلوبة ولا يوصف بالحمق اذن ؟

ـ لا أدرى ·

انه رجل غريب ، غريب ولكنه محبوب · انه لم يكن واضحا لى تماما ، بل حتى لنفسه ايضا ، وكان يحاول على الدوام أن يكتشف نفسه ويبحث عن ذاته ، غير أنه لم يكن يفعل ذلك فى شيء من التعب أو الضيق ، الشك الساخر ، ذلك الذى كان ينازعه فى اغلب الأحيان ·

كان يود أن يحكي ، وكان بديعا اذ يحكي ، فجذور كلماته تمتد في أعماق الارض وفروعها تناطح السماء · وقد أصبحت اجد في هذه الكلمات حاجتي ورضاى · لا ادرى ماذا كان يضيئني منها ، وبعض هذه الحكايات آكاد لا أتذكرها ، ولكن بقي شيء من تأثيرها ، شيء غير عادى ، مضيء وبديع : حكايات عن الحياة ، ولكنها أجمل منها ·

ـ اننى ثرثاره لا يمكن علاجه ، أحب الكلمات ، أى الكلمات ، والكلمات عن اى شيء · (هانذا أسجل دون ترتيب ذلك الذى كان يقوله ، ذات ليلة ، عندما كانت القصبة هادئة مطمئنة تحت ستار الظلام) ان الحديث صلة بين الناس ، وربما كانت الصلة الوحيدة · هذا ما أعلمنيه

جندى كبير ، كنت واياه فى الأسر ، ألقينا معا فى زنزانة ، وقيدنا معا بقيد ربط فى حلقة بالجدار ٠

وقد سألنى الجندى :

ـ ألنا رغبة فى الحديث أم الصمت ؟

ـ أيهما أفضل ؟

ـ الأفضل أن نتحدث ٠ فبذلك لا نشعر بصعوبة التعفن فى هذه الزنزانة ٠ وبالتالى سيكون موتنا أيسر ٠

ـ اذن الأمر سواء ٠

ـ سوف ترى أن الأمر ليس سواء ٠ فسوف يخيل الينا اننا نقوم بعمل ما ، أن شيئا يحدث ، وفى هذه الحالة سوف يكون كره احدنا الآخر أقل ، وسوف يكون ما يجب أن يكون ، فذلك أمر قد تخطى حدود قدرتنا٠ لقد التقى جنديان أحدهما عدو للآخر بعد أن ضلا طريقهما فى الغابة ، ماذا يفعلان والى أين يسيران ، أخذ كل منهما يمارس مايعرفه وما يعد مهنته ٠ صوب أحدهما بندقيته نحو الآخر وجرحه ، ثم تناول كل منهما سيفه واخذا يتقاتلان ، واستمر قتالهما حتى ظهر ذلك اليوم الصيفى حيث كسر سيفاهما ، وعندما لم يبق سوى سكين كل منهما قال أحدهما للآخر :

ـ انتظر حتى نستريح ٠ هاقد مضى وقت الظهيرة ٠ ولسنا ذئابا بل أناس ٠ اذهب فاجلس هنا ، وأما أنا فسأجلس هنا ٠ انك محارب ماهر ، لقد أتعبتنى ٠

ـ وأنت بدورك أتعبتنى ٠

ـ اتؤلمك الجروح ؟

ـ نعم ٠

ـ وأنا أيضا ٠ ضع عليها بعضا من التبغ ، لكى توقف الدم ٠

ـ يحسن وضع الطحلب ايضا ٠

ثم جلسا ، وتحدثا عن كل شىء ، عن الأسرة ، عن الأولاد ، عن الحياة الصعبة ، وبدا لهما أن كل شىء يتعلق بأحدهما يشبه مايتعلق

بالآخر ، وهناك اشياء كثيرة كانت هي بعينها · فهم أحدهما الآخر ، واقترب منه ، وأخيرا وقفا وقالا في رضى : هانحن قد تحدثنا كما يتحدث الرجال · وقد نسينا حتى جروحنا · هيا بنا كي ننهي مابدأنا · ثم استل كل منهما سكينه ، وأخمد أنفاس الآخر ·

لقد كان الزميل المقيد معي في حلقة الزنزانة على جانب من المرح ، وقد سرني بهذه الموعظة الساخرة · سرني وشجعني · وربما لو كان غيره مكانه لقال ان الجنديين افترقا في الغابة افتراق الأصدقاء ، ولو قال ذلك لكان هذا كذبا قبيحا ، حتى ولو كان قد حدث حقا · أما على هذا النحو فربما كانت النهاية المؤلمة للقصة أكثر صدقا بسبب ماكنت اخشاه من أن يصورهما بوضع أجمل مما هما عليه في الواقع · وحيث انني لم استطع أن افسر هذا التعليل عقليا حتى لنفسي ، خاصة لأن نهايتها كانت تحمل قوة الصدق ، فقد بقيت في داخلي فكرة تشبه أحلام الطفولة ، الأمل العنيد ، في احتمال تصالحهما · واذا لم يكن قد حدث تصالح بين هذين الجنديين بالذات فلعله قد حدث بين جنديين آخرين ، فقد كاد حتى في هذه القصة أن يحدث التصالح ، وان لم يكن هذا أمرا يعني زميلي الجندي ، فقد كان يحكي كي لا يكون وحيدا · لقد مر بجزء كبير من العالم ، ورأى أشياء كثيرة ، وكان ذا قدرة على أن يحكي في امتاع وحيوية ، وعذوبة وود ، مبددا خوفي من أن يكون وجوده في الزنزانة معي أثقل على من كوني بمفردي فيها · كنت أستيقظ في الليل ، أتسمع تنفسه ، وأسأله :

ـ هل أنت نائم ؟ احك اذا كنت لم تنم ·

ـ ماذا ستفعل عندما ننهي الحكايات ؟

ـ سوف نعيد ماحكيناه ، بترتيب آخر ، بترتيب عكسي ·

ـ وبعد أن ننهيها بهذا الترتيب العكسي ؟

ـ سيدركنا الموت عندئذ ·

ـ راضين ، كذلكما الجنديين ·

ـ راضيين كمجنونين أديا واجبهما ·

وهنا قال دون قصد الى العتاب :

ـ انك مر ·

ـ السـت انت كذلك ؟

ـ لست ، ولم أكون ؟ انظر ، انني ذهبت كي أحارب ، أي وافقت ان اكون جريحا ، أسيرا ، مقتولا · وهاقد حدث أيسر الأمور ، لم أكون مرا ؟

كنت أحس اذا بدأ خرير صوته الهادىء أن الليل قد خفت وطاته وقل فراغه · لقد كان يبنى بيني وبين نفسه جسرا من نسيج العنكبوت ، جسرا من الكلمات ، التي كانت ترف فوقنا ، وتتخذ شكل القوس ، تنبع وتصب ، انه المنبع وأنا المصب · لقد كان هناك شيء خفي ينسج بيننا ، جنون رائع يسمى الحديث ، كان يفعل المعجزة : كتلتان خشبيتان تستلقي احداهما بجانب الأخرى أخذتا على الفور تسرى فيهما الحياة ، ولم تعودا بعد منفصلتين على التمام · وعندما تم تبادل الأسرى ورجعنا الى ديارنا حدث ان افترقنا دون حزن · انه سيجد المستمعين له على الدوام ، وهو بحاجة اليهم ، وبدات أنا الآخر ابحث عنهم · لقد اصبح الناس اقرب الى ، من أجل الكلام · وليس جميعهم بالطبع · فهناك من يصمون آذانهم عند سماع الآخرين ، وهؤلاء يعدون مصيبة بالنسبة لأنفسهم ولغيرهم من الناس · ولكن لابد من المحاولة على الدوام · وسوف تسال : لماذا ؟ وأنا أجيب : لا لشيء ، سوى ان نقلل من الصمم والفراغ · عندما كنت لا أزال في بداية عملي في التجارة سمعت عن امراة تعيش في مدينة « فيشيبجراد » ، وهي أرملة لأحد ملاك الارض هناك · ولم يكن لها سوى ابن ، يبلغ العشرين · وباستطاعتك ان تتصور كم كانت تحبه ، كان ابنا ـ وحيدا ، وفيه كانت تتركز حياتها · وعندما قتل الابن في الحرب أصابها الجنون ، في اول الأمر لم تكن تصدق أنه قتل ، ثم حبست نفسها في الغرفة ، وقصرت طعامها على الخبز الأسود والماء ، وكانت تنام على أرض عريت من الفراش ، وا ضعة كل ليلة على صدرها حجرا ثقيلا اسود · كانت تود ان تموت ، ولم تكن لديها الجراة كي تزهق روحها · ولكن الموت عنادا لها لم يكن يجيء ·

هكذا ظلت تعيش عشرين عاما ، على خبز اسود وماء ، وحجر ثقيل على صدرها ، واصبحت عظاما يكسوه جلده ، اغبرت ، اسودت ، اخشوشنت ، ولو كانت قد علقت كما يعلق اللحم ينضجه الدخان لما كان حالها اشد مما هي عليه الآن ، ولكنها كانت تعيش · ولقد هزني خاصة هذا الحجر الأسود الذي كانت تضعه كل ليلة على صدرها ، واشتد

احساسي اذ ذاك بمدى ماتعانيه من عذاب · انه هو الذى قادني اليها ، ذلك الحجر · كان البيت كبيرا ، ينكون من طبقتين ، وقد استحال لطول العهد لونه ، وبدت خدوش على جداره ، وقد أحاطت به ضيعة واسعة ، كان عجيبا أن ترى مشذبة منسقة ، وفي البيت كانت عجوز واحدة فحسب ، تقوم بخدمة زوجة المالك ، وقد ضعفت هي الأخرى وهرمت م تحدثت قائلة انه لا فائدة من أية محاولة لمساعدة سيدتها ، فهذه هي ضيعة كبيرة وناظرها يتولى شئونها والسيدة لا تريد أن تتحدث معه في أمر الحسابات ، لا تريد أن تقبل النقود ، ولذا يحتفظ بها لنفسه ويعطى الاثنتين مقدار مايسد رمقهما ، والله لا يريد ان يأخذها الى جواره وينهي أمر عذابها · وحين رأيت السيدة كذبت عليها ذاكرا أن أحد أصدقائي ، وقد قتل في الحرب ، حكى لى عن ابنها ، وانني جئت من اجل ذلك كي اراها ، اذ يبدو لى أنني كنت اعرفه أيضا · كذبت ، لأن الكذب كان هو الطريق الوحيد لكي تأخذ معى في الحديث · الحديث عن الابن بطبيعة الأمر · سنوات طوال ظلت صامتة ، سنوات طوال ظلت تنتظر الموت · سنوات طوال ظلت تفكر في الابن ، وهي تسم نفسها بالألم ، والآن استطاعت أن تتحدث عنه · وأنا الذى قمت بتحريكها · نسيت ماقلته في البداية ، فالكذب لا ثبات له بحال ، وكنت أحكي عنه كما لو كنت اعرفه ، وماكان باستطاعتي ان اخطىء ، وما كان باستطاعتها ان تفطن الى أنني كنت صبيا حين قتل ابنها ، ولعلها كانت تظن ايضا ان ابنها كان يصغرنى بكثير لأنه لم يكن يتغير في نظرها · ذكرت لها أنه كان جميلا عاقلا ، وصالحا مكرما للجميع ، وبارا بها ، وبذا كان يتميز بين الآلاف · كنت أصور فكرتها عنه ، وما كان باستطاعتى أن أبالغ · وكانت صفات المدح التى خلعتها عليه في نظر أمه ضعيفة ، غير كافية · وكان حديثها هادئا يصحبه فحيح كما كانت تخرج من فمها الذى اصابه الجفاف مقبلة مدللة ، قد اتخذت زينتها ، وتعطرت بالحب ، وغلفت بقطن رقيق مستوحى من الذكرى الطويلة · لقد كنت بالنسبة لها شخصا جديدا ، تجهله ، وكان ذلك جديرا بأن يجعلها تحكى لى كل شىء عنه ، تعويضا من صمتها العنيد · ولكنها في قرارة نفسها كانت تود أن توضح لى لم كانت حزينة الى هذه الدرجة ، وقد توقفت عن الحـــزن في لحظات من حديثها ، اذ كانت تراه أمامها حيا وعلى صورة مثالية ، وأظن أنها نجحت في ذلك لأول مرة وعلى التمام ؛ اذ أنها وحدها ومع أقربائها كان بامكانها فقط أن تحييه الى درجة تستطيع بها أن ترى ظله ، مدركة أنه في عداد الموتى · والآن قد نسيت أمر الموت ، نحت عن نفسها كل شىء سوى

الزمن البعيد ، ذلك الذى لم تكن تعرف فيه المصائب • كنت اعلم ان ذلك لن يستمر طويلا ، فسوف ترد فكرة الموت ، وكنت أنتظر ان يغشيها سحاب قاتم ، وسوف أدرك هذا بما يصيب وجهها من اغبرار ومهما يكن من شيء فقد تمكنت للحظة أن تحس بالتحرر • ومنذ ذلك الوقت كنت أزورها كلما مررت بهذه الناحية ، خارجا الى السفر أو عائدا منه ، وكانت السيدة تبحث في كل مرة عن صور جديدة في ذكراها ، وأخذت ترجع بصورة الابن الى الوراء مرة بعد مرة لتعود الى أيام حداثته ، وظل الابن على الدوام مثاليا ولم تفارقه الحياة • كانت تدفع به الى الماضى لتفصله عن اللحظة السوداء التى قطعت حياتها ، وكانت تترقب لحظة البعث هذه كما تترقب موعد الحفل ، كما تترقب قدوم العيد ، كانت تنتظرنى الأيام الطوال ، ولأول مرة بعد مرور السنين الطوال كانت الغرفة الكبيرة تدفأ اذا كان الجو باردا ، وكان الطعام يطبخ ذلك الذى لم تكن تأكله ، وكانت الحشايا التى أكلها العث تبسط والملاءات الصفراء فوقها تفرش ، من أجلى ، اذا قبلت أن أبقى بضعة أيام ، لأطيل لها الأعياد • انها لم تغير كثيرا طريقة حياتها ، لقد استمرت تأكل خبز الجودار الأسمر وتشرب الماء فحسب ،كما ظلت تنام على الخشب الذى غطيت به أرض الغرفة ، وعلى صدرها ذلك الحجر الأسود ، غير أن فكرة الموت لم تعد هى الوحيدة التى تكمن بعينيها • لقد نصحتها ووافقت أن تطلب من متولى أمور الضيعة باقى أرباح املاكها ، لكى تبنى للأطفال مدرسة بقريتها ، ولكى تساعدهم بتقديم الطعام والملابس ، اذ لو كان الابن موجودا لفعل هذا دون شك • وكان أن بنت المدرسة وجاءت بالمعلم ، وساعدت الفقراء من الفلاحين لكى لا يذهب أطفالهم الى المدرسة عرايا أو جائعين ، لقد قامت بهذا العمل الصالح كى تخفف من عذابها •

وعندئذ قلت ساخرا من حكاية حسن هذه :

ـ وهكذا ، تم كل شيء على مايرام ، وكلهم كانوا سعداء كما يحكى فى القصص •

لقد خيل الى أن هذه الحكاية بما تحمله من موعظة قد وجهت الى ، لكى تكون بمثابة الأسوة أمام ناظرى : ربما كان ينبغى ان اجمع الاطفال والشباب انا الآخر حولى ، وأن أسير بهم نحو حياة سعيدة • كان لحكايته وقع ساذج ، على خلاف ما آلف من حكاياته ، وعلى خلاف كل ما أعرفه عنه • ولكنه تخرج على يدى الجندى الكبير الذى كان زميلا له فى الزنزانة •

ابتسم ، ولم تكن ابتسامته هكذا ابتسامة المنتصر ، ولكنها مع ذلك لم تعلن عن الهزيمة · واتبع ذلك بقوله :

ـ لا ، لم يتم كل شيء على ما يرام · لقد فرح الفلاحون بمساعدتها المقدمة من أجل أطفالهم ، وراحوا يسكرون ويسكرون أقرباءهم أيضا · وشعرت بذلك نساؤهم أيضا اذ اصبحت أيدي الفلاحين اشد ثقلا واوجع ضربا ، فاخذن ينهلن باللعنات على الأرملة ، كما أخذ الفلاحون يلعنونها أيضا ، اذ كان لابد أن يعفوا أولادهم من السير وراء الأبقار ومن العمل في الحقول · ولم يكن الاطفال يذهبون الى المدرسة الا نادرا ، كما أن المعلم لم يكن من خيرة المعلمين، وبذا كان الاطفال يحصلون قليلا ، وحتى ذلك الذي كانوا يحصلونه كانوا ينسونه بعد سنة أو سنتين ، وكان الجميع في القرية يقولون : أية مدرسة هذه ! تسلخ اردافك بكثرة الجلوس حتى تتعلم شيئا وخلال سنة واحدة تنسى كل شيء · لقد عاشت زوجة صاحب الضيعة عشرين سنة وهي تنتظر الموت ، وماتت في الربيع الثالث لبدء تعارفنا ، وهي تنتظرني متعرضة للفح الرياح الباردة قد حملت حبات البرد ، اذ كنت قد قضيت في سفرى هذه المرة مدة أطول مما عزمت ·

ـ اذن ، لقد انتهى كل شيء على وجه سيء ؟

ـ لا · لماذا ؟ لقد ماتت وهي تنتظر صديق ابنها ، أتفهم ذلك ؟ تملؤها الكلمات الجميلة ، وتتمنى أن تتحدث عن حبها ، ولم تكن تفكر في أمر موتها · أما الفلاحون فقد عادوا الى درجتهم التي كانوا يعيشـون فيها ، دون خمر ودون مساعدة ، لأن الورثة قسموا الضيعة فيما بينهم · وظلت القرية تحفظ الذكرى الجميلة لصنيع زوجة صاحب الضـيعة ، وتسحب كل شيء عداها ليدخل دائرة النسيان · وبقيت القصة : في هذا المنزل كانت تعيش امرأة عجيبة صالحة · حقا ان أحدا لا يستفيد شيئا من هذا ، ولكن يمكن القول انه عمل جميل ·

لقد أثارتني هذه الحكاية التي تشبه الحياة في لذعها وغرابتها ، والتي تشبهها أيضا في صعوبة الاقتناص · كما أثارني ما كان من حسن من قبول ساخر أو رفض هادىء لدوامة الحياة القلقة ، تلك التي يجب على الانسان أن يعيها كي لا يصيبه الجنون ·

ضحكت ، كي أخفت غضبا في الامكان أن يظهر ، وضيقا من أجل هذه الموعظة ، ورحت أقول :

ـ اثبت على ناحية بحق الرحمن الرحيم ، حدد نفسك ، اتخذ لك سندا · انك متردد في جميع أمورك ·

ـ انك على حق ، فأنا فى كثير من الأمور متردد · أيعد هذا أمرا سيئا ؟

ـ لا ، ولا يعد حسنا كذلك ·

ـ يعنى ، ليس حسنا ، وفى الوقت نفسه ليس سيئا كذلك · وأما ثبات الانسان فهو أمر حسن · وهل يمكن أن يكون سيئا كذلك ؟

ـ انني لا أفهم ·

ـ أيوجد شيء تثق فيه تمام الثقة ؟

ـ انني أثق فى وجود الله ·

ـ ولكنك ترى ، ان أولئك الذين لا يؤمنون بالله أيضا واثقون · ولربما كان من الأفضل لو لم يكونوا هكذا واثقين ·

ـ نعم · وماذا بعد ·

ـ لا شيء ·

غير انى ندمت على الفور اذ ألقيت هذا السؤال ، دون ان الاحظ الفخ الذى نصبه لى منطق الحكيم الغادر · كم كانت هذه الفكرة عاقلة وخطيرة فى الوقت نفسه ! ولكنه قادنى اليها متلاعبا ·

انه واسع الاطلاع غزير المعرفة بشأن تردده ·

لم يكن يزعجنى أن كان الأمر هكذا ، اذ لم يعد يزعجنى بعد شيء من ذلك الذى يخصه · لقد أحببته الى درجة جعلتنى ـ وانا اجادله ـ أسلم بصواب ما قال · وكان حبيبا الى قلبى حتى فى تلك اللحظات التى يجانبه فيها الصواب ·

ان يوما واحدا يمر على بدونه كان يبدو لى فارغا وطويلا · كم كنت أنضج فى هدوء تحت ظله ·

كان أبوه ينتظر كل ما يمكن أن يفاجئه دون خوف · وقد أحاطه ذلك الحب الذى دبت فيه الحياة ·

لقد كنت أنا وأبوه أشد رجلين فى العالم احتياجا اليه ·

ولذا حزنت عندما علمت أنه ينوى القيام بالسفر ·

ذهبت الى بيته ، اذ لم أره يوما باكمله • فوجدته يلعب بالنرد مع أبيه ، جالسا الى جانب فراشه •

كان العجوز يلقى الزهر فى غضب بين المثلثات السوداء والبيضاء قائلا :

ـ (أخص) لعنة الله عليـك ، بم أتيت ! يا فضـل ، ان الحظ لا يحالفنى (هكذا كان يشكو للخادم)

ـ هل نفثت فى الزهر يا أغا ؟

نفثت ، وليست هناك فائدة • هل زينب هنا ؟ لكى تضع الزهر قليلا بين ثدييها •

ـ يا لعيب ما قلت ، يا أبى !

ـ ماذا يمكن أن يكون عيبا منى بعد ؟ أيكون عيبا يا فضـل ؟

ـ لا ، يا أغا ، معاذ الله •

ـ يا أبى ، من الأفضل أن تمسحه بكم الدرويش •

ـ حقا ؟ الا تكون غاضبا يا أحمد أفندى ؟ والله ان هذا يفيد •

وهنا ابتسم لى حسن قائلا :

ـ اننى سعيد بمجيئك •

ـ ما رأيتك منذ البارحة •

وهنا قال العجوز فى غضب :

ـ ارجئا الحديث حتى أكسب • الآن بدأ الحظ يبسم لى •

ـ لقد تحسنت صحة والدى •

ـ أتريد أن تقول اننى أصبحت قوة جامحة ؟

وحقا لقد كسب ، وكان يرى متعبا ، كما كان يبدو صافيا لفرط سروره • كان أشبه شيء بالطفل ، أشبه شيء بحسن •

ـ سأسافر الى دوبروفنيك •

هكذا أخبرنى حسن ، وهو ينظر الى والده مبتسـما ، كما لو كان الوالد هو السبب فى ذلك •

ـ لماذا تسافر ؟

ـ من أجل التجارة · وسوف يسافر أصدقائى أيضا ، سنذهب معـــا ·

ـ ستذهب المرأة اللاتينية وسيذهب هو ايضا · وأما مسالة التجارة فقد ابتدعها ·

ـ لم أبتدعها ·

ـ ابتدعتها · لو كان سفرك من أجل التجارة لأفلحت فى اقناعك بالعدول عنه ، أما من أجلها هى فلا أستطيع ، انها أهم ·

ـ لقد توهم والدى امورا كثيرة ·

ـ أصحيح هذا ؟ اننى اذا كنت قد كبرت فليس معنى هذا أننى نسيت كل شىء وأما أن هناك اشياء لا أستطيع أن اعقلها فهذا أمر آخر ·

ـ أيوجد شىء لا تستطيع أن تعقله ؟

ـ نعم ·

كان العجوز يوجه حديثه الى ، كما لو كان غاضبا من حسن ·

ـ نعم ، لا أستطيع أن اعقل أن يكون سفره مع زوجة وزوجها · أن يسافر الثلاثة معا · من المجنون الآن ؟ ابنى أم ذلك الرجل (اللاتينى)

ضحك حســـــن دون أن يبدو عليه أنه أحس ولو بذرة من الاهانة وقـــال :

ـ أم كلاهما · يبدو أنك لا تعترف بالصداقة ؟

ـ الصداقة ؟ مع النساء ؟ يابنى ، فيم انفقت السنوات الثلاثين التى مرت من عمرك ! ان الصداقة مع النساء لا يعقدها الا الرجل الشاذ الذى يميل الى جنسه ·

تدخلت فى هذا الحديث المزعج ، الذى كان حسن يتلقاه بالضحك ، حيث قلت :

ـ لعله صديق للزوج ·

ـ عليك يا أحمد افندى لا ينبغى القاء اللوم ، فأنت رجل لا تستطيع

أن تدرك مثل هذه الأمور · ان الزوج عندهم يستقبل أصدقاء زوجته ، وأما الزوجة فلا تستقبل أصدقاء زوجها أبدا ·

ـ كفى يا والدى سوف يصيبك الربو ·

ـ لسوء حظك لن يصيبنى الربو ، فالجو اليوم صحو ، والهواء عليل ، ودون جدوى تحاول ان تخوفنى · كنت أقول له اذا كنت لا تهتم بها فلا تجعل وقتك يذهب سدى ، واذا كانت لا تريدك فابحث عن أخرى، واذا كنت تحبها وكانت تحبك فاغتصبها ·

ـ لدى والدى كل شىء بسيط للغاية ·

ـ وأما لماذا يذهب ، وماذا يبغى بذهابه معهما ، فليتول الشيطان فهمه · غير أنه مما لا شك فيه أنه سوف يأخذ معه الخدم المسلحين ، لكى لا يهاجم قطاع الطرق رفقاءه فى السفر · ولكن أليس من الممكن أن يكون هو أيضا عرضة لهجومهم ؟ ان لدينا كل شىء بسيط ! ولديكم أبسط مما لدينا أيها الابن المتخبط : فكل شىء لديكم غير معقول ·

ـ أى صدق فيما قلته الآن يا والدى ! من أزمان بعيدة كان الأبناء أشد عنادا من الآباء ، ولو ظل الأمر كذلك لزال الفهم هكذا تماما ، ولكن لحسن الحظ أن الأبناء يصبحون عقلاء فور تحولهم الى آباء ·

ـ متى تصبح عاقلا ؟

ـ من الصعوبة أن يفهم الآباء أبناءهم يا والدى ·

ـ لا تسخر ، أعرف ذلك · كم تبقى فى السفر ؟

ـ خمسة عشر يوما ·

ـ لماذا هذه المدة ، يابنى الأسود ؟ أتعرف كم تكون مدة الخمسة عشر يوما ؟

ـ ربما أمكث أكثر من ذلك ·

ـ حسنا ، اذهب · اذا كان الأمر بالنسبة لك سواء فانه سواء بالنسبة لى أيضا · وربما عدت بعد خمسة عشر يوما لتزورنى فى قبرى · وعلى كل فاذهب ·

ـ لقد قلت ان حالتك الآن أحسن من ذى قبل ·

ـ فى سن مثل سنى يقف الوضعان « أحسن » و « أسوأ » أحدهما ازاء الآخر ويأخذن فى التعاقب كما يتعاقب الليل والنهار • والشمعة ـ كما تعلم ـ يتحسن حالها عندما توشك على الفناء •

ـ هل تريد اذن أن أبقى ؟

ـ ان تبقى ؟ أولا انت تكذب وثانيا لو فرض أنك بقيت لعانت روحى كثيرا بسبب ذلك • لا داعى للمناقشة فقد فات الأوان • قم فاذهب • ولا تمكث أكثر من هذه المده •خمسة عشر يوما بالنسبة لى تعد كثيرا ، وبالنسبة لك تعد كافية • اصطحب معك عددا من الحراس ، فأنا الذى سادفع • وسوف يكون الأمر أيسر لى عندما أعرف أنك آمن •

ـ ان الشيخ احمد سوف يزورك مرارا فى أثناء سفرى •

ـ ان أجمل هدية جاءتك من قبل الله هى هذا الرجل الصـــالح الفطن • ولكن لا بأس من أن يستريح قليلا منك ، ولذا سوف لا نتحدث بكلمة عنك طوال هذه الأيام الخمسة عشر •

وفى الحق لقد تحدثنا عنه فى جميع أيام هذه المدة •

لقد عاد سفره بالضرر علينا نحن الاثنين • وقد عوضنا هذا الضرر بجعل اسمه ينوب عن شخصه • وكان الأمر بالنســـبة للعجوز أصعب مما كان بالنسبة لى ، اذ كان الأسى ينتابه فى كل يوم لا يجد فيه هذا الابن الذى اكتسبه من جديد ، والذى كان بوجوده يباعد بينه وبين فكرة الموت التى تراوده من حين الى حين • لقد كانت مضايقات الوالد بكثرة ما يطلبه من الابن حبا محكم التضـــافر شديد العنف ، كما كانت فى الوقت نفسه صرفا له عن مواجهة الظل القريب • فقد كان الطائر الأسود يحلق فوقه • وهو الآن يعرفه ، ويخاف منه • أكان من الأفضل بالنسبة له أن لو ظل بدون الحب ؟

لقد كنت حزينا انا الآخر من أجل سفره ، فقد جعلنى اعتاد رؤيته ، والآن بالذات كنت فى حاجة اليه •

كانت حياتى هنا تنقسم قسمين ، قسم يضم الماضى ، وقسم لا أعرف ما يكون فيه • كنت انتظر فى كمين ، كما يفعل الصياد ، مترقبا وصبورا، ولكن لم أكن على ثقة من أنه لا يوجد هناك كمين ينتظرنى ، ومن أننى لن أقع أنا الآخر فى الشباك • لو كان الصديق بجانبى لهـــدأ وجوده تلك القشعريرة التى تنتابنى من أجل خطوة غير مسموعة يرسلها الى القدر لقد

كان هناك فزع يتملكني من أجل احساسي بالقتامة وبالسرية ازاء كل شيء لا أراه ، هذه السرية التي سوف تتكشف لي ، ولكن كان يراودني أيضا في الوقت نفسه اغتباط هادىء من أجل حدوث ما ،نتظر ، فقد وقع الاختيار على أن أكون منفذا لارادة أقوى من ارادتي • غير اني لست سلاحا وحسب ، ولا يدا تابعة لغيري ، كما ،نني لست قطعة حجر أو خشب ، بل انسان أنا ، واخاف احيانا أن تكون نفسي أضعف من رغبتي ، أو أن تمزقني الكراهية المشبعة ، كما تمزق البذرة الناضجة غشاءها الذي تم نماؤها فيه •

انني أستطيع مع حسن أن انتظر في هدوء كما استطيع معه أن انضج في أناة حتى أصل ،لى لحظة فيها يرفرف العلم الأخضر (١) فوق القصبة بدلا من أن يوضع فوقي جوخ الموتى •

كنا ننتظر أن يعود من السفر ذلك الرجل الوحيد الذي كنا نهتم به • لم يكن بامكان العجوز أن يخفي اضطرابه ، فقد بدأ يصيبه بشيء من الشتائم كما لو كانت السيطرة القديمة الخشنة لم تضعف بعد ، ولكن عاطفة الحنو والشفقة التي كان يحاول على الدوام اخفاءها كانت لا تلبث أن تتحول بعد قليل الى تحسر لم يستطع مقاومته •

ـ ليذهب الشيطان به وبتلك المرأة اللاتينية • لقد أصبحت أولى به وأحق من والده الذي أنجبه • ولو انها كانت على شيء لالتمسنا له بعض العذر • ان جراما واحدا من اللحم لا يكسو عظامها • ولكن ليكن له ما شاء ،فلتسحبه بعينيها الزيتيتين ، ولتتنقل به في أنحاء العالم الرحب مادام قد جن • خمسة عشر يوما ياولدي التعيس !! من الممكن أن تهطل الأمطار وان يقسو البرد وأن يهجم قطاع الطرق • لا شيء يجدي من التحدث الى المجنون • اجلس انت ، يا والدي ، هنا في ركنك ، مستندا كالشبك (٢) ، وانتظر • سر كالمصعوق عندما يفتح الباب ، وعندما يسرع أحد على غير العادة في الصعود على السلم ، انهض مذعورا من نومك بسبب ما رأيت في حلمك القصير من صور سوداء وتكهنات شريرة • سنة من عمري سوف ينتزعها اذا نجوت من الموت الآن • لقد وعد أنه لن يرحل الى أي مكان ، وعد ولم يف • أنجب الولد لعذابك فقط ، كي تكون حياتك اصعب • آه ، غفرانك ربي ، بم أنا أثرثر •

---

(١) علم يخص المسلمين ويرفع في الاعياد الدينية والمناسبات الرسمية •

(٢) انبوبة طويلة من خشب في نهايتها مكان لوضع التبغ •

كان الفضل يقترح على العجوز أن يأتيه ببعض الأصدقاء ليلعبوا معه النرد أو ليتبادلوا الحديث ، كما كان يريد أن يخرج بالمهر في الفناء ويأتي به أسفل النافذة بغية أن يتسلى برؤيته ، وكان يسأل أن يذهب الى الجبل ليحضر له قدرا من مياه العين ، تلك التي من شأنها أن تنقي الدم وتقويه ، ولكن العجوز رفض كل شيء وطلب فقط أن يضعوا له عددا من الوسائد على الأريكة من ناحية النافذة ، وأخذ يحدق بعد ذلك الى الباب الخارجي للبيت ، كما لو كان في الامكان أن يبكر حسن بالحضور ، أو كما لو كان هذا الوضع يسهل عليه تخيل عودته ٠

كيف قضى هذه السنين الطويلة بمعزل عن ابنه ؟ ـ هكذا كنت افكر وقد فوجئت بهذا الحب وهـذا الحزن من أجل الفراق ٠ وكان يتردد على ذاكرتي ما ورد على لسان حسن من تفسير عجيب لهذا الحب ، وذلك أن مخاصمتهما العنيدة كانت هي المبرر له ، واليها يرجع كونه على هذه الصورة ٠ لو ظل هذا الحب على الدوام منذ البداية الى النهاية لاصابه التعب ولنسل ريشه ٠ ولو لم تكن توجد الرغبة في احيانـه لجف وانقطع ٠ لم يكن يزعجني هـذا الحب في البداية ، كنت أحس بفتور ازاءه ، ولعلني كنت أشـعر بنفور منه ٠ وكنت اقول في نفسي بغضب ، ماذا تريد أيها العجوز ؟ أيجب على العالم أجمع أن يرى حبك هذا ؟ وهل من الصعب على الانسان أن يظهر حبه بمثل ما تظهره انت ؟ انه لأيسر على الانسان أن يتأوه وان يبكي من أن يعاني ما يعاني في صمت ٠ وما هو حبك ؟ انه رقة العجوز ، خوف يراود الانسان قبيل الموت ، رغبة لامتداد الحياة ، أنانية تتشبث بقوة الآخرين ، سلطان دم الأبوة ٠ ولماذا ؟ لأجل التلذذ بظلم بسيط والقبض على يد الابن في محاولة يائسة ، عندما افلت وولى كل شيء ٠

غير أنني بهذا الهجوم وبهذا التقليل من شـأن ذلك الحب كنت ادافع عن نفسي دون جدوى ٠ فقد كان هذا الحب يهزمني ٠ وكنت افاجيء نفسي في أثناء تفكيري عن والدي وأحاول أن أقربه مني ، وأرى هل في الامكان أن أنتظر في سرور كلمته ، أن تتملكني هزة من أجل مرضه ، أن أتنازل من أجله عن كل ما أوده وتشتهيه نفسي ؟ والدي ـ بهذا النداء كنت أحس مندمجا في هذا الحب ، مستخلصا كل عذاب الحياة من نفسي كي أثير بالاشفاق حاجتي الماسة اليه ـ والدي ، أبي ٠ ولكني لم أستطع أن أجد كلمة أخرى ، فالانعطاف الشـديد لم يكن بيننا ٠ وربما أصبت بضرر من جل هذا : غير أن ذلك الارتباط الذي

يكون بين شخص وآخر يعد ضرورة فطرية في طبيعة الانسان · وربما قبلت صداقة حسن بهذا النحو من الظمأ كي أترضى تلك الضرورة الانسانية ، التي تعد أقوى من العقل ·

لقد تلقاني العجوز في بداية ترددي الى البيت بشيء من الارتياب · وكان يحاول ان يتحدث في بعض الأمور العابرة ، ولكن كلمات الاطناب التي يأتي بها كانت تخنقه ، وما كان باستطاعته أن يفلح في الكذب · تعجبت كم كان حسن يشبهه ، غير أنه كان مهذبا متأنقا على جانب من اللين والرقة ·

قال يحدثني :

ـ عجيب أنت أيها الرجل ، تتحدث قليلا ، فتخفي بذلك نفسك ·

فأسرعت أوضح له أن ذلك ربما يرجع الى طبيعتي الخاصة ، التي اكدتها بحياتي وفق ما يتطلبه نظام طريقتنا · وأما اذا كنت أبدو غريبا فذلك مرجعه دون شك الى جميع ما حدث لي ·

ـ انك تتخفى وراء الكلمات · ولا أستطيع أن أرى ما في داخلك · ها قد لحقتك المصيبة ، لقد ذبحوك اسوأ ما يكون الذبح ، ولم أسمع منك شيئا من اللعن أو الحزن ، وكثيرا ما كنت تتحدث عن الأخ ·

ـ ان ما حـدث لي يبلغ من الصعوبة حدا لا أملك ازاءه قدرة كي أتحدث عنه · انني أستطيع أن أقوله فقط لمن يكون بمثابة الأخ ·

ـ هل وجدت من يكون بمثابته ؟

ـ نعم وجدت ·

ـ لا تؤاخذني ، انني لا أسأل من أجلي ·

ـ أعرف · فكلانا قد ارتبط به ، وكان ارتباطك أكثر بمقتضى قرابة الدم والأبوة · وأما ارتباطي فكان أساسه الصداقة وهي أقوى من كل شيء يمكن للانسان أن يحسه دون أن يستشعر ذنبا ·

ولو كنت في حاجة الى أن أخدعه لخدعته ، وبسهولة ، لأن اسم الابن كان يخدر مكره وحذره الناتج عن طول تجاربه · ولكن الأمر لم يكن يتطلب ذلك ، اذ كنت حقا أعتقد هكذا بشأن ارتباطي به · وأما انني كنت أتحدث في مهابة فقد كان ذلك مراعاة للعجوز ، كي يكون وقعه لديه أجمل ، وكي اهدىء خوفه من الرجال الذين يتسترون ·

لقد كان من أجل الابن يحاول أن يتكشف امرى ، ومن أجله كان يتقبل مجيئى اليه والتقائى به • وكان المكر والثقة ينموان ويترعرعان من جذور واحدة •

وقد اتاح لنا غياب حسن أن ناخذ فى نسج قصة عنه • تبدأ بقولنا : كان هناك امير ••

وللعجب كان حسن بنفسه يتحدث فى اغلب الأحيان عن هزائمه ، دون ما أثر لحزن ، بل كان يرى ضاحكا • ولكن هذه الهزائم بمقتضى ما يعكسه التفكير المتناقض الذى كان يفطن اليه جيدا ، لم تكن تبدو شـديدة ومقنعة • وربما كانت بسـحر صدقه المتهلل تتحول الى انتصارات لا يريد التحدث عنها ، ولا يهتم بأمرها كثيرا •

وحاولت بعد ذلك أن أفصل القصة عن الواقع ، ولكن على الرغم مما كنت أبلغ من معرفة الحقيقة فقد كنت أعانى صعوبة فى أن أحرر نفسى من السحر ، ذلك الذى كثيرا ما نتورط فيه ، راغبين أن نحصل على بطل لأنفسنا نتعلق به ونتخذه قدوة •

وبحسب ذلك الجزء الذى لا أثر فيه للخرافة ، كان يبدو أن شيئا غير عادى لم يكن يتميز به الرجل • فبعد أن اصطلى فى المدرسة بنار الحماس الدينى ، وبعد أن تعلم فى شبابه فلسـفة ابن سـينا الطبيعية والنقدية عند أحد المفكرين الفقراء الأحرار ، ممن كان يكثر أمثالهم فى الشرق ، وكان يذكره كثيرا بالمودة والسخرية ـ دخل الحياة بحمل يحمله كثير منا : جعل الرجال الكبار مثلا أمام الأعين والحرص على اتباعهم ، واغفال هؤلاء الرجال البسطاء الذين سوف لا نلتقى الا بهم • ويتفـاوت تحرر النـاس من هؤلاء الكبار غير اللائقين : فبعضهم يتحررون بسرعة ، وآخـرون يتحررون فى بطء ويوجـد هنـاك من لا يتحررون • وها هو حسن لم يكن باستطاعته أن يتأقلم عندما كان باستانبول، فهو شخص شديد التعلق بكل عاداته وتقاليده ، شديد المراعاة لكل ما يتعلق بأمر وطنه ، شـخص يعتقـد أن القيم الانسانية سوف تجد اعترافا بها فى كل مكان • وعندما وجد نفسه فى عاصمة غنية ـ من شانها أن ترى العلاقات والارتباطات فيها بين الناس معقدة ، قاسية بالضرورة كقسـوة العلاقات بين أسـماك القرش فى بحر بعيد الغور ، كاذبة الحسن ، منافقة التهذيب ، متشابكة كخيوط العنكبوت وما ينصبه من شرك ـ تشابك الشرف الساذج فى رقصة حقيقية من

رقصات الشياطين . وبهذه المخلفات التي كان يرتديها ، والتي كان يحاول أن يشق بها طريقه في حشود استانبول ، وبايمانه الساذج في الشرف حيث بدا أشبه بالرجل الأعزل الذي يدخل المعركة ضد القراصنة الماهرين الذين تسلحوا بأخطر سلاح ، وبصحوه الذي لا يحمل الشر ، وشرفه وعلمه المكتسب ، دخل حسن في حلقة الوحوش هذه بخطى الغافل الثابتة . ولكن حيث أنه لم يكن بليدا فقد أحس في سرعة على أية جذوة يضع قدمه . وكان في امكانه اما أن يوافق على كل شيء ، واما أن يبقى دون أن يحس به أحد ، واما أن يعود . ولكنه ، شاذا عن الآخرين كعادته ، ورافضا تلك القسوة الاستامبولية ، أخذ يفكر في قصبته أكثر مما كان يفكر ، ويضع العيش الهادىء في تلك القصبة في مقابلة العيش العاصف في هذه المدينة . كان الناس يسخرون منه ، وكانوا يتحدثون عن تلك الولاية النائية المتخلفة ، وكان يسألهم في عجب : فيم تتحدثون ؟ على مسافة لا تبلغ ساعة من السير على الأقدام توجد ولاية بلغت من التخلف درجة يصعب على الانسان تصورها . هنا ، بجانبكم ، غير بعيد من هذا الرواء البيزنطي ، وهذا الثراء الذي يزحف من أطراف الامبراطورية ، يعيش اخوانكم أنتم عيش الفقراء والمساكين . أما نحن فلسنا في رعاية أحد ، نعيش دائما على تخوم تتصارع القوى حولها . وعلى الدوام نكون ميراثا لأحد . هل من العجيب اذن أن نكون فقراء ؟ قرون طويلة مرت ونحن نبحث عن أنفسنا ونحاول التعرف على كياننا ، وعن قريب لن نستطيع أن نعرف حتى من نحن ، وقد بدأنا أن ننسى حتى أننا نريد شيئا ، والآخرون يمنحوننا الشرف بالسير تحت اعلامهم لأننا لا نملك علما لنا ، يجتذبوننا عندما يشعرون بالحاجة الينا ويلفظوننا بعد أن نقوم بخدماتهم ، أتعس ولاية في العالم ، أتعس أناس في العالم ، نفقد وجهنا ولا نستطيع أن نقبل وجه الآخرين، مبعدين لا يقبلنا أحد ، غرباء بالنسبة للجميع ، حتى لأولئك الذين كانوا منا ، وحتى لأولئك الذين لا يقبلون أن نكون من ذويهم . نعيش في مفترق تخوم الأوطان ، في مفترق تخوم الشعوب ، اننا هدف للجميع، ودائما تلحقنا التهمة من أحد . وعلينا تتكسر أمواج التاريخ ، كاننا صخور . لقد أضجرتنا قوة الآخرين ، ومن المصيبة خلقنا الفضيلة : أصبحنا كرماء بدافع العناد ، وأصبحتم قساة بطغيان الترف . من المتخلف اذن ؟

كان بعضهم يكرهونه ، وبعضهم يحتقرونه ، وآخرون يبتعدون عنه • وكان ازاء ذلك يزداد شعورا بوحدته وحنينا الى وطنه • وذات يوم ضرب مواطنا له كان يلقي في أثناء حديثه بفكاهـــات لاذاعة عن البوسنويين ، ثم خرج الى الشارع ينتابه الحزن والخجل ، بسبب ما كان منه وما كان من مواطنه • واذ ذاك ســـمع صوت المرأة الدوبرفنيكيه وزوجها ، وهما بجانب أحد الدكاكين ، يتحدثان بلغته • وبدا له في هذه اللحظة أنه لا توجد لغة انسانية أجمل منها ، ولا يوجد أحب اليه من تلك المرأة الرشيقة ذات المظهر السامي وذلك التاجر البدين الذى ينتمي الى دوبرفنيك •

ومرت شهور عديدة لم يكن حسن يعمل خلالها شيئا ، واصبح مهدود القوى مفكك الأوصال بتاثير البطالة وتسكعه بدون جدوى في مدينة كبيرة كهذه ، وكان الوالد يرسل اليه النقود في سخاء ، مزهوا بهذه الوظيفة الســلطانية التي يشـــغلها ابنه • وبينما كان التاجر الدوبروفينيكى ينهى أعماله ، كان حســـــن يصحب زوجته الى أجمل الأماكن في استانبول ، وكان يسمع أجمل لغة من اجمل شفتين ، ناسيا أتراحه المضحكة ، ويبدو أن المرأة أيضا لم تكن تحاول الابتعاد والهرب منه • وفي الحق ان أكثر ما كان يجذب اهتمام السيدة الدوبرفينيكية الرقيقة التي نشأت في مدارس « الاخوة الصغار » ، الى هذا الشاب البوسنوى ، لم يكن مرجعه الى ذلك الجمال الذى اتصف به أو الى ما أصاب من تهذيب وثقافة ، بل كان يرجع فوق هــذا كله الى كونه بوسنويا • لقد كانت تتصور أن أهالى هذه الولايات النائية يتصفون بالخشونة والحمق ، وفراغ العقول وحدة الطبع ، وأنهم يمتلكون شجاعة لا تنال كثيرا من التقدير عند أهل الاتزان بل قد لا تصادف شيئا من التقدير عندهم ، كما أنهم يتميزون بنوع من الفخر المضحك من أجل خدمتهم الأمينة لمن لا يعد في منزلة الصــديق أو الحليف • وأما هــذا الشاب فليس خشنا ولا فارغ العقل ولا جاهلا ، بل انه يعلو بتصرفاته الى الدرجة التي عليها أبناء النبلاء في دوبروفنيك ، فهو شيق الحديث ، مفيد الصحبة ، والى جانب ذلك هو معجب بها (وهذا هو ما رفع قيمة صفاته جميعا) وعف اللسان الى درجة كانت تجعلها تنظر مرتابة في مرآتها كلما عادت الى البيت • لم تكن تفكر في الحب ، ولكنها كانت قد تعودت أن تتلقى عبارات الغزل والاطراء • وكانت تنتظر منه هذه العبارات في اضطراب وقلق ، وعندما أحجمت عن الصــدور تملكتهـــا

الدهشة واخذت تحدق فيه باهتمام بالغ . وما كان يتسنى لحسن وهو الشاب العف الذى لا يزال فى مقتبل العمر أن تجرى على لسانه كلمة سهلة لا تلزمه ولا تلزمها بشىء . ولم يكن حسن هو الآخر يفكر فى الحب ، فقد كان يكتفى بتهلله واغتباطه من أجل هذا اللقاء . ولكن الحب كان يفكر فيه : فقد تورط فى الحب بعد قليل . وعندما كشف ذلك فى نفسه اخفاه عنها محاولا تجنب اظهاره ولو بنظرة . غير ان المرأة أدركت ذلك على الفور ، اثر ظهور الوهج الشديد فى عينيه (وقد اضطرت للاعتراف اذ ذاك بأنهما جميلتان) وبدأت تشد عرى الصداقة كى تحمى نفسها ، متصرفة تصرف الأخت دون ما أدنى حرج . وبمرور الوقت كان حسن يزداد اغراقا فى الحب ، فآونة يخترق لجه ، وأخرى يطفو فوق أمواجه ، وليس فى ذلك ما يدعو الى العجب . فقد كانت جميلة (أقول هذا عرضا لأن هذا ليس مهما فى الحب) ، وكانت على درجة من اللطف بالغة الرقة ، وهذا هو المهم بالنسبة للحب ، كما كانت أول مخلوق فى العالم أبعد عنه اضطرابه المحتدم واقنعه ان هناك أمورا لا يمكن للرجل الشاب ان يغفلها دون ان يصاب بضرر .

لقد قام بدور المساعدة لهذا الدوبرفينيكى لدى أحد البوسنويين ، هو ابن سنان الدين الصائغ ، حتى يتسنى له فى أسرع وقت ممكن انهاء عمله الذى أتى من أجله ، وهو الحصول على تصريح بالتجارة مع البوسنة والتمتع بنظام التفضيلية . بهذا استمال عاطفته وكسب وده ، لكنه فى الوقت نفسه قصر زمن اقامتهما ، لقد كان سعيدا بما ناله من ثقة الرجل ، تلك الثقة التى بدت كما لو كان ذنب الحب قد غفر بها ، وكان تعيسا من أجل الفراق القريب الذى لو حدث لتركه يعانى مللا أشد من ذلك الذى عاناه من قبل . ولكن أكان الرجل الدوبرفنيكى يشعر بالثقة نحوه ، أم انه كان يقيده بها لأنه ذو علم بالناس ، أم انه كان يثق بزوجته الى هذه الدرجة ، أم أنه كان لا يملك خيالا يذهب به هنا وهناك ويصور له بعض التصورات ، أم ان الأمر كان بالنسبة له سواء ، من الصعب الاجابة عن ذلك . غير أنه من الممكن أن نقول ان هذا الرجل لم يكن متهما فى هذا الحب المضحك . أقول : المضحك ، وأقول : الحب ، لأن الأمر حقا كان هكذا . وبدافع من الخوف أو من التشجع بالنسبة لهذا السفر القريب صرح حسن لماريا (وهذا الاسم أصله مريم) بأنه يحبها .

ولست أدرى أكان من أجل ما ارتسم على وجهها من شحوب ، وان لم تكن قد سمعت سوى ما كانت تعرفه ، أم بدافع من السذاجة ذلك الذى قاله حسن مما ليس فى استطاعة الحكيم المجرب حتى أن يفكر فى قوله ، من أنه حزين من أجل زوجها ، لأنه صديق له ، ولعل الأمر يجرحها كذلك ، لأنها امرأة شريفة ، ولكنه كان مضطرا لأن يعترف لها بذلك ، ولا يدرى ماذا سيصيبه بعد ذهابها · وهكذا كانت المرأة بدورها مضطرة الى أن تجعل من زوجها وشرفها وقاية لها ، وان ترده الى المكان الآمن ، مكان الصديق لهذه العائلة · ويا للعجب ، لكأنما كانت سذاجة حسن هذه قد أطاحت بشدتها وصرامتها : فقد بدأ أنها أحبته عندئذ · ولكن الأمانه لمبادىء الكاثوليكية التى كانت ترعاها هذه المرأة بحكم نشأتها فى رعاية الآباء القديسين ، وخوفها الصادق من الذنب ، قد دفنا هذا الحب فى مسارب أعماق قلبها ، وأمليا عليه الا يجبرها على اظهاره ، وكان أن شملته سعادة غامرة ، اذ ادرك أنه حظى بحبها · وبعد أن قص عليها كل أموره ودخائله ، كاشفا لها حتى ذلك الذى لم يكشفه لأحد ، اقترحت عليه أن يذهب معهما فى الباخرة سالكا طريق دوبرفنيك فى اتجاهه الى البوسنه ، اذ أن شيئا لم يعد يربطه باستانبول · لقد ارادت أن تثبت لنفسها وله أيضا أنها لا تخاف من نفسها ولا منه · وقالت : — وأوضحت له ذلك لأنه لم يكن يعرف الفرنسية ـ طريق اطول قليلا ، يسلكه الطلاب عند عودتهم الى ديارهم بعد انتهاء عامهم الدراسى ، ولكنه أكثر أمانا · وكانت تدافع عن فكرتها بالفرنسية كذلك ، اذ كانت تشعر أنها تثير حماسه بمعرفتها تلك اللغة العجيبة ، التى خلقت للنساء · وفاتها أنها لو كانت تتحدث حتى باللغة الغجرية لأثارت أيضا حماسه · كما فاتها أن دفاعها كان ضعيفا بسبب ما كانت تثيره فى الرجل من حماس · وفى الباخرة كان التقاؤهما أقل كثيرا مما كان يأمل حسن ، فالتاجر كان يتحمل البحر الصاخب الهادر فى صعوبة ، وقد قضى مدة السفر تقريبا فى فراشه يتعذب ويتقايأ · ورأى حسن تلك الحالة التى كان عليها الرجل ، وأحس برائحة كريهة يلزم من أجلها تهوية القمرة ساعات عدة لتصبح من جديد ، فى لحظة ، بعد الغسل والتهوية ، على ما كانت عليه من القذارة والعفن ، وأما الرجل المسكين فقد كانت الصفرة والزرقة تتناوبان وجهه كما لو كان يحتضر · ـ وربما يدركه الموت ، هكذا كان يفكر حسن فى خوف ، وأمل أيضا ، ثم يعاوده النوم بسبب قسوته هذه · وكانت ماريا ، بنوع من فهمها السىء للتضحية والصبر ، تقضى مع الزوج أغلب الوقت ،

وتقوم بتنظيف القمرة وتهويتهـا ، وتهدىء زوجها ، وتقبض بيد على رسغه وتضع الأخرى على جبهته عندما كان يتقلص من شـــدة التقيؤ الأمر الذى لا يقلل من عذابه والذى لا يجعل تلك الصورة المقززة لتزيد من حبها اياه • وحينما كان النوم يغلبه كانت تصعد الى ظهر السفينه ، حيث يكون حسن بانتظارها فاقد الصبر ، ليرى صورتها الرشــيقة تناسقت أجزاؤها ، وكان يعد الدقائق فى خوف من أن يناديها واجبها فتهبط الى القمرة المنتنة ، ولا تملك ـ متأثرة بضحيتها ـ سوى أن تفكر فى نسيم البحر وفى الصوت الرقيق الذى كان يتحدث عن الحب • لم يكن حديثها يدور عن حبهما بل كان يتناول حب الآخرين ، والأمر فى ذلك سواء • انها كانت تترنم بأبيات الحب الأوربية ، وكان هو يترنم بالأبيات الشرقية ، والأمر أيضا سواء • وفى الحق انهما لم يكونا قط أشد احتياجا الى كلمات الآخرين مما هما الآن ، وكذا الأمر هنا سواء ، فقد بدا كانهما ينطقان بأقوالهما • وكما كانا يحتجبان من الريح خلف مركز قيادة الباخرة أو خلف الصناديق والبالات على السطح كانا يتستران وراء ما ينطقان من شعر ، وكان الشعر اذ ذاك يجد تبريرا لوجوده فى الحياة حقا ، بالرغم مما يقال عنه • وعندما كان يستيقظ ضمير المرأة ، وذلك عندما تصبح اللحظات أكثر جمالا وروعة ، كانت تحكم على نفسها بضرورة النزول لمراعاة الزوج والتضـحية من أجله • واذ يهتم بالنزول كان الشاب يهمس بقوله : ماريا ـ مستغلا تلك الرغبة التى أبدتها فى أن يناديها باسمها مجردا ، التى بدت له مكرمة كبرى وفضل عظيم ـ هل تخرجين هذه الليلة ؟

ـ لا ، يا صديقى العزيز ، فالأبيات الكثيرة فى لقاء واحد شىء غير مستحب ، اذ من الممكن أن يصبح الأمر ذا حلاوة مفرطة • وعدا ذلك فالجو بارد ، ولو أصابك الزكام لما اغتفرت ذلك لنفسى •

ـ ماريا (وبدا كأنه يختنق) ماريا •

ـ ماذا ، يا صديقى العزيز ؟

اذن لن أراك الى الغد ؟

كانت تسمح له بأن يمسك يدها ، وكانت اذ ذاك تتسمع ضربات الأمواج ونبضات الدم فى يده ، ولعلها كانت ترغب وهى على هذه الحال أن تنسى الزمن ، ولكنها لا تلبث أن تفيق قائلة :

ـ جىء الى قمرتنا •

وكان يذهب الى قمرتهما ليختنق بهذا الجو الفاسد وهذا المكان الضيق ، وليرى فى عجب كيف كانت ماريا تخلص فى رعاية زوجها ، الأمر الذى جعله يخشى أن يصيبه هو الآخر دوار البحر ·

وعند اقترابهما من دوبرفنيك ، وفى الليلة الأخيرة من الرحلة ، ضغطت على يده في سرعة ، وعبثا حاول أن يلحق بتلك اليد الضاغطة ، ثم قالت :

ـ سأظل محتفظة على الدوام بذكرى هذه الرحلة ·

ربما كانت الذكرى من أجل حسن وأبيات الشـعر التى كانت ترددها ، وربما كانت من أجل الزوج وتقيئه ·

وفى أثناء اقامته فى دوبرفنيك كان مرتين ضيفا محببا فى بيتهما ، بين جمع من الخالات والعمات والأقارب والمعـارف والأصـدقاء اتى للزيارة ، وفى كلتا المرتين كن يترقب الفرصة كى يهرب من هذا الحشد المجهول ، الذى كاد فى شوارع المدينة لا يعير التفاتا الى زيه الشرقى ، وهو الآن فى غرفة استقبال السيد لوقا والسيدة ماريا يحدق فيه كما يحدق فى وحش أو فى أعجوبة · وبدا كانما الأمر غير عادى بحضوره ، حتى لقد أحس هو بالفزع وبكونه على غير طبيعته · وعلاوة على ذلك أنه حينما لاحظ اهتمـام ماريا الفاتر ، ذلك الذى بدت له من أجله غريبة للغاية ، بعيدة كل البعد ، كاذبة فى ابتسامتها ، اتضح له على الفور أن فى بيتها بالذات يظهر افتراقهما الحقيقى · لقد كانا هنا شخصين غريبين، يفصل بينهما كل شيء ، وليس ذلك من الأمس فحسب · هذه العادات ، والتقاليد ، وطريقة التحدث ، وطريقة الصمت ، وتفكير كل منهمـا فى الآخر من قبل دون معرفته جيدا ـ كلها كانت تمثل هاوية بينهما · لقد أدرك أن ماريا فى هذه المدينة تحميها وتدافع عنها البيوت ، والأسوار ، والكنائس ، والسـماء ، ونسمات البحر ، والمواطنون ، ونفسـها التى لا ترى فى مكان آخر كما ترى هنا · نعم يحميها كل ذلك وبالذات منه ، وربما منه فقط · ولعله يحميه هو الآخر منها بالذات · اذ كان الذهول يعتريه من كونه يعيش فى هذه المدينة الرائعة وحده وهى على مقربة منه ، وقد جلب الى نفسه حزنا لم يكن قد أحسه من قبل ، وبفرح ألقى تحية الوداع على المدينة عندما وجد احدى القوافل التجارية قد اتخذت اهبتها للرحلة من « بيل » الى « بوسنه » ، وظل الفرح يلازمه وهو يرى ثلوج جبل ايوان ، ويشاهد ضباب بوسنه ، ويحس برياح جبل ايجمان

القارسة ، ثم أخذت البهجة تستولى عليه وهو يدخل الى القصبة المكفهرة ، وقد حشرت بين الجبال ، ويعانق أهلها ويمطرهم بقبله ، وبدت القصبة في ناظره أصغر مما كانت ، ولكن البيت بدا أكبر . وأفهمته أخته فى لطف ان من الخسارة أن يلحق البلى بيت الام بتركه خاليا . فقد كانت تخشى أن يتخذ من هذا البيت الكبير الذى يقطنه الأب دار اقامة له . وحدث أن خاصم حسن اباه عقب عودته ، وربما كان السبب الأكبر لذلك أن الشيخ كان قد نشر أخبار شهرة ابنه وذيوع صيته فى استانبول ، لكى يوغر صدر نسيبه القاضى الذى لم يكن الشيخ يطيقه ، وها هو يدرك الآن أنه قد خدع وأن الخزى قد أصابه . وعزا اهالى القصبة عودة الابن ا لىالفشل ، اذ أن أحدا لا يتصور أن شخصا يتميز بالعقل يعود من استانبول الى القصبة ويترك وظيفته المرموقة لدى السلطان لو لم يكن مضطرا الى فعل ذلك . وتزوج ، وكان ذلك بسبب ماريا وبسبب ما كانت تثيره الذكريات ، ومن أجل هذه الغرف الخالية ، ومن أجل الحاح الآخرين . وبصعوبة تحمل أن يبقى شتاء واحدا مع زوجته .. البليدة .. الثرثارة .. الجشعة ، ثم تحرر منها ومن أسرتها كذلك ، واهبا لهما ضيعته على مشارف القصبة ، والنقود التى أقرضهم اياها . وبعد ذلك أخذ يضحك . ان موطنه لم يعد فى نظره أرض الأحلام ، وهؤلاء المواطنين لم يعودوا فى نظره ملائكة ، وليس فى امكانه ان يقوم باصلاحهم أو افسادهم . وهاهم بداوا يشهرون به ، ويشكون فيه ، ويلمزونه كلما مر بهم ، كما أخذ أقاربه يجردونه من المال دون رحمة كما تفعل الذئاب ، مستغلين رغبته في التخلص من زوجته بأسرع وقت ممكن ، ولمدة طويلة ظلت تلوكه السنة الآخرين ، مرحبين به كي يقتلوا ما أصابهم من ملل . وكلما تذكر كيف كان يتحدث فى استانبول عن شهامة مواطنيه انتابه الضحك . ولحظ نفسه الحسن أنه لم يكن يعاتب أحدا ، ولم يدع الحزن يغشى داخله ، بل كان يقبل ذلك كله على أنه مزاح قاسى . وكان يقوله ان الآخرين ألعن من هؤلاء يدافع كما بدا لى عن اعجابه السابق بهم وتحمسه لهم أكثر مما يدافع عن الحق . ولم تمض ثلاث سنوات حتى عاد قلبه متعلقا بحبهم ، وتعود عليهم وتعودوا كذلك عليه ، وأخذ يحترمهم ، ولكن على طريقته الخاصة ، ينظر اليهم فى سخرية ولكن بدون حقد أو عداوة ، حريصا على احترام الحياة وما فيها أكثر من حرصه على أرضاء نفسه وتحقيق رغباته : ــ العقلاء هم هؤلاء الرجال ــ هذا ما قاله لى ذات مرة ، بنبرة تجمع بين السخرية والجدية ، أخذت تحيرنى كثيرا ــ انهم يأخذون الكسل من الشرق ، والعيشة الرغدة من الغرب

لا يتعجلون اذا أرادوا الشروع فى أمر أو الذهاب الى مكانه ، لأن الحياة نفسها تسير فى عجل ، لا يشغلون بالهم بما يخبئه الغد ، فما قدر سوف يكون ، وقليل ذلك الذى يستطيعون التأثير فيه ، انهم معا فى مصائبهم فقط ولذا يودون أن يكونوا معا كثيرا ، قليلا ما يثقون بأحد ، واسهل شىء على المرء أن يخدعهم بكلمة جميلة ، لا يشبهون الابطال ، ولكن ما أصعب تخويفهم بالتهديد ، لفترة طويلة لا يلتفتون الى شىء ، فالأمر سواء لديهم بالنسبة لما حدث حولهم ، وفجأة ، يشد انتباههم كل شىء ، فيأخذون فى تقليبه ، وفى النهاية يضعونه رأسا على عقب ، ثم يعودون ثانية الى خمولهم وعـدم اكتراثهم ، ولا يرغبون أن يعيدوا الى الأذهان ذكرى ما حدث ، يخافون من التغيرات لأنها كثيرا ما كانت تجلب لهم الشر ، وبسهولة يجلب لهم الرجل الواحد مللا ، ولو كان يأتى لهم بالخير . عالم غريب ، يشـهر بك ولكنه يحبـك ، ويطبع قبلته على خدك ولكنه يكرهك ، يسخر من أعمال كريمة ولكن يظل يذكرها سنوات عديدة ، يعيش على عناد وثواب . ولا تدرى أيهما يتغلب ومتى . أشرار ، أخيار ، رحماء ، قساة ، ثابتون ، عاصفون ، صرحاء ، كاتمون ، كل هذا يمثلهم ، وبينه يكونون . وفوق هذا كله انهم لى وأنا لهم ، فهم كنهر وأنا منه قطرة ، وكل هذا الذى قلته عنهم كأنما قلته عن نفسى .

كان يوجد فيهم ألف نقص ونقص ، ولكنه كان يحبهم . كان يحب ويسب . وأخذ يتجه بقوافل تجارته الى الشرق والغرب ، وكان يقوم بهذا بدافع من العناد كى يظهر احتقاره لهذه الوظائف التى كان يشغلها ، غاضبا مما كان يوجهه اليه أعيان القصبة من عتاب ، وربما كان السبب الأكبر فى قيامه بهذا رغبته فى أن يستريح من القصبة ومواطنيه فيها ، وأن يكون بنجوة من الشعور بالكره نحوهم ، وأن يستمد الشوق والحنين اليهم ، وأن يرى بعينه الشر ماثلا كذلك فى جهات أخرى . وهذا الجولان المستمر من نقطة معينة فى الأرض تحدد معناه وتجمله ذهابا وايابا وليس تسكعا كان يعنى بالنسبة له حرية حقيقية أو متخيلة ، وذلك أمر فى نهاية مداه على السواء . وكثيرا ما كان يقول : لو لم توجد هذه النقطة التى ربطت بها لما أحببت بلادا أخرى ولما كان باستطاعتك أن تذهب الى أى مكان ، لأنك لم تكن اذ ذاك فى مكان .

أكانت فكرة حسن هـذه ، التى لم تكن واضـحة لى على التمام : حتمية الارتباط ، والجهد من أجل التحرر ، وضرورة الحب لما يخصك ، ووجوب تفهم ما يخص الآخرين ـ مسـألة عفوية مع بقعة من الأرض

صغيرة ، واشباعا لشهوة الحصول على شيء أكبر ؟ أم تغييرا للمقاييس كي لا تصبح مقاييسنا هي الوحيدة الملزمة ؟ أم فرارا مقيدا حزينا وايابا أشد من ذاك حزنا ؟ (كان من الصعب على أن أفهم ذلك ، وخاصة بسبب فكرتي التي كانت تخالف فكرته : هناك عالم يدين بدين حقيقي ، وآخر يدين بغيره ، واما الخلافات والفروق الأخرى فامرها اقل أهمية ، وفي كل بقعة يكون الآخرون فيها بحاجة الى يمكنني أن أعيش) ٠

وفي ربيع ذلك العام الذي عاد فيه حسن من استانبول ، جاء الى القصبة السيد لوقا مع زوجته ، الدوبرفنيكية ، وعادت الأمور الى مجراها الأول ، بجديد من القوة والتزام لبعض الحدود ٠

ولم تكن القصبة بدورها أيضا مكانا مناسبا لحبهما ٠ ان أحدهما كان على الدوام غريبا كلما اجتمعا في مكان ٠ واذا كانا قد حاولا تحطيم حدود المنطقة اللاتينية وحدود قصبة المسلمين فقد ظلت حدودهما الخاصة باقية ٠ ومما لا شك فيه أن المرأة لم تستطع أن تستمر في خداع نفسها بأن ما بينهما لا يعدو أن يكون صداقة ٠ ولكنها ما كانت تسمح لنفسها بغير النظرات والكلمات الحلوة ٠ هكذا على الأقل فيما يبدو ٠ ومن المرجح أنها في أثناء اعترافاتها بالخطايا أخذت تعترف في استغفار بالفكرة المذنبة التي راودتها عن حب حسن ٠ وأما حسن فقد كان يذهب الى أسفاره ، ويعود وملء نفسه رغبة أخذت تقوى وتشتد في أثناء غيابه لشهور طويلة ٠ أكان هذا الحب العجيب يحدد الهدف الحقيقي من تطوافه ؟ أكان من أجله يشعر بحتمية الارتباط ، ويقوم على الدوام بمجهود للتحرر ؟

ذاك جزء حقيقي من قصة حسن ، سمعته ، عرفته ، حشوته ، أكملته وربطته في كل كدر ٠ انها قصة محدودبة بعض الشيء عن الرجل الذي يعيش بلا موطن حقيقي ، بلا حب صادق ، بلا فكر صائب ، الذي سلم بتارجح طريقة حياته تسليمه بالقضاء والقدر ، دون بكاء على ما هو عليه من وضع ٠ ربما يكون في هذا التسليم شيء من الارتياح المحبب ، والشجاعة كذلك ، ولكنه يعد انحرافا عن الهدف من الوجود في الحياة ٠

وكان ادراك ذلك يعد كسبا عظيما بالنسبة لي ، اذ أصبحت أرى أنه لم يعد يفوقني قوة ٠

ولكني على الرغم من ذلك كنت أراني مسحورا ، وكان يطيب لي أن انسج حكايات عن صديقي الكبير تبدأ هكذا : ذات مرة كان هناك بطل

فريد • غطى بعلمه وعقله على جميع المدرسين باستانبول • ولو أراد أن يكون قاضي العـــاصمة أو وزير السلطان لتم له ما أراد • ولكنه كان يفضل أن تبقى له حريته وأن يترك كلمته الحرة تندفع معبرة عن فكرته • لم يكن يتملق أحدا ، ولم يجر الكذب على لسانه قط ، كما لم يكن يقطع على الاطلاق بما لا تطمئن اليه نفسه ، أو يحجم عن قول ما يعلمه ، كذا لم يكن يخشى أحدا من رجال « لالا » (١) أو أصحاب الثراء ، وانما كان يحب الفلاسفة ، والشعراء ، والضاربين في الأرض ، والصالحين من الرجال ، والفاتنات من النساء • فقد غادر مع احداهن استانبول وذهب الى دوبرفنيك ، ولحقت هي به بعد عودته الى القصبة • وهو بطبيعته يحتقر المال ، والمنـاصب ، والقوة ، كما يهزأ بالمخاطر وينشـــدها في مضايق الطرق المظلمة وثنايا الجبال غير الآهلة • وعندما يعزم فسوف يفعل مايود ، وسوف تطير شهرته الى الأنحاء البعيدة •

وحقا ، انه من المضـــحك أن يكون بقليـــل من الاصلاح ، واغفال الجزئيات ، وترك الأسباب ، وتحوير طفيف للأحداث الواقعية ـ تتحول الهزائم الى انتصارات ، واخطاء الأهداف الى بطولات •

غير أنه لابد لي من الاعتراف بأن حسن لم يكن له دخل في خلق القصة على هذه الصورة • فنحن الذين كنا في حاجة اليها ، وأما هو فلم تكن له بها حاجة • لقد أردنا أن نؤمن بأن هناك رجالا يستطيعون أن يفعلوا أكثر مما جرت به العادة • وكان هو هكذا ـ الى درجة ما ـ وذلك بمقتضى قبوله لجميع ما يعرض له أو يصادفه • وقد اســـتطاع بابتسامته أن يعوض ما أصاب من خسائر ، كما استطاع أن يحقق عنى في داخله ، وكان يعتقد أن حياة الانسان لا توجد فيها الانتصارات والهزائم فحسب ، بل يوجد فيها كذلك التنفس ، والنظر ، والسمع ، والكلمة والحب ، والصداقة ، والحياة البسيطة ، التي كثيرا ما يكون زمامها في أيدينا •

وجميل أن توجد ، ويبدو أنها توجد ، بالرغم من كل شيء ، ولكن أمرها يبدو مضحكا ، اذ هو شبيه بما يدور في رءوس الأطفال •

---

(١) يسكن هؤلاء الرجال حول نهر الـسانا في منطقة تدعى « بانات Banat »
وكانوا يقاومون الاتراك •

في الأيام الثلاثة التي سبقت عودة حسن تملك الاضطراب «علي أغا» الى درجة أفقـدته القدرة على أن يتحـدث ، أو يلعب النرد ، أو يتناول الطعام ، أو ينام ٠

ـ أسمع شيء عن قطاع الطرق ؟

بهذا كان يسأل على الدوام ، ويرسلني أنا والفضل الى الحانات كي نقوم بسـؤال أصحاب الخيل التي تنقل البضائع ، وكنا نعود بأخبار طيبة ، يتلقاها بعدم الثقة ، أو يتولى تفسيرها على حسب ما يحمله من هم وضيق :

ـ اذا لم يكن قد حدث منهم هجوم منذ وقت طويل فالأمر ينذر بالسوء ٠ لقد أحسوا في أنفسهم بالقوة ، اذ ان أحدا لا يطاردهم ، ومن الممكن في هذه الآونة بالذات أن يترصدوا القوافل في الطريق ٠ يافضل ! ايت بعشرة من الرجال المسلحين ، واستأجر لهم الخيول ، واذهب اليه ٠ وواصل السير ان لم تجده الى « تريبنيا » وهناك انتظره حتى يجيء ـ بهذا أصدر أمره فجأة الى الخادم ، دون أن يحول بصره الى باب الغرفة ، حيث دخلت ابنته ، زوجة القاضي ، فقد كان أمر ابنه أهم بالنسبة له ـ

ـ سوف يغضب يا أغا ٠

ـ ليغضب ! اختلق سببا ما ٠ اشتر التين ، أو أي شيء تريد ، كل ما أريده الا ترجع بدونه ٠ خذ النقود ٠ وادفع ، ودعك من المساومة ، وأهلك الخيول ، فما عليك الا أن تصل ٠

ـ وماذا سيكون بالنسبة لشئونك يا أغا ؟

ـ سوف انتظركم ، وليس غير ٠ دعك من الأسـئلة ، واذهب !

وهنا سألت الابنة أباها :

ـ الديك نقود كافية ؟ أم ادفع أنا ؟

يوجد لدى ٠ اجلسي ٠

وجلست على حافة فراشه بالقرب من قدميه ٠

لقد أردت أن أخرج فور خروج الخادم ٠ ولكن العجوز استوقفني ، كما لو كان لا يريد أن يبقى وحده مع ابنته ، قائلا :

ـ الى أين ؟

ـ اردت أن أذهب الى التكية ٠

ـ يمكن للتكية أن تبقى بدونك ٠ عندما يلحقك المرض مثلي سوف تدرك أن كل شيء يمكن ان يكون بدوننا ٠

واذ ذاك تدخلت الابنة لتقول في هدوء ، ودون أن تبدو ابتسامتها ، معاتبة والدها فيما قال ، مراعاة لأمر حسن :

ـ غير أنه بدون كل شيء لا يمكن لنا أن نكون ، حتى عندما يلحقنا المرض ٠

ـ فيم العجب ؟ هل أنا مت ، كي استطيع ان اكون بدون كل شيء ؟

ـ لا ، لا قدر الله ذلك ، ولست اعجب ٠

لقد كنت اشعر بالضيق من اجلها ٠ وكنت لا ازال أتذكر ما دار بيني وبينهـــا من حديث ندبر به أمر الخيانة ، ولذا وجدتني أتحاشى النظر اليها ، لكي لا تلتقي أعيننا ، انها كانت تنظر في اطمئنــــان ، جميلة ، واثقة ، كما كانت في أثناء ذلك الحديث الذى دار بيننا والذى لا يمكن أن أنساه ٠ وكان كل شيء أمامي يبدو كذكريات كانت تتولد دون ارادتي ٠

حاولت ان ادير بصرى تجنبا لرؤيتها ، ولكن صورتها كانت تمثـل أمام عيني ، وكنت احس بضياء يتألق في داخلي واضطراب يتملكني وحيرة تنتابني ٠ لقد ملأت المكان كله ، جعلته على صورة غير التي كان عليها ، فاصبح مثيرا بدرجة عجيبة ،وكان أن حدث الذنب بيننا ، وكلانا يحمل السر في نفسه ، كما لو كنا قد ارتكبنا الفاحشة ٠

ولكن كيف تسنى لها أن تبدو هكذا مطمئنة هادئة ؟

وسالت والدها في ترفق وحنو :

ـ أفي حاجة أنت الى شيء ؟ أتشعر بضيق اذ بقيت وحدك ؟

ـ منذ زمن بعيد أعيش وحدى ٠ لقد تعودت ٠

ـ ألم يكن في امكان حسن أن يؤجل السفر ؟

ـ أنا الذى طلبت اليه أن يقوم بالســـفر ٠ وذلك لقضاء بعض الأعمال ٠ ابتسمت من أجل هذا الكذب ، وقالت :

ـ كم يطيب لى ان يكون مع أصدقائه • فالأمر مع الصحبة أيسر • انهم سيقومون بمساعدته ، وسيقوم هو بدوره بمساعدتهم • اليوم علمت أنه سافر ، واسرعت بالحضور لأرى كيف حالك •

ـ كان في استطاعتك أن تحضرى ولو لم يكن قد قام بالسفر •

ـ منذ قليل قمت من الفراش •

ـأانت مريضة ؟

ـ لا •

ـ لم كنت اذن فى الفراش ؟

ـ يا آلهى ، أيجب على أن اصرح بكل شيء ؟ يبـــدو أنك ستصبح جدا • كان بريق اسنانها اللؤلؤية يبدو فى أثناء الضحك ، ولم يكن يظهر عليها علائم الاضطراب أو الخجل •

وما سمع الوالد قولها حتى رفع رأسه ومنكبيه ، مستندا بمرفقيه على الفراش ، وحدق فيها فى دهشة وقليل من الاضطراب ـ كما بدا لى ـ ثم قال :

ـ حامل انت ؟

ـ يبدو

ـ أحقا أم يبدو ؟

ـ حقا •

ـ آه ، فليتمم الله بخير •

اقتربت منه وقبلت يده • ثم عادت الى مكانها عند قدميه •

ـ كم وددت ذلك من أجلك أنت أيضا • فبلا شك ســـوف تكون مسرورا بحفيدك •

كان الوالد يوجه نظره اليها فى اصرار ، كما لو لم يكن واثقا من الخبر ، أو كما لو أن الخبر قد أثاره •

وقال فى هدوء ، وقد بدا عليه الاستسلام :

ـ كم يكون سرورى حينذاك • كم ساكون مسرورا حقا •

ـ وحسن ؟ أينوى الزواج ؟

ـ لا ، كما يبدو لى ٠

ـ خسارة ٠ لو تزوج لكان ولد ابنك بالطبع أحب اليـــك من ولد ابنتك ٠

وضحكت ، كما لو كان قولها على سبيل المزاح ، والحقيقة أنها لم تنطق ولو بكلمة واحدة دون قصد ٠

ـ أرغب أن يكون لى حفيد ، يا ابنتى ٠ منك أو منـه ، فالأمر سواء ٠ غير أنه اذا كان من البنت فهو أكثر ضمانا أنه من دمى ، اذ فى هذا لا يمكن الخداع ٠ لقد كان يراودنى خوف من عدم استقبالى اياه ٠

ـ اننى دعوت الله ألا يتركنى عاقرا ، وها ، والشكر له ، قد استجاب ٠ كيف لا ، كثيرا ما تساعد الدعوات فى مثل هذه الأحوال !
كنت أسمع هذا الحديث ، منهزما بامعان تفكيرها المتئد ، دهشا لجرأتها الخفية التى استترت تحت هدوء وجهها الجميل ، معجبا بثباتها الذى يشبه ثبات الرجال ٠ لم تكن تشبه « حسن » أو والدها فى شىء من صفاتهما ، وكذا لم يكونا يشبهانها فى شىء من صفاتها ٠ أخان دم الوالد فلم يبرز خصائصه فيها ؟ أم أنه نقل اليها ذلك الذى لم يستطع ان ينمو فيهما ؟ أم أن الابنة كانت تثار من أجل حياتها الفارغة ، من أجل فقدها للحب ، من أجل تلاشى أحلام الصبا ؟ لقد اخذت الآن ـ مخدوعة فيما توقعت ، وقاسية كما أصبحت ـ تنهى فى اطمئنان حسابها مع العـالم بأكمله ، دون حزن وندم ، وبلا شفقة ورحمة ٠ كم كانت فى هدوء تنظر الى ، كما لو لم أكن موجودا ، وكما لم نكن قط قد تحدثنا هذا الحديث الوقح فى البيت القديم ٠ لعلها تحتقرنى الى درجة تجعلها تنسى كل شىء ، أو لعلها لا تعرف الخجل بعد ٠ اننى الى الآن لم أصفح عنها بشأن أخى الميت ، ولم أكن أعرف بعد ماذا أصنع بها فى نفسى ، فهى الوحيدة التى لم ألحقها بأحد الجانبين ، جانب أصدقائى القلائل ، وجانب أعدائى الذين أشعر نحوهم بالكره ٠ ربما كان ذلك من أجل اصرارها الذى تفكر به فى نفسها فحسب ، وعدم اهتمامها بأحد سواها ٠ انها تعيش لنفسها ، ولعلها لا تدرى الى جانب ذلك أنهـا قاسـية ٠ أشبه بالماء ، بالسحاب ، بالعاصفة ٠ وربما من أجل جمالها أيضا ٠ لست ضعيفا أمام النساء ، ولكن وجهها ليس من السهل أن ينسى ٠

وعندما خرجت ، أخذ العجوز ينظر لفترة طويلة الى الباب ، ثم حول بصره الى ، وقال مستغرقا فى التفكير :

ـ حامل · حامل · ما قولك ؟

ـ ماذا أستطيع أن أقول !

ـ ماذا تستطيع ان تقول ! أن تهنئنى ! ولكن لا ينبغى الآن أن تقوم بهذا فقد تأخرت · لقد سمحت للفرصة أن تفلت منك ، وهذا يعنى عدم تصديقك لهذا الأمر · انتظر ، فالأمر ليس واضحا حتى لى أنا · خلال سنوات طويلة لم يتمكن نسيبى العف من وضع شىء من البذور ، فشيخوخته بالطبع لم تكن تمنحه القوة · وهذه الرغبات والدعوات قليلا ما تساعد فى هذا الأمر · ولم يبق الا أن أحدا أصغر سنا ـ اغفر لى يارب ـ تخطى سياج البيت ، وماذا يهمنى فالأمر لدى سواء ، وكم وددت أن يكون هكذا ، لكى لا تمتد الأرومة العفنة لهذا القاضى ، ولكن عسير على من يعرفها ان يعتقد ذلك · فهى لا تسمح لأحد أن يسيطر عليها ، اذ هى بنفسها فخورة كما أنها تخشى الخطورة · واذا سمحت بذلك لأحد قتلته لا محالة · غير أننا لم نسمع أن أحدا أصبح قتيلا · ولماذا حضرت كى تقول ؟ هذا شىء لا يمكن اخفاؤه ، سوف يعرف أحامل هى أم لا · لقد كانت واثقة من أنها ستجلب الى السرور · أسررت ؟

ـ لا أدرى · انك لم تهد اليها شيئا ·

ـ هانت ترى · أنا لم أهد ، وأنت لم تهنىء ، ثمت شىء ليس كما ينبغى ·

ـ لا شك انك اضطربت ولذا نسيت أمر الاهداء ·

ـ نعم اضطربت· ولكن لو كنت على يقين من صدق قولها لما نسيت· لقد أصابتنى بالقلق أكثر مما أدخلت على من السرور · لست أفهم ·

ـ لماذا أصابتك بالقلق ؟

ـ انها ترغب فى شىء · ولست أدرى مايكون ·

وفى اليوم التالى ، عندما حضرت بعد صلاة العصر ، استقبلنى بنشاط غير عادى ، وقد بدا عليه سرور تكلفه ، ثم قدم الى تفاحا وعنبا ، أرسلتهما اليه ابنته ، قائلا :

ـ لقد سألتني عما أرغب في أن ترسله الى • وقد ارسلت بدورى هديتي اليها ، سلسلة من النقود الذهبية •

ـ خيرا فعلت •

ـ بالأمس كنت محيرا • وقضيت الليل ساهرا ، افكر وافكر • ما الذى يدعوها الى الكذب ، وماذا ترغب من ذلك ؟ اذا كان من أجل المال فهى تعرف أن جزءا منه سيبقى لها أيضا ، ولن أحمله معى الى العالم الآخر • ربما أدركت نسيبى التعيس ، القاضى ، لحظة قوة قبل أن يسلم الروح ، تماما كما يحدث للشمعة ، فقام بما يعد له العمل الشريف الوحيد فى حياته • أو ان الله قد وهب هذا بطريقة ما اخرى ، فالشكر له على أية حال ، غير أني أعتقد انها صادقة ، ولا أستطيع ان أجد سببا ما يحملها على الكذب •

ـ ولا أنا •

ـ ولا أنت ؟ هانت ترى باستطاعة الحب الأبوى أن يخدعنى أنا ، أما أنت فليس بامكانه ان يخدعك •

لقد وثق بكلماتها ، لأنه أراد هذا ، وأما حسن فسينال كثيرا من العذاب بسبب سعادة والده هذه ، أيا كانت هذه السعادة •

رأيت أن أبقى أطول وقت ممكن مع على أغــا ، فقد كان مضطربا بسبب ماكان من أمر ابنته ، ذلك الأمر الذى لم أكن انا اصدقه ، ولكنى لم أرد أن أصرح له بذلك ، كما كان منفعلا لقرب عودة ابنه حسن ، تلك التى يتملكنى الذعر عند تذكرها • غير أن ملا يوسف حضر الى البيت ونادانى كى اذهب الى التكية : فهناك ينتظرنى الأميرالاى عثمان بك ، فقد عرج على التكية فى أثناء مروره بالقلعة ، وهو يريد أن يقضى ليلته فيها •

كان العجوز يستمع باهتمام ، ثم نطق قائلا :

ـ عثمان بك الشهير ؟ أتعرفه ؟

ـ سمعت عنه فقط •

ـ اذا كان المكان لديك ضيقا ، واذا رغب الأميرالاى ، فادعه باسمى أن يأتى الى بيتى • فالمكان هنا واسع ، وتوجد اماكن خالية له ولمرافقيه • ولو نزل ضيفا على لنال البيت شرفا بذلك •

لقد عرض ضيافته حسب تعوده ، ولكنه كان يعرب عن رغبته فى جلال ووقار ، وبطريقة تقليدية ٠ فقد كان يحس بضعف ازاء الرجال المشهورين ، ولذا غضب على حسن لأنه لم يصبح واحدا منهم ٠

ولكنه على الفور عدل عن رأيه قائلا :

ـ ربما يكون من الأفضل أن يبيت فى التكية ٠ ان «فضل» قد ذهب لمقـــابلة حسن ، وزينب يكفيها ان تقوم على خدمتى ، وفى حالة كهذه لا أستطيع أن أقوم بواجب الضيافة كما ينبغى ٠

ادركت لماذا تراجع ٠ لقد كان ذلك بسبب حسن ٠ واذ ذاك قمت بطمأنته قائلا :

ـ لا اعتقد انه يوافق على الحضور ، ولو أتته الدعوة لذلك ٠ فرجال السلطان ينزلون فى التكية عندما لا يريدون الاساءة الى مشاعر الآخرين فى منطقة ما ٠ أو عندما تنعدم لديهم الثقة فى اهلها ٠

ـ وماذا سيفعل بالكتيبة التى معه ؟ ٠

ـ لا أدرى ٠

ـ لا تقل له شيئا ٠ فلعل حسن لا يكون راضيا عن مبيت الامبرالاى فى بيتنا (واضاف ، متعاطفا مع رغبة الابن فى رحابة صـــــدر وعظيم ارتياح) ولعلنى لا أكون راضيا كذلك ٠ واذا كانت لديك حاجة لبعض الفراش ، أو الطعام ، أو أدواته ، فارسل لتاخذ ٠

ـ أيمكن لأحد من الدراويش أن يبيت لديك اذا تطلب الامر ذلك ؟ ٠

ـ يمكن لجميعكم ٠

وفى الزقاق قابلت يوسف سنان الدين الصائغ ٠ وكان فى طريقه الى على أغا ، كعادته فى الذهاب اليه كل ليلة ، ولكنه الآن كان يقف فى مفترق الطرق ، كما لو كان يتسمع شيئا ٠ وأخذ يواصل سيره عندما رآنى ، قائلا لى وقد بدا مشتت الفكر بطريقة عجيبة :

ـ لديك ضيف مشهور ٠

ـ أخبرونى الآن ٠

ـ سله عن احاسيسه ومشاعره ٠ لقد كسب شهرة ونال مجـــدا وهو يحارب اعداء الامبراطورية ، والآن يذهب كى يقتل رجالنا ٠ هناك

فى منطقة نهر السافا · يالها من شيخوخة قبيحة · كم كنت أود لو مات فى أوج عظمته ·

ـ ليس من شانى ان اساله عن ذلك يا سنان الدين ·

ـ اعرف انه ليس من شانك ، ولو كنت فى مكانك لما سالته ايضا · ولكن من الصعب عدم التأمل فى ذلك ·

وانصرفنا ، وتوقف سنان الدين عند باب البيت ، وخيل الى أنه يتسمع شيئا ·

أرسلت الحافظ محمد وملا يوسف ليبيتا لدى على أغا ، واتخذت من غرفة الحافظ محمد مبيتا لى ، وخصصت غرفتى لعثمـــان بك ، وتركت غرفة ملا يوسف للحراس ·

فوجئت اذ رأيت الاميرالاى ، فكم كان يبدو مسنا ، وكم بدت لحيته بيضاء ، وكم كان على درجـــة من التعب ، وكم كان مفرقا فى الصمت ، ولكنه لم يكن خشنا كما كنت أتوقع · قدم العذر عن ازعاجـــه اياى ، واعلمنى أنه لا يعرف أحدا من القصبة ، ورأى أنه من الأنسب أن ينزل فى التكية ، الأنسب له ، وليس دون شك بالنسبة لنا ، على أمل أننـــا تعودنا على المسافرين القاصدين ، وأنه سيبيت هذه الليلة فحسب ، وغدا فى الصباح الباكر سيواصل الرحيل · وذكر أنه كان فى الامكان أن يبيت مع كتيبته فى الحقول ، ولكنه فى مثل هذه السن يفضل أن يبيت فى مكان مســـقوف ، كما ذكر أنه كان فى نيته أن يذهب الى صائغ هذه الجهة الحاج يوسف سنان الدين اذ هو صديق ابنه ، ولـكنه لا يعرف من سيغضب اذا هو نزل عنده ، ولذا عزم على النزول فى التكية · وان كان لديه أخبار ود لو يقولها له عن ابنه : لقد أصـــبح ابنه قبيل سفره سلحدار السلطان · واذن فقد صار باســـتطاعتى كذلك أن أقوم أنا باخباره ، فلربما جلب ذلك السرور اليه ·

وقلت ، وقد كدت أكون مذعورا :

ـ كيف لا يجلب السرور اليه ! اذ أن أحدا من قصبتنا لم يصل الى مثل هذا المنصب الكبير ·

ولكن قائد العسكر كان قد استنفد جميع كلماته واهتماماته ، وأخذ يركن الى الصمت متعبا مكدورا ، دون ما أثر لبسمة تبـدو أو انشراح ، راغبا أن يبقى وحيدا ·

فركته ، وذهبت الى الغرفة ، ووقفت تجاه النافذة ، ساهرا لا يغمض لى جفن ، ومضطربا أشد الاضطراب •

سلحدار السلطان ! واحد من أقوى الرجال فى الامبراطورية •

لا أدرى لماذا أثارنى هذا الخبر الى هذه الدرجـــة ، ولو كنت قد سمعته فى الماضى لما جذب اهتمامى فى شىء ، ربما كنت قد تعجبت ، أو سررت لسعادته ، وربما كنت قد رثيت لحاله • أما الآن فقد أوشك ان يكون لى بمثابة السم • طوبى له ، هكذا رايت ، طوبى له • لقد جاءت اللحظة كي يثأر من أعدائه ، وقد كان له دون شك بعض الأعداء ، وهم الآن يعيشون فى خوف ورعب ، منتظرين أن تبطش بهم يده التى أصبحت فى ليلة واحدة ثقيلة كالرصاص ، وحبلى تحمل فى احشائها أنماطا من الموت • ويبدو أن الامر غير ممكن الوقوع ، شبيه بالحلم ، براق ، جميل الى أبعد الحدود • يا الهى ، أية ســـعادة تتملك الانسان اذ يحس أن باستطاعته ان يفعل • كم يكون الانسان مسكينا باقتصاره على التفكير وتحليقه بآماله فى السماء • اذ الضعف لا شك يقعده ويكسبه بين الناس الخزى والهوان • ان السلحدار مصطفى لا ينام هذه الليلة مثلى أنا ، فقد هاج كل شىء فى نفسه وماج لفرط سروره ، ذلك الذى لم يتعـــوده من قبل ، فتحت بصره ترى استانبول يغمرها ضـــوء القمر وقد أخلدت الى السكون وطوقت بالذهب ، من يكون الآخر الذى لا ينام من أجله هـــذه الليلة ؟ انه يعرفهم جميعا ، يحفظهم عن ظهر قلب ، يعرفهم أكثر ممـــا يعرف ذوى رحمه • ويسألهم فى هدوء ودون نفاد صبر :

ـ كيف تبدون ؟ وكيف تكون مشاعركم هذه الليلة ؟ •

ان القـــدر لم يرفعه ليكلمهم اليه ، حتى يعاقبهم أو يخوفهم ، وانما هناك أعمال اهم من هذا تنتظره ، ولكنه من أجل هذه الاعمال بالذات ليس باستطاعته ان يتركهم فى سلام • آه ، ومن أجـــل الكره كذلك دون شك • اذ من المستحيل أنه لا يشـــعر به ، ومن غير الممـــكن أنه لم يكن يخفيه فى نفسه ، كان يعيش فى داخله أشبه بالضباب ، أشبه بسم فى الدماء ، ودون شك كان ينتظر هذه الليلة التى يراها كالليــــالى المقدسة ، لكى يثأر لنفسه من جميع ما لحقه من الشرور ، ولما كان منه من ضعف سابق •

احسست فى هذه الليلة بازدواج فى مشاعرى ، فقد عرفت كم كان اغتباط السلحدار بهذه الرتبة ، حتى لقد شعرت به ، كما لو كان

اغتباطى ، والى جانب ذلك كان يطغى على احساس بألم مرير ، فقد ظلت احلامى قاصرة على دنيا الخيال ، ولم تعد أن تكون سوى نور يضىء داخلى ويبعث فى الحماس ، معزيا لى ، ومعذبا اياى ٠

كانت تتملكنى رغبة فى ان أصرخ فى الليل قائلا : لما هو بالذات ؟ أكان هو أشد احتيــاجا لأن يعوض ما اصابه ؟ أكانت رغبتى أقل من رغبته ؟ عند من من الشياطين يمكننى ان أسجل روحى الحزينة لكى تغمرنى مثل هذه السعادة ؟ ٠

وفى الحق اننى كنت ارهق نفسى دون جدوى ، فالقدر يكون أصم عندما تنطلق الصرخات ، وأعمى عندما يختار المنفذين ٠

لو لم يكن الوقت ليلا لذهبت الى الصائغ يوسف سـنان الدين ، لأذكر له نبأ سعيدا يتعلق بابنه ، فهو لم يعرفه بعد ، ولو يدر بخلده ٠ لقد ترك لى ، شأنه شأن ما يترك لى من نفائس ، لأحرص عليــه ، وأنعم به ، بذلك الذى يخص غيرى ٠ وفى الحق أننى لو نويت لما حال الليل دون ذهابى ، ولشكر الرجل صنيعى ، ولو كنت قد أيقظته من نومه ، ولنسى أنه قام بلوم الاميرالاى ، ولتعجل أن يقـدم اليه شـــكره ٠ لم اذهب ، اذ ربما لا يكون باستطاعتى الخروج بسبب الحراس عند الباب ، وسيكون الموقف حرجا ان أوقفـونى أو ردونى ، وربمــا أثار هــذا الأمر الشكوك وعرض للخطر ، وماكنت ارغب فى أن أدخل غرفة الاميرالاى لأطلب تصريحا بالخروج ، اذ لو فعلت لتملكته الدهشة وقال : أيكون الامر هاما الى هذه الدرجة وعاجلا أيضا ؟ ٠

وحقا لماذا يكون هاما لى الى هذه الدرجة ؟ ٠

احسست بثــورة فى نفسى من أجل الحقــد والكره والتعاطف مع سعادة الآخرين ، ولم يكن يثيرنى شىء على الاطلاق سوى هذه ٠ اذ لم يكن الامر فى ذاته يهمنى ، ولذا لم أتعجل أن أحمل هذا الخبر الى من يخصه ، وبقيت فى التكية ٠

•

ما كان لى أن أتصور أى دور خطير سيلعبه هذا القرار الصغير ٠

اننى لو ذهبت الى الحاج سنان الدين واخبرته بما قد عرفته ، حتى ولو كان بقصــد ان أجلب له السرور ، أو بقصــد أن نقضى معا ليلة صاخبة ، لاتجهت حياتى الى طريق آخر ٠ ولن أقول انها تكون اذ ذاك أجمل أو أسوأ ، بل اقول انها تكون دون شك على خلاف ما هى عليــه بالتمام ٠

جثم النوم على القصبة ، فأخذت تخمد فى هدوء ، وقد غمرها ضوء القمر فى هذه الليلة من ليالى الخريف ، ولم يعد يسمع هناك صوت اى صوت ، فقد مات الناس ، وهجرت الطيور ، وجفت مياه النهر ، وخمدت الحياة ، وهناك فى مكان ما على البعد تدب ، هناك فى مكان ما يحدث ما يتمناه الناس هنا ، وحولنا يوجد قفر وظلام ، وماذا يجب فعله لنخرج من قفر هذا الليل الطويل ؟ يا الهى لم لم تتركنى فى عماى كى انعم بالهدوء فى ظلام جهالتى المطمئنة ؟ ولماذا تقيدنى الآن بأحابيل الضعف ، وتجعلنى هكذا كسيحا ؟ اطلق سراحى ، أو اطفىء ما انبثق من النور فى داخلى ، أو أوجد لى أيا من الحلول ٠

ولحسن الحظ ، اننى لم افقد صوابى ، وان كان دعائى اشبه بالهذيان ، فلحظة الضعف لم تستمر طويلا ، وقبيل الفجر بدا الصبح ينبلج فى داخلى ٠ كانت ظلمتى تتلاشى رويدا رويدا ، ولاحت اذ ذاك فكرة ، غامضة ، مضطربة ، بعيدة ، ثم أخذت فى الاقتراب ، والوضوح ، والثبات ، حتى غمرتنى بضوئها كما تغمر الوجود شمس الصباح ٠ فكرة ؟ لا ! بارقة من السماء ٠

لم يكن اضطرابى دون سبب ، لقد تسلل السبب الى داخلى واستلقى دون أن أعيه ، ولكن البذور قد نبتت ٠

هيا ، لقد حان الوقت ، وجاءت لحظتى ٠ اللحظة الوحيدة ، اذ ربما لو انتظرت الى الغد لكان الوقت متأخرا ٠

عند بزوغ الفجر كان يسمع وقع حوافر الخيل فى الزقاق ٠ وعلى الفور خرج الاميرالاى من الغرفة ، كما لو لم يكن نائما ٠ وخرجت أنا كذلك ٠ وفى الضوء الكدر لبداية الصباح كان الاميرالاى يبدو مسنا ، اشبه بفاقد البصر نظرا لتورم جفونه ، مغبرا منهوك القوى ٠ كيف كانت ليلته هذه ؟ ٠

ـ آسف اذ ملأت الغرفة بالدخان ٠ لقد دخنت كثيرا ٠ ولم أنم ٠ وكذلك أنت ، لقد سمعتك وأنت تذرع الغرفة ذهابا وجيئة ٠

ـ لو ناديتنى لكان فى امكاننا أن نتبادل الحديث ٠

ـ خسارة ٠

قالها متهالكا ، ولم ادر أكانت الخسارة لأننا لم نتحدث ، أم لانفاقنا الوقت فى الحديث ٠

أركبه جنديان على حصانه . ومضى يجتاز الزقاق الخالى مقوس الظهر وهو يجلس على سرجه .

عند عودتى من المسجد رأيت ملا يوسف أمام المخبز ، يتحدث مع الخفير وأحد الصبية الذين يتعلمون صناعة الخبز . وحين رآنى تعجل ولحق بى ، ثم برر عدم حضوره الى المسجد بأنه صلى الصبح مع على أغا والحافظ محمد ، وذكر أنه فى طريق عودته استوقفه هذان ، وأخذا يقصان أن بعض الرجال من منطقة السافا قد هربوا فى هذه الليلة من القلعة .

واذ ذاك مر ثلاثة من الحراس فى سرعة يعبرون الشارع ، وما من شك فى أن المسلم لم ينم هذه الليلة ، ولا القاضى كذلك . كثير منا قضى الليل بلا نوم . لقد كنا منفصلين بعضنا عن بعض ، ولكن القدر نسج خيوطا متينة بيننا . واهتم بكل شىء ، ومنحنى الآن حلا نهائيا . لقد كنت بانتظار هذا الحل لعلمى أنه آت . ولكنى عندما رأيته اهتزت ركبتاى ، وشعرت بالم فى أحشائى ، واثقا فى ثنايا مخى ، غير أنى لم أدع ذلك الذى ظفرت به يفلت منى .

كنا نقف بجانب قبر هارون . وكنت أنظر الى الشاهد وقد تحدرت عليه قطرات تماسكت من ذوب الشموع المحترقة . ثم أخذت أتلو دعاء أطلب به الرحمة لروح أخى .

ورفع ملا يوسف يديه كذلك ، وراحت شفتاه تهمس بالدعاء .

ثم قلت له :

ـ كثيرا ما أراك تتلو الدعاء لصاحب هذا القبر . أتفعل ذلك من أجل الناس أم من أجل نفسك ؟ .

ـ ليس من أجل الناس .

ـ اذا كان من أجله ومن أجل نفسك ، فلست اذن فاسدا على التمام .

ـ لو استطعت لفعلت كل شىء فى سبيل ان أنسى .

ـ لقد جلبت شرا كبيرا ، له ولى ، وكان ما جلبته لى أكثر لأننى بقيت على قيد الحياة ، لأحمل الذكرى ، لأتجرع العذاب . أتعلم ذلك ؟

ـ أعلم .

كان صوته بين الارهاق ، غائصا فى مكان ما من أعماق حلقه ٠

ـ أتعلم عن ليالى المؤرقة ، عن الظلام الذى دفعتنى اليه ؟ لقد أجبرتنى على التفكير فى كيفية اهلاكك واهلاك الشر فيك ، أأسلمك الى العدالة تقتص منك ، أم أخنقك بيدى ؟

ـ لو فعلت أيا من الأمرين لكنت على حق يا شيخ أحمد ٠

ـ لو علمت ما يكون الحق لفعلته ، ولكننى لم أكن أعلم ٠ لقد تركت كل شىء لله ولك ٠ كنت أعلم أن هناك من يعدون أكثر منك ذنبا ٠ وانك لم تكن سوى الحجر فى أيديهم ، سوى الفخ الذى ينصبونه للبلداء ٠ كنت أرثى لك ، ولعلك كنت ترثى لنا ٠

ـ نعم كنت أرثى يا شيخ أحمد ، فالله شاهد على ، كنت أرثى ولازلت أرثى ٠

ـ لماذا ؟ ٠

ـ لقد كانت هذه اول مرة ينكب انسان فيها على هذه الصورة بسبب ما كان منى من طاعة ٠ اول مرة فيما أعلم ٠

ـ تقول انك ترثى ٠ أهو كلام تقوله وحسب ؟

ـ ليس كلاما فحسب ٠ لقد ظننت انك ستقتلنى ، وظللت ليالى كثيرة أتوقع مجيئك الى ، كنت أتسمع وقع خطواتك ، واثقا أن السكر سيقودك الى غرفتى ٠ ولو حدث ذلك لما حركت يدى دفاعا عن نفسى ، أقسم بالله ، ولما فتحت فمى أستغيث بأحد ٠

ـ ولو طلبت منك حينئذ أن تفعل شيئا من أجلى ، فبم كنت تجيب ؟ ٠

ـ اننى على استعداد لأن أفعل كل ما تريد ٠

ـ والآن ؟ ٠

ـ والآن كذلك ٠

ـ أسألك اذن : أتريد أن تفعل كل شىء ، ويقينا كل ما أطلب ؟ فكر قبل أن تجيب ٠ واذا لم ترد فاذهب دون بأس فى طريقك ، وسوف لا ينالك منى لوم ٠ ولكن اذا وافقت فحذار أن تسأل عن شىء ٠ وحذار أن يعلم أحد غيرك وغيرى وغير الله الذى بفضله هدانى ٠

ـ سأفعل ٠

ـ انك تجيب فى سرعة زائدة ٠ حتى ليبدو انك لم تفكر ٠ لعل الأمر ليس سهلا ٠

ـ لقد فكرت منذ زمن ٠

ـ ربما طلبت أن تقتل أحدا ٠

نظر الى فى ذعر ، وفى غير استعداد لمثل هذا ، لقد انطلقت كلمة الموافقة منـــه بأسرع من اللازم ، فالذكرى وهذا القبر قد أجبراه على الطاعة ٠ لقد قال « كل شىء » ، ولكن كان له اذ قال هذا تقديره الخاص ٠ والآن لم يرد أن يتراجع ٠

ـ ليكن اذا لزم الامر ٠

ـ مازال فى استطاعتك أن تتراجع ٠ فسوف أطلب كثيرا ٠ واذا قبلت فلن يكون هناك تراجع ٠

ـ ليكن ما يكون ٠ اننى موافق ٠ وما يقبله ضميرك يقبله ضميرى أيضا ٠

ـ حسن ، احلف اذن أمام هذا القبر الذى حضرته وقل : ليلحق الله بى أشد العذاب اذا افشيت السر لأحد ٠

كرر حلفه فى صورة جدية وفى احتفاء ، كما لو كان يقوم بتلاوة دعاء ٠

ـ اياك ، يا ملا يوسف ، أن تبوح الآن ، وفيما بعد ، أو تحجم عن القيام بما وعدت ، أو تخون ، اذ لا يمكن لشىء أن ينقذك ٠ سوف أكون مضطرا لأن أدافع عن نفسى ٠

ـ لن تكون بحاجة للدفاع عن نفسك ٠ والآن ، ماذا يجب على أن أفعل ؟ ٠

ـ.اذهب الى القاضى ، الآن وعلى الفور ٠

ـ لن أذهب اليه بعد ٠ حسن ، سأذهب ٠

ـ قل له : ان الحاج يوسف سنان الدين هو الذى ساعد السجناء من أهل « سافا » على الهرب من القلعة ٠

اتسعت عينا الشاب الزرقاوين لشدة ما انتابه من الخوف والفزع • وبدت فجأته أشد مما لو كنت قد طلبت اليه ان يقتل احدا •

ـ هل فهمت ؟ •

ـ نعم •

ـ واذا سألك عمن قال لك ، فقـــل سمعت ذلك مصـــادفة ، من اناس مجهولين فى الخان ، أو اذكر ان أحدا همس به اليك فى الظلام ، أو اعتذر بعدم استطاعتك ان تذكر اسمه • اختلق شيئا • ولا تذكرنى ، كما لا تدعهم يدونون اســمك • حسبهم ذلك الاسم الذى قمت باهدائه اليهم •

ـ ستصيبه النكبة •

ـ قلت لا تسأل على الاطلاق • وثق أنه لن يصاب بنكبة • سوف نقوم بكل ما فى وســـعنا كى لا يحدث له شىء • فالحاج سنان الدين صديق لى •

لم يبد أنه كان فى وعيه ، فقد كان وجهه يكشف عن ذهوله التام • ودون جدوى كان يرهق نفسه كى يعثر على أى قصد أو مدلول فى جميع ما سمع •

ـ اذهب •

ظل بعد واقفا •

ـ ثم ماذا ؟ وبعد ؟ •

ـ لا شىء • عد الى التكية • فليس ثمة شىء يجب بعد • احـــذر أن يراك أحد مع القاضى •

وذهب كالأعمى ، لا يعلم ماذا يحمل ، ولا يدرى أى شىء يخدم •

لقد صوبت سهامهم اليهم • ولا بد أن تصيب أحدا •

أخذت الاوراق الصفراء المحروقة تتساقط من الاشجار ، انهـــا الاوراق بعينها التى كنت ألمسها فى الربيع ، متمنيا أن تتدفق عصارتها فى دمى لأصبح خدرا كما هو الشأن فى النبات ، لأذبل فى كل خريف وأتجدد بمقدم الربيع • وها هو قـــد حدث العـــكس من ذلك ، ذبلت فى الربيع وأخذت تتجدد فى الخريف •

حان البدء ، يا أخى هارون ، فاللحظة المتعطشة اخذت تجىء •

١٤

« قل جاء الحق »

كان فى استطاعتى أن أنظر الى الساعة وأخمن على وجه التمام : الآن ملا يوسف عند القاضى ، والآن الحراس أمام دكان الحاج سنان الدين ، والآن تم كل شىء ٠ لقد وضعت فى حسابى نظمهم المألوفة ، وايمانهم بواجبهم ، ورغبتهم فى الثأر ٠ ولذا أيقنت أننى لم ألق الطعم هباء ٠ ان النظم المألوفة تدفع الى القيام بتكرار ما يمارس من الاعمال ، والايمان بالواجب يسلب العقل ، والرغبة فى الثأر تعجل باتخاذ القرارات ٠ واذا لم يفعلوا شيئا كان على أن أشهد نهاية العالم ٠

واعجبا ، لقد كانت السوق على وضعها المعهود ، تعلوها تلك الجلبة المألوفة تصدر عن انطلاق الكلمات ، ووقع الخطى ، وما يكون من رنات وضربات ، أو يحدث من صراخ ، والناس يعملون أو يتحدثون ، وقد تسرب اليهم الملل وبدا عليهم الاعياء لما يقومون به من عمل يومى رتيب ٠

حتى الحمائم كانت تذهب وتجىء متنقلة على أرض الطريق فى هدوء ٠

اننى لم أحرك شيئا ٠ ماذا حدث ؟ فى أى شىء أخطأت ؟ ٠

أكنت أنتظر من هؤلاء الناس فى السوق أن يقوموا بأكثر من هذا ؟ هل سيسكتون ، مثلما سكتوا اذ ذاك ، عندما سجنت ؟ أخدعت نفسى اذ ألقيت الطعم ، فلعل عقولهم قد تنبهت ؟ أذهبوا به من البيت ، وهؤلاء الناس لا يعلمون بعد ، أم أن الأمر لا يعنيهم فى شىء ؟ ٠

ولكن هذا غير ممكن ٠ فأنا شىء آخر ، اذ أن طريقتنا تتركنا للمياه تحملنا عندما تحل بنا المصيبة ، لأننا أجزاء غير هامة فى الكل القوى ،

ونرى ضافا عندما نصبح مهجورين • اما الحاج سنان الدين فهو شيء بذاته كالسوق ، واذا حدث له شيء فسيعتقد كل من هؤلاء أنه مهــدد كذلك • وهم معا يمثلون كليا ، كل واحد فيه هام لنفسه ، والخطر الذى يهدد أحدا يظلل الجميع كالسحاب •

ام اننى تعجلت ، بدافع من نفاد الصبر ، ذلك الذى لا يتأتى معه حسن التقدير ؟ •

ام أنهم لا يجرءون أن يبطشوا به ؟ •

ام أن ملا يوسف خدعنى ؟ •

ام أن العالم كله قد انقلب راسا على عقب ؟ •

اخذت اسير على مهل فى الزقاق بين المصاطب الخشبية التى برزت فى مقدمة الدكاكين ، وأنا أسمع الخرير الهادىء لمجرى الحياة ، ذلك الذى ما تحملته قط من قبل بمثل هذه الصعوبة •

منذ قليل كنت منشرحا ومطمئنا ، وكنت اقود الأحداث ، واشعر اننى فوقها • وكان يخيل الى ان الأشياء والناس اقل حجما ، واننى احلق فوقهم • وقد تحقق ذلك لأول مرة فى حياتى ، وكان هذا الشعور بالتفوق يعد بالنسبة لى طبيعيا • حتى لقد كدت الا الاحظه عندما كان يخالجنى ، لقد كان ينبعث منى وكأنه الرائحة ، القوة ، الحق ، وما كنت لأفتخر به ، اذ هو شديد الالتصاق بى ويعد فى الحق احدى صفاتى • والآن يبدو لى ذلك عجيبا ، كما يبدو بعيدا ، فالناس والحياة ليسوا تحتى وانما حولى ، وهناك نطاق ضرب حول الجميع ، فليس هناك استطاعة لانطلاق او هروب • لا أدرى أتوجد فى الحياة انتصارات أما الهزائم فهى توجد بالتأكيد •

ليس باستطاعتى ان اذكر كم استمرت هــذه الكآبة فى نفسى ، ولا أن أجزم أكان منى ادراك لهذا التغير فور حدوثه ام أن حواسى قد نبهتنى الى ذلك عندما بدا لى الأمر عجيبا •

كان أول ما لاحظته الآن هو ذلك الســكون • ففى الدائرة التى حولى ماتت الأصوات فجاة ، وانقطعت خشــخشات الأرجل ، وما كان يسمع من دقات وضربات ، ثم أخذ السكون يمتد وينتشر • كان الامر أشبه بحالة الفزع ، أشبه بحالة الاختناق • واستمر ذلك لحظة واحدة فقط ، ومهما بدا الامر غريبــا ، ومفزعا ، حتى لكأنه الدم توقف عن

الدوران فى أحد الجسوم الضخمة ، فقد أدركت على الفـور ما حدث • وتنفست الصعداء •

لم أخطىء فى التدبير يا أخى هارون ! كم قاسيت من العذاب ، ولكنى تبينت الناس •

واذ ذاك ظهرت الأصوات من جديد ، غير أنها كانت تختلف عن تلك التى كانت منذ قليل ، تختلف عن تلك التى كانت كل يوم ، انها خافتة وخطيرة ، بدأت شبيهة بالزفرات الحادة العنيفة ، ثم بالزمجرات المختنقة فى الحلوق • تبينت فيها المفاجأة ، الخوف ، الغضب ، كما سمعت فيها الوعد المكتوم ، كهذا الذى ينذر بقرب العاصفة ، بقرب نهاية العالم ، لقد سمعت كل ما أردت ، وكان أن عاودنى الاحساس باليسر والاطمئنان •

اخذت أسير وراء أهـل السـوق ، منضـما الى جمعهم ، شاعرا باحتدادهم ، محسا رائحـة لاذعة من أجسامهم (وتلك رائحة الفزع المفاجىء والغضب الذى لم يتحدد موقفه بعد ، ففى الحرب تبدو رائحـة الناس لاذعة الحلاوة أشبه بالدم) • وكنت أسمع أسئلة تكاد لا تفهم ، انها أشبه بعبارات السحر ، بتمتمات جنونية ، بكركرة مياه فى الغور ، بدمدمة تحت الارض ، ولم يكن المهم تلك الكلمات ، بل هذا الصفير الذى يصدر عن فحيح الأفعى ، وأصوات البطن الخافتة ، التى حولتهم الى شىء مجهول ، خطير ، لم يعودوا هم أنفسهم بعد يذكرونه •

سرنا متماوجين فى السوق ، يجمعنا اتجاه واحد ، والرأس مرفوع مصوب تجاه شىء ننتظره ، وتقدمنا الى الأمام ، متلامسـين بالأكتاف ، محشورين بعضنا فى بعض ، منصرفين عن أن ينظر أحدنا الى الآخر ، مخرجين الضعاف منا ، ولكنا على الرغم من ذلك كنا نزداد عددا ، كنـا نزداد بالمجهولين ، متحولين الى حشد كبير ، منصهرين فى خوفه وقوته • وبعذاب كنت أقاوم تلك الرغبة القوية الغريبة فى أن أكون ذرة ثائرة مجنونة ، فقد سمعت زمجرة نفسى ، وأحسست بلفح خطر ما كان يهددنى أنا كذلك • ومن ثم أخذت أحيى شعورى بالتفوق لكى لا أترك نفسى لحاجة قديمة ، للهجوم مع قبيلة مهددة •

كان دكان الحاج سنان الدين مفتوحا على مصراعيه وخاليا •

اندفعنا نجرى الى الزقاق الآخر ثم الذى يليه ، وفى زقاق القزاز توقفنا أمام الحشد الذى كان واقفا • وبشىء من الصعوبة أخذت أشـق الصفوف •

وفى وسط الزقاق ، وقد بدا خاليا ، حيث اصطف أناس من الحشد على الجانبين ، وحيث تفرق أناس فى المقـدمة يفسحون الطريق ، كان الحراس يقودون الحاج سنان الدين ٠

اخذت اشق طريقى بمنكبى حتى صرت فى مقدمة أولئـك الذين اوقفهم الخوف ٠ ليس بامكانى بعد أن أكون واحدا من هؤلاء المحتشدين ٠ لقد حانت لحظتى ٠

خطوت الى المساحة الخالية وقد شملنى الاضطراب ، فقد كنت أعلم أن عشرات الأعين تنظر الى ، وأخذت أسير وراء الحراس ٠ ثم صـحت قائلا :

ـ قفـوا ! ٠

أغلق الحشد الزقاق ٠

توقف الحراس ، ونظروا الى فى دهشة ٠ ونظر الى الحاج سنان الدين كذلك ٠ كان وجهه هادئا ، وخيل الى أنه ابتسم ، ابتسامة صـديق ، او هكذا تمنيت أن تكون ، وقد تملكنى الاضطراب ، كى تشجعنى ، وحقا كنت مضطربا ، بسبب هؤلاء الناس ، بسببه هو ذلك المحاط بالحراس ، بسبب اهمية ذلك الذى أقوم به ، بسبب أولئك الذين أحمل لهم الكره ، بسبب جميع ما كنت أنتظره فى هذه الأبدية الطويلة ٠

وفى ذلك الهدوء الذى توقعت مجيئه ، والذى أحسست به على الرغم من ذلك يلطمنى كأنه الماء الساخن ، أنزل الحراس بنادقهم وصوبوها نحو الحشد ٠ وفى غضب سألنى خامسهم الأعزل ، وكان مجهولا لدى :

ـ ماذا تريد ؟ ٠

كنا نقف أحدنا فى مواجهة الآخر كما لو كنا فى حلبة المصارعة ٠

ـ الى أين تذهبون به ؟ ٠

ـ وماذا يهمك ؟ ٠

ـ أنا الشـيخ أحمـد نور الدين ، عبد الله وصـديق لهذا الرجل الصـالح الذى تقودونه ٠ الى أين تذهبون به ؟ انى أسألك باسـم هؤلاء الناس الذين يعرفونه ، أسأل باسم الصداقة التى تربطنى به ، أسأل باسمه ، اذ هو لا يستطيع الآن أن يدافع عن نفسه ٠ واذا كنتم قد أبلغتم بسوء عنه فهذا كذب ، كلنا ضامن له ، وكلنا شاهد بأنه أشرف

الناس في القصبة . اذا ألقيتم به في السجن فمن ذا الذى يجب أن يبقى خارجه !

ورد الرجل في اكفهرار :

ـ انك رجل ناضج ، ولا ينبغى أن ألقنك النصيحة . ومن الأفضل الا تتدخل .

وعندئذ قال الحاج سنان الدين ، وقد بدا عجيبا أن كان منشرحا :

ـ عد الى بيتك يا شيخ أحمد . شكرا لك من أجل كلماتك التى تنم عن الود والصداقة . وأنتم ، أيها الرجال ، الأفاضل ، تفرقوا . فهذا خطأ ودون شك سوف يصحح .

كل من قبض عليه يظن هكذا : أن هناك خطأ ، والخطأ غير موجود ، والموجود فقط هو ذلك الذى لا نعرفه .

افسح الجمع الطريق ، وذهب الحراس بالحاج سنان الدين .وكنت اشيعهم بنظراتى ، واقفا في مكانى ، هكذا كانوا يقودوننى أيضا ، وكذا هارون ، غير أن أحدا لم يخرج ليقول كلمة طيبة عنا . وأنا قلتها ، فقد كنت اعرف أننى أعلى منهم ، ولم يكن هناك شعور بالذنب تحسه نفسى وقد علمت أن الرجل الصالح قد سجن ، انه لو كان على خلاف ما هو عليه ، لما كان هناك معنى لكل ما فعلته ، ولما كان في الامكان أن يخـــدم أى هدف . ولو حدث أن اصيب بالنكبة لخدم ذلك هدفا أكبر واهم من أن يقتصر الأمر على حياة أحد أو موته . سوف أفعل كل ما فى وسعى من أجله ، وليكن ما يريده الله . ولحسن الحظ ، لم يحدث ذلك الذى يمكن أن يوصف بأنه لا حماقة بعده : قيامهم بالافراج عنه على الفور .

سار الناس خلف الحاج سنان الدين والحراس ، وبينمـــا كان الناس في المؤخرة يختفون عند منعطف الطريق ، رأيت ملا يوسف يقف امام أحد الدكاكين الخالية . لم أناده ، ولكنه اقترب ، كالمسحور ، وقد بدا الخوف فى عينيه المترددتين . من اى شىء يخاف ؟ وخيل الى أن نظره وفكره لا يتابعان الحاج سنان الدين ، وانما تركزا عندى ، واعتراهمـا التصلب والفزع ، واصبحا لا يجرءان أن ينحرفا عنى

ـ أكنت هنا طول الوقت ؟

ـ نعم .

ـ لماذا تنظر الى هكذا ؟ انك فزع • ماذا حدث ؟

ـ لا شيء •

لقد حاول في جهد أن يبتسم ، ولكن بدا منه ما يشبه الاختلاج ، ما يشبه التقلص ، ومن جديد ظهر ذلك الخوف الذى كان يرغب سدى أن يخفيه ، ليصيب بالجمود وجهه الذى كان قد بدأ يفقد نضارته •

اخذت اسير في الزقاق ، واخذ يسير خلفي، ويتبعني متابعة الظلال •

سألته ثانية ، في هدوء ، دون أن أستدير :

ـ لماذا يعتريك الخوف ، أحدث شيء لم يكن في الحسبان ؟

أسرع يحاذيني ، كي لا تفوته كلمة واحدة ، ولم يكن ذلك بدافع من حبه • ثم قال :

ـ لقد فعلت كل ما أمرت به• وعدت ووفيت •

ـ والآن تغضب ؟

ـ لا • لست غاضبا ، ليس بي أدنى غضب • لقد فعلت كما أمرت، ولقد رأيت بنفسك •

ـ فماذا اذن ؟

استدرت نحوه ، وربما فعلت ذلك في عجلة شديدة ، دهشا لصوته المتردد وكلماته المتقطعة ، غاضبا لما كان منى من اهتمام بذلك ورغبة في سؤاله ، غير أنني أردت أن أعلم أحدث شيء لا يجرؤ على الافصاح عنه ، اذ كل خطأ ارتكب يعد الآن خطيرا • وقد حدثعندما فاجأته بالنظر، وربما بسبب هذه الحركة غير المتوقعة ، أو بسبب ما يحمله صوتي من علائم التهديد ـ أن أرتعد ، وتوقف دون وعي ، كما لو كان يتجنب وقوع الضرب ، أو كما لو كان الخوف قد سمره وتحول وجهه الى قناع من أقنعة الخوف• واذ ذاك أدركت أنه مني يخاف • وقد أكد لي ذلك فمه المفتوح ، الذى لم يكن في استطاعة تلك العضلات المتقلصة أن تحركه وتعود به الى حالته الطبيعية ، وجسده الذى تقوس ، منهارا في لحظة

واحدة ، حيث فوجىء كذلك واقشعر • كل ذلك قد استمر فترة قصيرة ، قصيرة للغاية ، وسمحت بعد ذلك عروقه المتصلبة لدمه أن يواصـــــل دورته من جديد ، واستعاد الفم شكله الطبيعى ، وبدأت الحدقة الزرقاء فى وسط عينيه تنعم بحرية الحركة •

ـ تخاف منى ؟

ـ لا • لماذا أخاف ؟

أخذ الغضب يستولى على ، وما اســـتطعت أن أجـد وسيلته كى أصده •

ـ كنت ترسل الناس الى الموت ، والآن تتشابك أمعاؤك بمـــا يعتريك من تقلص ، لأنك رأيت أننى أعرف كيف يكون خطيرا • اننى لا أتحمل خوفك هذا ، فهو طريق الى الخيانة • حافظ على نفسك • لقد وافقت عن طيب خاطر ، وليس باستطاعتك بعد أن تتراجع ، حتى أقوم بطردك •

لقد انفجرت غاضبا ، دون توقع ، كما لو كنت أحس بحاجة الى أن أنحى الثقل عن عاتقى ، الى أن أصيح ، بعد ســـاعات طويلة من التوتر كان يندفع منى اندفاع القذيفة ذلك الطمى الكدر ، الذى لم يسمح له العقل والحذر أن يتحرك من قبل • ربما لم يكن من العقل والحذر أن أتصرف الآن على هذا النحو ، ولكن بينما كنت أجلد الشاب بالكلمات التى ولدت منذ زمن بعيد فى داخلى ، كنت أشـــعر كيف كانت تتدفق كالسيل من عروقى ، وقد افعمتنى بلذة كاد يصعب على فيما مضى أن أتخيلها • وعندما ضعفت هذه الدفقة الاولى من الافراغ ، وعندما رأيت أى تأثير مهزوم يتركه على وجه الشاب هذا الانفجار الواضح من الكره والاحتقار ، خطر ببالى أن خوفه هذا يمكن أن يكون مفيدا : ســـوف يربطه بى بأقوى مما يربطه الحب •

لقــد جلب لى الرضا فزعه كذلك من أنه يرى أمامه رجـــلا مخالفا تماما عما كان عليه الشيخ نور الدين السابق • لقد شارك هذا الشاب فى قتل ذلك الشيخ الهادىء الحكيم الذى كان يؤمن بعالم لا وجود له • أما هـــذا الشيخ الحـــالى فقد ولد فى العذاب ، ولم يكن له من ماضيه سوى الشكل والصورة •

انه يظن انني أثار • وذلك امر لا يهمني - غير انني كنت اعرف أن هذا الشيخ الجديد نور الدين يشبه الى حد كبير ذلك الدرويش الشاب الذى كان يعبر النهر سابحا ، وسيفه بين أسنانه ، كى يهاجم أعداء الدين ، ذلك الدرويش المجنون الذى يختلف عن هذا الحالى بكونه لا يعرف المكر ولا الحكمة ، ذانك الشيئين اللذين يمكن للحياة الصعبة فحسب ان تهديهما •

رحمة الخلد عليك ، أيها الشاب الغر البعيد ، الذى كان يلتهب حماسا ، ويشعر ملء نفسه بضرورة التضحية •

رحمة الخلد عليك كذلك ، أيها الشيخ الجليل الكريم نور الدين يا من كنت تؤمن بقوة الحلم وكلمة الله •

اشعل لكما الشمعة فى ذكراى وفى قلبى ، لكما يا من اتسمتما بالصلاح واتصفتما بالسذاجة •

والآن ، ذلك الذى يحمل اسمكما يواصل عملكما ، دون أن يتنازل عن شىء من صفاتكما سوى هذه السذاجة •

كان الزمن الذى مر بى حتى الآن أشبه ببحر تتهادى مياهه بين شواطئه الدائمة الكبيرة • ولكنه الآن اصبح كمجرى النهر السريع يذهب باللحظات الى غير رجعة • وليس فى الامكان أن أسمح لنفسى بفقد اى منها ، فبكل يتعلق امكان او يكون احتمال • لو كنت افكر من قبل على هذا النحو لفزعت ، ولانتابنى الذهول من هذا الخرير المندفع والحركة التى لا يمكن ايقافها ، وأما الآن فاننى مضطر الى ملاحقة ذلك ، وقد هيأت له نفسى ، اذ أننى فى عجلة من أمرى • ولكننى لست متسرعا ، فقد وزنت بدقة كل لحظة سوف تأتى من ظلام الغيب ، والفعل الذى سيكون لها بمثابة البذرة كى تثمر ذلك الذى أترقبه ، عندما ينتظم كل شىء فى سلسلة الأسباب والمسببات •

لقد كنت أعرف ما سيقوله لى على آغا بعد ان يصل الى سمعه ماكان منى مع الحراس ، ذهبت بادىء ذى بدء اليه • وكان قد سمع كل شىء فقد وصل الخبر قبل أن أصل •واخذت أسمع منه ذلك الذى ظننت أننى سوف أسمعه غدا ، أو بعد الظهر ، غير انه كان آكثر عذوبة ونضارة مما كنت اتوقعه • كان قد نهض الى حد ما فى فراشه ، وكان يرى أصفر ، شاحبا ، نحيفا ، واخذ يلعن، يهدد ، يسب - ويقول لى انه كان على انا

الآخر أن أوجه اليهم مثل قوله ، ان اسب لهم ابا أو أما ، وان كان ذلك ـ على الاقل ـ غير مناسب بالنسبة لى ، بسبب رتبتى ومنزلتى ، ولكن على أية حال ، فقد تصرفت تصرف الرجال ، ولى الشرف ، وقلت لهم ذلك الذى يجب على الرجل الشريف أن يقولهعنالرجل الشريف •

وظللت واقفا أنتظر أن يتدحرج من فمه هذا الحشد من الكلمات، فسوف يثير نفسه بنفسه ، فليغضبوا ما شاءوا ، وكنت أرى أن جميعهم مهتمون به وأنهم منفعلون أشد الانفعال من أجله وأنهم يحسون بجراح شديدة لما لحقه ، غير أن أحدا لم يحزن ولم يغضب عندما ذهبوا بى ، ولم ينطق أحد منهم بذلك الذى ينبغىأن يقوله الشريف عن الرجل الشريف من ذا الذى يعد غير شريف ، أنا أم هم ؟ وربما كان من الانسب الايتحدث عن الشريف ، فكل شخص يرىالشرف فى ذلك الذى يتعلق به • أما انا فلست لهم ، ولست لأحد ، ويجب على أن انهى كل شىء وحدى • وحدى ، مثلما فعلت حينذاك ، ولكنهم منذ اللحظة سيكونون جنودى ، ولن يلزمونى بشىء • لست لهم ، ولا أهتم بأمرهم • لقد تركت رجلا منهم بين يدى الموج ، وهم سيحاولون انتشاله ، دون أن يعرفوا أنهم يعملون لصالحى ، وللعدالة أيضا ، لأننى فى جانب الله ، فليكونوا هم كذلك دون ارادة •

وقلت للعجوز مقللا من شأن تصرفى : كان من واجبى أن أفعل ذلك وسيكون من واجبى أن أقوم بأكثر مما قمت • فسوف تضيع العدالة اذا لم نقم بحمايتها • اننى لا أقف فى وجه السلطة ، ولكنى أخشى أن يلحقنى عذاب من الله اذا لم أقل كلمة ضـــد أعداء الدين ، وهم أولئـك الذين يعملون على هدم اسـمه • فنحن اذا لم نقف فى طريقهم فسيشجعهم على المضى خوفنا ، وسيتفاقم بعد ذلك شرهم ، محتقرييننا ومحتقرين قانون الله كذلك • أيمكننا وهل يتأتى لنا أن يسمح بذلك ؟

وانطلق على اغا يقول : أنالا أعرف كثيرا عن أعداء الدين ، ولكننا لا نستطيع أن نسمح بأنيلحقوا الظلم بأحد من الرجال الصالحين • وان كنا قد ارتكبنا الذنب بتركنا الاوغاد وأهل السلبوالنهب يضعوننـــا بين شقى الرحى • اننا ننظر اليهم من عل ، اذ أصبح الامر لدينا سواء وقد زاد ذلك من قوتهم ، ونسوا عندئذ من هم • ولكن ليكن الامر كذلك انهم لو كانوا أشد عقلا وأكثر تبصرا لما كان لنا أن نستيقظ منسباتنا أرسل أحدا ليأتى بالقاضى ـ هكذا أمرنى ، مغفلا أمر الاعتبارات ، شأنه فى ذلك شأن كل رجل يعطيه غناه حقا فى أن يكون ذا سلطة على الناس ـ

كنت أخشى أن يقوم بطلب ذلك ،فاستعددت له من قبل ، دون أن أدرى ماذا يكون بامكان القاضى أن يفعل · لو رفض القاضى الحضـــور لكان ذلك خيرا ، ولأحدث فى نفسه ثورة وفى نفوس الاهالى أيضا · ولكنه لو وافق وحضر ، وخوفه العجوز او رشاه كى يفرج عن الحاج سنان الدين ، لانتهى الأمر على صورة مهينة قبل أن يبدأ · ولذا قاومت رغبته بسبب تلك الذرة من الامكان فى أن أبدومضحكا · ولو حدث ذلك لما بقى لى سوى الانتظار بلا أمل ، عسى أنتسنح فرصة أخرى ·

سالت فى هدوء ، واثقا من سؤالى ·

ـ فيم تحتاج الى القاضى ؟ ان أمنه أهم شىء بالنسبة له ، أهم من كل ما تســـتطيع أن تقترحه عليه أو تهـــدده به · وثق أنه اذا أفرج عنه فقد اتهم نفسه ·

ـ ماذا تريد ؟ أن ننتظر ، وننشر الحب لنستخبره الامر · أم أن نركن الى تلاوة الدعاء ؟

ـ ينبغى أن نبعث برسالة الى استانبول ، الى مصطفى ، ابن الحاج سنان الدين ، لينقذ والده بأية وسيلة ·

ـ ستصل وقد تأخر الوقت · يجب أن نخرجه قبل أن تصل ·

ـ فلنقم بالأمرين معا · واذا لم ننقذه فليصبهم العذاب على الأقل

نظر الى فى تردد ، كما لو كان امكانموت الصديق قد هزم نفسه وقال :

ـ رجل شريف مثله ، لا يمكن لشر أن يجىء على يده · ماذا يمكن أن يلحقه ؟

ـ وأنا الآخر كنت أظن هكذا بالنسبة لأخى · وانت تعرف ماذا حدث له ·

ـ هذا شىء آخر ، بالله عليك !

ـ كيف يكون شيئا آخر يا على أغا ؟ ان الحاج سنان الدين ليسصغيرا وعديم الأهمية كما هو الشأن بالنسبة لأخى ، فمن أجله يوجد من يتكلم ويدافع · هل هذا ما أردت أن تقوله ؟لعله هكذا ، ولكن القاضى والمسلم يعرفان كذلك أمر وجود المتكلمين والمدافعين · فلماذا اذن سجنوه ؟

لكى يفرجا عنه على اثر تهديدكم اياهما ؟ دعوكم من الســـــذاجة بالله عليكم !

ـ ماذا تريد أنت ؟ أن تثأر ؟

ـ أريد ان اقف فى وجه الشر ٠

ورد العجوز فى حشرجه :

ـ حسن ، لنقم بكلا الامرين ٠ من سيكتب الرسالة ؟

ـ لقد كتبتها ٠ ضع خاتمك عليها أيضا ، اذا أردت ٠ وينبغىأن نجد احدا ليحملها بأسرع وقت ممكن ٠ وينبغى ايضا أن ندفع له ٠ اننى لا أملك لأدفع ٠

ـ سأدفع أنا ٠ هات الرسالة ٠

ـ سأحملها أنا الى من يتولى توصيلها ٠

ـ انك لا تثق بأحد ؟ ربما كنت على حق ٠

ان الخان مكان عجيب ، أتذكره بتلك الرائحة القوية التى تنبعث من أجسام الخيول ومن فضلاتها ، وبأولئك الغرباء الذين يردون اليــه من أمكنة ما وينصرفون عنه الى امكنة أخرى ، وبنظراتهم المشتتة تنبعث من عيونهم الخالية ، مسايرة لأفكارهم التى يرسلونها بمثابة عيون للاستطلاع أو يبقونها معهم شانها فى ذلك شأن المتاع ، وقد جلسوا ضائعينفاشبهوا بذلك المطرودين ٠

والآن، واعجبا ، كان الجميع ينظرون الى ، فى تطلع وارتياب ٠

وسألنى صاحب الخان :

ـ هل الرسالة هامة ؟

ـ لا أدرى ٠

ـ كم أعطى على أغا من النقود ؟
أريته اياها ٠

ـ يبدو انها هامة ٠ أتريد ان اقوم لك بامر الاتفاق مع احد خيالى البريد ؟

ـ يجب ان أذكر له الى من يسلمها ٠

ـ كما تشاء ٠

وجاء بأحدهم الى الغرفة ، ثم استدار وخرج ٠

كان خيال البريد فى عجلة ٠ وما أن وقع بصره على الرسالة حتى صاح :

ـ رسالة بلا اسم ؟ قليل هذا الذى تدفعه ٠

اخذ ينظر الى بعينيه الصغيرتين فى تحد ، وبدا وجهه خشنا بتأثير الرياح ، والشمس ، والمطر ، كما كان هناك شىء يتصف بالقسوة توحى به علائم وجه هذا الرجل الذى يشرق ويغرب حاملا أخبار الآخرين بما فيها من أفراح وأتراح ، دون أن يهتم بما تذرفه العين من دمع ، أو يعلنه القلب من فرحة وتغريد ٠

ـ لست أنا الذى أدفع ٠ فما أنا الا شخص يقوم بخدمة آخر ٠

ـ الأمر بالنسبة لى سواء ٠ ادفع لى الاجر كاملا على الفور ، أما الاكرامية فعندما أعود ٠

ـ نصف الاجر الآن ، ونصفه الآخر عندما تعود ٠ أما الاكرامية فستحصل عليها من الشخص الذى تسلمه الرسالة ٠

ـ هذا أمر غير موثوق به على الاطلاق ٠ اذا كان الخبر سارا فسينسون لفرحتهم أن يعطوا ٠ واذا كان سيئا فسينتابهم الحزن وينسون كذلك أن يعطوا ٠

ـ ان هذا الذى تحمل اليه الرسالة يشغل منصبا كبيرا ٠

ـ هذا هو ما يجعل الامر أشد سوءا ٠ ان هؤلاء يظنون اننا نحظى بشرف عظيم اذ نقوم بخدمتهم ٠ ادفع الاجر كاملا على الفور ٠

ـ يبدو أنك تخونني ، يا صديقى ٠

كان يحمل الرسالة على كفه كما لو كان يزن خطورتها

ـ لعلنى أخوفك ٠ أتدرى كم من النقود يأتينى اذا أنا سلمتها الى شخص آخر ٠

ـ الى أى شخص ؟

ـ على سبيل المثال ، الى المسلم ٠

تملكتني قشعريرة ، وأحسست كم كان جسمي يتصبب عرقـا تحت القميص • لا يمكن للانسان على الاطلاق ان يتنبأ بكل شيء ، فالحظ يلعب بنا أكثر مما نتصور أو نظن • لقد كان هباء ذلك الذى قدرتـه وأعددته ؛ اذ كان فى امكان الجشع لأحد خيالى البريد أن يقضى على فى الخطوة الأولى • لقد شم رائحة سذاجتى على الفور ، وكان ينقصنى كل شيء يمكن أن يبعث فيه الخوف •

فى غمرة الفزع الذى انتابنى كان أول ما خطر ببالى أن انقض على الرسالة مختطفا اياها مهما كلفنى الأمر ، ولذا أخذت يداى ترتجفـان استعدادا لأن تنقض على عنقه • ولحسن الحظ ، نجحت فى أن أسيطر على نفسى ، حتى لقد أخذت ابتسم ، وقلت فى هدوء :

ـ افعل كما تشاء • لا أدرى ماسطر فى الرسالة ، كما لا أدرى أتعود عليك بربح أم لا •

ـ سأتدبر الأمر •

ـ استمع الى يا صديقى • لعلك تمزح ، غير انى الآن لا أصدقك أعطنى الرسالة •

ـ تقول أمزح ؟ اننى لا أمزح • لقـد أردت أن أرى هل هى خطيرة كى أعرف ماذا أحمل • والآن ادركت ، خطيرة هى • لقد قلت لى بنفسك •

ـ ماذا قلت أنا ؟

ـ كل شيء • لقد تجمدت عندما ذكرت المسلم • انك تعلم جيـدا ما سطر فيها • خذها • سيذهب خيال البريد الآخر خلال خمسة أيام • وسوف تدفع له أكثر •

دفعت له ما طلب ، وذكرت له اسم السلحدار ، وأخذت افكر وقد أحسست ببرد الراحة كيف كان يلعب فى حمق بحياته وبحياتى كذلك•

وخرجت متعبا ، بل كدت أكون منهـــوك القوى ، من جراء تلك الفكرة المروعة التى لاحت لى ، وهى ألا أتركه حيا ومعه الرسـالة الخطيرة ولكننى أخيرا تركت له الرسالة عندما ادركت انه ماكر وحسب •

حدث منى ذلك فى سهولة ويسر ، وقد تحررت به على الفور من ذلك الضغط الذى كنت أحسه فى داخلى ، ولـــكننى ما كدت اخطو الى

الزقاق حتى عاودني الشك والارتياب • هل اتهمت نفسي بنفسي واوردتها موارد الهلاك ؟ هل وضعت دليلا ضد نفسي في يد الخيال هذه غير الامينة؟ قبل هذا كنت أقول في غير وعي : سوف افعل كل شيء بنفسي • ولكن كيف يتسنى للانسان أن يفعل كل شيء بنفسه ؟

توجهت مرتين لـكي استرد منه الرسالة ، وكنت أتراجع في كل مرة ، اذ لم تكن لدى عزمة حقيقية للخروج من تلك اللعبة • وفي المرة الثالثة ، عندما اجبرني الخوف ، جئت الى فناء الخان لكي أوقف كل شيء ، امزق الرســالة التي كانت تصـــيح معلنة عني • ولـكن خيال البريد لم يكن موجودا • لقد خرج الى السوق ، ولم يكن هناك احد يعلم سبب خروجه •

واذ ذاك لم يكن في وسعي سوى ان انتظر • اخذت أسير في الازقة المجاورة ، يعروني الاضطراب ويتملكني الخوف ، غاضــبا على نفسي ، دون ان ادري ااستمر في الدوران هكذا في حمق أم اذهب لأختفي ، ودون ان اشــعر بشيء ما من الثقة حتى لقد كنت أشبه في ذلك بطفل أصابه الخوف •

ـ لم يكن ينبغي أن اقدم على ما اقدمت عليه ـ بهـذا كنت أعاتب نفسي ، وان كنت لا ادري على التمام في أي شيء اخطأت • أكان ينبغي ألا أبدأ بشيء ، أم الا أبعث بالرســالة ؟ ان عــدم البدء في شيء معناه رفع الايدي عن كل ما يتعلق به ، وعدم ارسال الرسالة معناه عدم القيام بشيء ، معناه الاستسلام ، وهذا ما لم أرده • ففي أي شيء اذن اخطأت ؟ أم أن اضطرابي الى هذا الحد يرجع الى المصـــادفات التي لم تكن في حسباني ، والتي يبدو أنها تقوم بدور حاسم في الحياة ؟ أم انه يرجع الى التعلق الحتمي بكثير من الآخرين ، ولكنني لا أستطيع ان اثق باحد ؟

واذ ذاك ، وربما بسبب ما نالني من التعب ، احسست كيف اخذت في ضعف استسلم الى الهدوء ، تاركا نفسي تلجأ الى الانتظار • لم يعد هناك شيء يتوقف علي ، وليس باستطاعتي بعد ان اغير شيئا • سوف يكون ما يقدره الله • ولكنه ليس من العدالة • ومهما يكن من شيء فهـو ليس من العدالة • لم يخطر ببالي التفكير في أمر خيال البريد على الاطلاق فانه عديم الاهمية الى هذه الدرجة التي لا تجعلني افكر في أمره ، فكيف أصبح في استطاعته الآن ان يهلكني ؟ حقا ليس بوسع الانسان أن يحيط فكره بجميع ما يمكن ان يصادفه في حياته من أخطار •

وقبيل الظهر سألت عنه في الخان مرة أخرى ، دون أن أدرى لماذا كنت في حاجة اليه ، فقد مرت فترة من الزمن كان باستطاعته أن يفعل فيها كل ما يريده • ولكنى لم أجده ، لقد انطلق فى سفره الطويل •

انه اذا كان قد كشف أمر الرسالة ، فسوف ينتهى الامر عنقريب وليس هناك من مكان ألجأ اليه عند الهروب •

لم أكن أملك من القوة ما يعينني على الانتظار • فقد انهكتني هاتان الساعتان اللتان شغلتا بسلسلة من الاحتمالات • وسرت قاصدا مبنى المسلم ، لكى أخلص النفس مما تعـــانيه من مرارة وما تحس به من اشمئزاز • وفي اللحظة التى عزمت فيها على الذهاب شعرت فى داخلى بسهولة ويسر • فالنتيجة واحدة ، اذا قبضوا على أو قمت بتسليم نفسى وعلى الرغم من ذلك فالامر فى أحدهما يختلف عن الآخر تمام الاختلاف ، لأننى وقد اخترت الطريق الثانى اذهب بنفسى للقاء الحل • لقد عاودتنى شجاعتى ، وكذا ارتد الى انشراحى بصورة أكثر حيوية ، لأننى غيرت مركز تجاذب القوتين بجعلى القرار يصدر عن نفسى • اتجاهك نحو التهـديد يبدو أمرا صغيرا وأشبه شىء بالحيلة ، ولكنها تحمل فى باطنها كل شىء انك تفعل ، ولا تنتظر • انك مشترك ، ولست ضحية • ومن يدرى لعل جوهر الشجاعة يكمن فى هذا ؟ أكان ينبغى أن تمر هذه السنين الطويلة لكى أكشف هذا السر الهام ؟

ذكرت للحارس من أكون ورجوت مقابلة المسلم • ونبهته الا يقول : أحد الدراويش ، فليحفظ الاسم والرتبة ، فهما مهمان •

اذا سمح بمقابلتى كان فى استطاعتى أن أقول له الكثير • أن أطلب الرأفة بالصديق الحاج سنان الدين • ان أوضح لماذا رجوت الحراس ان يفرجوا عنـــه • أن أنبه الى ما حدث فى السوق من اضطراب • ان اذكر الأشياء العديدة التى لا تلزمنى بشىء ولكنها تدل على النية الحسنة •

لم أكن تام الهدوء ، ولكننى أدركت أن هذا الذى افعله يعد افضل من سائر الأشياء التى يمكننى فعلها : هأنا لا اختفى ، لا أهرب ، وانما أحضر بنفسى للحديث بنية حسنة وضمير صادق •

لا شك أنه سيسمح لى على الفور بالدخول اذا كانت الرسالة قد وصلته • وعندئذ سيتضح على وجه السرعة كل شىء • وحتى لو كانت

الرسالة قد وصلته فلا زال هنالك أمل • ان صاحب الرسالة هو على أغا ، وأنا الذى قمت فحسب بتحريرها • وقد حضرت لأقول له ذلك •

وبينما كنت انتظر ، مفكرا فى جميع ما يمكن أن يوجهه من الاسئلة خطر ببالى اننى سوف أكون مضطرا ـ عدا ما اضطررت اليه من هـــذا الانتظار القبيح، وهذا الحديث الذى أعده واحشوه بما يحمل بعض الصدق وبما هو بمنأى عنه ـ الى أن افعل كثيرا مما لا يعد جميلا ، من أجل ذلك الذى يعد جميلا • وربما ساكون مضطرا الى القيام بالاعمال التى ســـوف أخجل منها فى الفترة الفارغة من حياتى ، رغبة فى تحقيق العدالة التى تعتبر أهم من جميع الذنوب الصغيرة •

ولكن لا يزال فى امكانى أن أتوقف ، اذا شاءت ارادة الله ذلك •

الهى ـ كنت أهمس فى داخلى بلهفة ، متطلعا الى السماء الرمادية فوق القصبة أثقلتها السحب المكتظة بالثلوج ـ الهى ، أيكون جميلا هذا الذى أقوم به ؟ اذا كان غير جميل ، زلزل ثباتى ، أضعف ارادتى ، أجعلنى مترددا • الهى ، اظهر لى علامة ، حرك أغصان الحور ولو بنسيم الرياح ، ولو حدث ذلك فى هذه الفترة من الخريف لما كانت فيه أية غرابة ،وسأتنازل عندئذ ، مهما بلغت منى الرغبة فى أن أقوم بذلك •

لم تهتز أغصان أى من أشجار الحور على شاطىء النهر • لقد كانت تقف فى هدوء ، مشدودة القمم الى السماء تغشيها السحب والغيوم ، وقد انتابها الصمت وتملكها الفتور • ذكرتنى هذه الاشجار بمثيلاتها التى توجد فى قريتى حيث ولدت ونشأت ، والتى تقف على شاطىء نهر يعد أجمل وأكبر من هذا ، وتقوم تحت سماء أجمل وأكبر من هذه • لم تكن هـــذه الفرصة ملائمة لكى أستعيد الذكريات ، فقد بدت لى هذه الاشياء أشــبه بوميض البرق ، أو بزفرة من الزفرات • وتلاشت • وبقى يوم غائم أمامى ، وسحب ثقال فوقى ، وطمى ماكدر فى داخلى •

أيظهر ظل اسحاق ؟ هذا هو وقته •

عاد الحارس • المسلم لا يستطيع أن يقابلنى •

ـ أذكرت له من أنا ؟ ولم تنس اسمى ؟

ـ أحمد نور الدين • شيخ التكية • المسلم يقول لا وقت له • جىء مرة ثانية •

لم يكن يعرف عن الرسالة ٠

تلاشت على الفور جميع الأشباح ، نسيت أشجار الحور ، واليوم الكدر ، والحزن ، والذكريات ٠ كنت على حق : لا ينبغي أن ننتظر شيئا ، بل يجب علينا أن نواجه كل شيء ٠ اذا لم يكن الانسان بليدا وجبانا فهو ليس بضعيف ٠

وفي فناء بيت على أغا كانت تقف خادمة صغيرة للقاضي في ملابس رثة بالية ٠ وهمست لى زينب تقول ان زوجة القاضي عند على أغا ، وقد اضطرت أن تذهب اليها مرتين تدعوها للحضور ٠ فقد طلب على أغا مجيئها مهما كلفها الأمر ، وهي لا تعرف لماذا ٠

توقفت في بداية السلم ٠ وخلال الباب الذى كان مفتوحا كما بدا لى أعلاه كان يصل الى أذني الحديث ٠ لو لم يفاجئني هذا الحديث ولو لم أكن في حاجة اليه لما تسمعته ٠ كان العجوز يطلب من ابنته أن يحضر القاضي اليه بأية وسيلة ٠ انه لم يرد أن يتنازل عن قصده ٠

سمعت كيف يصيح مختنقا بالغيظ والغضب :

ـ ان الأمر هام ، لقد قام بفعل أحمق ، هو او الآخرون ، ولكنه سيكون مذنبا أيضا ٠ ليحضر ، أو ليفرج عن الرجل ،كي أهدأ أنا بدورى٠

ـ انني لا أتدخل في أعماله ، ولا أهتم بها ٠ وبخاصة الآن ٠ وأرى من الأفضل ألا تتدخل أنت الآخر ٠

ـ اتظنين أنني أرغب أن أتدخل ؟ لا لست أرغب ولا أستطيع ٠ انني رجل مسن ، ضعيف ، مريض ٠ كيف يتسنى لى أن أشغل نفسى بأمور الآخرين ؟ ولكنى مضطر ٠ انهم ينتظرون ذلك منى ٠

أهذا صوت على أغا ، صوته الباقي ، الضعيف ، اللزج ، بتأثير رثائه لنفسه ؟ هل هذه الكلمات كلماته ؟ الهي الأعظم الن يكون في وسعى الى الابد أن أعرف شيئا عن الناس !

ـ لست مضطرا ولكنك تريد ٠ لقد تعودت أن تسمع كلمتك ٠ انك تحب أن يسير الأمر على هذا النحو ٠

ـ لا أحب ٠ لا اريد بعد ، فليست لى طاقة بشيء ،كما ليس في وسعى ان أعترف لهم بذلك ٠ ساعديني ، لكى يفرج عنه ، من أجلى ٠ حتى لايقال

انني نسيت الصديق ، وحقا نسيت • ان هذه الانفاس الباقية لى من الحياة جعلتها من أجلك ، ومن أجل حسن • ولكن كيف أكشف لهم عن ذلك ؟

ـ حسن ، يا ابت ، سوف نواصل الحديث فيما بعد ، فليست هناك جبال تفصلنا أو محيطات •

ـ الأمر عاجل ، عاجل جدا •

ـ سوف أحضر غدا •

ـ احضرى فى الصباح الباكر ، لتعلمينى به، قال ، وكما يرى الليل انسب للحديث •

ما هذا ؟ لقد ظهر الشرخ الاول فى مكان من الصخرة كنت احسبه أكثر صلابة • شعرت باحتقار تجاه ضعفه الذى يخفيه ، وأحسست اذ ذاك بخجل كما لو كنت قد فاجأته يرتكب خزيا •

هبطت الى حيث يوجد مكان الاحذية عند بداية السلم • ووقفت كما لو كنت داخلا لتوى •

رفعت يدها لتسدل ستر وجهها ، ولكنها عدلت عن ذلك عندما تبينت شخصى • وسألتها كيف حال الوالد ، فأجابت فى اقتضاب ، وارادت أن تمر • وكنت مضطرا الى أن أستوقفها ،فلم اعد بعد خجولا كما كنت فيما مضى •

ـ كلمتين فحسب ، اذا لم تكونى متعجلة •

ـ انني متعجلة •

ـ فى الربيع بدانا الحديث ، ويجب عينا أن ننهيه • نعم لقد مات أخى ، ولكننى ما زلت حيا •

ـ دعنى لأنصرف •

ـ هناك صداقة تربطنى بوالدك ، صداقة عظيمة •

ـ وما شأنى فى ذلك ؟

ـ سوف أساعدك فيما ترغبينه ، كى لا ينساك ، قبيل الموت •ولست اطلب سوى أن تحثى القاضى فى الافراج عن الحاج سنان الدين • والا فلا أمل لك فى شىء • اننى أعرض عليك الاتفـــاق • وستكونين اكثر استفادة •

ـ انت تعرض على اتفاقا ؟

ـ نعم اعرض ٠ ولا تحقرى من شان ما اقول ٠

مر كالبرق الخاطف فوق بياض عينيها ظل من كراهية أو احتقار ٠ لقد أسأت اليها ، وهذا ما أردته ٠ والآن لن يفرج القاضى عن الحاج سنان الدين ، وحتى لو كان قد قصد ذلك ٠

لم يكن الامر سهلا بالنسبة لى كى أكون حشنا ، لقد أصابنى غضبها كانه السوط ٠ ولو أنها تكرمت بأن تكون عدوة لى لكنت فى حاجة الى رحمة الله ٠

دخلت غرفة على أغا ، مفكرا فيما برق فى عينى المرأة أكثر مما كنت افكر فى جمالها ٠ الى اين تسير فكرتها المقلقة التى بلغت حرارتها حدا لا تستطيع معه أن تركن الى السكون ؟ الى أى غاية يرمى صمتها الحذر ؟ ربما كان فى امكانها ان تكون زوجة صالحةوأما صالحة كذلك ، وماذا هى عندما لا تكون ذلك ؟

ـ هل سلمت الرسالة ؟

كنت أنظر الى العجوز مشتت الفكر ، فقد كنت لا أزال فى دوامة من أجل احتقار المرأة اباى ٠

ـ لقد حضرت اليك الابنة ؟

ـ انها تحضر كل يوم ٠ فهى قلقة لأننى آكل قليلا ٠ هل تحدثت معها ؟

ـ أهى تتحدث مع أحد ؟

ـ تتحدث كما يبدو لى ٠ انك لا تحبها ؟

ـ رجوتها من أجل الحاج سنان الدين ٠ كى تحث القـــاضى على الافراج عنه ٠

ـ و ٠٠ ؟ ماذا قالت ؟

ـ لا شىء ٠

ـ غريبة هى أحيانا ٠

ـ كيف حالك الآن ؟ يبدو أنك منتعش ٠

ـ اننى أشعر بالتحسن الى درجة تمنيت معها ـ اغفر لى يا رب ـ أن يسجنوا كل يوم صديقا ٠

ان هذا الصوت منتعش وشديد الثقة ، الم أسمع منذ قليل صوتا مخالفا لهذا ، خائفا وباكيا ؟

اية لعبة تكون هذه التى يلعبها ؟ ومع من ؟ مع نفسه ، من أجل الآخرين ؟ أو مع الآخرين ، من اجل نفسه ؟ ومن يكون هو ؟ عقدةالعادات والتقاليد ؟ صورة متخيلة ؟ ذكرى ممتدة ؟ أيهما أهم أذلك الذى يتوقعه الآخرون منه ، أم ضعفه هو ؟ وكلاهما يعيش فى نفسه ، ويصدر القرار ٠ ان فخره القديم يدفعه للتدخل ، ولكن حالته الراهنة تحول دون ذلك ، فتعبه وهو على أبواب الموت يتطلب منه أن يغمض عينيه ، ولكنه يتظاهر امام الناس بقوته السابقة ، بظلالها التى بقيت ٠ أينتهى كل انسان هكذا مقاوما من أجل استرداد شخصيته السابقة واستعادة ما كان له من سلطان وسيطرة فى سالف الأيام ؟

اية ناحية ستكون الراجحة ٠

قلت وانا اجلس ناحية قدميه :

ـ كان خيال البريد يخوفنى ٠ لقد كان وقحا عندما وجد أن الرسالة لا تحمل اسما ٠

ـ لماذا لم ترسله الى ٠٠ عفوا ٠ كان يجب أن تدفع له ٠ ولو فعلت ذلك للان على الفور ٠

ـ لقد خفت بدرجة كبيرة ٠ وهذا ما دفعنى الى التفكير ، هل يكون الامر على ما يرام ، باثقالى عليك بهذا العبء وقيامى بحثك على أن تتدخل

ـ لا أدرى عن أى شىء تتحدث ٠

كان صوته ينبىء عن نفاد صبره ، كما كان ينبىء عن الشعور بالاهانة ٠

ـ يمكنك ان تحث مجنونا ، أو صبيا غير عاقل ، أما ان تحثنى فلا ٠ لقد تحدثت عن الرسالة فحسب ٠ وانا قلت انه يجب علينا أن نقوم باكثر أتكون ذاكرتى قد خدعتنى على التمام ؟ بأى شىء أثقلت على ؟ ان القيام لا أقوى عليه ، ولكن الكلام ـ لحسن الحظ ـ أستطيعه ٠ ولا يمكن لأحد أن ينزع عنى اهتمامى بالصديق ٠ فهذا أمر يتعلق بضميرى ٠

ـ من الممكن ان يكون خطيرا ·

ـ لا شيء بعد يمكن ان يكون خطيرا بالنسبة لى · أو اذا شئت فكل شيء خطير · ان الموت يتربص وراء الباب ، ينتظر · وعندما أقوم بشيء لا افكر فيه ، لا يهمنى أمره · احس أننى أعيش ·

كان حديثه حديث الواثق ، وكان وقعه يحمل على الاقتناع ، مثله مثل حديثه الآخر منذ قليل · واحدهما يجب أن يكون أكثر دلالة على شخصه أقرب الى ذلك الذى يدور بفكره ويرغب أن يكون ·

على أية حال ، فالأمر سواء · سوف أثبته على الناحية التى أراها انسب لمتطلباتى ، واثقا به · قلت متملقا :

ـ يطيب لى ان تقول هذا · اننى أقدر الرجال الشجعان والكرماء ·

ـ ويجب ذلك· اذا وجدتهم · غير أن الرجال المسنين ليسوا بشجعان ولا كرماء · ولست انا ايضا · ربما أكون ماكرا فقط ، وهذا مكتسب من طول الحياة وكثرة التجارب · ماذا باستطاعتهم أن يفعلوا بى وأنا فى هذه الحال · أيودون أنيسجنوا أو يقتلوا رجلا أخذ يسير فىطريقه الاخير؟ هؤلاء الناس حمقى ، سوف يرحمون الرجل المسن غير المفيد ، ويهلكون الشاب ، الذى لم تزل أمامه الحيــاة · ولذا سآخذ كل شيء على عاتقى كل شيء على التمام ، سوف أستغل هذا التفوق ، اذ أنه لا يسنح سوى مرة واحدة فى الحياة ·

كان يضحك آخذا فى السعال ·

ـ خبث ، أليس كذلك ؟ أن يكون الانسان بطلا دون خطورة ·

خبث وهزل ·

لست ادرى أيعد هزلا ، كما أننى لست واثقا هل سيرحمونه ·ولكن ليكن ، أيها العجوز ، كما تحب وكما تشاء · لو أنك أصبت بنكبة لحزنت ولو لم أنجـح أنا لكان حزنى أكثر منـك · لم نعد نحن الاثنين مهمين ، لا أنت ولا أنا ·

وكم كان عجيبا أنه الى الآن لم يسالنى ولو مرة واحدة لماذا سجن الحاج سنان الدين ، وهل هو مذنب · قلت انه ، كما سمعت ، مشترك فى حادث الهرب الذى قام به المسجونون من أهل « سافا » وأنه سجنه بعد بداية المطاردة لوجهاء القوم ، بسبب تزايد رفضهم اطاعة أوامـر

السلطان والولاة ، ذلك الذى بدأ بامتناعهم عن دفع المساعدات الحربية ·
وهذه المطاردة التي تمثل ضربة مسددة الى أسفل الذقن يجب أن تزرع الخوف ، بعد الثورتين اللتين قامتا في منطقتى نهر السافا ، والكرايينا ، لكي لا يكون الحادث السيء في هاتين المنطقتين بمثابة القدوة لحادث مثله هنا · الامر الذى لا ينبغي أن يكون·ومن أجل هذا بالذات · وحتى لايتسع نطاق البلبلة ، وحتى لا يحدث ذلك الذى لا يرغبه أحد من العقلاء ، يجب الاطاحة بأولئك الذين يخلقون الدسائس ويقومون بالتآمر وينشرون الغضب ، أولئك الذين يقومون بالظلم متظاهرين أنهم يطبقون القانون والذين فى امكانهم بتصرفاتهم السيئة أن يجبروا الآخرين ان يقوموابأعمال التخريب وسفك الدماء · ولو ساعدت مصيبة الحاج سنان الدين فى أن يبعدهم الله عنا ، فلن تذهب سدى هذه المصيبة ، ولا ما يؤرقنا من هموم

لوح العجوز بيده معلنا عدم مبالاته بذلك الذنب الذى الحق بسنان الدين ، وربما كان ذلك لأنه لم يره كبيرا ، او لأنه لم يصدقه ، وأمـا بشأن المطاردة فقد قال ان خوف الناس هو الذى يدفعهم الى اشـاعة ذلك ، وان لم يكن مستبعدا من العقل ، لأن الأمور لم تتحسن على الاطلاق بل أخذت تزداد سوءا ، أو لعله يبدو لنا هكذا لأن هذا الذى يكون بعد أصعب من ذلك الذى كان ، وعلى الدوام يكون الدين المسدد أخف من ذلك الذى لايزال على عاتقنا · انه لا يصدق أن أحدا سمع بشأن تلك المطاردة . اذ لو كان بنيتهم أن يقوموا بها لتجنبوا الافصاح عنها · واذا كان قد حدث منهم ذلك الافصاح فقد اتضح أنهم لا ينوون القيام بالمطاردة بل يريدون تخويف الناس · وأما بخصوص السلطة فانها دائما ثقيلة ، وسـتظل تجربنا على ذلك الذى لاترتضيه نفوسنا·ماذا سيحدث لو أقصى هؤلاء الناس خلال سنى عمره غير ، وطرد ، أو قتل عديد من القضاة ، ومن المتسلمين، وممن يحملون رتبة القائمقام ، وليس باستطاعته أن يحصى عددهم ،فهل تغير شيء بسبب ذلك ؟ تحليل ذلك الذى تغير · والناس لا يزالون يعتقدون أن الأمر يمكن أن يكون على صورة أخرى ، ولذا ينشدون التغيير · انهم يحلمون بالسلطة الحسنة · ولكن ماذا تكون ؟ أما ما يتعلق به فانه يحلم بأصحاب الرشوة ، انهم أحب الناس اليه ، اذ أن له طريقا يملكه اليهم · وشر النـــاس لديه الشرفاء ، الذين لا يحتـــاجون الى شيء ، والذين لا يتصفون بالضعف ولا يرضون بالهوان ، والذين لا يعرفون غير القانون الذى يعد سلطة تعلوهم · ويصعب على الرجل العادى أن يفهمه · ويرى أنه ليس فى استطاعة أحد أن يفعل الشر كما يفعلونه هم · انهم يخلقون

قدرا من الكراهية ، يكفي لقرن من الزمن • وأما هؤلاء الذين نشأوا بيننا فانهم لا يعدون شيئا • انهم صغار في كل شيء • لا يعرفون أن يكونو أشرارا ولا أخيارا • لديهم قدر من القسوة وقدر من الحصافة • يكرهون القصبة ولكنهم يخشونها • ولذلك نراهم غاضبين ، وميالين للثأر اذ استطاعوا ، أو ظنوا أنهم مستطيعون • ولو واتتهم الجراة لتنفيذ مايرغبون لعرف الجميع كم هم خطرون ، ولكنهم على الدوام يخشون الوقوع في الخطأ • غير أنه من الممكن وقوعهم فيه اذا تساهلوا أو بالغوا • وأفضل ما يخفف من حدتهم ويكسر من صلابتهم هو التهديد ، وخاصة اذا بلغهم في هدوء وفي صورة تقوم على التلميح لا التصريح ، لأ نهم لايجدون سندا ولا يملكون لشخصياتهم قيمة ، وهم يعتمدون دائما على الصدفة وعلى أحد من أولئك الكبار ، ومن الممكن أن يكونوا على الدوام بمثابة الكسور في رصيد أحد من الناس • وعلى أية حال ، هم مساكين ، ولذا يكونون في بعض الاحيان على غاية من الخطورة • ان كل ما يتمناه العجوز هو أن يساعد الحاج سنان الدين ، والامر سواء بالنسبة له أسيبقى هؤلاء هنا أم سيذهب بهم الشيطان •

ان تفكيره يختلف بعض الشيء عن تفكيري ، ولكنني لو عارضته لبدا الامر حماقة ، ولذا لن يكون ذلك مني حتى يكون منه ما يقف حائلا دون تحقيق رغباتي •

رجاني كي يبيت ملا يوسف عنده • اذ ليس عنده أحد من الخدام •

أطرق الشاب برأسه ، ليخفي سروره ، عندما أذنت له بالبقاء •

دنا الاصيل كدرا ، وبدت السماء مثقلة هامدة ، وفوق القصبة كانت تنتشر أعلام السكون •

مكث الناس ينتظرون شيئا طيلة نهارهم ، مصيخين السمع ،مدققين الأعين ، وقد شردت أذهانهم عن أحاديثهم العادية وأعمالهم اليومية ، وازداد الهدوء بعد اضطراب الصباح ، وران الصمت على المكان ، كما لو كانت الجيوش المتحاربة قد انسحبت عائدة الى مقارها ، تنتظر الليل أو الصباح لتبدأ المعركة • وهذا الهدوء بالذات ، وهذا السكون ، وجبهة القتال هذه الخالية ، بلا صياح ، للأسباب ، بلا توعد ـ أشياء كلها تبعث التوتر ، ذلك الذي كان يتزايد لحظة اثر أخرى • وستكون النهاية عندما ينفجر كل شيء • كان كل ينظر الى الآخر ، كما ينظر الى المارة ، ثم يلقي ببصره عبر الزقاق ، كانوا ينتظرون ، كل شيء • يمكن أن يكون علامة •

وانا الآخر كنت أنظر عبر الزقاق · لم يبدأ بعـدولكنى أنتظر ، وجميعا ننتظر ، فشيء سوف يحدث ، عن قريب، لقـــد أخذت دعائم القصبة القديمة تحدث صريرا ، وأصبحت الاذن لا تكاد تسمع هبوب الرياح من أعلى الجبال الشاهقة ، وأخذ العالم يزمجر ·

انطلقت الطيور هاربة تصيح ، متجهة صوب السماء السوداء ، ولزم الناس الصمت ، واحسست بألم فى دمى من أجل الانتظار ·

١٥

« فالحق ، والحق اقول »

قضيت وقتا طويلا من الليل دون نوم • ثم اخذت اغفو فتـــرة لأستيقظ اخرى ، مواصلا تفكيرى فى النوم واليقظة ، دون استطاعة منى للتفريق بينهما ، موقنا اننى لم اغمض عينى واننى سوف أقضى الليل كله هكذا ، نصف مرتد لملابسى أو نصف خالع ، لكى لا تفاجئنى الأحداث وانا على غير استعداد •

لم استطع ان افكر بصورة تدريجية ، وربمـــا كان ذلك بسـبب النوم الذى يقطع الخيوط ويهدم النظام • أو بسبب نفاد الصبر ، ذلك الذى كان يجبرنى على الوصول الى أهم الامور باسرع وقت ممكن ، وهكذا كنت أعيش على الدوام فى لقاءات مستمرة مع هؤلاء الثلاثة • وخاصـــة مع القاضى ، لقاءات توصف بالتانى والتروى ، متابعا جميع حركاتهـم التى تبعثها المفاجأة ، الخوف ، الأمل ، مطولا بقدر الامكان هذ اللحظات الباعثة ، تلك اللحظات التى ترى رائعة عندما يأخذ كل شىء فى الانحطام لقد اقتلعت الجذور فحسب ، ولم يصل ذلك الى وعيهم الكامل بعد ، انهم يعيشون بحسب تعـودهم القديم ، ولم يفقدوا بعد سيطرتهم أو يحسوا باحتقار نحو أنفسهم • ان ما يعد جميلا هو خوفهم لا ارتضاؤهم للسكوت خوف ، ضباب ، ذرة من الامل ، قلق فى الأعين • أو لعل ما يعد أفضل من ذلك (أعود بهم الى اللعبة• أجبرهم على أن يبدءوا من جديد) : كل شىء بالنسبة لهم قد انتهى ، وهم لا يعرفون ، لا يعتقدون ، بل يقفون فى صلابة فى ثبات ، كما كانوا حينذاك ، كما كانوا دائما حتى الآ انني لا أود أن اراهم مهدمين، اذ ان كراهيتى تضعف عندما تنطلق فكرتى ، دون ارادة منى ، ودون اطاعة منها لى ، مجاوزة ما أرغب واشتهيه • فالكراهية ،مثلها مثل الحب تحتاج الى الناس الأحياء •

هببت من نومى على اثر طلقات قوية تنطلق فى مكان ما من القصبة أهذا هو البدء ؟

كانت الليلة القاتمة لا تزال تجرر أذيالها • أوقدت الشمعة ونظرت الى الساعة المعلقة فى الجدار • عن قريب سيبزغ الفجر •

ارتديت ملابسى وخرجت الى ممر التكية •

كان الحافظ محمد يقف ببـــاب غرفته ، ملتفا بمعطف كسى باطنه بالفراء •

الا ينام هو أبدا ؟

ـ سمعتك ترتدى ملابسك • الى أين تذهب هكذا مبكرا ؟

ـ أية طلقات تلك ؟

ـ ليست هذه أول مرة تسمع فيها هذه الطلقات • وماذا يهمك من أمرها ؟

ـ الا تكون من أجل الحاج سنان الدين ؟

ـ ولماذا تنطلق من أجل الحاج سنان الدين ؟

ـ لا أدرى •

ـ لا تذهب • سوف نعلم عندما يطلع الصباح •

ـ ساعود على الفور •

ـ الوقت ظلام ، وخطير ، وهناك أناس على اختلاف أنواعهم • ياالهى يا رحيم ، أأصابتك مصيبته الى هذه الدرجة ! أمن من أجـــل احسانك ينبغى أن تصاب بنكبة انت الآخر !

ـ ينبغى أن أرى •

ـ ماذا تتوقع ؟

اندفعت أسير بجـــانب سياج خشبى ، وجدران لبعض البيوت ، واختبأت فى الظلام عندما مر بى بعض الجنود ، اذ أننى بعد أن سجنت كان يغمرنى خوف غامض لسماع خطى الآخرين السريعة ، وجريهم المذعور كنت اخاف من كل شىء يحدث فجأة • والآن وددت أن أعرف ماذا يحدث هناك • لقد أردت ان أصل، أن أرى ، أن أتدخل •

فى أى شىء أتدخل ؟

وحقا ، ماذا أتوقع ، في أي شيء آمل ؟

ان جميع آمالي قد تعلقت بالرسالة التي حملها خيـــال البريد الى السلحدار مصطفى في استانبول · واذا لم يرد من هنـــاك قريبا قرار القتل ، أو على الأقل أمر بتنحية المذنبين ، فلا وجود اذن لعاطفة البنـوة نحو الأبوة ، كما لا وجود للشرف كذلك · وفي هـذا لا يجـــدي حتى التفكير ، فقيمة الحياة عندئذ لا تساوي قطعة نقد من النحاس ·

ولكن حتى اذا لم يكن يوجد ذلك فانني أثق بوجود الكبرياء لدى هؤلاء الأقوياء · وهذا مالا يمكن أن يتأتى فيه خداع · أيقبل ســـلحدار السلطان على نفسه أن يجر حكام القصبة الصغار والده بين السجون ؟ لو حدث أن وقف أمامه أحد أقوى منه لحارب ضد عاره ، وأما عن هـــؤلاء فسيتناثر ريشهم في جميع الجهات ، فطبعه دون شك ليس ملائكيا ، كما أن يده ليست هينة · وقد استطاع أن يصعد الى هذا المنصب ·

سوف يقوم لي بكل شيء ، وما علي سوى الانتظار ، وهذا هـــو الأفضل والأضمن · ولكنني لم أستطع بأية طريقة أن أتهرب من أهـــل السوق ، وخاصة حينما اخترت الحاج سنان الدين لكي يكون الطعم ، واشركتهم في امر هذا الحنث · انهم يستطيعون أن يفسدوا كل شيء ، ولكن ماذا كان في امكاني ان أفعل سوى ذلك ؟ لو استطاعوا التوصل مبكرا الى الافراج عن الحاج سنان الدين ، دون جلبة ودون افساد وتخريب لضاعت جميع الجهود سدى · كنت اتوقع أنهم سوف يقومون بما هـــو أعظم وأصعب · ولا أدري بماذا · ربما قد ذهب ممثلهم الى الوالي بالشكوى ربما سيدفعون الى الأوباش والجنود السابقين كي يقوموا بخطف السجين · ربما سيحرضون الانكشاريين كي ينحوهم عن السلطة · فقل أن يعرف أحد ما ينوون فعله ، ولكنني كنت آمل الا يمر شيء في هدوء · يجب ان يسمع الى ابعد حد ممكن · رغم أنني أود أن يحدث شيء بدوني · اذ كان لزاما علي أن أعوض خسارتي ·

التقيت عند الجسر الحجري بالخفير ·

ـ الى أين تذهب هكذا مبكرا ، يا حضرة الشيخ ·

ـ لقد خدعتني الساعة ·

ـ الهي ، ما هذه الحياة · من يستطيع النوم لا ينام ، ومن يود على الدوام أن ينام قدر له أن يتسكع طول الليل ·

ـ هل من أخبار جديدة ؟

ـ كيف لا ! توجد على الدوام أخبار جديدة • غير أن أحدا لايحكى لى شيئا ، ولذا لا أعرف •

ـ فى مكان ما دوت منذ قليل بضع طلقات •

لحسن الحظ ، ليس فى منطقتى •

ـ أيمكنك أن تسأل عن ذلك ؟

ـ بالنسبة لى غير مهم •

ـ سادفع •

ـ انك لم تدفع حتى عن ذلك الذى كان أهم بالنسبة لك • ومن يدرى لعل هذا لديك هو الاهم • انتظر ، لم تغضب ؟ سوف أخبرك بدون مقابل لقد سألت جارى الخفير • واتضح أنه لا يعرف هو الآخر • واذا ذكر لى أنه لا يعرف كان المعنى على التمام كان شيئا لم يحدث • وليس لى بعد أن أسأل أحدا •

أخذت النوافذ تضىء وكأنها الأعين تفتحها البيوت •

عندما اكتمل وضوح النهار ، جاء الى ملا يوسف يحمل خبرين ، أحدهما أن « حسن » قد عاد فى الصباح البـــاكر الى البيت ، فقد ظل يواصل سفره طول الليل ، والآخر ، وكان أشد غرابة من الاول ، أن السوق معطلة •

وحقا كانت المحال والدكاكين موصدة ، وستائر نوافذها مسدلة ، واقفالها الخارجية محكمة ، ولم تكن السوق ترى من قبل فى أعظم الاعياد هكذا خالية •

كان الخياط الشاب ، نزيل القصبة ، يضم مصراعى باب دكانه فى سرعة وهو يتلفت فى ذعر •

ـ لماذا أرى السوق معطلة ؟

ـ لا أدرى • لقد جئت مبكرا وأخذت أعمل ، وعندما تطلعت لاحظت أن أحدا لم يفتح •

هز الباب يستوثق أنه أغلق ، ثم وضع المفتاح بسرعة فى جيبه ، كما لو كان يخفيه ، وذهب مسرعا يخترق الزقاق •

وعلى البعد لمحت تاجرين يقبلان ، وكانا يسيران فى بطء ، كما يسير الحراس ، وينظران فى هدوء خلف الخياط ·

سألتهما :

ـ الم تقولا له ان السوق ستكون معطلة ؟

ـ ومن قال لأحد ؟

ـ الم تتفقوا ؟

نظر الى فى دهشة :

ـ من أجل أى شىء نتفق ؟

ـ لماذا اذن أغلقتم المحال ؟

ـ أنا فضلت هكذا الا افتح اليوم ، وربما حدث من الآخرين ذلك ·

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لماذا ؟ وما يدرينا لماذا ·

ـ أحقا لم تتفقوا ؟

ـ يا افندى بالله عليك كيف يمكن لأهل السوق جميعا أن يتفقوا

ـ ها هى الدكاكين جميعها مغلقة ·

ـ وهى بالذات من أجل هذا أغلقت ·

ـ من أجل ماذا ؟

ـ من أجل عدم الاتفاق ·

ـ ألا يكون هذا من أجل ما حدث بالأمس ؟

ـ قد يكون من أجل ما حدث بالأمس ؟

ـ أو بسبب تلك الطلقات التى سمعت فى الصباح ؟

ـ قد يكون من اجلها ·

ـ أو بسبب شىء آخر ؟

ـ ربما يكون

ـ ما هذا الذى يحدث فى القصبة ؟

ـ لا ندرى · وبسبب هذا فضلنا الاغلاق ·

لم يكن بصرهما موجها الى ، بل تجاوزنى لينظر خلفى · كان

مظهرهما يوحي بالجد ويدل على الشرود ، وقد استطعت أن أحس بمدى ما يحملانه من الهموم ، وبفشلي في أن أصل معهم الى شيء ·

ـ وماذا سيكون الآن ؟

ـ لا شيء باذن الله ·

ـ واذا كان ؟

ـ فها نحن قد أغلقنا الدكاكين ·

أكانت اسبابنا نحن الدراويش تبدو لهم غير مفهومة مثلما تبدو لنا اسبابهم ؟

لا استطيع أن اقول انهما غير صادقين ، ولا أنهما حذرين · غير انني استطيع القول انهما يشعران بخطر ما : واذ يكون الأمر كذلك فكل انسان له لغته ·

حكيت لحسن هذا الحديث · لقد ترك التاجران تأثيرا غريبا في نفسي ، هذان اللذان تحولا في ليلة واحدة الى شخصين أجنبيين ، بسبب ذلك الذي قمت بتحريكه · ألم يكن ينبغي ان يصبحا أشد قربا الى ؟ قلت لحسن ذلك بطريقة أخرى : الم يكن ينبغي أن يكون فكر احدنا شبيها بفكر الآخر ، وقد أثارنا سبب واحد ·

كان حسن يرتدي ملابسه في غرفته · لقد استحم ، وقال للمرة الثانية انه متعب ، انهم كانوا يسرعون في طريق العودة ، من أجل الوالد ، وقد ضعف صديقه الدوبرفنيكي ضعفا شديدا ، ومن المؤكد انه سيقضي في النوم يومين كاملين · أما هو فلم يبد متعبا ، بل بدا مشتت الفكر مشغول البال · ان علائم التشتت في وجهه المرح كانت تجعله حالما ، منفصلا عن كل شيء · كان هناك شيء مشع متهلل يبعث على الضحك ويوصف بقلة الاتزان ينير داخله ويحول بينه وبين أن يمد بصره الى عالمه الخارجي كي يراه · وحينما كنت أحكي له كان يجيب بقوله : نعم ، بكل تأكيد ، ولكن كان يخيل الى انه لم يكن يفهمني ، كما لم اكن انا الآخر أفهم التاجرين ·

قلت له ، وقد مازجني شيء من الحيرة وشيء من السرور بعثه الى تشتته :

ـ انك لم تصل بعد الى القصبة

ـ ماذا ؟ آه ، بشان هذا ! اننى اذن وصلت ، وقد زججت بنفسى في كل شيء : ان الوالد مريض جدا ، والحاج سنان الدين مسجون ، والاميرالاى عثمان بك ذهب ليسفك دماء أهل سافا ، أيوجد بعد شيء آخـر ؟

كان يبتسم في سعادة ، وكأنما كان يستمع الى أشد الأخبار سرورا ٠

ـ كيف يكون على اغا مريض جدا ؟ لقد كان ليلة الأمس في حالة حسـنة ٠

ـ لقد أثاره سجن الحاج سنان الدين ٠

ـ كلنا نشعر بانزعاج وقلق ، كلنا نخاف عليه ٠

ـ لماذا ؟ سوف يفرجون عنه ٠ لقد وجد أناس يحبون المال ٠ تصور أنه يوجد هناك أناس مثل هؤلاء !

انه لم يحس في هذا الصباح بان هناك أمورا عسيرة ، فقد كان يضحك وهو يقول :

ـ طول حياته كان يهتم بالسجناء ، الى أن تحول هو نفسه الى سجين ٠ أمر بالغ العجب : أن يتحول المحب الى من يحب ٠

ـ اننا في حزن من أجله ٠

بدا ما قاله عتابا ٠ لقد أردت أن أحول بينه وبين أفكاره الغريبة ، ولكنه لم يسمع بذلك ٠

ـ وأنا كذلك حزين من أجله ٠ انظروا الآن كيف أنه كان طول حياته ينال ثوابا من أجل الآخرين ٠ والآن ينال الآخرون ثوابا من اجله ٠ ربما يعد هذا عدلا ٠

انني أعلم أنه لا يميل الى المشاركة الوجدانية ، ولكن قوله هذا كان يرن في الآذان حادا قاسيا ٠ وربما كنت أنتظر منه الكثير ، وليس باستطاعته أن يفكر في غير سعادته ٠

ـ كيف كان حالك في دوبرفنيك ؟

ـ حسنا ، لا زال الوقت هناك صيفا ٠

عجيب ألا يكون ربيعا ٠

سمع الباب الخارجي يفتح ، واقترب حسن من النافذة ٠

انه الخادم فضل أتى من الزقاق ، وأشار له كي ينزل ٠

وسألني حسن :

ـ أيمكنك أن تبقى مع والدي ؟

ـ ليس لي وقت كاف ٠

ـ ابق ولو قليلا ٠ ساعود بعد لحظات ٠

كان علي أغا في الحالة نفسها التي كان عليها أمس ، وربما كان أكثر انتعاشا وأشد حيوية ٠ سألني :

ـ الى أين ذهب حسن ؟

ـ لا أدري ٠ لقد قال انه سيعود بعد لحظات ٠

أخذ يسألني ماذا يحدث في القصبة ، وانتابه العجب لكون السوق معطلة ، ورجاني أن أحمل حسن على البقاء في البيت ، من أجله ، فمن ذا الذي يعلم ماذا يمكن أن يحدث في هذه الفترة من المرض ٠

ـ لماذا قلت لحسن ان حالتك قد ازدادت سوءا ؟

ـ هذه هي الحقيقة ٠ لقد ازدادت حالتي سوءا ٠

ـ منذ متى ؟ لقد كنت ليلة أمس مثل الطائر ، وهذا بالذات ما أردت أن أقوله لحسن ، ولكني لم أجد الفرصة لأقوله ٠

ـ أليس لديكما شيء أعقل من هذا تتحدثان فيه ؟ لقد ازداد حالي حسنا ، والآن ازداد سوءا ، وأردت أن يكون بجانبي ، فما وجه الغرابة في ذلك ؟

ـ لا شيء ٠ انك ترغب ، في الحقيقة ، أن تربط حسن بسريرك ، الى أن يمر هذا كله ٠ أليس كذلك ؟

ـ بالنسبة له هذا أفضل ٠ انك تعرف كم هو مندفع ٠ وسوف يفعل ما ليس لك على الاطلاق أن تتوقعه ٠ انظر ، هل عاد ٠

عندئذ ، وضح لي كل شيء ، تصرفه العجيب ، وتشبيحه أمام ابنته كذلك ، ورجاؤه أن يفرج القـاضي عن السجين ، وتعلله بالمرض في الصباح لقد كان كل هذا من أجل حسن ، لكي يحميه من الخطر ، لكي

يمنعه من أن يقوم بتصرف أحمق • ولذا كان يلزم ابنه بمرضه ، ولذا كان يلعب تلك اللعبة العجيبة التي لم افهمها • كان يرغب أن ينقذ الحاج سنان الدين في أسرع وقت ممكن ، لكي يعفى حسن من القيام بهذه المهمة • لقد ولد الحب فيه الخوف ، كما منحه المراس والتبصر •

هدأته قائلا :

ـ لا يساورك القلق من أجل حسن • فهو لن يقوم بشيء يمكن ان يوصف بالحمق •

ـ لماذا ؟

ـ انه لا يفكر في غير الدبرولفنيكية • فالبلابل تغرد في قلبه • ويخيل الى انني أسمع تغريدها •

ـ تظن انني لا اسمعها ؟ هذا هو ما أخاف منه يا صديقي •

ـ من أي شيء تخاف ؟

ـ من ذلك التغريد • فمن أجله سيقوم بتصرف أحمق • فالمرء اذ ذاك طيب القلب ، رقيق المشاعر ، يحزن لما يصيب الآخرين •

ـ يحزن ، ولكنه لا يقوم بشيء • فالحب أناني •

ـ أيها الدرويش ، ماذا تعرف أنت عن الحب ! انني قدمت نفسي من أجله • أتعد هذا أنانية ؟

اردت أن اسأل العجوز ، وسوف أسأله ذات مرة ، ماذا في امكانه أن يفعل من أجل ابنه وماذا باستطاعته ان يخون من أجله ، والى أي شيء سيتحول حبه لو أصيب ابنه بنكبة • انه لا شك سيتحول الى كراهية ليس بعدها من كراهية •

بالنسبة له يوجد في حياته هذا الحب فقط ولا شيء سواه ـ وهو يحافظ عليه حتى قبيل الموت ، حيث ينتظر أن يلفظ انفاسه الأخيرة • وربما كان الحب يحافظ هو الآخر عليه ، مستبقيا اياه على قيد الحياة • ومن يدري فلعل هذا مكر شديد الاحكام بعيد الغور ، خوف من الموت قد استحال الى حب ، لكي تزدهر الورود الأخيرة في القلب الهرم • ان قلب الابن طاقة ورد ، ليست بحاجة الى التسميد كي تترعرع ، وحب الوالد بالنسبة له ليس سوى أحد متاعبه الملقاة على عاتقه بحسب

الواجب · وربما كان من الأمور المعوقة له · أما بالنسبة للعجوز فهو حبل نجاته الوحيد ·

أقول : ربما ، لأنني لا أدرى ·

ساد الهدوء القصبة ، وبدت كما لو كانت تحتضر ، فقد اخذت أنفاسها تتردد في بطء ، كما أخذ السكون ينشر اعلامه رويدا رويدا ·

كنت اجلس في فناء المسجد ، على حجر ، قرب ينبوع الماء ، في الوقت الذى كان فيه الناس يطوفون بالسوق وبالأزقة ، زرافات ووحدانا ، كانوا يطوفون كانهم فى حلم ، قد استبد بهم الحماس ، واعتراهم ما يشبه الغيبوبة ، ومن أجل شيء ما كانت تبدو عليهم التعاسة وآثار الغدر وفراغ العقول ، كانوا يطوفون ، رغبة فى أن يمر الوقت ، او يجيء ، مطوقينني بتطوافهم الحالم وبتلك الشبكة التى تصنعها آثار اقدامهم ·

سألت :

ـ ما الذى يحدث ؟

لم يسمعنى أحد ·

اأزعجهم وأثارهم الى هذه الدرجة سجن الحاج سنان الدين ؟ أية علاقات عجيبة تلك التى ربطت بينهم ، وأية دائرة تلك التى اغلقت عليهم ، غير معروفة لدى ، وغير مسموح لى بالاقتراب منها ؟ ماذا حل بهم ؟ انهم ليسوا غاضبين ، ولا مكتئبين ، انهم منفصلون عن كل شيء وليس غير · وهم ينظرون الى القصبة والعالم كذلك بنوع من التطلع الفاتر ، من التطلع المثقل بالنوم ، ولكنه تطلع يكمن فيه الاصرار ·· وينتظرون · لقد فقد كل علاماته الخاصة ، وأصبح للجميع علامات مشتركة ، بحيث لا يمكن لأحد ان يفرق بينها ·

يجب على أن اقوم بشيء ، فالجنين أخذ يترعرع ، ذلك الذى لا يمكن رؤيته · والوقت فارغ ، يفصلنى عن نفسى ، وعنهم كذلك ، ولكنى لم استطع ان اعرف أين مكانى ·

وبدا لى كما لو كنت قد دخلت حيا مجهولا ، ووجدتنى بين أناس مجهولين ـ كنت أتحاشى ان أنظر اليهم ، وكنت انظر الى اقواس المياه المتدفقة ، التى كانت تتكسر على الحجر ، متحولة الى سرب من القطرات.

ولم تكن هذه الأقواس تتحلى بشيء من اللون ، وأنى لها ذلك وقد اختفت الشمس وراء السحب . وكنت أظن أن تلك الطبيعة التي تعيش لنفسها فحسب والتي تأخذ في الاستمرار سوف تعمل على تهدئتي . ولكن حدث أن أخذ الضيق يتزايد في نفسي .

واذ ذاك رأيت أنهم توقفوا ، كانوا يسمعون شيئا لم استطع أن أسمعه ، ثم تحركوا في اتجاه واحد .

سألت احدهم :

- الى أين ؟

- الى هناك .

- لماذا ؟

- كلهم يذهبون .

كانت تصل الى الأذن صيحات تنبعث من ناحية المسجد الكرشوملي . وسرت الحياة في الجمع ، واخذ يتدافع في سرعة .

سدت الأزقة ، ولم استطع أن أرى أو اسمع شيئا ، وحاولت ان اشق طريقا لنفسي وسط الجماهير ، وفجاة الفيتني وسط حشد متموج ، كما لو كنت قد وقعت في دوامة . واخذ الحشد يضغط علي ، يدفعني الى الأمام والى الوراء ، من سور الى آخر ، دون أن يتركني ولو للحظة واحدة لنفسي ، معانقا اياي في شدة ، عناقا حارا ، قلقا ، حانيا ، حرجا ، وكان الحال سيئا ، ومضحكا ، وبدا الأمر كما لو أن الشيطان نفسه قد أخذ على عاتقه أن يضفرني في عيدان معترشـــة تتمثل في مئات من أرجل الناس وأيديهم ، وأن يفصلني هكذا عن جميع ما كان يحدث . كان في استطاعتي وقد ضغطت في حشد من الناس أن أتدافع ، كما يفعلون هم ، كما كان في استطاعتي أن اصـــيح ، ان أهدد ، ولكن لم يكن بامكاني اذ ذاك أن أصدر قرارا . وهكذا وقد ضفرت في هذا الحشد دون أن أملك التخلص منه أصبحت واحدا من هؤلاء الذين يمثلون قوة هائلة حمقاء قد فقدت نفسها .

واذ ذاك بدأ يحدث لي حادث غريب : أخذت أنسى ما كنت اريده من وضع ، فقد بدا عندئذ مستحيلا وغير مقبول ، وكانت جذور نشأتي وذكراي التي تكشفت بعد احتجاب تشغلانني للحظات طويلة ، وتعملان على ضمي اليهم ، مسوية بيننا . وعندئذ لم أعد أحس أنني محصـــور

بينهم ، وأننى قد حشرت ولا أملك الفكاك · كما لم يعد يجرحنى دفعهم اياى اذ يتدافع الحشد · وما كنت أحس بضيق كذلك لرائحة العرق تفوح من أجسامهم ، بل كنت انسى انه كان لزاما على أن اشق طريقا الى جهة ما أردتها ، ان أصل الى مكانى المناسب ، أن أقرر شيئا فى الأمر · فهنا ، وسط الحشـد ، مكانى الصحيح ، فلست سـوى واحد منهم ، يثير انفعالى ذلك الحشد ، تلك الصيحات ، هذه القوة المتضافرة ، وكنت استند بكتفى على الناس حولى ، وارفع يدى أهدد وأتوعد شخصا لا يرى بيننا ، متحررا من جميع المخاوف ، موقنا ان الوقت قد حان للثار من الذنوب ، حتى تلك التى قد طال عليها العهد ، وانتقلت الى الدم جيلا بعد جيل ، وكنت أصيح بصـوت عال كما يفعل الآخرون · بماذا كنت اصيح ؟ لا أدرى · ربما : بالموت ! فهذا ما كان يدور فى خلدى · ولعلى كنت أضم صوتى الغامض الى أصوات الآخرين ، فى شكل صراخ ، فى شكل تهديد ، كى يكون ما يصدرونه فى صورة أعظم وأقوى ، فقد كنت لهم · لا ! بل كنت لى ، صاحب الصوت الذى يعادل مائة صوت ، صـاحب اليد التى تعادل مائة يد ، صاحب الراس التى تعـادل مائة راس · الف عذاب كان فى نفسى ، يخص الناس ولكننى أحمله · كنت اطلقها صرخات شديدة : آ آ آ ! قاصدا : الثار ! قاصدا : الدم ! قاصدا : النهاية ! لأى شىء تكون النهاية ؟ آه ، لكل ما هو سىء ، لكل ما ليس للناس · كنت اعرف ذلك ، دون أن أفكر فيه · كانت السماء المضيئة تتفتح أمامى ·

عندئذ اخذت انفصل ثانية ، واقتلع نفسى من جذورى ، وبدات احس بمرافق الناس واشـعر برائحة عرقهم ، وكنت اغضب لصياحهم ولعدم استطاعتى الخروج من بينهم · افرجوا عنى ! ـ هكذا كنت أصيح، كارها اياهم ، مسجونا ومكبلا بهم ، غريبا عنهم على وجه التمام ·

وسمعت اذ ذاك ما به يصيحون ، وعرفت من أى شىء يشكون ، ومن من الناس يهددون · لم يذكر أحد منهم الحاج سنان الدين ، ولم يتذكره ، حتى ولو بطريق الصدفة · لقد كانوا يذكرون فقط ذلك الذى كان يتعلق بهم وحدهم ، ذلك الذى يؤلمهم هم انفسهم · وقد كانت تؤلمهم أشياء عدة ، نقص السلع الاستهلاكية ، غلاؤها ، خوفهم ، مظالم كبيرة وصغيرة ، وعود كاذبة ، سنين قاحلة ، رغبات معللة بالخداع ، ليال سريعات التتابع ، أعمار مهكرات الشيخوخة ، حب قصير العمر ، كراهية

طاعنة في السن ، احساس بالقلق وعدم الأمان ، ذل وامتهان • كل ذلك يشكل تعاسة نسميها الحياة •

كان ذلك كله يتجمع لديهم ، وقد تجمع ، انه رصيد عظيم •• ركام هائل من الخرق البالية ، جعلهم الآن يصيحون ، كانهم في سوق للبيع والشراء ، معلنين عدم رضاهم ، مظهرين في مرارة وفرة ما يمتلكونه ، مرحبين بتقديمه هدية لمن يريد ، أو راغبين فى اعطائه مقابل الكراهية أو الدم •

وفي فترات استرداد الأنفاس بين صرخة وأخرى ، كان الناس يقصون في اقتضاب ، تماما كما يحدث في ساحة المعركة بين طلقة وأخرى ، ذاكرين كيف قتل فى الليلة الماضية حارس فى القلعة ، قتل دون ما طلقة من بندقية او طعنة من سكين ، وظلت قدماه تحملانه وهو ميت ، وكيف أن طفلا ولد في حي « قرنفل » بعين واحدة في جبينه • لقد أرادوا أن يشيروا بذلك الى أن القدر يقف من ورائهم ، مشاركا اياهم في ثورتهم وغضبهم •

اصبح الأمر لا يطاق • وكلما تقدم الوقت اشتد حرارة ، وازداد احتداما ، وتملكه الجنون ، اخذ الحشد يجرنى ، يدور بى ، كما تفعل دوامة الماء ، اصبحت كشظية من خشب ، كجزء من فتات ، يدورون بى في دوامة ، استند بمرفقى الى أضلاع شخص ما ، أصيح ، ويصيح الآخرون أيضا ، أدوس شخصا ما ، يهدر السيل الذى يحيط بى ، اتعثر ، سيدوسوننى أنا كذلك ، أتشبث بعنق شخص ما ، مثل الغريق، والآن يشق السيل طريقه متجها الى ناحية أخرى ، سوف نختنق جميعا ، سمعت دمدماته في زقاق آخر ، وخف الضغط ، أخذت أتنفس في يسر ، وأجرى خلف الآخرين ، احاول أن أوقفهم ، أن أهدئهم ، لقد تملكنى الخوف ، انهم لا يعرفون بعد الى أين يجرون ، وماذا يريدون ، انهم أحجار متدفقة ، انهم سيل قد انطلق لا يلوى على شيء •

كانت الطلقات تدوى أمام مبنى المسلم •

ـ ما هذا ؟

ـ الحراس يطلقون •

لم يتوقف أحد •

عندما وصلت ، ابصرت شابا ممددا على الأرض قد لطخته الدماء ،

وكان يرتدى قميصا من البز لطخ هو الآخر • كان يحيط به عدد من الناس ، وكان هناك شخص لم أستطع رؤية وجهه يجلس مقعيا بجانب القتيل يحاول أن يرفع راسه •

لقد اخترق الحشد الأبواب واندفع الى داخل المبنى ، وقد امكن للأذن خارجه أن تسمع في سهولة ما يحدث من اتلاف وتدمير •

لم يكن المسلم والحراس بالداخل ، لقد هربوا •

اقتربت من الرجل الذى كان قد أقعى ومال بصدره على الشاب الملطخ بالدماء • كلاهما كان في زى ريفى ، وقد اسفت لعدم كون الأمر على وضع آخر •

ـ اهو ميت ؟

كان المقعى بجانبه يحمل رأسه على ذراعه الأيسر كما يفعل مع الطفل ، وفي خوف كان ينظر الى وجهه الذى اشبه بياضه لون الجدار ، منتظرا أن يعود اليه احمراره ، أن تهتز شفتاه ، أن يكون كل شيء كما كان منذ قليل •

كلا الاثنين في سن الشباب •

ـ هل هو أخوك ؟

ـ جئنا الى السوق ـ كان يقول ذلك في حيرة وارتباك ، داعيا ايانا بعينيه المتورمتين ، وهو لا يزال يعيش في اللحظات التى سبقت هذه اللحظة ، دون أن يجرؤ على الاقتراب منه ـ كى نشترى الملح ••

ـ أرحه على الأرض •

ـ •• والمسامير • فنحن نبنى لنا بيتا •

ـ أرحه ، انه ميت •

ـ لقد قلت له : اننا جئنا بلا فائدة ، فالسوق معطلة • وقال لى•••

مس وجه الميت بأصابعه الريفية الغليظة مسا رقيقا ، وأخذ يناديه في همس :

ـ شوقى ! شوقى !

سوف يغضب الوالد لبقائكما طويلا ، وسيلقى اللوم عليك لأنك لن تصحبه في عودته الى البيت ، قم ياشوقى ، استيقظ •

شوقى ، أين أنت ؟

أين أنت ، يا هارون ؟

أين أنتم ، جميع الاخوة المفقودين والمقتولين ؟

لماذا يفصلوننا ، ما دمنا مفصولين بطبيعة الحال ؟ أمن أجل أن نعي ذلك ؟ أم من أجل أن نكره لأننا لم نكن نعرف أن نحب ؟

– لقد قتلوا أخاك . أتريد أن ندفنه هنا ؟

والآن كان يدفيء خده بباطن كفه .

– احمله . لتكن له على الأقل جنازة رائعة .

حمل الميت ، كما لو كان يحمل الطفل ، أو الطرحة ، أو حزمة من عيدان القمح . واخذ يدب على أرض السـوق الحجرية ، ملقيا بيمنى قدميه الى أقصى اليمين وبيسراهما الى أقصى اليسـار ، وتلك طريقة تعودها من كثرة السير في الحقول المحروثة وكان لا يزال ينظر في وجه أخيه يراوده أمل أحمق عنيد .

سرت أمام الميت الشاب ، وبصوت عال كنت أتلو الأدعية .

وسمعت الناس كيف يصيحون ، وقد أحسست بكثرة عددهم ، ولم تكن حدة غضبهم قد خفت بعد .

وفي مفترق الطرق ، عند المحكمة ، وقفت الى الجانب ، لكي يرى الجميع ميتا محمولا بين يدى الشاب .

أحاط الناس به مشكلين نصف دائرة ، وأخذوا ينظرون صامتين .

تلوت الدعاء ، واندفعت أسير بجانب المسجد .

وخلفي ، وخلفنا ، كان يسمع الصراخ ، وانحطام الزجاج ، ووقع الضربات .

واصلت السير ولم أدر وجهي .

وبالقرب من المسـجد التقيت بالحافظ محمد ، ورجوته أن يهتم بالأخوين ، الميت والحي ، ثم اندفعت اخترق الزقاق .

– الى أين ؟

لوحت له بيدى . وحقا لم آكن ادرى الى اين .

ـ لقد بحث عنك حسن .

احسست كما لو كان هذا الاسم قد اضاءنى . لقد اتعبنى هذا الوقت الذى قضيته بدونه . اليوم ، الآن ، فى هذه اللحظة ، اراني فى اشد الحاجة اليه من اى وقت مضى ، ولكننى سارجىء قليلا ذهابى اليه .

اخذت أواصل الخطى فى التل ، كى أشعر بالصعود ، كى يرهقنى ما أبذله فى ذلك من جهد . اننى أرغب فى أن أنفصل ، فأعصابى متوترة منذ الصباح الباكر ، وحضورى موجود فى كل لحظة .

ليواصل الزمن سيره بدونى ، وليته ما يريد ، بنفسه .

كان لزاما على أن أبتعد عن السوق ، فى هذه اللحظة بالذات ، أن أبتعد كما يبتعد عن النار ، لكى لا آكون متهما او شاهدا .

هانا احاول الانفصال .

الوقت خريف ، وقد دنا من نهايته ، ها هى أشجار البرقوق قد عريت ، وأصبحت سوداء الاهاب ، وقمم الجبال قد غشيتها سحب الضباب ، والريح تصفر فى هدوء فى تلك الممرات التى تخترق بيوت الحى .

عن قريب سيسقط البرد ، هكذا كنت أقول لنفسى .

وذلك أمر لا يهمنى .

وهانا احاول أن أسير على مهل كما يسير المتنزه ، له فضل من الوقت ، وليس لديه ما يقلقه .

منذ زمن بعيد لم آكن هنا ، هذا ما قلته لنفسى .

والأمر سواء .

هانا أرى الأطفال يلعبون بعقلة الخشب ، يتبادلون القاءها فيما بينهم بعصيهم . ويا للعجب اذ أقول ان الأطفال يلعبون .

انظر ! لقد كان هذا هو ما يسترعى اهتمامى .

ان الأطفال هنا يلعبون ، وتحت فى السوق يرى الآباء يثورون .

وهأنا أرى : ان القصبة في الوادى تعيش في هدوء ولا أثر فيها لاضطراب . الناس يمرون بالأزقة هنا وهناك ، صغار الحجم ، غير متعجلين ، وقد بدوا بسطاء ساذجين . انهم أشبه شيء بهؤلاء الأطفال ، من هذا البعد ، من هذا الارتفاع . ولكنهم ليسوا أطفالا . انني لم أر الذعر يرتسم على وجوههم كما رأيت منذ قليل ، وما كان باستطاعتي أن أعرف أشخاصهم بسبب احمرار بياض أعينهم وبسبب تكشيرهم عن أسنانهم . لقد بدوا أشبه بالمشوهين المتنكرين في أعياد الميلاد . هذا هو عيدهم الشرير .

لا اريد ان افكر فيهم ، كما لا أريد أن افكر في اى شيء ، فالوقت يمر ، وهو كفيل بانهاء كل شيء بدوني . ليس في استطاعتي ان اوقفه ولا أن اتعجله .

انه يقطر كهذا المطر ، قطرة اثر أخرى .

لجأت الى حائط المسجد المتهدم ، محتميا بافريزها العلوى من تساقط المطر .

وتفرق الأولاد كذلك .

لمحت شيخا عجوزا ذا لحية بيضاء يتوكأ على عصا يقبض عليها بيد مرتعشة ، وبدا غريبا وسط هذا السكون الذى خيم على الحى ، كان يسير بطيء الخطى في طريقه نحو المسجد ، وحده ، دون أى من المؤمنين . انهم تحت ، في القصبة ، واما هو فلم يكن يهمه ذلك . ان شيخوخته تصرفه الى أمور أهم . وأمام المسجد أخذ يؤذن : كان أذانا دون جدوى ، كان نداء يسمع في صعوبة ، موجها الى من ليس موجودا .

انها صلاة الظهر .

منذ الصباح الباكر تحملني قدماى . وهانا اشعر بالتعب ، كما لو كان قد أناخ على بثقله هذا الوقت الذى قطعته .

كنت أشاهد وانا اقف مستندا الى هذا الجدار الذى يفصلنى عن العالم ، تتابع النظرات في سرعة ، كما لو كنت اسمع تمتمات ضعيفة تنبعث من أدعية الشيخ . ان صوته يبدو كأنه من عالم القبور ، حزين لا يحمل شيئا من الأمل ، منعزل على التمام ، وكان اشد ما يشق على نفسى أننى أسمعه ، اذ أنه يحكى عزلتى كذلك . ليس باستطاعتي أن

أساعده وقد انفصلت عنه بالجدار ، كما ليس باستطاعته أن يساعدني هو بدوره ٠

انني وحيد ٠ وحيد ٠ وحيد ٠

وحيد ، كأنني متهم ٠

ولكن ، لم أكون متهما ؟ أكان باستطاعتي أن أفعل شيئا ؟ لم يكن في امكان أحد أن يوقف تحركهم في صباح اليوم ٠ لقد حان وقتهم الذي كرسوه للشر ، كما يحين موعد الهلال ، فهو أقوى من ارادتي ، وأقوى من ارادتهم كذلك ٠ كان في امكاني أن أمنعهم أو أدفعهم ، ولو فعلت أيا منهما لما غير في الأمر شيئا ولكان ما كان ٠

ماذا يحدث تحت ؟ أو ماذا يكون قد حدث ؟ لا أدري ، ولا يهمني ٠ لقد حصدنا العاصفة لأننا زرعنا الرياح ٠

أكان ينبغي أن يحدث شيء ما ؟ من المؤكد أن كل شيء قد هدأ ، لقد تفرقوا وذهبوا الى بيوتهم ، شـــاعرين بالخجل وعدم الرضا ، وسوف يهبون الى زوجاتهم ما تبقى من غضبهم ومرارتهم كذلك ٠ وهأنا أحاول أن أنفصل دون أن تكون هنـــاك ذرة من حاجة الى ذلك ، صارفا دون جدوى اهتمامي المشتت الى الخريف ، الى أشجار البرقوق العارية ، الى قمم الجبال الحجرية ، الى البرد الذي اقترب سقوطه ، نعم دون جدوى ، لأن تفكيري هناك تحت ، في القصبة ٠ ربما لم يحدث شيء ، وأن ذلك الذي قمت به لم يسفر عن نتائج كنت أرغبها أو عواقب توقعت أن تكون ٠

ولكني اذا كنت أشعر بالضيق ، وربمـــا بالخجل أيضـــا ، لأنني أظهرت للثائرين هذا الشاب القتيل ، فانني لم أســتطع أن أوفق بيني وبين امكان عدم حدوث شيء هناك ٠ لقد وددت أن يحدث ، وقبلت أمام الله أن أحمل نصيبي من الذنب ٠

ان هذه الحيرة مضنية للغاية ، ولكنها تجلب لي الرضا : فضميري حي حتى عندما يتعلق الأمر بأولئك ٠

فالدرويش قاس كالصل ، شديد الانفعال كالعانس ، وهذا ماقاله حسن ذات مرة متهكما كعادته ، ربما كان على حق ، لأن شعوري بالضجر لا يكاد يفارقني ٠

وبينما كانت هكذا تمر بي الأشـــباح الحالكة والمضيئة ، وبينما كنت أدافع عن نفسي من التهمة التي لم أرد أن أسميها ، لمحت عن قرب

خمسة من الفرسان ، منطلقين في السير ، وقد ارتدوا معاطفهم الطويلة ، وربطوا بنادقهم في السيور ·

نظرت فعرفت أنه المسلم وحراسه ·

وعرفني بدوره ، وأوقف حصانه ناظرا الى نظرة تنبىء عن الدهشة وتوحي بالانتقام ·

انتابني الخوف لاول وهلة ، بسبب هذا اللقاء المفاجىء ، وبسبب عزلة المكان · فليس هناك من يستطيع أن يساعدني · كما ليس باستطاعة احد حتى أن يرى لو أصابني سوء · واليوم يوم الاعمال الشريرة ·

من المؤكد أن دهشته كانت كبيرة حينما رآني في هذا المكان ، اذ لم يكن من الممكن أن يتوقع ولو في الحلم وجودي فيه · أكان يظن أنني قدره ، أم أنني وحش قد حرض عليه ؟ لقد كنت هدفا شديد الاغراء والاثارة · وقد وقفت مصلوبا على مساحة بيضاء من جدار المسجد ·

وكم كان عجبي اذ تلاشى الخوف مني سريعا · وأخذت أنظر مصوبا نظري اليه في استقامة ، منتصب القامة في تصد · وكنت اعي كل شيء تمام الوعي ، كما كنت أذكر كل ما حدث فيما مضى ، وكأنه حدث منذ قليل · انني لم أحاول أن أتذكر : فكل شيء كان مهيأ في داخلي ، وقد اصبح بمثابة سد غريزي لي ، بمثابة اشمئزاز فطري لا مجال للتفكير فيه · ونظرت بعد الى مرافقيه الأربعة ، انهم هم الذين هاجموني في زقاق التكية الضيق حينذاك ، عندما بدأ كل شيء · لا أدري مدى ما كان لدي من استعداد لأفعل لو هاجموني ، مثلما فعلوا آنذاك ، غير انني أقول ان هذه العيون الكثيرة المصوبة الى كالبنادق لم تكن تثير في نفسي شيئا من الخوف ·

لقد كان الفضل لكراهيتي المتقدة ؛ فقد أمدتني بالقوة شأنها شأن الخمر بالنسبة لمن يحتسيها ·

لو قرر المسلم لكنت في لحظة واحدة قربانه · وكذا الحال لو أتيح له أن يعرف كم سيأسف على فوات هذه الفرصة ·

ـ سوف نلتقي بعد أيها الدرويش ·

فكرت أن اقول : حقق اللهم هذا اللقاء ، ولكنني لم أنطق بشيء · لم يكن باستطاعتي سوى أن أنطق بكلمة لاذعة ، ولو حدث ان نطقت بها لما كان بامكاني بعد أن أراه أو أرى أحدا غيره ·

استداروا بأحصنتهم وانطلقوا مارين بجانب المسجد ٠

كانوا فى طريق الهروب من القصبة !

لو كان لدى وقت كاف لخرجت الى الطريق ونظرت خلف المسلم ، صابا عليه لعناتى ومظهرا سعادتى من أجل تلك اللحظة التى سوف تجمعنا ٠ ولكن لم يكن لدى لحظة واحدة لأضيعها ، فقد انتهت فترة انتظارى ٠ هاهو المسلم يهرب ٠ واذن قد حدث شىء ٠ لم يذهب سدى ما ألقيت من البذور ٠

لقد تلاشى ما كنت أشعر به من خجل وما كنت أجده من حرج ، كما زال ذلك الذى كان يعترينى ويؤرقنى من ندم ٠ ليس هناك شىء يجعلنى اخجل واندم ٠ بل يوجد ما استطيع به ان افخر ، ما استطيع به ان افرح ، لاننى لست فى جانب الشر ٠ ان الله قد حكم ، والشعب قد نفذ : فكراهيتى لم تعد خاصة بى وحدى ٠ لست وحيدا الآن ، ولست أرانى فى شك ، بل أجدنى فى فرح ، شأنى شأن كل مؤمن صالح يرى أنه فى جانب الله ٠

اسرعت الى القصبة ، ملتقيا فى طريقى بأفراد قليلة من المارة ، كانوا فى حيرة بالغة ، وبدا أنهم تأخروا صدفة بعد أن انتهت الفوضى الحمقاء التى أشعلت هذه الأزقة ٠

فى السوق لم يكن أحد ٠ وكذا أمام المحكمة ٠ كانت ابوابها محطمة ونوافذها مكسرة ، وبالقرب من الجدران كانت الاوراق ترى ممزقة ٠

وكان على أغا مقعيا يجمع الدفاتر ، والوثائق ، والقرارات ، وسجلات الجلسات ، تلك التى تراكمت كأنها البراهين تشهد بذنوب الاتهام وبالقسوة ٠ فهؤلاء الموظفون يسجلون كل كبير وصغير من الأمور ٠ ايكون ذلك لاعتقادهم أنهم ليسوا غلاظا أشداء ؟

انحنيت واخذت أقلب بعضها ، فهنا قد سجلت الجريمة التى تعد أكثر أهمية بالنسبة لى ٠

ـ ما الذى تبحث عنه ؟

ـ اننى أبحث لأرى ماذا كتبوا عن اخى ٠

ـ لماذا ؟ لكى يكون لديك مبرر للكراهية ؟ سوف أحرق كل هذا ٠ انكم ذئاب ، لا تتورعون عن النبش فى هذه القذارة لكى تجدوا اسبابا لجرائم جديدة ٠

ـ اذا أردت أن تجرح المشاعر فهذا أمر يسير • ليس عليك سوى أن تكون وقحا •

ـ لا أريد أن أجرح • انني أتحدث عن الاعمال الكريهة ، وذلك لأنى احس من أجلها بالاشمئزاز •

ـ من أجل اى شيء ؟

ـ ارحمني ، دعني • فأنا احس بالاشمئزاز من الناس • اتركني فى سلام •

تركته فى سلام • وكان هذا أشد تعقلا وأكثر تبصرا • فاحتماؤه بالجنون يتيح له أن يكون أقوانا جميعا •

دخلت المحكمة ، ولم يكن بداخلها أحد ، كما كان الحال حينذاك ، عندما جئت من أجل أخى • انهـــا كما كانت ، وكذا الأمر بالنسبة لهذا الهدوء الثقيل ، الذى يبدأ فى مصافحة سمعك بهسهساته التى تبدو اشبه بطنين خافت • وبالنسبة لهذا الاضــطراب الذى يعترى الداخل ، تثيره أشـــباح لأناس قد اختفوا فى أركان المحكمة ، بحيث تصعب على العين رؤيتهم • لقد غاب فقــط ما كان من هواء خانق ، وعبر النوافذ المكسرة والأبواب المحطمة كانت الرياح تغدو وتروح فى حرية تامة •

وفى غرفة القاضى كان يسمع حديث خافت • ان أحدا من الناس عنده •

خطوت الى قاعة الجلسات التى خربت ، وتوقفت عند مدخلها وقد نزع بابه ، وأنا فى حال من الاضطراب : ولمحت القاضى ملقى على الارض ميتا •

لم يكن احد قـد أخبرنى بذلك ، ولكننى عرفت أنه ميت • عرفت ذلك حتى قبل أن أجىء الى هذا المكان • عرفته عندما كنت أنتظر ملتصقا بجدار المسجد القديم • ومن أجل هذا ذهبت الى نهاية القصبة لكى يحدث ذلك دون وجودى •

وفى وسط القاعة وقف بعض الناس ينظرون فى رثاء : لست أدرى أكنت أنا الآخر ضمن اولئك الذين يرثون لحاله •

تقدمت بضــــع خطوات ، وتوقفت عند الميت ، ثم انحنيت ودفعت عنه الجبة التى كانت تغطى رأسه •

كان مصفر الوجه ، كما كان دائما ، غير أن جبينه كان مشوبا بزرقة وملطخا بالدماء . وكم كان عجيبا أن يرى مطبق الجفنين ، وما كانت ترى أية معالم للتعبير في وجهه ، فقد ظل أمام الجميع لا يكشف عن شيء لما كان طيلة حياته .

ـ أيها المسكين ـ هكذا دار بخاطري ، دون شعور مني بكراهية أو اغتباط ـ لقد فعلت كثيرا من الشر . فليصفح الله عنك اذا أراد .

كان الموت يفصله عني ، ولم تكن ثمة ذكرى ولو قبيحة تستطيع أن تستبقيه في ذاكرتي ، وقد كان هذا هو كل ما استطاع تفكيري ان يحيط به . انني لا أرثي ، ولا أتذكر ، ولا أصفح . انه ليس موجودا وكفى .

لم أرد أن اقبله ، من اجل الوداع ، كما جرت العادة . ولو فعلت ذلك لكان مني غاية في النفاق : فهؤلاء الناس يعرفون ما فعله بي .

تلوت الدعاء للأموات ، والى هذا الحد كنت أستطيع أن افعل . وسمعت حين انتهيت وقع خطوات واستدرت . انها زوجة انقاضي تقترب من الجثة .

انتحيت جانبا لأفسح لها الطريق ، دون إساءة مني لمشاعرها ، ودون رغبة مني في استطلاع ما يكون . لقد كنت أكرهه عندما كان حيا، ولو أن أحدا حزن عليه أو رثى له الآن لتملكتني الدهشة واستولى على العجب . ولكن الموقف سيكون حرجا بعض الشيء عندما تاخذ زوجته في رثائه ، كاذبة ، حرصا منها على القيام بواجب العادات الجميلة .

كشفت عن وجهها ، منصرفة التفكير عن امر وجودنا ، وهوت جالسة على ركبتيها بجوار الميت . واخذت تنظر اليه طويلا ، دون أن تاتي بحركة او تصدر شيئا من التأوهات ، او تنطق بكلمة ، ثم انحنت وطبعت قبلة على كتفه واخرى على جبينه . وبعناية بالغة مسحت وجهه بمنديلها الحريري ، واستبقت يدها للحظات على هذا الوجه الأصفر . وشهدت اصابعها ترتجف .

احقا كانت حزينة من أجله ؟ كنت اتوقع أن يكون منها الحزن ، الحزن العميق ، وحتى البكاء ، ولكنني ما كنت اتوقع على الاطلاق أن أرى أصابعها ترتجف على وجهه . لقد هزتني رقتها ، تلك الرقة التي كانت تمسح بها الدماء ، وكأنها تمسح وجه طفل ، كانت تمسح في حنان ولطف ، كي لا تثير جروحه ، كي لا يكون منها ما يؤلمه .

اقتربت منها عندما استوت قائمة ، وقلت :

ـ أترغبين أن ينقل على الفور الى البيت ؟

أدارت رأسها في سرعة نحوى ، كما لو كنت قد أصبتها بلطمة . وتذكرت فيما بعد أن عينيها كانتا مزينتين بالكحل ، ومغرورقتين بالدموع . أكانت صدمتها عندما سمعت أيسر منها عندما رأت ؟ ولكنى حينذاك لم أكن أعلق اهتماما ، لأننى دهشت من نظرتها التى كانت قد دفعتنى بها ، والهبتنى كأنها الجمر ، وطعنتنى كأنها الرمح . انها نظرة العدو القاتل .

لقد حيرنى ذلك التهديد وذلك الحزن الذى لم أتوقعه على تلك الصورة . ربما لم تكن الحياة بينهما صماء في هذا البيت الخواء الى هذه الدرجة التى بدت لى ، ولعلها ستكون منذ الآن . ودون أن أدرى لماذا ، ودون أن أجد سببا حقيقيا حزنت عليها كما حزنت على نفسى . أخذت أحس بالفراغ وبالوحدة كما هو الحال لديها . وربما كان ذلك من أجل التعب هبط على هبوط الظلمة حين يؤذن النهار بالزوال .

تذكرت فيما بعد كم بدت لى جميلة رائعة ، حتى لقد كنت أراها أجمل مما كانت فى تلك الليلة التى التقيت بها فى بيتها الكبير ، من أجل عينيها المغرورقتين ، وقسمات وجهها التى امتلأت بالكراهية . لقد تسللت احدى يديها فى اضطراب وغيبوبة وخرجت من بين ثنايا عباءتها ، ثم توقفت على الفور اذ أحست بالسكون .

اجتاحتنى رغبة عارمة فى أن أضع جبينى تحت هذه اليد التى كانت تبحث عن شىء ، وأن أنسى مغمض العينين كل شىء عن تعبى وعن هذا اليوم . وأن أتسالم معها ومع العالم كله .

كان هذا الانشراح الكدر يستولى على ، حتىعندما خرجت الى الزقاق ، الى اليوم الغائم المطير يزدان بندف مبللة من البرد ، وينوء بسحب متراكمة سوداء غطت العالم بأكمله .

أخذت الرياح تعصف فى داخلى ، فقد كنت اذ ذاك كهفا مقفرا .

كيف يعالج القلب الفارغ يا اسحاق ، ياذا الشبح الذى يخلقه ضعفى فى كل مرة من جديد ؟

كنت أسير هنا وهناك دون هدف ، وأقف أمام الخان ، محدقا طويلا فى قافلة وصلت منذ قليل ، ولم أكن أدرى أيعد من الخير أم من الشر

ان يكون الانسان مسافرا ، وعندما وصلت الى قبر هارون توقفت ، ولم يكن لدى شيء اقوله له ، حتى ذلك الذى يحسه المنتصر ٠

كان لزاما على ان أذهب الى التكية ، أن أنفـــرد بنفسى ، لأستعيد قوتى ، ولكنى لم أستطع ان أقرر حتى ذلك ٠

وعندئذ صادفنى ملا يوسف ، وشعرت على الفور بزوال فتورى ، كما لو كان الضباب الذى أحس بوطاته قد ارتفع ليولى بعيدا ٠ لم يكن باستطاعتى وقد كانت لدى أعمـال هامة ان افكر فيه ٠ والآن برز امامى كمـا لو كان فى المـــاء ثم خرج ٠ وذكرته اذ رأيته ، وبى من الضـــيق والكراهية الشيء الكثير ٠

ذكر لى أن حسن يبحث عنى ، فهو يرجو أن أذهب الى بيت الحاج سنان الدين ٠

اوه ، حتى الحاج سنان الدين قد نسيته ٠ أمن الممكن أن يكون قد وصل الى البيت ؟

لقد حكى لى فى ايجـــاز ، مستجيبا لطلبى أكثر من ان يكون ذلك صادرا عن ارادته ، كيف ان حسن علم صـباحا أن المسلم أرسل الحاج ســـنان الدين تحت الحراسة الى قلعة « الفراندوك » ، تلك القلعة التى يندر أن يعود من ارسل اليها ، وان المسلم قـد انطـلق مع حراسه نحو «الفراندوك» ليلحقوا بهم ، ولو كان الجسر المؤدى الى المدينة قد ظل باقيا، ولم تهدمه المياه وتجرفه معهـــا لذهب تعبهم وارهاقهم لخيولهم سدى ٠ ولكنهم بفضل ذلك لحقوا بأولئك الحراس وأخذوا منهم الحافظ سنان الدين بالقوة ٠ ثم قاموا باخفـائه فى احدى القرى وأرسلوا بعد ذلك من يقوم باحضاره الى القلعة ٠

لو القيت على مسامعى هذه القصة فى مناسبة أخرى ومن فم شخص آخر لكان اهتـمامى بهـا أشد ٠ أما الآن فقد كنت أنظر الى الشاب فى ارتياب ، اذ بدا لى فاترا وضنينا بالقول ٠ كان يتحدث فى غير اكتراث ، كان هذا كله لا يهمنى فى شيء ٠

قلت ، فى غضب يصعب على كبح جماحه فى حضوره :

ـ لا أحب طريقة نظرك الى ، ولا طريقة تحدثك ٠

ـ كيف أنظر اليك ؟ وكيف اتحدث ؟

ـ انك تتخذ موقف الحذر المحتاط ، وأراك تبتعد عنى كما تحاول أن تبعدنى عنك ٠٠من الافضل أن تنسى ذلك الذى تعرفه ٠

ـ لقد نسيته ، ولا يهمنى ٠

ـ ليس كما تزعم ! انه يهمك ، ولكن يجب عليك أن تنسى ٠ ان جميع ما فعلته لا يخصنى أنا فحسب ٠

لقد فاجأنى باجابته واجبرنى على أن أتسلح من جديد بالحذر وبالعزيمة التى زايلتنى منذ قليل ٠

واندفع يقول ، غير ملتمس ، بل طالبا :

ـ دعنى اذهب من التكية ٠ فطالما انا على مقربة منك فسأظل اذكرك بامكان حدوث خيانات متوقعة ٠

ـ وستظل تذكرنى كذلك بالألم الذى جلبته لى ٠

ـ وهذا يزيد الأمر سوءا ٠ دعنى اذهب ، لكى ينسى أحدنا الآخر ، لكى نتحرر من الخوف ٠

ـ تخاف منى ؟

ـ نعم اخاف كما انك تخاف منى ٠

ـ لا أستطيع أن أدعك تذهب ٠ اننا قد قيدنا بسلسلة حديدية واحدة ٠

ـ سوف تهلك حياتى وحياتك أيضا ٠

ـ اذهب الى التكية ٠

ـ لا يمكن تحمل العيش على هذه الصورة ٠ فكلانا يتعقب الآخر . تماما كانه الموت ٠ لم لم تتركنى عندما اردت أن اموت ؟

ـ اذهب الى التكية ٠

وذهب وهو حزين ٠



« يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد »

ثلوج ، وامطار ، وضباب يغشى الجو ، وسحب تدنو من الأرض ٠ بواكير تنذر بطول اقامتها بمقدم شتاء لا نهاية له ، شتاء يكاد يمتد حتى يصل الى عيد مارى جرجس ٠ وأخذت أفكر فى المفتى وعذابه الذى بدأ «بكر» ، فستة أشهر يخاف ، وستة مثلها يصيبه التجمد ٠ ولست أدرى لماذا لا يترك هذه القصبة ٠ لقد أصدرت أمرا ليأتوا اليه بأخشاب شجر الزان أو شجر البلوط ، ويعيدوا فى داره بناء المداخن والمدافىء ، ويجعلوا مكان ايقادها من الخارج ، من الممر ، ويواصلوا الايقاد ليلا ونهارا ، ويقوموا بتبخير الغرف بغصينات شجر العرعر وجذور تنشر أزكى الرائحة ٠

وقد أصبحت أنا كذلك حساسا بالنسبة للبرد ، ففى غرفتى وغرفة الحافظ محمد يطقطق الخشب فى مدفأة صنعت فى الحائط وزين جدارها بعدد من السلاطين الفخارية ما بين أحمر وأزرق ٠ وقد استأجرت خادما جديدا ايضا ، فمصطفى ليس فى وسعه أن يقوم بكل شىء ٠ انه أصبح متذمرا الى درجة لا تحتمل ، يتمتم ويغمغم مشبها فى ذلك الدب العجوز٠ لما لم يعد باستطاعتى بعد أن أتحمل المكث فى غرفة باردة ، كما كان يحدث من قبل ، وخاصة عندما أعود من المحكمة وقد أصابنى البلل واعترتنى هزة ، وتشبعت بالرطوبة تشبع الخرقة تمسح بها الارض ٠

لقد تغيرت أشياء كثيرة فى حياتى ، ولكنى تمسكت بما تعودته قديما ٠ وسمحت لنفسى بمزيد من رغد الحياة ، ولكنه فى الحق قليل ، وبمزيد من البساطة فى معاملاتى مع الناس ، وربما كان السبب فى ذلك اننى لم أعد بعد مهددا ، ولأن شرف القاضى ووظيفته يمنحاننى شعورا طيبا بالأمان ٠ وبالقوة كذلك ، تلك التى لا اطلبها ولكننى أراها ، حتى

في نظر الحافظ محمد ، عندما أدخل في المساء الى غرفته ، لأسأله عن حاله ، ولأعرف ما اذا كان في حاجة الى شيء ٠

ان وظيفة القاضي لا تترك لي وقتا كافيا ، ومنذ وقت طويل لم يكن مني ، ولو نظرة ، بالنسبة لهذه الاوراق ٠ وعنـــدما تذكرتها ذات ليلة أوشكت ، وانا اقرأ بعضها ، أن اشك في ذاكرتي ، وتساءلت أمن الممكن أنني كتبت ذلك ، وأنني كنت أفكر على هذا النـحو ؟ كان أكثر ما أثار عجبي ذلك الذي ينبيء بخور عزيمتي ٠ أمن الممكن أنني كنت أشك الى هذا الحد في عدالة الله ؟

لقد فاجأني في البداية ما عرضه على وجهاء القوم من أن أقبل وظيفة القاضي ٠ انني لم أفكر فيها قط ، ولم أرغب ان أكون ذلك ٠ ولعلني كنت قد رفضتها لو عرضت على في ظروف أخرى ، ولكنها ـ اذ ذاك ، لاحت لي بمثابة النجاة ٠ لانني شعرت فجأة ، وبعد كل ما حدث في السوق ، أنني متعب ومنهوك القوى ٠ حيث كنت مؤرق النفس بوعيي التام بذلك الشرك الذي لم يعد خاصا بي فحسب ، والذي لم يكن قد نصب فحسب منذ الامس ٠ فالانسان عرضة للاخطاء بصورة تتجاوز الحـد ، وهو في حاجة ماسة الى الحماية ٠

يا للعجب ، لقـد تمت الالفة بيني وبين المنصب الجـــديد في فترة وجيزة ، كما لو كنت قد انتظرت الى أن تحقـــق أحد احلامي القديمة ٠ وربما كان يتمثل في ذلك الطائر الذهبي الذي تتحدث عنه كتب الاطفال، وربما كنت في أعماق نفسي أنتظر هذه الثقة منذ زمن طويل ، منذ أمد بعيد ٠ وأما فيما يتعلق بانني لم آكن أسمح بأن تصبح رغبتي الضبابية واضحة ، فقد كان مرجعه دون شك الى خوفي من خيبة آمالي اذا لم تتحقق، وكنت أدفعها الى المكان القصي المظلم في أعماق روحي ، كما كنت أفعل مع جميع رغباتي الخطيرة ٠

سموت عن الخوف ، عن الأمور العادية ، ولم يكن يراودني العجب بعد من أجل هذا ٠ فمن ذا الذي يرى أنه غير مستحق لما نال من سعادة ؟

كنت اقف بجانب النافذة ، في الليلة الأولى لتسلمي منصب القضاء، أنقل بصري في جنبات القصبة ، بالطريقة التي تخيلت بها السلحدار حين تولى منصبه ، كما أخذت مستمعا الى ما يحدثه دمي من خرير صاخب أنظر الى ظلي الكبير قد ارتسم على صـــفحة الوادي ٠ وتحت ، كان الناس وقد بدوا صغارا يرفعون أبصارهم متطلعين الي ٠

انني سعيد ، ولكنني على الرغم من ذلك لست ساذجا ، فانا ادرك تماما أن مصادفات عديدة قد ساعدتني ، مصادفات تتالت اثر هذا السبب الأول الذي تمثل في موت أخي ٠ وحقا انهـــا ليست مصادفات على وجه التمام : فتلك الضربة منحتني القــوة ، حركتني ، هكذا اراد الله ، ولو كنت قد جلست مكتوف الأيدي لما كانت مكافأته لي ٠ وأما كون اختيارهم قد وقــع على بالذات ، فمرجعه انني كنت على جانب من الشجاعة ، وأن قدرا من البلوى قد اصابني ، وأنني الى حد ما أعد رجلا من عامة الشعب، ولم أكن ابلغ في تلك الأمور درجة كبيرة بل كنت فيها على قدر مقبول في نظر الشعب ووجهاء القوم كذلك ٠ وقد رجح كفة اختيارهم اياي ، فيما يبدو لي ، انهم كانوا واثقين من أنهم سيسيطرون على في يسر وسيكون لهم ما يريدون ٠

فها هو حسن في معرض حديثه يقول لي :

ـ انك أنت الآخر تظن أنك ستفعل وفق ما تريد ٠

وقد رددت عليه بقولي :

ـ انني سأفعل ذلك الذي يفرضه القانون ويمليه على الضمير ٠

ـ كل منا يظن انه سيفوق الآخرين بحكمته ، لأنه واثق انه الوحيد الذي لا يعد بليدا ٠ ولا شك أن اعتقـــادا كهذا يعد حماقة ٠ اذن كلنا حمقى ٠

لم أشعر انني جرحت بقوله ٠ فهذه الحدة تؤكد لي أن قلقا مايعذبه، ولا أدري مايكون ، وآمل أن يكون عابرا ٠ فلو ظل طويلا للحقته الخسارة، وللحقتني ايضا ٠ انني في حاجة اليه غير جريح ، غير مثقل ، دون أن تسيطر عليه افكار مرة ٠ ولو كان على هذه الصورة لأحببته ايضا ، وكذا الحال لو كان على اية صورة أخرى ، وخاصة عندما أكون متساويا معه ، ولكن ما أحبه الى اذ يكون جانبي المضيء ٠ انه لا يلزم بشيء ، انه ريح حرة منطلقة ، انه ســـماء صحو صافية ٠ انه ذلك الذي لا أكونه ، ولكن ذلك لا يؤرقني ٠ انه الوحيـــد الذي لا يحترم منصبي ، ويحزن على ما كنته سابقا ، وأما انا فأحاول ان أكون شبيها بالشكل الذي يراه لي ويريده ٠ وأحيانا اعتقد انني هكذا ٠ لقد بحثت عنه بعد التقائي بالقاضي الميت ، فقد كنت في حاجة اليه على وجه الخصوص ماسة ، كنت ارغب أن أراه هو فحسب ، فهو الوحيد الذي كان باستطاعته أن يدفع عني ما اعتراني من خوف عجيب ٠ لقد ربطت نفسي به ، للمرة الثانية ، وللأبد ، وسأرده

الى نفسى كلما وجدتنى في حاجة الى ذلك • ولا أدرى سببا لهذا ، وربما لأنه لا يخاف الحياة • ان هـذا المنصب يكسبنى الأمان ، ولكنه يهب لى العزلة • فكلما علا الارتفاع ازدادت درجة الخواء • ولذا سوف أحافظ على الصديق ، اذ سيكون لى بمثابة الجند ، وبمثابة الملجأ أنعم فيه بالدفء اذ آوى اليه •

ولم يكد يمضى قليل حتى اصبحت حاجتى اليه أشد •

قبلت تلك الوظيفة ذات العبء الثقيل ، معتقدا أنها ستكون درعا لى وسلاحا فى المعركة التى كان لزاما على أن أخوضها • ولـكن لم يمض وقت طويل حتى وجدتنى مضطرا أن أدافع عن نفسى • ان الصواعق فى الحقيقة لم تنطلق بعد كى تصيبنى ، ولكن الرعد المنذر بالسوء كان يصل الى الآذان •

بعد أن تسلمت قرار السلطان بتنصيبى قاضيا ، ذلك القرار الذى اعلن به السلحدار مصطفى شكره ، كما قام بالتصديق على هذه الوظيفة التى أسـندت الى ـ قررت أن أسأل ضـمـيرى فحسب لكل ما أقوم به من عمل•وعلى الفور شعرت بجو من الفتور حولى•فأولئك الذين جاءوا بى الى هذا المنصب سكتوا على التو عنـدما رأوا أننى لا أتساهل • ولكن الأصوات أخذت تنتشر هنا وهنـاك تعلن مسـئوليتى عن موت القاضى السـابق • وعبثا كان بحثى عن أولئك الذين يتولون اذاعتها ويقومون بنشرها ، اذ بدا الأمر أشـبه ما يكون بتصيد الرياح • اقيل ذلك لأن مسـئولية القتل لم تلق على عاتق أحد ، أم انهم كانوا يعرفون ذلك من قبل ، ولكنهم بحاجة الى اعلانه الآن ، ربما لو كنت نظيفا على التمام لما دار اسمى على ألسنتهم يلصقون به التهمة فى كل مكان •

لا أدرى أكنت أنا كذلك على استعداد لأرضخ ، وخاصة بهذا العناد كما أبدو وبهذه الثقة التى أحسها من أجل الحماية العليا ، كما لا أدرى أهم على استعداد بعد لأن يبرموا شيئا من الاتفاق بيننا • فهـا قد بدأنا نتحفز ، وها قد بدأ كل منا يتصيد الآخر •

كان المسلم يضايقنى أيضا ، السابق والحالى • فالسابق كان يجلس فى قريته ، يهدد ويبعث بالرسائل الى استانبول • والحـالى الذى شغل من قبل هذه الوظيفة فى مكان آخر ، والذى يعرف كم يكون تزعزع منصب المسلم ، كان يترك الأمور فى دهاء ومكر لتمر بغيره ، دون أن يثير غضب أحد ممن يستطيعون أن يجلبوا له شيئا من الضرر • حتى لقد علمت انه

قام باخبار المسلم السابق كي يختفي حتى لا يجده الحراس عندما يرسلهم فى طلبه · ولم يكن هذا موضع مؤاخذة من أحد ·

وكذا كنت أشعر بضيق من أهالى القصبة · وشيء من ذلك كان مرجعه الى احتقارى لهم ، واكثره كان يرجع الى ما كنت أعلمه جيدا من مدى ما يملكون من شر وغضب هدام · لم أعد أدرى بعد كيف أتحدث مع هؤلاء الناس ، اذ لم أكن أعرف من هم ، واما هم فكانوا يشعرون باننى لا أحبهم ، وكانوا ينظرون الى فى فتور ، كأنما ينظرون الى قطعة من الجماد·

ذهبت الى المفتى · وجرى كل شيء على الصورة التى جرى عليها حينذاك ، عندما ذهبت محاولا انقاذ أخى ، وقائما بدور المجنون · غير أننى قد رايت الآن أنه لا ينبغى لى أن اتذلل ، وعلى الأقل الى أقصى الدرجات · كان يسال : أى مسلم ؟ أى قاض ؟ أو لعله قد أخذ يتحدث عن ملا(١) استانبول ، كما لو كان هو الرجل الوحيد الذى كان يعرفه فى العالم · وذات مرة ، وفى نوع من المزاح بالغ السخرية ، وفى عملية استرجاع لذاكرته أتت متأخرة ، تلقف أمر أخى هارون ، وقال يسالنى : أتم الافراج عنه من القلعة · وكان مالك ينظر اليه كما لو كان ينظر الى احدى خزائن الحكمة · وفى نهاية كل جلسة كان يأذن لى بالانصراف مصدرا اشارة من يده الصفراء تدل على نفاد صبره ، وانقطعت بعد ذلك عن الذهاب الى هذا المسكين ، الذى لم يرق به الحظ ليكون مفتيا ، فكان واحدا من أولئك الحمقى المعهودين · واخذ مالك يذيع أن المفتى لا يطيقنى · وصدق الجميع ما أذاعه ، فهكذا كانوا يريدون ·

وكنت قد قررت فى نفسى ألا أتقاضى راتبا لهذا المنصب الذى اشغله ، ولكننى كنت مضطرا لأن أتراجع عن هذا القصد النبيل · وفى هذا العمل الجديد احطت نفسى بالثقات من الرجال ، كى أكون بنجوة من التخبط فى الظلام ، ولكنهم كانوا يكثرون من مضايقتى بما يفضون به الى من اخبار سيئة مرت باسماعهم او نسجوها بخيالهم · وكل هؤلاء الكبار يفعلون مثل فعلتى ، ولذا كنا نعرف أحدنا عن الآخر كل شيء ، أو كنا نعتقد أننا نعرف · لقد دفعت لقره زاعم لكى يقوم باخبارى عن كل مايدور ويحدث لدى المفتى · والله يعلم من من رجالى هؤلاء يتسمع كلماتى لينقلها الى الآخرين !

لقد كان ملا يوسف الذى حرصت على أن يكون بجانبى ، نظرا لحظه

---

(١) قاضى القضاة .

الجميل ، ومراعاة منى لجانب الحــذر ـ هو الوحيد الذى يلوذ بالصمت منصرفا الى ما كلف به من عمل • واننى على يقين من اخلاصه ووفائه لى ، بدافع مما يحسه من الخوف • ولكننى لا اغفل مراقبته اذ أراقب الآخرين•

وهكذا كنت أعيش كمن قد غشيته الحمى •

تورطت بعد أن اشتد توترى فى القيام بعمل يمكن ان يعد قبيحا ، ولكن كان لهذا العمل ما يبرره • فقد أخذت ، باحثا عن الحماة ، أكتب الى نواب الوزير ، الى الوزير نفسه ، الى سلحدار السلطان ، مرسلا اليهم الهدايا والشكايا • أما الهدايا فقد كانت نافعة ، واما الشكايا فقد كانت تبعث على الملل • وكنت أعرف ذلك ، ولكننى لم أستطع ان أتصرف على خلاف ذلك ، فقد كنت أحس أننى بدأت أفقد عقلى • وكانت هذه الشكايا بمثابة تحذيرات من الاندفاع فى طريق الكفر ، نداءات لانقاذ ذلك الدين المهدد ، استغاثات لئــلا يتركوننى وحدى فى المنصــب الهام بالنسبة للامبراطورية • ومهما كان شعورى بضرر ما أوردته من هذه الايمان وهذه الضراعات ـ تلك التى لم يكن باستطاعتى أن أقدم فى ثنــاياها مشروعا لتحالف معهم أو لعقد صداقة قوية او لتبادل منافع من شأنها أن تجلب الخير العميم ، حتى لقد بدا لى اننى أكشف بها عن ضعفى ـ فقد تملكنى شعور بالرضا لا يمكن وصفه أن أقوم بارسالها الى العالم اجمع وأنتظر ان يأتينى حل ما • لقد كنت فى هذا أشبه بالقــائد المحاصر فقد جيشه ، يوجه النداءات وينتظر المساعدات •

أينبغى أن أقول ان هذا لم يساعدنى فى شىء •

لقد دق عنق المسلم السابق وحسب ، اذ بناء على طلبى لانهاء هذا الظلم والتلاعب بالقوانين وصــل الى القصبة دفتردار الوالى ، وبعــد أن استدعى المسلم للحديث أرسله تحت الحراسة الى «تراوفنيك(١)» حيث تم خنقه •

وقد اتهمت فى هذا الموت أيضا • واستجابة لمطلبى الزمنى الوالى بطاعة أوامره ، تلك التى رفضوها هنا منذ زمن بعيد • وقد وافقت انقاذا لنفسى •

راودنى التفكير فى أن اترك هــذا كله وأعتزل المنصب • ولكننى ادركت أننى تأخرت • ولو حدث ان فعلت لانهــالوا على فــور مغادرتى لفتحة الحصن التى كنت أكمن خلفها •

---

(١) عاصمة الولاية اذ ذاك •

(اننى أدرك أننى أقص فى عجلة وابهام ، كما أدرك أننى أثب بعض الوثبات اذ أمر بالسطور ، ولكن ليس فى استطاعتى ان افعل سوى ذلك. فكل شىء قد التف من حولى وضيق على الخناق ، ولست أملك وقتا ولا أجد صبرا لاسترسل على مهل وأراعى الدقة فيما اقول · لم أكن أتعجل عندما كنت هادئا ، أما الآن فانا انطلق فى سرعة واضغط الكلمات بعضها فى بعض ، كما لو كان اللهب يقترب من رأسى ، حتى أصبحت لا أدرى لماذا أكتب ، اننى أشبه شىء بمحتضر وحيد ، يحفر بظفره الملطخ بالدماء علامة فى الصخر تنبىء عنه وتذكره بها ·)

وها هو حسن أخذ يبتعد هو الآخر أكثر فأكثر · وقد ظننت فى بادىء الأمر أن ملا يوسف قد أفضى اليه بموضوع الحاج سنان الدين ، ولكننى تأكدت أن هناك سببا آخر مخالفا على التمام · كذا لم يكن هذا بسبب وجود المرأة الدوبرفنيكية : فقد فرت من شتائنا القاسى · وكان يعلم أن الربيع سيعيدها ثانية الينا ·

وقد ذهب ، لسوء الحظ ، حظه وحظى ، ليحضر بعض أقاربه من ضواحى « توزلا » ، وكانوا قد أصيبوا فى ثورة شبت ، كما أصيب معهم آخرون · ان الاميرالاى عثمان بك قد قام بعمله على خير وجه ، قتل ، أحرق ، طرد الكثير من أراضيهم ، وطوح بهم الى المنفى ، واستقبل الناس الشتاء وهم فى نكبة ما بعدها نكبة · وقد جاء بهؤلاء الاقارب من النساء والأطفال ، وآواهم فى بيته : ومنذ تلك اللحظة أصبح الرجل على خلاف ما كان عليه ، فهو الآن غليظ ، جاف ، ممل · يتحدث عن الحياة المنهارة ، عن آثار الحريق ، عن الموتى ولا قبور لهم ، وخاصة عن الأطفال بالقرب من البيوت المحرقة ، وقد خوت بطونهم ، وانتابهم الذعر ، وبدا الخوف مجسدا فى أعينهم بسبب ما حدث وشاهدوه أمامهم ·

لقد تلاشت سطحيته التى كانت لا تبالى بشىء ·· سهولته المشوبة بالسخرية ·· ثرثرته المرحة ·· بناؤه الجسور من تلك الكلمات الرقيقة العذبة · وأصبح حديثه قاصرا على تلك النكبة التى حدثت فى منطقة سافا ، يردده فى شىء من التقزز ، دون ما أثر لمرحه السابق ، وفى شىء كذلك من الابهام فى القصد والمعاناة فى النطق ·

وكان يسمى أولئك المنكوبين ، الذين قتلوا واستقرت أجسادهم ببطن الارض السافية السوداء ، والذين يزجون بأنفسهم فى طرق بعيدة يقودهم الى المنفى ، بالمنتحرين وذوى الحمق من أهل البوسنة · كما كان يقول ان حماستنا تبلغ من الخطورة قدر ما يبلغه عدم فهمنا وادراكنا ·

ماذا كان يدور بفكرهم اذا كانوا يفكرون فى شىء؟ أكانوا يظنون أنهم سيتغلبون على جيش السلطان ، ذلك الذى لا تعوزه الشجاعة أو الحماس، لأنه مسلح وذو غلظة ؟ أم كانوا يأملون أنه سيتركهم فى سلام ، وهل فى الامكان أن يترك أحد شرارة ترعى فى منزل مهما كان قديما أو مهدما ؟ ألم يحن الوقت بعد لأن نزهد فى تلك القوة التى تدحرج الكتل الضخمة الخشبية وتلك الشجاعة الفارغة التى لا تترك وراءها سوى الخراب والدمار ؟ كيف يجرؤ الآباء الحمقى أن يحددوا على هذا النحو مستقبل إبنائهم ، تاركين فى أمانتهم العذاب والجوع ، والفقر المستمر ، والخوف من ظلالهم ، والجبن عبر السنين ، ومجد التضحية الحقير ؟

واحيانا كان يتحدث على خلاف ذلك ، ذاكرا أن شيئا لا يذل الانسان قدر ما تذله موافقته عن جبن أو اصداره عن عقلية تافهة • فنحن نخضع لارادة الآخرين ، تلك الارادة التى تكون خارج ارادتنا وفوقها ، الى حد يجعل من ذلك قدرنا • ان أفضل الناس فى خير ساعاتهم يحاولون أن يتغلبوا على هذا الضعف وهذا الامتثال للغير • ان عدم الاعتراف بالضعف يعد غلبة ، يعد فتحا سيصبح فى يوم ما أكثر دوما وأعظم اتساعا، وعندئذ سوف لا يعد ذلك محاولة بل يعد بداية ، ولا يعد عنادا بل صونا للكرامة•

كنت أصغى اليه وانتظر ان يجاوزه هذا الذى ألم به ، اذ كنت اعرف أن حماسته وتبرمه لا تطول مدتهما • وليست له سوى حماقة وحيدة تدوم طويلا وتتمثل فى حبه للدوبرفنيكية • وفى الحق ان هذا الحب يبلغ فى غرابته وغموضه درجة تجعلنا نراه حاجة الى الحب أكثر من أن يكون حبا• فحسن لا تتحقق ذاته ولا يعرف نفسه ، ولا يضع نفسه فى حيز محدد ؛ انه يحاول كل شىء ولا ينهى أى شىء ، طالما هو يسمح لنفسه على الدوام أن يخطىء الهدف • انه سيخطىء الهدف حتى فيما جبل عليه من كرم •

ذات مرة أشار الى الكسيح جمائيل ، الذى كان اولاده يجرونه فى عربة صغيرة ، وكان يخرج منها ويسير فى صعوبة بالغة ، متكئا على عكازتيه ، وجارا قدميه المشوهتين اليابستين ، حتى يبلغ دكانه الذى اتخذه لخياطة الملابس • وحينما يكون جالسا يدهش الناس بجماله وقوته ، وبوجهه الذى يبدو عليه سيماء الرجولة ، وكذا بعذب ابتسامته، واتساع كتفيه ، وقوة يديه ، وبقامته التى تشبه قامة البهلوان • ولكنه فور أن يقوم ينهار على الفور كل هذا الجمال ، ولا يرى اذ يتجه الى العربة الصغيرة سوى رجل كسيح لا يملك الناس أن يروه دون أن يرثوا لحاله • لقد شوه نفسه بنفسه • ففى سكره الشديد أخذ يطعن فخذيه بسكين حاد

حتى قطع عروقهما ومزق عضـــلاتهما ، وما يزال الآن وهو يشرب ينهال طعنا على البقايا اليابسة نقدميه ، دون أن يســمح لأحد بالاقتراب منه ، كما انه ليس باستطاعة احد أن يتغلب عليه ، اذ ما تزال يداه تحتفظان بقوة جبارة • واتبع حسن اشارته بقوله :

ـ ان جمائيل يمثل صورتنا الحقيقية ، صورة البوسنويين • انه قوة تقوم على بقايا يابسة • انه جازر نفسه بنفسه • لديه الكثير ولكنه يفقد الاتجاه والغرض •

ـ ومن نكون نحن اذن ؟ حمقى ؟ تعساء ؟

ـ أعقد الناس في العالم • ولم يمزح التـــاريخ على الدهر مع احد مثلما فعل اذ ألقى علينا مزاحه • فالى الأمس كنا ذلك الذى نرغب فى نسيانه اليوم • ولكننا لم نصبح شيئا آخر • لقــد توقفنا في منتصف الطريق ونحن في ذهول • ولم يعد في اســتطاعتنا أن نتجه الى أى مكان بعد • اننا منقطعون ولكننا غير مقبولين من أحد • اننا اشبه شيء بجدول كان يعيش في كنف نهر يرى له بمثابة الأم فاتى الســيل مندفعا كالمارد الجبار ففصل الوليد عن الأم ، وأصـــبح لا منبع له ولا مصب ، صغيرا بحيث يتعذر أن يكون بحيرة ، كبيرا بحيث لا يمكن للأرض ان تمتصه • ونحن ازاء هـــذا الشــعور المبهم الذى يولده الخجل من أرومتنا وهذا الاحساس بالذنب من أجل ردتنا ـ لا نريد أن ننظر الى الوراء ، وليس لنا في الوقت نفسه من هدف أو اتجاه يدفعنا الى التطلع للأمام ، ولذا نحاول أن نوقف الزمن ، خوفا من أى حــل يكون • ها هم اخوانـنـــا والدخلاء يحتقروننا ، ونحن ندافع عن أنفسنا بالفخر والكراهية • لقــد أردنا أن نحافظ على كياننا ، ونرعى أصولنا ، وها نحن فقدنا أنفسنا بدرجة تجعلنا لا نعرف من نكون • ان المصيبة كل المصيبة تكمن في محبتنا هذه الارض وعدم رغبتنا في النزوح منها والبعد عنها • ولا بد أن نعرف أن لكل شيء ضريبة ولهذا الحب أيضا • انكون على وجه الصدفة حلماء للغاية وقساة غلاظا كذلك ، نرى على جانب من اللين وعلى جانب من الصــلابة والشدة أيضا ، يخالجنا الفرح والسرور كما يخالجنا الحزن والغضب • مستعدين دائما أن نفاجيء الغير وأن نفاجيء أنفسنا أيضا ؟ أيكون على وجه الصدفة اختفاؤنا وراء الحب ، ذلك الامكان الوحيد لحالة غموضنا ؟ أيكون بلا سبب تركنا الحياة تمر بنا ، وبلا سبب نقوم باهلاك أنفسنا ، بطريقة تخالف تلك التى يقوم بها جمائيل ، ولكنها تماثلها من حيث الأمان والثقة ؟ ولكن لم نفعـــل ذلك ؟ نفعله لأن الأمر يهمنا • واذا كان كذلك فهذا يعنى أننا شرفاء • واذا ثبت هذا فالاجلال كل الاجلال لتلك الحماقة !

ان الاستنتاج غريب غرابة التفكير كله • ولكنه في محله ، اذ بامكانه أن يبرر كل ما يفعله الانسان وما لا يريد أن يفعله • انني لم آكن مريضا بذلك المرض ، التـاريخي والوطني ، نظرا لانني عن طريق الدين مرتبط بالحقيقة الأبدية وبذلك الرحب المتسع من العالم • ان رأيه ضيق الافق، ولكنني لم أرد ان اجادله ، وذلك لأن هناك هموما أهم كانت تراودني ، ولأنه صديقي ، ولأنني كنت ارى أن تفكيره يميل الى الانحراف ولكنه غير خطير ، لأنه يخنق نفسه بنفسه • حتى ان شيئا ما قـد فسره لي ذلك الضـجر المتخيل ، الذي يعد نـوعا من التفسير الشاعرى لعدم اصابته الهدف ، كما يبدو أشبه شيء بتبرير يصدر من طفـل عاقل كبير ، ذلك الطفل الذي يكون على وعي من أنه ينفق حياته سدى • وفي الحق ، ماذا كان في امكانه وهو الثرى الشريف أن يفعل سوى ذلك ؟ انه لم يكسب بنفسه تلك الثروة ومن ثم لم يقدرها ، ولكنه في الوقت نفسه لم يرغب ان يجرد نفسه منها • ولذا كان يشيد في مهارة صرحا من الكلمات ينبيء عن أن الحياة تضايقه ، مبتكرا بعض كذبات صـغيرة ، رغبة منه في أن يهدىء نفسه ويسكن ضميره •

وخدعت نفسي بتصـوري ذلك ، كما خدعتها بالنسبة لامور كثيرة تتعلق بحسن •

وللمرة الثانية مرت فترة طويلة دون ان اسجل شيئا • لقد أصبحت الحياة مؤلمة •

وكنت كلـما ازداد أيلامها أزداد تفكيرا في أخت حسن • وكنت لا ازال أذكر نظرها الغريب وصـورة يدها التي كانت تنم عن الحزن • لم تسمح لي بدخول البيت عندما جئت لأدفع عن نفسي ما وصل الى سمعها من أخبار سيئة • وعندئذ عهدت الى أحد أصدقائي بالذهاب اليها وابلاغها اسـتعدادى لطلب يدها ان هي وافقت • ورفضتني دون تبرير لذلك • وتأكدت بعد أنها حامل حقا ، وانها صادقة الحزن على قاضيها • وكنت أظن انها تنظر اليه بعينيهاتين ، ولكن يبدو أنها وجدت في نفسه مالم يجده أحد • لعله كان رقيقا نحوها • بقدر ما كان قاسيا بالنسبة للجميع ، ولم تكن هي على علم بغير هذا الجانب منه • سوف يزايلها هذا الحزن الذى ينتاب الأرامل ، ولكنني كنت شديد التبكير في طلب يدها ، ياللخسارة ، فلو حدث أن تزوجت بها لكان هـذا أحسن دفاع بالنسـبة لي ازاء تلك الاتهامات التي أسندت الى ، ولأصبحت أحد أفراد هذه العائلة المبجلة التي كان في الامكان أن تصبح لي خير سند وخير معين • ولـكن ها هو عيني

افندى يشكل عقبة فى سبيل هدفى على الرغم من انتقاله الى مثواه الأخير٠

ان صديقى حسن قد جن تماما ٠ وأستطيع ان أفسر ذلك بأن كل ما يمكن أن يدخل مخ الانسان فى استطاعته أن يصبح شهوة ٠ وهذا لا يعد تفسيرا بحال ، ولكنه التفسير الذى لا أجد سواه ٠ ان هذا الصديق سافر مرات عديدة الى منطقة نهر سافا ، ولم يكن يشغله سوى تفكيره ٠ وقد سمعت أنه يقوم بشراء الضيعات المنزوعة من الثوار فى هذه المنطقة٠ وسألت والده عن صحة هذا الخبر ، فأجاب فى ابتسامة ماكرة :

ـ حقا نحن نقوم بالشراء ٠ فهذا عمل مربح ، سوف تباع بثمن زهيد ٠

ـ الديك نقود ؟

ـ نعم ٠

ـ لماذا تقترض اذن ؟

ـ كل شىء لديك به علم ! اننى أرغب فى شراء مساحات شاسعة ، ولذا أقترض ٠

اننى لم أقم بعمل مثل هذا فى حياتى ٠

ـ تأخذ ضياع الفقراء ؟

ـ آخذ ٠

كان يضحك فى سرور كما يضحك الطفل ٠ ان هذا سيشد أزره ويمنحه القدرة على الوقوف ٠ لقد جن هو كذلك من فرط حبه لابنه ٠ ان أسباب الجنون مختلفة ولكن المسببات واحدة ٠ انهما سيهلكان أنفسهما٠

وكنت أنا اضحك أيضا ، مسرورا مثله ، مسرورا كما لو كنت لا أعرف السرور منذ زمن ٠ وقلت :

ـ ان هذا سيبعد المرض عنك ٠

ـ اننى أحس بدبيب الشفاء ٠

ـ ستتحسن صحتك وستغدو فقيرا ٠ أترى فى ذلك سعادة ؟

ـ سأمتلك صحة جيدة وسوف لا يبقى لى ما اتبلغ به ٠ ولا ادرى أيعد هذا سعادة ٠

ـ من سينفق عليك ؟ ابنك أم ابنتك ؟ وأستطيع أنا بدورى أن أرسل اليك طعاما من التكية ٠ وهكذا ستتمكن من أن تعيش ٠

ـ سأقف فى طابور المطعم الشعبى ٠

اخذنا نضحك كالبلهاء أو الحمقى ، واستمررنا فى الضحك كما لو كان ذلك خير مزاح على وجه الارض ، كما لو كان يمثـل شـيئا حكيما مفيدا • كنا نضحك ، من أجل قيام الانسان باهلاك نفسه •

وكان يسالنى :

ـ اعرفت أيها الماكر ؟ من اين عرفت ؟ لماذا لا تصدق اننى أعمل عملا مربحا ؟

ـ أعرف • كيف يتسنى لكما انتما الاثنين أن تقوما بما هو معقول من الامور ؟ وخاصة عندما حثك الابن على ذلك • انه ليس معقولا ولكنه جميل •

ـ نعم لقد حثنى ابنى • واذ ذاك يكون معقولا وجميلا كذلك • لو كان لك ابن لعرفت ذلك •

ـ لعرفت كيف يولد السرور من الخسائر •

ـ أيعد ذلك قليلا ؟

ـ ليس بقليل •

انهما دون شك لن يبقيا دون شيء وهم يشترون الضيعات المنزوعة، لكي يؤويا فيها المساكين المشردين • ان عقل علي أغا سـوف يتغلب على حماسه وحماس ابنه ، ولكن سيكون هناك ضرر كبير ، اذ سيجتهد حسن في أن يرتكب أكبر قدر ممكن من الحماقة ما دام قد بدأ • انه يفعل كل شيء باندفاع في فورة ذلك الحماس الذى لا يسـتمر طويلا • وهو الآن واثق أن ذلك يعد العمـل الوحيد الذى يجب عليه أن ينجزه ، سيظل يباشره حتى يتعب نفسه ، وحتى ينتابه الملل من أجله ، وسوف يحدث ذلك عن قريب ، ولا شـك أنه سيلقى على عاتق والده وعلى عاتقه أيضا ديونا كثيرة •

اننى لم أكن قط أملك شيئا ، ولم أكن أرغب فى أن أملك كذلك ، ولكن دمى القروى ما زال يراوده الخوف من كثرة الانفاق وبعثرة الاموال• وهذا الذى يفعلانه يعد بداية لأن يجدا أنفسهما في مفترق الطرق • انه أشبه شيء بتصرف السكير لا يدرى حسابا لشيء ولا يعرف حدودا لانفاقه، أشبه شيء بالاندفاع القوى وبثورة الدماء عنـدما يرى التوقف صعبا بل يكاد يبدو مستحيلا ، أشبه شيء بالحماس الأحمق الذى لا يتبصر العواقب، أشبه شيء بجمـائيل الذى يهلك نفسه بنفسه • وعلى الرغم من ذلك كنت أشعر ازاء كل ما لم يستطع عقلى تقبله بنوع من وفرة الابتهاج ، وبأن هناك

سببا يصعب على ادراكه لما احسه من الفرح العميق · وكان ذلك لأن الأمر يبدو غير معقول ، ولأنه يثير الضحك ، ولأنه يذكرنا بالمزاح : هيا بنا نفعل شيئا غير عادى · ولأنه يصعب تفسيره ·

لا شك أنهما سيعودان الى صوابهما بعد فوات الأوان ، وسيريان بأنفسهما كم سيكون نبلهما غاليا بالنسبة لهما · ولكن سيصبح كل شيء جميلا الى درجة لا تدع لهما فرصة للندم · سيسكرهما الفخر بسبب مدح الناس لهما ، أولئك لا يدفعون من أجل ذلك ولو فلسا ·

واما أنا فقد كنت ازداد ادراكا بأن السلطة عمل صعب ومعقد ، كنت أمارس أمورا صعبة ، أدافع عن نفسي وأشن الهجوم على الآخرين وكنت أقوم بكل ما فى وسعى كى اصمد ، كنت اخوف واتخوف ، كنت اشعر أننى مع المصائب ازداد قوة واغدوا أعظم نفوذا ، اذ لم أعد بعد مضطرا لأن أكيل ضرباتى ، ولكنى مع الكآبة العجيبة ومع الضغن المبهم اخذت افكر فى وجه حسن ، فى السرور الذى كان يتنازل به عن السند الأكيد فى الأمل الذى ايقظه فى قلوب الناس · لم يكن هذا الأمر جادا · وعلى الرغم من ذلك فانه أشبه شيء بامكان ما لا نستطيع الاحاطة به ·

وكان أن وقعت بعد ذلك أحداث هامة ·

(لو كنت أملك وقتا من الفراغ أكثر ، كما كنت فى الماضى ، لأحسست برغبة يمازجها سرور فى أن افكر فى ذلك الذى يشبهان فيه الآخرين ، فقد أصبحا هامين لتعلقهما بالآخرين وتعلق الآخرين بهما ، وعندئذ لم تعد الأحداث هامة فى ذاتها ، بل باهتمامنا بها ، الأمر الذى يجعلنا نفصلها عن غيرها من الأحداث · أو نقوم بما يشبه ذلك · ولا يخفى ما فى هذا البحث من متعة خاصة تجعلنا كما لو كنا نعيش فوق الأحداث · أما الآن فانا أحس أننى انغمست فيها ، وليس لى الا أن أسجلها فحسب) ·

فى منطقة السافا ، وفى اليوم الذى حدد لبيع الضيعات المنزوعة ، صادف حسن عقبة غير متوقعة ، فقد أعلن المنادى للبيع أن مندوب الوزير سوف يشترى باسم الوزير جميع الضياع ، وكان هذا بمثابة امر من الوزير بمنع الآخرين من منافسته · ولكن ذلك كان يشكل عقبة فى نظرى ، واما فى نظر حسن فلم يكن ذلك · ودون أن يبالى برغبة الوزير اشترى عددا من الضياع ، والباقى ، وهو النسبة الكبيرة ، اشتراه مندوب الوزير ، بقيمة رمزية · وقد ترك حسن بعض النقود من أجل

الاصلاحات الضرورية للبيوت وشراء الطعام للعائلات التى ستقطن فيما اشتراه من ضياع ، وعاد الى القصبة راضيا ٠

وحينما رأيته سألته مازحا ، لأننى لم أكن أعتقد أن ما ينجم عن غضب الوزير سيتأخر كثيرا :

ـ ما حاجتك لأن تختصم مع الوزير ؟ أأنت حقا لا تخاف أحدا ؟

وتولى العجوز الاجابة ٠ وكان يغدو ويروح متباطئا فى غرفته ، وقد علق على كتفيه معطفه :

ـ من الله يخاف قليلا ، ومن السلطان لا تراوده ذرة من خوف ، وأما فيما يتعلق بالوزير فخوفه منه يعادل خوفه من حصانه الكميت ٠

وقال حسن وهو يرد لطمتى :

ـ لم أخاف ؟ ولى مثلك ٠ ولعلك اذا حدث أمر تقوم بحمايتى ٠

ـ من الأفضل الا تكون بحاجة الى حماية أحد ٠

ضحك العجوز وقال :

ـ ان الدرويش لا يجيب قط اجابة مباشرة ٠

وانطلق حسن فى جد يجيب :

ـ لديه حق ٠ فمن الأفضل الا أكون فى حاجة الى حماية أحد ٠ أن أحمى نفسى بنفسى ٠ ليس من العدل أن أثقل على صديقى بالمصائب التى اخلقها وحدى ٠ فمن لا يعرف السباحة يجب الا يلقى بنفسه فى الماء ، آملا أن يجد من يقوم بانقاذه ٠

ـ ولكنه لن يكون صديقا اذا لم يقم بانقاذ صديقه ٠ انك تفهم الصداقة فهمك للحرية ، وأما أنا فأفهمها فهمى للواجب ٠ ان صديقى يعد كشخصى ٠ وحفظى اياه حفظ لنفسى ٠ أهناك حاجة لأن أقول ذلك ؟

ـ لا ٠ ان والدى يسترسل فى حديث عديم الجدوى ، لكى لا أحكى ماذا فعل معى ٠ أتعرف أنه أخفى الذهب عنى ؟ أخفى الفا من المسكوكات الذهبية ! وقد وجدتها عندما عدت ، فى صندوق عليه قفل ٠

ـ لقد قلت لك بنفسى ٠

ـ نعم قلت ، لكن بعد أن عرفت ٠

ـ لماذا اخفيها ؟ وممن ؟ انها لك ، تفعل بها ما تريد ٠ فلن أحملها معى الى القبر ٠

يا للفطنة ، ما زال العقل في خدمة العجوز !

وحتى لو حدث أننى قمت باخفائها ، أفى ذلك ما يوحى بسوء ؟ ولكننى فى الحق لم أفعل ذلك ، بل وضعتها ونسيت ٠ افى ذلك غرابة بالنسبة لذاكرة رجل مسن ؟ ٠

وبمقتضى ما كان من اصرار حسن ، وما كان من ابتسامته التى كان يستقبل بها ذلك الدفاع الساذج من العجوز عن نفسه ، دون أن يجهد نفسه فى انتزاع تعليل مقنع لما قام به العجوز ، وبما كان بينهما من التسامح السار المتبادل الذى اخذا يفضان به ما نشأ بينهما من نزاع ظاهرى ـ استطيع أن أقول ان حسن نفسه لم يكن غير راض بما حدث على هذه الصورة ٠ لقد قاما بما يجلب لهما الثواب وفى الوقت نفسه بقيت المسكوكات ٠ كما أن تلك الأسرة لم تعد تزعجهما بعد ٠

ومهما يكن من أمر فهما يختلفان عن الآخرين ، لأن هؤلاء لا يقدمون مقدار ما يقدمانه ٠ كما ان كرمهما الذى يصدر عنهما بمقدار ، أو يحاولان فى جهد ابرازه ، كان أكثر قربا الى نفسى وأشد تأثيرا ٠ فهو بالغ الانسانية ، وله حدود باستطاعتى أن أحيط بها ٠ انه لا يخوفنى بمخاطرة يقوم بها ولا يؤرقنى بعدم اتزانه ٠ فالكرم المختبل هو ما يفعله الطفل اذ يعطى كل شىء ، لأنه لا يعرف قيمة لشىء ٠

فى اليوم الثانى لعيد الفطر جاء الى التكية «بيرى فويفودا» الذى كان يراقب حركات اولئك المشتبه فى أمرهم ، وكان يرى أن جميع الناس ينطبق عليهم هذا الوصف ، وسلم الى رسالة «لوقا» الدوبرفنيكى صديق حسن ، المرسلة الى مجلس الشيوخ بدوبرفنيك ٠ وكانت هذه الرسالة عن التجار الدوبرفنيكيين الذين غادروا القصبة هذا الصباح مع شحنات البضائع ٠

ـ لماذا أخذت هذه الرسالة ؟

ـ اقرأ ، وسترى لماذا أخذتها ٠

ـ هل الأمر هام ؟

ـ اقرأ ، وسترى هل هو هام ٠

ـ أين التجار ؟

ـ ذهبوا . اقرأ ثم قل لى هل كان ينبغى أن يغادروا القصبة .

ان الشيطان بنفسه قد ألقى على عاتقى هـذا الرجل ، البليد ، العنيد ، الذى يتعذر قبوله الرشوة ، والذى يخامره الشك فى جميع الناس ، والذى كان على وجه اليقين تمتـد نظرته المرتابة لتصل الى والدته . ودون أن يفهم شيئا غير اتهامه للجميع ، كان يمطرنى بالرسائل والبلاغات ، محتفظا بفحواها فى ذاكرته ، ومستخبرا عما تم بشأن كل منها على حدة . وكان نصف المصائب على كثرتها تصلنى منه ، حتى لقد اصبحت اعتقد انه عقوبة الله بالنسبة لى ، وأن كل شخص يملك «بيرى فويفودا» الخاص به . غير أن هذا الذى يختص بى كان أشد من الجميع . لذلك انتابنى شك فى أن يكون قد نصب لى قصدا ، كمرءوس يراقبنى . وكان اختيارهم اياه موفقا للغاية . لم يكن تابعا لأحد . ولم يكن يخدم أحدا سوى بلادته . وكان هذا يكفى ليجعلنى أنسلخ ثلاث مرات يوميا من جلدى . اما هو فلم يكن باستطاعة احد أن يجرحه أو يثيره . وعبثا حاولت أن أصلح من امره وخاصة فى البداية ، ثم عدلت عن ذلك بعد أن تعبت .

وكان يستمع الى فى مضض ، وقد رفع راسه عاليـا ، تكبرا واحتقارا ، ولعله كان حقا فى دهشة ، فهو يشك فى عقلى وفى صلاحيتى ، واستمر يعذبنى بضميره الذى لايطيقه أحد . لم يبق لى سوى أن أخنقه ذات مرة عندما يشتد غضبى ، أو أن أهرب برأسى الى حيث لا أعود ، عندما لا أستطيع بعد أن اتحمله . ومن المؤلم أنك تستطيع أن تجد ألف سبب لتدعوه مجنونا ، ولكنك لا تستطيع أن تجد ولو سببا واحدا لتعلن أنه غير شريف . لقد كان يثور فى نفسه مبدأ عدالة مشوهة ، ورغبة متلهفة من أجل أن يعاقب الجميع لأى من الأسباب ، ولم يكن يكتفى بجميـع ما كنت أبديه من القسوة . ان الآخرين كانوا يتهموننى بسبب قسوتى ، وأما هو فكان يعاتبنى بسبب تساهلى . وأما الأعداء فقد جعلوا من كلا الأمرين سببا لاتهامى .

لقد حكى لى أن قطاع الطرق هاجموا تجار دوبرفنيك فى أسفل الجبل ، وبينما كان هؤلاء يردونهم هرب أحد خيولهم ، وانحرف الى احدى القرى فى طريق عودته الى القصبة . وبحث الدبروفنيكيون عنه دون جدوى ، ثم واصلوا سفرهم تاركين اياه ، لأنهم كانوا متعجلين كى يعبروا الجبل فى أثناء النهار . لقد سمع «بيرى فويفودا» عن تغيب هذا الحصان ،

وعلى الفور وجده ، وأجبر الفلاحين ليردوا كل ما أخذوه ، وعلى الفور كان على استعداد لـكي يعطوا ما يخصهم كذلك وليس ما يخص الآخرين فحسب • وهكذا وجد الرسالة ، وذهب بها الى الصراف سليمان ، ليقرأها له ، لأنه لم يكن يعرف قراءة الحروف اللاتينية •

أصابني دوار من جراء هذه القصة المعقدة ، ومن جراء هذا الحدث الذى يصعب متابعته • ذلك الذى لو سمعه أى رجل عاقل للوح بيده • واما «بيرى فويفودا» فقد ظل يتابع الأمر الى النهاية جريا وراء الأشباح ، واخيرا تمكن من اقتناص التقرير الجاسوسي !

ظل واقفا امامي ينتظر • قرأت الرسالة وعرفت ما كنت أعرفه من قبل ، وهو أن الأجانب يكتبون عن ذلك الذى يرونه ويسمعونه فى بلاد الآخرين ، وكل احد يعرف ذلك ، وكل أحديفعله ، ولكنهم على الرغم من ذلك يدهشون من الأمر عندما تصل أيدى السلطات الى واحد من تقاريرهم قرأت وتنفست الصعداء : لم يكتب شيء عن حسن ، لم يكتب ما كان في الامكان أن يلقى أى شك حوله ، وكذا لم يكتب شيء عنى ، لم يكتب ما كان في الامكان أن يجرحنى • لقد كتب الدوبرفنيكى أكثر ما كتب عن الوزير وعن ادارة البلاد • وكان فيما كتبه اشياء تكاد تكون صادقة ، ولكنها سيئة حين تقرأ • (•• لقد استنفدت فوضى الادارة قوة البلاد •• لو علمتم مدى غباء هؤلاء الناس وخاصة أولئك الذين يحملون رتبة القائمقام والمتسلمون : لدهشتم ، كيف يمكن أن تكون السلطة فى أيدى أولئك الرجال ، الذين ليسوا من المجتمع الشريف على الاطلاق ••• ان شبكة الجاسوسية منتشرة في البوسنة بين الموظفين وبين العملاء والأعوان، كما هو الحال فى بعض دول الغرب ••• لقد أدخل الوزير الظلم ووضع نفسه ندا للامبراطورية ، وعد من ليس معه عدوه ••• وبكلمة نستطيع أن نقول انه خلق الجحيم ، فهو ينقل الموظفين ويفصلهم ويسوس البلاد وفق مزاجه ، وقد صرح فى عديد من المرات بأنه لا يعرف القانون ••• وهو يكره أتباع محمد واتباع المسيح كذلك • ولكن الحكومة لن تتخلى عنه بسهولة ، لأنه قد جمع للامبراطورية خلال سبع سنوات كثيرا من المسكوكات الذهبية ، وهذه المسكوكات تعد سنده وعونه فى استانبول ••• وهو بدوره يعد سندا لقبيلته ••• وبواسطة هذه المجموعة التى تتصف بالفساد ، وتتجلى فيها القسوة ، وتسودها الخيانة ، استطاع أن يعلو أكتاف الشعب ، بحيث لا يجرؤ أحد على أن ينطق بكلمة ••• ان هذا النظام الذى يقوم على الارهاب والسـيطرة البوليسية ، كان من

الضرورى بالطبع أن يجعل من البوسنة عضوا أشل فى الامبراطورية ، حيث لم يعد الصديق فيها يأمن صديقه ، ولا الوالد ولده ، ولا الأخ أخاه، ولا الزميل زميله ، فقد استولى الخوف على كل شخص من رجال عثمان السود ، وأصبح السعيد للغاية هو الذى لا يجرى اسمه على ألسنة اهل بلدته ... » وذكر فى الرسالة أيضا أمر شراء الضيعات المنزوعة ، والثمن الذى اشتريت به ، ذلك الثمن البخس ، وأسماء الأصدقاء والأحباب من قبيلة الوزير ، وكل شىء يتعلق بما أخذوه ، وبما أعطى لهم، وبما اغتصبوه . ان الدوبرفنيكى اذا أقام هنا بارض البوسنة لم يكن مغمض العينين أو جاعلا لأذنيه سدا !) .

قلت ، من أجل «بيرى فويفودا» الذى كان فى تلهف بالغ ينتظر رأيى :

ـ أمر مخيف .

ـ يجب القبض عليه .

ـ ليس من السهل القبض على الأجنبى .

ـ أيمكن للأجنبى أن يفعل ما يشاء ؟

ـ لا . سوف أتشاور مع المفتى .

ـ تشاور . ولكن يجب القبض عليه قبل ذلك .

ـ ربما ، سارى .

وخرج وهو بالغ الاستياء .

يا له من نكبة ألقت بها السماء ! انه لو لم يكن يدس أنفه فيما لا يعنيه ، لنعمت بالهدوء على الأقل فى هذه الناحية . اذ أننى فى هذه الحال لا أكون على دراية ، ومن ثم لا يكون منى اهتمام أو تدخل . أما الآن فانا أدرى ولا بد لى من الاهتمام . ولكننى مهما فعلت ففى الامكان أن اخطىء ، وليس فى وسع ضميرى أن يساعدنى ، ذلك الضمير الذى كنت أعتمد عليه اعتمادا كبيرا فى سالف الأيام . ان هذه اللحظات من شأنها أن تورث الشيب قبل المشيب .

ان المفتى لم يكن لديه استعداد ليسمع شيئا يتصل بالعمل فى يوم العيد . ولم يكن يسمح بذلك أيضا فى غير أيام العيد ، ولكن لم يكن يهمنى رأيه بل كان يهمنى اسمه .

واما المسلم فلم يكن فى البيت • لقد ذهب الى السوق • هكذا قال أهل بيته • ووجدته فى مكتبه • فى العيد ! لقـــد كان على علم تام بالموضوع •

وقال دون تردد :

ـ يجب القبض عليه •

ـ ولكن لو حدث أن كنا على خطأ ؟

ـ سوف نقوم بالاعتذار •

تملكتنى الدهشة لهذا الحزم الذى لم يكن عاديا على الاطلاق • كان من الأفضل الا اسمع نصيحته ، لأنه لا يتمنى لى خيرا ، هذا ما أعرفه • ولكن لو حدث أننى قبلت نصيحته ، فالمسئولية ستكون مشتركة •

ـ يبدو أن هذا هو الأفضل •

وافقت ، ولكننى لم أكن على يقين بشأن الأفضلية •

غير أن «بيرى فويفودا» أزال عنى هذا القلق ، وان كان قد أصابنى بقلق آخر • فقد جاء يخبرنا ، وقد تملكه الغيظ بما حدث والرضا اذ تحققت شكوكه ، أن الدوبرفنيكى قد هرب من القصبة بمساعدة حسن• لقد ذهبا سيرا على أقدامهما الى الحقول ، وهناك كان خدم حسن ومعهم الخيول • ينتظرون مقدم الدوبرفنيكى • وعاد حسن غير مصحوب بأحد•

قال المسلم وهو يحرك رأسه :

ـ أمر حرج •

كل شىء كان ينطق بحيرته ، صوته ، وكتفاه المهدلتان ، واستناد ذقنه الى راحته ، كل شىء ، سوى تلك الابتسامة التى لا تكاد تبـدو ، حول شفتيه الدقيقتين • وسوف يبدو الأمر عجيبا اذا لم يقم باخبـار الوالى بانه قد ارتأى القبض ، ولكنه للأسف لا يملك اصدار قـرار بشأنه •

أما «بيرى فويفودا» فقد أخذ يدفع المسئولية عن نفسه ، بما كان يلقيه من اتهام :

ـ اننى كنت انصح بالقبض عليه •

ـ أمر حرج ـ هكذا كان يردد المسلم ، موخزا اياى بذلك ٠

وكم يكون حرجا ، لقد كنت بنفسى أدرك ذلك ٠ والآن لم يعد الدوبرفنيكى مذنبا ، لأنه غير موجود ٠ وليس المذنبون سوى الذين بقوا ٠ المذنب حسن ، والمذنب انا كذلك لأننى صديق له ، ولأننى تركت الدوبرفنيكى ليهرب ٠ مذنب ، بسبب عمل الآخرين ، وبسبب بلادة الآخرين ، مذنب أمام ذلك الوالى الذى كان يحمينى ٠

لقد ارسلنا على الفور فى طلب حسن ، وكنت أنتظر وبرودة تسرى فى جسدى أن يظهر حسن مستاء لأمر قيامنا باستجوابه ، شاعرا نحونا باحتقار وبرغبة فى العناد ، ولم أستطع أن أنبهه ، أن أستميله الى الحذر اذ الحمية لا تفيده فى شيء ٠ وكنت آمل انه سيدرك موقفه وموقفى أيضا ، وهدأت نفسى تماما حينما سمعته يجيب ٠ لقد قال ، نعم ان الدوبرفنيكى غادر القصبة ، وكان متعجلا لأن خبرا أتاه يعلن أن والدته فى لحظات الاحتضار ٠ وقد وضع خدمه وخيوله تحت تصرفه ، لأن خيول الخان كانت فى حالة من الارهاق لا تستطيع معها مواصلة السفر ٠ وقام بتوديعه الى الحقول كعادته على الدوام مع أصدقائه ٠ وكانا يتحدثان فى أمور عادية ، عادية للغاية حتى انه لا يكاد يتذكرها ، ويستطيع تذكرها لو احتاج الأمر ، وان كان لا يرى اية أهمية لذلك ، ان صديقه لم يحدثه بشيء عن أى تقرير ٠ (ـ التقرير الجاسوسى ـ نطق بها المسلم على سبيل التوضيح) ٠ وها هو يدهش للغاية لأن الرجل لم يكن يشغل نفسه بشيء سوى التجارة ، ولم يكن يزج بنفسه فى أى عمل آخر ، حتى لقد كان يحث حسن أن يتجه بقوافله وتجارته الى دوبرفنيك بدلا من اتجاهه بها الى «سبليت» و «تريستا» ، اذا عاد ثانية الى الاشتغال بالتجارة ولم يذهب مع الدوبوفنيكيين الآخرين ، لأنه تسلم الرسالة المرسلة اليه من بيته بعد رحيلهم (ومن السهل التأكد من ذلك : فالرجل الذى حمل اليه الرسالة ، لا يزال فى الخان) ، وقد جهز نفسه فى عجلة ، ولم يأخذ سوى الضرورى من الأشياء ٠

وعندما أطلعناه على التقرير ، أجرى بصره عليه ، ثم حرك رأسه مبديا دهشته اذا كان صديقه حقا قد كتب هذا ، فهو على الأقل لا يعرف ذلك ، اذ لم يحدث أن تراسلا من قبل ، كى يستطيع أن يدرك أن هذا خطه ، وذكر أن باستطاعته أن يدرك فكرته ، غير أنه لم يكن يراها هنا بالذات ٠ واذا ثبت أن كان هذا تقريره ، وبحسب القرائن يبدو أنه

كذلك ، فلا شـــك أن هذا الرجل يمتلك روحين ، وهذه التى ترى هنا لم يقم بالكشف لى عنها من قبل • لقد ضحك وهو يقرأ التقرير وقال انه يحس بجريرة الذنب لوقوعه ضحية الغفلة ، اذا كان فى الامكان أن يحدث الضرر من هذا • ولكن ، لحسن الحظ ، لم يكن ذلك من الممكن ، لأن كل ما كتب هنا ، يستطيع كل شخص ان يقوله عن أى بلد آخر ، وليس هناك بعد من يدهش لهذا • كما ذكر أنه ليس من اختصاصه أن يقدم الينا شيئا من النصائح ، كما ان ذلك ليس من عادته ، ولكنه يعتقد أنه لا ينبغى النفخ فى النيران بغية توهجها ، ولا اخمادها اذا كانت قد خمدت بنفسها • لقد انزوت الفضيحة وتعذر على العار أن يطل برأسه • اذ الفضيحة لا تتمثل فى ذلك الذى يفعل ، وبالأخص فى ذلك الذى لا يفعل ، بل فيما يذاع وتتناقله ألسنة الناس • لقد انفضت السلطات ووضعت أيديها على النية فحسب • واذن لا توجد هناك اثارة لانفعالاتنا ، الا اذا كنا نريد ذلك • وهكذا ، يمكن لهذه الأمور ان تكون بمثابة درس لنا • واضاف أنه لا يوافق حقا على هذا العمل ، وانه – وان كان يرى منذ زمن بعيد أن الناس ليسوا ملائكة – لا يرغب أن يقـــذف صديقه بالشتائم ، اذ لو تم ذلك لبدا الأمر قبيحا ، وهو لا يرغب فى تبريره أيضا ، اذ لم يعد أحد فى حاجة الى ذلك بعد • انه يستطيع أن يتحدث عن نفسه فحسب ، وعلى الرغم من أنه ازاء هذا لم يعد يرى مذنبا فانه على استعداد لأن يقدم أسفه لنا وللوزير ، حيث قد زج باسمه فى ذلك الهراء الذى سبب لنا من الانزعاج والقلق أكثر مما يستحق •

كنت أستمع فى اهتمام لما يقول • اننى اشك فى أنه لم يكن يعلم سبب هروب الدوبرفنيكى ، ولكنه كان يترك تأثيرا بأن قلبه نظيف ، ودون شك أنه كذلك ، اذ لم يكن تهمه الرسالة أو سمعة الوزير • وكان له رد مقنع هادىء بالنسبة لكل ما يوجه اليه ، ربما كنت أنا الوحيد الذى يشعر بنبرة سخريته فى كل كلمة يطلقها من فمه ، لأننى كنت أتابع فى اهتمام كل ما كان يتفوه به ، مسرورا بأنه يدفع الشكوك عن نفسه فى نجاح • وادركت للمرة الثانية ، كم يبلغ اهتمامى به ، وكم نالت منى مصيبته • لست على استعداد لأن أتركه فى سهولة كى يثار منه أحد ، ولكنى كنت أشعر بالاغتباط لأنه يدافع عن نفسه بنفسه • اننى أحب ذلك الذى هو عليه أكثر من حبى ذلك الذى أكون مضطرا الى القيام به •

لم تكن تراودنى الهموم من أجل نفسى أمام الوزير : لقد كان فى حاجة الى •

في يوم الجمعة ، بعد الصلاة ، أخبرني ملا يوسف بان دفتردار الوالي ينتظرني في المحكمة · اي شيطان جاء به الى هنا ، في هذا الجو السيىء !

عرجت على المسلم · وعلمت أنه منذ قليل قد ذهب الى البيت ، فقد المت به حرارة ما ، هكذا قالوا لي · وكنت أعرف لاية حرارة تكون هذه ، أنه ينقذ نفسه بها من جميع الصعوبات التي تصادفه ، ولكن الأمر لم يكن لي أيسر بمعرفتي ذلك ·

استقبلني الدفتردار عند ذهابي اليه ببشاشة ولطف ، مبلغــا اياي تحيات الوالي ، وقائلا انه يود أن ينهي على الفور ذلك الذي حضر من أجله ، كما يأمل أن عملنا لن يستمر طويلا ، فهو متعب من السفر ومن طول امتطائه صهوة الجواد · ويرغب أن يستحم في أسرع وقت ممكن ويخلد الى الراحة ·

ـ أيكون الأمر عاجلا الى هذه الدرجة ؟

ـ يمكن أن يقال انه كذلك · ففي هذا اليوم يجب على أن أبلغ الوالي ماذا أنجز من العمل ·

وهكذا بلا مواربة ، نطق على الفور بكل شيء ، مشيرا بما أبداه في حديثه من نبر ، الى أن الرسالة قد أغضبت الوالي وأثارته · (ان هذا موجه الي ، لكن ينبهني الى صفة الجدية التي تشمل الأمر كله) ، كما أن غضبه قد شملني ايضا ، لانني تركت الدوبرفنيكي يهرب ، وقد كان في استطاعتي ان احول دون ذلك · (هذه الكلمات قد تسربت اليه من هنا ، وها هي الآن تعود ثانية الى موطنها !) · لقد كتب الوالي الى مجلس الشيوخ في دوبرفنيك طالبا منه انزال العقوبة بالمذنب من أجل الاكاذيب والاهانات التي جلبها اليه ، مهينا بذلك البلد الذي يقوم بادارته مشمولا بعطف السلطان · واذا لم تلحق العقوبة المستحقة المذنب ، واذا لم يقوموا باخباره عن ذلك وتقديم الاعتذار الواجب للوالي ، فسوف يكون مضطرا الى قطع العلاقات التجارية وسائر العلاقات الأخرى مع دوبرفنيك ، اذ أن عدم حدوث ذلك يعني انتفاء وجود صداقة وطيدة بينهما ، وعدم تحقق الرغبة من جانبهم لاستمرار علاقات طيبة نافعة لنا ولهم ، وان كان نفعها لهم اكثر ·

انه يعلن أسفه كذلك لأن قيامنا بواجب الضيافة ، ذلك الذى لا نتوانى عنه لكل من يحمل نية حسنة ، قد دفع فى مقابله قدرا من الأكاذيب الدنيئة تمسه شخصيا كما تمس أشراف القوم فى هذا المكان ، الأمرالذى يدل على أن قليلا من الحب وكثيرا من الكراهية يكمن فى قلب التاجر المذكور الذى كتب تلك الرسالة ٠ وكذا ، فانهم اذا تصرفوا كما يتطلبه الحق ويمليه الواجب ، واذا ظلت علاقاتنا كريمة طيبة ، الأمر الذى يتمناه من أعماق قلبه ، والذى يتمناه دون شك مجلسهم المـــوقر ، فليرسلوا الصديق الحقيقى ، صديقنا وصديقهم ، ومثله دون شك يوجد ، اذ ليست علاقاتنا وليدة الأمس ، وليرسلوا الرجـــل الشريف ، الذى سيحترم العادات وسلطة البلاد التى تفتح له أبوابها ، والذى لن يبصق على خبزنا وملحنا ولن يتصدق بصورة غير لائقة ليجلب العار الى جمهوريته التى قامت بارساله ، والذى لن يعقد الصداقات مع الشريرين الذين يوجـد أمثالهم فى كل مكان ، كما يوجد عندنا ايضا ، والذين لا يريدون خـيرا لأنفسهم ولا للبلد الذى أنجبهم ، والذين اشترى خدماتهم التاجر المذكور بطريقته الدنيئة ، تلك الطريقة التى وقف عليها المجلس الموقر ٠

ـ انك تعلم دون شك من الذى يقصده الوزير ٠

ـ لا أعلم ٠

ـ تعلم ٠

انه ممتلىء ، ناعم البشرة ، تمثل قامته القصيرة مع امتلائه شكلا كرويا ، وعليه ثياب حريرية فضفاضة ٠ انه يشبه المرأة العجوز ، شانه شأن أولئك الذين يلزمون صحبة الأكابر أعواما طوالا ٠

ـ ان الوالى يود أن يقبض عليه ٠

ـ لماذا يقبض عليه ؟ انه دفع التهمة عن نفسه ، ولا يعد مذنبا ٠

ـ ترى ذلك ، لقد أدركت عمن اتحدث ٠

نعم ، أدركت ، لقـــد عرفت كل شىء فور سماعى بحضورك ، وعرفت أنك ستطلب جلده ، ولكننى لن أعطيه ٠ اى شخص ســواه أستطيع ان اتركه لكم ، اما هو فلا ٠

قلت للدفتردار ان رغبة جناب الوزير كانت دائما بالنسبة لى أمرا الم اطعه فى كل ما طلب منى ؟ ولكننى الآن أرجو أن يتنازل عن رغبته

من أجل سمعته ، ومن أجل العدالة ۰ ان الناس يحبون حسن ويقدرونه ، وسيتملكهم الغضب لو تم القبض عليه ، وخاصة بعد أن عرفوا أنه غـير مذنب ۰ واذا لم يكن الوزير قد وقف على تفـــاصيل الأمر فانني على استعداد لأن أذهب اليه لأوضح له كل شيء واطلب اليه اســــتخدام الرحمة ۰

ـ لقد عرف كل شيء ۰

ـ لماذا اذن يطلب القبض ؟

ـ أليس الدوبرفنيكي مذنبا ؟ اذن يكون حسن مذنبا كذلك ۰ وربما كان ذنبه أكبر ، فمن السهل توقع أن يكون الأجنبي عدوا للبلد وليس الأمر كذلك بالنسبة لمواطن يعيش بيننا ۰ اذ أن ذلك مخالف للطبيعة ۰

كم وددت لو واتتني الجرأة كي اقول : أيعد الوزير وهذا البـلد شيئا واحدا ؟ ولكن عندما يتحدث الرجل مع الأقوياء يجب عليه أن يبتلع كل الأسباب المعقولة ، وأن يقبل طريقة تفكيرهم ، وهذا يعني أن يحكم مقدما بالهزيمة على نفسه ۰

وعبثا كنت أؤكد أن حسن ليس عدوا ، وأنه ليس مذنبا ، اذ لم يكن ثمت من الدفتردار غير التلويح بيده ۰ وتحدث في النهاية ليذكر اننا وثقنا ثقة عمياء بقصته الكاذبة ۰

ـ ألم يكن يؤكد أن الدوبرفنيكي لم يستطع أن يحصل من الخان على الخيول التي يمكنها القيام بالسـفر ؟ انهم في الحق لم يذهبوا الى الخان ۰

ـ من يقول ذلك ؟ المسلم ؟

ـ الأمر سواء ۰ انه حق وقد تم التثبت ۰ وليس الأمر يقتصر على هذا ، فهناك أكاذيب أخرى وردت في قصته ۰ هل تحدثتم مع الرجـل الذي حمل الى صديقه الدوبرفنيكي تلك الرسالة من بلدته ؟ لا ۰ لم تتحدثوا ۰ انه كان يكذب ، وهو مذنب ، ولذا يكون القبض عليه مبررا ۰ وأما ما يرغبه الوالي من أن تقوموا أنتم بهذا الاجراء ، فذلك لئلا يقال انه يقوم بالظلم ، وهو ليس ظلما ، ولأنه لا يريد أن يتدخل فيما هو من اختصاصكم ، فكل شخص يجب أن يقوم بما هو في دائرة اختصاصه ، وبوحي من ضميره ۰

ـ بأى ضمير ؟ فحسن أعز صديق ، وهو الصديق الوحيد ٠

ـ وفى هذا الخير كل الخير ٠ فسوف يرى الناس جميعا ان المسألة ليست مسألة ثار بل مسألة عدالة ٠

ـ ارجو من الوزير ومنك ان تعفيانى من هذا الأمر ٠ فاننى اذا وافقت لكنت قد اقدمت بذلك على فعل يتصف بالحمق ٠

ـ بل لأقدمت على فعل حكيم ٠ لأن الوزير يتســاءل كيف كان بامكانهم ان يصلوا الى معرفة كل شىء بهذه السرعة ٠

وها هو قد بدأ بيديه الضعيفتين يضيق الخناق حول عنقى ٠

ـ أتريد ان تقول ان الوزير يشك فى اخلاصى ٠

ـ اريد ان اقول ، كم من الأفضل الا يكون للقاضى أصدقاء ٠ الا يكون له على الاطلاق ٠ ولو صديق واحد ٠ لأن الناس يخطئون ٠

ـ ولكن اذا حدث أن كان له صديق ؟

ـ اذ ذاك يجب عليه أن يختار : اما الصديق ، واما العدالة ٠

ـ لن اريد أن أخطىء فى حق الصديق ولا فى حق العدالة ٠ انه ليس مذنبا ٠ لا يمكننى أن افعل ذلك ٠

ـ هذا شأنك ٠ ان الوزير لا يجبرك على شىء ٠ غير ٠٠٠

اننى كنت أعرف على التمام ما تريده بـ «غير» ـ لقد كانت «غير» هــذه تطوف حولى كطائر اســـود ، وتقف فى كل اتجاه حولى كدائرة مغلقة من الأرماح مصوبة الى ٠ وكنت أعرف ذلك ، ولكنى كنت أقول فى حزم لنفسى : لن أترك لهم صديقى : وكان ذلك يمثل شجاعة لم تجلب لى شيئا من راحة النفس واطمئنان الضمير ٠ فقد أخذت الظلال من حولى تشتد قتامة ٠

قال الدفتردار ، وهو يفرك يديه طلبا للدفء :

ـ غير أنك قد تعرف كم من الناس لا يحبونك ، وكم من الشكايا أرسلت الى استانبول ، وكلها تطالب براسك ٠ وأكبر عدد منها أحتفظ به الوزير عنده ٠ انه دفاعك ، ولو لم تكن حمايته لك لمزقتك كراهية الآخرين منذ زمن بعيد ٠ واذا كنت لا تعرف ذلك فانت لا شك أحمق ،

وان كنت تعرفه فكيف يمكن أن تجحد المعروف الى هذه الدرجة ؟ ولماذا يحميك الوزير ؟ أمن أجل عينيك الجميلتين ؟ لا بل من أجل اعتقاده أنه باستطاعته أن يعتمد عليك . ولكن اذا تبين له عكس ذلك ، فلم يظل مستمرا فى حمايتك ؟ فالسلطة ليست صداقة ، بل هى تحالف . وفى الحق انه لمن الغريب أن تكون فظا غليظا نحو الجميع ولينا حليما نحو أعداء الوالى فحسب . ولكن الوالى يرى أصدقاء أعدائه أعداءه . واذا كان قد أسىء الى الوالى والى البلد ، وأنت لا تريد أن تدافع عنهما ، فهذا يعنى أنك قد انتقلت الى صف آخر .

قدم لى ورقة ما ، ونطق قائلا : اقرأ هذا .

ودون استطاعة منى لأن اصل الحروف بعضها ببعض ، ودون فهم للمعنى أو ادراك للفحوى ، قرأت الرسالة المرسلة من نائب ملا استانبول، التى يسأل فيها الوالى عن سر اصراره على الدفاع عن القاضى أحمد نور الدين ، ذلك الذى قام باشعال ثورة السوق ، والذى جلب الموت بسبب الكراهية الشخصية للقاضى السابق ، ذلك العالم الجليل والحكم الشريف ، وقد ثبت ذلك بما جاء فى شكوى أرملة القاضى وتصريحات الشهود ، كما أن هناك شكاوى قدمها أشرف الناس ، الذين يشعرون بالمرارة من طغيان أحمد نور الدين ورغبته فى أن يمسك بيديه زمام جميع السلطات . متجاوزا ما تمليه الشريعة وما تتطلبه الرغبة العليا للامبراطور من ألا تكون السلطة التى وهبت من الله الى بادى شاه والتى يقوم باسنادها مجزأة الى موظفيه ، متمركزة فى أى مكان فى يد رجل واحد ، لأن هذا يقود الى الظلم ويفضى الى الاجحاف . واذا لم يكن ما جاء بالشكوى حقا ، واذا كان الوالى يرى غير ذلك ، واذا كانت لديه أسباب أو مبررات ، فليخبره ، لكى يستطيع أن يهتدى الى تحديد موقفه .

لقد هزمتنى الرسالة .

كنت أعرف أن هناك حيلا تدبر وشكاوى تقدم ، ولكن هانا لأول مرة أرى دليلا حقيقيا . وخيل الى أن سهما قد مرق على التمام بجانبى ، واحسست اذ ذاك بالخوف يعرونى ويستقر فى نفسى .

ــ ما قولك ؟

ماذا كان لى أن أقول ؟ لزمت الصمت ولم يكن ذلك عن رغبة فى العناد .

ـ أتريد أن تكتب القرار ؟

اعنى يا الهى ، ليس باستطاعتى أن أكتب ولا أن أرفض · كان من الأفضل ان أموت ·

ـ اتريد ان تكتب ؟

أى شيء يكون هذا الذى يجبروننى عليه ؟ أن أحكم على الصديق ، على المخلوق الوحيد الذى أبقيته لحبى الذى يحس الجـوع ولا يعرف الشبع ـ · وماذا أكون اذن ؟ حقير يخجل من حقارته ، مسكين لا يصارعه أحد فى انفضاض الناس من حوله · ان كل ما هو انسانى فى داخلى كان يحافظ عليه · ساجهز عـلى نفسى لو قمت بتسليمى اياه · لا تجبروننى على ذلك ، انه أمر بالغ القسوة ·

قلت للرجل الفظ :

ـ لا تجبروننى على ذلك ، انه أمر بالغ القسوة ·

ـ لا تريد أن تكتب ؟

ـ لا أريد · ليس ذلك باستطاعتى ·

ـ كما تحب · انك قد قرأت الرسالة ·

ـ نعم · قراتها ، واعلم ما ينتظرنى · ولكن افهمنى أيها الرجـل الطيب ! أيمكنك أن تطلب الى أن أقوم بقتل والدى أو أخى ؟ انه بالنسبة لى يعد أكثر من كليهما · بل يعـد لأكثر من نفسى · انه مرساتى التى اتشبث بها ، ولو لم يكن هذا الرجل لبدا لى العالم كهفا مظلمـا · انه بالنسبة لى كل ما أمتلك ، ولن اتركه بحال · افعلوا بى ما تشاءون · لن أخونه ، اذ لا أريد أن أطفىء الشعاع الأخير الذى يضىء داخلى · ساضحى بنفسى ، ولكننى لن اتركه ·

كان الدفتردار يسخر بى قائلا :

ـ ان هذا الشىء جميل ، ولكنه ليس من الحكمة فى شىء ·

ـ لو كان لك صديق لعرفت أنه جميل وحكيم ·

غير أننى وا أسفاه لم أقل هذا ولا شيئا يشبهه · وكثيرا ما خطر ببالى فيما بعد كم كان شريفا لو اننى قلت شيئا كهذا ·

ولكن ما قد حدث على التمام ما هو العكس من هذا ٠

وانطلق الدفتردار يقول :

ـ أتريد أن تكتب القرار ؟

ـ أراني مضطرا ـ هكذا قلت ناظرا الى الرسالة امامي ، ناظرا الى التهديد ٠

ـ لست مضطرا ٠ قرر وفق ما يمليه ضميرك ٠

دع الضمير بالله عليك آمنا ! سأقرر وفق ما يمليه الخوف ، وفق ما يتطلبه الفزع وسارفع يدى عن نفسى أنا الذى عشت أحلم بالمبادىء والمثل ٠ سأكون ذلك الذى يتحتم على أن آكونه : قذارة ٠ وليصبهم الخزى من جراء هذه الفعلة ، لقد اجبرونى على ان آكون ذلك الذى كنت اشمئز منه وأتقزز ٠

ولكنى حتى فى ذلك ما كنت أفكر عندئذ ٠ كنت أحس بالضيق وكنت اشعر أن شيئا فظيعا قد بدأ يحدث ، شيئا عديم الانسانية الى درجة لا يمكن تصورها ٠ غير أن الخوف الذى دب فى كيانى دبيب الوسواس ، وهذا الخدير الوحشى لدم كان يخنقنى بشدة تدفقه وحرارته، قد طوحا بهذا الشعور وطرحا عليه غطاء يحجبه عن الأعين ٠ كانت تتملكنى رغبة فى أن أخرج ، لأملأ صدرى بالهواء ، لأتحرر من تلك الغشاوة السوداء ، رغم علمى أن كل شىء يجب أن يحل فورا ، وفى هذه اللحظة، واذ ذاك سوف أتخلص من كل شىء ٠ سوف أصعد الى الجبل ، الى أعلى قممه ، وسابقى هناك وحيدا حتى المساء ٠ وسوف لا أفكر فى شىء ، بل سأتنفس ٠٠ وأتنفس ٠

تعجب الدفتردار وقال :

ـ ان يدك ترتعش ٠ أحزين أنت الى هذه الدرجة ؟

كنت أشعر بألم فى معدتى ، وكان يبدو لى أننى أوشك على التقيؤ

ـ اذا كنت حزينا الى هذه الدرجة فلم وقعت ؟

لقد أردت أن أرد بشىء على هذه السخرية ، ولكننى ما كنت ادرى بأى شىء يكون ردى ، ولذا لزمت الصمت ، ومطرق الراس ، لفترة طويلة الى أن ادركت كيف اتصرف ، وعندئذ اخذت أرجو متلعثما :

ـ اننى لا أستطيع البقاء هنا بعد • يجب على أن أذهب الى مكان ما ، الى اى مكان • غير أنه ينبغى أن يكون بعيدا •

ـ لماذا ؟

ـ من أجل الناس • من أجل كل شىء •

ـ اية تفاهة تكون انت ! ـ هكذا قال الدفتردار فى هدوء ، وفى احتقار عميق ، وان كنت لم اعرف ولم استطع أن افكر فى سبب يعزى اليه أمر احتقاره • لم تجرحنى كلمته ، ولم أشعر ازاءها بثورة ، بل كنت اردد هذه الكلمة القبيحة فى نفسى ، كأننى احصيها بواسطةالمسبحة دون أن افهم معناها الحقيقى • ان الشىء الوحيد الذى كان يعيش فى داخلى هو الشعور باننى معرض للخطر تمام التعرض ، كما لو كان المطاردون يحيطون بى من كل جانب• ان كل شىء حولى مغلق ، وليس هناك من مخرج • ولم يعد الامر سواء بالنسبة لى ، ان الخوف يتملكنى •

ـ من سيذهب للقبض على حسن ؟

ـ « بيرى فويفودا » •

ـ فليذهب به الى القلعة •

خرجت الى الممر ، والتقيت بملا يوسف • لقد كان عائدا من مكان ما ومتوجها الى غرفته •

لحظة واحدة ، لحظة قصيرة • تسمرت عيناه عندما رآنى ، وعلى الفور برق فى خاطرى : انه كان يتسمع وانه على علم بما دار • واذا خرج فسوف يخبره • لقد أخبره من قبل بأمر الدوبرفنيكى ، وكيف الى الآن لم يخطر هذا ببالى !

ـ ابق هنا ولا تذهب الى اى مكان ، فسوف اكون فى حاجة اليك اطرق برأسه واتجه الى غرفته •

واخذت أنا والدفتردار ننتظر فى صمت •

وكان الدفتردار يغفو جالسا على الاريكة ، وكلما سمع صوتا أو حفيفا تنبه ورفع جفنيه المتورمين فى سرعة •

وعندما عاد « بيرى فويفودا » علمت أن كل شىء قد انتهى • ولم أجرؤ على سؤال الدفتردار عما ينوى فعله بحسن • اذ ليس لى حق بعد

ان اوجه مثل هذا السؤال · كما ليست لي قوة على بأن أكون منافقـــا الى هذا الحد ·

ها قد أصبحت وحيدا · أهناك من مكان أذهب اليه ؟

ثم اتنبه عندما دخل ملا يوسف غرفتي ، فخطواته متسحبة بطيئة كان واقفا بالقرب من الباب ينظر الى ، ولأول مرة كان يقف دون توتر امامي وذلك لأننا أصبحنا الآن متساويين · لم يبق لي سواه · كنت أكرهه ، اشمئز منه ، أخشاه ، وهأنا في هذه اللحظة أرغب في أن يقترب مني ، لنأخذ في الصمت معا · أو ليحـــدثني بشيء ، أو أحدثه أنا في أمر ما ·· ارغب في أن يضع على الأقل يديه على ركبتي ، أن ينظر الى على خلاف ما ينظر ، ان ينطق ولو بكلمة لوم · ولكن لا ، ليس له حق في ذلك · وحتى عندما برقت في ذهني هذه الفكرة ، وهي أن يقوم بلومي، برزت في نفسي المقاومة على الفور ، ولعلها كانت ثورة الغضب ، وشعرت كيف انه لم يكن بوسعي سوى ان أمثل كلمة وديعة طيبة ، أو لا اقبل شيئا لقد وصلت الى الحد الذي يمكنني عنده أن أصبح رجلا محطما ، أو وحشا كاسرا ·

ـ لقد قلت انك ستكون في حاجة الى ·

ـ لست بعد ·

ـ أيمكنني الانصراف ؟

ـ أتعرف ماذا حدث ؟

ـ نعم اعرف ·

ـ لست مذنبا ، لقد أجبروني بتهديدهم اياى ·

لزم الصمت ·

ـ لم يكن في استطاعتي أن أفعل شيئا · لقد وجه سكين الى عنقي

ظل ملازما صمته ، وقد بدا كالدرع يصد كلماتي ، دون أن يسمح لي بأن اقترب ولو قليلا من نفسه ·

ـ لماذا تلزم الصمت ؟ أترغب أن تظهر بذلك مدى ادانتك لي ؟

انك لا تملك حقا لذلك · أنت بالذات لا تملك هذا الحق ·

ـ لو غادرت القصبة لكان خيرا يا شيخ أحمد ، فالأمر سيكون جد عسير · عندما يشيع الناس بوجوههم عنك · انني أعلم ذلك حق العلم

لا ، كان يجب عليه الا يسمح لنفسه أن يتحدث معى هكذا . ان هذا يعد انكى من اللوم ، انه نصيحة فاترة تاتى بطريق المواربة ، انه تهلل ينبىء بالشماتة . وعلى الرغم من ذلك . فقد كان قلبى المنقبض ينتظر اى شىء ، تعزية كان أو اثارة ، لكى يعود الى الحياة من جديد . ولعل الاثارة تكون أفضل ؛ اذ التعزية بامكانها أن تقضى بالتمام على مابقى لدى من قوة .

قلت وانا احس بالاختناق من تكرار كلمة كانت تؤلمنى :

ـ اية تفاهة تكون أنت ! لقد ظننت حين تبين وقوفك على كل شىء ان الحديث بيننا سيسلك طريقة أخرى . انك لست على درجة كبيرة من الحكمة ، اذ لم تحسن اختيار اللحظة التى يمكنك أن تقوم فيها بواجب الثار . لا ، على أية حال لن يحتقرونى . سوف لا تحتقرنى انت كذلك ، وكن على ثقة من ذلك . لقداجبرونى على أن اضحى بالصديق ، فعلام احفل بعد بأن يكون منى مراعاة أو اعتبار لأى يكون !

ـ لن يكون الامر أيسر بسبب ما تظنه يا شيخ أحمد .

ـ ربما لن يكون . غير اننى اعلم انه لن يكون بالنسبة للآخرين أيضا . سوف اختزن فى ذاكرتى أنك أيضا قمت بدور فى نكبة حسن .

ـ اذا كان هجومك على يريح قلبك فلتواصل .

ـ لو لم يقم الدوبروفنيكى بالهرب لكان حسن يجلس الآن فى بيته فى سلام . الدوبروفنيكى لم يكن يستخبر الحصى حتى يكون على علم بما ينتظره فى الغد .

ـ لقد كان يعرف أن رسالته قد وقعت فى أيدى السلطات ، فهل كان بعد فى حاجة الى شىء آخر ؟

ـ هذا ما تعرفه أنت ؟

ـ اتسالنى أم تتهمنى ؟ يبدو لى أن الأمر مشقته اشد بالنسبة لأولئك الذين بقوا .

ـ انك لم تبق . بل أرغمت على البقاء . والآن تفضل اخرج !

وخرج دون أن يدير بصره الى .

عبثا تبدو جميع محاولاتى ، فالمصـــــائب تتوالى أشبه بأسراب اليمام ٠

وافرطت في النوم أنا والدفتردار حتى تجاوزنا وقت صلاةالفجر وكان ذلك بالنسبة للدفتردار بسبب سفره الطويل وانهائه عمله على خير وجه ٠ وبالنسبة لى بسبب ما كان ينتابنى من الأرق بحيث لم أنم الا قبيل الفجر ، ولكننى كنت أول من وصل الى علمه النبأ الخطير ، وكان هذا هو ما ينبغى أن يكون ، فالنبأ أكثر تعلقا بى ٠ وحقة كان سماعى اياه من فم « بيرى فويفودا » ، اذ هو قبيح كمبلغه ٠

فى البداية لم أكن أفهم شيئا مما يقوله لى ، فقد بدا الأمر خرافيا وغير متوقع ٠

وفيما بعد ظل كذلك ولكننى بدأت أفهمه ٠

قال الرجل البغيض :

ـ لقد نفذنا الأمر ٠ وقد انتاب امير القلعة شىء من الدهشة ،ولكننى أفهمته أنه لا شأن له بهذا ، وما عليه الا أن يطيع مثل أنا ٠

ـ أى أمر ؟

ـ أمرك ٠ بشأن حسن ٠

ـ عن أى شىء تتحدث ؟ عن ذلك الذى حدث فى نهار الأمس ؟

ـ لا ٠ بل عن ذلك الذى حدث فى ليله ؟

ـ ماذا حدث فى الليل ؟

ـ لقد سلمنا حسن الى الحراس ٠

ـ أى حراس ؟

ـ لا أدرى ٠ حراس كى يذهبوا به الى تراوفنيك ٠

ـ أأعطى الدفتردار أمرا بذلك ؟

ـ لا ، بل أنت ٠

ـ انتظر قليلا ، أرجوك ٠ اذا كنت ثملا فعليك بقدر كاف من النوم ، واذا لم تكن ٠

ـ اننى لا أشرب الخمر اطلاقا يا قاضى افندى • لست ثملا وليست بى حاجة الى النوم •

ـ يا ليتك تكون ، اذ بذلك يكون الامر أفضل لك ولى • أحقا أنت على يقين من أن الامر قد صدر منى ؟ من جاء به اليك ؟

ـ كيف لا أكون على يقين من أنه منك • لقد كتب بخطك وختم بخاتمك ، وجاء به الى ملا يوسف •

وعندئذ جلست ، اذ شعرت أن قدمى لم تعودا قادرتين على حملى ، واخذت أسمع قصة جميلة عن وقاحة الآخرين وعن مصيبتى •

بعد منتصف الليل أيقظه ملا يوسف ، واظهر له أمرى الى أمير القلعة بان يقوم بتسليم حسن الى الحراس فى حضرة « بيرى فويفودا » أولئك الحراس الذين سيذهبون به الى تراوفنيك فى صحبة ملا يوسف• وقد نص فى الأمر على ألا تنزع القيود من يد حسن المذكور ، وأن يخرجوا به من القصبة قبل بزوغ الفجر • وانتظر الحراس على خيولهم أمام القلعة ، وذهبا هما ليوقظا امير القلعة ثم سلماه أمرى • واخذ هذا يغمغم لعدم ابلاغه من قبل ، لكى لا يرسل السجين الى الزنزانات السفلى وازاء هذا عليهم جميعا أن ينتظروا ، وعليه أن يستعوض الله فى ليلته التى فقدها • انه لم يعد بعد يفرق بين ليل أو نهار ، وكرر له « بيرى فويفودا » ما ذكره منذ قليل ، من أن الجميع يلزمهم الطاعة ، وأعلن ملا يوسف متذمرا أن هذا واجبنا وليس واجبه، ولكن ها قد أصبح من واجبه أن يفعل حتى ذلك الذى لا يوده ، لأن الأمر هام ، ولأن الوزير يرغب هذا ، اذ لا يريد أن يعرف أحد شيئا فيما يتعلق بنقل حسن ، فالأهالى هنا حمقى ، وقد وضع هذا منذ وقت قريب ، وكذا من الخير أن تتم هذه العملية فى هدوء ودون أن يشعر أحد • وأضاف أيضا كيف أنه رجانى بأن يذهب « بيرى فويفودا » مع الحراس وحسن ، لانه لم يتعود الركوب ، اذ سوف تنال منه الجروح فى هذه الرحلة الى ترافنيك ولكننى قلت اننى لا أسمح لبيرى فويفودا بالذهاب نظرا لاحتياجى اليه ههنا ، اذ أننى بدونه أبدو فاقد اليد ، وعلى هذا كله قدم «بيرى فويفودا» لى شكره العظيم • (لا تقولوا أبدا انكم صادفتم أحمق رجل فى العالم ، فعلى الدوام يوجد من يكون أحمق منه !) • وعندما جاءوا بحسن ،وكان مقيدا ، طلب أن يحرروه من قيده ، وسأل الى أين يقودونه ، ملقبا

اياهم ببومات الليل ، وكان يعلن ثورته لأنهم أيقظوه من ألذ نومه ،وعندما اوضح له ملا يوسف فى هدوء بأنهم يتصرفون وفق الاوامر فحسب ، سأله : متى سيبلغ الرشد ويتصرف وفق ما يمليه تفكيره لا ماتمليـــه الأوامر ، فقد حان الوقت لذلك ، ودون شك أنه قد بلغ سن الرشد ، أو لعله يرغب أن يكون خليفة « بيرىفويفودا » ، الامر الذى لا يوصى بـــه أبدا ، لأنه لن يصل الى هذا الكمال « مطلقا ، وليس بوسعه سوى أن يكون « بيرى فويفودا » الصغير ٠ ان هذا الاخير لم يفهم ذلك ، ولكنه يعتقد أنه شيء مهين ٠ ثم قدم ذلك أى حسن شكره لأمير القلعة على تلك الاقامة المريحة وعلى الهدوء التام الذى كان يحيطه ، لقد بلغت اقامته من الجمال مبلغا جعله يرى من واجب الشكر ان يتمنى لأمير القلعة مثلها ٠ وقطع « بيرى فويفودا » هذه الثرثرة آمرا بالتحرك ٠ واذ ذاك قال حسن:
ـ لك الحق ، فهناك اعمال لا حصر لها تنتظركم ، ومن الخسارة أن يضيع وقتكم سدى ٠ وعندما رأى الحراس سألهم : ماذا يجب على يا أغـوات ويا أفندية أن افعل لكى أظل فى ذاكراكم الجميلة ؟ أأركب أم أركض رواءكم ؟ ـ لا تثرثر كثيرا ! ـ بهذا رد حارس من بينهم ضخم ، وبعـد أن أركبه على الحصان قيد رجليه بحبل ٠ وعند تحركهم قال حسن بصوت عال : ـ بلغ تحياتى لصديقى القاضى ٠

ـ وذهبوا ركضا ؟

ـ كيف تعرف ؟

ـ لا فائدة الآن من كل ما اعرف ٠ واما انت فيبـــدو أن الامر لم يتضح لديك بعد ٠

ـ ما الذى ينبغى أن يكون واضحا لى ؟

ـ أنهم هربوا وأنك ساعدتهم فى ذلك ٠

ـ لقد رأيت الامر الذى أصدرته ٠

ـ لم أصدر فى ذلك أمرا ٠ لقد كتبه ملا يوسف ٠

ـ والحراس ؟ لقد بلغ بهم أنهم قيدوه ٠

ـ لعلهم فكوا قيده عند أول زقاق ٠ ودون شك انهم خدامه ٠

ـ لا أدرى أخدامه هم أم ليسوا كذلك ٠ وكل ما ادريه ان الخط خطك والخاتم خاتمك ٠ ليست هذه أول مرة أتسلم فيها أمرا منك ٠ اننى أعرف كل حرف من حروفك ٠ وهذا مالا يتاح لغيرك أن يكتبه ٠

ـ أؤكد لك أيها الأحمق ، انني لم أكن أعرف شيئا من ذلك ،فكل شيء قد سمعته منك ٠

ـ آه ، ليس هذا بصدق ٠ فكل شيء كنت تعلمه ٠ انك دبرت ، وكذا كتبت ، وكان هذا من أجل الصديق ٠ ولا ادرى لأى شيء أهلكتنى ؟ لماذا أنا بالذات ؟ الم يكن في وسعك أن تجد أحدا غيرى ؟ عشرون عاما أخدم في نزاهة وشرف ، والآن أصبحت قربانك ٠ وهذا ملا يوسف سوف يؤكد ما قلته لك الآن ٠

ـ وحتى ملا يوسف لن يعود ٠

ـ هاأنت ترى أنك تعرف !

وعبثا كان انكارى ، فقد استقر لديه أننى المذنب الوحيد ٠

دخل الدفتردار ، وهو يمسح وجهه الممتلىء بمنديله الحريرى ،وقد بدت حمرته من شدة الانفعال ، ولكنه كان يتحدث في بطء وكما يبدو في هدوء ٠

ـ ماهذا أيها الدرويش ، أراك بدأت تعلن سخريتك ؟ وعلى كل حال ، لقد فعلت ما أردت ، وحل الآن دور الآخرين ليفعلوا ما يريدون ٠ قل لى فقط ، علام اعتمدت ؟ أم أنك لا تبالى بشيء ؟

ـ انني لم افعل شيئا ٠لقد فوجئت مثلك تماما ٠

ـ وما يكون هذا ؟ انه أمرك وخاتمك ٠

ـ هذا ما أصدره كاتبى ملا يوسف ٠

ـ ما الذى تقوله ! ولماذا يفعل هذا كاتبك ؟ أكان هو من أقارب حسن ؟ أم صديق له كما تكون انت ؟

ـ لا أدرى ٠

وتدخل « بيرى فويفودا » قائلا :

ـ لم يكن صديقا له ٠ انه رجل القاضى ، وكان يطيعه في كل شيء

ـ لست على درجة من الحكمة يا أحمدنورالدين ٠من ذا الذى اردت خداعه بهذه اللعبة الدنيئة ؟

ـ لو وقعت بنفسي لكنت حقا رجلا أحمق • ولو كنت قد فعلت هذا لما كنت الآن موجودا هنا • أليس هذا مفهوما لديك ؟

ـ لقد ظننت أننا حمقى واننا سوف نثق بقصتك الساذجة •

ـ انني استطيع ان اقسم بالقرآن •

ـ دون شك انك تستطيع • ولو فعلت لما ازداد الامر وضوحا • ان حسن صديقك ، صديقك الاوحد والأفضل ، فقد ذكرت بنفسك هذا وقد ظهر بالأمس الى اية درجة تهتم به • واما كاتبك فلم يكن لديه اى دافع شخصي لأن يقوم بما قام به • لم يكن منه سوى أن أطاع ، فهو رجلك المخلص لك والواثق بك • وحيث أنهالآخر قد هرب ، فباستطاعتك ان تلقى عليه التهمة بأكملها • بالله عليك ، لو جاء أمامك مثل هذا الحادث فبم يكون حكمك ؟

ـ لو عرفت الرجل مثل معرفتك اياى لو ثقت في قوله :

ـ ياله من دليل قاطع !

واندفع « بيرى فويفودا » يقول :

ـ وأنا كذلك قلت له : انك كتبت كل شيء • من أجل الصديق • ورد الدفتردار بقوله :

ـ اسكت انت ! لقد جعلوك مطية للوصول الى غرضهم ، وكان من الخير أن وجدوك ليجعلوا منك زهرة تتوج هذه المهزلة • كم سيكون فرح الوالي بذلك •

وهكذا وجدت نفسي في موقف غريب ، وكنت كلما أكثرت من التماس المبررات لنفسي قلت الثقة في قصتي ، الى أن اصبحت غير مقنعة حتى لنفسي • لقد قرن الناس اسمي بالصداقة والاخلاص ، وكان فريق يدينني من أجل ذلك ، وفريق يقابل ذلك بالاعتراف والتقدير • وكنت على استعداد لأن اقبل أحدهما وأرفض الآخر ، ولكن يبدو أن احدهما لا يمكن فصله عن الآخر • غير أنني قبلت ذلك الذى كان بامكانه أن يجلب السرور والرضا الى الانسان • وكاد الحافظ محمد أن يقبل يدى اعترافا وتقديرا ، كما أسماني على خوجه الرجل الذى لا يخشى شيئا في سبيل أن يظل رجلا ، وكان اهالى القصبة ينظرون الى نظرة التجلة والاحترام ، وكثيرا ممن لا أعرفهم كانوا يأتون بالهدايا ويتركونها عند

مصطفى ، ذاكرين أنها لى ، وقد ارسل على اغا والد حسن شكره الخاص بواسطة الحاج سنان الدين · لم استطع أن اصد عنى هــذا الاعجاب الهادىء ، وبدأت آلف هذا التصرف ، واقبل فى صمت ميلهم الى وانعطافهم نحوى ، كجائزة لأعظم خيانة اراني قد ارتكبتها · أتكون الصداقة عند الناس الى هذه الدرجة من عدم الشك فيها ؟ أم ان الانفعال قد تملـكهم لندرة حدوث ذلك الذى حدث ؟ لقد بدا كل شيء اشبه بمزاح ساخر : كثيرا ما قمت فى حياتى بما يعد صالحا ونافعا كى أنال احترام الناس ، ولكن هاهو العمل القبيح الذى فعلته ينيلنى اياه ، ذلك العمل الذى كان يراه الناس جميعا نبلا وكرما · لقد كنت أعرف أنه يجيء دون استحقاق، ولكنه مع ذلك كان يطيب لى ، واحيانا كنت أحس بضيق من جراء فكرة تطوف بخاطرى لتوحى الى بأنه من الواجب التصرف على هذا النحو الذى وقر فى أذهان الناس · ومع ذلك فاننى لو كنت هكذا قد تصرفت لما اختلف الأمر فى شيء لدى أحد سواى · وعلى كل فهذا الذى حدث يعد أفضل (ليس خيرا ولكنه افضـــل) ، فقد كان الناس يجلوننى كاننى فعلت ، ثم اننى واثق من أننى سأدفع التهمة عن نفسى ، اذ ان شيئا من ذلك لم أفعله · وعنـدما وصلت رسالة حسن وملا يوسف الى المفتى ، تلك الرسالة التى ارسلاها اليه من مكان ما على الحدود الغربية ، والتى كانا يبرئاننى فيها ، بذكرهما كل ما هو حق ، ثبت لدى الناس ماكانوا يعتقـدونه من أن اتفاقا قد تم بشأن الهرب (اذ لماذا يبرئاننى اذا كنت مخطئا فى حقهما) · اما أنا فقد اخذت هذه الرسالة بمثابة الدليل الذى أستطيع بواسطته أن اقنع الجميع ببراءتى · وكان الأمل يراودنى باننى أستطيع الآن أن أجد عددا كافيا من الشهود يقفون الى جانبى ، اذا وصل الأمر الى التحقيق ·

ولكن لم يحدث أن أجروا معى تحقيقا · وقد تم كل شيء بدونى ، وعلى الرغم من ذلك فثمة شيء أخير لا يمكن تنفيذه الا بحضورى ·

وقبيل المساء جاءنى قره زاعم ، وقد بدت عليه علائم الذعر ، وكان مجيئه لأمر يتعلق بنفسه أكثر مما يتعلق بى · ولعله لو لم يكن بحاجة الى ان ادفع له مكافاته الشهرية لما حضر ، وقد كانت عادته كلمـا حضر ليتقاضى مكافاته أن يحمل لى من الأخبار مايراه على درجة من الأهمية · وهذا الخبر الأخير الذى جاء يحمله قد رآه هاما كذلك ، وقد كان على حق فى هذه المرة ·

وطلب قبل أن يدلى الى بشيء أن تزاد قيمة المكافأة ، اذ كان عليه أن يدفع لخادم المفتى ، ذلك الذى أمده بالخبر ٠

ـ هل الأمر هام الى هذا الحد ؟

ـ أظن انه كذلك ٠ اعلمت أن خيال البريد قد وصـل فى هـذا الصباح قادما من استانبول ؟

ـ نعم علمت ، ولكنى لم أعلم لماذا ٠

ـ من أجلك ٠

ـ من أجلى ؟

ـ ألق اليمين على الا تخوننى ٠ ضـع يدك على القرآن ٠ هـكذا ٠ سوف يلقون القبض عليك فى هذه الليلة ٠

ـ أجاء هو بأمر ما ؟

ـ يبدو أنه كذلك ٠ أمر بالقتل ٠

ـ يعنى ، سيقومون بخنقى فى القلعة ٠

ـ يعنى ، سـيفعلون ذلك ٠

ـ ماذا فى وسعى أن أفعل ، انه قدرى السيء ٠

ـ أيمكنك أن تهرب ؟

ـ الى اين أهرب ؟

ـ لا أدرى ٠ وانما هـكذا اقول ٠ أليس لديك أحد يمـكنه أن يساعدك ؟ كما قمت انت بمساعدة حسن ٠

ـ أنا لم أساعد حسن ٠

ـ الأمر سواء بالنسبة لك الآن ٠ انك قمت بذلك ، وليكن الأمـر كذلك ٠ نعم ساعدته ، ولا يكن منك هدم لخير بنيته ٠

ـ شكرا لك على حضورك ، فقد عرضت نفسك للخطر من أجلى ٠

ـ ماذا كان بوسعى غير ذلك ، ياعزيزى الشـيخ احمد ، فالفقر اجبرنى ٠ ولتثق أننى حزين من أجلك ٠

ـ أنا لا اشك في ذلك .

ـ لقد ساعدتني كثيرا ، وكان أن عدت الى الحياة على يديك . وكثيرا ماتذكرك انا وزوجتي . والآن سوف يزداد ذكرنا اياك . اترغب أن يقبل احدنا الآخر يا شيخ احمد ؟ لقدكانت تجمعنا في زمن ما جبهات متعددة ، وخرجت انا مرتقا وخرجت انت دونما اصابة ، ولكن ها هو القدر يريد أن ترحل قبلي .

ـ اقترب لنتبادل القبلات ياقره زاعم ، واذكرني بالخير كلما سنحت لك الفرصة .

وذهب معروق العينين ، وبقيت في غرفة بدأ يهبط اليها الظلام ، مطعونا بالخبر الذي سمعته .

لا أستطيع أن اشك ، فمن المؤكد انه حق . وعبثا كنت أحاول أن اخدع نفسي بآمال حمقاء ، فعلى خلاف ذلك لا يمكن الأمر أن يكون . لقد أزال الوالي سده فاندفعت المياه الهادرة تحملني لتلقي بي في معترك الموج .

أخذت آكرر في ضعف : الموت ، النهاية . ولم يكن باستطاعتي أن افهم ذلك كما كنت افهمه من قبل ، في زنزانات القلعة ، عندما كنت انتظره في غير اكتراث . والآن يبدو لي بعيدا ، غير متصور ، وان كنت قد وقفت على كل شيء . الموت ، النهاية . وفجأة ، كما لو كنت قد فتحت عيني على الظلام الذي أخذ يهددني ، تملكني الفزع من عدم الوجود ، من ذلك الفناء . فهذا هو الموت ، هذه هي النهاية ! انه اللقاء الأخير بأفظع لحظات القدر .

لا ، أبدا ! أريد أن أعيش ! ومهما حدث أريد أن أعيش ، ليكن ذلك على قدم واحدة حتى توافيني منيتي ، على صخور راسية حتى يحين أجلي . المهم أن أعيش . ويجب أن أعيش ! ساحارب ، سأستخدم اسناني ، سأواصل الهرب حتى يسقط الجلد من باطن القدم . سأجد احدا يساعدني ، ساوجه السكين الى عنقه كي يساعدني ، فانا قد ساعدت الآخرين ، وحتى اذا لم أقم بمساعدتهم . سوف أهرب من النهاية ومن الموت .

وبعزم ثابت ، وبقوة يمنحها الخوف ، وبرغبة قوية في الحياة ، بالحركة ، وسيصادفني بزوغ الفجر في غابة ما عميقة ، في ناحية ما

توجهت الى باب الخروج • وقد وطنت نفسي على الهدوء كي لا يخونني الاندفاع والنظر المذعور ، فعن قريب سيهبط الليل ، وسيخفيني الظلام ، وساكون أسرع من كلب سلوقي ، وأشد من البومة في عدم الاشعار بالحركة وسيصادفني بزوغ الفجر في غابة ما عميقة ، في ناحية ماناائية•• نائية ، ولولا هذه الأنفاس المتلاحقة التي تصدر عالية كما لو كنت قد جريت وخلفي المطاردون وهذه الضربات الشديدة التي يحدثها قلبي لما خشيت شيئا ، اذ بامكانها أن تكون بمثابة الناقوس يكشفني ويعلم الناس بأمري •

ولكنني فجأة أصبحت منهارا • لقد تلاشى الانشراح ، وزايلني الأمل • كما فارقتني القوة كذلك • واصبح كل شيء عديم الجدوى •

وأمام المحكمة كان يقف « بيري فويفورا » وفي الشارع كان يغدو ويروح ثلاثة من الحراس المسلحين • وأدركت أن هؤلاء كانوا من أجلي •

واتجهت أسير نحو التكية •

لم استدر لأنظر الى المحكمة ، اذ لعلني أكون هنا للمرة الأخيرة ، ولكنها لم تكن بحيث يربطني بها شيء • كما أنني لم أرد ، وحتى لو اردت لما استطعت ، أن أفكر في شيء • لقد كنت أشعر بالفراغ في داخلي ، كما لو كانت أحشائي قد انتزعت مني •

في الزقاق ، وعند الجسر ، اقترب مني أحد الشبان ، وقال :

ـ عفوا ، لقد أردت أن أدخل المحكمة ، ولكنهم لم يسمحوا لي بالاتصال بك • انني من قرية « ديفيتاك » •

وابتسم الشاب عندما قال ذلك ، وأوضح على الفور سبب ابتسامته قائلا :

ـ لاتغضب لابتسامي • انني هكذا على الدوام ، وخاصة عندما أكون حائرا •

ـ اانت في حيرة ؟

ـ نعم • فساعة كاملة قضيتها في تكرار ما اردت أن اقوله لك •

ـ وهل قلت ؟

ـ ها قد نسيت كل شيء •

وعاد يبتسم ثانية • لم يبد أنه في حيرة على الاطلاق •

من ديفيتاك ! ان والدتي من هـذه القرية • وشـطرا من طفولتي قضيته فيها • كما أن جبالا واحدة تحيطنا ، ونهرا واحدا نلقي بأبصارنا على صفحته ، وعلى أشجار الحور تصطف على جانبيه •

ألتي بموطني في عينيه المبتسمتين لأراه للمرة الأخيرة قبيل النهاية؟

ماذا يريد ؟ أفارق قريته كما فعلت أنا من قبل ؟ أيبحث عن طرق للحياة أكثر اتساعا من تلك التي تنطوي عليها « ديفيتاك » ؟ أم أن القدر أراد بحضوره أن يمزح معي ، كي يذكرني بكل شيء قبل أن أضع قدمي في الطريق الكبير ؟ أم أنه علامة ، حافز يرسـله الله الي في هذه اللحظة •

لماذا يعلن الآن ، وفي هذه اللحظة بالذات ، هذا الشـاب القروي عن نفسه ، هذا الذي أراه أقرب الى مما يظن ؟ أجاء ليخلفني في هـذا العـالم ؟

كان « بيرى فويفودا » والحراس يسـيرون وراءنا • لقد حددوا طريقي وسيسمحون لي باجتياز واحد منها فحسب •

ـ أين نزلت للمبيت ؟

ـ لم أنزل في مكان ما •

ـ أيكون هؤلاء خدامك ؟

ـ نعم • لا تلق بالا اليهم •

ـ من أى شيء يحرسونك ؟

ـ هكذا جرت العادة •

ـ أأنت أهم شخصية في القصبة ؟

ـ لا •

ـ وعندما دخلنا جلس على البساط في غرفتي ، وأخذ ضوء الشموع الخافت يتعثر في تجـاويف وجهه الذي برز عظامه ، وبدا ظله الضخم مرتسما وراءه على أرض الغرفة وجدارها ، وأخذت أنظر كيف يمضغ في شره طعـام التكية المتواضع بفكيه الحديديين البارزين ، وربما لم يكن يدري ماذا يأكل ، لأن فكره كان قد انصرف الى النتيجة التي سينتهي

اليها هذا اللقاء • غير أنه لم يكن قلقا ولا مترددا • واما أنا فقد كنت على العكس منه عندما حضرت آنذاك • اننى اذكر طعامى الأول ، واذكر اننى لم آكد ابتلع منه ثلاث لقيمات حتى احسست اننى آكاد اختنق •

اننا مختلفان ، وعلى الرغم من ذلك فاننا شىء واحد • انه أنا ، أنا على صورة أخرى ، وبناء تختلف خاماته ، ابدأ الطريق الذى قطعته من جديد •

ولعلى لو بدأت من جديد لفعلت كل شىء فعلته ، وان كان العقل تغشيه بعض الظلم بتأثير الحزن مما وجدت من صعاب وعانيت من مشاق فى طريقى الطويل الذى قطعته •

ـ انك ترغب دون شك فى أن تبقى فى القصبة ؟

ـ كيف تعلم ؟

ـ الا تخاف من المدينة ؟

ـ لم أخاف ؟

ـ ان الحياة هنا ليست يسيرة •

ـ أهى عندنا يسيرة ، يا أحمد أفندى ؟

ـ أتتوقع أن تصيب كثيرا ؟

ـ نصف من سعادتك يكفينى ، أيعد هذا كثيرا ؟

ـ اتمنى لك أكثر •

وأخذ يضحك فى انشراح •

ـ ليسمعك الله • وها قد بدأت تباشير الفرج ، فما كنت اتوقع ولو فى الحلم أنك ستستقبلنى هكذا •

ـ انها لحظة سعيدة تلك التى حضرت فيها •

ـ إنها سعيدة لى •

ربما • فلم يكون حظ الجميع واحدا ؟

كنت انظر اليه فى اهتمام ، وربما فى جنون وانعطاف ، وكاننى انظر الى نفسى فيما مضى ، أيام كنت صبيا غضا لم تصقله التجارب ولم

يعلق بقلبه غبار او تشب نفسه شـــائبة ، ولم يكن يخشى الحياة ٠ وبصـــعوبة بالغة تمالكت نفسى كى لا اهم بالقبض على يده ، تلك التى اشتد عظامها وبدت صـــلابتها وثقتها ؛ واستعيد مغمض العينين صور الماضى وذكرياته ٠ مرة فحسب ولو للحظة قصيرة ٠

رأى الشاب حزنا يرتسم فى عينى ، لا يتعلق به ٠ وسالنى وقد دفع عنه الحرج ماوجده من اهتمامى المفاجىء :

ـ انك تنظر الى نظرة غريبة ، كأنك تحاول أن تتعرف على ٠

ـ لقد أعدت الى ذاكرتى شابا مثلك حضر الى القصـــبة منذ زمن بعيد ٠

ـ ماذا كان من أمره ؟

ـ لقد أدركته الشيخوخة ٠

ـ لتكن هذه مصيبته الوحيدة ٠

ـ هل أنت متعب ؟

ـ لماذا تسال ؟

ـ أردت أن نتحدث ٠

ـ بامكاننا أن نقضى الليل فى الحديث اذا أردت ٠

ـ من أبوك ؟

ـ أمين بوشنياق ٠

ـ اذن نحن قريبان ٠ وقريبان جدا ٠

ـ نعم نحن كذلك ٠

ـ ولم لم تقل ؟

ـ كنت أنتظر ان تسال ٠

ـ كم عمرك ؟

ـ عشرون ٠

ـ انك لم تبلغ بعد التاسعة عشرة ٠

ـ انني أمر بها ٠

كانت شدة الانفعـــال تخنقني ٠ واخذنا نتحدث ، وكان حديثنا يتناوله ، كما يتناول الشيخ العجوز والناس الذين كنت أعرفهم ، متهربين من ذلك الأمر الوحيد الذى يعنيني ٠ وكنا نقوم بذلك لا لرغبة مني في التعرف على اخبارهم ، وانما لمجرد الحديث ، لمجـرد أن أمس كل شيء مادام أمر غريب قد حدث ٠ فقد تطوع القدر أن يرســله الى في هــذه الليلة بعينها ، لمجرد أن أشغل نفسي بالتفكير عن ذلك الذى كان حقيقة واقعة ذات مرة ، ثم أصبح الآن خيالات وأشباحا ٠ لقد كان هــذا كل ما أملك ٠ وبقي ما يخص الآخرين ٠ وبقي الفزع ٠

ـ كيف حال والدى ووالدتي ٠

ـ يمكن القول انهما بخير ٠ كان من الممكن ان يكون الحال أسوأ بالنسبة لهما ٠ لقد أثر فيهما مقتل هارون تأثيرا كبيرا ٠ كمـا أثر فينا جميعا كذلك ٠ والآن قد هدأت نفساهما بعض الشيء ، ولكنهما لا يزالان حزينين ، يقومان بمباشرة أعمالهـما الضرورية ، ثم يجلسان حول النار ويحدقان فيها ٠ انه الحزن ٠

وضحك ٠ وكان لضحكه رنين سار ٠

ـ عفوا ٠ يعتريني الضـحك حتى عندما أكون حزينا ٠ وهـكذا يعيشان ٠ ويقوم الناس بمساعدتهما على قدر اسـتطاعتهم ٠ ولا تزال لديهما بقية مما أرسلته اليهما ٠

ـ ماذا أرسلت ؟

ـ النقود ٠ الخمسين ريالا ٠ ان هذا المبلغ يعد عندنا ثروة حقيقية ثم انهما لايحتاجان الى الكثير ، فهما يأكلان مقدار ماتأكل الطيور ، ويرتقان ما يملكانه من ثياب ، واذن فحالتهما ليست ضنكا ٠

من الذى أرسل هذه الريالات الخمسين ؟ انه حسن دون شك ٠ ان هذه الليلة زودت بحنان لست في حاجة اليه ، انها ليلة الأخبار السارة ، تسبق أسـوأ ليلة ٠ منذ زمن بعيد لم تزرني ، وســوف لا أحظى بعد بزيارتها ٠

لماذا لا أقوى على السير معه الى النهاية ؟ فبعد هذه الفرصة لن يكون هناك حنان ٠ سوف يكون ذلك الذى يجب أن يكون ٠

- والداك ، كيف حالهما ؟ كيف حال امين ؟

- انهما بصحة جيدة والحمد لله • ولكن المعيشة جد متواضعة : فالزروع اما تذهب ضحية الفيضان ، واما تهلك بتأثير الحرارة • غير أن لوالدى سجية حسنة تحملنا على التقبل وتخفف علينا من وقع الأمور • وكثيرا ما يقول ان ضيق ذات يده تشكل احدى مصائبه ولو حزن لكان بذلك قد اتى بالثانية • وبهذا تصبح الأولى أقل واصغر •

- ووالدتك ! أتعرف أنك رحلت تقصدنى ؟

- نعم • كيف يمكن ألا تعرف ! لقد كان والدى يقول ! ان لديه ما يكفيه من الأعباء والهموم • وكانت هى تقول : انه على أية حال لن يكسر رأسه •

- أأدركتها الشيخوخة ؟

- لا •

- لقد كانت رائعة الجمال •

- أما زلت تذكر ؟

- مازلت •

- والآن لا تزال كما كانت •

- كان ذلك عندما عدت من الجيش • عشرون سنة قد مرت منذ ذلك التاريخ •

- لقد كنت جريحا •

- من أخبرك بهذا ؟

- والدتى •

نعم ، اتذكر ذلك • فى ليلتى هذه ، اتذكر كل شىء • كنت قد أتممت العشرين أو حاوزتها بقليل ، وكنت عائدا من الحرب ، من الأسر، وبجسمى جروح حديثة العهد ، قد التأمت لتوها ، واخرى لم تندمل بعد ، فخورا بشجاعتى ، وحزينا من أجل أمر بقى لى غامضا بعد أن حدث كل شىء • ربما كان ذلك من أجل الذكرى التى كنت استعيدها مرات اثر مرات ، من أجل قداسة التضحية التى ارتفعت بنا الى السماء فأصبح

من الصعب على الانسان بعد أن يرى سائرا يضرب مع الناس فى الأرض، شاعرا بالفراغ ، مدركا عدم تميزه ٠

مازلت أذكر ذلك اليوم الفريد ٠

وحتى فى الحلم رأيت تلك الصورة ٠٠ كان عددنا خمسين حين عزمنا فى صباح باكر ، وقد أدركنا أننا محاصرون بالعدو وأنه لا نجاة لنا ، أن نموت موت الشهداء ٠ وكنا نعسكر فى مرج وسط الأحراش ، يعلو سهلا واسعا حصدت بمجيء الخريف زروعه ، وعقدت فوقه سحب من دخان نيران العدو ٠ وقد استمع الزملاء الى نصيحتى وكنت واثقا من أنهم يعتقدون مثلما أعتقد ، وقمنا بالتيمم لعدم وجود المياه ، ثم أذنت ، دون أن أخفض صوتى ، وأدينا صلاة الصبح ، ثم خلعنا ملابسنا من أجل التخفف وبقينا فى قمصاننا البيضاء ، وبسيوف عارية خرجنا من الغابة فور أن ألقت الشمس بأشعتها على السهل ٠ لا أدرى كيف كنا نبدو ، تعساء أم أشداء ، ولم أفكر فى ذلك ، كنت أشعر فقط بالحرارة فى قلبى وبالقوة فى جسدى ، انها حرارة لم تكن تعرف الحدود ٠ وفيما بعد خيل الى أننى رأيت هذه السلسلة من الأبطال الشبان ، فى قمصانهم البيضاء ، وأذرعهم العارية ، وسيوفهم التى كانت تنعكس عليها أشعة الشمس المبكرة ، تخطو مصطفة الحلقات فى السهل ٠ وكانت هذه أصفى اللحظات فى حياتى ، وأعظمها انكارا للذات ، انها نور باهر يغشانى ، انها سكون مقدس لا يسمع فيه سوى وقع خطوتى ، وعلى بعد أميال ٠ وقد استغرب قره زاعم عندما قلت له ذلك ، اذ كان يظن أنه الوحيد الذى يعرف ماذا يخامر عقل المحارب ٠ (اننى الآن لاأنشد شيئا قدر ما أنشد أن يتملكنى ذلك الشعور ؛ ولكن ذلك أمر لا يمكن تكرره ٠ لقد كانوا يخافون منا ، وأخذوا يتقهرون أمامنا لفترة طويلة ، ويتربصون لنا كذلك ، وكان عددهم يفوق عددنا ، ثم بدأت تنهال ضربات دموية بيننا ، ولول من أجلها عدد كبير من أمهاتنا وأمهاتهم ، لقد كنت أول المتقدمين وأول من سقط ، جريحا ، مطعونا ، محطما ، ولكن ذلك لم يحدث فور بدء المعركة، ولا بعد نشوبها بقليل ٠ فقد ظللت أشهر أمامى سيفا ملطخا بالدماء ، اطعن به وأضرب كل من ليس على بدنه قميص ابيض٠وبتتالى القتال أخذ عدد القمصان البيضاء يتناقص ، اذ كانت تصطبغ بالحمرة كما اصطبغ قميصى ٠ وبدت السماء فوقنا أشبه بملاءة حمراء ، والأرض تحتنا أشبه بجرن أحمر ٠ وكانت الحمرة تكتنفنا ، ففيها ننظر ، ومنها نأخذ أنفاسنا، وفى وسطها نطلق الصرخات ٠ وفجأة أخذ كل شيء يضرب الى السواد ،

الى الهـــدوء • وعندما استيقظت لم يكن ثمة شيء يوجد ســوى ذكرى في داخلي • كنت أغمض عيني واحكي تلك اللحظة الكبرى ، دون رغبة مني في أن أعلم شيئا عن أمر الهزيمة ، أمر الجروح ، أمر مذبحة النخبة من الشباب ، ودون رغبة في ان أعلم أن عشرة منهم استسلموا بلا قتال ، كنت أرفض ذلك الذي كان ، ذلك الذي يبدو سيئا ، واحتضن في حرص وشغف تلك لصورة من التضحية الكبرى ، عندما اشتد القتال وبلغت المعركة ذروتها ، دون ان اسمح بأن تخف حدة لونها • وفيما بعد ، عندما تلاشى خداعي ، اخذت في البكاء • كنا في الربيع حين اخذت أسير في طرق موحلة، عائدا من الأسر، دون سيف ودون قوة ، وقد زايلني الانشراح وفارقتني نفسي السابقة • كنت أحافظ على ذكراي فقط وكأنها تميمتي ، ولكنها هي الأخرى كانت قد ضعفت بدورها ، وفقدت لونها ونضارتها ، وكذا حيويتها وأهميتها السابقة ، كنت أجر نفسي وقد لزمت الصـمت مجتازا وحل السهول المكفهرة العابسة ؛ وكنت اذا ما جن الليل أبيت صامتا في أكوام الحشائش اليابسة أو في احدى الحانات ، ثم أواصل السير يلازمني الصمت وتهطل على أمطار الربيع ، جاعلا اتجاهي بحسب ما يمليه على الظن كما يفعل الوحش ، مدفوعا برغبة تسيطر على في ان أموت في موطني ، وبين أولئك الذين منحوني الحياة •

حكيت للشاب ، بكلمات بســيطة عادية ، كيف كان حالي حينما وصلت الى القرية في ذلك الربيع قبل عشرين سنة • ولم يكن لما حكيته من سبب ، وانما كان من اجل نفسي ، كما لو كنت احكي لنفسي ، اذ لم يكن الأمر يتعلق به • غير أنه لو لم يكن موجودا لما كان باستطاعتي أن أحكي ، اذ كان في امكاني ان أحـكي لنفسي • كمـا ان فكري كان مشغولا بما سيحدث في غدي •

كان يحدق الى وعلى وجهه علائم الجد وأمارات الدهشة •

ـ ولو كنت سالم الجسم منشرح الصدر لما عدت الى الموطن ؟

ـ عندما تخيب آمال المرء يبحث عن الملجأ • ويرى ســعيه اليه بمثابة العودة الى بطن أمه •

ـ وبعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك ينسى • ويدفعه القلق للتحرك من جديد • وتلح عليه الرغبة في أن يكون ما لم يكن او كان • ويترك رزقه الذى قدر له لينشد رزقا آخر يفوقه •

ـ انه اذن تعيس ، باعتقاده أن رزقه دائمـا يكون فى مكان آخر ، ليس هو فيه ٠

ـ ربما ٠

ـ ولكننى لم افهم ما قصدته بذكرك النور والسنا فى جبهة القتال ، ولم تعد ظهورهما أصفى لحظة فى حياتك ؟

ـ لأن المرء اذ ذاك ينسى نفسه ٠

ـ وماذا يفيد من ذلك ؟ وماذا يفيد الآخرون أيضا ؟

ان هذا الشاب لن يعرف شيئا عن حماسنا ، ولا أدرى أيكون خيرا له أم شرا ٠

ـ وماذا كان بعد ذلك ؟

ـ ألم تحك لك والدتك ؟

ـ انها تقول انك كنت حزينا ٠

نعم ، لقد كنت حزينا ، وكانت هى تعلم ذلك ٠ تعلمـه قبل أن ترانى حين رجعت ٠ لقد شاع بين الناس أننى قتلت فى الحرب ، وكنت أشعر فى نفسى باننى هكذا ، واحس كمـا لو كنت قد رجعت من عالم الموتى ، أو لعلنى كنت أشعر باسوأ من ذلك ، كما لو كان طائر المـوت يحلق فوقى ، وكان شعورى هذا بدافع من الفراغ ، من خدر أحسه يسرى فى كيانى ، من الكآبة ، من الظلام ، من الخوف لعدم معرفتى ماذا كان حدث ، فقد كنت فى مكان ما ، يؤلمنى لمعان ضوء الشمس وانعكاسـاته الحمراء ، اذ كانا يتأججان فى الظلام أشبه بما يراه الانسان فى حالة المرض ، لقد تهدم شىء هناك حيث كنت ، كما تهدم هنا حيث كان يجب أن أكون ، واخذ ينهال كما تنهال رمال الشاطىء عندطغيان الماء ، ولا أدرى كيف استطعت أن أصل سابحا الى الشاطىء ، ولماذا كان منى ذلك ٠

كانت والدتى تخمـد الجذوات وتقوم بعمل التعويذات ، ملقية الرصاص الساخن وبعض الجمرات فى طاس ملىء ماء ووضع فوق رأسى ، لأننى كنت الزم الصمت فى اليقظة واصرخ فى أثناء النوم ٠ وكان أفراد أسرتى يذهبون الى شيوخ السحر كى يكتبوا لى بعضا من التمائم تبطل ما أكون قد صادفته من شر السـحر ، كما كانوا يذهبون بى الى المسجد ويقومون بتلاوة الأدعية ، ويظلون يطلبون علاجا لى من الله ومن الناس ،

وكان خوفهم يزداد بموافقتي اياهم على ما يريدون ، وبعدم مبالاتي بما يقومون :

ـ أذكرت لك والدتك شيئا آخر ؟

ـ نعم . ذكرت لي أن حبا كان يجمع بينكما . أما والدي فهو يضحك دائما عندما نأخذ في الحديث عن ذلك . ويقول انكما ـ أنت وهو ـ سعيدان . هو ، بما شاع بين الناس من أنك قتلت ؛ وأنت بما بقيت على قيد الحياة . ولو لم تكن قد سمعت بموتك لما وافقت على أن تكون زوجا له . وهكذا ظللتم على قيد الحياة ، واصبحتم ثلاثتكم سعداء .

انه يعلم كثيرا ، ولكنه لا يعلم كل شيء . لقد كانت تنتظرني حتى بعد أن سمعت بموتي ، ولوكان الأمر بيدها لظل انتظارها الى مدى يعلمه الله . انها لم تتزوج بل زوجوها بارادتهم . وحدث ذلك قبيل بضعة أيام من عودتي . لو كنت قد خففت من النوم ، ولوكنت قد وصلت الليل بالنهار في السفر ، ولو كان نيلي من التعب أقل ، ولو كانت السهول أقصر مدى ، والجبال التي كان على عبورها أقل ارتفاعا ، لوصلت في الوقت المناسب ولما تزوجت هي بأمين ، ولعلني لم أكن قد غادرت القرية ، ولما كان قد حدث شيء من هذا الذي يؤلمني ، لا موت هارون ، ولا هذه ليلتي الأخيرة . ومن يدري فلعلها كانت ؛ اذ لابد أن تكون واحدة منها أخيرة ، كما لابد أن يكون هناك ما يسبب الألم ، وعلى الدوام .

ويبدو أنه يريد أن يعلم فوق ما يعلمه .

ـ أكان الأمر صعبا بالنسبة لك عندما تزوجت والدتي ؟

ـ نعم . كان صعبا .

ـ ولذا كنت حزينا ؟

ـ كان حزني من أجل ذلك ، ومن أجل الجروح ، ومن أجل ما كنت أحسه من الارهاق ، ومن أجل الزملاء الذين قتلوا .

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ لا شيء . فكافة الأمور تنسى وتصبح كأن لم تكن .

ماذا ينتظر مني ان أقول ؟ انني لم أنس وان شيئا لا يزال يوجد ؟ أم انني لم أكن أبالي بالأمر ؟ ان تطلعه الى بهذه الصورة ينبيء عن

اهتمامه وتلهفه ، ولابد أن شيئا فى نفسه لم يتم اشباعه بعد • فضحكه متصنع ، كما لو كان يريد أن يخفى أمرا يساوره • أكان ذلك غيرة الابن على طهارة الأم ، تلك الطهارة التى لا يرغب أن يشك فيها ؟ ولكن شيئا كان يثيره ويحركه •

ـ يبدو أنك تحب والدتك كثيرا ؟

ـ وكيف لا احبها •

ـ الك اخوة واخوات ؟

ـ لا •

ـ أكنتم تتحدثون كثيرا عنى ؟

ـ نعم • أنا ووالدتى • أما والدى فكان يسمع ويضحك •

ـ من أرسلك الى ؟

ـ هى • ووالدى وافق •

ـ ماذا قالت لك ؟

ـ قالت لى اذا لم يقم أحمد افندى بمساعدتك فلن تجد من يساعدك •

ـ لقد وافق والدك وأنت ؟

ـ وافقت كذلك • وهأنا قد جئت •

ـ ولكنك تحس بحرج لمجيئك •

علاه الاحمرار ، واشتد وهج خديه اللذين لفحتهما حرارة الشمس، وقال مقهقها :

كنت أتعجب لماذا تقوم أنت بالذات بمساعدتى •

ـ لأننا ذووقربى •

ـ وهما يقولان أيضا مثل قولك •

ـ لقد قلت لأمين : عندما يكبر ابنك أرسله الى • وسوف اهتم به• ولعل ظروفى تمكننى من ذلك •

وكان ان كذبت كي أهدئه ٠

ويبدو انه أشد حساسية مما كنت أظن ٠ فقد وجد من غير اللائق أن يرجواني أنا بالذات ، وبدا له ذلك أمرا عجيبا ٠

أما أنا فما كنت أراه عجيبا ٠ وهأنا قد عرفت الآن ، بعد أن انتهى كل شيء ٠ انها لم تنسني ٠ ولا أدرى أكان يطيب لى ذلك ، لما كان من تلك الصورة المحزنة التى انتهى اليها الأمر ٠ انها كانت تذكرني كثيرا ، وهذا يعني أن فكرها كان مشغولا بي ٠ وهاهي تأتمنني على ابنها الوحيد ثقة منها بأنني سأساعده ، لكي لا يبقى من فقراء الريف ٠ انها تحبه دون شك ، وتحبه الى درجة جعلتها توافق على الفراق كي تفصله عن وحل القرية وعدم ضمان العيش فيها ٠ وربما كنت السبب الذى من أجله يرسل الناس أولادهم الى القصبة ، فقد كانت أخبارى السارة التى تصل الى مسامعهم تغريهم بذلك ٠

سوف تندمين أيتها المرأة الجميلة عندما تسمعين ٠

لا أدرى كيف تبدو الآن ، انني أذكرها بجمالها ٠ وكذلك بعلائم عذابها التى ارتسمت على وجهها ٠ ذلك الذى لم أر مثله قط فيما بعد ، والذى لم استطع نسيانه لفترة طويلة ، اذ أنني كنت سببا لهذا العذاب٠ من أجل هذه المرأة ، هذه الوحيدة التى أحببتها فى حياتى ، لم أتزوج ٠ من أجل تلك التى فقدتها ، من أجل تلك التى اغتصبت مني أصبحت أشد صلابة وأكثر عزوفا عن المشاركة بالنسبة للجميع : لقد كنت أشعر أنني سلبت ، ولم أكن أريد أن أمنح الآخرين ذلك الذى لم أستطع أن أمنحه اياها ٠ ربما كنت أثأر من نفسي ، ومن الناس ، عن غير قصد ، ودون معرفة مني ٠ لقد كانت تثير فى الألم وهي بعيدة ٠ ثم حدث أن أن نسيتها حقا ، ولكن ذلك كان متأخرا من الخسارة انني لم أمنح حناني واختزنته ، لم أمنح أحدا اياه ، لا أبوى ، ولا أخي ، ولا امرأة أخرى ٠ ولعلني أقول ذلك الآن دون ماسبب ، وقد أخذت أحاسب نفسي٠ لأنني تركتها أيضا وذهبت الى الحرب ، دون حزن مني ، غير أنني حزنت عندما لم يعد فى امكاني أن أغير شيئا ٠

وفى اليوم الثالث بعد عودتي ٠ وبعد أن ارهقتني عنايتها وهمومها من أجلي ، غادرت البيت ذات صباح ، وفجأة وجدتني على هضبة تطل على قريتي ، على الغابة ، على النهر ، وفى قفر تكثر فيه الصخور ويحلق فوقه النسور لمست بكفي شاهدا صخريا كبيرا يقف منفردا بين قفر

السماء والأرض . وقدظل ساكنا كحاله على مر العصور ، لم يكشف لأحد عن شيء ، وكنت انصت لأسمع صوت الحجر ، أو القبر ، كما كان بباطن الأرض يكمن سر الحياة والموت ، ثم اذهب لأجلس على حافة الهاوية ، مطلا على غابات وصخور لانهاية لها ، ومستمعا الى صفير يشبه صفير الأفعى ترسله الرياح العالية ، بقفرين قفر وحدتي وقفر عدم وجودي ، كما هو الحال مع الميت القديم الذى يرقد تحت الصخرة المنبسطة : ـ يا ! ـ كنت اناديه ، ذلك البعيد ، صائحا باعلى صوتي في فراغ الزمن ، وكان صوتي يتهادى عبر الأحجار المدببة . صوت لا يشركه غيره ، ورياح تفردت في هذا المكان .

ونزلت بعدئذ الى الغابة ، واخذت أسير حيث كنت أضرب بجبهتي فروع الأشجار ، واحطم ركبتي بما تشابك واعوج من الجذور ، وأتوقف بين تلك الأذرع الممتدة للشجيرات ، وأعانق اشجار الزان ، واضحك ، واقع واضحك ، ثم أقوم واضحك . ـ يا ! ـ كنت انادى ذلك البعيد المنفرد ، الذى اراد وهو مسجون في قبره أن يكون في الأعالي . ـ يا !ـ كنت أصيح واضحك وانا أولى هاربا .

تفاديت المرور في قريتها ، كي لا أراها ، وانحدرت الى النهر ، حيث لا توجد عزلة ولا يتسنى انفراد ، حاملا عزلتي في ذلك المرتفع وآتيا بها من البعد الى هذا المكان ، واخذت اغدو وأروح على الشاطىء المعبد للنهر ،وأنزل الى المنطقة التي يضمحل فيها الماء ، ثم أصعد وأكرر ذلك ، كأنني ثمل ، وقد اغرتني قرقرة المياه في مجراها السريع ، واحيانا كنت اقف والماء يغمرني الى ركبتي واتصور انني آخذ في الغرق ، اغوص واغوص ، وأصل الى الدوامة ، ويزداد غوصي حتى يرتفع الماء الى ذقني ، الى شفتي ، ويصل الى قمة رأسي ، واحس بخرير المياه فوقي ، وبالهدوء الأخضر حولي ، وبالحشائش المتمايلة تلتف حول قدمي ، وأنا أتمايل كذلك تمايل السنبلة على عودها ، وبالأسماك الصغيرة تدخل في فمي وتخرج من أذني . وبسرطان النهر يتشبث بأصابع قدمي ، وبسمك بطيء كبير يحتك بفخذي في تراخ وكسل . صمت وسكون ، ولم أكن ابالي . ـ يا ! ـ كنت أصيح بلا صوت ، ثم اجلس في غابة الشجيرات بين نهر وطريق ، بين حياة وموت .

لا أحد يوجد ، ولا أحد يمر بهذا الوادى الصغير بين القريتين ، فالناس فى حقولهم وحول بيوتهم ، وأنا وحدى يطيب لى الم عزلتى ، احس بالحزن من أجلها ، ولكننى لست على استعداد لأن أرضى بها بديلا ٠

وعلى أشجار الحور يحط اليمام ، وفى ضحل النهر يستحم الحمام ، نائرا بأجنحته المنشورة قطرات من حوله تبدو خضراء وحمراء ، وعلى البعد ، فى مكان ما يقرع ناقوس متثاقل ٠ منطقة معروفة ، ألوان مألوفة، رنات عرفتها الأذن ؛ أنظر حولى : هاهى أشيائى ، اشم : هاهى رائحة هوائى ، واصيخ السمع : ها هو ما أسمعه فى أرضى وسمائى ٠

غير أن هذا الفراغ أعده أيضا فراغى وكذا ما قد عدمت وجوده ٠

لقد كنت تواقا لأن اجىء هنا ، كنت أشم الرياح ، كما يفعل الذئب ، وكانت رغبتى تهدينى الطريق ، وهاأنا الآن هنا ، ولم يحدث العجب الذى كنت آمل حدوثه ، وعلى الرغم من ذلك فالأمر حسن ، وجميل ، وهادىء ٠هادىء كما هو الشأن فى الحلم ، أو كما هو الحال فى النقاهة ٠

ها أنا أمد راحتى والمس العشب الغض الذى انبثق لتوه من الأرض، والبض الذى يحكى بشرة الطفل ، وانسى الأرض التى دبت فيها الحياة ٠

كنت افكر فى موطنى ، وفى بيتى الذى ولدت فيه ، وأنا أغذ السير كى أصل الى هذا المكان ، كما كنت افكر فيها فى بعض الأحيان ٠

أما الآن فاننى افكر فيها فحسب ٠

لو انتظرتنى لكان افضل ـ بهذا كنت أهمس فى نفسى ـ ولكان ايسر ٠ لا أدرى لماذا ، ولكنه على أية حال كان ايسر ٠ ربما تكونين أهم من الموطن ، من مكان ولادتى ، فى هذا الوقت ، بعد اذ فقدتك ٠ ليتك غادرت دنياك اذ بذلك يكون الأمر أيسر وأفضل ٠ بدونك يزداد الملى بما قطعت مسافات طويلة واجتزت من أماكن خالية ، وبما مر بى ويمر من احلام عجيبة فى نومى وفى يقظتى ، لست أقوى بدونك على صدها وابعادها ٠

اننى لا أشعر بحزن ، ومهما يكن فانا انادى ظلها ، صورتها التى تلاشت منذ زمن ، كى أودعها ، للمرة الأخيرة ، كى اتركها مرة ثانية ٠

ونجحت في استدعائها ، في خلقها من شجيرات دقيقة خضراء ، من انعكاسات ترى على صـــفحة الماء ، من شلالات الضياء تسـكبها الشمس .

مثلت أمامي على البعد جسما يـكونه الظلال . ولو حدث ان هب النسيم لتلاشت .

واتمنى هبوبه واخشى أن يهب ..

تحدثت اليها قائلا :

ـ كنت أعلم أنك ستحضرين .

واردفت على الفور :

ـ لقد تأخر حضورك ، ولم يعد يوجد سوى ما يدور بخاطرى من افكار . فهيا كي نزيل ما بقي ايضا .

ثم قلت لها مودعا :

ـ في سلامة الله . لن أسمح بأن تطارديننى كشبح . انك دائما تقفين بين هذه الجبال ، أشبه بالقمر ، بالنهر ، بالشارة في أعلى المئذنة ، بالطيف المضيء ، وقد ملأت بجسمك هذا الفراغ كما تملئينه في المرآة ، ورويته بعطرك كما ترويين السرو . سوف اغادر هذا المكان منطلقا الى العالم ، الى حيث لا توجدين ، وفي ذلك المكان الآخر لن تستطيع ان تدنو مني صورتك .

سألتني :

ـ لماذا تسند وجهك الى راحتيك ؟ اأنت حزين ؟

سوف أرحل ، قلت هذا ، واغمضت عيني ، مطبقا اجفاني كعدسة المصورة عند التقاط منظر ، أو كباب صفقته فاندفع ينغلق ، وذلك لكي أسجن صورتها المتماوجة داخل نفسي . سوف ارحل ، لكي أنظر اليك ، لكي لا أفكر في خيانة .

ـ أتعرف كيف كان حالي ؟ أتعرف حالي الآن ؟

سوف ارحل ، كي لا اكرهك ، كي يكون الأمر كان لم يكن . لقد القيت بأجزاء صورتك في طرق بعيدة ، وسوف تذروها الرياح وتبليها الأمطار كما آمل . ومن نفسي سوف تمحوها اصابتي .

ـ لماذا رحلت فى أيام الخريف ؟ يجب على المرء الا يرحل مادام لديه أسباب تدعوه للبقاء ٠

ـ كنت مضطرا للرحيل ٠

ـ لقد تركتنى ٠ فعن أى شىء كنت تبحث فى العالم ؟ لقد رجعت ومعك حزنك ٠ أهذا كل ما حصلت عليه ؟

ـ كنت حزينا بسبب الجروح ، بسبب الارهاق ، بسبب الزملاء القتلى ٠

ـ وكنت حزينا من أجلى أيضا ٠

ـ نعم وكنت حزينا من أجلك كذلك ، ولكنى لا اريد أن أعترف لك ٠ كنت أقضى ليالى وأياما فى السفر كى أراك ٠ وكنت استلقى فى الليل تحت أشجار الغابات ، أحس الجوع واشعر بآلام الكدمات فى قدمى ، وأرى أننى قد تصلبت بتأثير الأمطار الباردة ، وكنت أنسى كل شىء حين آخذ فى التحدث معك ٠ وكنت أقطع طرقا لا نهاية لها ، وكان من الممكن أن ينتابنى الخوف من عددها ومن تلك المسافات الشاسعة والأجزاء المترامية الأطراف فى هذا العالم ، لو لم أكن قابضا على يدك وأسير محاذيا اياك ، يلتصق فخذى بفخذك وجانبى بجانبك ، متلهفا أن أصل الى الطريق السوى كى أغمض عينى لتكونى أشد قربا منى وأكثر وضوحا أمامى ٠ لماذا تبكين ؟

ـ استرسل ، مبينا كيف كان تفكيرك عنى ٠

كان وجهها شاحبا ، وباسفل عينيها ظلال سميكة لأهدابها ، وعلى الأرض كانت ركبتاها المتضامتين ترتجفان وبجانبهما كفاها تلمس وجه العشب كما كانت كفاى منذ قليل ٠

ـ لماذا حضرت ؟

ـ أتريد ان ننطلق معا الى العالم ٠ سوف أترك كل شىء وأهرب معك ٠ لقد مرت ثلاثة أيام وهى زوجة لآخر ، وقد أبقت يداه أثارا على جسدها ، وأزال فمه شفوفيتها التى كانت تنعم بها ٠

قلت هذا ، وقد اعترانى الفزع ٠

وفى غموض ودون وعى نطقت لتجيب عن سؤالى :

ـ من أجل هذا بالذات ٠

قبضت على زنديها كما يقبض الغريق ، امسكتها وهي ملك لآخر ، دون أن أبالي ، امسكتها وكأنها ملكي منذ عهد بعيد ، لم يكن يعنيني ذلك العهد البعيد وانما كانت تعنيني تلك اللحظة ، الوحيدة ، الهامة ، التي كانت تمحو الزمن ، والحزن كذلك ، وانغرزت أصابعي المرتجفة في جسمها كأنها المسامير ، لم يعد باستطاعة أحد أن ينتزعها مني ، وهي حية ، كنت أطبق عليها ببراثني الحادة ، وقد تسمرت بالأرض ، وجف بجانبي النهر فلم يسمع له خرير ، ولم يعد يسمع سوى دقات نواقيسي ، المجهولة ، التي لم تكن قد تحركت الى الآن ، كانت جميع نواقيسي تدق كأنها تنذر بالخطر ، سوف يتجمع الناس ، ولا يهمني امرهم ، فلا وجود لهم ، يا حلمي الذي أصبحت ضحية ٠

واذ ذاك توقفت النواقيس ، وعاد الناس ، وفتحت عيني ورأيتها ، حديثة الميلاد ، مخنوقة ، بيضاء ، كفيء وسط أعشاب خضراء ، قد استحالت الى مروشفاف ، والتصقت بالأرض ، واخذ الخشخاش يزهر من ابطها ، وزهرة الثلج تترعرع بين فخذيها ، وبراعم أشجار الحور تتساقط على بشرتها المتلالئة ، أأتركها كي توريها البراعم ، أم اهبط بها الى دوامة النهر ، أم أحملها الى المرتفع الذي يشرف على الغابة واتركها تحت كومة من الأحجار هناك ؟ أأستلقي بجوارها ، واستحيل عشبا من أعشاب الربيع وعودا من أعواد الصفصاف ؟

وذهبت دون أن استدير ، ولا أدري أكان منها نداء أم لا ، واختزنتها ، غريبة ، في ذاكرتي كشاهد يعلن قبرا أو ينبيء بموت شهيد ٠

ـ يا ! ـ هكذا كنت ألقي بصيحاتي في بعض الأحيان عبر مسافات السنين ، مناديا تلك الكومة الربيعية البيضاء ، ولكنني لطول البعد لم أكن أتلقى استجابة لهذا النداء ٠

وهكذا حال النسيان بيني وبينها ٠

لو لم يحضر ابنها في هذه الليلة بالذات لما تذكرتها الآن فيما أعتقد ٠ ومن يدري لعله ابني كذلك ٠

انني أعلم أن باستطاعتي أن أقول ، كما يقول كل أحمق : لو لم يحدث ذلك الذي حدث ، لكانت حياتي على خلاف ماكانت ٠ لو لم أذهب

الى الحرب ، وأهرب منها ، وأدعو هارون الى القصبة ، ولو لم يكن هارون .. انه لشيء مضحك ، ماذا كانت حياتي اذن ؟ ولو لم أترك الفتاة التي أحببتها ، ولو لم يكن الهرب يبدو لي أيسر من معاندتي للعالم أجمع ، لما كانت ربما هذه الليلة . على انني استطيع أن أذكر انه لو لم يحدث ذلك كله لكرهت هذه المرأة ، ظانا أنها وقفت في طريق سعادتي وحالت بيني وبين نجاحي في الحياة . اذا ما كنت اذ ذاك أعرف هذا الذي أعرفه الآن . ان الانسان ملعون ، فهو يتحسر على جميع الطرق التي لم يمر بها . ومن يدري ماذا كان ينتظرني في الطرق الأخرى .

انطلق الشاب يقول ، وقد بدأ النوم يداعب اجفانه :

ـ لقد حصلت على سعادتك بتركك القرية .

ـ اذهب ، ونم ، فانك متعب .

ـ لقد حصلت على سعادتك بتركك القرية .

ـ سوف أوقظك في الصباح الباكر ، فأنا مضطر الى السفر .

ـ بعيدا ؟

ـ اين الحافظ محمد سوف يتولى امورك ويعمل على راحتك ، أترغب أن تكون في التكية ؟

ـ الأمر سواء بالنسبة لي .

ولي أيضا . فليختر بنفسه ، ليجرب . لا أستطيع أن أساعده في شيء . وليس باستطاعة احد ان يساعد احدا .

كان يريد أن يقبل يدي ، فهكذا نصحوه دون شك ، لكي يرضيني، ويعلن شكره الذي لا يشعر بوجوبه . ولكنني لم أسمح له بذلك .

وذهب ، متعبا ، فالطريق بعيدة من القرية الى القصبة (وتعد أبعد من القصبة الى القرية) ، وربما انتابه شيء من الدهشة لانتهاء الأمر على ما يرام ، وربما أدركه شيء من الحزن لبقائه هنا . لقد كان لقاؤنا فاترا يكاد يشبه لقاء الغرباء .

وكدت مشمئزا أن أفكر كيف كان من الممكن أن يكون لقاؤنا على خلاف ذلك : أن أعانقه ، أن أتبادل واياه القبل ، أن أسدي اليه عددا من النصائح الحكيمة ، أن أضغط مغرورق العينين على يده البارزة

العقد ، هامسا فيحزن : ابني ، أن ابحث في بلاهة عن علاماتي في وجهه، أن أرققه بصورتي الأخيرة التي ستبقي له على الأيام ذكرى • وحقا كان من الخير ان يكون له بمثابة الذكرى شيء اروع جمالا وأعظم حكمة •

نعم ، كنت اقف على راس سريره وبيدى شمعة ، وكان مستغرقا في نوم بلغ الغاية من العمق ، نوم لا يعرفه سوى الشبان والحمقى ، وبلا جدوى كنت ابحث عن شيء من حنو او انعطاف في نفسي نحوه • وكان الضوء الذى نشرته الشمعة يتراقص على الأجزاء البارزة من وجهه ، وكان صدره القوى يتنفس في اطمئنان ، وفمه القوى الشبيه بفمي ، يبتسم لشيء تركه ، ولم ينفصل عنه بعد • ودار بفكرى : سوف يخلفني في هذا المكان ، وفي هذه الحياة أيضا ، قطعة لعلها من صلبي ، أنا في سابق عمرى ؛ وتأخذ الحياة في الاستمرار • ولكن شيئا لم يتحرك في نفسي ، وظلت الفكرة التي كنت ألزم نفسي بها على ماهي عليه من فتور ، فما وجدتني انحني عليه لأقبله أو أمرر راحتي عليه • لست قادرا على الحنان •

وعلى الرغم من ذلك فانني أتمنى لك حظا سعيدا أيها الرجل الشاب •

في مكان ما ، من هذا الظلام المحيط ، أعلن الخفير منتصف الليل • منتصف ليلي الأخير ، يومي الأخير : فبنهايتي سأستقبل بدايته •

انني أعلم ذلك ، وعجب أن يبدو كل ما يجب أن يحدث ، بعيدا ، وغير متصور الوقوع على الاطلاق • وأراني الآن على يقين ثابت من أن حدوثه لن يكون • اعلم انه سيكون ، ولكن شيئا في نفسي يبتسم ، يقاوم ، يصد ، سوف يحدث ، ولكنه يبدو مستحيل الحدوث ، وهذا الذى اعرفه لا يعد كافيا لينهض دليلا على أن شيئا لابد أن يكون • ومازال القلب بنبضاته يعلن عن تدفق الحياة ، ولست اعقل أن اتصور نهايتها• وربما أيضا من أجل هذا الذى اكتبه لم استسلم للموت ، بل اعمل على صده •

غير انني بعد أن القيت بقلمي لم استطع لفترة طويلة أن أتناوله بيدى الخدرة ، بسبب ما كان من ارهاقي او ضعف عزيمتي ، وبسبب تفكيرى الذى أعلن في جبن عن نفسه ، ممليا على الا فائدة فيما أفعله ، ولما أصبحت وحيدا دون دفاع ، انبعث العالم حولي • وما هذا العالم سوى الهدوء والظلام •

قمت واقتربت من النافذة المفتوحة · لم يكن هناك سوى سكون ، سوى ظلام · سكون مطبق · سكون نهائى · لا وجود لشىء فى أى مكان ، ولا وجود لأحد · لقد توقف النبض حتى فى العرق الأخير ، وخبت الأضواء حتى الضوء الأخير · لا صوت ، ولا نسمة ، ولا ذرة من ضياء ·

أيها العالم ، أيها الخراب ، لماذا تبدو فى هذا الوقت بالذات هكذا ؟

واذ ذاك فى هذا الصمم ، فى هذا الموت ، سمع صوت ينطلق من مكان ما صوت سار ، شاب ، طاهر ، واخذ يترنم باغنية عجيبة ، تبدو حالمة هادئة ، ولكنها ترى نضرة مناهضة · كانت اشبه شىء بتغريد الطير وفجاة اختفى الصوت كما ظهر · لعله اختنق كالطير ·

ولكن بقى فى نفس حيا ، واكسب قلبى رقة وحنوا ، لقد أثارنى وأيقظ مشاعرى هذا الصوت الانسانى المجهول الذى لو سمعته من قبل لما التفت اليه · ربما كان ذلك لأنه ظهر فى هدوء كهدوء العالم الآخر ، وربما لأنه لم يكن يخاف ، او لأنه كان يخاف ، او لأنه كان قد ظهر معزيا ومشجعا لى ·

وظهر حنانى المتأخر ، واندفعت انادى ، أيها الرجل ، أنت يامن تغنى فى الظلام الرهيب · اننى اسمعك · ان صوتك الهش يبدو لى كموعظة · ولكن فيم نفعه الآن ؟

آين أنت يا اسحاق ، يأيها المتشرد ، أكنت موجودا فى وقت من الأوقات ؟

انك خدعة كبيرة أيها الطائر الذهبى !

فى الغرفة الأخرى ينام الحافظ محمد ، وربما علم بامرى وينتظر ان اناديه او اذهب اليه ، تاركا اياى لأقوم بتصفية الحساب مع نفسى ، واتوجه الى الله طالبا منه الرحمات · ومما لا شك فيه أنه يبكى الآن بدموع الشيوخ الضعيفة ، وهو يرثى لحزن هذا العالم · انه يرثى لجميع الناس لا يحبهم بطريقة وانا لا أحبهم باخرى · ولذا فنحن نشعر بالانفراد ·

ولربما رثى لنفسى خاصة ، لعله فصلنى عن هؤلاء البائسين واحتضننى على أنه رجل أخير يقوم باحتضان الرجل الأخير ·

أقصده قائلا : انني وحيد يا حافظ محمد ، وحيد وحزين ، مد يدك وللحظة فحسب كن صديقا لي ، أبا ، ابنا ، انسانا عزيزا يسرني قربه مني ، دعني أبكي على صدرك اليابس ، وابك انت أيضا ، من أجلي، لا من أجل جميع الناس ، وضع كفك الرطب على يافوخي ، ولن يستمر ذلك طويلا ، فانا بحاجة الى ذلك لفترة قصيرة ، فها هي الديوك الأولى أخذت تصيح ٠

الديوك الأولى ! الابواق الحاسدة تحرض الزمن ، تلكزه لكيلا يظل نائما ، تستعجل المصائب ، تنهضها من عشاشها ، كي تنتظرنا منزعجة ثائرة ٠ كفى عن الصياح أيتها الديوك ، وتوقف عن السير أيها الزمن !

أأصيح في الليل ، أأنادي الناس ، أأطلب المساعدة ؟

عبثا أحاول ٠ فالديوك قساة ٠ وها هي تواصل انذارها بالخطر ٠

انني أجلس الآن جلسة التشهد واستمع ٠ وفي سكون الغرفة ، في مكان ما من الجدار ، من السقف ، من الرحب الذي لا يرى ، أخذت تدق ساعة القدر ، معلنة سيره المندفع ، لا يمكن توقفه وليس له بحال أن يعود ٠

وطغى على الخوف طغيان المياه ٠

ان الأحياء لا يعرفون شيئا ٠ فعلموني ، أيها الموتى كيف يمكن الموت بلا خوف أو على الأقل بلا فزع ، اذ الموت لا مفهوم له كما هو الحال بالنسبة للحياة ٠

« ن ، والقلم وما يسطرون
والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى
والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها
لا اقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفس اللوامة
والعصر ان الانسان لفي خسر » ٠

وكتب حسن بن علي

بيده :

لم أكن اعرف انه كان تعيسا
الى هذا الحد ٠

رحمة وسلاما على روحه التي تعذبت !

١٩٦٢ ـ ١٩٦٦

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٢٦٩٦/٩٧١



الثمن ٩٠ قرشا

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر


GREAT IS OUR GOD
حصريات مجلة الابتسامة
WWW.IBTESAMA.COM
مجلة الابتسامة